وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية

١٥٠٠ - ١٧٨٩

الدكتور

محمد محمد صالح

تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية

١٥٠٠ - ١٧٨٩

تأليف

الدكتور محمد محمد صالح

كلية الآداب جامعة بغداد

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

المحتويات

المقدمة

الفصل الاول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الهنسية ، ظهور العملة والبنوك والرأسمالية الاولى ، التجارة بين اوربا وآسيا ودور العرب في نمو التجارة .

(ب) الاستكشافات الجغرافية والتوسع الاوربي

اسباب الاستكشافات الجغرافية ، الاستكشافات البرتغالية ، الاستكشافات الاسبانية ، الامبراطوريات الاستعمارية البرتغالية والاسبانية .

(جـ) ظهور الرأسمالية الحديثة ، تعريف الرأسمالية ، التجارة الايطالية وعائلة مديتشي ، الرأسمالية والتوسع الاوربي ، عدم ظهور الرأسمالية في اسبانيا والبرتغال ، انتقال الرأسمالية الى المانيا والاراضي المنخفضة ، عائلة فوگر الرأسمالية ، تأثير الرأسمالية على الزراعة والصناعة .

(د) المذهب التجاري والتجارة الوطنية ، تأثير الرأسمالية على المجتمع الاوربي .

الفصل الرابع

(٤) الثورة الدينية والاصلاح الديني

(أ) مقدمة ، (ب) الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى ، (جـ) أسباب الثورة الدينية ، المساوىء السياسية ، المساوىء الاقتصادية ، المعارضة الدينية قبل لوثر ، (د) مارتن لوثر وثورته ، انتشار اللوثرية ، ظهور الكنائس البروتستانتية الاخرى : الكلفنية ، والانكليكانية ، والكنائس البروتستانتية المتطرفة ، (هـ) اصلاح

الكنيسة الكاثوليكية ومجمع ترنت ، الحركة اليسوعية ، (و) نتائج الثورة الدينية .

الفصل الخامس

(٥) الاحوال السياسية في اوربا في القرن السادس عشر

(ا) عصر الامبراطور شارل الخامس : انتخاب شارل امبراطورا ، صفاته ، مشاكله الادارية ، مشاكله الخارجية ، حروبه مع فرنسوا الاول ملك فرنسا ، حروبه مع الدولة العثمانية ، اسبانيا في عهد شارل .

(ب) انكلترا في عهد هنري الثامن ، (جـ) اسبانيا في عهد فيلب الثاني ، ثورة الاراضي المنخفضة ، (د) انكلترا في عهد الملكة اليزابيث ، (هـ) فرنسا في عهد هنري الثاني واولاده الثلاثة ، الحروب والمذابح الدينية في فرنسا ١٥٥٨ــ١٥٩٨

الفصل السادس

(٦) اوربا في القرن السابع عشر :

(ا) المجتمع الاوربي في القرن السابع عشر ، (ب) الامبراطورية الرومانية المقدسة وحروب الثلاثين سنة ، أدوار الحروب الثلاثين سنة ، معاهدة وستفاليا ١٦٤٨ ، نتائج الحروب الثلاثين سنة ، تدهور اسبانيا والبرتغال في القرن السابع عشر .

الفصل السابع

(٧) فرنسا في القرن السابع عشر

(ا) عصر تعاظم فرنسا : عائلة بوربون والحكم المطلق ، هنري

الرابع اول ملك بوربوني ، لويس الثالث عشر والكاردينال رشيليو ، (ب) عصر لويس الرابع عشر ، الكاردينال مازارين الوصي على الملك الصغير ، (ج) لويس الرابع عشر والحكم المطلق : صفاته ، نظريته في الحكم ، التنظيم الاداري ، كولبير ومشاريعه الاقتصادية ، نقائص عهد لويس الرابع عشر ، سياسة لويس الخارجية وحروبه ، معاهدة أترخت ١٧١٣ .

الفصل الثامن

(٨) انكلترا في القرن السابع عشر :

(أ) عهد آل ستيوارت : جيمس الاول ملك انكلترا ، صفاته وصراعه مع البرلمان ، ظهور البيوريتان ... في البرلمان ، سياسة جيمس الخارجية ، (ب) الملك شارل الاول : صفاته وصراعه مع البرلمان ، الحكم الفردي ١٦٢٩ ــ ١٦٤٠ ، (ج) الحرب الأهلية والثورة الانكليزية ١٦٤٢ــ١٦٤٩ ، (د) دكتاتورية اوليفر كرومويل ، (هـ) استعادة الملكية في انكلترا : شارل الثاني وجيمس الثاني ، (و) الثورة الجليلة ١٦٨٩ ، (ز) ظهور الاحزاب السياسية في عهد وليم الثالث ، نشوء الوزارة .

الفصل التاسع

(٩) ظهور الامبراطورية الروسية

(أ) ايفان الرهيب (الرابع) حفيد ايفان الثالث ١٥٣٣ــ١٥٨٤ ، (ب) عصر الاضطرابات والحرب الأهلية ، ١٥٨٤ــ١٦١٣ : بوريس گودونوف والبرنس شويسكي ، (ج) عائلة رومانوف : ميخائيل رومانوف ينتخب قيصرا ١٦١٣ــ١٦٤٥ ، (د) التوسع الروسي والثورات

الداخلية ١٦٤٥–١٦٨٩ ، (هـ) بطرس الكبير ١٦٨٩–١٧٢٥ : صفاته ، اصلاحاته ، سياسته الخارجية ، حروبه ، السويد في القرن السابع عشر ، معاهدة ستوكهولم ونيستاد ١٧١٩ ، ١٧٢١ .

الفصل العاشر

(١٠) المجتمع الاوربي في القرن الثامن عشر ١٧١٥–١٧٨٩

(أ) نظرة عامة في المجتمع الاوربي في القرن الثامن عشر .

(ب) فرنسا في عهد لويس الخامس عشر ١٧١٥–١٧٧٤

(جـ) الامبراطورية النمساوية ونهوض بروسيا : مقدمة : بروسيا في عهد الناخب الكبير وفردريك وليم الاول ، فردريك الثاني الكبير ١٧٤٠–١٧٨٦ ، النمسا في عهد ماريا تريزا وجوزيف الثاني ، حروب فردريك الكبير .

(د) روسيا في عهد كاترينا الثانية : مقدمة عن الفترة بين وفاة بطرس الكبير واعتلاء كاترينا الثانية العرش ١٧٢٥–١٧٦٢ ، كاترينا الثانية وصفاتها ، سياستها الداخلية ، سياستها الخارجية ، تقسيم بولندة ، الحرب مع الدولة العثمانية ومعاهدة كجك كنارجي ١٧٧٤ .

(هـ) انكلترا في عهد آل هانوفر ، عهد الملكين جورج الاول وجورج الثاني ١٧١٤–١٧٦٠ ، السير روبرت والپول اول رئيس وزراء انكليزي ، وليم پت الكبير وحرب السبع سنوات ، الدستور الانكليزي في القرن الثامن عشر ، محاولات الاصلاح البرلماني ، شارل جيمس فوكس ودعاة الاصلاح ، وليم پت الصغير ، الرخاء الاقتصادي والتقدم الزراعي في انكلترا .

الفصل الحادي عشر

(١١) الصراع الاستعماري في القرنين السابع عشر والثامن عشر

(أ) الرواد الاوائل : البرتغاليون والاسبان ، تعاظم التجارة الفرنسية ، التجارة الهولندية والاستعمار الهولندي ، الحرب التجارية بين انكلترا وهولندا .

(ب) الصراع الانكليزي الفرنسي : فرنسا في امريكا ، الصراع الانكليزي الفرنسي في الهند ، توتر العلاقات الانكليزية الفرنسية في المستعمرات ، التحالف الانكليزي الهولندي ضد فرنسا ، انتصار انكلترا على فرنسا .

(ج) الهند البريطانية .

(د) اكتشاف استراليا .

الفصل الثاني عشر

(١٢) ظهور الولايات المتحدة الامريكية

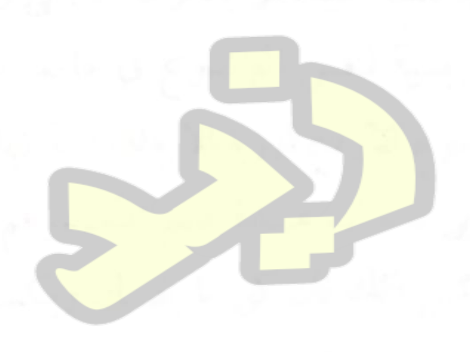
(أ) المهاجرون الاوائل ، (ب) تأسيس المستعمرات الانكليزية في امريكا ، الاقتصاد الامريكي ، العلاقات الانكليزية الامريكية قبل الثورة (ج) الثورة الامريكية : المجتمع الامريكي قبل الثورة ، القيود على المستعمرات ، المؤتمر القاري الاول ١٧٧٤ ، (د) اعلان الاستقلال ، رد فعل بريطانيا ، معاهدة باريس وفيرساي ١٧٨٣ ،(هـ) الولايات المتحدة الامريكية .

الفصل الثالث عشر

(١٣) الحركة الفكرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر

(أ) التقدم العلمي ، (ب) تأثير الحركة العلمية على الدين ،

(جـ) عصر العقل والاستنارة (التنور) ، ظهور الدين الطبيعي ، نهاية اليسوعية ، تأثير الحركة العقلانية والاستنارة على العلوم الاجتماعية والسياسية العالمية ، الحركة الانسانية ، التنور وكتابة التاريخ ، (د) بقاء الكلاسيكية في الادب والفن ، (هـ) الحركة الروماتيكية ، تأثير الحركة الروماتيكية على الادب والفن والموسيقى .



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

يعالج هذا الكتاب تأريخ اوربا الحديث منذ عصر النهضة حتى الثورة الفرنسـية ، مع التأكيد على الناحيـة السياسية والفكرية دون اهمال القضايا الاجتماعية والاقتصادية • وهو الجزء الاول من مسلسلة تأريخ اوربا الحديث التي ظهر منها تأريخ اوربا الحـديث من ١٨٧٠ الى ١٩١٤ • ويلي هـذا الجزء تأريخ القرن العشرين منذ بداية الحـرب العالمية الاولى •

وهذه المسلسلة من تأريخ اوربا الحديث حصيلة سنوات التلمـذة في جامعـة شيكاغو بالدرجة الاولى واكثر من عشرين سنة من الحيـاة التدريسية لنفس الموضوع في جامعة بغـداد • ولا يمكن التخصص في موضوع كتأريخ اوربا الا بالدراسة في الجامعات الغربية والبقاء في المجتمع الغربي سنوات عـدة لفهم افكـارهم ومؤسساتهم وطرق معيشـتهم • وبعكس ذلك فان كل ما يقـال ويكتب عن الموضوع لا يتعـدى كونه تهريج وشعوذة •

وقد جاء هذا الكتاب مطابقا لمنهج تأريخ اوربا الحديث من النهضه الاوربية الى الثورة الفرنسـية الذي يدرس في جامعـة بغداد ، ويمكن الاستفادة منـه من قبل القراء خارج الجامعـة لمعرفة تطـور الحضارة الاوروبية السياسية والاجتماعية والثقافية خلال هذه المده .

الفصل الاول

الافكار والنظم السياسية في اوروبا في القرن السادس عشر

المقدمة

سادت في اوروبا في اواخر العصور الوسطى مؤسستان رئيسيتان هما : الكنيسة المسيحية المتمثلة في الكنيسة الكاثوليكية في روما ، والامبراطورية الرومانية المقدسة . وكانت المؤسستان في صراع مستمر منذ القرن الحادي عشر على السلطة الزمنية ، مما أدى الى اضعاف المؤسستين وظهور الدول القومية الحديثة . كما انشقت الكنيسة الكاثوليكية بسبب الثورة الدينية التي فجرها مارتن لوثر سنة ١٥١٧ ، فظهرت كنائس قومية بروتستانتية وكاثوليكية .

وبحلول القرن السادس عشر بدأ النظام القديم والافكار التي بني عليها هذا النظام تتدهور وتنهار . وأخذت الاقطاعية تنقرض والفروسية تزول . وأصبحت الحياة في المدن تزداد أهمية ، وفتحت ابواب المناصب للطبقة المثقفة من خريجي الجامعات . كما ان التجارة والصناعة نالت اهتماما منقطع النظير واصبحت عماد الاقتصاد الاوربي وحلت محل الزراعة . وانقرضت القنانة وحل محلها المزارعون الاحرار في معظم انحاء اوربا الغربية . وظهرت الحكومات القومية بزعامة الملوك المطلقين،

وازداد الشعور القومي بين الشعوب الاوروبية المبني على الولاء التـام للملك ، الذي استطاع ان يوحـد المملكـة • ومـع ان الامبراطورية الرومانية المقدسة ضعفت وصارت مؤسسة قديمـة عائدة الى العصور الوسطى ، فقد ظـل النـاس ومن ضمنهم الامراء والملوك يدينون لهـا بالولاء ، نظريا على الاقل •

الامبراطورية الرومانية المقدسـة

كانت الامبراطورية الرومانية المقدسة ، والكنيسة الكاثوليكية المؤسستين الرئيسيتين في العصور الوسطى • وكان بقـاؤهما في عصر مليء بالتغيرات الجديدة كالقرن السادس عشر يتوقف على مقدرة كل من المؤسستين في تكييف نفسها للظروف المتغيرة • وكاد ادعاء البابوات بالسلطة الزمنيـة وصراعهم مع الملوك والاباطرة لاجـل السيطرة ، ان يقضي على الكنيسة نهائيـا ، لولا ان اصـلاح الكنيسة الكاثوليكية في منتصف القرن السادس عشـر انقذها من الانهيـار التام • لقـد كانت للكنيسـة الكاثوليكية ميـزتان لم تتوفرا في الامبراطوريـة الرومانية المقدسة وهما : وجود سكرتارية دائمية للكنيسة ، وتنظيم واسـع متقن على نطـاق عالمي ، بحيث انـه حتى اذا كان البابا ضعيفا او علمانيـا ، تستطيع المنظمـة والسكرتارية تمشية الامـور وتادية الواجب واحراز ولاء الملايين من المسيحيين الكاثوليك للكنيسة الرومانية[1] •

---

(1) H.H. Green, the Renaissance and Reformation (Arnold, 1977), pp. 100-102, ff.

وقد اختلف الوضع بالنسبة للامبراطورية الرومانية المقدسة ، اذ ان الصراع الطويل بينها وبين البابوية ، وفشل الاباطرة في الحصول على ولاء اتباعهم النظام المبني على تعاقدات اقطاعية ، وكون الامبراطورية مؤلفة من اعداد كبيرة من الامارات والاسقفيات والمدن الحرة ، ضعف الامبراطورية الى درجة ، كان من الصعب حتى مع وجود امبراطور قوي ممارسة السيطرة التامة على هذه الامارات . يضاف الى ذلك ان دستور الامبراطورية لم يكن ملائما ، فالدايت الالماني (الذي كان البرلمان الرسمي للامبراطورية) كان مؤلفا من امراء المانيا الرئيسيين . ولم يكن هناك ما يجبر الامراء على تنفيذ مقررات الدايت الامر الذي جعل الامبراطور يعتمد على تكتلات خاصة ضمن الدايت . لقد تكون الدايت من طبقات ثلاث وهي (١) الناخبين السبعة (٢) امراء الولايات (٣) المدن الامبراطورية التي أدخلت بعد عام ١٤٤٩ . وكان الناخبون السبعة أهم الطبقات الثلاث ، لانهم كانوا مسؤولين عن انتخاب الامبراطور ، بموجب المرسوم الامبراطوري لسنة ١٣٥٦ . والناخبون هم عبارة عن رؤساء اساقفة مينز Mainz وترير Trier وكولون Cologne وأمير ولاية پلاتينات على الراين ، وامير ولاية سكسونيا ، وامير ولاية براندنبرگ ، وملك بوهيميا . وكان الاخير يعتبر اجنبيا لم يشترك في جريان المناقشات . لم يستطع الدايت ان يزود الامبراطور بالمال الكافي او بالجيش النظامي او بسلطة تنفيذية قوية لادارة الامبراطورية .

ولما لم تستطع الامبراطورية ان تكيف نفسها للتغيرات الجديدة التي تتطلب وجود دولة قومية ، ظلت مؤسسة قديمة وضعيفة .

يعتبر بعض المؤرخين نهـاية القرن الحادي عشر الميـلادية بداية تدهور الامبراطورية المقدسـة بسبب الصـراع بين الاباطرة والبابوات ودور نبلاء المانيا في اضعاف الاباطرة وتحالفهم مع البابوات . لكن هذا الرأي (في نظر البعض الآخر) يجعل اسـباب التدهور في وقت مبكر جدا . والواقع ان تدهور سلطات الامبراطورية بدأت في منتصف القرن الثالث عشر بموت الامبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٥٠ . كان فردريك يكره المانيا « بسبب شتائها الطويل ، ولياليها المظلمـة ، وطرقها المليئة بالأوحال ، وغاباتها الكثيفة ، وصعوبة ادارتها » . فقضى معظم سنوات حكمه في ممتلكاته الايطاليـة . فكان يحب صقلية « لشتائها الدافيء ، وثرواتهـا الكثيرة ، سهولة ادارتهـا » . وترك شؤون المانيا للامراء ، ومنحهم امتيازات واسعة منها السيطرة على القضاء ، وحق سك النقود ، ومساعدتهم ضد سكان المدن الذين هم حلفـاء طبيعيين للملكية . وقد ثار ابنه هنري ضده بسبب هـذه السياسة لان هنري كان اعلم بشؤون المانيا من والده فردريك . غير ان الاخير قبض على ابنه وسجنه . وبعد موت فردريك لم يستطع الاباطرة الذين انتخبوا أن يضعوا أقدامهم على الاراضي الالمانيـة ، لكونهم اجانب ، وسـادت الفوضى مدة اكثر من عشرين سنة كانت المانيا خلالها دون رئيس أو حاكم[1] .

وفي سـنة ١٢٧٣ ، انتخب امراء الالمـان واحدا من بينهـم وهو رودولف هبسبرگ لانـه كان اقوى الامـراء واكثرهم ملكـا . فكان رودولف يملك قسـما من الالزاس ، واعالي نهر الراين (سويسرا) .

---

(1) Daniel Waley, Later Medieval Europe (Longman, 1968), pp. 75-76, ff.

لكنه لم يكن قويا الى درجة يستطيع تنفيذ سياسته على نطاق الامبراطورية المقدسة ولهذا اهتم فقط بشؤون ممتلكاته الخاصة . وحصل على النمسا ومقاطعة الستيريا الى الجنوب الشرقي . وهكذا توسعت املاك هبسبرگ باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي من المانيا . وقد ساعدت سياسة رودولف التوسعية نحو الشرق على تقوية الصداقة مع فرنسا التي كانت مصالحها تصطدم مع مصالح الامبراطورية على الحدود المتاخمة لفرنسا . غير ان الصراع الانكليزي الفرنسي في حرب المائة سنة زاد حدة التجزئة في المانيا لان الجانبين المتحاربين اعتمدا على العون العسكري من المانيا في الاراضي المنخفضة والراين . وكان التوسع الفرنسي على حساب المانيا في اللورين ، وبرگنديا وليوني [1] .

خشي الامراء من توسع رودولف هبسبرگ ، ولما توفي سنة ١٢٩١ لم ينتخبوا ابنه . وفي الصراع الذي نشأ بين الامبراطور المنتخب (أدولف أوف ناساو) وألبرت هبسبرگ ، قتل أدولف سنة ١٢٩٨ ، كما ان ألبرت توغل في حرب ضد العائلة المالكة في بوهيميا . وفي سنة ١٣٠٨ ، انتخب هنري لكسمبرگ امبراطورا باسم هنري السابع . ان ارتقاء عائلة لكسمبرگ الوضيعة الى عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة جعل هنري يعتمد على الامراء ليكسب تأييدهم . وقد اعترف بممتلكات آل هبسبرگ في النمسا وستيريا ، وحصل على عرش بوهيميا ومورافيا لابنه جون عن طريق الزواج سنة ١٣١٣ . وقد فشلت حملاته في ايطاليا على الرغم من مناشدة دانتي بالسيطرة عليها . ولما توفي هنري السابع سنة ١٣١٣ ، نشب النزاع بين المرشحين

---

(2) Ibid; pp. 78-79.

(1) Ibid; pp. 78-79.

للعـرش فردريك هبسبرگ ولويس اوف باڤاريا . ولـم تكن نتيجـة الصراع حاسمة على الرغم من انتصار لويس على فردريك سنة ١٣٢٢ . ولما نصب البابا جون الثـاني والعشرين نفسه امبراطورا على ايطاليا ، وحاول تنصيب امبراطور ميال الى فرنسا من عائلة هبسبرگ ، واصدار امر الحرمان ضد لويس الباڤاري ، اعلن الاخير مشاركته الامبراطورية مع خصمه فردريك هبسبرگ سـنة ١٣٢٥ . ولما مات فردريك سـنة ١٣٣٠ ، أغـار لويس على شـمال ايطاليا وظلّ هنـاك ست سنوات ، لا لغرض استعادة سيطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة على ايطاليا ، بل لجمـع المال من حكام المـدن والمقاطعات الايطالية الذين ينشدون الالقـاب من الامبراطور . وقد تمكن لويس الباڤاري من تنصيب بابا جديد يميل الى الامبراطور ، وحصـل على تيرول وبراندنبرگ مارچ ، وعن طـريق الزواج حصـل على هولاند وزيلاند وفريزلاند وهينول (وكلها تشكل الأراضي المنخفضة)[1] .

لم يستطع لويس الباڤاري احيـاء الامبراطورية الرومانية المقدسة التي انتهت قوتهـا وعظمتها بموت الامبراطـور فردريك الثـاني سنة ١٢٥٠ . وقد ضعف الاباطرة بعد ذلك وانتقلت سـلطاتهم الى الامراء الذين اكدوا في مدينة رينز سنة ١٣٣٨ ، ان الامبراطور الذي ينتخبونه لا يحتـاج الى موافقة البابا . وكان الامراء هم الذين انتخبوا شـارل ابن جون وحفيد هنري السابع (هنري لكسمبرگ) سنة ١٣٤٦ ، ليحل محـل لويس الباڤاري . وأهميـة شارل تكمن في اصـداره المرسوم الامبراطوري الذهبي سنة ١٣٥٦ ، الذي اكد فيه على امتيازات الامراء،

(1) Ibid; p. 80.

وانتخاب الامبراطور من قبل الناخبين السبعة ، ومنع الامراء في تقسيم اراضيهم . وقد استقل الامراء بموجب هـذا المرسوم وحصلوا على صلاحيات واسعة داخـل ولاياتهم واعتبر الاعتداء عليهم خيـانة عظمى ولا يجـوز استئناف الدعـاوي من محـاكم الامـراء الى محكمـة الامبراطور[1] .

لقد اصبح تأريخ المانيـا بعد اصدار هذا المرسوم عبارة عن تأريخ الولايات الالمانيـة . مات شـارل سنة ١٣٧٨ ، وتولى بعـده عدد من الاباطرة الضعفاء من امثال وينسلاس السكير (ابن شارل) الذي خلع سنة ١٤٠٠م ، وروپرت حاكم مقاطعات الراين الذي لم يستطع ان يحكم خارج ولايتـه . وفي سـنة ١٤١٠ انتخب الامراء سيگسموند ، الابن الاصغر لشـارل . حكم سيگسموند الى سنة ١٤٣٧ ، واشتهر بكونه فارسا شجاعا . وكان ملكـا على هنگاريا لما انتخب امبراطورا . وقضى معظم اوقاته في اخماد ثورة جون هس في بوهيميا ، واكد على استمرار جلسـات مؤتمر كونستانس ، ومنح امارة براندنبرگ الى فردريك امير نورمبرگ ، وبذلك سـاعد على ظهـور عـائلة هوهنزلرن . وحصلت سويسرا على نوع من الحكم الذاتي . وقد اسـتغل مهارته السياسية المحدودة في احداث الشقاق والانقسامات بين المدن الالمانية . ولما مات سنة ١٤٣٧ ، تولى العرش زوج ابنته ، البرت اوف آوستريا ، الى سنة ١٤٣٩ . وفي السنة التالية جاء الى العرش ابن عمـه فردريك هبسبرگ الذي حكم الى سنة ١٤٩٣ ، باسم فردريك الثالث[2] .

---

(1) Ibid; p. 81.

(2) Ibid; pp. 82-83.

لقد فقدت الامبراطورية المقدسة كثيرا من اراضيها في عهد فردريك الثالث ، فاخذت بولندة بروسيا ، وهنگاريا اخذت مقاطعة سيليزيا ومورافيا ، بينما استولى شارل الجسور امير برگنديا على كثير من اراضي الامبراطورية وضمها الى امارته • وحصلت سويسرا على استقلال ذاتي اكثر ، واخذت الدانيمرك مقاطعة هلشتاين • لقد تدهور الوضع في المانيا في عهد فردريك الثالث ، واشتد شكوى الناس « من ضرائب الكنيسة التي ترسل الى البابا • ووجود امبراطور منتخب ومعترف به لكنه لا يمارس اية صلاحية ، ولا يملك خزينة ، لان الامراء وسكان المدن لا يؤدون ما بذمتهم من حقوق وواجبات » ، فبقي الامبراطور بدون مورد • وكثرت الحروب والمنازعات في المانيا « لان كل فرد يريد ان يكون هو الآمر الناهي » • ولم تكن هناك حكومة تستطيع استتباب الامن والنظام • ففي احوال كهذه تكون الاصلاحات ضرب من المستحيل •

وهكذا ساعد حكم الامبراطور فردريك الثالث الطويل على انحلال الامبراطورية الرومانية المقدسة • وكاد فردريك نفسه يفقد الامبراطورية لما انتصر عليه ماثيو كورڤينس ملك هنگاريا الذي دخل العاصمة ڤيانا سنة ١٤٨٥ ، لولا ان كورڤينس توفي فجأة(٢) •

ومع ذلك كانت المانيا تمر بفترة انتقال وتغيير في هذا الوقت • فقد ظهر الشعور بالقومية الالمانية بين الفرسان والمثقفين وبعض سكان المدن • وأدت التجارة بين المدن الالمانية واستغلال الثروة وتطوير مناجم

---

(1) Ibid; p. 84, ff.

جنوبي المانيا الى الازدهار الاقتصادي ونمو الثروة في بعض المدن الالمانيه ، كفرنكفورت ، واوكسبرگ ، ولوبيك ، وبريمن مما ساعد على تقويه الامبراطورية الالمانية في القرن التالي .

ولربما كان التقدم الاقتصادي اهم حادثة حدثت في المانيا في هذا الوقت . فقد ارتفعت الاسعار قبل استيراد الذهب والفضة من امريكا ، ونشأت من جراء ذلك اضطرابات في المدن نتيجة النزاع بين الاغنياء والفقراء . وفي الارياف كان وضع الفلاحين قد تحسن كثيرا بينما تدهور وضع اصحاب الاراضي ماليا بسبب ارتفاع الاسعار وانخفاض الانتاج الزراعي ، فأرادوا فرض واجبات وضرائب اقطاعية اخرى على الفلاحين بغية تحسين اوضاعهم المالية . وقد أدى تردي الوضع الاقتصادي وارتفاع الاسعار الى انخفاض مورد الاباطرة والامراء . لكن في الوقت الذي تمكن الامراء من تحسين احوالهم بفرض الضرائب على رعاياهم ، لم يستطع الاباطرة تحسين احوالهم .

وقد انتبه بعض الالمان الى فقر الاباطرة وعجزهم ، فاقترحوا اصلاح الدستور الامبراطوري . واشهر من دعا الى الاصلاح هو برتولد هانبرگ رئيس اساقفة ميينز وناخبها . ومهما قيل عن وطنيته المشكوك فيه ، فانه اعتقد بان الحكومة يجب ان تكون قوية وكفوءة ، وقد ايده في ذلك كل الامراء عدا أمير باڤاريا . وفي الدايت الالماني المنعقد في فرنكفورت سنة ١٤٨٥ ، أكد برتولد على نظام نقدي واحد لكل المانيا ، والغاء الحرب بين الولايات الالمانية ، وتأسيس محكمة عليا لمحاكمة المعتدين الاقوياء الذين لا يمكن للمحاكم الاعتيادية النظر في قضاياهم . لكن فردريك الثالث لم يكلف نفسه النظر في هذه

الاصلاحات واهملها •

المانيا في عهد الامبراطور مكسمليان الاول

اعتلى الامبراطور مكسمليان الاول العرش ١٤٩٣–١٥١٩ ،

لما اعتلى الامبراطور الجديد كان ذكيا نشطا وكفوءا ، لكن كان تغير الوضع • فالامبراطور الجديد كان ذكيا نشطا وكفوءا ، لكن كان ينقصه المال شأنه في ذلك شأن أسلافه الاباطرة • وقد قدم برتولد وزملاءه مشروع الاصلاح الذي رفضه فردريك ، وطلب تأسيس مجلس الوصاية الذي من بين وظائفه وضع سياسة للامبراطورية وتقييد سلطة الامبراطور والأشراف على استقرار المانيا وعدم الالتجاء الى الحرب داخل البلاد كي يسود السلام • وطلب الامبراطور مقابل ذلك تأسيس جيش نظامي دائمي للامبراطورية ، واصلاحات مالية تحرره من قيود أمراء الاقطاع ومن الفقر كي يستطيع عندئذ ادامة جيشه • وقد خشى المصلحون من انه اذا نفذ مطاليب مكسمليان هذه فانه يصبح قويا الى درجة يتخلص بكل سهولة من الشروط التي فرضوها عليه • وهذا ما كان ينويه الامبراطور فعلا • وعليه تقرر ان تكون الخزينة والجيش تحت سيطرة الدايت او مجلس الوصاية • ولقد كان الجانبان يرغبان في تأسيس حكومة مركزية قوية لكن برتولد والامراء أرادوا السيطرة على السلطة العليا بانفسهم ، وكانوا يتشكون بحق من عائلة هبسبرك ؛ التي كان كل اهتمامها موجها نحو مصالحها العائلية في مقاطعاتها النمساوية ، والمغامرات الحربية في ايطاليا بغية السيطرة عليها والتي لم تكن من مصلحة المانيا • فارادوا عدم افساح المجال لمكسمليان باستخدام الجيش والمال دون موافقتهم • وقد ردّ عليهم الامبراطور بانه « يرغب رغبة شديدة في توحيد المانيا الذي يجده ضروريا للدفاع

عن الامبراطورية ضد اعدائها ، وخاصة الفرنسيين والاتراك » • كما بيّن انه « لا يتنازل عن سلطته للامراء الذين يشك في وطنيتهم وكل همهم توطيد حكمهم في ولاياتهم والمحافظة على استقلالهم » •

وقد حاول كل من الطرفين ، الامبراطور والامراء ، الوصول الى حل لهذه المسائل التي عرضوها في الدايت الذي اجتمع في مدينة وورمز سنة ١٤٩٥ ، وكانت النتيجة ان ترك الامبراطور المؤتمر الى حروبه في ايطاليا مطالبا بالمال • لكن المؤتمر اسس محكمة عليا وتقرر حفظ السلام الدائم في المانيا وعدم شن الامراء الحرب على بعضهم ، وتسريح الجيوش الخاصة بالامراء • ولما لم يوافق الامبراطور على تأسيس مجلس الوصاية الذي يقيده ، فشل المؤتمر • ولم يوافق الدايت على فرض ضريبة خاصة لخزينة الامبراطور ، وقرر ان يجتمع سنويا لاجل تقرير السياسات التي وعد الامبراطور ان لا ينفذها دون موافقتهم[1] •

لقد اثارت الضريبة التي كان من المقرر فرضها لخزينة الامبراطور ضجة بين الناس • وكان السويسريون اول من احتجوا ضد هذه الضريبة واعتبروها تهديدا لاستقلالهم • وكانت الكانتونات السويسرية الثلاثة يوري Uri وشوايز Schwyz ، وأونترالدن Unterwalden قد كونت اتحادا فيدراليا منذ سنة ١٢٩١ ، وانضمت اليها الكانتونات الاخرى ، واستاءت من محاولات عائلة هبسبرگ فرض سيطرتها من جديد على البلاد ، وخاصة ان سويسرا لم تتمثل في الدايت الالماني • وقد احرز السويسريون انتصارات عديدة في

(1) Green, op. cit; pp. 102-108.

حربهم ضد مكسمليان ، وأجبروه على الاعتراف باستقلالهم بموجب معاهدة « بال » سنة ١٤٩٩ .

ومع ان الامبراطور مكسمليان لم يحصل على المال اللازم من الدايت ، لكنه تمكن من تقوية ممتلكات آل هبسبرگ وتأسيس ادارة كفوءة للنمسا العليا والسفلى وربط المقاطعات المختلفة بعضها ببعض الى سنة ١٩١٨ . وكان زواجه من ماري بنت شارل الجسور امير بركنديا سنة ١٤٧٧ ، قد ادى الى ضم (١٦) مقاطعة غنية الى ممتلكات عائلة هبسبرگ من ضمنها هولندة وبلجيكا . وقد تزوج ابنه فيليب الوسيم ، ابن ماري البرگندي ، من جوانا بنت فردنند وايزابيلا ، فورث بذلك عرش اسبانيا وممتلكاتها عبر البحار . وأصبحت فرنسا مطوقة بممتلكات آل هبسبرگ ، الامر الذي خلق العداء التأريخي بين العائلة المالكة الفرنسية وامبراطورية آل هبسبرگ .

ان انجازات مكسمليان تبدو ضئيلة من الناحية النظرية فقد فشل في الاصلاح ولم يحصل على المال والجيش اللازمين لتقوية الامبراطورية وتكوين الوحدة الالمانية . وفشل في حروبه في ايطاليا ، اذ فسح المجال لفرنسا بالسيطرة عليها ، لكنه تمكن من الناحية العملية من توسيع ممتلكات آل هبسبرگ بحيث شملت الاراضي المنخفضة واسبانيا ومستعمراتها في المستقبل . وربط بين مقاطعات آل هبسبرگ الخاصة والسلطة الامبراطورية التي استمرت الى سنة ١٨٠٦ . ومن جراء سياسته ايضا لم تستطع الامبراطورية ان تكيف نفسها للتغيرات الجديدة ، وظلت مؤسسة تابعة للعصور الوسطى في عصر التقدم ، ومات مكسمليان سنة ١٥١٩ ، وكان ابنه فيلب قد وافته المنية قبله سنة

١٥٠٦ ، فترك العرش لحفيده شارل الخامس ، الذي كان ملكا على اسبانيا باسم شارل الاول منذ سنة ١٥١٦ ، واميرا على الاراضي المنخفضة منذ وفاة والده فيلب في ١٥٠٦ .

حكومات المدن

لم تكن حكومات المدن ظاهرة جديدة او غريبة عن اوروبا ، ولم تظهر بشكل فجائي في ايطاليا ، بل ظهرت بصورة تدريجية ، ولم تختص بها شمال ايطاليا وحدها ، بل كانت هناك حكومات المدن في الاراضي المنخفضة والمانيا ، وان كانت المدن الايطالية اشهرها .

ان مفهوم حكومات المدن قديم بقدم التأريخ . فالسومريون أسسوا حكومات المدن ، وكذلك كان الفينيقيون واليونانيون القدماء . وقد أدّى نمو التجارة في أواخر العصور الوسطى الى ظهور مدن تجارية مهمة في ايطاليا اولا ثم في الأراضي المنخفضة والمانيا . وقد استطاعت هذه المدن أن تحتفظ بنوع من الاستقلال الذاتي مع ان المدن الالمانية كانت مرتبطة الى درجة بالامبراطورية الرومانية المقدسة . اما المدن الايطالية والأراضي المنخفضة فاحتفظت باستقلالها ، ولعبت دورا هاما في السياسة الاوروبية والاقتصاد الاوربي في القرن الخامس عشر والسادس عشر .

ايطاليا في القرن السادس عشر :

لم يكن في ايطاليا مظهر من مظاهر الوحدة السياسية والوطنية في القرن السادس عشر ، ولم تكن المدن الايطالية مرتبطة بالامبراطورية

الرومانية المقدسة الا من الناحية النظرية . وكانت هنـاك عوامل ضعف أدت الى تجزئة ايطاليا وحالت دون وحدتها وتكوين دولة قومية حديثة فيها على الرغم من انهـا سبقت الدول الاوروبيـة الاخرى في الحضارة والثروة والتقدم . وهذه العوامل هي كما يلي :

(١) كانت محـاولة اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسـة في السيطرة على ايطاليـا في العصور الوسطى قد تركت حزبين متنـاحرين احدهمـا گيبلن Ghibellênes ، الذي أراد الارتباط بالمانيـا ، والثـاني گيلفس Gueiphis الذي رفض الارتبـاط وارد وحـدة واستقلال ايطاليا .

(٢) كان البابا يمارس سلطة دينية وسياسية واسـعة وشعر بان هذه السلطة تزول بوحدة ايطاليا وظهور ملك قوي ، وتقل اهمية رئيس الكنيسة في الخارج ولهذا حاول منع اية حكومة في ايطاليا من أن تصبح قويه الى درجة تتم بواسطتها الوحدة الايطالية .

(٣) لقد نمت المدن الايطالية وازدهرت واصبحت غنيـة بفضل الحركة التجارية الواسعة النطاق في اواخر العصور الوسطى . وصارت هذه المـدن تفتخر بنفسها وتعتز بثروتها وتنـافس بعضها بعضا لدرجة اصبح امل الاتحاد ضئيلا .

(٤) ان ثروة ايطاليا والمنازعات الداخلية بين المـدن والحكومات بالاضافة الى تدخل البابا الفعلي في سياسة ايطاليا مهـد السبيل للتدخل الاجنبي ، وأخذت الدول الاوروبية تتدخل في شؤونها بغيـة السيطرة عليها والاستفادة من ثروتهـا ، فاصبحت ايطاليا سـاحة حرب للجنود الفرنسيين والالمان والاسبان .

نابولي :

وقبل الكلام عن المـدن الايطالية من الضروري القـاء نظرة على جنوب شبه الجزيرة حيث كانت هناك مملكة نابولي وصقلية التي كانت احيانا تدعى مملكة الصقليتين • وقد اسس السكندناڤيون هذه الدولة في القـرن الحادي عشر ، لكن تبادلت الايدي من البـابا الى امبراطور الامبراطورية المقدسة • وفي ١٢٤٦ ، وقعت تحت سيطرة ملوك فرنسا • وحـدثت ثورة سنة ١٢٨٢ سميت بثورة سيسيليان ڤيسپرس ، فصلت بين صـقليا ونابولي • ووقعت صـقلية تحت سـيطرة عـائلة أرگون الاسبانية ، بينما ظلت نابولي تحت الحكم الفرنسي الى سـنة ١٤٤٢ ، لما استرجعت عائلة أرگون سيطرتها على نابولي ووحدتهـا مع صقلية • فأصبح النزاع عنيفـا بين اسـبانيا وفرنسا • وفي سنة ١٥٠٤ ، تنـازل لويـس الثاني عشر ملك فرنسا عن مملكة نابولي لاسبانيا •

الولايات البابوية :

ظهرت الولايات البابوية حول مدينـة روما ونمت بمرور الزمن ، وكانت تسمى رسميا بممتلكات القديس بطرس التي وقعت تحت سيطرة البابوات عندما فقد اباطرة الرومان السيطرة السياسية على البـلاد عند الغزو البربري • وأخذ البابوات يوسعون املاكهم فيما بعد في اواسط ايطاليا بين مصب نهر تايبر وبحر أدرياتيك • وبحلول القرن السادس‌عشر كان البابوات في روما يمارسون السـلطة السياسية على املاكهم كأي أمير اقطـاعي • وقد اشتهر البـابا اسكندر السادس ١٤٩٢ـ١٥٠٣ ، بمحاولته نصب ابنـه سيزار بورجيا حاكما في ايطاليـا • كما ان خلفه جوليس الثاني اهتم بالدبلوماسية والعسكرية وتكوين الاحلاف ضـد

فرنسا والامارات الايطالية الاخرى أكثر من اهتمامه بالدين[١] .

كان عدد نفوس مدينة روما في مطلع القرن السادس عشر (١٠٠) الف نسمة ، وقد احتوت آثارا رومانية ، بالاضافة الى انها كانت عاصمة العالم الكاثوليكي . فكان السواح والحجاج يقبلون عليها من كل انحاء اوروبا . ولهذا عاشت هذه المدينة على ما كان يصرفه السواح والزوار ، بالاضافة الى موارد الكنيسة .

المدن الايطالية

نالت المدن الايطالية الشمالية شهرة عظيمة من حيث الثروة والرخاء وازدهار الآداب والفنون فيها لم ينلها اي قطر آخر في اوربا في اواخر العصور الوسطى . وكانت هذه المدن تمارس سلطة سياسية وادارية مستقلة عن بعضها البعض وتشن الغزوات والحروب فيما بينها الأمر الذي ادّى الى استحكام العداء والمنافسة الشديدة بينها وجلب الدمار الى ايطاليا وتأجيل وحدتها قرونا من الزمن . وأهم هذه المدن في مطلع القرن السادس عشر عبارة عن ميلانو ، فلورنسة ، ڤنسيا ، وجنواه

دوقية ميلانو :

كانت ميلانو دوقية اقطاعية تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة في العصور الوسطى تحكمها عائلة ڤيسكونتي . ولمّا مات آخر من يحكمها من هذه العائلة سنة ١٤٤٧ ، اصبحت ميلانو جمهورية . ولما لم يكن الذين يديرون الحكومة الجمهورية يمتازون بالكفاءة السياسية والادارية ، عينوا فرانسيسكو سفورزا قائدا للجيش ليحارب ڤينسيا .

---

(1) Hayes, Carlton, Political and Cultural History of Modern Europe (New York, 1936), pp. 3-46.

وكان هذا أحد الداعين الى أن يخلف ڤيسكونتي في الحكم . وفي خلال ثلاث سنوات قام سفورزا بانقلاب عسكري وعين نفسه اميرا على ميلانو ، وانهى الحرب ضد ڤنسيا ، واعترف به دوقا بموجب معاهدة لودي . كان سفورزا رجلا كفوءا ومقتدرا . ومع انه ابقى بعض مظاهر الحكومة الجمهورية لكنه كان دكتاتورا تمكن من فرض ارادته . وقام سفورزا ببعض الاعمال العامة المدنية والعسكرية ، واعتبر نفسه من دعاة السياسة وحماة الفنون . وفي زمن ابنه لودڤيكو سفورزا ، استولى لويس الثاني عشر على ميلانو باسم عائلة ڤيسكونتي ، وبقي هناك الى سنة ١٥١٢ ، عندما طردته العصبة المقدسة منها وعينت احد افراد عائلة سفورزا حاكما عليها مرة اخرى[1] .

فلورنسا :

اشتهرت فلورنسا بمؤسساتها الحرة ، وازدهار الآداب والفنون فيها . فهي مدينة دانتي وپترارك ، كما هي مدينة ليوناردو دافنشي وميخائيل انجيلو ورفائيل . وكان نظام الحكم في فلورنسا دمقراطية نسبيا (الى القرن الخامس عشر تقريبا) . فكانت المدينة مقسمة الى اربعة أحياء وكل حيٍّ انقسم الى احياءٍ اصغر منه لتسهيل ادارته . وكان مرشحو هذه الاحياء يمثلون واحد وعشرون نقابة في المدينة ينتخبون اعضاءً في المجلس السنيوري الاعلى الذي يحكم فلورنسا ، وكذلك المؤسسات الدمقراطية الاخرى التي هي اقل شأنا .

---

(1) Mayron p. Gilmore, The World of Humanism (Harper, 1962) pp. 108-117.

أما المجلس السنيوري فمؤلف من ثمانية اعضاء ، بمعدل عضوين عن كل حي ، وحاكما قضائيا ، فيصبح مجموع الاعضاء تسعة . وكانت طريقة الانتخابات بالقرعة حيث يوضع اسماء المرشحين في أكياس تمثل الاحياء والنقابات . وكان المجلس يحكم لمدة شهرين ولهذا كانت لفلورنسا ست حكومات في السنة . وكان للمجلس مستشارين ومساعدين . كما كان هناك مجلسين آخرين هما مجلس الشعب ، ومجلس البلدية . ولم تكن العضوية في المجلس الاخير مقتصرا على النقابات . وكانت وظيفة المجلسين الموافقة على مقترحات المجلس السنيوري الاعلى خلال حكمه مدة شهرين . وفي الحالات القصوى يدعى البرلمان الى الانعقاد ، وهو مجلس المواطنين كلهم يجتمعون عند سماعهم الناقوس الكبير في المدينة لاجل تعيين هيئة تقوم بالاصلاحات العامة وممارسة سلطة الحكومة في اوقات الازمات . وبالاضافة الى المجلس السنيوري كانت هناك لجنة الثمانية تقوم بادارة الشرطة ، ولجنة مؤلفة من ستة اعضاء تقوم بالاشراف على الشؤون التجارية وادارتها ، ولجنة العشرة مسؤولة عن الحرب والدفاع والسلم ، وتعيين هذه اللجنة يكون في اوقات الحرب .

وقد استطاع كوسيمو دي مديتشي ، رأس عائلة مديتشي التي اشتهرت بالتجارة والصيرفة ، السيطرة على الحكم في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، وتحويل النظام الدمقراطي الى الحكم الاوليگاركي ، مع بقاء المؤسسات الدمقراطية تحت اشرافه . وقد استحدث كوسيمو نظام المفتشين الذين ينقحون قوائم الاسماء اثناء الانتخابات . وبهذه الطريقة سيطر على الحكم واصبحت خزينة الدولة

وخزينة عائلة مديتشي واحدة دون تفريق • واشتهر عهد كوسيمو بالاستقرار • ولما مات سنة ١٤٤٩ ، خلفه ابنه پيرو مديتشي الذي حكم مدة قصيرة فخلفه ابنه لورينزو المعروف بـ لورينزو الكبير ١٤٦٩ـ ١٤٩٢ • وقد ابقى لورينزو النظام الجمهوري واهتم بالعلوم والفنون والآداب ، وكان عهده عهد فلورنسا الذهبي[1] •

وبعد موت لورينزو سنة ١٤٩٢ ، حدثت ثورة بزعامة الراهب سافونا رولا ، الذي تزعم عهد الحوار الدستوري لوضع افضل نظام لفلورنسا • وقد أغار شارل الثامن ملك فرنسا على البلاد سنة ١٤٩٤ ، وطرد عائلة مديتشي من الحكم • ورحب سافونا رولا بمجيئه ، وساعده ماديا ومعنويا • وقد استطاع سافونا رولا ان يحكم حكما پيوريتانيا متزمتا مدة اربع سنوات • وبعد تراجع شارل الثامن الى فرنسا وقع سافونا رولا ضحية مؤامرة أعدائه من الفلورنسيين فاعدم سنة ١٤٩٨ • وقد عادت فرنسا بقيادة ملكها الجديد لويس الثاني عشر ، واستمر النظام الجمهوري في فلورنسا تحت الحكم الفرنسي الجديد الى سنة ١٥١٢ ، لما تكون الحلف المقدس من البابا والامبراطور مكسمليان وفردنند ملك اسبانيا لطرد فرنسا من ايطاليا • ورجعت عائلة مديتشي الى الحكم في فلورنسا مرة اخرى •

فينيسيا :

كانت فينيسيا مدينة تجارية على رأس بحر الادرياتيك ، تحكمها طبقة من التجار ولهذا كان نظام الحكم فيها اوليگاركيا • وقد تمكنت فينيسيا بحكم موقعها الجغرافي على بحر الادرياتيك من تأسيس

(1) Ibid: pp. 111-114.

امبراطورية تجارية على السواحل الشرقية من البحر الابيض المتوسط وشمال شرقي ايطاليا . وقد امتلكت في مطلع القرن السادس عشر ٣٠٠٠ سفينة و٣٠٠ الف بحار ، وجيش كبير ، وحكومة قوية ، كما انها اشتهرت بثروتها التي تجمعت عن طريق التجارة التي كانت تقوم بها منذ الحروب الصليبية . فكان لها معامل لصناعة الصفائح الزجاجية ، ومصانع الاقمشة الحريرية والمصنوعات الذهبية والفضية ..

كانت السلطة السياسية في فينسيا قد اسندت الى عدة وكالات اولها : دوج منتخب مدى الحياة يمثل السلطة التنفيذية ورئيس الدولة (٢) مجلس مركزي من عشرة اعضاء (مستشارين) يترأسه الدوج . (٣) مجلس كبير يترأسه عمدة التجار والنبلاء . (٤) ومنذ سنة ١٤٥٤ ، سيطر على الدولة مفتشون ثلاثة كان باستطاعتهم ان يحكموا بالاعدام ويتصرفوا في خزينة الدولة ويشرعوا القوانين . وكانوا يستخدمون جيشا من الجواسيس للقبض على كل من يشتبهون به . وقد اشتهر جسر التنهدات بعبور جثث الضحايا تحت امواجه من الذين قتلهم المفتشون سرا .

وعلى الرغم من كل ذلك شاهدت فينسيا في عهدها الارهابي سلما في الداخل في الوقت الذي كانت المدن الايطالية ساحة حرب . وكانت فينسيا اولى الدول الاوروبية في التمثيل الدبلوماسي وارسال السفراء ، ولهذا كانت لها اهمية سياسية بين الدول الاوروبية . وقد ظهرت بادرة التدهور فيها منذ ان قضى العثمانيون على تجارتها في شرقي البحر المتوسط في القرن السادس عشر ، وتضررت كثيرا من تحول

التجارة الى المحيط الاطلسي بعد الاستكشافات الجغرافية ، ومع ذلك استمرت ڤينسيا جمهورية مستقلة الى سنة ١٧٩٧ ، لما قضى نابليون على استقلالها[١] ،

جنـــوا :

تأتي جنوا بالدرجة الثانية بعد ڤينسيا من حيث الاهمية التجارية ، وكانت منافســة قوية لهــا ، وقد مرّت جنــوا بأدوار من النكسات السياســية الى أن وقعت تحــت سيطرة فرنســا ، عندما أغــار لويس الثاني عشر على ايطاليــا سنة ١٤٩٩ لكن في سنة ١٥٢٨ ، خلصــها من الحكم الفرنسي احد ابنائهــا واسمه اندري دوريا ، وأعاد اليها النظام الجمهوري ،

أما بقية المدن الايطالية فكانت انظمتها أقرب الى نظام ميلانو منها الى نظام فلورنسا او ڤينسيا ، وكان حكام هذه المدن على الاكثر طغاة ،

ســــافوي :

كانت ساڤوي دوقية في شمال غربي ايطاليا في منطقة جبال الالب ، ولم تكن لهذه الدوقية اية اهمية الى القرن التاسع عشر لما تمت الوحدة الايطالية بواسطتها ، لكن مع ذلك كانت ساڤوي في اواخر العصور الوسطى لها برلمان اشبه بالبرلمان الانكليزي مع وجود الدوق الميال الى الحكم المطلق ، ولم يستطع الدوق الاستغناء عن المؤسسات الدمقراطية تماما[٢] ،

---

(1) Ibid; pp. 115-116.

(2) Ibid; pp. 108-109.

الاراضي المنخفضة

كانت الاراضي المنخفضة مؤلفة من (١٧) كانتونا (مقاطعة) على الساحل الجنوبي من بحر الشمال . وهي تشمل هولندة وبلجيكا وشمال شرقي فرنسا في ذلك الوقت. ينتمي معظم سكان الاراضي المنخفضة الى العنصر الفلمنكي او الهولندي Dutch ، ويتكلمون اللغة الالمانية . لكن القسم الجنوبي منها من العنصر الوالوني ، ويتكلمون الفرنسية .

كانت هذه المقاطعات في الماضي تحت رحمة النبلاء . لكن بمرور الزمن ظهرت فيها المدن المهمة بين القرن الثاني عشر والرابع عشر ، واصبحت غنية الى درجة استطاعت الحصول على حرياتها وامتيازاتها من الامراء الاقطاعيين . وقد اصبحت هذه المدن جمهوريات مستقلة لها مجالسها البلدية واداراتها الخاصة ومؤسساتها الدمقراطية . وقد تطورت فيها الصناعات وخاصة الاقمشة الصوفية في فلاندرز . وكانت تستورد الصوف من انكلترا واسبانيا . أما أهم مدنها فكانت عبارة عن : برجس ، غنت ، انتويرب ، بروكسل ، لييج ، أتريخت وروتردام .

لقد كانت برجس اهم مدن الاراضي المنخفضة التجارية ، ومركز العصبة الهنسية ، لكن تدهورت تجارة المدينة تدريجا بسبب طمى النهر الذي عرقل الملاحة ، وبسبب القيود التجارية التي فرضها تجار المدن منذ العصور الوسطى والتي لم يكونوا مستعدين لتغييرها . وانتقلت التجارة الى ميناء انتويرب الذي ظهر انه أصلح للملاحة واصبح عاصمة التجارة الاوروبية في القرن السادس عشر .

وقد استطاع حكام برگنديا منذ ١٣٨٤ ، ان يتوسعوا على حساب الاراضي المنخفضة ووقعت المقاطعات السبعة عشر تحت سيطرتهم واحدة بعد الاخرى، عن طريق الشراء والمصاهرة والقوة والدسيسة . وقد ايدهم النبلاء ورجال الدين في الوقت الذي عارضهم سكان المدن . وكانت تجارة الاراضي المنخفضة في ازدياد وتوسع منذ ان وقعت تحت حماية امراء برگنديا في ١٤٣٣ ، في عهد فيلب اللطيف . وكانت غاية فيلب وابنه شارل الجسور تأسيس مملكة برگنديا بين المانيا وفرنسا[1] .

وقد اجتمع البرلمان العام الذي يمثل المقاطعات السبع عشرة في بروكسل سنة ١٤٦٥ ، وبعد ثمان سنوات تكون مجلس قضائي أعلى يقوم بوظيفة الامور المالية ايضا . لكن لويس الحادي عشر كان يدس الدسائس لشارل الجسور وحال دون تأسيس مملكة برگنديا . ولما قتل شارل في معركة نانسي سنة ١٤٧٧ ، ألحق لويس دوقية برگنديا بفرنسا، بينما أصبحت الاراضي المنخفضة ملكا لـ ماري بنت شارل الجسور التي تزوجت من مكسمليان (الامبراطور بعد سنة ١٤٩٣) في نفس السنة التي قتل فيها والدها . وعند وفاة ماري سنة ١٤٨٢ ، اصبح ابنها فيلب أميرا على الاراضي المنخفضة . ولما توفي فيلب سنة ١٥٠٦ ، أصبح ابنه شارل اميرا عليها . حاول شارل ان يتبع سياسة امراء برگنديا بتوحيد المقاطعات تحت سيطرة حكومة مركزية ، لكنه واجه معارضة شديدة وخاصة من قبل سكان المدن الذين فرض شارل نفقات حروبه عليهم . كما ان النبلاء اصحاب الاراضي عارضوه بسبب ازدياد الاسعار وقلة الواردات . لكن مع ذلك كان سكان الاراضي المنخفضة مخلصين

---

(1) Ibid; pp. 78-80, 120-121.

لشارل • ولما ثار امير مقاطعة گيلدر وحاول ان يقنع الامراء الآخرين بالخروج عن الطاعة ، واستمرت حروب طويلة أثرت على اقتصاديات البلاد ، فقد الامراء عطف الشعب الهولندي الذي كان يريد الاستقرار حتى تعود التجارة الى نشاطها السابق • وفي زمن شارل حافظ الشعب الهولندي على ولائه ، مع ان بوادر الثورة ظهرت في زمانه •

لقد كانت الاراضي المنخفضة اغنى بلدٍ من بين ممتلكات شارل الخامس • فقد ظهرت المدن الصغيرة التي أثرَتْ عن طريق صناعات الالبسة والتعدين (الفحم والحديد) في ليبج ونامور • وقد أكدت المدن الشمالية على الزراعة والتجارة ، كما ان المدن الساحلية أصبحت غنية بواسطة صيد الاسماك وتجارتها • وكانت امستردام مركزا مهما لتجارة الذرة بينما كان انتويرب ميناء عظيما واحتل مكانا ممتازا في التجارة الاوروبية • لقد كانت المدن الهولندية تفتخر بمؤسساتها الحرة وتكره التدخل الاسباني والاجنبي في شؤونها الداخلية • وقد ثار سكان مدينة غنت سنة ١٥٤٠ وعبروا عن سخطهم تجاه سياسة شارل الاسبانية واستخدام ثرواتهم في المشاريع الاسبانية وحروب الامبراطورية الرومانية المقدسة ضد فرنسا وايطاليا التي كانت ضد مصلحة هولندا الاقتصادية(١) •

(1) Green, op. cit; pp. 229-232.

الحكومات القومية الحديثـة

ان اصل ونشأة الحكومات القومية الحديثة ترجع جذورهـا الى أوائل العصور الوسطى لما انقرضت الامبراطورية الرومانيـة القديمة ، وأخذت حكومات القبائل تنضم الى بعضها البعض بفضل جهود ملوكها القوميين الذين استمروا في ضم الامارات الاقطاعية الى حكوماتهم كلما سنحت الفرصة . فلما حلّ القرن السادس عشر كانت هذه الحكومات قد طرأت عليها تغيرات مهمة باتجاه الملكية المطلقة .

وقد أدت أسباب كثيرة الى ظهور الملكية المطلقة نذكرها فيمايلي :

(١) كان امراء الاقطاع الذين قيّدوا الملوك وحدّدوا صلاحياتهم في العصـور الوسطى بمنح الامتيازات وتأسيس البرلمان ، قد فقـدوا زعامتهم ونفوذهم في أواخر العصـور الوسطى . فقد قتـل بعضهم في الحروب الصليبية وهاجر قسم منهم الى الشرق ، وقتـل الكثير منهم في الحروب التي كانوا يشنونها ضد بعضهم البعض أو ضد الملوك ، وقسم سكن في المدن واشتغل بالتجارة وشارك سكان المدن في رغبتهم تأسيس حكومة قوية ومستقرة ، والباقي أخضعهم الملوك بالقـوة فاصبحوا من أخلص اتباع الملكية المطلقة .

(٢) ان الحروب الصليبية شجعت التجـارة بين الشـرق والغرب والسفر الى الاقطار البعيدة ، فنمت بذلك الطبقـة الوسطى وازدادت ثروتها ونفوذهـا ، وكانت تنظر الى الملوك الاقوياء لحمـاية تجارتها وثروتها ورحلاتها من مخاطر النبلاء الاقطاعيين وحروبهم الكثيرة .

(٣) ان الحروب الصليبية والتجارة الخارجية غيرت فعاليات عدد

لشارل . ولما ثار امير مقاطعة گيلدر وحاول ان يقنع الامراء الآخرين بالخروج عن الطاعة ، واستمرت حروب طويلة أثرت على اقتصاديات البلاد ، فقد الامراء عطف الشعب الهولندي الذي كان يريد الاستقرار حتى تعود التجارة الى نشاطها السابق . وفي زمن شارل حافظ الشعب الهولندي على ولائه ، مع ان بوادر الثورة ظهرت في زمانه .

لقد كانت الاراضي المنخفضة اغنى بلدٍ من بين ممتلكات شارل الخامس . فقد ظهرت المدن الصغيرة التي أثرَتْ عن طريق صناعات الالبسة والتعدين (الفحم والحديد) في ليبج ونامور . وقد أكدت المدن الشمالية على الزراعة والتجارة ، كما ان المدن الساحلية أصبحت غنية بواسطة صيد الاسماك وتجارتها . وكانت امستردام مركزا مهما لتجارة الذرة بينما كان انتويرب ميناء عظيما واحتل مكانا ممتازا في التجارة الاوروبية . لقد كانت المدن الهولندية تفتخر بمؤسساتها الحرة وتكره التدخل الاسباني والاجنبي في شؤونها الداخلية . وقد ثار سكان مدينة غنت سنة ١٥٤٠ وعبروا عن سخطهم تجاه سياسة شارل الاسبانية واستخدام ثرواتهم فيالمشاريع الاسبانية وحروب الامبراطورية الرومانية المقدسة ضد فرنسا وايطاليا التي كانت ضد مصلحة هولندا الاقتصادية(١) .

---

(1) Green, op. cit; pp. 229-232.

الحكومات القومية الحديثة

ان اصل ونشأة الحكومات القومية الحديثة ترجع جذورها الى أوائل العصور الوسطى لما انقرضت الامبراطورية الرومانية القديمة ، وأخذت حكومات القبائل تنضم الى بعضها البعض بفضل جهود ملوكها القوميين الذين استمروا في ضم الامارات الاقطاعية الى حكوماتهم كلما سنحت الفرصة . فلما حلّ القرن السادس عشر كانت هذه الحكومات قد طرأت عليها تغيرات مهمة باتجاه الملكية المطلقة .

وقد أدت أسباب كثيرة الى ظهور الملكية المطلقة نذكرها فيمايلي :

(١) كان امراء الاقطاع الذين قيّدوا الملوك وحدّدوا صلاحياتهم في العصور الوسطى بمنح الامتيازات وتأسيس البرلمان ، قد فقدوا زعامتهم ونفوذهم في أواخر العصور الوسطى . فقد قتل بعضهم في الحروب الصليبية وهاجر قسم منهم الى الشرق ، وقتل الكثير منهم في الحروب التي كانوا يشنونها ضد بعضهم البعض أو ضد الملوك ، وقسم سكن في المدن واشتغل بالتجارة وشارك سكان المدن في رغبتهم تأسيس حكومة قوية ومستقرة ، والباقي أخضعهم الملوك بالقوة فاصبحوا من أخلص اتباع الملكية المطلقة .

(٢) ان الحروب الصليبية شجعت التجارة بين الشرق والغرب والسفر الى الاقطار البعيدة ، فنمت بذلك الطبقة الوسطى وازدادت ثروتها ونفوذها ، وكانت تنظر الى الملوك الاقوياء لحماية تجارتها وثروتها ورحلاتها من مخاطر النبلاء الاقطاعيين وحروبهم الكثيرة .

(٣) ان الحروب الصليبية والتجارة الخارجية غيرت فعاليات عدد

الاشتغال بالسياسة الداخلية في اوربا كبير من النبلاء ورجال الدين عن الاشتغال بالسياسة الداخلية في اوربا ووجهوا جهودهم الى الشؤون الخارجيــة والقيام بمشاريع مربحــة في الاقطار النائية الامر الذي قلل من مناوئتهم للملوك فتفرغوا الى تقــوية مملكتهم وازدياد سلطانهم •

(٤) ان الكنيسة كانت ضد الملكية المطلقة ومن ألد اعدائها • لكن الكنيسة في نفس الوقت كانت معادية للاقطاعية والفوضى والبربرية التي سادت في العصور الوسطى • ولهذا فان الكنيسة اتحدت في اول الامر مع الطبقة الوسطى لتأييد الملكية للقضاء على الحروب والفوضى ونفوذ امراء الاقطاع وبهذا ساعدت الكنيســة على تقوية الملوك • ولما بدأ الملوك في اوائل العصور الحديثة بحملتهم ضد الكنيسة والبابا ، وجد رجال الدين انفسهم ضعفاء الى درجــة بسبب نزاعاتهم الســابقة مع الاباطرة والملوك والهرطقة والمنشقين ، لم يستطيعوا المقاومــة فخضعوا لسيطرة هؤلاء وصاروا من مؤيدي الملكية المطلقة •

(٥) ويعد تحالف الطبقة الوسطى النامية مع الملكيــة المطلقة اهم ظــاهرة من ظواهر عصر الانتقال من العصــور الوسطى الى العصور الحديثة • لقد نمت الطبقة الوسطى وازدادت ثروتها وكثر المثقفون من بين ابنائهــا الذين تخرجوا من الجامعات • فلمــا أراد الملوك تأسيس ادارات كفوءة في حكوماتهم كان هؤلاء المثقفين خــير من يستطيع ان يدير الدولة والاجهزة الحكوميــة ادارة حديثــة • فاصبح الموظفون والمستشارون من المثقفين ابناء الطبقة الوسطى • ودفعت هــذه الطبقة المال للدولة عن طريق الضرائب لمواجهة نفقات الدولة وادارتها وحروبها ضد الاقطاعيــة • وبالمقابل منــح الملوك الطبقــة الوسطى الامتيازات

التجارية والاحتكارات والقيام بالمشاريع المربحة وهبات مالية ومعاهدات تجارية ، وقاموا بحماية هذه الطبقة عن طريق استتباب الامن والنظام . وغيرت هذه الطبقة الانظمة والمؤسسات الحكومية الى مؤسسات حديثة ، وأصبح الملوك زعماء لدول قومية تلعب الطبقة الوسطى فيها اكبر دور . وهكذا بتحالف الملكية مع الطبقة الوسطى تماسكت الوحدة الوطنية التي كان يدعو اليها ابناء هذه الطبقة وازداد الوعي القومي ، وأصبح الملوك رمزا للقومية الجديدة .

(٦) لقد كان لتغير أساليب الحرب بظهور الاسلحة النارية والمدافع في القرن الخامس عشر أهمية كبرى في تقوية الملكية المطلقة . وأخذ الملوك بفضل ثروتهم يستطيعون تأسيس جيش نظامي وتزويده بالاسلحة النارية من المدافع والبنادق لدك حصون امراء الاقطاع . ولم يعد الملوك يعتمدون على الجيوش الاقطاعية والمرتزقة وبذلك ثبتوا دعائم الملكية المطلقة على قواعد راسخة وعززوا اركان الحكومات القومية في الداخل والخارج .

(٧) لقد كان لاكتشاف القانون الروماني في أواخر العصور الوسطى اهمية كبرى في تقوية الملكية المطلقة . فبدأ الملوك والامراء يشجعون دراسة القانون الروماني الذي وضعه الامبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادي . فبموجب القانون الروماني يستطيع الملك ان يسن القوانين للدولة ويلغيها متى شاء . ولهذا فان الاعتقاد السائد بان اوامر الملك عبارة عن قوانين مشتقة من القانون الروماني ومخالف لمبادىء العصور الوسطى المبنية على الارتباطات الاقطاعية بين الحكام والمحكومين يجب احترامها . وللتخلص من هذه الارتباطات شجع

الملوك دراسة القانون الروماني في الجامعات . فظهر في بداية القرن السادس عشر طبقة من المحامين درسوا القانون الروماني وأيدوا الملوك في ادعاءاتهم استنادا اليه(1) .

(٨) نيقولا ميكيافلي ١٤٦٩–١٥٢٧ . لقد أيد الكاتب السياسي الايطالي ميكيافلي الملكية المطلقة ، في كتابه الامير وفضّل النظام الملكي المطلق على النظام الدستوري البرلماني ، وفصل بين الاخلاق والسياسة . وأكد على « ان الغاية تبرر الواسطة وان الامير يجب ان يكون مطلقا غير مقيد باعتبارات دينية وأخلاقية لترويج مصالح بلده وتعزيز أركان عرشه . والقوة والدهاء ضروريان للمحافظة على البلاد وادامة سلطة الامير . فيجب ان يكون الأمير قويا كالاسد ومحتالا كالثعلب » . وراجت هذه الفلسفة بين الملوك ولاقت تأييد الامراء في كل مكان في القرن السادس عشر ..

كل هذه العوامل تظافرت لتكوين مجموعة من الدول الحديثة المستقلة على رأسها ملوك قوميين نالوا ولاء شعوبهم ، وقضوا على الاقطاعية وأخضعوا الكنيسة ، ومهدوا السبيل للقومية الحديثة . ومن بين الدول القومية التي ظهرت في القرن السادس عشر واستمرت الى الوقت الحاضر انكلترا ، فرنسا ، اسبانيا ، البرتغال ، السويد والدنيمرك ، وروسيا . وقسم من الدول ظهرت في ذلك الوقت لكن مرّت بنكبات بعد ذلك الى أن ظهرت مرة اخرى في القرن العشرين ، كبولندة ، وهنگاريا . اما ايطاليا فكانت مجزأة الى حكومات المدن

---

(1) Hays, C. op. cit; pp. 23-28.

ومملكة نابولي وصقلية . والمانيا كانت امبراطورية لم تتطور الى حكومة قومية الا في القرن التاسع عشر .

انكلترا

ظهرت حكومتان قوميتان في الجزيرة البريطانية حوالي سنة ١٥٠٠ اولهما انكلترا ، والثانية سكتلندة . كانت انكلترا مملكة منذ القرن التاسع الميلادي ، لكنها لم تكن حكومة قومية حديثة . وكان ملوكها الاوائل من الانكلوساكسون يعتبرون البلاد ملكا لهم . ثم فتحها النورمنديون الفرنسيون في القرن الحادي عشر الذين بسطوا سيطرتهم على قسم كبير من فرنسا بالاضافة الى انكلترا . وقد استولوا على ارلندة (منطقة دبلن) في القرن الثاني عشر ، وامارة ويلز في القرن الثالث عشر ، وحاولوا مرارا اخضاع سكتلندة لكن دون جدوى . وكانت حروب المائة سنة ١٣٣٧-١٤٥٣ ، بدأت كحروب بين العائلتين المالكتين الانكليزية والفرنسية (كصراع بين العوائل الاقطاعية) لكنها انتهت بحرب قومية انتصرت فيها فرنسا واسترجعت كل أراضيها في القارة الاوربية .

لقد اقتصرت ممتلكات الملك الانكليزي بعد ذلك على الجزيرة البريطانية وايرلندة . وفي هذا الوقت بالذات نشأت القومية الانكليزية والشعور بروح الوطنية والاحساسات القومية التي لم تكن موجودة سابقا . وأخذت اللغة الانكليزية طابعا ادبيا قوميا ، وترسخت مؤسساتها وأخذت طابعا وطنيا . وبعد انتهاء حروب المائة سنة بعدة سنوات ، نشبت حرب دموية عُرفت بحرب الوردتين بين عائلتي يورك

ولانكستر على العرش الانكليزي استمرت من ١٤٥٥ الى ١٤٨٥ انتهت بمقتل الملك ريچارد الثالث في معركـة بوسورث وتبوأ هنري تيودور العرش سنة ١٤٨٥ باسم هنري السابع .

حاول هنري السابع ١٤٨٥-١٥٠٩ ، تأسيس مملكة قوية ، وكان البرلمان الانكليزي قد قيد سلطة الملوك منذ القرن الثالث عشر . وكان لحـروب الوردتين تأثيران ، اولهمـا أن عـددا كبيرا من النبـلاء من الجانبين قد قتلوا ، فصادر الملك أملاكهم وقضى على نفوذهم . وثانيا ، لما كان الصـراع طويلا فقد ملّ النـاس بسببه وأخـذوا يتوقون الى السلم . واعتقدت الطبقة الوسطى بصورة خاصـة بان الامن والنظام لا يمكن ان يسود في البلاد الا بتقوية الملكيـة على حساب النبلاء . وقد استطاع هنري ان يثبت الملكية المطلقة ويقويها بحيث استمرت الى منتصف القرن السابع عشر ، عندما نشبت الثورة الانكليزية .

لقد قضى هنري على الثورات والعصيان بيد من حديد ، وأسس محكمة عليا لمحاكمة النبلاء ، سميت فيما بعـد بمحكمة قاعة النجوم . كما أن الملك كان مقتصدا ، واتبـع سياسة اقتصادية في الداخل وطبق سياسة سلمية في علاقاته الخارجيـة . فقلل هنري من المصروفات وقرر ان يزيد الواردات بزراعـة الاراضي العائدة للتـاج وجمـع الرسوم الاقطاعية والغرامات والهدايا ، والگمارك والمكوس والمنح البرلمانية .. ولما كان ايراد الملك متكون مما يجبيه هو على الاكثر ، قلّ اعتماده على المنح البرلمانية ، فقلت سلطة البرلمان ، ولم يجتمع سوى خمس مرات في مدة حكم هنري السابع ، وكان طوال هذه المـدة خاضعا لاوامر الملك وتنفيذ رغباته .

اجتنب هنري السابع الحروب الخارجية . وحاول ان يروج مصلحة بلاده باساليب اخرى ، فأبرم عدة معاهدات تجارية لمنفعة التجار الانكليز اهمها المعاهدة التجارية المعروفة بمعاهدة التبادل العظيم بينه وبين أمير برگنديا سنة ١٤٩٦ ، بموجبها تعهد الامير باستيراد البضائع الانكليزية الى الاراضي المنخفضة . وقد شجع هنري الشركات التجارية الانكليزية في القيام بالتجارة الخارجية ، وأرسل جون كابوت لاكتشاف اراضي جديدة في العالم الجديد ، فاكتشف ساحل نيوفوندلاند في كندا الشرقية . وقد عزز هنري مركز عائلته بزواج ابنه الكبير آرثر من كاترين أرگون بنت فردنند وايزابيلا ملك وملكة اسبانيا . ولما توفي آرثر بعد عدة اشهر من الزواج ، دبر الملك زواجها من ابنه الثاني هنري الثامن فيما بعد . كما تزوجت مارگريت بنته من جيمس الرابع ملك سكتلندة بغية توحيد العرشين الانكليزي والسكتلندي في المستقبل . وهكذا أصبحت انكلترا في مطلع القرن السادس عشر دولة ملكية مطلقة يعتمد الملك في حكمه على ولاء الشعب له ، وقلّت سلطة البرلمان .

سكتلندة :

كانت سكتلندة دولة قومية سنة ١٥٠٠ ، لكنها اضعف من انكلترا بكثير . وكان ملوكها من عائلة ستيوارت أقل حظا من ملوك انكلترا في القضاء على النظام القبلي والنبلاء الاقطاعيين ، وتأسيس ملكية مطلقة . وفضلا عن ذلك فان عدائهم لانكلترا اجبرهم على أن يعتمدوا على المساعدات الاجنبية وبصورة خاصة فرنسا . لكن مع ذلك فان اللغة الانكليزية أخذت تشق طريقها في سكتلندة ، وتحل محل اللغة الغالية في اغلب الاماكن . وعلى أي حال كانت العائلة المالكة السكتلندية آلة

بيد الاجانب وخاصة الفرنسيين ضد انكلترا ، ولم تلعب دورا رئيسيا في السياسة الاوربية .

البرلمان الانكليزي :

لقد تطور البرلمان الانكليزي من هيئة من النبلاء او اللوردات وجدت قبل الفتح النورماندي سنة ١٠٦٦ ، وأصبحت تسمى بعد الفتح بالمجلس الكبير . وكانت وظيفته ابداء المشورة الى الملك ومنعه من فرض الضرائب الفادحة . وكان الملك يستمع اليهم دون ان يكون ملزما بأخذ رأيهم . غير ان دعوة المجلس في اوقات معينة اصبحت تقليدية بمرور الزمن ولم يستطع الملك الاستغناء عنه للبت في القضايا المهمة .

وحدث أن قيَّدَ البارونات ملك جون على منح لائحة العهد الاعظم (الماگناكارتا) سنة ١٢١٥ ، التي بموجبها : (١) قيدت سلطة الملك جون في ادارة المحاكم . (٢) تشريع القوانين وفرض الضرائب وجبايتها اصبح من حق ممثلي الشعب المجتمعين في مجلس خاص . (٣) تبرير حق الثورة ضد الملك المستبد . واصبح المجلس الكبير يجتمع بين حين وآخر بعد ذلك للنظر في تنفيذ مواد الماگناكارتا . وفي اجتماعات البرلمان سنة ١٢٥٤ ، و١٢٥٨ ، اضطر الملك ان يمنح سكان المقاطعات حق ارسال ممثلين اثنين من الفرسان عن كل مقاطعة ، كما طلب البرلمان من الملك تأسيس مجلس دائمي منتخب من البرلمان لادارة الجهاز الحكومي والقيام بالاصلاحات اللازمة في أجهزة الدولة سنة ١٢٦٥ . وكان البرلمان النموذجي الذي اجتمع سنة ١٢٩٥ على غرار مجلس الطبقات في فرنسا مكون من ثلاث قاعات . وفي المدة التي تلت هذا التأريخ كان البرلمان يجتمع بهذا الشكل . غير انه في مطلع القرن

الرابع عشر اخذ البرلمان يتطور نحو نظام المجلسين باجتماع رجال الدين الكبار مع اللوردات ، دون صغار رجـال الدين مكونين بذلك مجلس اللوردات الدينيين والدنيويين . كما ان فرسان المقاطعات وممثلي سكان المدن مع ممثلي رجال الدين الصغار اجتمعوا لتكوين مجلس العموم . وقد استطاع مجلس العمـوم خلال القرن الرابع عشـر ان يحصل على امتيازات كثيرة منها : (١) عدم التصويت على ميزانيـة الدولة الا في نهاية الجلسة الاخيرة لمجلس العموم وذلك بعد ان ينفـذ الملك مطاليب مجلس العموم . (٢) يجب على الحكومة تقديم قائمـة الحسابات الى البرلمان لمعرفة الواردات والمصروفات وأوجـه النفقات . (٣) لا يجوز الغاء اية لائحـة وافق عليهـا البرلمان الا بموافقـة مجلس العمـوم . (٤) يجب ان يوافق البرلمان على تعيين وزراء الملك لمراقبة تنفيذ النقاط المذكورة . (٥) اذا لم يوافق الملك على تحديد صلاحياته بالشكل المار الذكر فعليه ان يتنازل عن العرش[1] .

لقد كانت وظيفـة البرلمـان تزويد الملك بالمـال بشكل الضرائب المباشرة وكان من حقـه الامتناع عن دفع المـال اذا أراد . ولمـا كانت الضرائب المفروضة على الطبقة الوسطى اكثر بكثير مما هو مفروض على النبلاء ورجال الدين ، جرت العـادة تقديم اللوائح الماليـة الى مجلس العموم قبل اللوردات للمناقشة والمصادقة . وقد اتخـذ مجلس العموم حاجـة الملك الى المال سـلاحا للحصول على الامتيازات فصار تشريع القوانين وفصل الموظفين الفاسدين من حقه . وقد حل التشريع البرلماني

(1) Monroe, D. The Middle Ages (New York, 1928), pp. 425-426

بالقرن الخامس عشر . وهكذا باللوائح محل التشريع بالعرائض في القرن الخامس عشر . وهكذا استطاع البرلمان ان يسيطر على اجهزة الحكم في انكلترا .

فرنسا

لما ارتقى هيو كابي العرش سنة ٩٨٧م ، كانت فرنسا عبارة عن باريس واطرافها . وقد استغرق توحيد فرنسا خمسة قرون مضنية من التطور التأريخي للقضاء على الحروب والمؤامرات الاقطاعية . وكان لملوكها العظام من امثال فيلب اغسطس ، ولويس التاسع ، وفيلب الرابع (الوسيم) دور كبير في تقوية فرنسا في القرن الثاني عشر والثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر . وبموت فيلب الرابع سنة ١٣١٤ ، تغيرت الاحوال ، فقد مات اولاد فيلب الثلاثة (لويس العاشر ، وفيلب الخامس، وشارل الرابع) واحدا بعد الآخر دون ان يتركوا وريثا من الذكور ليخلفهم ، فانتقل العرش الى فيلب ڤالوا Valoi ، ابن اخ فيلب الرابع الوسيم ، سنة ١٣٢٨ .

وقد نشبت حرب المائة سنة في هذا الوقت بين انكلترا وفرنسا لان ادوارد الثالث ملك انكلترا وجد نفسه احق بالعرش الفرنسي من عائلة ڤالوا ، لانه ابن ايزابيلا بنت فيلب الرابع الوسيم ملك فرنسا . وكان القانون الفرنسي يمنع انتقال العرش الى البنات . وقد استولت انكلترا على كثير من الاراضي الفرنسية ، ودام الصراع بشكل متقطع زهاء قرن . وقد تمكنت الفتاة القروية جاندارك من بث الروح القومية والحماس الوطني في الفرنسيين ، وناشدت الملك شارل السابع ان يقود الجيش الفرنسي لفك الحصار الذي فرضه الانكليز على مدينة اورليان سنة ١٤٢٩ . وبفضل بسالتها استطاعت ان تقود الجيش الفرنسي المتقد

حماسا الى النصر • ومع ان جاندارك وقعت اسيرة بيد البرگنديين فالانكليز ودفعت ثمن بسالتها بالحرق سنة ١٤٣١ ، لكن الانتصارات الفرنسية توالت بعد ذلك وطرد الانكليز من البلاد نهائيا • ولقد عقد الصلح بين الجانبين الانكليزي والفرنسي سنة ١٤٥٣ • ومع ان شارل السابع لم يدافع عن جاندارك أو يسمع صراخها ، لكن انجازاته كانت عظيمة • فقد انهى حروب المائة سنة ، ونظم الجيش ، وبسط سيطرته على النبلاء ومنعهم من الحصول على اقطاعيات جديدة او بناء الحصون، وحدد الضرائب الاقطاعية وفرض سيادة القانون والتشريعات الحكومية لتحل محل التشريعات الاقطاعية • وجلب النبلاء الى البلاط الملكي وعينهم في وظائف الدولة وعاملهم معاملة الموظفين وليس النبلاء • ولقد كانت لتحالف النبلاء الصغار مع النظام الملكي اهمية كبرى في انتعاش الملكية في فرنسا • فقد ادت حروب المائة سنة الى تدهور الاوضاع المالية للنبلاء وعدم استطاعتهم مواجهة الحرب على نفقاتهم ، الامر الذي أدى بهم الى تأييد الملكية • لكن هذا لا يعني ان كبار النبلاء وامراء الاقطاع اصبحوا اداة طيعة بيد الملك[١] •

توفي شارل السابع سنة ١٤٦١ ، وقد رأى انتعاش بلده اقتصاديا بعد الدمار الذي اصابه بسبب الحرب • لكن حكومته كانت لا تزال ضعيفة ، وكان على ابنه لويس الحادي عشر أن يكمل انجازات ابيه •

يعتبر لويس الحادي عشر ١٤٦١–١٤٨٣ ، أشهر ملوك عائلة ڤالوا ، وترك اثرا بالغ الاهمية في حكم مملكته • لم يكن لويس جذابا ،

---

(1) Wiley, op. cit; pp. 140-160.

والمرض الجلدي الذي أصـابه جعله غريب الاطوار . وكان غير هياب وقاسيا لا يرحم ، ومرتابا يشك من اقرب الناس اليه . وقد انهك نفسه وحاشيته بالعمل المتواصل والاسفار البعيدة في انحـاء المملكة . وعلى الرغم من دهائه كان ضحية الاوهـام والخرافات . وقد تجسدت فيـه السياسة الميكياڤلية قبل ان يكتب ميكياڤلي كتابه الامير بنصف قرن . ومع ان لويس الحادي عشر لم يعرف الصدق ، لكنه كان يشعر بالواجب ويعرف ما تحتاجه فرنسا ، وهي ملكية قوية ، وتجـارة مزدهرة والامن والنظام والشهرة في الخـارج . واقتصرت سياسته على ثلاث نقاط رئيسية : (١) الاطاحة بدوقية برگنديا وضمها الى فرنسا ، (٢) القضاء على ما تبقى من الاقطاعية ، (٣) انهاء تدخل انكلترا في شؤون فرنسا . وقد نجح في كل ذلك .

اما بخصوص النقطة الاولى فكان فيلب امـير برگنديا أكبر امراء الاقطاع . كما ان أمير مقاطعة بريتاني لم يكن أقل منه بكثير ، وتصرف كحاكم مستقل . وكان هناك عدد لا يستهان به من امراء الاقطـاع في الوسط والجنوب من فرنسـا ، كالبوربون والاورليـان وغيرهم . ان مشكلة الاقطاع ترجع الى العصـور الوسطى . وقد حاول ملوك فرنسا من عائلتي كاپي وڤالوا التخلص من الاقطـاع بتوسيع اراضي التـاج الفرنسي وترك السـلطة في الملك وحاشيته المبـاشرة ، وتقليـل سلطة الهيئات الاخرى ، والظهور بمظهر السيد اللورد بين الامراء . ولتحقيق هذه الاهداف واجه الملوك معارضة قوية من الكنيسة والاقطاع . كانت الكنيسة تمثل مؤسسة اوربية قوية وكانت في صـراع مستمر مع ملوك فرنسا الذين منعوا تدخـل البابوات في تعين رجـال الدين الفرنسيين

وارسال الذهب الفرنسي الى البلاط البابوي في روما • وبموجب اتفاقية بورجز بين الملك شارل السابع والكنيسة سنة ١٤٣٨ اصبحت سلطة المجلس الكنسي اعلى من البابا ، ولم يعد من حق البابا تعيين رجال الدين في المراتب الكنسية ، ومنعت استئناف الدعاوي الى روما ،وجعلت دفع الاموال الى الخزينة البابوية اختياريا بشكل الهبات • ولما انتصر البابا في مؤتمر فرارة على المجلس البابوي سنة ١٤٤٩ ، لم يكن بالامكان تنفيذ مقررات بورجز ، ووافق لويس الحادي عشر على الغائها سنة ١٤٦١ •لكن لما انتصر فرنسوا الاول في معركة ماريگنانو سنة ١٥١٥ على خصومه ، اتفق مع البابا ليو العاشر على ان يستلم البابا من رجال الدين الفرنسيين مورد سنة عند تعيينهم لاول مرة مقابل حق ترشيح الملك رجال الدين للوظائف الدينية الشاغرة ، وبذلك اتحدت الكنيسة والدولة في فرنسا ولم تؤثر عليها الثورة البروتستانتية •

أما النبلاء فكانوا عقدة أشد خطرا في وجه الملكية من الكنيسة • لقد تضرر النبلاء من حروب المائة سنة بموت عدد كبير منهم ، ودفع قدر كبير من التعويضات المالية للتخلص من الاسر من قبل النبلاء الذين أسروا ، أو لدفع نفقات الحرب • يضاف الى ذلك ان نقص السكان بسبب الحرب والطاعون وترك المساحات الشاسعة جدا من الاراضي غير المزروعة أثرت على اقتصادياتهم • ومع ان صغار النبلاء اصبحوا مع الملك ، لكن كبار النبلاء وخاصة الامراء الذين ينتمون الى العائلة المالكة : كالبوربون والاورليان والآنجو ، كانوا لا يزالون يتمتعون باستقلال ذاتي في اقطاعياتهم وحاولوا ان يجعلوا انفسهم مستقلين عن الملك • لكن شارل السابع ولويس الحادي عشر حاولا التخلص من

نفودهم وتقليل امتيازاتهم وتحرير المجلس الملكي من سيطرتهم . فمنع لويس الحادي عشر النبلاء من فرض وجباية الضرائب دون ترخيص من الملك . وتدخل بنفسه في شؤون القضاء الاقطاعي كما انه قلل من سلطة الهيئات والمجالس المحلية التي كانت تنفذ مصالح النبلاء متحديا بذلك الملك .

لقد كان مجلس الطبقات احد هذه الهيئات . وقد بدأ هذا المجلس كمؤسسة شبه دمقراطية مؤلفة من ممثلي الطبقات الثلاث في البلاد ، وهي الكنيسة والنبلاء والطبقة العامة . وكانت باستطاعة هذا المجلس تقييد سلطة الملك ، فيما لو أقدم النبلاء على ذلك كما فعل اخوانهم في انكلترا . لكن الطبقة الثالثة لم تستطع القيام بذلك نظرا لان التصويت كان بحسب الطبقات وليس الافراد ، وكان النبلاء ورجال الدين يتحدون ضد العامة بصوتين ضد صوت واحد . وقد اعتمد الملك على المجلس الاستشاري الملكي ، وقلل دعوة مجلس الطبقات والاستغناء عنه بعد ان حصل على حق تأسيس الجيش وجمع الضرائب لنفقات الجيش ودفع رواتبهم من مجلس الطبقات الذي اجتمع سنة ١٤٣٨ . وقد تعاظمت سلطة الملك لان مجلس الطبقات فشل في تطوير نظام برلماني تمثيلي يفرض سلطته كما فعل البرلمان الانكليزي . ويعود هذا الفشل بالدرجة الاولى الى وجود مجالس كثيرة في المقاطعات الفرنسية بمعدل مجلس لكل مقاطعة تقريبا . ولم تتطور هذه المجالس الى مجلس واحد كما هو الحال في انكلترا ، علما بان ملوك فرنسا كانوا يشجعون المجالس الاقليمية للتعامل مع كل مجلس بصفة خاصة من ان تتوحد المجالس في مجلس واحد . وحتى اذا اجتمع مجلس كهذا فكان

على الاكثر ينفذ رغبات الملك . وقد ضعف مركز المجلس لان النبلاء كانوا معفوين من الضرائب ولم يجدوا ضرورة الالحاح على اجتماع مجلس الطبقات لغرض فرض الضرائب وجمعها ما دام انهم لا يدفعون الضريبة وبذلك فقد النبلاء السيطرة على خزينة الدولة وازدادت سلطة الملك المطلقة ولم يستطع المجلس ان يمارس القضاء كما هو الحال في انكلترا حيث مجلس اللوردات السلطة العليا القضائية في البلاد .

وقد تمكن لويس الحادي عشر ان ينمي صناعات بلاده بتخفيض الاستيراد ، وتشجيع الصناعات الوطنية كصناعة الحرير في ليون ؛ وتطوير موانىء مارسيليا وشيربرغ ولي هافر .

وقد استطاع لويس الحادي عشر من ضم دوقية برگندي الى فرنسا بعد مقتل اميرها شارل الجسور . وفي الغرب والجنوب الغربي من فرنسا تمكن لويس من ضم آنجو ، وپروڤنس ووصلت حدود فرنسا الجنوبية الى جبال البرنس[1] .

وفي عهد شارل الثامن ١٤٨٣ــ١٤٩٨ ، بزواجه من اميرة بريتاني سنة ١٤٩١ ضم المقاطعة الى فرنسا وبذلك تمت وحدة البلاد .

وقد ظلت المؤسسات السياسية الفرنسية تتطور بصورة تدريجية نظرا لوجود التقاليد المحلية في المقاطعات المختلفة ، مما جعل توحيدها يستغرق وقتا طويلا . لكن الناس في جميع انحاء فرنسا كانوا ينظرون الى الملك كمصدر رئيسي للقانون والامن والنظام وتطبيق العدالة .وكانت جميع العوامل متوفرة لتكوين دولة قومية موحدة ، فكان هناك جيش

(1) Ibid; pp. 232-45

ونظام نقدي موحد ومجلس الطبقات ولو ان الاخير لم يتطور مثل البرلمان الانكليزي ولم يمارس اية صلاحية كما ذكرنا سابقا . ولم تكن في فرنسا ضمانات مكتوبة للحريات الفردية كانكلترا والتي نص عليها الدستور الانكليزي (الماگناكارتا) سنة ١٢١٥ ، واللوائح البرلمانية التي سنت فيما بعد . كما لم يشترك الشعب الفرنسي في الحكومة اشتراكا فعليا كما كان الحال في انكلترا .

وبعد ان اصبحت فرنسا دولة موحدة اخذت توجه سياستها نحو الفتوحات الخارجية . فقد ادعى شارل الثامن عرش نابولي . ففي ١٤٩٤ قاد الجيش الفرنسي لغزو ايطاليا ، وبذلك افتتح عهدا من الصراع الدموي استمر قرونا كثيرة . ومع انه رجع ومات سنة ١٤٩٨ ، لكن خلفه لويس الثاني عشر ١٤٩٨ـ١٥١٥ ، استمر يطبق سياسة سلفه فادعى مملكة نابولي ودوقية ميلانو . لكن في ١٥٠٤ اضطر ان يتنازل عن نابولي لفردنند ملك اسبانيا .

وعلى اي حال فان فرنسا في ١٥٠٠م كانت دولة قومية لها لغة متميزة وأدب قومي وحكومة مركزية راسخة يدين الشعب فيها بالولاء الى الملك ، رمز الوطنية القومية .

اسبانيا

يبدأ تأريخ اسبانيا الحديث بضعف الدولة العربية في الاندلس في القرن الحادي عشر الميلادي . وقد ترقبت الامارات المسيحية ذلك فأخذت تزحف جنوبا وبحذر شديد منتهزة فرصة الصراعات الداخلية . فقد استولت هذه الامارات على مدينة توليدو ووسط اسبانيا في القرن

الحادي عشر ، واستولت على اشبيلية والاندلس في القرن الثالث عشر • وكانت قشتالة تحت سيطرة الامراء المسيحيين الذين كلما زحفوا جنوبا وجدوا ان غالبية السكان المسلمين تركوا المدينة • وبمرور الزمن ظهرت اربعة امارات مسيحية هي : برشلونة وآرگون وقشتالة وليون • واتحدت برشلونة بآرگون في القرن الثاني عشر ، وقشتالة بليون في القرن الثالث عشر وبمرور الزمن اتحدت الولايات المسيحية تحت راية هاتين المملكتين[1] •

لقد كان ملوك قشتالة ضعفاء ومواردهم قليلة ، وحاولوا وضع حد لنفوذ النبلاء • وقد ظهر هذا الضعف في القرن الخامس عشر في شخص الملك جون الثاني ١٤٠٦-١٤٥٤ ، وابنه هنري الرابع ١٤٥٤-١٤٧٤ • وسادت الحروب الاهلية والفوضى في قشتالة ، وحاول حكامها الحصول على مؤيدين بمنحهم الاراضي والوظائف ، فانتقلت معظم الاراضي الخصبة التي هي مصدر ثروة البلاد الى النبلاء الكبار • وساعد ضعف الحكومة الاقتصادي والسياسي على تحويل المملكة الى نوع من اللامركزية التي اصبح النبلاء فيها اقوياء متنفذين ولا يحتاجون الى اوامر ملكية لتأسيس الجيش ودفع الضرائب وتأدية الواجبات • وقد نالت المدن كثيرا من الحريات والامتيازات لان المدن المهجورة لم يكن يسكن فيها المسيحيون ، الا اذا منحوا امتيازات واسعة في ادارة المدينة وسيطرتها على القرى المجاورة • ولهذا كانت المدن في قشتالة تتمتع بادارة مستقلة ومجالس تمثيلية تسمى كورتيز او البرلمان • وفي زمن الملوك الضعفاء في القرن الثالث عشر والرابع عشر ، تكونت

(1) Green, op. cit; pp. 59-65.

تحالفات بين المدن سميت بـ (هيرمنداد) ويعني عصبة الاخوة . ومع ذلك كان الملوك يستطيعون تنفيذ قوانينهم وفرض ضرائبهم وخاصة الضريبة المفروضة على التجارة والتي كانت تسمى الكبالة .

اما مملكة آرگون فكانت تعيش على التجارة بحكم موقعها في الساحل الشرقي من اسبانيا على البحر المتوسط . وقد استولت هذه الامارة على المقاطعات الشمالية الشرقية فاستولت على بلنسية وجزر باليار في القرن الثالث عشر . وتمكنت آرگون بمساعدة كتلونيا الواقعة الى الشمال منها ان تتوسع تجاريا وعسكريا في البحر المتوسط . وبقي المسلمون في آرگون ولم يتركوا مدنهم واراضيهم كما فعل اخوانهم في قشتالة . فازداد نفوس آرگون ، وكانت تجارتها مربحة مع سواحل بحر الادرياتيك واستانبول واسكندرية وشمال افريقية .

وقد تمكن النبلاء من الحصول على الامتيازات الواسعة من الملك في آرگون . ومن اهم هذه الامتيازات عدم الغاء الحقوق الاقطاعية الا عن طريق مجلس النبلاء ، ولا يجوز فرض واجبات عسكرية على النبلاء الكبار خارج البلاد . ويجب ان يجتمع الكورتيز سنويا وتتمثل فيه كافة الطبقات ، وقد وافق الملك على ذلك . وكانت نتيجة الصراع بين الملك والنبلاء للسيطرة على المجلس القضائي الاعلى الذي ينظر في تعهدات الملك في القرن الرابع عشر لصالح الملك ، فالغيت هذه الامتيازات أخيرا .

وفي سنة ١٤١٠ ، توفي مارتن الاول فانتهت بذلك عائلة آرگون لان مارتن لم يكن له وريثا للعرش ، فانتخب الآرگونيون فردنند ابن

جون الاول ملك قشتالة ٠ وتولى بعده ابنه الفونزو الخامس الذي حكم بين ١٤١٦ـ١٤٥٨ ٠

لقد كان زواج فردنند وايزابيلا من صنع جون الثاني ملك آرگون والد فردنند هـذا ٠ وكان هنري الرابـع ملك قشتالة ١٤٥٨ـ١٤٧٤ ، يميـل الى تعيين اخيه الفونزو ملكا من بعـده ٠ ولما مات الفونزو سنة ١٤٦٨ ، قرر هنري أن تكون ايزابيلا أخت الفونزو خليفته في قشتالة ٠ وقد عارض النبـلاء في قشتالة ذلك خوفا من توحيد البلاد ٠ وقد نجح جون الثاني في مخططه لما تمت حفلة زواج ابنه فردنند (الذي وصل سرا الى مدينة بلدوليد متنكرا) بايزابيلا في ١٩ تشرين الاول ١٤٦٩ ، دون رضى هنري ملك قشتالة الذي عارض هـذا الزواج ٠ ولما مات هنري الرابع سنة ١٤٧٤ ، توّجَتْ ايزابيلا نفسها ملكة على قشتالة ، وتغلبت على البرتغاليين الذين أغاروا على قشتالة بغية ضمها الى البرتغال ٠ وفي كانون الثاني ١٤٧٩ ، توفي جون الثاني فحلّ محلّه ابنـه فردنند ملكا على آرگون ٠ وكان فردنند سـابقا يساعد زوجتـه ايزابيلا في قشتالة لطرد البرتغاليين ٠

ان وحدة التـاج لم يعن وحدة اسبانيـا ٠ فكان كل ملك يحكم مملكته ، فردنند في آرگون ، وايزابيلا في قشتالة ٠ ولربما كان لجذور فردنند القشتالية أثر كبير في توحيـد المملكة ، وكان فردنند يشعر انه قشتاني ٠ ورسخت ثورة كاتلونيـا في ذلك الوقت هذا الشعور ، مما دفعه الى المطالبـة بعرش قشتالة بعـد موت هنري الرابع سنة ١٤٧٤ ، منافسا زوجته ايزابيلا ، لكن لم يهتم بالامر عندما رفض طلبه ٠

كانت قشتالة هي المملكة الرئيسية الواسعة ، واتحدت مع آرگون اتحادا فيدراليا راخيا . واحتفظت كل من المملكتين بمؤسساتها السياسية وقوانينها ومحاكمها القضائية وتنظيماتها المالية وقوتها العسكرية ، مستقلة عن الاخرى . وقد وعد فردنند ايزابيلا قبل زواجهما بانه لن يتدخل في شؤون قشتالة . وكانت ايزابيلا هي التي تدير شؤون قشتالة بعد ذلك ، لكن الاوراق والمراسيم كانت توقع من قبل الجانبين .

كانت ايزابيلا ادارية كفوءة ومتدينة ، بينما كان فردنند محتالا وبخيلا ، لكنه كان مخلصا لزوجته ومساعدا قويا لها ، وقد تبادلا الحب والولاء لبعضهما البعض . ومع ان كل منهما تدرب على الادارة والسياسة قبل توليه العرش لكن وجود اقطاعيات قوية ، وموارد قليلة للمملكة ، واختلاف طبيعة المملكتين ، وقوانين متباينة ، حالت دون توحيد المملكتين وتكوين ادارة مركزية قوية . وكان تعصب العاهلان الشديد ضد المسلمين المرتدين واليهود قد افقدهما صوابهما . ولم يعد يطمئنون للمرتدين وعاملوهم معاملة اليهود .

وقد تمكنت ايزابيلا من اعادة النظام الى نصابه بالقضاء على المجرمين وقطاع الطرق . وكان اخضاع النبلاء أشد مهمة واجهت المملكة الاسبانية . فخلال حكم جون الثاني في آرگون ، وهنري الرابع في قشتالة ، سنحت الفرصة للنبلاء والاقطاعيين تقوية نفوذهم واغتصاب الامتيازات من الملك الضعيف . فأصدر فردنند وايزابيلا أوامر ملكية بتدمير قلاع النبلاء والغاء امتيازاتهم وعزلهم عن المناصب التي يشغلونها في الدولة . وقد أمر كورتيز قشتالة (برلمان) بأمر من

الملك سنة ١٤٨٠ ، اعادة الاراضي التابعة للتاج الاسباني ومنع الحروب بين النبلاء أو بناء الحصون . وكانت سيطرة النبلاء على الاراضي بواسطة مؤسسة الفروسية التي تحت تصرفها قوة عسكرية تستخدمها ضد الملك عند الضرورة . غير ان ايزابيلا دبرت انتخاب زوجها قائدا للفرسان عندما مات قائد الفرسان السابق سنة ١٤٧٦ . وفي سنة ١٥٢٣ أصدر البابا أمرا بضم المؤسسة الى التاج الاسباني ، وامتلك التاج بذلك ثروة عظيمة من الاموال والاراضي والقوة والنفوذ العائد الى مؤسسة الفروسية .

لقد كان الملك يرغب فرض ارادته على النبلاء وتقليم أظافرهم ، واخضاعهم لسلطته ، لكنه لم يرغب في القضاء عليهم كطبقة ، انما جلبهم الى البلاط ومنحهم المناصب الرمزية دون السلطة . وانتقلت الصلاحيات الى الطبقة المثقفة من المحامين وخريجي الجامعات الذين كلفوا بادارة اجهزة الدولة .

ومن اهم اصلاحات فردنند وايزابيلا التي تركت أثرا عظيما ، هو تنظيم الجهاز الحكومي . فقد كان لكل ولاية اسبانية برلمانا على غرار البرلمان الانكليزي يسمى كورتيز . وكان كورتيز قشتالة أهمها قاطبة . واستغل فردنند وايزابيلا الكورتيز هذا للتغلب على النبلاء والقضاء على نفوذهم . ولما انتهت مهمة الكورتيز هذه ، أهمل الملك الكورتيز ولم يستدعه الا لاجل منح الملك المال اللازم ، والموافقة على من يخلف الملكة بعد موتها . ومع ان الكورتيز كان له الحق في تقديم العرائض الى الملك ، لكن فقد صفته التمثيلية تدريجيا .

ومع ذلك فقد ظل الكورتيز بتنظيمه الجديد يتمتع بسلطات واسعة ، ادارية وقضائية وتشريعية والتي كان للبيروقراطية في الدولة القول الفصل فيها . وقد ابعدت الارستقراطية (النبلاء) من البرلمان . وفي سنة ١٤٩٤ ، اعيد تنظيم برلمان آرگون (أو مجلس المملكة) على غرار كورتيز قشتالة . وبصورة تدريجية قل اجتماع الكورتيز الذي كان مقتصرا على ممثلي المدن فقط .

لقد استطاع فردنند وايزابيلا ان يحكما اسبانيا نتيجة انهيار نفوذ النبلاء وحريات المجالس البلدية في المدن ، وعن طريق ممثل الحكومة المركزية الذي كان خاضعا للملك ويتمتع بصلاحيات ادارية واسعة . وقد عين الملك ممثلين من هذا النوع في مجالس بلدية كل مدينة في قشتالة بعد ١٤٨٠ كممثل للسلطة المركزية ومراقبة تحركات النبلاء .

وقد منح البابا سيكستس الرابع سلطات دينية واسعة لفردنند وايزابيلا للسيطرة على الكنيسة الاسبانية وتعيين رجال الدين هناك سنة ١٤٨٢ ، مقابل التأييد والمساعدات السياسية لمغامرات البابوات في ايطاليا . وقد اضاف البابا اسكندر السادس سلطات اخرى لفردنند للسيطرة على التعيينات الكنسية في اسبانيا ،وحل المنازعات الاستعمارية بين اسبانيا والبرتغال ، والتصرف في ضريبة العشر الكنسي في أمريكا بعد اكتشافها . وقد ساعد الكردينال گزمينس Ximenez فردنند وايزابيلا في سياستهما الدينية والتعصب ضد المسلمين واليهود ومنع انتشار البروتستانتية في اسبانيا . وكانت ايزابيلا هي التي عينته سنة ١٤٩٢ وساعدها في توسيع ... التفتيش التي اسسها البابا

سكتس سنة ١٤٧٨ بطلب من ايزابيلا لمعالجة « اليهود المسيحيين » في قشتالة . وكان تعيين الاعضاء من صلاحيات الملك نفسه ، كما ان مواردها من الغرامات والاموال والاراضي المصادرة كانت ملكا للتاج .

أسس فردنند وايزابيلا جيشا قويا مدربا تحت سيطرة التاج ، وقيادة قوية التي من سياستها توحيد البلاد كمصدر رئيسي للثروة التي تحتاجها خزينة الدولة . ولتحقيق هذا الغرض اصلح فردنند نظام الضرائب وجبايتها . كما اصلح العملة ووضع لها مقياسا موحدا . وكانت النتيجة ازدياد المورد السنوي من (٨٨٥٠٠٠) ريال سنويا سنة ١٤٧٤ الى (٢٦) مليون ريال سنويا سنة ١٥٠٤ . الغى فردنند وايزابيلا ضرائب المكس بين اجزاء المملكة الاسبانية . واهتما بالتجارة الخارجية واستغلال أمريكا . وقد اهتما برعي الاغنام لاصدار الصوف الى هولندة ، معتقدا ان ذلك يزيد ثروة اسبانيا . لقد كانت اسبانيا مزدهرة اقتصاديا حين توفي فردنند سنة ١٥١٦ .

بقيت امارة غرناطة العربية المسلمة في الجنوب ، وقد استولى فردنند وايزابيلا عليها في ٢ كانون الثاني ١٤٩٢ ، منتهزا فرصة المنازعات الداخلية في الامارة . وقيل ان ايزابيلا طلبت الجزية من أمير غرناطة سنة ١٤٧٦ ، لكن الامير أجاب ان معمله توقف عن سك العملة الذهبية وتحول الى الحديد . وبعد استعدادات عسكرية استمرت عدة سنوات توجه فردنند وايزابيلا نحو الامارة بحذر وبطء شديدين . وخلال هذه الفترة نشب النزاع بين الامراء حول من يتولى الامارة ، فأدت الخصومات والخيانات الى استسلام الامارة في التأريخ المار الذكر . ومع ان المعاهدة كانت معتدلة في ظاهرها لكن بعد استسلام

الامارة طلب فردنـنـد وايزابيلا من العـرب اعتنـاق المسيحية أو ترك اسبانيا . وفي ١٢ شباط ١٥٠٢ ، امر فردنند ان يهجر البـلاد كل من لم يعتنق المسيحية قبل شهر نيسان من تلك السنة . ولما كان الوقت ضيقا فقد واجه العرب صعوبات جمة في ترك البلاد ، فمات قسم كبير منهم ، والذين بقوا اعتنقوا المسيحية . وقد طرد اليهود من اسبانيـا في نفس الوقت . ان مسؤولية هذه الفاجعة تقـع بالدرجة الاولى على ايزابيلا ومستشارها الكردينال گزيمينس اكثر من فردنند الماكر . وقد انضمت امارة غرناطة الى مملكـة قشتالة لان جيش ايزابيـلا استولى عليها . وهكذا بحلول القـرن السادس عشـر كَوَّنَ فردنند وايزابيلا دولة اتحادية غنية ذات سلطة مركزية وحكومة قوية مسيطرة على جميع اجزاء البلاد[1] .

سياسة فردنند الخارجية :

كانت سياسـة فردنند الخارجية موجهـة نحو التوسع وسيطرة اسبانيا في جميـع الأطراف وازدياد هيبة الملك الذي بَيَّنَ رغبتـه في المحافظـة على التوازن الدولي في ايطاليا باعتبـاره ملكا على صقلية . وورث فردنند صراعا عنيفا مع البرتغال بسبب العلاقات السيئة بينها وبين قشتالة ، ازداد ضراوة بعد ان اكتشف كولومبس أمريكا . وكان فردنند في صراع عنيف مع فرنسا حول مقاطعة ناڤار في الشمال والتي قسم منها يقع ضمن حدود فرنسا . وكان فردنند يريد ضمها الى اسبانيـا . كما ان تولية من يخلفه عرش قشتالة وآرگون قد أشغل باله مدة من الزمن ،

(1) Ibid.

وكانت النتيجة ان ترك فردنند صراعا عنيفا بين آل هبسبرگ والعائلة المالكة الفرنسية استمر قرونا عديدة .

كان فردنند يرغب ترك اسبانيا امبراطورية قوية غير مجزأة بعد موته . ولتنفيذ هذا الغرض وضع سياسة دقيقة مدروسة . كان لفردنند وايزابيلا ابن اسمه « جون » ، وأربع بنات : ايزابيلا ، جوانا ، ماريا ، وكاترين . ولما كان جون وليا للعهد أراد فردنند ان يزوجه من عائلة تخدم مصلحة العائلة المالكة الاسبانية وتزيد من هيبة اسبانيا وقوتها . وبعد مفاوضات طويلة تزوج جون من الاميرة مرگريت بنت الامبراطور مكسمليان هبسبرگ اكبر عائلة مالكة في اوربا واهمها . كما ان « جوانا » بنت فردنند تزوجت من فيلب هبسبرگ ابن الامبراطور مكسمليان . وقد تزوجت ايزابيلا البنت الاكبر لفردنند من عمانوئيل ملك البرتغال تمهيدا لتوحيد شبه جزيرة ايبريا . اما كاترين فتزوجت من ارثر ابن هنري السابع ملك انكلترا . كانت هذه السياسة التي اتبعها فردنند تدل على انه كان يريد تطويق فرنسا . وقيل انه لما اشتكى الملك الفرنسي لويس الثاني عشر وقال بان فردنند « خدعه مرتين » ، أجاب الاخير « انه كذاب فقد خدعته عشرات المرات »[1] .

مات جون سنة ١٤٩٧ ، كما ان زوجته الجميلة ولد لها مولود ميت ، فتحطمت بذلك آمال فردنند وايزابيلا ، وراودتهم المخاوف من انتقال العرش الى الاجانب (أحد أولاد بناتهما الثلاثة) . ولما ماتت ايزابيلا بنت فردنند تزوج عمانوئيل أختها ماريا بنت فردنند أملاً بضم

(1) Ibid; pp. 65-69.

اسبانيا الى البرتغال . وقد ماتت ماريا سـنة ١٥١٧ ، فتزوج عمانوئيل من الينورا أخت الامبراطور شـارل الخامس . وفي نفس الوقت انتقل عرش اسبانيا الى جوانا بنت فردنند .

توفيت الملكة ايزابيـلا سنة ١٥٠٤ ، وأوصت بانتقال العرش الى بنتها جوانا وابنها من بعدها ، على ان يكون فردنند وصيا الى ان يبلغ الاخير سن الرشد . وقد نفذ فردنند الوصية بحذافيرها ، رغم انه لم يكن يميل الى حفيده شارل ابن جوانا وفيلب ، لان تربيته وثقافته كانت هولندية وليست اسبانية .

ولما توفي فيلب ابن مكسمليان وزوج جوانا بنت فردنـنـد سنة ١٥٠٦ ، تخلص فردنند من خصم عنيد ينافسه في ادارة قشتالة . ومـع ان فردنـنـد تزوج سـنة ١٥٠٥ ، من الامـيرة جيرمين بنت أخت الملك الفرنسي ، أميرة ناڤار ، لكن الابن الذي ولد لهما مات بعد بضعة ساعات من الولادة ، فانتقـل العرش الاسباني الى شـارل ابن جوانا وحفيـد فردنند ومكسمليان .

كان فردنند سياسيا ودبلوماسيا تتمثـل فيـه السياسة الماكياڤلية السـائدة في ذلك الوقت . ولم يكن يلتجيء الى الحرب طالمـا كانت الدبلوماسية تحل المشاكل . واذا التجـأ الى الحرب فيجد من يحارب من أجله كي يحافظ على ثروته ، وعلى اقتصاديات البـلاد . وبينما كان شارل الثامن ملك فرنسا يغزو ايطاليـا ، اتفق فردنند مع هنري السابع ملك انكلترا على التدخل في مقاطعة بريتاني ، واضطر شارل ان يتنازل بموجب معاهـدة برشلونة عن مقاطعتي روزلون وكاردگان واعادتهمـا

الى اسبانيا سنة ١٤٩٢ .

وقد تمكن فردنند خلال السنوات الاخيرة من حكمه أن يحل مسألة ايطاليا لصالح اسبانيا وابعاد فرنسا عنها ، ووضع حد لادعاء البابوات ، والحصول على مملكة نابولي وصقلية . وقد هزم فرنسا واجبرها على التنازل عن نابولي لاسبانيا بموجب معاهدة بلوا بينه وبين لويس الثاني عشر ملك فرنسا سنة ١٥٠٤ ، وقد حصل فردنند على نافار سنة ١٥١٥ .

توفي فردنند سنة ١٥١٦ ، بعد ان كوّن امبراطورية واسعة من دولة مجزأة وجعل من اسبانيا أقوى دولة في اوربا وأغناها[1] .

البرتغال :

اصبحت البرتغال دولة قومية سنة ١٥٠٠ ، بفضل جهود ملوكها ، وبفضل الاستكشافات الجغرافية التي خلدت اسم الامير هنري الملاح . لقد كانت لغة البرتغال كنظيرتها الاسبانية مشتقة من اللاتينية . وقد تطور الادب البرتغالي وأصبح أدبا قوميا له مميزاته ، كما تطور الادب الاسباني بتغلب لغة قشتالة على آرگون . أما نظام الحكم في البرتغال فكان سائرا نحو الملكية المطلقة .

السويد والنرويج والدانيمرك

تكونت هذه الدول السكندناقية الثلاثة في العصور الوسطى لما كان الڤايكنگ يغيرون على سواحل انكلترا وفرنسا وجنوب ايطاليا واستعمروا آيسلندة وگرينلاند ، واستولوا على فنلندة وروسيا . ان

(1) Ibid.

الشعوب السكندناقية الثلاثة متشابهة في اللغة والجنس والمميزات الاجتماعية الاخرى . وقد اتحدت البلدان الثلاثة بزعامة ملك الدانيمرك بموجب معاهدة كالمر سنة ١٣٩٧ . لم يكن هذا الاتحاد مرغوبا من قبل شعوب دول سكندناقيا فثارت السويد واستقلت واصبحت دولة قومية بزعامة گوستافز فازا Vasa ١٥٢٣ــ١٥٦٠ ، ملك السويد . لكن النرويج وآيسلندة وگرينلند ظلت تحت سيطرة الدانيمرك . حاول ملك السويد والدانيمرك السيطرة على الكنيسة وتوسيع اراضيهما والتقليل من سلطة البرلمان ونفوذ النبلاء . وقد نجحت الدولتان في مهمتهما الى درجة كبيرة . واصبحت كل من السويد والدانيمرك ملكية مطلقة .

لقد ظهرت حكومات قومية في شرقي اوربا كانت لها بعض الاهمية في مطلع القرن السادس عشر أهمها بوهيميا وهنگاريا وبولندة وليتوانيا وامارة موسكو .

بوهيميــــا :

كانت بوهيميا مماكة منذ القرن الثاني عشر ، لهـا لغتها وأدبها القومي وشعورها الوطني . ولما كان الچيك ، وهم من السلاف ، محاطون بالعنصر الالماني ، كانت بوهيميا تشترك في انتخاب امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة . لقد كانت بوهيميا ملجأ للمهاجرين الالمان والنفوذ الالماني ؛ ولهذا فان تأريخها مع تأريخ المانيا . وكانت الملكية في بوهيميا انتخابية ، وكان النبلاء ينتخبون الاجانب على الاكثر . وفي سنة ١٤٧١ ، انتخب امير بولندي ملكا على بوهيميا . ولما انتخب نفس الامير ملكا على هنگاريا سنة ١٤٩٠ ، ونقل عاصمته الى بودابشت ، وقعت بوهيميا تحت سيطرة الاجانب .

وفي سنة ١٥٢٦ قتل ملك بوهيميا وهنگاريا في معركة موهاكس مع الدولة العثمانية ، فاجتمع نبلاء المملكتين وانتخبوا فردنند هبسبرگ أخو الامبراطور شارل الخامس ، ملكا عليهم • وبعد ذلك اصبحت بوهيميا وهنگاريا جزءا من ممتلكات آل هبسبرگ •

هنگاريا :

كانت هنگاريا مملكة قوية في العصور الوسطى ، وكان سكانها المجريين من المغول المهاجرين • وقد حافظوا على كثير من تقاليدهم القومية واحتفظوا بكيانهم الوطني الى درجة كبيرة • لكن الطبقة الارستقراطية اصحاب الاراضي في المجر كانت على درجة كبيرة من النفوذ لم يفسحوا المجال لظهور الطبقة المتوسطة من اصحاب المال والثروة • ولهذا فالفلاح المجري كان اسوأ حالا من فلاحي اوربا الغربية • كما ان النبلاء جعلوا الملكية انتخابية ، لذا لم يفسحوا المجال لظهور الملكية المطلقة •

لقد اندحرت هنگاريا أمام الجيش العثماني في معركة موهاكس سنة ١٥٢٦ وانقسمت المملكة بين السلطان والامبراطور الالماني • وكانت حصة الامبراطور من نصيب أخيه فردنند •

بولندة وليتوانيا :

كانت بولندة مملكة منذ سنة ١٠٠٠ الميلادية ، لكنها كانت ضحية الانشقاقات الداخلية والغارات الاجنبية وخاصة الالمانية • ولم تستطع حتى القرن الرابع عشر ان تحرر نفسها من الامبراطورية الرومانية المقدسة • وعندئذ فقط اصبحت دولة مستقلة • اما ليتوانيا فظهرت

كدولة له سنة ١٢٥٠م • وفي سنة ١٣٨٦ انتخب ملك ليتوانيا ملكا على بولندة فاتحدت الدولتان • وقد توسعت المملكتان المتحدتان في وسط وشرقي اوربا بحيث كانت في سنة ١٥٠٠ من اقوى الدول الاوروبية • غير ان الانشقاقات الداخلية بين الليتوانيين والبولنديين والاجانب داخل دولة واحدة ، ووجود طبقة قوية من النبلاء الذين أصروا على النظام الملكي الانتخابي ، وابتزاز الامتيازات من الملك قبل انتخابه ، وعدم افساح المجال لنمو الطبقة الوسطى ، كما هي الحالة في المجر ، وعداء الالمان المستمر ، وخطر الدولة العثمانية الى الجنوب منها ، انذرت الدولتان المتحدتان بالزوال ، وإن تأخر ذلك قرنين من الزمان تقريبا •

امارة موسكو وروسيا :

سكن الروس ، وهم من السلاف ، في الاراضي التي يسكنونها منذ القديم • وقد أغار السكندناڤيون السويد على البلاد في القرن الثامن الميلادي وأسس أحد زعمائهم بأسم روريك ، دولة سميت فيما بعد بدولة كييف • وقد استمرت هذه الدولة الى أن استولى المغول على البلاد وانهوا دولة كييف سنة ١٢٥٦ • وظلت روسيا تحت سيطرة المغول اكثر من (٢٠٠) سنة •

وقدتمكن امير موسكو ايڤان الثالث ١٤٦٢ـ١٥٠٥ ، وهو من سلالة روريك السكندناڤي ، ان يخلص نفسه من سيطرة المغول ، وأن يؤسس دولة قومية مستقلة عاصمتها موسكو بحلول القرن السادس عشر • وقد وسع أراضيه شمالا وشرقا وجنوبا فاستولى على مدينة نوڤگورود التجارية وپسكوف ، ووصل شمالا الى المحيط المنجمد

الشمالي ، ومن الشرق وصل الى جبال اورال • وقد تزوج ايفان الثالث من الاميرة صوفيا احدى قريبات الامبراطور قسطنطين الحادي عشر آخر الاباطرة البيزنطيين • وبتأثير زوجته البيزنطية ، اعتبر ايفان نفسه خلفا لتراث الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وأصبح يحكم حكما مطلقا ، وأدخل كل مباهج السلطة والعظمة الرومانية التي كانت تمارس في استانبول من ضمنها الصقر الروماني • وقد لقب حفيده ايفان الرابع نفسه قيصرا ، أو امبراطور روسيا سنة ١٥٤٧ • وهكذا ظهرت دولة قومية ملكية مطلقة في روسيا عاصمتها مدينة موسكو •

ظهور الوطنية القومية

National Patriotism

كان للوعي القومي ولروح الوطنية الوثاب اثر كبير في ظهور الحكومات القومية الحديثة في أوربا في القرن السادس عشر • لقد كانت الشعوب الاوربية في العصور الوسطى تتكلم لغات متعددة ، لكن قلما فكر شعب اوربي انه يختلف عن غيره لغة وعنصرا ، اذ كان ولاءه للامبراطور او الملك او الامير او الكنيسة ، وليس للشعب الذي يتكلم نفس اللغة •

غير ان القوميات الاوروبية اخذت تتبلور ، وتنتابها روح القومية في أواخر العصور الوسطى • لقد كانت الحروب الصليبية عاملا مهما في نشر الوعي القومي بتجمع الشعوب الكثيرة والقوميات المختلفة التي سافرت مسافات بعيدة واتصلت بأقوام غريبة تختلف لغة وعنصرا وقومية عن لغتها وقوميتها • فأخذت كل قومية تعتز بأصلها وقوميتها وتغار من

القوميات الاخرى وتزدريها .

كما ان الاقوام التي اشتركت في الحروب الصليبية اخذت تنافس بعضها بعضا ، فقد أدت المنافسة بين الانكليز والفرنسيين والالمان الى نمو الشعور بالقومية الانكليزية والفرنسية والالمانية . وكان لتقدم الالمان شرقا أهمية كبرى في ايقاظ السلاف ومحاولاتهم ايقاف التقدم الالماني ومقاومتهم . فكانت الحروب الدموية بين الفرسان التيوتونيين الالمان والبولنديين في القرن الخامس عشر أدت الى ظهور دولة بولندة القوية . اما من الناحية الدينية فانتشار دعوة جون هس في بوهيميا ، ومكافحة الالمان لها بالقوة أدت الى اخضاع بوهيميا لالمانيا .

ولقد تحولت الاغراض الدينية في الحروب الصليبية وغيرها من الحروب الى اغراض قومية وطنية . فقد بدأت حروب المائة سنة ١٣٣٧ــ١٤٥٣ بين انكلترا وفرنسا كنزاع بين العوائل الاقطاعية ، لكنها انتهت كحرب قومية قادتها جاندارك ببث الحماس القومي في الفرنسيين لطرد الانكليز من البلاد . وخدمت هذه الحروب في ظهور الشعور بالقومية الانكليزية والفرنسية ، ووحدت المتكلمين بالفرنسية تحت راية الملك الفرنسي ، كما وحدت الشعب الانكليزي تحت ظل ملك انكلترا . ونشأ من جراء ذلك نمو الملكية المطلقة التي يمكنها ان تعتمد على وطنية شعبها وولائهم في معالجة القضايا الداخلية والعدوان الخارجي .

لقد كانت الوطنية القومية تعني الولاء للملك اكثر من الولاء للشعب والبلاد . وكان هذا الولاء قويا في البلدان التي وحد ملوكها المملكة التي يسكنها شعب يتكلم لغة واحدة ويخضع لدستور وقوانين

عامة مشتركة . والعنصر الاساس في الوطنية القومية هو اللغة والتقاليد المشتركة ، وروح الوطنية الوثاب المعبر عنها بالولاء للملك . وكان الملوك المطلقين قد لعبوا دورا مهما في نشر الوعي القومي واعلاء هذا الوعي . فكان الملك رمزا للوحدة القومية واستقلالها ، وهو صاحب السيادة القومية . فهو الذي يعلن الحرب ويعقد الصلح ، ويفرض الضرائب ويسك النقود ، ويؤسس الجيش ويقوم بادامته . وقد نمت التقاليد حول المؤسسات الملكية ، وبتأثير الملوك القوميين نشأ الادب القومي .

الادب القومي :

كان لظهور اللغات المحلية والادب القومي في اواخر العصور الوسطى أثر فعال في انتشار الوعي القومي . فقد كانت اللاتينية والاغريقية هما لغتا الادب للشعوب الاوروبية ، وكانت اللاتينية لغة الشعوب الساكنة في اوربا الغربية ، والاغريقية في اوربا الشرقية . وكانت اللغات القومية هي لغة التخاطب فقط ، وبدأ الناس يكتبون رسائلهم بلغاتهم القومية بدلا من اللاتينية .

وقبل نهاية القرن الخامس عشر كانت اللغات المحلية هي اللغة السائدة بين الطبقة المثقفة . وبدأ الناس يكتبون بلغاتهم المحلية ويضعون لها قواعد واصول ، حتى اصبحت كل لغة ، لغة قومية متميزة . فأخذ كتاب الانكليز يكتبون وينظمون الشعر باللغة الانكليزية . وكذلك الفرنسيون والالمان والايطاليون . وبصورة تدريجية اخذت المميزات القومية تعبر عن الشعور القومي واحساساته

كما نجد ذلك في كتابات ميكيافلي في ايطاليا ولوثر في المانيا ، وشكسبير في انكلترا وسير ڤانتيس في اسبانيا .

وصاحب ظهور الادب القومي الشعور بالدفاع عن الوطن والذود عن حياضه وحماية ابناء الوطن في اقصى الارض والولاء للدولة القومية . وكان ذلك رد فعل للبربرية الاقطاعية التي كانت سائدة سابقا .

وقد هددت المثل السياسية والوطنية المعبرة عنها باللغة القومية المؤسسات القديمة في اوربا ، كالاقطاعية والامبراطورية الرومانية المقدسة والكنيسة الكاثوليكية . وقبل نهاية القرن السادس عشر اصبحت لكل دولة كنيستها القومية تقريبا ، وقلت سيطرة البابا على الكنائس حتى الكاثوليكية خارج ايطاليا . وضعفت الامبراطورية الرومانية المقدسة . وأخذ الملوك يستغلون الوطنية القومية لخدمة المصالح الاقتصادية وترويج التجارة الوطنية وتشجيعها .

الفصل الثاني

التقدم الفكري والنهضة الاوروبية

ماذا نقصد بالنهضة الاوروبية :

نقصد بالنهضة الاوروبية التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي طرأت على أوربا في اواخر العصور الوسطى، وبالتحديد من القرن الحادي عشر الى القرن السادس عشر • اما حركة الانبعاث او احياء الحضارة الكلاسيكية اليونانية والرومانية القديمة والتي تسمى Renaissance فقد بدأت في ايطاليا بالتأكيد على الادب والفن والنظر الى الانسان والتغيرات التي حدثت في هذه المجالات في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر • وهذه القرون في الواقع هي عصر الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة •

وكان الايطاليون في فترة الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، اول من لاحظ بان عصرا جديدا قد بدأ بانتعاش اوربا سياسيا واقتصاديا ، تقودها دول اوربا الغربية شمال جبال الألب، وحركة فكرية فنية وادبية تقودها ايطاليا • وقد كان الفرق بين ايطاليا ودول اوربا الشمالية هو ان الاقطاعية لم تنل من ايطاليا تماما ، ورفضت المؤسسات الاقطاعية في وقت مبكر ، ولم تقبل بمملكة متحدة ولا بحكم الامبراطور الالماني • ولم تنتشر الحركة المدرسية (أو نهضة القرن الثاني عشر) في ايطاليا ، ولا تأثرت بالنمط الغوطي في البناء • والاهم

من كل ذلك كان التعليم في ايطاليا مدني بصورة عامة في الوقت الذي كان التعليم كنسيا في بقية انحاء اوربا • من كل ذلك نستنتج ان تقاليد العصور الوسطى كانت ضعيفة في ايطاليا ، ولما كانت المدن الايطالية تتمتع بثروة واستقلال ، وتقوم بالتجارة على النطاق العالمي ، استطاعت ان تسيطر على الريف وتقضي على نفوذ وسيطرة النبلاء ، وتمتص هذه الطبقة وتقودها الى الحياة المدنية ، وتجعل الريف يخدم المدينة وينضم اليها • كما انها اخذت تجرب الفن والادب والسياسة فأحدثت ايطاليا بذلك ثورة ادبية وفنية أخذت تؤثر في اوروبا تأثيرا عظيما • فالايطاليون هم الذين وضعوا أصول الفن في البناء والنحت والتصوير والذوق الادبي ومبادىء التعليم الحر والقواعد الاجتماعية في أوروبا • ولهذا كانت ايطاليا مدرسة الاوروبيين خلال فترة الانتقال الى العصور الحديثة[1] •

تأثير العرب والاسلام على النهضة الاوروبية :

اخذت الحضارة العربية الاسلامية تزحف الى اوروبا منذ اواخر القرن الحادي عشر • وسلكت في طريقها عدة مسالك اهمها طريق الاندلس ، وثانيا طريق جزيرة صقلية ، وثالثا الاتصال بالعالم الاسلامي في الحروب الصليبية • لكن اهم هذه الطرق كان طريق الاندلس ، حيث كانت الحضارة العربية مزدهرة هناك منذ القرن الثامن الميلادي وعلى مرأى قريب من الاوروبيين • وكانت هذه الحضارة قد اسهمت بنصيب

---

(1) G.R. Strayer; E.H. Herbison, Main Stream of Civilization (New York, Harcourt Brace), (1974), pp. 344-352.

وافر في ميادين العلم والمعرفة ، فهرع طلاب العلم من مختلف انحاء اوروبا الى اسبانيا يدرسون ويترجمون ويقتبسون من معالم الحضارة الاسلامية . فدرسوا ابن سينا وابن رشد والرازي والخوارزمي وغيرهم من الفلاسفة والعلماء المسلمين وترجموا كتبهم الى اللاتينية وظل طب ابن سينا والرازي يدرس في الجامعات الاوروبية الى أن ظهر الطب الحديث في القرن السابع عشر . وكان لفلسفة ابن رشد تأثيرا عظيما على الكنيسة المسيحية الى زمن توماس الاكويني . وكانت نتيجة هذه الدراسات والترجمات ظهور حركة فكرية في اوربا في القرن الثاني عشر والثالث عشر سميت بالحركة المدرسية Scholasticism متأثرة بالحضارة العربية الاسلامية . وعن طريق هذه الحركة تمكن الاوروبيون ان يتصلوا بالحضارة اليونانية والرومانية القديمة وبعث هذه الحضارة من جديد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

مظاهر النهضة الاوروبية

من مظاهر التقدم الفكري في اوربا (١) اختراع الطباعة وانتشار المعرفة (٢) بعث الحضارة الكلاسيكية القديمة وشيوع الكلاسيكية والانسانية (٣) تهذيب الفن في عصر النهضة (٤) ازدهار الآداب الوطنية والقومية (٥) تقدم العلوم الطبيعية والنقد التأريخي[1] .

(١) اختراع الطبع

لا يتجاوز عمر المطبعة اكثر من خمسمائة سنة ، وكان الناس قبل ذلك ينسخون الكتب باليد ، ولهذا لم يكن اقتناء الكتب في مقدور كل

(1) Hayes, c. op. cit; pp. 96-135.

شخص • وكانت المكتبات خاصة بالاثرياء والمؤسسات الغنيـة ، الامر الذي جعـل العلم والمعرفة محصورا في فئـة قليلة من الناس • وكان لاختراع الطبع في مطلع العصور الحديثة اهمية كبرى في نشـر الافكار والآراء • والطباعة عملية معقدة اهم ما فيها هي الحروف المتحركة التي تترك اثرا على الورق • ولما كان تطور الورق قد استغرق زمنا طويلا ، لذا يستوجب شرحا وافيا •

الورق :

ان الورق والحبر من اختراع الصين • وكان الصينيون اول من استخدم الورق ، وذلك في القرن الثاني قبل الميـلاد ، وكانوا يصنعونه من الحرير • ولما استولى العرب على بلاد ما وراء النهـر تعلموا صناعة الورق ، واستبدلوا الحـرير بالقطن في زمن المأمون • وانتقلت صناعة الورق الى اليونان وايطاليا واسبانيا • واستبدل الاسبان القطن بالكتان وانتشر هذا النوع من الورق في اوربا الغربيـة • اما قبل معرفة صناعة الورق فكان الناس يستخدمون أوراق البردي في الكتابة ، وهي عبارة عن اوراق متينة ومصقولة تنمو على ضفاف نهر النيـل لكنه كان ثقيلا وغاليا • وقد استخدم الناس في العصور الوسطى الرق في الكتابة وهو نوع من الجلد ، وخاصة جلـد الغزال ، وكان ذا متـانة لكنه كان غاليا ايضا • وقد استمر الناس يفضلون الرق على الورق مدة طويلة ، حتى ان مسـجلي العقود لم يستعملوا غـيره • لكن بعـد منتصف القرن الخامس عشر اخذ الورق الحـديث يحل محل الرق لان المطبعـة كانت تحتاج الى مادة رخيصة وقابلة للطبع عليها بالحروف •

الطباعـــة :

كانت العملية الشـائعة في العصور الوسطى ان يحفر الحروف في الالواح الخشبية او الحجرية بصورة معكوسة واضـافة الحبر اليها • وكانت الحروف المحفورة تترك اثرا واضحا على المادة المطبوعة • وكان الملوك والامراء يحفرون تواقيعهم على الاخشـاب او المعـادن لتوقيع الوثائق والمستندات • وقد تطورت هـذه الطريقة الى سبك الحروف المنفردة من المعدن ومن نفس الحجم وبالشكل الذي يراد ان يطبع به • وكانت فائدة الاحرف المتحركة هي انها يمكن استخدامها دائمـا بتنظيم وترتيب الحروف •

لا نعلم تأريخ الانتقـال من الطبع بالالواح الخشبية الى الطبـع بالحروف المتحركة ، ولا ندري من الذي اختـرع الحروف المتحركة • وقد قيل ان « لورنس كاستر » ، احد سكان مدينة هارلم بهولندة اول من استخدمها في نهاية القرن الرابع عشر واوائل القرن الخامس عشر • لكن لورنس لم يترك شيئا مطبوعا وليس هناك اثبات بانه اخترع الطباعة • والمعـروف بالضـبط ان جـون گـوتنبرگ كـان يسـتخدم الاحرف المتحركة للطباعـة في مدينة مينز الالمانية حوالي سنة ١٤٥٠ ، واقدم المخطوطات المطبوعة هي رسائل الغفران وترجمـة الانجيل التي طبعها گوتنبرگ سنة ١٤٥٤ •

انتشار الطباعـــة :

لقد انتشرت الطباعة في المانيا وانكلترا وفرنسا وايطاليا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ورحب بها الاساتذة والبابوات • وأسس البابا مطبعة في روما سنة ١٤٦٦ ، كما اخذت المـدن الكبيرة تهتم بطبع

وفي مطلع القرن السادس عشر صار نشر الكتب حرفة مربحة • وفي مطلع القرن السادس عشر

الكتب ، وصار نشر الكتب حرفة مربحة • وفي مطلع القرن السادس عشر كان (ألدس مانوشيس) يدير مطبعة قيمة في ڤينسيا ، حيث انتجت كتبا فاخرة تعتبر من التحف الفنية الرائعة • وقد دخلت الطباعة في العالم الجديد بتأسيس مطبعة في المكسيك سنة ١٥٣٦ •

نتائج اختراع الطباعة :

كانت لاختراع الطباعة وانتشارها نتائج مهمة في القرن السادس عشر منها (١) ازدياد الكتب التي لم يكن الناسخ قبل اختراع الطبع ان يكتب منها اكثر من نسختين في السنة بينما كان باستطاعة المطبعة الواحدة في القرن السادس عشر ان تطبع آلاف الكتب في السنة الواحدة • (٢) ان الكتب المطبوعة اصبحت مضبوطة اكثر من الكتب الخطية ، وذلك لتجنبها الاخطاء بقراءة المسودات عدة مرات وترتيب الطبع بشكل تكون النسخ المطبوعة كلها صورة طبق الاصل • (٣) كان من نتائج اختراع الطبع ان انتشرت المعرفة وذلك بازدياد عدد الكتب المطبوعة ورخص قيمتها • فكثر الطلب للكتب وعمت الثقافة بين الناس واصبح باستطاعة النبلاء والطبقة الوسطى تأسيس المكتبات في بيوتهم • (٤) أخذت عامة الناس تنكب على قراءة الكتب وتتذوق الادب بفضل الطباعة ، واخذت الكراسات الرخيصة ذات المواضيع المتنوعة تنتشر بين الناس وتدعوهم الى اقتنائها وتبعث فيهم الرغبة الى التعلم والى النشاط الفكري •

(٢) بعث الحضارة الكلاسيكية

التراث الكلاسيكي :

كانت الطباعة وسيلة مهمة لنشر المعرفة السائدة في ذلك الوقت

والتي عـرفت بالحـركة الكلاسيكية ، أو احيـاء الحضـارة اليونانية والرومانية القديمة •

كـان الاوروبيون على اتصـال بالحضارة اليونانيـة والرومانية القديمة واعتبروهم اسلافهم في الحضارة • وكان عدد لا يستهان به من كتاب وفلاسفة اليونان والرومان معروفين من امثـال ڤرجيل وهوراس وشيشرون والقيصـر • وكانت اللغـة اللاتينية هي لغـة الكنيسة في العصور الوسطى وإن طرأ عليهـا بعض التغيير • وقد انكب الكتّاب ورجـال الدين على دراسـة ارسطو والقـانون الروماني في الجامعات واستقوا منهـا الفلسفة واللاهوت والقـانون الكنسي • وكانت بعض الافكار عن الفلك والطب والكيمياء والتـأريخ مأخـوذة من اليونان والرومان القدماء • وكانت بعض هـذه الافكار تطابق التفسير الديني للكون والطبيعة فقبلوا بها وشجعوا نشرها • وبالاضافة الى ذلك كانت الآثار اليونانية والرومانية القديمة في البنـاء والنحت والتماثيل لا تزال قائمة في ايطاليـا وبلاد اليونان ، وكان الاوربيون يقلدونها في أغراضهم اليوميـة •

لكن خـلال فترة الانتقـال من العصور الوسـطى الى العصور الحـديثة (اي من القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر) اكتشف الاوروبيون الحضارة الكلاسيكية القديمة واستخدموها لانهـا كانت ممتعـة وتحوي الافكار العلميـة الصحيحة • ولربمـا كانت للحـركة المدرسـية في القرن الثاني عشـر والثالث عشـر والمتـأثرة بالحضارة الاسلامية أثر مهم في محـاولة الاتصال بالتراث اليـوناني والروماني

القديم . فمما لا شك فيه ان المسيحيين ترجموا كتب افلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين اليونانيين القدماء من العربية الى اللاتينية واطلعوا على شروح وتعليقات واضافات علماء العرب وفلاسفتهم . فبعثت هذه المحاولة الرغبة فيهم للاتصال بالحضارة اليونانية والرومانية القديمة في مصدرها الاصلي الاغريقي الروماني . وخاصة بعد ان وضع توماس الاكويني حدا لتأثير فلسفة ابن رشد في القرن الثالث عشر . لان بعث الحضارة الطبيعية على الديانة المسيحية في القرن الثالث عشر . لان بعث الحضارة الكلاسيكية كان بعد ذلك بفترة قصيرة .

لقد عبّر بعض المفكرين في عصر الانتقال لاول مرة عن « اعادة الحضارة الكلاسيكية بعد قرون من الظلام » . وكان من بين هؤلاء بترارك ، وبوكاشيو ، وساليوتاتي ، وبروني . وكان الاخير يقول « ان النور عاد بعد قرون من الظلام » . ولم يقصد بروني بذلك ان العصور الوسطى كلها كانت ظلاما حالكا ، انما قصد بذلك عودة الكلاسيك في الفن والادب والنظرة الى الانسان (ككائن يعيش في هذه الدنيا وله كيانه لا كما ينظر اليه رجال الكنيسة) . ولم يقصد به الجوانب الاخرى من المعارف والعلوم التي كانت تتقدم بغض النظر عن الحضارة الكلاسيكية .

وكان الغرض من بعث الحضارة الكلاسيكية افضاء شيء من الكرامة والاحترام للانسان ووجوده . ان مفكري عصر الانتقال او ما يسمى بعصر النهضة ، كانوا يريدون التحرر من القيود التي فرضتها العصور الوسطى بجميع مؤسساتها (كالكنيسة والاقطاع والكفاف الاقتصادي واحتقار النفس والتهيئة للآخرة) ووجدوا في الحضارة

الكلاسيكية القديمة نظرة الى الحياة والانسان والعالم تختلف عن واقعهم فوجدوا في ذلك متعة ولذة واعتبروها أفكارا صحيحة ، او كما يقول بعض مفكري الاستنارة « الثورة ضد اللاعقلانية » السائدة في العصور الوسطى ، واعتبر ذلك « بعث العقل » وليس بعث الحضارة الكلاسيكية . وهذا ما كان يقصد بالرينيسانس Renaissance او بعث اوربا من جديد[1] .

ان بعث الحضارة الكلاسيكية في الادب والفن والنظرة الى الانسان خاص بايطاليا في فترة الانتقال وليس له علاقة بالتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي في اوربا ، كما بينا سابقا . وكانت الدول الاوروبية تتطور سياسيا ، والاقتصاد الاوربي يتقدم على الرغم من بعض النكسات ، والاحوال الاجتماعية تتغير منذ القرن الحادي عشر او قبل ذلك ، بغض النظر عن الحضارة الكلاسيكية القديمة ، وكانت دول اوروبا الغربية شمال جبال الالب تقود هذه الحركة .

كان بعث الحضارة الكلاسيكية في الأدب والفن في اول الامر مجرد تقليد الكلاسيكيين القدماء في كتاباتهم . فكان من السهل على الناقلين تقليد كتابات القدماء وخطاباتهم وحتى أشعارهم وأبحاثهم الاخلاقية والفلسفية . وقد حاول مارسيليو فيسنيو ، وبيكوديلا ميراندولا في القرن الخامس عشر التوفيق بين فلسفة افلاطون والمسيحية لكنه فشل . وقد ظهر النقد اللغوي والتأريخي فقد قام لورينزو فالا (١٤٠٥–١٤٥٧) بدراسة وثيقة قسطنطين الكبير ، التي قيل انه منح

(1) Ernst Breisach, Renaissance Europe, 1300-1517 (New York, 1973), pp. 398-400.

الباباوات السلطة الزمنية فوجد ان هذه الوثيقة مزورة ومن عمل رجال الكنيسة في العصور الوسطى • كما قارن الانجيل اللاتيني بعدة أناجيل اغرقية اصيلة فوجد فيه الاخطاء الكثيرة • وقد أثر اسلوبه النقدي وبحثه التأريخي على الباحثين ورجال المعرفة في الاجيال والقرون التالية من امثال ارازمز ، بيير بيل وڤولتير • وأدى الى ظهور البحث العلمي الذي ساد في القرن التاسع عشر •

فرانسيسكو بترارك ١٣٠٦-١٣٧٤

بدأ بعث الحضارة الكلاسيكية في الادب في ايطاليا على يد فرانسيسكو پترارك ، الذي كرس حياته للتعليم ودراسة الادب • فنظم بعض المقطوعات الشعرية باللغة الايطالية ، الا أنه انصرف الى اللغة اللاتينية القديمة • وكان يشجع ابناء وطنه على دراسة الكلاسيك وتحسين اسلوبهم اللاتيني ، ونظم باللغة اللاتينية وقلد القدماء في كتاباته • فاشتهر بين معاصريه ، وساعده البابوات ماليا ، وسارع الملوك في اكرامه ، وقد منحه مجلس الشيوخ في مدينة ڤنسيا حرية السكنى في المدينة ، وتوجته جامعة باريس ، ومدينة روما باكليل من الغار • وحذا حذوه معظم الكتاب في اوربا الغربية[1] •

لقد شارك جيوڤاني بوكاشيو ١٣١٣-١٣٧٥ ، حماس پترارك الى الادب اللاتيني القديم ، وكتب باللغة اللاتينية اسوة بپترارك • وشاعت الكتابة باللغة اللاتينية في ايطاليا اولا ثم في القارة الاوروبية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر • وكان التأكيد في بادىء الامر على

(1) Ibid; pp. 341-344.

الادب اللاتيني لان اليونانيـة لم تكن قد انتشرت في عهـد پترارك •
وحاول الاخير تعلم اللغة اليونانيـة لكن دون جدوى • وقـد انتشرت
الكتابة باللغـة اللاتينية في اوربا في القرن الخامس عشر والنصف الاول
من القـرن السادس عشـر وأخـذت فرنسـا وانكلترا تهتم بتدريس
اللاتينيـة •

وبعد سقوط استانبول بدأ المهاجرون من اساتذة اللغـة والادب
اليوناني يهاجرون الى اوروبا • وكانت الهجرة قد بدأت منـذ الضغط
العثماني على الامبراطورية البيزنطية حوالي سنة ١٤٠٠ • وكان من بين
هؤلاء المهاجرين في مطلع القرن الخامس عشر احد الاساتذة المشهورين
في اليونانية واسمه كرايسو لورس الذي اسس مدرسة في فلورنسا كان
يدرس فيها الادب والفلسفة اليونانية • وتتلمذ على يده عددا كبيرا من
الطلاب • وبحلول القـرن السادس عشر كانت دراسة اللغـة والادب
اليوناني واللاتيني القديم منتشرة في اوربا • وأخذ التعليم الجديد يحل
محل التعليم القديم المبني على الحركة المدرسية في القرن الثاني عشر •

شيوع الكلاسيكية :

كان التعليم الجديد المبني على الدراسات اليونانيـة والرومانية
القديمـة فاتحـة عهـد جديد شـاعت فيـه الكلاسـيكية
باعتبـار ان الحضـارة الكلاسيكية القديمـة ارقى مـا وصلت
اليه المدنية البشرية • وظل الاسلوب الكلاسيكي شائعا في الادب والفن
الى القرن التاسع عشر • وكان يتوقع من المثقف الاوروبي بالاضافة الى
اتقانه اللغة والادب اليوناني واللاتيني ، استخدام العبارات الكلاسيكية
الرنانة لهوميروس ، وديموستينس وشيشرون في الكتابة ويذكر الاسماء

الكلاسيكية ، وينتهج النهج الكلاسيكي في الاسلوب • كما اذا أراد ان يبني بيتا او صرحا شاهقا فيكون ذلك على الطراز الكلاسيكي المعروف باعمدته الامامية والقبب الرومانية ويزينها بالتماثيل على طراز التماثيل اليونانية القديمة وبالصور الزيتية •

الحركة الانسانية :

كانت الحركة الانسانية مظهرا آخر من مظاهر التعليم الكلاسيكي الجديد المبني على الاعتقاد بان عظمة الحضارة الكلاسيكية القديمة وجاذبيتها هي في كونها انسانية • والانسانية في لغة شيشرون تعني الثقافة والأدب والنضج العقلي الضروري لانسان تربى تربية ممتازة • وكان پترارك اول القائمين بالحركة الانسانية لحماسه الشديد لكتابات شيشرون وتقليده في اسلوبه ونظرته الى الحياة واقتباس عباراته ، وأتباعه فيما بعد حذوا حذوه ، وكتبوا بالاسلوب الكلاسيكي القديم ، واحتقروا الاسلوب اللاتيني السائد في العصور الوسطى • فكان التعليم الانساني الجديد مدني وليس كنسي ، والتأكيد على الدنيا وليس الآخرة • والاهتمام بالانسان ورغباته وتأمين عيش هنيء له وتنمية قابلياته ، دون التزهد ونكران الذات في سبيل الآخرة • ووجد الذين اهتموا بالدراسات الكلاسيكية ان القدماء من اليونانيين والرومانيين اهتموا بحياة الدنيا والانسان أكثر من الآخرة • ولهذا أطلق على كل من اهتم بالكلاسيكية القديمة وأتقنها وعاش كما عاش الكلاسيكيون اسم الانساني Humanist ، والحركة سميت بالانسانية Humanism • وكانت الدراسات التي تؤدي الى هذه الغايات تسمى بالدراسات الانسانية • ولهذا فان اللغة والادب

والفلسفة والتأريخ اليوناني والروماني اعتبرت دراسات انسانية والذي يتقن هذه الدراسات ويكتب باليونانية او اللاتينية القديمة هو انساني ، على ان ينتهج في حياته واسلوب معيشته نهج القدماء اي ان يعيش كما عاش الكلاسيكيون القـدماء • وقد أكدت الجامعـات على الدراسات الانسانية واصبحت اللغـة اليونانية واللاتينية ضمن المنهج الجامعي في الجامعات الاوروبية[1] •

احتقار العصور الوسطى :

ان التأكيد على الحضارة الكلاسيكية ودراستها ، والتقدير العظيم للكلاسيك ، واعتبار كل من اتقن الدراسات الكلاسيكية هو انساني ، كان مصحوبا باحتقار العصـور الوسطى ورفض حضارتهـا واعتبارها عصرا مظلما ساد فيها الجهل والبربرية • فاعتبر الطرز القوطي في البناء والمتمثل في قلاع امراء الاقطـاع رمز للبربرية ، كمـا اعتبرت الحركة المدرسية بانها سـقيمة ، واللاتينية المستعملة في الكنـائس في العصور الوسطى وصفت بانها لغة الرهبان ، واللغات المحلية صبيانية • وهكذا وصفت كل ظاهرة من ظواهر العصور الوسطى بانهـا تدل على الجهل والخرافة ، وادعوا خطأ بان العناصر التي سببت تقدم اوروبا مشتقة من الحضارة الكلاسيكية القديمة[2] •

انتشار الثقافة الجديدة :

كان التعليم الجديد محفزا للاستطلاع والنقد الفكري والثقافي • وأخذ الكتّاب والمفكرون يبحثون عن المخطوطات القديمة في مكتبات

(1) Straeyer, op. cit; pp. 350-351.
(2) Ibid.

الاديرة والابنية المهجورة ومكتبات الاغنياء والكنائس ، فعثروا على كثير من المخطوطات الضائعة كمقالات كونتيليانس عن الخطابة ، وكتابات شيشرون ، وتاريخ الامبراطورية الرومانية للمؤرخ الروماني الشهير تاكيتس ، وليڤي ، ورياضيات ڤيرميكس ، وكتابات ڤيزوڤيس في الهندسة المعمارية . هذا بالاضافة الى آلاف المخطوطات التي كانت تعود الى المفكرين الكلاسيكيين القدماء الذين نالوا شهرة عالمية ودُرِسوا في العصور الوسطى . وصار جمع المخطوطات مهنة لكثير من المفكرين حتى ان بعض الرأسماليين اخذوا يؤسسون مكتبات من الكتب الكلاسيكية لانفسهم . وقد صاحب جمع المخطوطات بيعها وشرائها ونشرها فاصبحت تجارة مربحة . ولكي تنشر المخطوطات اخذ الكتّاب يقارنونها ببعضها البعض وينقدونها ، فظهر بذلك النقد التأريخي واساليب الكتابة التأريخية لاظهار اخطاء الناسخين ، وما صاحب ذلك من بيان صحة وثيقة ما أو زيفها . وبهذه الطريقة تمكن لورينزو ڤالا (المار الذكر) ان يبرهن زيف وثيقة الامبراطور قسطنطين .

لقد شاعت الكلاسيكية والانسانية بين الطبقة المثقفة في اوربا في القرن السادس عشر وكان الاساتذة يتابعون الثقافة الجديدة واكدت اعداد كبيرة من الجامعات المؤسسة حديثا على الدراسات الكلاسيكية والانسانية وخاصة في المانيا والاراضي المنخفضة والسويد وأسكتلندة . وكان لورينزو الكبير رئيس عائلة مديتشي في فلورنسا يساعد الانسانيين ماليا وأسس مكتبة فلورنسا وجمع فيها عددا كبيرا من الكتب اليونانية واللاتينية القديمة . وأسس فرنسوا الاول ملك فرنسا كلية للدراسات

الانسانية ، وشجع الفنانين والمفكرين بالذهاب من ايطاليـا الى فرنسا لنشر المعرفة هنا ك.

اهمية الثقافة الجديدة :

لقد كانت الحركة الانسانية حركة علمية أدبية فلسفية واجتماعية فالانسانيون أحيوا الكلاسيكية القديمـة اللاتينية واليونانيـة وجعلوا الطبقة الحاكمـة في اوروبا يتحمسون لها وللمعرفة الجـديدة . فقـام الانسانيون بذلك بحركة ثورية في النظريات التعليمية وتطبيقها وتحرير العقل والخيال والتصور من قيود العصـور الوسطى بدراسـة الادب والفلسفة والاهتمام بالرياضيات والمهارة الرياضية ونبـذ التعليم القديم الذي كان يمارسـه رجال الدين في العصور الوسطى . وكانت النتيجه ظهور طبقـة مثقفة اتقنوا الكلاسيك وأخذوا يقرأون ويكتبون مثـل الكلاسيكيين القدماء وكانت هذه الدراسات انسانية حرة تنمي المواهب العالية وتحرر الفكر من القيود . وكان الجانب السلبي في هذه الحركة انها كانت مرتكزة على الطبقة الارستقراطية العليا وعدد قليل من الناس من الطبقات الاخرى .

التأكيد على الفردية :

كانت الفردية احد مميزات الثقافة الجديدة والمجتمـع الجديد . فأكد الانسانيون على الثقـة بالنفس ، وان الانسـان فرد متميـز بـ شخصيته وقابليـاته ومواهبه يستطيع ان ينميـه وبذلك يخـدم نفسه وغيره . وان هـذا النوع من الفردية يرفض الولاء للسيد الاقطاعي او للنقابة ، ولا يعترف بالاباطرة والباباوات والملوك فهو سيد نفسه ويكون

رجال الدين ويحتقر العصور الوسطى ونكران الذات . ولكن مع ذلك فهو متمسك بدينه يحب وطنه ومخلص لحكومته على ان يكون له صوت مع بقية مواطنيه في ادارة ماكينة الدولة واجهزة حكومته . ومعظم الذين قاموا بالاستكشافات الجغرافية من كولومبس ، ودياز ، وفاسكو ديگاما الى كورتيز ، وبيزارو وماجلان أكدوا على فرديتهم .

ان بعث الحضارة الكلاسيكية والحركة الانسانية في مطلع العصور الحديثة مهم لانه غيّر افكار الناس عما ساد في العصور الوسطى وقد زال تأثير الكلاسيكية بصورة تدريجية ، واخذت الرغبة للدراسات اليونانية والرومانية تقل بعد عصر النهضة وحلت الاساليب العلمية محل الاساليب الشائعة في الدراسات العلمية وفي دراسة التأريخ . ونظر المفكرون بعد عصر النهضة نظرة عادلة الى العصور الوسطى واعتبروها مرحلة تطورت فيها الحضارة الاوروبية وهي المرحلة التي تسبق العصور الحديثة مباشرة . ولم تكن العصور الوسطى مجردة من كل القيم الحضارية كما اعتقد الناس في عصر النهضة[1] .

تأثير الكلاسيكية على الدين المسيحي :

ان المسيحيين الاتقياء لم يعارضوا التعليم الجديد ولا منعته سلطات الكنيسة . وعلى الرغم من ان بعض رجال الدين شنوا العداء للحركة الكلاسيكية باعتبارها وثنية ، وخافوا من تسرب الوثنية بين الناس ، لكن التسامح الذي ابدته السلطات الدينية والمدنية اظهرت للناس انها ليست خطرة . وكان البابوات من مشجعي الكلاسيك ،

---

(1) Ibid; p. 349.

وخاصة البابا نيقولا الخامس الذي كان ضليعا في الكلاسيك ومنح الناسخين للمخطوطات القديمة جوائز ثمينة ، وجمع مجموعة كبيرة من الكتب الكلاسيكية في مكتبة الفاتيكان ، وقدم اكبر جائزة لمن يترجم أليادة وأوذيسة هوميروس احسن ترجمة . وكذلك البابا پيوس الثاني نال شهرة عظيمة في الكلاسيك قبل ان يرتقي كرسي البابوية ، وجمع المخطوطات الكلاسيكية القديمة . وساعد ليو العاشر الفنانين والانسانيين لرغبته في الفن والموسيقى والمقطوعات الادبية الرائعة .

لقد وجد المسيحيون ان الدراسات الكلاسيكية خدمت الحضارة الاوروبية واصبحت راقية بواسطتها . غير ان تأثير الكلاسيكية المعاكس ظهر بصورة تدريجية لما كثرت الانتقادات للكنيسة ، ومعاداة الانسانيين لبعض الشعائر والطقوس التي تمارسها الكنيسة وقللت من اهمية اللاهوت وانتقدت حياة الرهبنة ونكران الذات ، وهيأت الجو للثورة الدينية والاصلاح الديني[1] .

اشهر رجالات التعليم الجديد :

يعتبر عدد من الكتاب الاوروبيين أشهر رجالات التعليم الجديد من بينهم جون ركلن الذي كان يدرس أبناء الامراء والنبلاء ، وكان ضليعاً في الادب اليوناني . كما ان ابن اخيه فيلب ميلانكتن كان استاذاً للغة اليونانية في جامعة وتنبرگ في المانيا وصديق مارتن لوثر . واشتهر في انكلترا جون كوليت عميد كاتدرائية سنت پول في لندن ، وكان استاذا وواعظا شهيرا . وقد وجه الانسانيون في اوربا الغربية (شمال ايطاليا) همهم نحو التحسن الاجتماعي ونقد الاحوال السائدة . فكتب

(1) Ibid; p. 350.

سير توماس مور ١٤٧٨-١٥٣٥ ، عدد من الكتب التأريخية والسياسية باللغة الانكليزية واللاتينية ، من بينها تأريخ حياة ريچارد الثالث . لكن اشهر كتبه هو كتاب « يوتوپيـا » الذي كتبه باللغة اللاتينية ، وكوّن له شهرة اوروبية ، يصف فيه دولة خيالية على غرار جمهورية افلاطون ، يعيش فيها الناس حياة سعيدة . فكل فرد يعمـل ويفيد ويتمتع بفراغ كاف لاعمال اخرى كالقراءة والكتابة والنوم . ولا تضايقه الضرورات الاقتصادية لان الحاجيات الاقتصادية توزع توزيعا متساويا وعادلا ، اذ ليس هنـاك نقود للتبادل او ملكيـة خاصة . وليست هنـاك حروب واعتداءات لان النظام الثقافي جعل كل واحد حاكم نفسه والمجتمع خال من المجرمين في السجون ، والعبادات مسموحة ، والحرب دفاعي فقط . لكن توماس مور لم يضع حلولا لمشـاكل زمانه ، ولو انه اشـار الى النواحي المهمة لمشاكل مجتمع عصره وعبر عنهـا ببلاغة تامة . لقد كان توماس مور مستشار هنري الثامن ملك انكلترا ولعـل ذلك هو سبب تجنبه وضع حلول لمشاكل عصره .

وكان هناك عدد من الكتـاب والاساتذة في الدانيمرك وفرنسا . لكن من اشهر الاساتذة جميعـا وزعيم الانسانيين في ذلك العصـر هو ايرازمز .

ديسيد ريرس ايرازمز ١٤٦٦-١٥٣٦!

يعتبـر ايرازمز من ابرز الكتـاب في عصر الانتقـال الى العصور الحديثة . فقد كان مفكرا انسانيا ، ولد في مدينـة روتردام بهولندة ، لكنه قضى معظم حيـاته متجولا في فرنسا وانكلترا والمانيـا وسويسرا وايطاليا . وكان متخصصا في اللاهوت واصبح قسـا ، لكنه كان شغوفا

بالقراءة وألف كثيرا من الكتب ونال شهرة بين الانسانيين كأستاذ ومفكر على الصعيد الاوربي اكثر من پترارك في زمانه • وراسل الكتّاب العظام ، وكان على اتصال وثيق بصديقه توماس مور وجون كوليت وليو العاشر ، وشارل الخامس وملوك فرنسا وانكلترا • وكان رئيسا لجامعة باريس مدة من الزمن •

كان ايرازمز يبغي الحقيقة والتسامح والحرية ، على النطاق الديني اكثر منه على النطاق السياسي والاقتصادي ، وكان يكتب لتلك الغاية •

وكرجل مؤمن بالمسيحية لم يناقش ايرازمز سلطة البابا والكنيسة، لكنه كرجل انساني استخف بالخرافات السائدة في الكنيسة واللاهوت والرهبنة والمتعصبين في الدين • كما كان عدوا للجهل والغباوة • وفي كتابه « مدح فولي » The Praise of Folly ، كتبه في دار صديقه توماس مور سنة ١٥١١ ، سخر من نقائص الانسان ، ووجه انتقاداته اللاذعة الى الرهبان ورجال الدين مدعيا انهم يحصرون الدين في الحج الى الاراضي المقدسة والابتهال الى القديسين والتبرك بآثارهم • وعبّر ايرازمز عن كل ذلك على لسان الشخصية الرئيسية في الكتاب وهي امرأة اسمها « فولي » • وقد ترجم الانجيل من الاغريقية الى اللاتينية وكان الاختلاف كبيرا بينه وبين الترجمة الرسمية للكنيسة •

ومع ذلك فان ايرازمز لم يؤيد الثورة ضد الكنيسة ودافع عن البابا وانتقد لوثر • لقد واجهت الحركة الانسانية صعوبات كثيرة في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، لكن الحركة الكلاسيكية

استمرت الى نهاية القرن الثامن عشر مؤثرة على الادب والفن وتكوين الافكار الخاصة بالعلوم الحديثة .

(٣) الفن في عصر النهضة

اظهر الفنانون والادباء الرغبة الشديدة للحضارة الكلاسيكية . وكان الفن في العصور الوسطى مطبوع بطابع مسيحي ، كالكتدرائيات المبنية على الطراز الغوطي وصور القديسين . لكن الانسانيين اظهروا للناس فنونا أقدم من ذلك امتازت بالبساطة والجمال وعدم التكلف ، لكنها متأثرة بالكلاسيكية القديمة . ولهذا فان التأثير الكلاسيكي كان تقديرا للحضارة الوثنية من كل الوجوه .

الكلاسيك والفن :

تطورت الفنون الاوروبية تحت تأثير الحضارة الكلاسيكية في القرن الخامس عشر والسادس عشر . ومع ان كثيرا من حضارة العصور الوسطى بقيت لكنها ربحت كثيرا من بعث الفن الكلاسيكي . لقد كان المصورون Painters ، والنحاتون Sculptors والبناؤن او المعماريون Archetects، يعنون عناية فائقة باظهار نماذج مهمة فيالفن على غرار الفن اليوناني والروماني القديم . وقد امتزج الفن المسيحي بالفن الكلاسيكي تدريجيا باستخدام الفن الكلاسيكي في القضايا المسيحية ، فكانت النتيجة ابتكار فن عظيم هو فن عصر النهضة الذي يمزج بين النزعة الكلاسيكية والمسيحية . وهكذا شاعت الكلاسيكية في الفن كالبناء والنحت والتصوير والتماثيل والموسيقى .

البنــــاء :

حـــل الفن اليوناني والرومـــاني في البنـــاء محل الفن الغوطي • وأخذت الاقواس اليونانية والقبب الرومانية تحل محل الابراج المدببة• واستخدم الفن الكلاسيكي الجديد الذي يمتاز بالبساطة في بناء جميع العمارات في عصر النهضة • وابرز مثال للبناء الجديد هو بنـــاء كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان في رومـــا والتي شيدهـــا ابرز الفنانين في القرن السادس عشر من امثال براماتني ورفائيل وميخائيل انجيلو وبلاديو• كانت ايطاليا مركز البعث في البنـــاء الكلاسيكي اليوناني والروماني في كنف الامراء والنبلاء والأغنياء ، ومنها انتشرت في بقية اقطار اوروبا • وعلى الرغم من اندحار ايطاليـــا السياسي والتجاري بسبب الحروب ، فانها استطاعت ان تغزو اوروبا في الفن •

وقد انتشر الفن الكلاسيكي في البناء في فرنسا في عهد فرانسوا الاول وفي اسبانيا في عهد فيلب الثاني • أما في المانيا وهولندة وانكلترا فقد تأخر البناء الكلاسيكي الى نهاية القرن السادس عشر •

النحت والتماثيل :

يلازم النحت البناء ، فاذا ما حدث تغيير في احدهما يترتب حدوثه في الآخر • وقد ظهرت الحركة الكلاسيكية في النحت في القـــرن الرابع عشر نظرا لوجود المخلفات القديمـــة التي كانت منتشرة في ايطاليا والتي جلبت انتباه الانسانيين • كما ان الاكتشافات الاثرية في القرن الخامس عشر اثرت على عائلة مديتشي في فلورنســـا التي أخذت ترغب في جمع نمـــاذج كبيرة ومؤثرة من الفن القـــديم ، وشجعت دراســـة فن النحت

والتماثيل دراسة علمية . فكانت القطع المنحوتة في اثينا في القرن الرابع
والخامس قبل الميلاد تشبه تماما القطع الفنية المنحوتة في القرن
الخامس عشر والسادس عشر .

كان لورينزو گيبرتي ١٣٧٨–١٤٥٥ ، رأس طبقة النحاتين العظام
في عصر النهضة ، وقد نحت الباب باپتيستري Baptistery في فلورنسا
والذي وصفه ميخائيل انجيلو بانه جدير بان يوضع في مدخل الجنة .
ويعتبر الفنان دوناتيللو ١٣٨٣–١٤٦٦ من اشهر فناني عصر النهضة ،
وقد نحت تمثال سنت مارك في ڤينسيا وهو ذو طابع واقعي . كما اشتهر
لوكاديلا روبيا ١٤٠٠–١٤٨٢ بطابعه الكلاسيكي البسيط ، واسس
مدرسة في النحت لزخرفة القبور . وقد بلغ هذا الفن اوجه في القرن
السادس عشر في زخرفة قبر مؤسس عائلة ڤيسكونتي في ميلانو .
واشتهر ميخائيل انجيلو في النحت كما اشتهر في البناء والتصوير .
وكان تمثاله للنبي داوود في فلورنسا قطعة فنية رائعة للطراز الكلاسيكي.
وهكذا أخذ الفن الكلاسيكي القديم يظهر من جديد . وانتشر النحت
في خارج ايطاليا اكثر من فن البناء . واستدعى كل من هنري السابع
وفرنسوا الاول النحاتين لصنع تماثيلهم . ونحت قبر فردنند وايزابيلا
في اسبانيا على الطراز الكلاسيكي . وظهر النحت الكلاسيكي في المانيا
قبل مجيء لوثر وأخذ ينتشر في اوربا الغربية في القرن السادس عشر .

التصوير Painting

لقد تطور فن التصوير اكثر من النحت ، وكانت الصور سابقا
ترسم على جدران البيوت والكنائس مباشرة ، أو كانت ترسم على
الاقمشة وتلون بالالوان المائية وتسمى فريسكوس . اما في القرن

السادس عشر فان الرسم على الالواح والاقمشة افضل عن الجدران ، واستعملت الالوان الزيتية وبهذه الطريقة بلغ فن التصوير درجة الكمال .

لم تكن هناك نماذج كلاسيكية لفن التصوير . فالتصاوير التي كانت على جدران القصور القديمة اندثرت . وآثار مدينة پومپي كانت لا تزال تحت الانقاض ولم يكشف عنها الا في أواخر القرن الثامن عشر، ولهذا فتصاوير جدرانها لم تكن معروفة في ذلك الوقت . ولما لم يجد الفنانون نماذج من التصوير الكلاسيكي القديم ظلوا يسايرون الاسلوب المسيحي . لقد ظهر عدد من المصورين العظام نخص بالذكر اربعة منهم في القرن السادس عشر لبلوغهم درجة الكمال في النبوغ الفني وهم ليوناردو دافنشي ، وميخائيل انجيلو ، ورفائيل ، وتيتيان .

ليوناردو دافنشي ١٤٥٢–١٥١٩ :

ولد في فلورنسة ونشأ فيها ، لكنه وقع تحت رعاية عائلة سفوررزا في ميلانو ، وعائلة مديتشي في فلورنسا . ومن اشهر تصاويره العشاء الرباني الاخير او ما يسمى بالعشاء المقدس ، لما اجتمع المسيح في ليلته الاخيرة في سفرة عشاء مع الحواريين . وكذلك صورة موناليزا ، الفتاة البريئة من نابولي التي صورها ليوناردو . وكانت الصورتان من ابدع ما انتجه هذا الفنان لامتيازهما بجودة التركيب وفن التلوين والظل والنور الذي بلغ الكمال عنده . يعتبر ليوناردو مصورا استخدم اساليب علمية لانه درس علم التشريح وظهر ذلك في لوحاته . كما انه بنى قنالا كمهندس وحصنا حول ميلانو . واشتغل كنحات وميكانيكي وموسيقي وفيلسوف . وكتب ليوناردو كثيرا ، وكان له عدد كبير من

التلاميذ . وقضى سنواته الاخيرة في فرنسا وشجع انتشار التصوير هنــاك .

ميخائيل انجيلو ١٤٧٥–١٥٦٤ :

أحد اشهر الفنانين ونبغ في كثير من الفنون كليوناردو دافنشي ، ولد ميخائيل انجيلو في فلورنسا ، واصبح مصورا من الطراز الاول ، ونحاتا عظيما ومهندسا معماريا . وقيل انه كان شاعرا وفيلسوفا ، وقسم وقته بين فلورنسا وروما ، وخدم عدد من البابوات الشغوفين بالفن . ومن صفاته البارزة اخلاقه القويمة وشخصيته المستقيمة ، وحبه لوطنه فلورنسا ، واشهر اتناجاته تمثال الملك داوود ، والنبي موسى وبناء كنيسة القديس بطرس في ڤاتيكان ، ورسوماته للخليقة ، والطوفان ويوم الحساب في سقف الكنيسة وجدرانها تعتبر رسوما فريدة في العالم .

رفائيل ١٤٨٣–١٥٢٠ :

بلغ فن التصوير حد الكمال على يد رفائيل . لقد فاق هذا ميخائيل انجيلو في فن التصوير وتناسقه ، ولم يكن هناك من يضاهيه . لقد كان رفائيل رجلا جذابا خدم البابا جوليس الثاني وليو العاشر . واشتغل كمهندس في بناء كنيسة القديس بطرس ، واظهر ميلا للنحت والآثار ، لكن ظهرت عبقريته في التصوير فقط ومن اشهر لوحاته العذراء والمسيح الطفل .

تيتيان ١٤٧٧–١٥٧٦ :

كان تيتيــان من ڤنسيا ويمثل مدرسة ڤنسيا للتصــوير ، ونال الشهرة في الالوان الزيتية المضيئة • وكان تيتيــان متصلا بالامبراطور شارل الخامس وفيلب الثاني وحصل على شهرة كبيرة وثروة واسعة • وفي صوره الزيتية أظهر الحشمة والوقار في التلوين ، وخاصة في تصوير شارل الخامس وابنه فيلب الثاني •

لقد انتشر فن التصوير الايطالي في اوربا الغربيــة وساعد كل من فرنسوا الاول وفيلب الثاني الفنانين ماليا لتعليم الفرنسيين والاسبان • وظهر في ايطاليا مصــور اغريقي تأثر بتيتيان ثم سكن في اسبانيا وهذا المصــور هو الگريكو ١٥٤٢–١٦١٤ • وكانت تصاويره دينيــة تمثل الآلام والكآبة •

وقد ظهــر في المانيــا مصوران عظيمــان همــا : البريخت دورر ١٤٧١–١٥٢٨ الذي كان من نورمبرگ ، وتأثر بفناني ايطاليــا • وكانت تماثيله آية في الجمال ، لكنه اشتهر كنحــات ونقاش • وكنقاش اشتهر تصويره « الفارس والموت » ، وكذلك سنت جيروم في مكتبه •

والثــاني هو هــانز هولبين ١٤٩٧–١٥٤٣ الذي كان من عــائلة اشتهرت بالتصوير في مدينة اگسبرگ في المانيا • وسكن مدة في مدينة بال بسويسرة ، لكنه قضى سنواته الاخيرة في انكلترا في خدمــة هنري الثامن • وقد مزج بين الفن الالماني والهولندي المشبع بالنزعة الانسانية التي ســادت في ذلك العصــر • وقد اشــتهر بتصويره هنري الثــامن وزوجاته ، وتوماس مور ، وايرازمز ، وفيليب ميلانكتن •

الموسيقى :

لا يمكن القول بان الموسيقى تأثرت بالنزعة الكلاسيكية لانه لم يكن هناك اثر للموسيقى اليونانية والرومانية القديمة • انما الموسيقى في القرن السادس عشر تطورت من الموسيقى التي كانت سائدة في اواخر العصور الوسطى •

لقد حدث تغير في الموسيقى في القرن السادس عشر فتحسنت وتناسقت الالحان الموسيقية ، واستحدثت الآلات الموسيقية الحديثة وظهرت افكار جديدة عن الموسيقى والتأليف الموسيقي • وانتشر الموسيقارون في اوربا الغربية وخاصة في ايطاليا وهولندة • وكان هناك بعض الموسيقارين في اسبانيا وفرنسا • وفي المانيا نشر عدد من انغام الصلاة تحت اشراف مارتن لوثر • وفي انكلترا اشتهر جون بول ووليم بيرد واورلاندو گيبسن كموسيقار البلاط الملكي •

اما في ايطاليا فكان پاليسترينا ١٥٢٤-١٥٩٤ اعظم موسيقار في القرن السادس عشر وكان يعزف على الارغن في ڤاتيكان وانتج اكمل نغمة موسيقية دينية صافية واعظمها • وقد ظهرت في ايطاليا مسرحيات وقصص دينية غنائية سميت باوراتوريو • وكانت ايطاليا مركزا للالحان الموسيقية ايضا • وكان جيوڤاني گابريلي ١٥٥٧-١٦١٣ احد مؤسسي الاوركسترا الحديثة ، فأخرج الالحان الموسيقية مع الاصوات الغنائية ومهد السبيل للاوپرا • وكانت ڤنسيا اول مدينة بدأت بطبع الالحان الموسيقية سنة ١٥٠١ •

(٤) الادب القومي

أخذت اللغات القوميـة في اوربا تتكون في العصور الوسطى • وظهرت بعض المقطوعات الاديـة الممتازة باللغـة الايطالية والفرنسية والاسبانية والالمانية والانكليزية • لكن بعث الحضارة الكلاسيكية في القرن الرابع عشـر والخامس عشر وتأكيدها على اللغـة اللاتينية حالت دون تقـدم الكتابة باللغـات القوميـة • وكان عـدد كبير من الادباء والباحثين والمفكرين يكتبون باللغة اللاتينية واليونانية • فكان پترارك وارازمز من بين هؤلاء • وكان هؤلاء الكتّاب يقتبسون عبـارات من ڤرجيل وهوراس وشيشرون ويجتنبون الكتابة بلغاتهم •

غير ان الوضع قد تغير في القـرن السادس عشر • ان الصراعات القومية والاستكشافات الجغرافية والتقدم الاقتصادي في اوربا وحاجة اكثرية الناس الى التفاهم بلغاتهم المحليـة واستعمالها في حياتهم اليومية دعت العلماء والباحثين الى الاهتمام باللغات القومية ووضع القواعد لها وظهرت المعـاجم باللغات الاورويـة كالانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والهولندية والاسبانية • وقد وضـع العالم الالماني كونراد فون جيسنر رسالة باللغـة اللاتينية سـنة ١٥٥٣ يصف فيهـا مائة لغة قومية • وكان هذا التأليف اول خطوة في دراسة علم الاشتقاق المقارن • وهكذا فان القواميس والقواعد ساعدت على وضـع أسس المصطلحات الادبية للغات الاوروبية الحديثة •

لقد كانت المواضيع الاديـة المنشورة في هذا الوقت عبارة عن مقالات دينية ، وكتب الصلواة ، وتراجم الانجيل ، وكان قسم من هذه

لوثر ، وكتـاب الاسقف كرامر للصلوات باللغـة الانكليزية ودستور الدن المسيحي الذي وضعه جون كالڤن يعتبر من اعظم القطـع الادبية الخالدة في الادب الالماني والانكليزي والفرنسي . كما ان تأريخ حياة القديسة تريزا من قبل المؤلفة نفسها من اروع ما كتب باللغة الاسپانية. وكان لظهور البروتستانتية والاصـلاح الديني اثر كبير في نمو اللغات القومية بسبب تأليف عـدد كبير من الكتب والمناشـير ضد الكنيسـة الكاثوليكية او للدفاع عنها مما اجبر النـاس على قرائتها ومهد السبيل لتآليف ارقى باللغات القومية .

كان الانتاج الادبي في القرن السادس عشر قوميـا ، وكان قسطا كبيرا منه في السياسة والتأريخ والاسفار . وبلغ قسم منه درجة عظيمة من الرقي .. ويقع ضمن هـذه المجموعة كتاب الامير وتأريخ فلورنسا لميكياڤيلي ، وحياة الفنانين في ايطاليـا لمؤلفه ڤيزاري ، وكتاب يوتوپيا لسـير توماس مور ، والاسفار البحـرية لهكلويت في انكلترا ، وتأريخ اسبانيـا لمؤلفه جيزويت ماريانا ، وكتـاب الجمهوريـة (في الفلسفة السياسية) للكاتب الفرنسي جان بودان[1] .

لقد كان الانتـاج الادبي في عصر النهضـة مطبوعا بطابع الوثنية الكلاسيكية والانسانية ، ويؤكد على متعة الحياة ، وكان قسم منها آية في الذكـاء والنبوغ الادبي . ومن بين هؤلاء المنتجين الكاتب الفرنسي الفكاهي رابلي ١٤٩٠–١٥٥٣ ، الذي كتـابه گارگانتوا وپانتا گرول

(1) Louis Gottschalk, Europe and the Modern World (Chicago, 1951), V. 1, pp. 140-144.

عبارة عن استعراض فكاهي للحياة السياسية والاجتماعية والدينية بأسلوب ادبي فكاهي ينتقد الاوضاع الاجتماعية السيئة ويؤكد على الانسانية . وكذلك مايكل دي مونتين Montaigne ١٥١٣ـ١٥٩٢ ، الذي كان من اب فرنسي وام يهودية ، والذي كان كتابه « المقالات Essays » عبارة عن نوع جديد من الادب بشكل مواضيع ، كل موضوع انتاج نثري رائع تؤكد على التسامح والحرية الفردية والاستقلال الفكري وفهم المشاكل البشرية التي لا تنتهي . ان الثقافة الحقيقية في نظره لا يمكن الحصول عليها الا عن طريق التساؤلات الدقيقة وفهم المشاكل التي يواجهها الانسان ، ولا يمكن التأكد من صحة الاجوبة بسبب ضآلة المعرفة البشرية وضآلة احكامه . ان « الشك والريبة في الاحكام كل الاحكام Judgments اكبر ثمرة للانجاز البشري » . اننا « لا نعرف الحقيقة عن انفسنا ولا عن الاشياء الاخرى ،فأحكامنا قاصرة دائما ، وكلما يمكن التأكد منه ان بعض الاحكام اقرب الى المنطق من الاخرى . وحتى اننا لسنا متأكدين ان افكارنا عن الاشياء الحقيقية صحيحة ، ولهذا فلا يمكن الوصول الى اليقين » .

ولما كان الانسان مرتابا دائما فلا يمكن ان يصل الى الحقيقة عن طريق العقل والحواس اللتان تنتجان الشك والريبة ، اذا يجب ان يكون للانسان الايمان الاعمى في الدين . اما ميگيل سير ڤانتيس الاسباني ١٥٤٧ـ١٦١٦ ، اخذ يسخر من حياة العصور الوسطى في كتابه « دونگيشوت » ، وذلك عندما دارت اسبانيا وجهها عن عصر النهضة والحركة الانسانية بالرجوع الى العصور الوسطى . وكان سير ڤانتيس

من الانسانيين • ومن بين الكتب الادبية الممتعة في هـذا الوقت تأريخ حيـاة بينفينتو چيلني ١٥٠٠ـ١٥٧١ ، الذي يبحث عن المغـامرات والاحوال السائدة في زمانه باسلوب جذاب •

الملاحم والدراما :

لعل أبرز ما توصل اليه الفن الادبي في القرن السادس عشر كان في حقل الملحمة والدراما • ويتبين من الانتـاج الادبي في هـذين الحقلين تأثرهمـا بالكلاسيكية والانسانيـة من حيث الموضوع والنوعيـة • فالاشخاص والاماكن كانت تحمـل اسماء قديمـة ، وحتى اذا لم يكن الموضوع كلاسيكيا اتخذوا ايطاليا مسرحـا لقصصهم وشربوها بروح القومية الحديثة • وكان المعتنين بالدراما على الاكثر الطبقـة المثقفة • واشهر الادباء الايطاليين هم اورلاندو آريوستو ١٤٧٤ـ١٥٣٣ ، الذي يعبـر عن الحب الرومانسي باسـلوب كلاسيكي • كما ان انقـاذ بيت المقدس لمؤلفه تاسو ١٥٤٤ـ١٥٩٥ ، يظهر فيه اسلوب الملحمة على غرار ڤرجيل يعبر عن عواطف الصليبيين • وفي البرتغال كتب « لوسياد اوف كاموين ١٥٢٥ـ١٥٨٠ » Lusiad of Comoëns ملحمته القومية عن رحلة ڤاسكو ديگاما الى الهنـد • كما ان لوپ دي ڤيگا ١٥٦٢ـ١٦٣٥ Lope de Vega ، كتب عن مواضيع وطنية في تأريخ اسبانيا • وفي فرنسـا پيير دي رونسارد ١٥٢٥ـ١٥٨٥ Pierre de Ronsard كان زعيم جماعـة من الشعراء ، انتهج الاسـلوب الكلاسيكي والتأثير اليوناني الروماني • وأشعاره عن الحب والطبيعـة تظهر شعورا عميقـا وخيالا مبدعا • اما في انكلترا فأشـعار أدموند سپينسر ٥٥٢ـ١٥٩٩ ، وخاصـة « الرعـاة Shepheards » من نوع الادب الريفي بلغ فيه سپينسر العمق الشعري الذي لا يوجد في اشـعار مماثلة للآخرين • اما

في ملحمته « ملكـة الحوريات Faerie Queene » ، على غـرار آريوستو ، وتاسو ، فيمجد سپينسر الملكية القوميـة باسلوب شعري جميل • وكان كريستوفر مارلو Marlowe ١٥٦٤–١٥٩٣ ، قد فتح باب الدراما بمسرحيـاته تيمورلنك وفاوست وادوارد الثـاني ويهود مالتـا • وقد درس مارلو الكلاسيكية في كمبرج ونال اعجـاب زملائه ومعاصريه • واشعاره في منتهى الرقة والجاذبية[١] •

وليم شكسبير ١٥٦٤–١٦١٦ :

ولد وليم شكسپير في مدينة ستراتفورد ابون آڤون في ٢٦ نيسان ١٥٦٤ ، من أبوين انكليزيين ، وقضى حيـاته الاولى في ستراتفورد ، ودرس في مدرستها الابتدائية ، وتزوج من احـدى فتيات المدينة وعمره ١٨ سنة ، وأنجبت زوجته بنتا (سوزانا) وتوأمين •

ظهر شكسپير ككاتب مسرحي في لندن سنة ١٥٨٤ ، وظـل هناك يتمتع بالحياة والشهرة والثروة كعضو في المسـرح اللندني الرئيسي • ورجـع شكسپير الى مسقط رأسـه ستراتفورد سـنة ١٦١٠ ، وعاش كوجيه في المدينة الى ان توفي في ٢٣ نيسان ١٦١٦ •

لا يعرف بالضبط متى بدأ شكسپير يكتب مسرحياته ، وكان يخرج مسرحيتين سنويا • وقد جمع « بين جونسن » هذه المسرحيات ونشرها سنة ١٦٢٣ • أما اشعاره (السونيت) فعبارة عن ١٥٤ قطعـة ، نشرت سنة ١٦٠٩ • وكتب شكسپير قصتين شعريتين ڤينـوس وآدونيس ،

(1) Koenigsberger and Mosse, Europe in the 16th century (New York,) 19 pp. 317-320; also Gottschalk, op. cit; pp. 138-139.

واغتصاب لوكريس . وأشهر مسرحياته : هامليت الذي يمثل الصراع النفسي بين الحب البنوي والانتقام ، وروميو وجوليت يمثل قصة شايين فشلا في الحب ، وماكبيث عبارة عن دراما ينال فيه المجرم العقاب ، ويوليوس قيصر الذي يمثل الصراع الروحي بين الطموح الشخصي والواجب الوطني ، وأوثيلو الذي يمثل التفسخ الناتج من الغيرة والحسد ، والملك لير الذي يمثل الحب والكراهية في العائلة ، وريچارد الثاني الذي يمثل الشعور القومي النامي في انكلترا والاخلاص « لهذه البقعة الشريفة هذه الارض ، هذا القطر هذه التربة انكلترا » . فهنا يؤكد شكسپير على الفردية والقومية . وهناك مسرحيات اخرى من تراجيدية (مأساة) وهزلية ، وتأريخية ، كتاجر البندقية ، كما تحبه ، حلم في منتصف ليلة صيف ، العاصفة ، انتوني وكليوپاترا ، والليلة الثانية عشرة وغيرها من المسرحيات التي اختبرها الزمان وبرهنت انها خالدة مع الدهر . كما ان اشعاره السونيت تبقى تلهم الشعراء والكتاب الى الابد . وقد تحقق تنبؤ زميله الشاعر بين جونسن الذي قال : « ان شكسپير لا يمثل جيلا ، فهو لكل الاجيال . » ويكفيه قول ڤولتير : « لو لم يكن لشكسپير سوى أشعاره (السونيت) لكفاه اذ يكون اعظم شاعر خالد » .

لقد كان الانسانيون في اوروبا يؤمنون بالتطوير الكامل للفرد كوسيلة لتحسين المجتمع . ومن افكارهم يمكن ان نستنتج ان عالما مليئا بالشر ، والحماقة ، والظلم ، وسوء استخدام السلطة يجب معالجته بالفضائل ، كالاستنارة ، والشعور بالواجب والصدق . وكان رجال المعرفة الانسانيين يتوخون العلمية في ابحاثهم فاستخدموا طريقة

الاستطلاع والاستفسار بدلا من المصادر[1] .

مقارنة بين سيرفانتيس وشكسبير :

توفي سير ڤانتيس الاسباني وصاحب كتاب دونكيشوت ، في نفس اليوم الذي توفي فيه وليم شكسپير الانكليزي ــ اي ٢٣ نيسان ١٦١٦، وكان الاول عمره ٦٩ سنة ، بينما الثاني كان ٥٢ سنة . ومن الصعب القول بان احدهما كان يعرف الآخر او سمع به على الرغم من ان ترجمة دونكيشوت باللغة الانكليزية ظهرت سنة ١٦١٢ ، ولربما قرأ شكسپير القسم الاول من الكتاب . وقد نشأ الاثنان نشأة غير مرفهة او مستقرة في اول حياتهما . فكان والد سير ڤانتيس جراحا فاشلا ينتقل بين المدن لاعاشة اطفاله السبعة . بينما جون شكسپير كان أميا كثير الاولاد ، ومدينا دائما بحيث ان كثرة الدعاوى عليه في المحاكم وافلاسه جعله يخسر عضوية المجلس البلدي فيستراتفورد . ولهذا لم تتح لسيرڤانتيس وشكسپير فرصة الدراسة الجامعية . وقد خالف الاثنان التقاليد الاجتماعية ، فقد اغتصب شكسپير فتاة تكبره ثمان سنوات واضطر أن يتزوجها وعمره ١٨ سنة . بينما قتل سيرڤانتيس رجلا في مبارزة وحكم عليه من جراء ذلك ونفي الى خارج اسبانيا .

وكانت حياتهما الوظيفية متباينة . فكان سيرڤانتيس رجلا مغامرا كثير الرحلات تطوع في الجيش في ايطاليا بقيادة دون جوان سنة ١٥٧٠ ، وحارب الدولة العثمانية في معركة ليپانتو ، وخرج من المعركة وهو مصاب بجرحين في الصدر وعطب في احدى يديه استمر معه مدى الحياة . وكان لا يزال في الجيش لما أسره القرصان بعد اربع سنوات

(1) Gottschalk, pp. 138-139.

وساقوه الى الجزائر • وكانت محاولاته العديدة للهرب موضع انزعاج واعجاب الجماعة التي أسرته ، فاطلقت سراحه سنة ١٥٨٠ • وكتب عن معركة ليبانتو فيما بعد ووصفها بانها : « اعظم حادثة بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل » • ولما رجع الى اسبانيا تزوج من امرأة معتبرة على الرغم من ميلاد بنت له من امرأة اخرى في نفس الوقت • وبسبب ديونه الكثيرة وعدم تمكنه من ايفائها سجن ثلاث مرات بين ١٥٩٢ـ ١٦٠٢ ، وحتى ان كتابه دونكيشوت الذي ظهر سنة ١٦٠٥ ، على الرغم من نجاحه الباهر لم يسد ديونه الكثيرة •

اما شكسپير فانه تابع حياة انكليزية صرفة تتقدم نحو الرقي باطراد منذ اللحظة التي وصل فيها الى لندن عام ١٥٨٤ ، ولم يكن معه سوى ما وهبه الله عليه من ذكاء ونبوغ • بدأ كممثل لكنه تحول الى كتابة المسرحيات لثلاث مسارح رئيسية في لندن • وبحلول سنة ١٥٩٤ اصبح رئيسا لشركة يملكها بنفسه• واصبح صديقا لعدد من الشخصيات في بلاط الملكة اليزابيث ، واخذ ينشد اشعاره الغنائية (السونيت) بين « الشقراوات والحوريات » التي اصبحت مصدر الهامه الشعري • ولا يعرف لحد الآن من هي مصدرها • وقد قال عنه احد الناقدين البارزين سنة ١٥٩٨ ، ان روح اوڤيد الحلوة تحيا في لسان شكسپير المعسولة • ولم يكن هذا المدح يعني شيئا بالنسبة لشكسپير بقدر ما كانت تهمه ترقية والده الى درجة النبلاء • فأصبح شكسپير نبيلا وصاحب ثروة يمتلك شركة مكونة من عدة مسارح في لندن وابتاع لنفسه بيتا فخما في ستراتفورد سنة ١٦٠٢ في الوقت الذي كان

سيرفانتيس في السجن بسبب ديونه[1] .

وبينما كان شكسبير يكتب مسرحياته الخالدة هامليت وماكبيث واوثيلو كتب سيرفانتيس قصته الكلاسيكية دونكيشوت باسلوب مرح جذاب تنعكس فيها طبيعته ، ساخرا من العصور الوسطى التي هجرتها اوربا ولم تهجرها اسبانيا . ولهذا ليس بغريب ان كاتبا مثل سيرفانتيس لا يعرف قبره .

(٥) التقدم العلمي

لا يقل التقدم العلمي في القرن السادس عشر اهمية عن الاستكشافات الجغرافية وبعث الحضارة الكلاسيكية . وكان هذا التقدم بالدرجة الاولى في علم الفلك والكون والمادة وأحدث ثورة في الرياضيات والفيزياء والطب وعلم الأحياء والاجتماع .

الفلك :

كان الفلكيون في العصور الوسطى يؤمنون بنظرية بطليموس الفلكي الذي عاش في القرن الثاني الميلادي ، والذي قال بان الارض ثابتة لانها مركز الكون وتدور الشمس والقمر والنجوم حولها بسرعة فائقة في كل اربع وعشرين ساعة . وقد ايدت الملاحظات اليومية للناس هذه الفكرة وكانت مطابقة لما في الانجيل ، ولهذا أيدتها الكنيسة واعتقد بها الناس . لكن بالاضافة الى نظرية بطليموس الاسكندري ، كانت هناك نظريات اخرى عن الكون لليونانيين القدماء كانت مطمورة تحت طي النسيان من بينها نظرية فيثاغورس القائلة بان الشمس مركز

---

(1) Marvin R. O'connell, the Counter Reformation (New York, 1974), pp. 363-366.

الكون • ولما اكتشفت الحضارة الكلاسيكية في القرن الخامس عشر اكتشفت هذه النظرية ايضا وكان اشهر ابطالها هو كوپر نيكس •

كوبرنيكس ١٤٧٣–١٥٤٣ :

كان كوپر نيكس قساً بولنديا قسَّم وقته بين الامور الدينية والبحث في الكلاسيك والرياضيات والفلك • وقد مكث في ايطاليا مدة عشر سنوات في مطلع القرن السادس عشر يدرس الطب والقوانين الكنسية ، فتعرف على الانسانيين ومنهم تعلم الكثير عن الفلكيين الاغريق القدماء ، وعندئذ اخذ يشك في نظرية بطليموس الفلكي • وعن طريق البحث والملاحظة والتجربة بواسطة الآلات التي كانت متوفرة في زمانه استطاع ان يدون ملاحظاته فطبعها باللغة اللاتينية في سنة وفاته ١٥٤٣ • فكان كتابه عن دوران الاجسام السماوية المهداة الى البابا پول الثالث ، تدعمه النظريات الرياضية • وقد بيَّن في كتابه ان الارض كوكب من الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس وليست مركز الكون ، فجرد الارض بذلك من قدسيتها وأهميتها ، وفقد البشر مركزه بين المخلوقات في الكون • لقد اثارت نظرية كوپرنيكس هياجا عاما في اوروبا بين مؤيدين ومعارضين •

تيكو براهي ١٥٤٦–١٦٠١ :

لقد وجه الفلكيون الاوروبيون اهتمامهم الى المعادلات الرياضية وتحسين الآلات الفيزياوية في النصف الثاني من القرن السادس عشر لدعم نظريات كوپر نيكس • وكان من بين هؤلاء العلماء تيكو براهي الفلكي الدانيمركي • وقد ساعده ملك الدانيمرك فردريك الثاني ماليا لتأسيس مختبر في جزيرة تقع في منتصف المسافة بين الدانيمرك والسويد

في بحر البلطيق مزودا اياه بالمراصد والآلات والمكتبات ومعمل للورق ومطبعة • درس تيكو براهي الكون عشرين سنة وحاول ان يوفق بين نظرية بطليموس وكوبر نيكس لكن عجرفته سببت قطع العلاقة بينه وبين الملك ، فقضى سنته الاخيرة في خدمة امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة في براغ • كانت نظرية تيكو براهي تنص على ان الكواكب السيارة تدور حول الشمس ، لكن الشمس وجميع الاجرام السماوية تدور حول الارض الثابتة • كان سبب فشله قد يعود الى انشغاله بالتنجيم الى درجة ، لكن العامل الرئيس هو انه لم يتبع الطريق الذي سلكه كوبر نيكس[1] •

كيبلر ١٥٧١-١٦٣٠ :

لقد ظهر في نهاية القرن السادس عشر عالمان أيدا نظرية كوبرنيكس ودعماها بأبحاثهما ، احدهما كيبلر الالماني والثاني غاليلو الايطالي • كان كيبلر يدرس الفلك في احدى الجامعات الالمانية وصاحب تيكوبراهي وخنفه في براغ • كان كيبلر يفوق استاذه في الرياضيات والفلك والتأمل الفلسفي • ومع اعتقاده بالخرافات السائدة في العصر ، لكنه أثبت رياضيا ان الارض والكواكب تدور حول الشمس في مدار بيضوي ، وليس مستدير ، وتزداد سرعة الكوكب كلما اقترب من الشمس ، وان مكعب المسافة بين الكوكب الدائر والشمس يتناسب مع مربع زمن دوران الكوكب[2] •

---

(1) Koenigsberger, Europe in the 16th Century (New York, 1968), pp. 356-358.

(2) Ibid; pp. 358-359.

غاليلو ١٥٦٤-١٦٤٢ :

كان غاليلو عالما عظيما مختصا بعلوم مختلفة منها الرياضيات والميكانيك والفيزياء وخاصة الضوء والعدسات ، والفلك . بالاضافة الى ذلك كان عالما في الكلاسيك وكاتبا موهوبا وموسيقيا . لقد عرض ونشر النظرية الكوپرنيكية في جامعة پادوا بين ١٥٩٢ و١٦١٠ . كانت محاضراته شيقة الى درجة بحيث زود بقاعة تستوعب الفي شخص . وقد حسّن التلسكوب في ١٦٠٩ ، وبواسطتها استطاع ان يبرهن ان الشمس تدور حول نفسها ، وان للمشتري توابع تدور حوله . حاول غاليلو ان يقنع الكنيسة بصحة نظرياته لكن ذلك وضعه في نزاع مستمر مع الكنيسة . وفي سنة ١٦١٦ ، اعلنت محكمة التفتيش ان الرأي القائل بان الشمس مركز الكون رأي باطل في الفلك ويدل على الانشقاق لانه يخالف تعاليم الكتاب المقدس . كما ان الرأي القائل بان الارض تدور حول محورها كل يوم باطل كسابقه وانه مخالف للدين . وفي سنة ١٦٣٢ ، حوكم غاليلو من قبل المحكمة وادين بانه يروج هذه النظريات. وظل غاليلو تحت المراقبة في السنوات العشرة الاخيرة من حياته .

التقويم الكريكوري ١٥٨٢ :

لم يكن التقويم القديم المستعمل الى سنة ١٥٨٢م ، والمعروف بتقويم جوليان ، مضبوطا ، فقرر البابا گريگوري الثالث عشر ان يقوم باصلاح التقويم في السنة المذكورة . فتشكلت هيئة من خيرة علماء الفلك للقيام بهذه المهمة . فقام هؤلاء بارجاع التقويم عشرة ايام الى الوراء ، وان الايام الزائدة من السنوات الكبيسة تحذف من سنوات نهاية كل قرن (كسنة ١٧٠٠) مثلا ، عدا السنوات التي هي من مضاعفات

٤٠٠ . (او بعبارة اخرى طرح ثلاث سنوات كبيسة من كل اربعمئة سنة ، وجعل السنة الكبيسة في نهاية كل قرن الذي هو من مضاعفات ٤٠٠ ، كسنة ١٦٠٠ ، ١٢٠٠ مثلا . بينما سنة ١٧٠٠ ، ١٨٠٠ ، ١٩٠٠! ليست من مضاعفات ٤٠٠) . لقد طبق التقويم المصلح من قبل الاقطار الكاثوليكية ، وطبقته الاقطار البروتستاتنية وغيرها تدريجيا . فانكلترا مثلا طبقته سنة ١٧٥١ ، بينما روسيا سنة ١٩٢٢ .

لقد كان علم الفلك الجديد نتيجة لبعث الحضارة الكلاسيكية ، وان التقدم في علم الفلك ساعد على اصلاح التقويم . لكن التقدم العلمي في الحقول الاخرى من القرن السادس عشر لم يكن متأثرا تأثيرا يذكر بالحركة الكلاسيكية والانسانية ، وانما كان تطورا طبيعيا لعلوم العصور الوسطى محفزا اياه ما حدث من تقدم في الجغرافية والاقتصاد والمالية واساليب الحرب .

الرياضيات :

ان ما ذكرناه اعلاه ينطبق على الرياضيات الى درجة كبيرة . فقد تقدمت العلوم الرياضية تقدما ثوريا . كان علماء الرياضيات في العصور الوسطى قد ورثوا الحساب والهندسة من اليونانيين والرومانيين القدماء . وقد تعلموا من العرب علم الجبر والارقام العربية ، وبنوا عليها كثيرا . ولقد كان غرض الرياضيين ان يبينوا مقدار الصح والخطأ من نظرية كوبر نيكس ، واصلاح التقويم ، وحساب مدى الطلقات النارية من المدافع ، وبناء حصون حربية قوية بأقل التكاليف ، وتسهيل حسابات اصحاب البنوك والتجار والرأسماليين . هذه هي الاغراض

التي كانت الرياضيات تستطيع تحقيقها في القرن السادس عشر • وبذل الرياضيون جهدا عظيما ونجحوا نجاحا باهرا في تحقيق اغراضهم •

لقد اشتهر في ايطاليا عالمان رياضيان هما تارتاگليا ١٥٠٦–١٥٥٩ ، وكاردان ١٥٠١–١٥٧٦ • وكان الاثنان يتنافسان فيما بينهما لحل المعادلات التكعيبية • كتب تارتاگليا مقالات علمية عن رياضيات المدفعية والحصون واهداهما الى هنري الثامن ملك انكلترا • اما كاردان فكان طبيبا حاذقا ساعد البابوات والملوك ، وخاصة ملك الدانيمرك ، بما قدمه من ارشادات مدعمة بالرياضيات • وفي هولندة اشتهر ستيڤينس ١٥٤٨–١٦٢٠ ، الذي طوّر الكسر العشري ، وطبق النظام العشري في العملة ، والموازين ، والمقاييس ، وابتكر الشيء الكثير في العلوم العسكرية • كما ان أساليبه في تدوين تفاصيل الحسابات ومسك الدفاتر اصبحت متبعة في هولندة وطبقتها الحكومة الفرنسية أيضا •

وفي نفس الوقت بذل علماء الرياضيات في اوروبا الجهد الكثير لايجاد رموز للحساب والجبر فوضعوا الاشارات التالية : + ، − ، × ، ÷ ، = ، ( ) ، √ • وحسبوا حسابات للكسور ، وتنبؤا بالتفاضل والتكامل ، وجدول المثلثات • وقد تمكن العالم الرياضي السكتلندي جون نيبير ١٥٥٠–١٦١٧ ان يخترع اللوغاريتمات سنة (١٦١٤) واستعمل اشارة الفارزة لاول مرة في الكسر العشري •

الميكانيك والفيزياء :

لقد تقدمت الفيزياء والميكانيك ايضا في القرن السادس عشر •

وقد ابتكر شخص ايطالي اسمه پورتا ١٥٤٠ـ١٦١٥ ، فانوسا سحريا ، ونشر كثيرا من الهراء في موسوعته الفيزيائية عن معجزة الطبيعة والسحر الطبيعي • واستطاع احدهم واسمه جانسن ان يصنع مكروسكوبا مركبا سنة ١٥٩٠ ، وظهر بعد ذلك بقليل التلسكوب في ايطاليا وانكلترا وهولندة • ويقال ان ليونارد ديگيس في انكلترا ايضا اخترع التلسكوب • وقد استطاع وليم گيلبرت الانكليزي ١٥٤٠ـ١٦٠٣ ان يقوم باجراء التجارب على الاجسام المغناطيسية • كما استخدم كلمة الاليكتريك (الكهرباء) لاول مرة •

لكن اشهر واعظم علماء الفيزياء في القرن السادس عشر هو بلاشك غاليليو ، العالم الرياضي الفلكي (وقد تكلمنا عنه) ويكفي ان نذكر هنا بعض انجازاته : فقد اخترع المحرار وميزان توازن السوائل ، وحسّن التلسكوب ، وصنع ساعة فلكية • وبحث ظواهر الحركة والصوت ، وبيّن ان الصوت عبارة عن تموجات في الهواء ، وان النغمة ناتجة بسبب الاختلاف في طول الموجات المتحدة • ودحض نظرية ارسطو القائلة بان الاجسام الثقيلة تسقط بسرعة تتناسب مع ثقلها • وفي كتابه الشهير مقالات رياضية عن توضيح علمين حديثين لخّص انجازاته وتأملاته ووضع أسس الميكانيك والديناميك (الحركة) •

التعدين :

ان الرأسمالية الحديثة اهتمت كثيرا بالتعدين واستغلال المناجم على نطاق واسع • وقد ادى ذلك الى ظهور علم التعدين • وكان اول من اشتغل بهذا العلم شخص الماني عرف باسمه اللاتيني أگريكولا ١٤٩٠ـ١٥٥٥ • بدأ أگريكولا اول حياته بمتابعة المعرفة الجديدة

وتدريس اليونانية وعلم الاشتقاق ، لكنه وجد اخيرا ان العلوم تشبع رغباته اكثر من الكلاسيك فدرس الطب والفيزياء والكيمياء في ايطاليا ، ثم اخذ يشتغل في البيئات العمالية حول المناجم في باڤيريا وبوهيميا . وبينما كان يعالج المرضى اهتم بالبحث والتنقيب في علم التعدين . وقد ألّف كتابا شهيرا بعنوان (اثنا عشر مجلدا عن المعادن) بيّن فيها طرق تقدير كمية المعدن في مادة من المواد الخام . ولاول مرة وصف انتاج الفولاذ بتحويل الحديد الخام الى صفائح حديدية بمزج المادة المنصهرة في الفرن المنعكس بمادة متأكسدة . وهذه الطريقة هي طريقة الفرن المنعكس .

الطب :

لم يكن هناك تقدما كبيرا في الطب في القرن السادس عشر لان التقدم الكبير في هذا الحقل كان في العصور الوسطى ولان الاطباء في عصر النهضة اهتموا بالكلاسيك واستخدموا الاساليب الكلاسيكية القديمة في الطب وخاصة اساليب ابقراط وجالينوس . وقام شخصان ايطاليان وهما أستاشيو ، وفالوپيو باضافة تفاصيل كثيرة الى علم التشريح والفسلجة الحديثة . وقد وصف ميخائيل سير ڤيتس الدورة الرئوية للدم . كما ان فراسكاتورو الايطالي بيّن ان الامراض سببها اجسام صغيرة لها قابلية التكاثر والانتشار ، لكن لم يستطع اثبات نظريته دون وجود مكروسكوب ، الذي لم يكن مكتشف بعد . واستطاع سانتوريو الايطالي ايضا ان يستخدم محرار غاليلو لمعرفة درجة حرارة جسم الانسان ، واكتشف آلة لقياس معدل سرعة النبض .

أما في المانيا فقد ظهر بعض الاطباء عارضوا الاتكال على الطب

اليوناني ، وهاجموا الكلاسيك • واشهر هؤلاء هو ثيوفراستس هوهنهايم المعروف باسمه اللاتيني پاراسيلسس Paracelsus ١٤٩٣-١٥٤١ • لقد نقد پاراسيلسس هذا كتابات جالينوس ، وبيَّن ان انطب عبارة عن علم يؤكد على التجربة العلمية ، وهناك علاقة بين الطب والكيمياء • كما اكد بان العمليات الجراحية لها صفة كيمياوية ، واذا اخفقت عملية يجب اصلاحها بعمليات اخرى مماثلة • واعتقد ايضا بان للمعادن والمياه المعدنية فوائد طبية •

ومن الذين عارضوا الاتكال على طب بقراط وجالينوس ايضا هو الطبيب الهولندي اندري فيزاليس ١٥١٤-١٥٦٤ ، Vesalius • درس فيزاليس الطب في جامعة لوڤين وباريس وپادوا واصبح استاذا في الجامعة الاخيرة • وكان متأثرا بجالينوس اول الامر ، لكنه وجد اخطاء كثيرة في كتابات جالينوس اثناء العمليات الجراحية • عندئذ قرر الاعتماد على ملاحظاته وتجاربه الخاصة • وقد قال بان الجسم البشري هو المقياس الصحيح لدراسة علم التشريح وليست الكتب القديمة • ولكن لم يستطع ان يقوم بجميع التجارب التشريحية على الجسم البشري لاستحالة ذلك ، فاستعان بالكلاب وتشريحها في كثير من القضايا الخطرة • وقد انتقد قيام الحلاقين بالعمليات الجراحية ، وكان كتابه في التشريح طبع سنة ١٥٤٣ ، شرح فيه الاوعية الدموية والشرايين وجهاز الهضم والتنفس والرئة والدماغ • وقد عيِّن طبيبا رسميا في بلاط الامبراطور شارل الخامس ، ومات في طريقه الى الاراضي المقدسة سنة ١٥٦٤ •

وليم هارڤي ١٥٧٨–١٦٥٧ :

وفي نهاية القرن السادس عشر ظهر وليم هـارڤي الانكليزي الذي توج تقدم الطب في عصره باكتشافاته العظيمة • درس هارڤي في جامعة كمبـرج وجامعـة پادوا وتخرج منهـا بدرجـة دكتـوراه في الطب سنة ١٦٠٢ • وعند رجوعـه الى انكلترا اصبح استاذا في كليـة الطب والجراحة في لندن واخذ يزور الاطباء في مستشفياتهم في لندن • وكان هارڤي شغوفا بدراسة القلب والدم وبيّن اكتشافه للدورة الدموية من القلب الى الشرايين والاوعية الدموية ورجوعه الى القلب وذلك سـنة ١٦٢٨ ، علما بان الدورة الدموية بشكل بسيط قد فسـره جالينوس ، انما اكتشف وليم هارڤي الأوعية اللدموية ورجوع الدم الى القلب •

لقد اشتهر في هولندة طبيب اسمه ڤان هيلمونت ١٥٧٧–١٦٤٤ ، وقام هـذا باكتشافات في الكيميـاء ، وقال بان هنـاك غازات في الجو تختلف عن الهـواء ، وابتكر اسم « الغـاز Gas » لاول مـرة • واكتشف ثاني اكسيد الكربون ، وتمكن من معرفة ان المـادة لا تفنى ، وقال بان الحـوامض الزائدة يمكن معالجتهـا بالقلويات والعكس بالعكس •

النبـات والحيوان :

درس عدة اطبـاء علم التشريح المقـارن في القرن السادس عشر ووضعوا اسس علوم الحيـاة : الحيوان والنبات • لقـد كان وليم ترنر Turner ، طبيب ادوارد الســادس ملك انكلترا ، وكـذلك اندري سزالپينو طبيب البابا كليمنت الثامن ، واستاذ في جامعـة پيزا ، درس النبات وكتب ابحاثا عن النباتات • كمـا ان الطبيب الفرنسي پيير بيلون

فحص مئات الانواع من الطيور والاسماك . لكن اعظم عالم من علماء الحياة في القرن السادس عشر هو كونراد فون جيسنر ١٥١٦-١٥٦٥ ، الذي نال درجة الدكتوراه في الطب في احدى الجامعات الفرنسية وقضى حياته في سويسرا ممارسا مهنته . فكان يحاضر في الفيزياء في الوقت الذي يقوم بالبحث في النباتات والحيوانات وتصنيفها . وقد وضع جدولا للنباتات وألف اربع مجلدات في تأريخ الحيوانات .

العلوم الاجتماعية :

بدأ الاسلوب العلمي في التأريخ بجمع الوثائق ونقدها ونشرها ، فكان ذلك بداية لتقدم العلوم الاجتماعية وخاصة التأريخ . وكان لبعث الحضارة الكلاسيكية تأثير عظيم في ذلك . وبدأت العلوم السياسية بكتابات ميكيافيلي وجان بودان . وكان كونراد ڤون جيسنر قد وضع اساس علم الاشتقاق . وقد بدأت دراسة علم الاقتصاد على اساس علمي تنفيذا لرغبة الناس في معرفة نظريات الثروة القومية في نهاية القرن السادس عشر .

الجغرافيــة :

لقد خطت الجغرافية اعظم خطوة في القرن السادس عشر بسبب الاستكشافات الجغرافية العظيمة والتجارة الواسعة النطاق . وأبرز جغرافي القرن بدون منازع هو جيرارد فون كريمر الهولندي والمعروف باسمه اللاتيني ميركيتر Mercator ١٥١٢-١٥٩٤ . درس ميركيتر في جامعة لوڤين في هولندة ، وأسس مختبرا جغرافيا فيها . وقد أعد الخرائط والتخطيطات لحملات شارل الخامس العسكرية ، فحصل بذلك على مساعدته ومساعدة امراء المانيا . وكان اعظم انتاجه في الجغرافية

هو تحرير الاوروبيين من قيود الجغرافيين اليونانيين القدماء ، بصنع الآلات الجديدة ورسم الخرائط التفصيلية الحديثة التي تعتبر من افخر الخرائط . والاهم من كل ذلك اختراع خطة جديدة لرسم الخرائط عرفت بـ مركيتر پروجيكشن Mercator Projection ، وذلك برسم خريطة الكرة الارضية او قسم منها على اوراق مستطيلة بمد خطوط متوازية وخطوط العرض في زاوية قائمة .

الفلسفة الحديثة :

ظهرت الفلسفة الحديثة من بين الهزات الفكرية العنيفة والثورة الدينية في اوربا ، ووضع الفلاسفة العلوم الحديثة نصب اعينهم لتفسيرها . وكان اول فيلسوف حديث هو جيوردانو برونو Giordano Bruno ١٥٤٨—١٦٠٠ الايطالي . كان هذا راهبا من الدومنيكان ، لكنه وقع تحت تأثير كل ما هو جديد وثوري في التيارات الحديثة . لقد أيد النظرية الكوپرنيكية في الفلك ، واعتبر التوراة خرافة كالخرافات اليونانية القديمة ، وان المعجزات عبارة عن خداع سحري . كانت فلسفته عبارة عن وحدة الوجود او الوهية الكون . ولهذا كان ينظر الى الطبيعة نظرة قدسية لانها تعبر عن الالوهية وان الكون تسيطر عليه قوانين ثابتة الهية ومقدسة .

لقد كانت فلسفة برونو مزيجا من العلوم الحديثة والدين الجديد الذي عسر على معاصريه هضمه . وفر برونو من روما وحياة الرهبنة ، والتجأ الى الاقطار الاجنبية ، وظلّ مدة تحت رعاية الملك الفرنسي ودرّس الفلك في جامعة طولوز والقى محاضرات في جامعة باريس ،

وقضى سنتين في انكلترا بتوسط السفير الفرنسي في لندن • لكنه لم يستقر في مكان ما فذهب الى سويسرا وطرده الكالفنيون ، ولم يحصل على مساعدة اللوثريين في المانيا • واضطر اخيرا ان يرجع الى ايطاليا فقبض عليه ، وبقى سبع سنوات في السجن ثم احرق في روما •

فرنسيس بيكن ١٥٦١-١٦٢٦ :

كان فرنسيس بيكن انگليزيا ارستقراطيا تخرج من جامعة كمبرج واصبح محاميا ثم مستشارا للملك جيمس الاول • وقد اظهر رغبة للعلوم الطبيعية كطالب جامعي وازدرى فلسفة ارسطو التي لا تصلح في نظره الا للمناقشة والمحاورة • وكان يرى ان من الواجب ايجاد مايسبب تقدم العلوم الطبيعية والمعرفة الحقيقية • وقد بذل جهدا كبيرا للحصول على الثروة والشهرة والمنصب •فكتب المقالات Essays وتقدم العلوم Novum organum ، ونيو اتلانتس • وكان الاخير وصف لجمهورية مثالية تطبق فيها اسس الفلسفة الجديدة بواسطة الحكومات تحت اشراف الدولة • وقال بان الفلسفة الجديدة يجب ان تكون استقرائية تجريبية ونافعة ، مبنية على الاكتشافات الجديدة في العلوم الطبيعية المستخلصة من الملاحظات والتجاريب المختبرية وتكون غايتها الحقيقية عملية • ان العلوم هي اهم شيء للفلسفة والتكوين الصحيح في المستقبل • ان العلم يوسع حدود قوة وعظمة الانسان •

لم يكن التقدم العلمي في القرن السادس عشر ثوريا الى تلك الدرجة التي تصورها برونو وبيكن ، ولا سيطر على تفكير الناس واعمالهم • ان الناس في القرن السادس عشر وحتى المفكرين والانسانيين ازدروا العصور الوسطى ولم ينتبهو الى استمرارية التطور

والنقد العلمي ، وتقدم المعرفة والعلوم في العصور الوسطى ، ولو أن ذلك كان بطيئا • غير ان الانسانيين في عصر النهضة لم يروا ذلك التقدم ، وتسرعوا في الحكم ، وقالوا بان افكارهم واستنتاجاتهم لم يسبق لها مثيل ، وكل ما هو جديد هو افضل[1] •

بقاء السحر والخرافات :

كان كثير من العلماء الذين ذكرناهم يؤمنون بالسحر والخرافات . وكان كل من تيكو براهي وكيپلر يستخدم الفلك والرياضيات في السحر والتنجيم لكسب المال • وقد ظل الايمان بالتنجيم سائدا بين الناس ، واعتقد الكثيرون ان بالامكان تحويل المعادن الرخيصة الى الذهب ، وان الاحجار الكريمة تسيطر على مستقبل الناس • وكثير من المغامرين فقدوا حياتهم في البحث عن مملكة الدورادو حيث يوجد ينبوع الحياة الابدي والرجوع الى الشباب • وظل الناس يعتقدون بان للنجوم تأثير على مستقبل الانسان ، وعلى الانسان ان يشاور المنجم قبل الشروع بأي عمل • وكان لكل من شارل الخامس وفرنسوا الاول منجم رسمي يستعين به لتعيين الاوقات السعيدة للسفر او الحرب او الصلح او المعاهدات •

لقد انتشر السحر في النصف الثاني من القرن السادس عشر واستمر في النصف الاول من القرن التالي بدرجة لم يسبق لها مثيل • وكانت الكنيسة تبحث عن السحرة وتحرقهم • ومهما يكن من أمر فان العلمي لم يقل عن التقدم في الحقول الاخرى من المعرفة • وبرهنت العلوم انها عملية اكثر مما كانت في العصور الوسطى •

(1) White, the origin of Modern Europe (New York, 1966), pp. 496-576.

الفصل الثالث

التقدم الاقتصادي والاستكشافات الجغرافية

المجتمع الاوروبي في حوالي عام ١٥٠٠ م :

كانت اكثرية الاوروبيين قبل عام ١٥٠٠م يعيشون في الارياف ويشتغلون بالزراعة • واغلب المدن الاوروبية التي كانت موجودة في الامبراطورية الرومانية القديمة انقرضت وزالت عن الوجود بسبب الاوضاع غير المستقرة وانعدام الامن وانقطاع التجارة قبل القرن الحادي عشر للميلاد • ويستثنى من ذلك بعض المدن الايطالية ، والمدن الاخرى الواقعة في مواقع مهمة • ولم يشجع المجتمع الريفي على السكنى في المدن في اوائل العصور الوسطى بسبب اللامركزية في الحكم في كل مكان • وكانت مراكز الحكم هذه عبارة عن قلاع امراء الاقطاع المبعثرة في اغلب انحاء اوروبا • والتجارة الداخلية حتى اذا لم تكن معدومة كانت في مستوى واطىء جدا بسبب تكاليف النقل وعدم وجود حافز لايجاد الاسواق • يضاف الى ذلك عدم وجود فائض من المواد الغذائية لادامة مجتمع واسع يستهلك هذا الفائض كمجتمع المدن مثلا •

واخذ الوضع يتغير منذ بدأ القرن الحادي عشر (اي حوالي سنة ١٠٠٠م) بهجرة الاوروبيين فتوسعت المدن القديمة ، وازداد نفوسها ، وتأسست المدن الجديدة في المراكز المهمة ، كشمال ايطاليا والاراضي المنخفضة وحوض نهر الراين ، ونهر الرون ، وسواحل اسبانيا

الشرقية ، والتي تساعد على التجارة الى الاقطار البعيدة • لقد استمر ازدياد السكان والهجرة الى المدن وازدياد قيمة الاراضي وارتفاع الاسعار • لكن بحلول القرن الرابع عشر بدأ السكان بالهبوط بسبب المجاعة والاوبئة الفتاكة وخاصة الطاعون • فخلال الربع الاول من القرن المذكور انتشرت المجاعة في كثير من الاقطار الاوروبية بسبب فشل المحاصيل الزراعية • وعقب ذلك انتشار الطاعون في منتصف القرن الرابع عشر [١٣٤٨-١٣٥٠] وعودة الاوبئة الفتاكة في فترات مختلفة كالملاريا والسفلس الى نهاية القرن الخامس عشر(١) •

الاقتصاد الريفي :

بيّنا في مطلع هذا الفصل ان اغلب الاوروبيين قبل القرن السادس عشر كانوا يعيشون في الارياف ويشتغلون بالزراعة ، ومع ان هذا القول ينطبق على الاكثر على اوروبا قبل القرن الرابع عشر ، لكن مع ذلك لم يحدث تغير كبير في جوهر الحياة الريفية في معظم انحاء اوروبا • ان الاقطاعية كانت اساس الاقتصاد الاوروبي • وكان الامير الاقطاعي او النبيل يجني كل الفوائد الاقتصادية من اقطاعيته • والاقنان كانوا مرتبطين بالارض التي يملكها اللورد النبيل • وهو بالاضافة الى اشتغاله في مزرعة النبيل تحت نظام السخرة يؤدي بعض الواجبات ويدفع بعض الضرائب الى النبيل • لكن من الصعب القول بان المزارع الاقطاعية كانت الوحدة الاساسية منذ القرن الرابع عشر • فالمناطق غير

---

(1) Waley, Later Medeaval Europe (London, 1968), pp. 55-113. Hay, Europe in the 14th, and 15th Cenauries, ch. III, PP. 33-44; ch. XIV. 359-93.

الخصبة لم تساعد على تجمهر السكان عليها ، كما ان نوعية الزراعة لم تتطلب التجمهر والتعاون الزراعي ، فلم تتأثر بالنظام الاقطاعي • ومثال ذلك اسكتلندة ومنطقة اپينايين وصقلية • كما انه منذ مطلع القرن الحادي عشر بدأ التمدين والاستقرار في المدن والهجرة اليها من الارياف الامر الذي أدى الى ان تشترك المدن في الاقتصاد الريفي في شمال ووسط ايطاليا ، وانكلترا ، والاراضي المنخفضة [هولندا وبلجيكا] بالطرق التالية : (١) استغلال الثروة التي تجمعت في المدن في الاراضي التي اصبحت معرضة للبيع او الايجار الطويل الاجل ، ذلك لان امتلاك الاراضي كان مصدرا للامن والاستقرار والهيبة وجلب الفوائد والارباح الى المالك • (٢) ان استمرار الهجرة من الارياف الى المدن قلل من ضغط السكان على المناطق الريفية • لكن الهجرة خلقت مشكلة اخرى في المدن هي ان المهاجرين اصبحوا مستهلكين ايضا ، ووجب زيادة الانتاج الريفي وخاصة الحبوب لمواجهة الطلب • فكان على سكان الارياف ان يضاعفوا انتاجهم في الوقت الذي قل السكان في الارياف • (٣) وزعت المدن الانتاج الزراعي في المراكز الاستهلاكية الجديدة واصبحت المدينة هي القوة المسيطرة على الريف • وكانت البضائع الاستهلاكية كالمواد الغذائية تنقل الى اسواق المدينة للبيع • وكثيرا ما اشتكى سكان الارياف من سيطرة اهل المدن عليهم وخاصة في المدن الايطالية • ولاجل ابعاد الوسطاء الذين كانوا يشترون المحاصيل من المنتج في المزرعة او في سوق المدينة ويخزنونها لافتعال ندرة البضاعة وارتفاع الاسعار ، سيطرت بلدية المدينة ووضعت شروطا للفلاحين لبيع محاصيلهم وتعين اماكن البيع • ومع انه كان هناك حدودا لسلطة حكومة

المدينة في تسعير البضائع ، لكن اعتادت البلدية ان توفر الخبز للسكان
المدن الايطالية ناجحة في تطبيق هذه السياسة • وكان المزارعون يطبقون
بأسعار ارخص مما لو دفعت ثمنا عاليا للمنتجين • ومع ذلك لم تكن كل
منذ القرن الرابع عشر اساليب الحقول الثلاثة في الزراعة في فرنسا شمال
نهر لوار ، والمانيا والاراضي المنخفضة وانكلترا • ولكن في منطقة البحر
الابيض المتوسط ظل اسلوب الحقلين سائدا ، وفي الطريقة الاولى كان
ثلث الاراضي تزرع للمحاصيل الشتوية كالحنطة ، والثلث الثاني
للبقليات والحمص وغيرها ، والثلث الاخير يترك بورا للسنة التالية •
وبهذه الطريقة كانت ثلثي الاراضي تنتج سنويا بعكس نظام الحقلين
حيث نصف الاراضي تكون منتجة[1] •

حدثت تغييرات عظيمة في القرن الرابع عشر في الزراعة واستملاك
الاراضي • فقد ادت المجاعة في النصف الاول من القرن والطاعون
والاوبئة الاخرى فيما بعد الى الهبوط الهائل في عدد سكان المناطق
الريفية وبصورة خاصة في اوروبا الغربية والشمالية والجنوبية • فكان
من الضروري القيام باجراءات فعالة وخاصة في الاراضي التي تزود
المناطق السكنية بالحبوب والمواد الاولية الاخرى • ولما كانت المجاعة
والطاعون قد قضيا على الايدي العاملة ، فندرة العمال والمزارعين ،
وخاصة في المناطق الريفية التي كانت الهجرة منها الى المدن مستمرة ،
جعلت الاجور مرتفعة ، والاراضي اصبحت رخيصة ولم تستغل للزراعة
الا الاراضي التي امتازت بخصوبة تربتها • واصبح التأكيد على انتاج

---

(1) Breisach, E. Renaissance Europe (1300 - 1517). New York, 1973), ch. 2, P. P. 10-18.

نوع واحد من الزراعة التي تجد سوقا رائجا بدلا من التنوع الزراعي كما كان سابقا ، كأن يختص بزراعة الحنطة او الشعير او الكتان او البقليات وهكذا بحسب حاجة السكان . وخصصت مساحات واسعة للمراعي وتربية الاغنام والمواشي التي كانت منتجاتها من الصوف واللحوم والالبان والجلود تدر أرباحا طائلة . وندرة المزارعين والعمال وانحصار الزراعة في التربة الخصبة قد أدى الى ارتفاع الاجور . وظهر في انكلترا نظام تسييج الاراضي ، وتحويل مناطق واسعة الى مراعي لرعي الاغنام التي اصبحت تجارة صوفها مربحة . ولم تتدخل الحكومة الانكليزية لان الارباح الطائلة التي حصل عليها اصحاب الاراضي من تجارة الصوف كانت مصدرا آخرا لموارد الدولة بفرض الضرائب عليها . وكذلك نجد الحالة في اسبانيا حيث ان الصوف الاسباني كان منافسا قويا للصوف الانكليزي وخاصة قرب اسبانيا من المدن الايطالية التي تستورد الصوف لصناعة الاقمشة الصوفية .

ادت ندرة العمال الزراعيين الى ارتفاع اجورهم . وكانت المنافسة العظيمة بين اصحاب الاراضي للحصول على الايدي العاملة لصالح الطبقة الفلاحية . وفشلت محاولات اصحاب الاراضي اعادة ربط الفلاح بالارض وتأدية الواجبات كما كانت سابقا ، وخاصة ان الهجرة من الريف الى المدينة كانت مستمرة ، وأخذ سكان المدن يستقبلونهم للاشتغال في الصناعة والحرف المختلفة الاخرى . وفي الزراعة تحولت الخدمات الزراعية الى اجور يومية أيضا . واستطاع القن ان يشتري حريته بدفع مبلغ من المال الى النبيل . وكانت هذه الظاهرة قد بدأت منذ القرن الثاني عشر واحدثت تحولا عظيما في القرن الرابع عشر ،

واستمرت في القرن التالي . وبدأ النبيـل ، كي لا يفقد عددا كبيرا من
الاقنان ، يقلل من الواجبات المفروضة عليهم منذ عام ١٣٠٠م ويدفع لهم
الاجور . وقد تخلصت شمال ايطاليا ووسطها من القنـانة منذ منتصف
القرن الرابع عشر ، وتأتي انكلترا بعد ايطاليا ، ثم شمالي فرنسا ، وقسم
كبير من المانيا الغربية والجنوبية . لكن في المانيـا الشرقية (منطقة بحر
البلطيق وبروسيا) ، لم يستفد الفـلاحون كثيرا من التحـولات
الاقتصادية ، بسبب فرض النبلاء خدماتهم التقليدية بالقوة على الفلاحين
للحصول على العمل الرخيص والارباح الطائلة من الاسـواق الغربية .
لكن على العمـوم تحرر الفلاحون في اوروبا من نظـام القنانة بحلول
القرن الخامس عشر ، باستثناء اوروبا الشرقية .

ظهر نظام استئجار الاراضي منذ اوائل القرن الرابع عشر . فلكي
لا يفقد اصحاب الاراضي الفـلاحين المزارعين بدأوا يستخدمون طريقة
الشراكة في المحصول ، ويبقى الفـلاح المزارع يستغل الارض مقـابل
نصف الحاصل او ثلثيه لعدة سنوات ، او مدى الحياة حسب الاتفاق .
وفي القـرن الخامس عشر لما ارتفعت اسـعار المحاصيل الزراعية ، اخذ
المستأجرون يؤجرون الاراضي من اصحابها مقابل مبلغ معين من المال لمدد
قصيرة أو طويلة . ومع ان الاقنان والفـلاحين تحرروا لكن في كثير من
الاحيان لم تكن احوالهم الجديدة بأفضل من حالتهم السابقة تحت نظام
القنانة لانهم فقـدوا حماية النبيل واصبحوا عرضـة لهجمات اللصوص
والمرتزقة الذين لم يحصلوا على عمل . يضاف الى ذلك ان المزارع اصبح
مرتبطا بعقده مع اصحاب الاراضي بدفع ايجاره المحدد سواء اكانت سنين
الزراعة جيدة أو شحيحة . وفي الحالة الثانية كان عليه ان يستقرض المال

لكي يدفع حصة الملاك من الايجار • وعلى اي حال فان الريف الاوروبي طرأ عليه تغير عظيم بحلول القرن السادس عشر • فقد تداعى نظام القنانة وكثرت الاراضي الزراعية واصبحت الاساليب المتبعة في الزراعة عبارة عن الاستئجار الى مستأجرين اغنياء ، مقابل مبلغ سنوي من المال يدفعها المستأجر الى صاحب الارض • او ان اصحاب الاراضي يستأجرون المزارعين الشركاء في المحصول • أو يستأجرون عمالا زراعيين باجور يومية •

الصناعة والتجارة :ـ

كان الاقتصاد الريفي السائد في اوائل العصور الوسطى وحتى القرن الحادي عشر مبني على الاكتفاء الذاتي • ولم تكن هناك تجارة خارجية الى الاقطار البعيدة الا في بعض المدن الساحلية الاوروبية على البحر الابيض المتوسط ، وكان الاقنان في ظل النظام الاقطاعي يقومون بصنع بعض السلع الضرورية في بيوتهم ، كالادوات الزراعية ، والاثاث البيتي ، والملابس ، والصياغة وغيرها لتموين النبلاء بما يحتاجونه من المصنوعات ، أو لسد حاجاتهم الشخصية •

وبظهور المدن تغير الاقتصاد الريفي ، وظهر اقتصاد من نوع جديد مبني على تقسيم العمل • وبدأت المدينة والريف يكملان بعضهما البعض • فاقتصر الريف على الانتاج الغذائي والمواد الاولية • والمدينة تركزت على الانتاج الصناعي وتقسيم العمل بين الخبازين والقصابين والنجارين والحدادين وصناع الاحذية ، والاقمشة والخياطين ، وصناع الاسلحة والادوية وغيرها من الاختصاصات • كما ان تقسيم العمل قد ظهر حتى في الصناعة الواحدة ، فصناعة النسيج توزعت على الذين

اشتغلوا بتنظيف المواد الاولية كالصوف مثلا وحلجه وغزله ونسجه وهكذا .. وكان في فلورنسا في منتصف القرن الرابع عشر حوالي (٣٠) الف عامل ينتجون ما قيمته ٠٠٠ر٢٠٠ر١ فلورين سنويا من البضائع الصوفية . وكما اشتهرت ايطاليا بالصناعات الصوفية ، كذلك فلاندرز في الاراضي المنخفضة ، وكانت المنطقتان الصناعيتان تستوردان الصوف من اسبانيا (آرگون) وانكلترا[1] .

النقـــابات :

أدى ظهور التجارة والصناعة وتقسيم العمـل الى ظهور النقابات التجارية والحرفيـة . وهي تمثـل المساومة بين نظـام الحرف المعقدة والفكرة القديمـة السائدة في العصـور الوسطى وهي كيف يجب ان يدير الانسـان فعالياته الاقتصادية . وهـذا لا يعني ان كل الانتـاج الاقتصادي المـدني يقع ضمن اطـار النقابات . فكثـير من المتعهدين والملتزمين entrepreneurs ابتعدوا عن النقابات ، وقسم آخر بسبب تعقد التزاماتهم انخرطوا في اكثر من نقابة واحدة ، ولم تكن هناك نقابة لبعض الحرف . وكانت الكفـاءة التنظيمية للنقابات تختلف من مكان الى آخـر ، ومن بلد الى بلد . فكان التنظيـم الهولنـدي يختلف عن التنظيم النقابي الفلورنسي او الميلاني[1] .

وظيفـة النقـابات :

كانت النقابات قد ورثت وظائفها الاجتماعية والدينية من مؤسسات سابقة اقدم منهـا ، اسست برعـاية بعض القديسين للاهتمام بالمرضى

---

(1) Ibid.
(2) Ibid, p. p. 18-26

والعجزة والبائسين وحضور المآتم والجنائز ، او حضور الاحتفالات التي كانت تقام بمناسبة الاعياد ، أو انجاز التعامل التجاري اثناء انعقاد الاسواق • وكانت هذه النقابات تتمتع بسلطات واسعة ، ولها وظائف متعددة في العصور الوسطى • فمن واجبات النقابة تنظيم السوق المحلي ، وتعيين نوعية البضاعة ، وتحديد اسعارها تحديدا عادلا • وقد وضعت قيود على من يريد ان ينتفع من السوق المحلي ، دون ان يشارك مصاريف النقابات واعمالها والاتعاب التي يواجهها اعضائها • ولم تصدر البضائع الا اذا كانت زائدة عن حاجة سكان المدينة • وفرضت ضرائب خاصة على البضائع المستوردة حتى لا تنافس المنتجات المحلية • وكان الاعتقاد السائد بين الناس هو ان النقابة تستعمل الطرق الشريفة في التعامل وتراقب وتمنع البيع خارج السوق المحلي ، أو شراء البضائع بسعر اعلى من سعر السوق المحلي أو الغش في المقاييس والموازين وكان الغشاش يطرد من النقابة •

وقد تعاونت النقابات وسلطات المدينة في تمشية الامور وتسهيلها ومنع الاحتكار وارتفاع الاسعار من جانب نقابة واحدة او عدة نقابات أو أفراد •

لقد مارست النقابات نفوذا سياسيا عظيما في كثير من المدن الاوروبية ، وقد اختلفت ممارسة هذا النفوذ باختلاف الاماكن • ففي بعض المدن (كفلورنسا مثلا) كانت النقابات تتمثل في المجالس البلدية والادارية للمدينة ، وتنفذ سياستها الاقتصادية • وفي بعض المدن الاخرى كان زعماء النقابات يمارسون ضغطا على ادارة المدينة لتنفيذ مشاريعهم وسياساتهم • وكانت النقابات على نوعين ، النقابات

الرئيسية الكبرى كان اعضاءها يتمتعون بسلطات واسعة ونفوذ عظيم ، بينما النقابات الحرفية الصغيرة كانت ضعيفة ولم تتمتع بنفوذ واسع الا في فترات تأريخية قليلة • لقد كانت النقابات الصناعية والحرفيـة تؤكد على الاختصاص والسيطرة على تفـاصيل الصناعة ، وارسـال المنتجات الصناعية الى الاسواق • وكان المنتمون الى النقابات الصناعيـة يمرون بادوار خاصـة لاجـل تعليـم المهنـة واتقانهـا • ففي دور التلمـذة Apprenticeship كان العامل الصغير يشتغل سبع أو ثمان سنوات مجانا لتعليم المهنة ويقوم صاحب المصنع او الحرفة باعاشته • وبعد هذا الدور يصبح خلفـة Journey man ويشتغل بالاجرة ويصبح حرا في ممارسة العمـل اينما أراد • وبعـد ذلك يصبح اسـتاذا تعترف به النقابات ولـه الحق ان يفتـح دكانا ، أو يؤسس مصنعا لنفسـه ويبيع منتجاته في الاسـواق مباشـرة • لقـد حددت العضـوية في النقابات الصناعية والحرفية Craft guilds ، ووضعت قواعـد وأسس لتعيين نوعية المادة المصنوعة وطرق صنعها •

ومن بين وظائف النقابات الاجتماعية بالتعاون مع سلطات المدن ، تشجيع الهجرة من الارياف الى المدن لتوفير الايدي العاملة ، واضعاف النبلاء • ولما كانت المنافسة على اشدها بين النبـلاء وسكان المـدن ، كانت النقابات بالتعاون مع حكومة المدينة تحمي الفلاحين المهاجرين الى المدن ، والذين كان اصحاب الاراضي من النبـلاء يريدون اعادتهم الى المزرعة • وقد شرعت كثير من المدن قوانين تقضي بان الفلاح الهارب من المزرعة الى المدينة لا يمكن اعادته الى المزرعة اذا تمكن من ان يبقى في المدينة سنة واحدة • كما ان النقابات بالتعاون مع حكومة المدينة كانت

تحمي اعضائها من السلب والنهب وتدفع فدية لخلاصه اذا أسر أوسجن .
وكانت النقابات تفاوض سلطات المدن الاخرى ونقاباتها لتفادي الاضرار
التي قد تلحق بأعضائها ولزيادة التعامل التجاري ، كما انها كانت
مسؤولة عن ديون أعضائها .

تدهور نقابات التجار والصناع :

لما توسعت التجارة والصناعة خلال القرنين الرابع عشر والخامس
عشر لم يعد بمقدور نقابات التجار والحرفيين ان تكيف نفسها مع
الاحوال المتغيرة . وطالما كان الانتاج للاستهلاك المحلي تمكنت النقابات
من تدبير أمورها . لكن لما ازداد الانتاج المحلي عن طريق تحسين
الصناعة والمكننة وايجاد الوسائل الجديدة للانتاج الصناعي كالآلات
الجديدة ، واستخدام القوة المائية في ادارة هذه الآلات ، وخاصة في
صناعة الغزل والنسيج ، والمعادن ، لم يعد بمقدور الصناع المحليين
منافسة المتعهدين والملتزمين الذين كانوا خارج النقابة والذين استطاعوا
ثرواتهم الكثيرة ان يمولوا هذه التحسينات ويكثروا الانتاج . كما ان
التجارة الخارجية كانت تعتمد على الانتاج على نطاق واسع وكان
بمقدور المتعهدين شراء مواد الخام من الصوف او المعادن وما الى ذلك
بكميات كبيرة وتوزيعها على الصناع المختلفين لصنع البضاعة المطلوبة
باجور يومية وجمع المواد المصنوعة وبيعها بأرباح طائلة . وسميت
هذه الطريقة بـ Putting out syste m فكانت النقابات تدافع عن
نفسها ضد كل تجديد وخاصة استخدام المكائن الجديدة في الصناعة ،
واكدت على الوحدات الصناعية والحرفية الصغيرة كما في السابق . كما
ان العمال وقفوا ضد التجديد ، لان الآلات والوسائل الجديدة

تستغني عن قسم من العمال • ولما كثر عدد الخلفات وهددت الطرق الجديدة ـ المارة ذكرها ـ الصناع في النقابات الصناعية والحرفية ، ازدادت اجور الانخراط في النقابة وتعقدت شروط الدخول • ولم يعد يتقن الصانع مهنته ، فانحط المستوى الصناعي والحرفي • كما ان الاساتذة امتنعوا عن ترقية تلاميذهم وخلفاتهم خوفا من المنافسة الشديدة واشتد الصراع بين الصناعات المختلفة •

وبحلول القرن السادس عشر انحل نظام نقابات التجار والصناع وتأثرت قسم من النقابات الصناعية بالنزعة الحديثة ، بتقسيم الرأسمال والعمل • فكانت النقابة القديمة تقع تحت سيطرة الاستاذ المثري ، او جماعة من المتعهدين والملتزمين الذين ينظمون شركة تجارية تعمل في ادارة تجارة سلعة معينة بالجملة دون الاشتراك في صنعها • وانحط التلاميذ والخلفات الى درجة العمال المأجورين يشتغلون للتجار الرأسماليين تحت النظام الاهلي فقضى هذا النظام على النقابات •

الثورة التجارية :

ازدهرت المدن نتيجة لنمو الصناعة وتوسع التجارة ، وكانت الاسواق الموسمية تعقد في بعض المدن الرئيسية لعرض البضائع والتبادل التجاري • ولما توسعت التجارة كانت الحاجة الى اسواق كبيرة وعرض البضائع الكثيرة من بلدان مختلفة على اشدها • وكان سهل شامپين وپروڤنس وتروي Troys هي الاماكن الرئيسية التي تعقد فيها الاسواق ويؤمها التجار من كل انحاء اوربا للتعامل والتبادل التجاري • لكن منذ بدأ القرن الرابع عشر تغير الوضع • فبينما كانت الاسواق حرة سابقا لا تدفع الضرائب ، اخذ فيلب الرابع ملك فرنسا

يفرض الضرائب الفادحة على الاسواق • فابتعد التجار من اسواق شامبين وپروڤنس ، وبدأت تعقد في جنيف في سويسرا وبرجس في هولندة • وقد انتقل مركز انعقاد الاسواق منذ منتصف القرن الخامس عشر (١٤٦٣) الى ليون في فرنسا بفضل لويس الحادي عشر لتشجيع تجارة الحرير •

الطرق التجارية :

كانت الطرق الرئيسية للاقطار البعيدة عبارة عن طريق البحر المتوسط الذي يربط المدن الايطالية الرئيسية بعضها وبالمراكز المهمة في البلاد العربية والعالم الاسلامي وآسيا الصغرى وبرشلونة • وقد تمكنت المدن الايطالية ان تكون علاقات تجارية مع شرق البحر المتوسط قبل الحروب الصليبية ، لكن التجارة اصبحت نشطة ومزدهرة منذ الحروب الصليبية بين ايطاليا وهذه المراكز • وقد استوردت ايطاليا الحرير الخام من الصين والتوابل والاحجار الكريمة من البلاد العربية والهند عن طريق مصر والبحر الاحمر • كما ان المدن السورية ربطت ايطاليا بتجارة الهند ، وكان لكل من جنوا وڤنسيا (البندقية) مراكز تجارية في استانبول وازمير والمدن اليونانية ، وشبه جزيرة القرم وجنوب روسيا •

اما الطريق التجاري الثاني فهو طريق الشمالي وكانت تمر من انكلترا والاراضي المنخفضة عبر المدن الالمانية الشمالية ومدن البحر البلطيق الى روسيا واحيانا الى استانبول أيضا • وكانت البضائع المتبادلة عبارة عن الحنطة التي تنقل من شمال افريقيا وجنوب روسيا وصقلبا الى اوروبا وكذلك الاخشاب من روسيا وشمال اوروبا الى

الاقطار الاوروبية التي تفتقر الى الاخشاب . اما انكلترا فكانت تزود الاراضي المنخفضة وايطاليا بالصوف الى منتصف القرن الرابع عشر . لكن بعد ذلك منعت اصدار الصوف لما بدأت المصانع الانكليزية باتتاج الاقمشة الصوفية . كما ان اسبانيا كانت تصدر الصوف الى ايطاليا (فلورنسا) . وكان الشب يأتي من جنوب روسيا وآسيا الصغرى (طربزون وازمير) ، وكانت ضرورية في صناعة الاقمشة (لتنظيف الصوف وتثبيت لون النسيج) ، وفي صناعة الخزف . وقد اكتشف الشب في ايطاليا في ١٤٦٠ م .

لقد كانت ايطاليا تزود اوروبا بالاقمشة الحريرية والصوفية والملابس المصنوعة والاسلحة ، والاقمشة المطرزة ، وكانت مراكز الصناعة الرئيسية الايطالية هي لومبارديا ، ولوكا ، وفلورنسا ،وفنسيا. اما المراكز الرئيسية لصناعات الاراضي المنخفضة فكانت برجس ، وغنت ، ييرس ، كمبري ، وليل التي اشتهرت بصناعة الصوف . وكانت تستورد الصوف من بعد منتصف القرن الرابع عشر من اسبانيا. ثم بعد ذلك اخذت تتاجر بالبضائع دون الصناعة لقلة الايدي العاملة واصبحت مدينة انتويرپ تشتهر في القرن الخامس عشر بصناعة الاقمشة الصوفية ثم استعاضت المدن الهولندية عن الصوف بصناعة الاقمشة الكتانية . وكانت المصنوعات من النسيج تتبادل في خليج بسكاي بالحديد الخام الاسباني وتنقل بالسفن الانكليزية والالمانية والهولندية والفرنسية . كما ان السويد ومنطقة اللورين واماكن اخرى تزود المراكز الصناعية الاوروبية بخامات الحديد .

العصبة الهنسية :

كانت المناطق الشمالية من المانيا تربط الغرب بمناطق بحر البلطيق فمناطق شرقي اوروبا . وكانت المنطقة التجارية الرئيسية في شمال اوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، هي العصبة الهنسية ، المكونة من اتفاق تجاري بين المدن الالمانية الرئيسية . وكانت العصبة مكونة في بادىء الامر من اتفاق بين التجار بصورة فردية لاجل الحماية والحصول على الامتيازات التي كانت تمنحها السلطات الاجنبية للتجار . وهذه الامتيازات عبارة عن تخفيض الضرائب والواجبات والحصانة من القوانين الاجنبية وغيرها .

وقد تحولت العصبة بعد عام ١٣٥٠م الى اتفاق بين المدن بدلا من الافراد ، وكل فرد من افراد المدينة الواحدة المشتركة في العصبة اصبح يتمتع بفوائد التجارة . وقد سيطرت مدينة لوبيك وكولون وبريمن وهامبرگ على العصبة التي لم يكن الاتحاد بينها متماسك وقوي .

كان ممثلو مدن الاعضاء يجتمعون ومقرراتهم هي سياسة المدن الاعضاء . لكن لم تكن كل المدن تشترك في الاجتماع ، ولم تكن المقررات تنفذ دائما . وكان الصراع مستمرا بين المدن الهنسية الرئيسية . ومع ذلك فقد بقيت العصبة لان الاعضاء استمدوا فوائد كثيرة من وجودها . كان مصدر ثروة العصبة الهنسية هو سيل البضائع المنتقلة ذهابا وايابا بين مدينة نوفگورود الروسية (قرب لينينگراد الحالية) ومدينة لوبيك وهامبرگ ولندن وبرجس . ومن هذا الطريق الرئيسي تفرعت طرقا الى اسكندنافيا والى سهوب روسيا واستانبول . وكانت البضائع التي تتاجر بها عبارة عن الاسماك والشمع wax

والاخشاب ، والفرو ، والحبوب ، والمعادن ، والقار ، والعسل ، والعنبر من الشرق • بينما يصدرون من الغرب الملح من فرنسا والملابس من هولندا والبضائع المصنوعة الاخرى الى الشرق • ولما كثرت المنافسات بين الدول الحديثة بدأت العصبة الهنسية تفقد سيطرتها واتهت في منتصف القرن السادس عشر •

لقد كانت البضائع الآتية من ايطاليا وجنوب اوروبا عبر جبال الالب تبادل مع بضائع شرقي وشمالي اوروبا في المانيا وهولندا وفي الاسواق الموسمية التي تعقد في اواسط اوربا وخاصة جنوب المانيا وسويسرا[1] •

ظهور العملة والبنوك والراسمالية الاولى :

ظهرت العملة منذ القرن الثاني عشر في ايطاليا وكانت العملة الفضية مستعملة قبلا لدى العائلة الميروفنجية • لكن العملة الذهبية استعملت لاول مرة في نابولي وصقلية من قبل المسلمين • وقد ورث الامبراطور فردريك الثاني ذلك من النورمانديين الذين حكموا الصقليتين • ثم انتشرت في القرن الثالث عشر في ايطاليا • وكانت فلورنسا تستعمل الفلورين كقاعدة ذهبية • وفنسيا تستعمل الدوكات • وبعد ذلك انتشرت العملة في بقية انحاء اوروبا الغربية • كما ظهرت البيوتات المالية في ايطاليا واخذت تقرض الناس بفائدة • ثم ظهرت البنوك في ايطاليا واخذت تقوم بتبادل العملات ، واقراض التجار والملوك والامراء • وكانت البنوك الايطالية لها فروع في جميع انحاء اوربا • وظهرت العائلات الغنية اصحاب البنوك من امثال عائلة مديتش

(1) Ibid; PP. 26-38.

وفوكر التي اصبحت من اغنى عوائل اوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر[٢] .

التجارة بين اوربا وآسيا :

لقد توقفت التجارة بين اوربا وآسيا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة ، وغارات البرابرة في القرن الخامس الميلادي . واستمر هذا الانقطاع في اوائل العصور الوسطى بسبب الحروب بين امراء الاقطاع والفوضى السائدة في اوربا نتيجة لذلك . ومنذ القرن الحادي عشر بدأت المدن الايطالية الواقعة على البحر المتوسط تستعيد نشاطها التجاري وازداد هذا النشاط اثناء الحروب الصليبية . فاسست المدن الايطالية الكبرى مراكز لها في الاسكندرية والمدن السورية الساحلية وفي سواحل آسيا الصغرى ، في طربزون وأزمير واستانبول . لقد كان العرب هم التجار الرئيسيين على طول الخط من سواحل سوريا وشمال افريقيا الى الصين شرقا . وقد سيطروا على تجارة آسيا ، وجلبوا بضائع متنوعة من التوابل والحرير والاحجار الكريمة من الصين والهند وجنوبي شرق آسيا . وكان التجار الايطاليين ، واغلبهم من البنادقة الفينيسيين ، يشترون هذه البضائع وبعض السلع الاخرى من منتجات العالم الاسلامي ، من العرب في سوريا ومصر وينقلونها الى ايطاليا . والطرق التي كان يسلكها التجار العرب من الهند الى البصرة ومن هناك تنقل البضائع بواسطة القوافل عبر الصحراء الى دمشق وحلب ثم المدن السورية الساحلية . أو من البصرة الى بغداد فالموصل وديار بكر وطربزون على البحر الاسود . وفي كلتا الحالتين كان

---

(2) Ibid; PP. 39-52.

الفينيقيون يشترون البضائع من المدن الساحلية وينقلونها الى ايطاليا .
وفي الحالة الثانية ـ عند مرور التجارة في البحر الاسـود ـ كان تجار
موسكو واوربا الشرقيـة والشمالية ينقلون البضـائع الى الاقطـار
الشمالية والوسطى في اوربا .

أما الطريق الثـاني الرئيسي للتجارة فكانت عبر البحر الاحمر ،
وكانت السفن الآتية من الهند وجنوب شرقي آسـيا ترسو في جدة او
عدن ، ومن هناك الى السويس حيث تفرغ السفن ، وبواسطة القوافل
تنقل البضائع الى القـاهرة والاسكندرية . وكان التجـار الايطاليين
يشترون البضائع وينقلونها بسفنهم الى ايطاليـا . لقـد كانت البضائع
الآسيوية تكلف الاوربيين كثـيرا ، بسبب نفقـات الطريق والضرائب
الفادحة التي يفرضها الامراء والملوك ، الذين تمر البضائع بأراضيهم .
فكان سلطان المماليك في مصر قد فرض على التجار المارين بجدة ومصر
ان تكون ثلث بضائعهم مكونة من الفلفل الذي هو حصـة السلطان ،
فقد كان يشتريه بنفس السعر الذي اشتراه التجار من الهند ، ولم يكن
يأخذ بنظر الاعتبار نفقات الشحن والسفر والتكاليف الاخرى . وكان
التجار يدفعون ضرائب اخرى بالاضافة الى هذه في السويس وغيرها من
المدن المصرية . وكانت البلدان الاخرى التي تمر بها هذه البضائع ، لها
نفس الرسوم والتكاليف .

لقد كانت التجارة تواجه صعوبات كثيرة في البحـار ، لان السفن
الشراعية لم تكن تتحمل الاخطار بسبب العواصف البحرية والقرصان .
كما ان الطرق البرية كانت رديئة وموبوءة باللصوص وقطـاع الطرق .
وكان السفر شاقا وطويلا يستغرق اشـهر وسنين . وعلى الرغم من كل

هذه الصعوبات التي كان يواجهها التجار ، فقد توسعت التجارة ونشطت وازدهرت المدن الايطالية والالمانية والهولندية • وكانت البضائع الآتية من الشرق تنقل من المدن الايطالية عبر جبال الالب الى المدن الالمانية والهولندية ، وهناك تتم عملية التبادل مع بضائع شمال وشرق ووسط اوربا • وكان تجار العصبة الهنسية يبادلون البضائع الآتية من ايطاليا ببضائع شمال وشرقي اوربا وهي المعادن ، والملابس الصوفية ، والجلود ، والفرو ، والاخشاب •• وغيرها • اما المدن التي كانت تتم فيها عملية التبادل فهي ميناء دانزگ على بحر البلطيق ، ولوبيك ، وهامبرگ ، وبريمن ، وبرجس ، وآنتويرپ • وكانت مدينة البندقية (ڤينسيا) في ايطاليا هي المركز الرئسي لجلب البضائع الاسيوية الى اوربا •

وقبل حلول القرن السادس عشر ، اصبحت مراكز التجارة الايطالية والالمانية التابعة للعصبة الهنسية لا تستطيع مواجهة التوسع التجاري الاوروبي ومطاليبها • فقد اصبحت ايطاليا مسرحا للحروب الاوروبية ، والمنازعات بين مدنها الغنية جلبت الكوارث ولم يعد التجار الاوربيين يخاطرون بثرواتهم في النزاعات الايطالية • كما ان العصبة الهنسية اصبحت مزعزعة وضعيفة بسبب الانشقاق بين المدن الاعضاء وتدهور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وظهور الدول السلافية في شرقي اوربا والتي تضمر لها العداء • وظلت المدن الهولندية هي الوحيدة التي تمارس النشاط التجاري والصناعي[1] •

---

(1) Ibid; Also, Waley. op. cit; pp. 95-113; Gilmore, M.P. The World of Humanism. 1453-1517 (New York, 1962) pp. 43-70.

الاستكشافات الجغرافيـــة

اسباب الاستكشافات الجغرافية :

كانت العلاقات بين اوروبا والشرق الاقصى ضعيفة او معدومة في العصور القديمة والوسطى ، لكنها كانت وثيقـة مع غرب آسيا والعالم العربي والاسلامي • وقـد اصبحت الروابط الاقتصادية تقوى تدريجيا منذ الحروب الصليبية ، وزادت الحركة التجـارية نشاطا ، لان اوروبا اصبحت بحاجـة ماسة الى البضائع الاسيوية التي لم تكن تنتجها • واغلب هذه البضـائع كانت عبـارة عن الاقمشة القطنيـة والحريرية والكتانية ، والمصنوعات الفخـارية والخزفيـة ، والذهب والفضـة ، والتوابل ـ خاصة الفلفل ـ والاحجار الكريمـة ، وبعض الاخشاب • وكانت المدن الايطالية وخاصة ڤينسيا ، قد اسست مراكز تجارية لها في مصر وسوريا وآسيا الصغرى ، وكانت على اتصال دائم بتجـار العرب والمسلمين ، يشترون منهم حاجاتهم من هـذه البضائع وينقلونهـا الى اوربا ويربحون من وراء ذلك « وقد بحثنا ذلك سابقا » •

غير ان مجيء الاتراك العثمـانيين منذ اواخر القـرن الرابع عشر واستيلائهم على بلاد البلقـان وشـرقي البحـر المتوسـط في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، جعل طريق التجارة الشرقية مسدودة في وجه الاوروبيين كما ان الضر ـ الكثيرة التي فرضها امراء المماليك في مصـر على البضائع المارة بأقطارهم الى اوروبا رفعت الاسـعار الى درجـة لم يستطع اغلب الاوربيين اقتنائهـا • ولهذا أخـذ الاوربيون

يفكرون في ايجاد طريق جديد يوصلهم الى الهند والشرق الاقصى دون المرور بالبلاد العثمانية[1]

وبالاضافة الى الحاجة الاقتصادية الى البضائع الآسيوية كانت الكنيسة الكاثوليكية تريد بسط سيطرتها على الاقطار النائية غير المسيحية ، وخاصة الوثنية ، لنشر الدين المسيحي ، وزيادة اتباع الكنيسة فارسلت مع الحملات الاستكشافية القسس والرهبان للتبشير بالدين المسيحي في افريقيا وآسيا .

لقد ساعدت المعلومات الجغرافية التي حصل عليها الاوربيون من العرب ، وكذلك التي ورثوها من اليونان والرومان ، والتجارب الشخصية للملاحين الاوروبيين في اسفارهم البحرية حول القارة الاوروبية على التوغل في البحار والمحيطات . وكانت للبعثات الدينية التي ارسلها البابوات في العصور الوسطى الى الشرق الاقصى اهمية كبرى في جمع المعلومات عن تلك الاقطار . واشهر هذه المعلومات هي التي دونها ماركو پولو الايطالي (من مدينة ڤينسيا) الذي مكث في الصين مدة طويلة ، فلما رجع من اسفاره في اواخر القرن الثالث عشر بيَّن الثراء ورغد العيش في تلك الاقطار ، واخذ الاوربيون يقرأون ذلك بشغف عظيم . ومن اشهر قراء هذا الكتاب هو كريستوف كولومبس .

كانت الافكار السائدة عن السفر في البحار في العصور الوسطى مخيفة ، فقد اعتقد الناس ان المياه الاستوائية في درجة الغليان ، وان الشياطين والعفاريت يسكنون المحيطات ، وان الارض عبارة عن بساط مسطح . غير ان هذه الافكار اخذت تتبدد بصورة تدريجية ، وساد

(1) Hayes, op. cit; pp. 47-95.

الاعتقاد بين المثقفين في أواخر العصور الوسطى بان الارض كروية ، وان من يسافر غربا يرجع من الشرق ، وان الهند تقع في الساحل الغربي من المحيط الاطلسي ، وبناء على ذلك يمكن الوصول الى الشرق الاقصى بالاتجاه غربا . لكن لما كان المحيط الاطلسي واسع جدا يجب ايجاد اقصر طريق ، وذلك بالتوجه نحو الشمال الغربي من اوروبا ، او بالدوران حول افريقيا للوصول الى الهند والصين . وكان الملاحون في القرن الخامس عشر قد استخدموا البوصلة واصلحوها . واستطاعوا تعيين خطوط الطول والعرض بواسطة الاسطرلاب ، كما استخدموا الخرائط والخطوط البيانية الامر الذي ساعدهم في الابتعاد عن السواحل . ومع ذلك فان السفر في محيط مجهول كالمحيط الاطلسي ، كان يحتاج الى شجاعة نادرة بالسفن الشراعية .

وهكذا فان العامل الاقتصادي والديني ، والمعلومات الجغرافية التي توفرت لدى الاوروبيين ساعدتهم على القيام بالاستكشافات الجغرافية . وقد نالت هذه الاستكشافات تشجيعا عظيما من قبل الحكومات القومية في اوروبا الغربية ، كما نالت تأييد ومساعدة الكنيسة المسيحية رغبة منها في نشر الدين المسيحي . ومع ان البحارة الايطاليين ذوي الممارسة والخبرة الفنية قاموا بالحملات الاستكشافية ؛ لكن الدول القومية الحديثة في غربي اوروبا هي التي تكفلت هذه الاستكشافات وأمدتها بالمال والمعدات .

الاستكشافات البرتغالية :

كان البرتغاليون اول من تكفل الاستكشافات الجغرافية . وقد تلقى البرتغاليون فنون البحار وتعلموا بناء السفن المتينة الكبيرة والسير

بها في المحيطات عن اهل جنوة وبحارتها • وكان اهل جنوة اول من قام بمحاولة الطواف حول ساحل افريقيا • ففي شهر مايس من عام ١٢٩١م ، أبحر اوگلينو دي ڤيڤالدو Vivaldo من جنوة في سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق البحري الى الهند ، غير أن السفينتين تحطمتا مقابل الشاطىء الافريقي وغرق ڤيڤالدي وجماعته ، ولم يقدم احد على مثل هذه المغامرة بعد ذلك حتى القرن الخامس عشر •

وكان هنري الملاح ١٣٩٤ـ١٤٦٠ ، ابن الملك البرتغالي جون الاول هو أول من فكر في تأسيس مدرسة بحرية لتعلم الملاحة في ليشبونة • وكان الحافز لذلك هو اشتراكه في حملة بحرية اعدّها أبوه للاستيلاء على ميناء السبته على الساحل الافريقي لمضيق جبل طارق ، وعينه حاكما عليها سنة ١٤١٥ م • وحاول الاستيلاء على طنجة سنة ١٤٣٦م لكنه اخفق في ذلك • وكان يحلم بالاستيلاء على سواحل مراكش المشرفة على المحيط الاطلسي الى بلاد غانة لانه سمع الكثير عن ثراء هذه البلاد فازداد تحمسا للاستيلاء عليها •

لم يكن هنري ملاحا في الواقع ، انما اراد ان يحقق المعلومات الجغرافية عمليا ، وخاصة بعد ان اشترى (دون پدرو) البرتغالي نسخة من كتاب رحلة ماركو پولو وجلبها في مدينة البندقية (ڤينسيا) واهداها اليه •

وكان يريد من وراء ذلك تنمية اقتصاديات البرتغال ونشر الدين المسيحي • ولتحقيق هذه الاهداف اسس مدرسة بحرية في البرتغال وجلب اليها امهر الملاحين الايطاليين واشهر الجغرافيين في ذلك العصر •

وبذل هنري الجهود لتحسين بناء السفن ، وانزل سفنا الى البحر تراوح حمولتها بين ثمانين الى مئة طن • واكتشف البرتغاليون جزر ماديرا وآزورس وقاموا باحتلالها وادخال زراعة الكروم وقصب السكر فيها ، وفي سنة ١٤٤٦م وصلوا الى مصب نهر السنغال ، وبلغوا الرأس الاخضر وبلاد غانا • وانطلق التجار والملاحون يقتنصون اهالي هذه البلاد وينقلونهم الى اسواق اوروبا لبيعهم كعبيد • وحقق البرتغاليون من تجارة العبيد ارباحا خيالية • وأنشأ البرتغاليون الحصون في اماكن مختلفة من الساحل ، واستخدموها كمراكز حربية وتجارية • وبمضي الزمن تشابكت الدوافع الدينية مع الدوافع الاقتصادية وازداد تطلع البرتغاليون الى كشف طريق بحري متصل الى الهند بالدوران حول افريقيا • وعبر الملاحون البرتغاليون خط الاستواء سنة ١٤٧١م ، وبعد سنين وصلوا الى مصب نهر الكونغو •

ديـاز :

وقد استطاع برثلوميو دياز Diaz ان يصل الى النهاية الجنوبية من القارة الافريقيـة سنة ١٤٨٨م ، بالابحار بموازاة الساحل الغربي للقارة ، وسماها رأس الزوابع The cape of storm • وعندما استمر في الابحار وجد أن الساحل الافريقي قد اصبح على الجانب الايسر من سفنه ، فعرف انه اتجه نحو الشمال ، بمحاذاة الساحل الشرقي واضطر ان يرجع بسبب تمرد بحارته • ولما وصل الى ليشبونة وقدم تقريراً عن اكتشافاته الى الملك جون الثاني ، غيّر هذا اسم النهاية الجنوبية من افريقيا الى رأس الرجاء الصالح The cape of good Hope

فاسكو ديگاما :

وبعد فترة من الركود ، استأنف البرتغاليون مواصلة

استكشافاتهم • وأوفد عمانوئيل الثـاني ــ ملك البرتغال ــ بحـارا برتغاليا آخرا عام ١٤٩٧م ، اسمه ڤاسكو ديگاما ، وودعه الملك عمانوئيل بنفسه في المرفأ ، تأكيدا للاهميـة التي علقهـا الملك على كشف الطريق الجديد • وكان عدد البحـارة (١٥٠) شخصا مستقلين أربعـة سفن • وابحر ديگاما في شهر تموز ١٤٩٧م ، سـالكا نفس الطريق الذي سلكه دياز قبل (١٠) سنوات • وفي آذار عام ١٤٩٨م ، وصـل ديگاما الى الساحل الشرقي من القـارة الافريقية بمحاذاة موزمبيق ، وزنجبـار ، وجزيرة ماليندي في المحيط الهندي التابعة حاليا لجمهورية كينيا • ومن هناك بواسطة ملاح عربي اسمه احمد بن ماجد وصل الى كاليكوت في النهاية الجنوبية من شبه القـارة الهندية في مايس ١٤٩٨م • لقـد أقام ڤاسكو ديگاما ثلاثة اشهر في مدينة كاليكوت • وفي آب من تلك السنة رجع ديگاما عبر ماليندي الى ليشبونة التي وصلهـا في ايلول ١٤٩٩م ، حاملا معه من البضائع والهـدايا ما يساوي ستين مرة بقـدر تكاليف سفره ، فكان ديگاما اول من وصل الى الهند بالدوران حول أفريقيا •

وقد أسس البرتغاليون مراكز تجـارية في الهنـد وخاصـة في مدينة گوا Goa • وعينت الحكومة البرتغالية حاكما عاما للاشراف على الشؤون التجارية وحماية مصالحهم • كما اسس البرتغاليون مراكز تجارية في سيلان وسومطرة وجاوا وجزر البهار (اندونيسيا) وفي ١٥١٧ وصـل البرتغاليون الى مينـاء كانتون في الصـين ، وفي ١٥٤٢ دخلوا اليابان • وقد استصحبت الحملات الاستكشافية بعثات تبشيرية لنشـر الدين المسيحي بين الوثنيين واشـهر هؤلاء المبشـرين هو فرانسيس گزافير • وقبل نهـاية القرن السادس عشر كان هنـاك (٢٠٠) ألف

مسيحي ياباني ، واكثر من هـذا العدد في الهند • ومـع أن السيطرة البرتغالية التجارية كانت وقتية لكنها كانت فاتحة عهد جديد لاستعمار اوربا لآسيا •

الاستكشافات الاسبانيـة :

لم تكن شـهرة اسبانيـا اقل من شـهرة البرتغـال في ميدان الاستكشافات الجغرافيـة • وبينما كان البرتغـاليون يكتشفون طريقا جديدا الى الهند بالدوران حول افريقيا ، كانت اسبانيـا تحاول ايجاد طريق جـديد الى الهنـد والصين بالاتجـاه غربا • وكان كريستوف كولومبس الايطالي هو أول من نال الشهرة في هذا المجال •

كريستوف كولومبس ١٤٤٦ـ١٥٠٦ :

كان كولومبس من سكان مدينة جنوا بايطاليا ، واشتغل بالملاحة ، وحصل على علومات جغرافية واسعة ، واعتقـد كغيره من المثقفين ان الارض كروية ومن يتجه غربا يرجع من الشرق ، وان آسيا واقعة غرب اوروبا • وكانت فكرة ايجاد طريق جديد الى الهند والصين بالابحار غربا تراوده • وبعد الحصول على خبرة عملية في الملاحـة البحرية في البحر المتوسط وحول الجزيرة البريطانية ، دخل في خدمـة الملك جون الثاني ملك البرتغال ، وطلب من الملك مساعدته في تنفيذ مشروعه عبر المحيط الاطلسي • لكن الملك كان مهتما بالطريق الجديد حول القارة الافريقية، فالتجـأ كولومبس الى فردنند وايزابيلا • وبعد جهـد كبير وتوسلات كثيرة أوصلت بـه الى اليأس ومحاولة الالتجـاء الى ملك فرنسـا أو انكلترا ، اقتنعت ايزابيلا بتمويل الرحلة •

أبحـر كولومبس في الثـالث من شهر آب عام ١٤٩٢م من ميناء

سنت يالوز ومع ثلاث سفن و(٨٧) بحار ، ورسالة من الملكة الى خان الاعظم في الصين • ولما مرت الاسابيع دون الوصول الى هدف تمرد البحارة عدة مرات وكان كولومبس يهدىء من روعهم • واخيرا وصلوا الى جزيرة سان سلفادور في ١٢ تشرين الاول • ثم نزل بعد ذلك في كوبا وهايتي واخذ يتجول بعد ذلك في جزر الكاريبي بضعة اشهر واعلن ضمها كلها الى اسبانيا ورجع في آذار (مارت) ١٤٩٣ حاملا معه الاخشاب والذهب وعدد من الهنود الحمر • وقد استقبلته الجماهير الاسبانية استقبال الابطال وانعمت عليه الملكة لقب الادميرال •

قام كولومبس بعد ذلك بثلاث رحلات اخرى ، اكتشف فيها جزر البحر الكاريبي وشواطىء امريكا الوسطى قرب پاناما ، وفي الرحلة الاخيرة اعيد الى اسبانيا مكبلا بالحديد بسبب وشايات حاسديه ، لكن ربان السفينة التي أقلته كان كريما واستاء من هذه المعاملة القاسية التي تعرض لها هذا الرجل العظيم ، فأمر برفع الاغلال الحديدية عن يديه وقدميه ، لكن كولومبس رفض ذلك • ولما عاد اصدرت الملكة امرا بالعفو عنه ، غير أن هذا الحادث ظل عالقا في ذهنه ، واحتفظ بالاغلال الحديدية في مكتبه ، ولما ماتت ايزابيلا سنة ١٥٠٤م ، اهمل شأن كريستوفر كولومبس فتأثر من جراء ذلك وبقي منطويا على نفسه يعاني آلام الحزن العميق لنكران فضله ، ومات سنة ١٥٠٦ وأوصى ان تدفن الاغلال الحديدية معه في القبر •

مات كولومبس دون ان يدري انه اكتشف قارة جديدة ، وقد سمى المنطقة بالهند الغربية معتقدا ان الجزر التي اكتشفها قريبة من ساحل الهند وسمي السكان الاصليين بالهنود ، فأصبح اسمهم الهنود

الحمر منذ ذلك الوقت . ومن المحتمل ان الآخرين قبله قد عبروا المحيط الاطلسي لكنهم لم يرجعوا ليعلنوا للعالم وجود قارة جديدة ، فضاعوا في امريكا دون ان يتركوا اثرا . غير أن كولومبس له الفضل التام في اكتشاف قارة امريكا والطريق المؤدي اليها .

جون كابوت :

قام ملاح ايطالي من اهالي جنوا برحلة بحرية بأمر من هنري السابع ملك انكلترا واكتشف سواحل نيوفوندلاند (في شرق كندا) سنة ١٤٩٧ .

كابرال :

وفي سنة ١٥٠٠ ، بينما كان پيدرو كابرال يقود اسطولا برتغاليا الى الهند بموازاة الساحل الافريقي ورأس الرجاء الصالح ، جرفته العواصف والتيارات البحرية نحو السواحل الشرقية لامريكا الجنوبية . وسمى القسم الذي اكتشفه بالبرازيل ، واصبح تابعا للبرتغال .

امريكو :

واخيرا تبين للملأ ان ما اكتشفه كولومبس عبر المحيط الاطلسي ليس آسيا ، وانما قارة جديدة . وفي عام ١٥٠٣ ، كتب احد المغامرين الايطاليين من فلورنسا والساكن في اسبانيا كعميل لعائلة مديتشي الصيرفي ، رسالة بيّن ان ما اكتشفه كولومبس ، ما هي الا قارة جديدة ، وسماها احد الجغرافيين الالمان أمريكا سنة ١٥٠٧ ، لان امريكو هو الذي ادرك حقيقة هذه القارة الجديدة .

بالبـــو :

في سـنة ١٥١٣ ، سـمع احد المستكشفين الاسـبان في امريكا الوسطى واسـمه بالبو ، ان بحرا عظيمـا يقع الى الغـرب من القارة الجديدة ، فعبر بالبو پاناما ، وتوجه غربا فوصـل الى المحيط الهادي ، وسمى البحر الذي اكتشفه بالبحار الجنوبية •

ماجـلان :

وفي سنة ١٥١٩ ، قام احد الملاحين البرتغاليين الذي كان في خدمة ملك اسبانيا ، واسمه فردنند ماجلان ، بسفرة بحـرية من اشبيلية ومعه خمس سفن لاكتشاف الطريق الغربي من امريكا الى آسـيا • وقد عبر ماجـلان المحيط الاطلسي ودار حـول امريكا الجنوبية مـارا بمضيق ماجلان ، ومن هناك اجتاز المحيط الهادي في (٩٨) يوما الى ان وصل الى جزيرة گوام Guam وبعد سبعة ايام من ذلك التأريخ وصل الى جزيرة فيلپين • وهناك قتـل ماجلان لاشـتراكه في قتـال بين السكان المحليين ، الا ان احدى سفنه واصلت السير عبر المحيط الهندي ودارت حول افريقيا ووصلت الى أشبيلية سنة ١٥٢٢ • لقد كانت سفرة ماجلان اول محاولة للدوران حول الارض ، وبذلك اكتشف طريقا غربيا جديدا بين اوروپا وآسـيا وتحققت احـلام الاوروپيين في الوصول الى آسيا بالتوجه غربا •

وبينما كان البرتغاليون يستغلون مراكزهم التجـارية في السواحل الافريقية والهنـد والصين وجزر البهـار خلال النصف الاول من القرن السادس عشر ، اسـتمرت الاسكتشافات الاسبانيـة باكتشاف جـزر الكاريبي وفلوريدا والمكسيك وامريكا الوسطى وقسم كبير من امريكا

الجنوبية • وقد اشتركت فرنسا ايضا في الاستكشافات • اذ أرسل فرنسوا الاول ملك فرنسا جون ڤرازانو وهو ملاح ايطالي ، الذي اكتشف سواحل نوڤاسكوشيا ونيوانگلند في الساحل الشرقي من امريكا الشمالية • وبعد ذلك بعشر سنوات ارسل فرنسوا الاول ملاح فرنسي اسمه جاك كارتر Cartier لاكتشاف الطريق الشمالي الغربي الى آسيا • لم يكتشف كارتر هذا الطريق لكن اكتشف وادي نهر سنت لورنس الى حد مدينة مونتريال في كندا •

وهكذا بحلول منتصف القرن السادس عشر حصل الاوروبيون على معلومات كثيرة عن العالم ومواقع المحيطات والقارات الرئيسية • وظهر طريقان تجاريان احدهما حول افريقيا الى آسيا ، والآخر الطريق الغربي الى امريكا • وبدأ الاستغلال الاوروبي للتجارة الشرقية ، واستعمار القارة الامريكية وتأسيس الامبراطوريات الاستعمارية •

الامبراطوريات الاستعمارية

كانت اسبانيا والبرتغال هما الدولتان اللتان توقف عليهما التوسع الاوروبي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الاول من القرن السادس عشر • وقد منح البابا البرتغاليين سنة ١٤٨٠ « احتكار التجارة الشرقية والسيطرة السياسية والاستعمار في بلاد الكفار » من الساحل الافريقي الغربي شرقا الى جزر الهند الشرقية • وفي سنة ١٤٩٣ بعد ان اكتشف كولومبس امريكا ، كادت الحرب تنشب بين اسبانيا

والبرتغال بسبب المنافسة الاستعمارية ، فتدخل البابا اسكندر السادس ومنح الاسبان حق التجارة والاستعمار غرب الخط الوهمي المار من القطب الشمالي الى القطب الجنوبي الذي يبتعد مئة فرسخ غربي جزر آزورس في المحيط الاطلسي . وهكذا قسمت آسيا وامريكا بين اسبانيا والبرتغال . وقد وقعت البرازيل ضمن الحكم البرتغالي وهي في منطقة نفوذ اسبانيا ، والفلبين تحت سيطرة اسبانيا وهي في منطقة نفوذ برتغالي .

امبراطورية البرتغال التجارية :

كانت امبراطورية البرتغال في الشرق تجارية . وقد عين الملك البرتغالي في ١٥٠٥ حاكما عاما اسمه الماديا Almadia ليحكم مستعمراته الشرقية . وقد استطاع هذا ان يتغلب على بعض امراء الهنود في المقاطعات الجنوبية من بلاد الهند . كما استطاع ان يتغلب على الاسطول الهندي والمصري سنة ١٥٠٩ . وبعد الماديا عيّن الملك البرتغالي سنة ١٥١٠ الفونزو البوكرك حاكما عاما الذي انتهز فرصة المنازعات بين الهنود انفسهم فحصل على مدينة گوا Goa وحصنها وجعلها عاصمة امبراطوريته الاستعمارية . وقد اغتصب بعض المدن الساحلية في الهند واستولى على جزيرة هرمز الحصينة في مدخل الخليج العربي . وفي زمانه وزمان خلفائه سيطرت حكومة البرتغال على الساحل الغربي من الهند (ساحل مالابار) . وشجع البوكرك الزواج بين البرتغاليين وسكان المستعمرات واجبرهم على التكلم باللغة البرتغالية ، وحاول نشر الدين المسيحي بينهم ، وبذلك فتح الباب للتجار البرتغاليين في الهند والصين واليابان والملايو .

لم يستطع البرتغاليون ان يؤثروا في الحضارة الاسيوية ، كما انهم لم يتمكنوا من ترسيخ اقدامهم في آسيا وذلك لان هذه القارة كانت واسعة جدا وكثيرة السكان وذات حضارة عريقة ، فلم يكن باستطاعة دولة صغيرة كالبرتغال بمواردها المحدودة ان تقهرها . فقد وقف المسلمون في العالم الاسلامي ضدهم . كما انهم لم يتمكنوا من بسط نفوذهم السياسي في الصين واليابان والملايو وجزر الهند الشرقية ، واكتفوا بالتجارة في مراكزهم التجارية التي سمحت حكومات هذه الاقطار بتأسيسها .

لقد أسس البرتغاليون مراكز تجارية ومحطات في السواحل الافريقية في موزمبيق في ١٥٢٠ ، وفي ساوباولو دي لوندا سنة ١٥٧٦ ، وفرضوا حمايتهم على الحبشة . وكانت هذه المراكز الساحلية عبارة عن محطات تموين ومراكز تجارية بين اوروبا وآسيا يستخدمونها كذلك لتجارة الذهب والعاج وتجارة العبيد . لكن البرتغاليون لم يتوغلوا داخل القارة الافريقية ، واخذت ممتلكاتهم تتقلص هناك وطردوا من الحبشة سنة ١٦٦٣م .

بقيت گوا وموزامبيق وانگولا والبرازيل مستعمرات برتغالية مدة طويلة . فقد تحررت الثلاثة الاولى في اواسط القرن العشرين (گوا في اوائل الستينات وانضمت الى الهند ، وموزمبيق وانگولا استقلتا في اواسط السبعينات) . اما البرازيل فقد استقلت في اوائل القرن التاسع عشر ، وهي المستعمرة الوحيدة التي اندمج سكانها البدائيين بالبرتغاليين واصبحت اللغة البرتغالية لغتهم اليومية . وأسس البرتغاليون مدنا كبيرة هناك مثل باهيا ، وساو پاولو ، وريودي جانيرو.

وكانت الاخيرة قد تأسست سنة ١٥٥٨ واصبحت عاصمة برازيل سنة ١٥٦٧ .

لقد تمكن البرتغاليون من جني ارباح طائلة عن طريق التجارة واصبحت ليشبونة لفترة ما مركز الرأسمالية التجارية لاوربا . غير ان الدول الاوروبية اخذت تنظر الى الثروة المتجمعة في البرتغال بعين الحسد ، ولم تعترف بالقرار البابوي حول احتكار اسبانيا والبرتغال للتجارة والمستعمرات ، وبدأت هولندا تبعث اسطولها فتغير على السفن التجارية والحربية البرتغالية ، وتقوض دعائم سياستها في المستعمرات . ولما اصبحت المنافسة الاوروبية قوية في أوائل القرن السابع عشر فقدت البرتغال احتكارها للتجارة ، ولم تستطع ان تواجه عداوة آسيا واوروبا فقد تدهورت امبراطوريتها .

امبراطورية اسبانيا :

لما اكتشف كريستوفر كولومبس امريكا كانت هذه القارة يسكنها الهنود الحمر الذين كانوا في ادوار بدائية من الحضارة . وقد اختلف استقبال الهنود الحمر للاوربيين . فقسم رحب بالاسبان واندمجوا معهم لان المهاجرين الاسبان الى بلادهم كانوا يتصرفون بحكمة . اما القسم الآخر فواجهوا فاتحين اشرار لم يستطيعوا الانسجام معهم فنشبت حروب في منتهى الضراوة بين الطرفين .

كورتيز يفتتح المكسيك :

توغل الاسبان في جزر الهند الغربية بعد ان اكتشف كولومبس امريكا . وكانت جزيرة سانت دومينگو اول جزيرة استعمرها الاسبان

ومنها بسطت اسبانيا سيطرتها على بقية جزر البحر الكاريبي او ما يسمى بجزر البهاما . لقد استطاع هيرناندو كورتيز ، احـد الاسبان المغامرين الذي كان في خدمة الحاكم العام الاسباني في كوبا ان ينزل على ساحل المكسيك سنة ١٥١٩ . وكانت امبراطورية ازتيك العائدة الى الهنود الحمر في المكسيك في دور الانحلال بسبب المنازعات بين القبائل والانشقاقات الداخلية ، وتحدي سلطة الامبراطور . وكان كورتيز قد جلب معه عشر سفن وثمانية عشر حصانا وعدد من المدافع التي لما سمع الهنود الحمر صوتها عند اطلاق النيران انهارت معنوياتهم . فاستفاد كورتيز من هذه الانشقاقات وتوجه نحو مدينة مكسيكو ، واستمال عدد كبير من القبائل المعادية للامبراطور مونتيزوما . وقد رحب الامبراطور بالاسبان في اول الامر ، لكن قتل الاسبان لعدد من الهنود الحمر أغضب الامبراطور فقتل عدد من الاسبان الامر الذي ادى بكورتيز ان يقبض عليه ويسجنه ، ولم يطلق سراحه الا بعد أن اخذ منه فدية كبيرة من الذهب الخالص ، واعترافا بسيادة اسبانيا على المكسيك . عندئذ ثارت ثائرة المكسيكيين فقبضوا على الامبراطور وقتلوه بتهمة الخيانة . لكن كورتيز كان شجاعا غير هياب فانتصر على المكسيكيين واستولى على مدنهم وأراضيهم وأسس ميناء ڤيراكروز سنة ١٥٢٠ .

اكتشاف بيرو :

قام فرانسيسكو پيزارو في بيرو ما قام به كورتيز في المكسيك . فقد كان هذا مع بالبو في اكتشاف المحيط الهادي . وسمع بوجود امبراطورية انكا Ancas في بيرو . وفي ١٥٣١ توجه من پاناما مع

عدد قليل من الجنود للاستيلاء على بيرو ونهب ثروتها . واستطاع ان ينتصر على الهنود الحمر هناك ويستولي على عاصمتهم . وأسس مدينة ليما Lima عام ١٥٣٥ وجعلها عاصمة بيرو التي تشرف على المحيط الهادي . وهكذا حصل الفاتحون في المكسيك وبيرو على ثروات ضخمة من الذهب والفضة والاحجار الكريمة ومناجم كثيرة ومقاطعات واسعة . وقد تمكن احد النبلاء من الطبقة الارستقراطية واسمه پيدرو دي ميندوزا ان يحصل على امتياز من ملك اسبانيا باستملاك مساحات واسعة جدا في الساحل الشرقي من امريكا الجنوبية فوضع بذلك اساسا لتأسيس الارجنتين وپاراغواي في المستقبل . وأسس پيدرو مدينة بيونس آيرس سنة ١٥٣٥ والتي اصبحت عاصمة الارجنتين ، كما أسس مدينة اسانسيون سنة ١٥٣٦ والتي اصبحت عاصمة پاراغواي . وقد استولى احد ضباط پيزارو (مكتشف پيرو) على شيلي سنة ١٥٤١ وأسس مدينة سانتياغو عاصمة شيلي على المحيط الهادي . وفي نفس الوقت أسس الاسبان اكوادور في ١٥٣٥ ، وكولومبيا في ١٥٣٨ .

وبهذه الصورة توغل الاسبان في القارة الامريكية ، فلم يحل عام ١٥٧٥ ، حتى كان في العالم الجديد ما يقارب (١٧٥) الف نسمة من الاسبان (اي حوالي ٣٢ ألف عائلة اسبانية) . وقد انقسمت الامبراطورية الاسبانية الى منطقتين اداريتين كل منطقة تحت ادارة حاكم اسباني . فكان الحاكم العام الاول ومركزه كوبا يحكم الجزر الكاريبي والمكسيك وامريكا الوسطى والقسم الشمالي من امريكا الجنوبية . اما الحاكم العام الثاني فيحكم بيرو وشيلي والارجنتين والاكوادور . وكانت الهيئات الدينية تقوم بالتبشير بالدين المسيحي

بين الوثنيين . وقد تأسست الجامعات في ١٥٥١ في ليما والمكسيك . وفي سنة ١٥٤٢ ، استولت اسبانيا على جزيرة فيلبين وأسست مدينة مانيلا التي اصبحت عاصمة لها في سنة ١٥٧١ ، واصبحت اللغة الاسبانية لغة السكان ، كما اعتنقوا المسيحية .

لم تكن الثروة المتدفقة من العالم الجديد الى اسبانيا كبيرة اذا قورنت بالثروة التجارية الضخمة التي كانت تتدفق الى البرتغال من تجارتها الشرقية . ولهذا كانت اسبانيا تريد ضم البرتغال للحصول على ثروتها . وفي سنة ١٥٨٠ ، توفي ملك البرتغال فاصبح فيليب الثاني ملك اسبانيا ملكا على البرتغال ، واتحد التاج الاسباني بالتاج البرتغالي وانضمت الامبراطورية التجارية البرتغالية بالامبراطورية الاسبانية الاستعمارية . وظل هذا الاتحاد مدة ستين عاما . وفي ١٦٤٠ ، انفصلت البرتغال عن اسبانيا مرة أخرى ، وكانت قد خسرت امبراطوريتها خلال فترة الوحدة ، وخاصة لان الدول الاوروبية دخلت في صراع استعماري ضد اسبانيا والبرتغال . وكانت السفن الهولندية تهاجم السفن الاسبانية البرتغالية ومستعمراتها وجلبت عليها الدمار . فلما انتهت الوحدة كانت البرتغال قد خسرت تجارتها واغلب مستعمراتها .

ظهور الرأسمالية الحديثة

عرّف الاقتصادي الانكليزي هوبسن الرأسمالية : « بانها تنظيم العمل على نطاق واسع من قبل صاحب العمل او جماعة من اصحاب الاعمال الذين يملكون كميات كبيرة من الثروة التي بواسطتها يمكن

شراء مواد الخام والآلات وتأجير العمال بغية انتاج كميات متزايدة من الثروة التي تدر أرباحا »[١] .

ويقول العالم الالماني ماكس ويبر انه : « اذا كان يقصد بالرأسمالية ذلك المشروع العظيم الذي يتضمن السيطرة على المصادر المالية الكبرى التي تنتج الثروة لاصحابها نتيجة المضاربة والاقراض والمشاريع التجارية والقرصنة والحرب ، فانها قديمة قدم التأريخ • اما الرأسمالية كنظام اقتصادي مبني على تنظيم الأجير الحر قانونيا من قبل صاحب الرأسمال (الرأسمالي) أو وكيله ، وتطبيع الهيئات الاجتماعية والمجتمع بطابعها الخاص فهي ظاهرة حديثة • »[٢]

ونستنتج من كل ذلك ان الرأسمالية وجدت بشكل من الاشكال في المجتمعات اليونانية والرومانية القديمة ، لكنها تلاشت بزوال الامبراطورية الرومانية في الغرب • ولم يكن اقتصاد اوروبا في اوائل العصور الوسطى مبني على اساس رأسمالي ، لان الانتاج كان لغرض الاستهلاك وليس التوفير • وقد حرم الدين المسيحي التعاطي بالربا •

ولكن حدث تغير تدريجي في الاقتصاد الاوروبي منذ القرن العاشر والحادي عشر للميلاد ، بسبب نشوء التجارة بين الشرق والغرب وازدهارها اثناء الحروب الصليبية • وظهرت المدن ونمت وازدادت ثروتها • وشجعت الحكومات القومية الحديثة والملوك المطلقين التجار

---

(1) J. A. Hobson, Evolution of Modern Capitalism (London, 1954) P. 1.

(2) Max Weber, Protestant Ethics and the spirit of Capitalism (New York, 1950), pp. 1 a, 1 B.

واصحاب الثـروة وقدمت لهم الحمـاية الكاملة وضمنت لهـم الامن والاستقرار • فنت الطبقـة الوسطى في المدن وازدادت ثروتهـا التي استغلتها في مشاريع مثمرة • فلم يحـل القرن السادس عشر حتى كان الاقتصاد الاقطاعي ، ونظـام النقابات في تدهور عظيم • واخـذ الملاك يطلب النقود بدلاً من جزء من الحاصـل ، ويؤجر العمـال بدلا من ان يشغلهم دون اجرة •

واخذت نقابات التجار والصناع تواجه المنافسة الشديدة من قبل الرأسماليين خارج النقابة • واصبح كثير من التلاميـذ والخلفات عمالا مأجورين يشتغلون للرأسماليين خارج النقـابة • وقـد استغلت بعض النقابات الفرصة لجمع الثروات الطائلة باسـتغلال تلاميذهم وخلفاتهم استغلالاً فاحشـا ، وبالبحث عن أسواق جديدة اوسع من الأسواق السابقة لتصريف بضائعهم • كما ان الرأسماليين والبيوتات المالية اخذت تقرض الاموال مقابل ارباح فاحشة للتجـار أو اصحاب المشاريع الذين يحتاجون الى المال • كما ان النبلاء واصحاب الاراضي الكبار سكنوا في المـدن واستثمروا ثرواتهم في مشاريع مختلفـة في التجارة والصناعة ، واصبح قسم كبير منهم ملاكين غائبين يؤجرون املاكهم سـنويا لأجل السكنى في المـدن • كمـا ان موظفي الدولة ورجـال الدين استغلوا مناصبهم لابتزاز الاموال والحصول على الارباح وتكوين الرأسمال • وهكذا توسعت التجارة وازدادت قيمة الاراضي ونمت الثروة وتكونت الرأسمالية[1] •

---

(1) Hobson, op. cit; pp. 3-24.

التجارة الايطالية وعائلة مديتشي :

كانت المدن الايطالية اولى المدن الاوروبيـة التي بدأت بالتجارة مع الشـرق وأسست مراكز تجارية في الاسكندرية وسـواحل سوريا ولبنان وآسيا الصغرى • وقد توسعت تجارتها اثنـاء الحروب الصليبية وبعدها ، ونمت الرأسمالية فيها وخاصة في جنوا ، فينسيا وفلورنسا • وظهرت بيوتات مالية تحولت بمرور الزمن الى البنوك الحديثة • وكان اصحاب هذه البنوك يقرضون المال الى الامراء والملوك والبابوات مقابل ارباح طائلة كما انهم كانوا يقرضون المال الى التجار واصحاب المشاريع الضخمة ويربحون من جراء ذلك ، وتنمو رؤوس اموالهم نموا عظيما • وكانت عـائلة مديتشي في فلورنسا احدى تلك البيوتات الماليـة التي اصبحت واحدة من اكبر اصـحاب البنوك في اوروبا في القرن السادس عشر • فقـد نمت هذه العائلة من نقـابة صغيرة في القرن الرابع عشر ، واصبحت من اغنى العوائل الرأسمالية في اوروبا واكثرها نفوذا في القرن الخامس عشـر والسادس عشر • لقـد امتلكت هـذه العائلة البنوك والمصارف واخذت تقرض المال الى الملوك والامراء والدول الاوروبيـة • وتستغل ثرواتها في مشاريع ضخمة داخل القـارة الأوروبية وخارجها • وأسست لبنوكها فروعا كثيرة في اهم المدن الاوروبية وخاصة في المراكز التجارية المهمة • فكانت هذه العائلة مثالا للرأسمالية الحديثة •

الرأسمالية والتوسع الاوروبي :

لم تكن الرأسمالية الحديثة تصل الى هذه الدرجـة من الضخامة في القرن السادس عشر لو اعتمـدت على اوربا فقط • لان اوربا كانت تنقصها الكثير من مصادر الثروة التي لم تكن موجودة فيهـا أصلا •

لكن الرأسمالية الاوربية نمت نتيجة للتجارة الشرقية والاستكشافات الجغرافية واتصال اوربا بآسيا وافريقيا وامريكا والسيطرة عليها ثم استغلالها ، وبذلك استعاضت عما كانت تنقصها من مصادر الثروة الطبيعية ، واستوردت ما كانت تحتاجه من الذهب والفضة لسك النقود الضرورية لنمو الرأسمالية • وقد حصلت اوربا على مصادر الثروة الطبيعية والمعادن الثمينة في امريكا وآسيا وافريقيا بوسائل مختلفة كالسلب والنهب كما فعل المستكشفون الاسبان في مكسيكو وبيرو وجزر الهند الشرقية ، او القرصنة ، والافضلية في التجارة ، وفرض الجزية والضرائب على سكان المستعمرات وتقييد تجارتها • وقد اضافت تجارة العبيد ونظام الرق ارباحا طائلة الى هذه الثروة •

لقد انقرض نظام الرق في اوربا منذ زمن بعيد ، ونظام القنانة الذي حلّ محل الرق كان اما منحلا كما هي الحالة في انكلترا وبعض اجزاء اوروبا الغربية ، او في طريق الانحلال في الاجزاء الاخرى من اوربا في القرن السادس عشر • ويستثنى من ذلك اوربا الشرقية التي ظلت القنانة فيها الى القرن التاسع عشر • وكانت الجماهير الاوروبية مع فقرها تتمتع بشيء من الحرية الشخصية • ولما قام الاوربيون بالاستكشافات الجغرافية كان من الصعب عليهم الاشتغال في المناطق الاستوائية والمدارية ، فشغّلوا الهنود الحمر في المناجم وفي الزراعة وغيرها من الاعمال التي تنهك الجسم •

وكاد من جراء ذلك ان ينقرض الهنود الحمر في القارة الامريكية لانهم لم يتعودوا على الاعمال الشاقة المتعبة • وقد رفع الانسانيون اصواتهم ضد هذا العمل اللاانساني الذي يمارسه الانسان ضد اخيه

الانسان • فاضطر الاسبان والبرتغاليون ان يستبدلوا الهنود الحمر بالزنوج الافريقيين • وكان الاخيرون في نظرهم اكثر ملائمة لتلك الاعمال من الهنود • وقد تأسست مراكز مهمة على سواحل افريقيا الغربية لاصطياد الزنوج • وكانت الحكومة الاسبانية قد منحت احد التجار الهولنديين امتيازا للقيام بتجارة العبيد سنة ١٥١٧ ، لتزويد جزر الهند الغربية بـ (٤٠٠٠) زنجي سنويا • وقد باع هذا التاجر امتيازه الى تاجر ايطالي من جنوا كان يشتري العبيد من البرتغاليين ويبيعهم الى الاسبان في امريكا • وهكذا اصبحت تجارة العبيد بين افريقيا وامريكا مؤسسة منظمة معترف بها من قبل الاوربيين وموّلت اصحابها سواء أكانوا تجارا او ملاكين ، يشغل كل منهم آلاف العبيد في المزرعة بدون اجرة •

عدم ظهور الراسمالية في اسبانيا والبرتغال :ـ

كان من المتوقع ان يستفيد الاسبان والبرتغاليون من التجارة الشرقية والمستعمرات الامريكية وتجارة العبيد ، لكن الواقع هو ان الشعب الاسباني لم يستفد من هذه الثروة التي تدفقت من امريكا • وظل الفلاح والنبيل الاسباني يعيش على الزراعة والرعي وما تنتجه مزرعته من محاصيل ، أو ما يحصل عليه من صوف اغنامه للتصدير الى مصانع فلاندرز للاقمشة الصوفية • والاقلية التي استفادت هم ملوك اسبانيا والبرتغال ومَنْ حولهم من رجال الحاشية والتجار وبعض النبلاء الذين استطاعوا أن يؤسسوا مراكز تجارية في أشبيلية وليشبونة، وفيها تجمعت ثروة امريكا والتجارة الشرقية التي بدورها كانت تصدر الى اسواق اوربا • فحلّت هاتين المدينتين محل ڤينسيا وجنوا • وقد

فسح الامبراطور شارل الخامس المجال لتجار الالمان والهولنديين باستثمار ثروتهم في مشاريع ضخمة في اسبانيا وامريكا • فانتقلت الثروة والمال والارباح من اسبانيا الى الاراضي المنخفضة واصبحت مدينة انتويرب عاصمة التجارة والرأسمال الاوروبي • كان المستفيدون من التجارة والثروة الاسبانية البرتغالية في اول الامر اصحاب المال والتجار الايطاليين • فكان لعائلة مديتشي الايطالية وكلاء في ليشبونة ومدريد ، لكن خلال العقد الاول والثاني من القرن السادس عشر اخذ الالمان والهولنديون يسبقون الايطاليين في ميدان الصيرفة واستثمار الاموال الاسبانية البرتغالية الآتية من الشرق أو من العالم الجديد • وقد تدهورت التجارة الايطالية بسبب سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط، ومنافسة الطريق الجديد الى امريكا او عبر رأس الرجاء الصالح الى الشرق • وبدأ التجار الاوربيون يذهبون الى أشبيلية وليشبونة للحصول على البضائع الشرقية والمستوردات الامريكية • وصحب تدهور التجارة الايطالية ، تدهور الصناعة ايضا مما أدى الى تدهور النظام المصرفي الايطالي •

وقد انتقلت السيطرة المالية من البنوك الايطالية الى المانيا والاراضي المنخفضة واصبح الرأسماليون الالمان والهولنديون وكلاء التوسع الاقتصادي الاوروبي • وقد استفاد هؤلاء من الارتباط السياسي بين اسبانيا والاراضي المنخفضة والمانيا في ظل الامبراطور شارل الخامس لتقوية الرابطة الاقتصادية •

عائلة فوگر الراسمالية :

ان عائلة فوگر الالمانية اوضح مثال لنمو الرأسمالية الألمانية • لقد

كانت العائلة من سلالة حائك في مدينة اگسبرگ في المانيا • وقد تمكن فوگر ان يصبح زعيما لنقابة التجار والصناع في المدينة المذكورة • ولما توفي عام ١٤٠٨ ترك مبلغ ٣٠٠٠ جنيه ذهبي • وقد توسع مجال استثمار الثروة في القرن الخامس عشر تحت اشراف يعقوب فوگر الذي تعلم مهنته في ڤينسيا واخذ يستثمر مناجم الفضة في تيرول والنحاس في هنگاريا ، وتاجر بالصوف والحرير والتوابل مع جميع اقطار اوربا • وقد بلغت ثروة العائلة في نهاية القرن الخامس عشر (٢٠٠) الف جنيه ذهبي • وكانت العائلة تقرض البابوات والاباطرة واستثمرت رؤوس اموالها في انتخاب شارل الخامس امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة • وقد بلغت ثروة العائلة عام ١٥٢٧ مليون جنيه ذهبي ، وأصبح ضعف ذلك في منتصف القرن السادس عشر •

اهمية انتورب الراسمالية :

لاحظت عائلة فوگر انتقال مراكز التجارة من ايطاليا الى سواحل المحيط الاطلسي واواسط اوربا ، فأسست فروعا لبنوكها في ميناء انتويرپ في الاراضي المنخفضة ، وكان هذا الميناء مركزا تجاريا مهما في اوربا في العقد الاخير من القرن الخامس عشر ، وحل محل مدينة برجس التجارية في فلاندرز ونمت التجارة والثروة في انتويرپ بحيث انها اصبحت مركزا للسوق المالي والصيرفي في اوربا في النصف الاول من القرن السادس عشر • وبفضل اهمية انتويرپ التجارية والمالية بلغت ثروة يعقوب فوگر الى مليون جنيه عام ١٥٢٥ • كما ان العوائل المالية الالمانية الاخرى أسست فروعا في هذا الميناء العالمي الواقع في ملتقى الطرق التجارية القديمة والحديثة • فكان يؤمه آلاف من التجار

الاجانب من اوربا الشرقية والبلاد السكندنافية وجنوب اوربا وغربها ، كما انه كان سوقا رائجا للبضائع الانگليزية • وقد أسس البرتغاليون مراكزا لتجارة التوابل في انتويرپ بغية الحصول على كميات من الفضة المستخرجة من المانيا • وقيل ان عدد السفن التي كانت تحمل البضائع الى انتويرپ يوميا قد بلغ ٤٠٠ سفينة ، يضاف الى ذلك آلاف من عربات الشحن التي تسلك الطرق البرية • وقد ظهرت المؤسسات المالية الحديثة في انتويرپ كالبورصة لتبادل العملة واستثمار الاموال ، ومؤسسات الرهون والتأمين على الحياة والاموال وخاصة في الاسفار البحرية التي تواجه المخاطر الكثيرة • وكان الامراء والملوك والسماسرة يقترضون من بورصة انتويرپ • وهكذا بحلول منتصف القرن السادس عشر اصبحت انتويرپ سوقا تجاريا وصيرفيا ليس فقط في اوربا بل في العالم اجمع •

لكن حدث في ١٥٤٩ أن انسحبت البرتغال من انتويرپ بغلق مركزها التجاري للتوابل هناك ، وذلك لحصولها على الفضة الامريكية الرخيصة والتي لم تستطع مناجم الفضة الالمانية منافستها • كما ان التجار الالمان الذين كانوا يوزعون التوابل في اوربا ، نقلوا مراكزهم التجارية الى ليشبونة وڤنسيا • فأثّر ذلك على تجارة انتويرپ التي لم تستطع في النصف الثاني من القرن السادس عشر استعادة نشاطها الاول• ومع ان انتويرپ ظلت غنية لكن عوامل أخرى اخذت تشل حركتها التجارية والصيرفية • فكانت الحروب المتتالية بين فرنسا والامبراطور شارل الخامس وديون اسبانيا المتراكمة والغائها بين الحين والآخر ، أو تحويلها الى اعتمادات حكومية قسرا وبنسبة ٥٪ من سعر الفائدة ،

وقيام الدول الاخرى كفرنسا بنفس العمل ادى الى نكسة اقتصادية في اول الامر ، تبعها انهيار اقتصادي شامل وافلاس المصارف والبنوك قبل نهاية القرن السادس عشر • وكانت لثورة الاراضي المنخفضة التي اندلعت في ١٥٦٦ ، الاثر الكبير في هذا الانهيار الاقتصادي بسبب نهب الجنود الاسبان لثروات المدن الهولندية من بينها ميناء انتويرپ عام ١٥٧٦ • ومهما يكن فقد تمكنت انتويرپ من ان تستمر كمركز للتجارة والرأسمال الاوربي خلال فترة طويلة من القرن السادس عشر •

تأثير الراسمالية على الزراعة والصناعة :

لقد أثرت الرأسمالية الحديثة تأثيرا كبيرا على المؤسسات والمنظمات الاجتماعية ، وتغير شكل المجتمع الاوروبي تدريجيا خلال القرن السادس عشر • فكانت المؤسسات الاقطاعية تزول شيئا فشيئا ، كما ان النقابات اخذت تنقرض او تتغير • لكن التغيير التدريجي في بداية القرن اصبح تغيرا ثوريا في نهاية القرن •

فقد وجهت الرأسمالية الحديثة ضربة مميتة الى النظام الاقطاعي والزراعي • واخذ النبلاء الكبار الذين كانوا لا يزالون يتمتعون بدخل كبير من اراضيهم يسكنون في المدن ويشتغلون بالتجارة وأجّروا اراضيهم الى مستأجرين مقابل مبالغ ضخمة استغلوها في التجارة وصاروا ملاكين غائبين ، بينما تحول الفلاحون الى عمال زراعيين يشتغلون باجور يومية • وقد استخدم البعض ثروته في تطوير الزراعة باستخدام الاساليب الحديثة كالمحاريث التي تسير على عجلات ويجرها عدد من الحيوانات • أو تحويل المزارع الى مراعي لرعي الاغنام ، والاشتغال بتجارة الصوف المربحة • فظهر من جراء ذلك نظام تسييج

الاراضي في انكلترا .

أما في الصناعة فقد قضت الرأسمالية الحديثة على النقابات التي كانت منذ بداية القرن السادس عشر في تدهور مستمر بسبب اقليميتها الضيقة وعدم صلاحيتها لمواجهة العرض والطلب العالمي للبضائع المصنوعة . وقد ظهر النظام الاهلي في الصناعة Domestic System الذي يعني قيام الرأسمالي بشراء مواد الخام وتوزيعها على الصناع لصنع البضاعة المطلوبة في بيوتهم باجور مقطوعة وبيع السلعة المنتجة باسعار مربحة . وبحسب هذا النظام يستطيع الرأسمالي ان يشغل عددا كبيرا من الصناع في صناعات مختلفة وتوزيع مواد الخام المتنوعة عليهم، كالصوف للحائك ، والحديد للحداد ، والجلود لصناع الاحذية ، مقابل اجور محدودة قليلة ، ويجمع السلع المنتجة ويربح منها ارباحا طائلة . ولم يكن الرأسمالي مقيدا بقوانين النقابة لأنه لم ينتم اليها ، كما انه كان يجمع اموالا كثيرة بطريقته الجديدة المبنية على أساس الانتاج على نطاق واسع . وكانت نتيجة ذلك ان اصبح الفرق واضحا بين الرأسمال والعمل ، واصحاب الاعمال والعمال . وزالت العلاقات الودية التي كانت تربط صاحب العمل بالعامل ، واصبحت المنافسة بين الرأسماليين على اشدها .

لم تستطع النقابات منافسة النظام الرأسمالي الجديد في الصناعة . فكان على النقابات أمرين اما أن تدخل في منافسة مميتة مع الرأسمالية ، او تقبل الرأسمالي عضوا في النقابة وعندئذ يقوم الرأسمالي بتنظيم النقابة بحسب النظام الجديد . وفي بعض الحالات بقيت النقابة تشتغل للرأسمالي كعامل مقابل اجور معينة متفق عليها في ظل النظام الاهلي .

المذهب التجاري :ـ

يقصد بالمذهب التجاري تنظيم الشؤون الاقتصادية في الصناعة والتجارة من قبل الحكومة . ولم يكن ذلك شيئا جديدا في القرن السادس عشر ، اذ كانت المدن الايطالية تنظم فعاليتها الاقتصادية وتشرف عليها منذ قرون . كما ان النقابات طبقت هذه السياسة ايضا . لكن الشيء الجديد الذي ظهر في القرن السادس عشر هو توسيع هذه السياسة وتطبيقها من قبل الحكومات القومية والملوك المطلقين واصبحت شائعة في القرن السابع عشر .

ان المذهب التجاري مبني على اساس ان الفضة والذهب عماد الثروة بالنسبة للدولة وبالنسبة للناس ، ولهذا يجب توفير كميات كبيرة من الفضة والذهب في خزينة الدولة ، وعند المواطنين ، لان ذلك يزيد من هيبة الدولة وسطوتها ويسبب نشر الرخاء والامن في البلاد . ان الفضة والذهب ضروريان لسك النقود التي هي الوحدة الاساسية للتبادل ، ودفع رواتب الموظفين ، والقيام بالمشاريع الاقتصادية ، وتأسيس الجيش الدائمي وتقويته وبناء الاسطول الحربي للدفاع عن البلاد . ولا يمكن الاحتفاظ بالثروة القومية الا اذا قامت الدولة بتنظيم التجارة والصناعة والاشراف على السوق ، وتشجيع المصنوعات الوطنية ، وفرض الضرائب على البضائع المستوردة التي تنافس المنتجات المحلية وتشجيع السفن الوطنية لشحن البضائع وعدم استخدام السفن الاجنبية وتأسيس المستعمرات لتزويد البلاد بالمواد الاولية التي تحتاجها دون شرائها من الدول الاجنبية وصرف بضائعها في هذه المستعمرات . وبهذه الطريقة تزداد الثروة القومية ولا تتسرب

المعادن الثمينة (الفضة والذهب) الى خارج البلاد ، ويمكن المحافظة على الميزان التجاري بزيادة الصادرات وتقليل المستوردات كي تبقى العملة القومية داخل البلاد • وقد دعا المذهب التجاري الى الغاء الضرائب الداخلية لتوحيد الاقتصاد القومي وتنسيق السوق الوطني وتنظيمها ، والاهتمام بالتجارة الدولية كعنصر اقتصادي اساسي وتنظيمها من قبل الدولة لاجل الاكتفاء الذاتي والاعداد للحرب • واكد اصحاب المذهب على المستعمرات الاستوائية اكثر من غيرها لوجود السكر والشاي والاخشاب والمنتجات الاستوائية الاخرى التي لا يمكن الحصول عليها في غير هذه الاقطار ، وجعلها سوقا لبضائع الوطن الام ، ودمج المستعمرات بالاقتصاد الوطني • وقد اتخذ المذهب التجاري اشكالا متنوعة بحسب الدول التي طبقت هذه السياسة ومصلحة الطبقة الحاكمة • ففي انكلترا كان التنظيم الاقتصادي لمصلحة الحكومة ، لكن الحكومة الانكليزية كانت متجاوبة مع طلب اصحاب الاعمال والتجار ، ومن الصعب القول بان السياسة الاقتصادية الانكليزية كانت لمصلحة الدولة عامة او لمصلحة صاحب العمل او التاجر • أما في فرنسا فكان المذهب التجاري يعني سياسة الدولة الاقتصادية ، وكانت الحكومة هي التي تدير الشؤون الاقتصادية للدولة كلها ولا تفسح المجال للآخرين • فكان الناس يشعرون بقبضة الدولة على الاقتصاد الوطني • وقد اتبعت الدول الاوروبية الاخرى نهج فرنسا • اما الاراضي المنخفضة فكانت جمهورية في القرن السابع عشر تمثل رجال الاعمال وكانت مصلحة هؤلاء مطابقة لمصلحة الدولة اي ان رجال الاعمال مسيطرين على السياسة الاقتصادية • وقد احتكرت اسبانيا والبرتغال المستعمرات

الامريكية والتجارة الشرقيـة ومنعت الدول الاوروبيـة الاخرى من المتاجرة ضمن امبراطوريتهما • ولهذا التجأت انكلترا وفرنسا وهولندا الى القرصنة ومهاجمة السفن الاسبانية البرتغالية في عرض البحار ونهب ثروتها للحصول على المعـادن الثمينة • وحاولت هـذه الدول تأسيس المستعمرات والامبراطوريات لنفسها ، فنشب صـراع عنيف بين الدول الاوروبيـة استمر طوال القـرن السابع عشر والثـامن عشر وادى الى تدهور الامبراطورية الاسبانية والبرتغالية •

تاثير الراسمالية على المجتمع الاوروبي :

لقد شجعت الرأسمالية الحديثة الملوك والحكومات القوميـة على تشـجيع الاستكشافات وتأسيس المستعمرات عبر البحـار • فتغيرت التجارة تغيرا ثوريا في الكمية والاتجـاه والادارة • لقد كان التغير من حيث الاتجاه من جنوب وجنوب شرق اوروبا الى غرب اوروبا ، ومن البحر المتوسط الى المحيط الاطلسـي • ومن حيث الادارة فانتقلت من حكومات المـدن الى الممالك (أو الدول) القومية الحديثـة • اما من ناحية الكمية فان السفن التي استخدمت في نهـاية القرن السادس عشر كانت اضخم واقوى واسـرع من السـفن التي استعملهـا كولومبس وفاسكو ديگاما قبل قرن ، وكانت تحمل بضائع متنوعة اكثر وبكميات اضخم •

وكانت نتيجة التوسـع الاوروبي وتضخم الرأسمالية ان تغلغلت الكماليات الآسـيوية الى اوربا • فكان اقبـال الاوروبيين عظيما على البضائع الآسيوية : كالتوابل بانواعها والقطن والحرير والعاج والسكر والقهوة والشاي واخشاب الصاج والصندل وغيرها من البضائع والسلع

التي لا تنتجها اوربا • كما انها استوردت من امريكا الفضة والذهب والذرة والبطاطا والتبغ وخشب الماهوكوني والكاكاو والكنين • بينما أدخل الاوروبيون الخيول والابقار والفواكه : الحمضيات والعنب والموز والزيتون والخضروات وقصب السكر الى امريكا • وبالاضافة الى ذلك اخذت اوربا تصدر المصنوعات الصوفية والقطنية والبارود والصناعات المعدنية والفخارية •

وفي وسط هذا السوق العالمي ، ولظهور الرأسمالية تغير المجتمع الاوروبي تغيرا عظيما ، واصبح الفرق كبيرا بين الغني والفقير • وازداد الوعي القومي والمنافسة القومية ، واصبحت الحروب عالمية وتكلف عددا كبيرا من الضحايا ، وكميات هائلة من الاموال • واصبحت الملكية المطلقة تستند على ركائز قوية بتحالفها مع الطبقة الوسطى •

ومن ابرز مظاهر هذا التغير هو ظهور الأغنياء الرأسماليين في المدن الذين ازدادوا نفوذا وسطوة ومارسوا تمييزا طبقيا لم يسبق له مثيل • وكانت هذه الطبقة الرأسمالية تساعد الملكية المطلقة وتقدم لها القروض ، كما اختلطت بالطبقة الارستقراطية عن طريق المصاهرة وتقديم القروض ، فتحالفت الرأسمالية التجارية والصناعية مع الرأسمالية الزراعية ، ووضعت الاسس الضرورية للتوسع الاوروبي والسيطرة البورجوازية والاستعمار الحديث •

الفصـل الرابـع

الثورة الدينية والاصلاح الديني

ان التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية سببها عدم ملائمة المؤسسات القديمة لمواجهة المقتضيات الحاضرة ، فيسود الظلم والطغيان وتنتشر الفوضى والاضطرابات ، وتسوء الاحوال • والثورة لا تحدث دون استفزاز ، فتنفجر براكينها للانتقام من الماضي ، وايجاد حل للمشاكل التي يعاني منها المجتمع • لقد كان عصر الثورة الدينية والاصلاح الديني عصر تغير واسع شمل كل المشاكل المعاصرة ضمن اطار الثورة الدينية • وكانت الثورة الدينية نتيجة لعوامل كثيرة بالاضافة الى العامل الديني ، كالوعي القومي ، وطموح العوائل المالكة ومنازعاتهم ، والحركة الفكرية والانسانية ، والاستكشافات الجغرافية والتقدم الاقتصادي وظهور الطبقة الوسطى والرأسمالية الحديثة ، وعوامل اخرى كثيرة سببت تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وزعزعت المجتمع الاوربي مدة اكثر من قرن ونصف •

لقد شعر الناس بوجود مساوىء كثيرة في الكنيسة من فساد القسس ، وفرض الضرائب الكثيرة على الناس باسم الدين ،وعدم تطور التعاليم الدينية بحسب تقدم المجتمع الاوروبي ، الامر الذي جعل الناس يشعرون بوجوب تغير في نظام الكنيسة • وكانت الانتقادات موجهة ضد الكنيسة كمؤسسة دينية وليست ضد بعض رجال الدين

الفاسدين[1] • ولم يكن الانسانيون ورجال الفكر وحدهم ينتقدون الكنيسة ، بل ان فئات مختلفة في المجتمع طلبت الاصلاح ، وفضائح الكنيسة كوّنت جزءا صغيرا من مطاليب الناس • فكانت سلطات البابا واسعة جدا يستخدمها أحيانا دون ان تقدر شعور الناس في اوربا •وكان الانسانيون يعتقدون ان الكنيسة لا تساير التقدم الفكري • كما ان البورجوازيين شعروا بان رجال الدين يتدخلون كثيرا في شؤونهم الاقتصادية والعلمية والقضايا الاخرى التي تخص هذه الدنيا وليست من شؤون الكنيسة • كما ان الملوك والامراء والنبلاء كانوا يحسدون الباباوات ورجال الدين في ممارستهم صلاحيات واسعة وجمعهم الاموال الطائلة باسم ضريبة القديس بطرس ، وضريبة التوبة ، والزواج والهبات وغيرها من الاجور التي كانت تتكدس في خزائن الكنيسة • وباختصار كان الناس عامة يجدون ان كنيسة عالمية ذات سلطات واسعة جدا لا تتناسب مع عالم اوربي تتجه نحو تكوين حكومات قومية موحدة ذات سيادة والميالة الى تعدد الاديان والمذاهب ، وان لم يكن التعبير عن الشعور بهذا الشكل الذي وردناه في زمانه[2] •

الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى

ظهرت الكنيسة المسيحية في ظل الامبراطورية الرومانية القديمة ، وبعد زوال الدولة الرومانية حلت الكنيسة الكاثوليكية محلها في روما •

---

(1) Louis Gottschalk Europe and Modern World Chicago, 1951, pp. 149-151.

(٢) المصدر نفسه .

وكانت هذه الكنيسة قد نظمت بشكل هرم على رأسه البابا الذي ينتخبه مجلس الكرادلة • ويلي البابا في الرتبة الكاردينال ، ثم رئيس الاساقفة، فالاسقف ، فالقس • وكان هؤلاء يهتمون بادارة شؤون الكنيسة وممتلكاتها ولهذا سمي هذا الصنف من الموظفين الكنسيين بموظفين دنيويين secular • وكان قسم من رؤساء الاساقفة يحكمون عدة مدن او مقاطعات • اما الطبقة الاخرى من الموظفين الكنسيين هي الرهبان والراهبات والمتزهدين الذين عاشوا في الاديرة واهتموا باعداد الناس للآخرة وسموا برجال الدين الاعتياديين Regular .

ويلاحظ هنا مدى الشبه بين التنظيم الكنسي والتنظيم الامبراطوري في عهد الامبراطورية الرومانية • فالبابا يمثل الامبراطور • ومجلس الكرادلة عبارة عن مجلس الشيوخ الذي ينتخب الامبراطور ، ورؤساء الاساقفة يمثلون حكام المقاطعات • ويستنتج من ذلك ان الكنيسة ارادت ان تحل محل الامبراطورية الرومانية •

كانت الكنيسة المسيحية تملك اراضي واسعة في اوربا ، وكانت للكنيسة قوانين ومحاكم خاصة بها ، فكانت تنظر في قضايا الزواج ، الارث والوصايا • وكان موظفو الكنيسة يشرفون على المدارس والجامعات والملاجيء والمستشفيات • وكانت الكنيسة تتمتع فوق كل ذلك بسلطة سياسية عظيمة وتفرض الضرائب على الناس وتتدخل في امور الدول الاوروبية •

كان البابا رئيس الكنيسة الكاثوليكية في الغرب • وانيطت السلطة التشريعية بالبابا ومجلس عام General Conncil وكان هذا المجلس مؤلف من اقطاب رجال الدين الكاثوليك في العالم • ولم يكن

باستطاعة اي من البابا أو المجلس ان يغير نص الكتاب المقدس وكتابات القديسين الاوائل ، أو أن يسن قانونا يتعارض مع الانجيل . وكان المجلس عادة يوافق على كل القوانين التي يعرضها البابا عليهم .

محاولة تقييد سلطة البابا

وفي مطلع القرن الخامس عشر قام بعض رجال الدين والفكر بحركة من شأنها تقييد البابا وزيادة سلطة المجلس حتى يكون الاخير المصدر الاول للتشريع بدلا من البابا . وكان المؤتمران المنعقدان في كونستانس ١٤١٤ـ١٤١٨ ، وبال (١٤٣١) عبارة عن محاولة لجعل الكنيسة اكثر دمقراطية . غير ان البابا عارض هذه المحاولات التي كانت ترمي الى تقييد سلطة البابا ، وأدان المؤتمرين في مؤتمر ثالث عقد في « فرارة » بفلورنسا بين عام ١٤٣٨ـ١٤٤٢ . وكان النصر النهائي للبابا الذي اصبح اوتوقراطيا يمارس سلطة مطلقة .

صلاحيات البابا :

أما صلاحيات البابا فكانت كما يلي : (١) ان البابا هو السلطة العليا لاصدار القوانين الخاصة بالكنيسة . ومراسيمه لا يمكن اهمالها من قبل اية سلطة ولا يجوز لاي مجلس تشريع القوانين دون موافقته . ويستطيع ان يعفي الفرد من اي مخالفة قانونية عدا المخالفات الدينية . (٢) كان البابا هو الحاكم الاعلى للعالم المسيحي ، وكانت المحكمة البابوية تسمى بكيوريا Curia ، وهي بمثابة المرجع الاعلى والاخير لجميع المحاكم الاخرى في العالم الكاثوليكي . (٣) كان البابا الرئيس الاداري والروحي للكنيسة المسيحية (الكاثوليكية) ويعين جميع الموظفين الكبار وينقلهم ، ورجال الدين الاعتياديين (الرهبان) مرتبطين

به مباشرة . وكان يرسل السفراء الى بلاط الملوك لتنفيذ الاعمال . (٤) وقد توج بعض الاباطرة للامبراطورية الرومانية المقدسة كالامبراطور شارل الخامس سنة ١٥٢٩ ، وشارلمان ، واوتو الكبير ، وغيرهم ، قسم برضاهم وقسم كشارلمان مفاجأة دون علمه المسبق . وحرم بعض الاباطرة من بينهم هنري الرابع ، فردريك الثاني ، ولويس البقاري . وكان من صلاحيات البابا الغاء اي قانون يتعارض مع مصلحة الكنيسة في اية دولة كانت . وقد حكم في مدينة روما وما جاورها كأي ملك مطلق . (٥) كان يتمتع بصلاحيات مالية لتغطية نفقات الكنيسة كضريبة العشر على الكنائس في كل انحاء العالم الكاثوليكي ، وبعض الضرائب مقابل الخدمات في روما ، ودفع كل عائلة كاثوليكية ضريبة القديس بطرس Peter's Pence .

رسالة الكنيسة المسيحية

ورد في تعاليم الكنيسة المسيحية ، كما نشرتها الكنيسة ، ان الغرض من الكنيسة المسيحية بحسب تعاليم المسيح ، انقاذ البشر من الخطيئة والعذاب الابدي . ولا ينج احد من ذلك الا اذا كان عضوا في الكنيسة المسيحية . والخلاص يترتب على دراسة العلوم اللاهوتية والاسرار المقدسة . أما اللاهوت فهو دراسة الخالق ، ولماذا خلق البشر ، وما هي علاقة البشر بالله ، وما مصير البشر في المستقبل . وكان توماس أكويناس ، أشهر الفلاسفة اللاهوتيين الذين درسوا الانجيل والتوراة والقوانين الكنسية وفلسفة ارسطو وعلى ضوء دراساته وضع الاسس الاخلاقية للكنيسة الكاثوليكية .

اما الاسرار المقدسة sacrament ، فجزء من اللاهوت ، وهي

الواسطة الوحيدة لخلاص الانسان من العذاب الابدي • وقد وجدت الكنيسة وانظمتها لتنفيذ هذه الاسرار المقدسة • وقد عرفت الاسرار المقدسة بانها علامات ظاهرية وضعها المسيح لاجل الحصول على العناية الالهية والرحمة • وعدد الاسرار المقدسة في الكنيسة الكاثوليكية سبعة وهي كما يلي :

(١) التعميد Baptism: هو سكب الماء المقدس على الطفل لتطهيره من الخطيئة الاولى والخطايا التي ارتكبها البشر فيما بعد ويصبح الطفل بعد التعميد مسيحيا • ويقوم القس بعملية التعميد او التطهير •

(٢) التثبيت Confirmation ، يقوم الاسقف عادة بسكب الزيت المقدس على الشاب ليحل فيه روح القدس ويكوّن منه شخصا قوي الايمان •

(٣) سر التوبة Penance ، من اهم الاسرار في الدين المسيحي ، والغاية منها نيل المغفرة من الخطايا التي ارتكبت بعد التعميد • وعلى التائب الحقيقي ان يفحص نفسه وضميره لما ارتكبه من الخطايا والذنوب ، ويشعر بألم وتوبيخ للضمير ، ويشد عزمه على ان لا يعصي امر الله ويتوب على ايدي القس ويعترف بكل ما ارتكبه ، فينال بذلك المغفرة من القس • ولكي تكون التوبة مقبولة يجب ان يزور الكنيسة ، ويؤدي بعض الادعية ، ويدفع الفدية والصدقات يوافق عليها القس • وهذه الاعمال تسمى بالاعمال الصالحة •

(٤) سر التناول The Holy Euchorest ، وهو تناول الخبز

والنبيذ بحضور القس او الاسقف اسوة بالعشاء الرباني الاخير ، فيتحول عند اشارة القس او الاسقف الى لحم ودم المسيح . وهذه المعجزة تسمى Transubstantiation ولاجلها نشأ القداس وما يتبعه من الزينة بالشموع والازهار والبخور وفي سبيلها اقيمت الكنائس الرائعة ، الكتدرائيات .

(٥) مسحة المرضى Transubstantiation ، اي مسح المريض المشرف على الموت وتدهينه بالزيت المقدس بواسطة القس لتقوية الايمان .

(٦) سر الكهنوت Holy orders ، تبريك الاسقف لرجال الدين الجدد الذين يدخلون سلك الوظائف الكنسي ، ومنحهم البركة والرحمة والعزيمة في اداء واجبهم الديني المقدس .

(٧) سر الزواج Matrimony ، الزواج سر مقدس وصلة خالدة بين الرجل والمرأة لا تنفصم بالوسائل البشرية[١] .

هذه هي اركان الدين المسيحي في العصور الوسطى . ولم يكن هناك من يشك في هذه التعاليم او يحاول تغييرها . غير ان انتشار الحركة الكلاسيكية والانسانية والتعليم الجديد المبني على الحضارة اليونانية والرومانية القديمة ، والاستكشافات الجغرافية والتقدم الاقتصادي والرأسمالية الحديثة ، ونمو الطبقة الوسطى وطموح العوائل المالكة ومنازعاتهم ، وانتشار الوعي القومي كل ذلك غيَّر طبيعة الناس وطرق تفكيرهم ، فأظهروا ولعا شديدا للحضارة الوثنية والتمتع بالحياة

(1) Hayes, op. cit; pp. 136-219.

والانحراف عن التقاليد المسيحية المبنية على الزهد ونكران الذات ، وكثير من الامراء والملوك وأقطاب المال والتجار انغمسوا في ملاذ الدنيا وانجرف معهم كثير من رجال الدين وحتى بعض البابوات وأهملوا شؤونهم الدينية •

مساوىء الكنيسة

المساوىء السياسية :

كانت الكنيسة الكاثوليكية تمارس سلطة سياسية واسعة خلال العصور الوسطى بالاضافة الى سلطتها الدينية • كما ان موظفي الكنيسة من البابا الى الاساقفة والقسس كانوا يديرون منظمة دينية متقنة انتشرت فروعها في جميع انحاء اوروبا الوسطى والغربية ، مستقلة عن الدولة ، وادعت انها أرفع شأنا منها • وكانت الكنيسة تملك مساحات واسعة من الاراضي تستغل مواردها ، وغير خاضعة لضرائب الدولة • وقد فرضت الكنيسة ضرائبها الخاصة على اعضائها ، وحاكمت رجال الدين وأحيانا المدنيين في محاكمها الخاصة دون تدخل المحاكم المدنية •

وقد انتشرت فضائح البلاط البابوي في جميع انحاء اوروبا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر • فكان البابا اسكندر السادس ١٤٩٢—١٥٠٣ ، عديم الاخلاق ، انغمس في الموبقات ، وحاول جمع المال بشتى الوسائل للحصول على امارة لابنه غير الشرعي سيزار بورجيا وبنته لوكريس بورجيا الشريرة • كما ان البابا جوليس

الثاني ١٥٠٣–١٥١٣ ، كان رجلا يميل الى الحـرب وتقوية الممتلكات البابوية وطرد الفرنسيين من ايطاليا ، فانشغل بالسياسة والمؤامرات مع امراء ايطاليا والدول الاجنبيـة . اما البـابا ليو العاشر ، ابن لورينزو الكبير ١٥١٣–١٥٢١ ، فاهتم بالحركة الفكرية والتعليم الجديد وتشجيع الفنون والآداب . وحاول جمع المال بشتى الوسائل لبناء كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان .

وحذا بعض رجال الدين حذو البابوات في تكوين الثروة والعيش برفاه والانغمـاس في الملذات على حسـاب الكنيسة . وكثير منهم من الكبار والصغار لم يهتم حتى بشؤونه الدينية بل اصبح سياسيا متآمرا أو يجمع المال بوسائل مختلفة ويبذرهـا في ملذاته . لكن الكنيسة لم تخل من رجـال مخلصين انتقدوا مساوىء الكنيسـة ونبهوا البابوات بذلك في تقاريرهم السنوية ونصحوا بوجوب الاصلاح .

المساوىء الاقتصادية :

كانت الكنيسة الكاثوليكية تملك اراضي واسـعة في اوربا والتي كانت خارجة عن نطاق ضرائب الدولة . وكان لرجال الدين دخل سنوي من الاراضي العائدة للكنيسة . وكانت القاعدة الجارية ان يدفع الرجل الديني شـيئا من ايراده في السنة الاولى من تعيينه الى من هو فوقه في الرتبة او الى البابا . وكانت هذه القاعـدة متبعة من القس الى البابا . وقد احتكر بعض الاساقفة وظائف بعض الكنائس لانفسهم كي يحصلوا من ورائها على اكبر كمية ممكنة من الدخل . كمـا ان كثيرا من رجال الدين الايطاليين غابوا عن اماكن وظائفهم خارج ايطاليا ، واستحصلوا رواتبهم وموارد كنائسهم مع ذلك . وبالاضافة الى ذلك كانت ضرائب

كنسية تجبى من جميــع انحاء العــالم الكاثوليكي وترسل الى رومـا مضافا اليها الهبـات والعطايا الأخرى • وقد اعتقـد كثير من الناس في شمال اوروبا ان البابوات يستغلون المسيحيين الشـرفاء خارج ايطاليا لمصلحة الايطاليين الفاسدين •

وفي الوقت الذي كان الطابع الرأسمالي وجمع المـال قد طغى على الطبقة الوسطى والامراء والنبلاء ، نظر هؤلاء بمزيد من اللهفة الى ثروة الكنيسة والموارد الضخمة التي يتمتع بها رجال الدين الكبار والمساحات الواسعة من الاراضي التي تملكها الكنيسة • وكانوا يريدون من الدولة مصادرة اموال الكنيسة واملاكها واستخدامها في مشاريع مثمرة ، على ان تأخذ الطبقة الوسطى حصة الاســد • ولم يكن الملوك والامراء أقل حماسـا من رجال الطبقــة الوسطى في وضع حـد لسلطة الكنيسـة السياسية والاقتصادية لاجل تثبيت الحكم الملكي المطلق وتدخل الدولة في شؤون الكنيسة ومصادرة ثروتهـا الهائلة • وعليه فان رجـال المال والاعمال مهدوا السبيل الى الثورات الاجتماعية في القرن السادس عشر بالاضـافة الى الثورة الدينيـة والاصلاح الديني • ولم يقف الملوك في وجـه الاعتداءات على الكنيسة بل شجعوها لصالحهم ، لكن في نفس الوقت سـاعد على انتقال النفـوذ الاقتصادي من رجـال الدين الى الرأسـماليين • فكـان ذلك نتيجـة وسببا في نفس الوقت لظهــور الرأسمالية الحديثة •

ومن اهم العوامل واشـدها خطرا على الكنيسة الكاثوليكية هو انتقادات المفكرين والانسانيين ،وشكاوى الفلاحين والحرفيين التي كانت تهدد بالثورة ضدها •

وبحلول القرن السادس عشر بلغ الصراع السياسي ذروته . فكان الملوك الذين قضوا على الاقطاعية ، وأسسوا حكومات قومية ، وشجعوا انتشار الوعي القومي وحب الوطن ، وابتغوا ازدياد سلطتهم المطلقة ، وثرواتهم القومية ، لم يتوانوا في اخضاع الكنيسة ومصادرة اموالها واراضيها وتوزيعها على اتباعهم ، واضافة سلطة الكنيسة الى سلطاتهم. وقسم من الملوك عارض الاصلاح ، خوفا من ان ذلك يقضي على طموحاتهم في الحصول على اموال الكنيسة ، فوضعوا انفسهم على رأس الثائرين ضد الكنيسة .

المعارضة الدينية قبل لوثر :

لقد كانت المعارضة الآريوسية في القرن الرابع الميلادي في نظر الكاثوليك من اخطر المعارضات التي واجهتها الكنيسة . وقد توسعت شقة الخلاف بين الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكسية في العصور الوسطى ، ولم تجد المحاولات لردأ الصدع ، اذ كانت الكنيسة الارثوذكسية تعتبر البابا مغتصبا للسلطة التي هي من حق الامبراطور . بينما البابا اتهم الكنيسة الشرقية بالخنوع والاذعان لسلطة الامبراطور البيزنطي وتبعية الكنيسة للدولة ، وبذلك وسعت الكنيسة الشرقية شقة الخلاف بين الشرق والغرب وادت الى تصدع الوحدة المسيحية .

أما ضمن الكنيسة الكاثوليكية فقد ظهرت جماعات مختلفة خلال العصور الوسطى انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية واتهمت بالهرطقة لرفضها بعض معتقدات الكنيسة اشهرها جماعة والدنس في ايطاليا ، والالبيجيون في جنوب فرنسا ، وجون ويكلف في انكلترا ، وجون هس في بوهيميا . وكانت اغلب الانشقاقات بدافع سياسي واقتصادي وقلما

نبذت تعاليم الكنيسة . وكان الصراع بين الاباطرة والبابوات ، او الملوك والبابوات في العصور الوسطى أحد الانشقاقات التي أضعفت الكنيسة الكاثوليكية .

وعلى أي حال ، وعلى الرغم من كل هذه الثورات استطاعت الكنيسة الكاثوليكية ان تقضي على معارضيها وتنتصر لانها كانت قوية والناس يدينون بالولاء لها والايمان بها دون جدال . غير ان الوضع تغير في القرن السادس عشر بسبب ظهور الملكية المطلقة والدول القومية وانتشار الوعي القومي والحركة الفكرية والحضارة الكلاسيكية والاستكشافات الجغرافية وظهور الرأسمالية ، فانتبه الناس الى مساوىء الكنيسة وارادوا اصلاحها او الثورة ضدها اذا تعذر الاصلاح .

مارتن لوثر ١٤٨٣ ـ ١٥٤٦

ولد مارتن لوثر في مدينة آيزل بين Eizelben في المانيا سنة ١٤٨٣ ، ودرس في اول الامر عند جماعة تطلق على نفسها اسم اخوان الحياة المشتركة Brothers of common life ، في مدينة مگدبرگ . ثم درس اللاهوت والانسانيات في جامعة ايرفرت Erfert وتخرج منها كراهب سنة ١٥٠٥ . وانتقل بعد ذلك الى مدينة وتنبرگ Wittenberg ، وعين في جامعتها التي تحمل نفس الاسم ، استاذا لتدريس اللاهوت .

لقد كان لوثر محبوبا من قبل طلابه ومستمعي وعظه ، عرف

بالصراحة والجرأة في الاعراب عن آرائه . ومع انه لم يكن بليغا ، لكن قوة منطقه وثقافته العالية كوّنت منه شخصية قوية جعلتـه يتفوق على خصومه . وكأي معاصر له في شبابه قبل معتقدات الكنيسة الكاثوليكية وشعائرها دون اي شك او معارضة . ولمـا زار روما سنة ١٥١١ كانت زيارته كمتزهد يحج لا كمن ينوي الثورة . ومع انه كان مثابرا في اداء شعائر الكنيسة ، لكنه كان يشك في أن ينـال رضى الله والخلاص من العذاب الابدي . ومع انه درس في الجامعة أرسطو ، وتوماس اكويناس وغيرهما ممن كانت الحركة المدرسية تؤكد عليه ، لكنه ظل مثابرا على الدعاء والصوم والصلاة . وقال بعد ان اصبح شهيرا « لو أن الراهب ينال المغفرة والجنة بمجرد الرهبنة [الانخراط في الرهبنة] لنلتهـا منذ امد بعيد » . لكن استمر يشعر بانه مذنب . وأخيرا نصحه احد اساتذة الجامعة بأن يقرأ سنت اوغسطين . وهناك وجد لوثر ان التائب ينـال المغفرة عن طريق الايمان بالله ومغفرته وينجو من العذاب الابدي . لكن هذا الاطمئنان النفسي أدى الى الثورة ضد الكنيسة بدلا من المصالحة معهـا ، لان لوثر أكد على الايمـان برحمة الله ومغفرته فقط ، بينمـا الكنيسة الكاثوليكية كانت تصر على الايمـان والاعمال الصالحة التي هي الاسـرار السـبعة وتأدية بعض الواجبـات الاخرى كالاعتـراف والصدقات والحج الى روما وغير ذلك من الاعمال[1] .

ثورتـــه :

لقد كان خروج لوثر عن الكثلكة بصورة تدريجية . اذ حدث ان انتقد لوثر ما كان يقوم به « تيتزل » رسول البابا ليو العاشر من بيع

(1) Gottshalk, p. 153.

صكوك الغفران وما يستند عليه الغفران من تكفير الذنوب وتخفيف العقاب ان لم يكن الغفران التام ٠ والغفران جزء من الاعتقاد بالاعمال الصالحة ٠

وكان تيتزل هذا يقوم بجمع المال بهذه الطريقة لبناء كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان ٠ وعليه كتب لوثر اعتراضا من ٩٥ مادة علقها في باب كنيسة وتنبرگ ، وكان من جملة ما ورد في هذا الاعتراض ان الكنيسة لا تستطيع ان تخلص احدا من العقاب ، وان المسيحي ينال المغفرة من الله عن طريق الايمان التام بالله وليس من الضروري بالاعمال الصالحة ، وليس هناك ما يدعو لجعل الكنيسة واسطة بين الفرد وبين الله لان التائب الحقيقي ينال المغفرة من الله دون ان يحصل على غفران الكنيسة ٠ وقد أراد البابا ليو العاشر ان يدعو لوثر الى روما ليدافع عن نفسه في مسألة المواد المعلقة على باب كنيسة وتنبرگ ، لكن فردريك أمير سكسونيا اقنع البابا بالعدول عن ذلك[1] ٠

وفي سنة ١٥١٩ ، حدث نقاش بين لوثر وبين احد علماء اللاهوت المسمى « جون أيك » في مدينة لايبزگ ، وفي اثناء المناقشة انكر لوثر وجود السلطة الالهية لدى البابا او المجلس البابوي لتفسير الانجيل ٠ وصرح بان بعض معتقداته يطابق معتقدات جون هس الذي احرق قبل قرن من قبل البابا ومؤتمر كونستانس ، وخاصة تلك التي تخص علاقة الانسان المباشرة بالله دون توسط الكنيسة ٠ وقال بان لكل مسيحي الحق ان يسلك حسب ما يفهمه هو من الانجيل ٠ وهكذا لم يبق بين

(1) Ibid; pp. 154-156.

لوثر والكنيسة الكاثوليكية اية رابطة سوى الانفصال وخطى لوثر هذه الخطوة سنة ١٥٢٠[1] •

رسائل لوثر الثورية :

هاجم لوثر الكنيسة الكاثوليكية بشجاعة فائقة في رسائل ثلاث • ففي الرسالة الاولى الموجهة الى امراء الشعب الالماني قال لوثر : ليس هناك ما يدعو الى قدسية النظام الكهنوتي ، ويجب ان يجرد رجال الدين من جميع امتيازاتهم • كما انه دعا الامراء والنبلاء في المانيا الى تحرير انفسهم من السيطرة الاجنبية ، ونبههم الى ضرورة مصادرة ثروة الكنيسة واملاكها وسلطاتها التي هي من حقهم الشرعي • وفي الرسالة الثانية التي سماها أسرى بابل [شبّه لوثر الكنيسة اسرى بيد البابوات كما كان اليهود اسرى في بابل عند بخت نصر] ، هاجم لوثر البابوية ، والاسرار السبعة • وفي الرسالة الثالثة بعنوان حرية الرجل المسيحي ، قال ان الخلاص من العذاب لا يأتي عن طريق الاسرار السبعة والاعمال الصالحة ، انما يأتي عن طريق يأس الشخص واعترافه الذاتي بانه مذنب ووضع نفسه تحت رحمة الله وعنايته بأن يتوب ولا يعود الى ارتكاب الآثام •

حرمان لوثر وحضوره امام الدايت الالماني في مدينة وورمز ١٥٢١

كان البابا ليو العاشر يعتقد في اول الامر ان ما حدث عبارة عن شجار بين الرهبان يمكن حله دبلوماسيا • لكن ظهر فيما بعد ان ما يقوم به لوثر هو تحدي سلطة الكنيسة والبابا ورفض مبادىء الكنيسة الكاثوليكية ولهذا فانه عمل هرطقي باعث على الانشقاق • ومنح لوثر

(1) Ibid.

مدة شهرين للتراجع او يصدر بحقه أمر الحرمان ، وقد ختم البابا الامر بختم من الرصاص الذي لا يستخدم الا في القضايا الخطيرة . وكان رد فعل لوثر اكثر تحديا للبابا والكنيسة ، بان احرق الامر وبعض الكتب في القانون الكنسي في ساحة في وسط مدينة وتنبرگ امام حشد من الناس وهتافاتهم .

وفي سنة ١٥٢١ ، استدعى مارتن لوثر الى الحضور أمام الدايت الالماني المجتمع في مدينة وورمز برئاسة الامبراطور شارل الخامس للمحاكمة . وطلب المبعوث البابوي من لوثر التراجع عن كل ما قام به الى ذلك الوقت ، ورفض لوثر امام الامبراطور وامراء المانيا المجتمعين في الدايت ان يتراجع بقوله : « ان ضميره اسير عند الله ، ولا يستطيع نبذ أي شيء ، لان ليس من الحق والعدل ان يعمل الانسان ضد ضميره وقناعته ، فليساعدني الله ويأخذ بيدي ... » . وقد أثر لوثر على بعض الامراء في الدايت بكلماته ، عدا الامبراطور الذي لم يتأثر به وطلب منه ترك القاعة . لكن امير سكسونيا فردريك الحكيم قال ان « خطاب الدكتور مارتن لوثر كان مؤثرا . » وقد سمح للوثر ان يرجع الى موطن اقامته في سكسونيا لان الامبراطور منحه الامان مدة محاكمته وذهابه وايابه بين وورمز وسكسونيا .

لم يكن من السهل القبض على لوثر ومعاقبته حتى لو لم يعطه الامبراطور الامان في الوقت الذي كانت الجماهير الحاشدة تهتف له واغلب الامراء يؤيدونه . وكان الفرسان في المانيا هم الذين احرقوا امر الحرمان ، واختطفوا مارتن لوثر وخبؤه في قلعة وارتبرگ Wartburg في سكسونيا ، ولما انتهت مدة الامان الذي منحه الامبراطور ، صدر

المرسوم بان مارتن لوثر خارج عن القانون يجب القبض عليه حيا او ميتا . لكن امير سكسونيا قام بحمايته من عقاب الامبراطور شارل الخامس . وفي هذه الفترة ترجم لوثر الانجيل الى اللغة الالمانية (١٥٢٢) واصبحت هذه الترجمة تحفة رائعة في الادب الالماني .

لا تذكر المصادر التي بين ايدينا ان مارتن لوثر كان متأثرا بالاتراك العثمانيين او انه قرأ القرآن الكريم وتأثر به . لكن هناك اشارات يذكرها « رولاند بينتون » في كتابه « تأريخ حياة مارتن لوثر» الذي يذكر فيه انه اثناء الجدال بين لوثر وجون أيك ، ذكر لوثر « ان ليس للاتراك قانون مدني او كنسي ، ويعرفون التوراة والانجيل ولا يعملون به ، بل دستورهم القرآن [الكريم] وحكومتهم احسن حكومة على سطح الارض »[1] .

انتشار اللوثرية :

أخذت اللوثرية تنتشر في المانيا بسبب كتابات لوثر في السنوات التالية وظهرت مهارته في جلب الاتباع . فاستمال الاتقياء بما صوره لهم من مساوىء الكنيسة والوطنيين بالتخلص من السيطرة الاجنبية ودفع الضرائب الى البابا الايطالي ومحكمته . والنبلاء والطبقة الوسطى بما يرجع اليهم من الثروة والسلطة على حساب املاك الكنيسة وثروتها الضخمة . ولما كان الامبراطور مشغولا بالحروب الاجنبية مع فرنسا في ايطاليا ، ومع الاتراك في شرقي اوربا ، لم يستطع ان ينصرف الى مكافحة اللوثرية .

---

(1) Roland H. Bainton, Here I stand : the Life of Martin Luther New york, 1956, pp. 185, 196.

ومما هو جدير بالملاحظة ان الامراء الذين قبلوا اللوثرية قد يكون بدافع الايمان ولكن في اغلب الاحيان صاروا لوثريين لان الامبراطور تمسك بالكنيسة الكاثوليكية وقرر الدفاع عنها ، فروح الاستقلال والتخلص من سيطرة الامبراطور والبابا بالاضافة الى مصادرة ثروة الكنيسة كان سببا آخر لانتشار اللوثرية بين الامراء والنبلاء[1] .

لقد كان لوثر يتمتع بشخصية جذابة أهلته للقيادة . فكان يكتب الرسائل الثورية وينشرها بشجاعة نادرة وعزيمة لا تعرف الكلل . واظهر مقدرة عظيمة في تكوين وحدة متراصة من جماعاته المختلفة . فكان النبلاء ورجال الدين والفلاحين والطبقة الوسطى وقفوا يدا واحدة في تأييد اللوثرية . فثاروا ضد الكنيسة الكاثوليكية وصادروا املاكها وثروتها ، وألغوا المراسيم والطقوس الكاثوليكية . وهكذا انتشرت دعوته انتشارا عظيما ، وظهر معه ان الامة الالمانية بأكملها ستخرج عن الكاثوليكية .

وقد تشجع الفلاحون وثاروا ضد النبلاء ورجال الدين سنة ١٥٢٥ ، أملا بالتخلص من الضرائب الفادحة المفروضة عليهم ، والسخرة والعقاب الكيفي . وكان لوثر يشجع الثورة طالما كانت في ممتلكات الكنيسة ، لكن لما انتشرت في اراضي الامراء والنبلاء وجد لوثر ان الخطر يهدده ، فوقف بجانب النبلاء لاخماد الثورة . وقد بحثنا تفاصيل الثورة في الفصل الخامس .

(1) Koenigsberg, and Mosse, op. p. 118.

تاسيس الكنيسة اللوثرية :

ادى الانقطاع العقائدي مع روما الى انسحاب اللوثريين من الكنيسة الكاثوليكية ، وتأسيس الكنيسة اللوثرية . وبدأت تأسيس الكنائس في المدن الالمانية التي كلها أو بعضها صارت لوثرية . وأشرف لوثر بنفسه على تأسيس الكنائس الجديدة يساعده في ذلك زملائه المخلصين . وقد نبذ لوثر المبادىء الاساسية للكاثوليكية . فلم يبق من الاسرار السبعة سوى ثلاثة : سر التعميد ، سر التوبة ومسحة المرضى . وعدّل سر التناول . وألغى لوثر الرهبنة والبابوية والنظام الكهنوتي[1] واصبح امراء المقاطعات هم رؤساء الكنائس البروتستانتية بدلا من البابا ، وحل المنستر محلّ القس في ادارة شؤون الكنيسة ، واللغة الالمانية محلّ اللغة اللاتينية في المواعظ الدينية . وألغيت الاعمال الصالحة ، كالحج والصيام وعبادة العذراء والقديسين وصكوك الغفران . واصبحت ترجمة لوثر وجماعته للانجيل الى الالمانية المصدر الاساسي للبروتستانتية .

لقد انقطع انتشار اللوثرية في المانيا منذ ان قضى النبلاء على الفلاحين وقلّ نفوذ مارتن لوثر بينهم ، أما امراء الكاثوليك الذين كانوا على وشك اعتناق اللوثرية بقوا على دينهم القديم لان اللوثرية أدت الى الثورة ضدهم (كما حدث فعلا) . وازداد نفوذ النبلاء بعد ذلك وساءت احوال الفلاحين اكثر من السابق ، باستثناء مقاطعتي « بادن وتيرول » حيث تحسنت احوال الفلاحين فيهما بعض الشيء .

ولما اجتمع الدايت الالماني سنة ١٥٢٦ في مدينة سپاير speyer كان الامراء منقسمين الى لوثريين وكاثوليك . وكان الامبراطور

شارل الخامس في وضع حرج بسبب تقدم الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان القانوني ووصوله الى المجر ، وتجدد القتال بين الامبراطور وفرنسوا الاول في نفس الوقت . فاضطر شارل ان يذعن لمطاليب اللوثريين . فقرر الدايت ان « يتخذ كل امير سلوكا للتصرف يكون مسؤولا تجاهه أمام الله وأمام الامبراطور . » لكن عند اجتماع الدايت الالماني سنة ١٥٢٩ في نفس المدينة ، وكان الامبراطور شارل الخامس في هذا الوقت قد انتهى من حربه مع فرنسوا الاول ملك فرنسا ، وتمت له السيطرة على ايطاليا ، وانسحب الجيش العثماني من اوروبا ، فكان في وضع يستطيع ان يفرض ارادته . فقرر في الدايت ان القانون ضد الهرطقة يجب تنفيذه بحق اللوثريين . ومنع اللوثريين من جمع واردات الكنيسة لاغراض العبادة الجديدة (ويعني اللوثرية) . عندئذ قدم الأمراء اللوثريين احتجاجا الى الامبراطور شارل طلبوا فيه الرجوع الى قرار الدايت الالماني المتخذ سنة ١٥٢٦ ومفاده أن ولائهم « لله فقط وليس للامبراطور » . ومن هذا الاحتجاج (بروتيست Protest) اشتقت البروتستانتية .

انتشار اللوثرية في بعض الولايات الالمانية وبلاد اسكندنافيا :

لقد حاول فيلب ميلانكتن ، احد الانسانيين في جامعة وتنبرگ وصديق مارتن لوثر ، ان يوفق بين اللوثرية والكاثوليكية ، فوضع اسسا دينية لوثرية في مميزاتها ولكن يمكن قبولها من قبل الكاثوليك لاختلافها بعض الشيء عن بعض مبادىء لوثر ، وقدمها الى الدايت الالماني المجتمع في أگسبرگ سنة ١٥٣٠ . لكن الدايت رفضها . ومع ذلك فان مقررات أگسبرگ اصبح المعتقد المطبق في اللوثرية .

لم يقتنع الامبراطور بمقررات أكسبرك وقرر معاقبة الهرطقة بالقوة والقضاء على اللوثرية في المانيا • عندئذ اجتمع الامراء اللوثريين وكوّنوا عصبة سميت بعصبة شمولكالد Schmalkald ، لحماية انفسهم سنة ١٥٣١ • واستمرت الحروب المتقطعة بين البروتستانت والكاثوليك ، وبدون انقطاع من ١٥٤٦ الى ١٥٥٥ ، وهكذا أصبحت المانيا ساحة حرب اهلية يساعد ملك فرنسا البروتستانت لاغراض سياسية ، وانتهت بصلح أكسبرك سنة ١٥٥٥ وبموجبه :

(١) أن ينتخب امراء المانيا الدين الذي يرغبون فيه ، ولهم حق فرض هذا الدين على اتباعهم •

(٢) أن يحتفظ البروتستانت بجميع املاك الكنيسة التي صادروها قبل سنة ١٥٥٢ •

(٣) يجب ان لا يسمح لغير البروتستانتية اللوثرية ان تنتشر في المانيا•

(٤) يجب ان لا يُجبر اللوثريون على ترك عقيدتهم في دولة كاثوليكية •

(٥) يجب على رجال الدين الكاثوليك التخلي عن مناصبهم اذا اعتنقوا البروتستانتية •

وهكذا انتشرت البروتستانتية في شمال المانيا بين ١٥٢٠ و١٥٥٥ ، وكان فيلب ميلانكتن هو الذي وضع اسس اللوثرية الجديدة سنة ١٥٣٠ ، واصبح معترفا بها رسميا سنة ١٥٥٥ •

لم تستطع اللوثرية ان تنتشر في جميع انحاء المانيا كما لاحظنا ، لكن ما خسرته في المانيا عوّضت عنه في البلدان السكندنافية • لقد

كان كريستشن الثاني ١٥١٣-١٥٢٣ ، ملكا منتخبا على الدانيمرك والنرويج وقد استولى على السويد ايضا لما بدأ لوثر بثورته • وقد احتفظ بالديانة الكاثوليكية واعترف بسلطة البابا الدينية • لكن الملك في صراعه مع الشعب وخاصة السويد الذين ثاروا وانفصلوا ، خسر عرشه في ثورة عامة ، وانتخب السويديون گوستافز ڤازا Gustavus Vasa ١٥٢٣-١٥٦٠ ، ملكا عليهم ، بينما النرويج والدانيمرك انتخبا عم الملك المخلوع فردريك الاول ١٥٢٣-١٥٣٣ • وقد فضل فردريك اللوثرية لانها تزيد من سيطرة الملك وتبعية الكنيسة للدولة • لكن فردريك كان يعلم ان الكاثوليكية راسخة في البلاد ولا يمكن استئصالها بسهولة • فجمع اساتذة لوثريين من حوله دعاهم من المانيا ، وبدأ ينشر اللوثرية في مملكته • وكانت الدعوة ناجحة الى درجة بحيث اصبحت اللوثرية والكاثوليكية على قدم المساواة في ١٥٢٧ • ولما مات فردريك سنة ١٥٣٣ ، حاول الكاثوليك منع انتخاب ابنه كريستشن الثالث لانه كان لوثريا شديدا ويحب السلطة المطلقة • وقد فشل احتجاج السكان ضد الحكم المطلق وانتصر كريستشن الثالث فارتقى العرش سنة ١٥٣٦ ، وبذلك انتهت الكاثوليكية في الدانيمرك والنرويج واول عمل قام به ان اصدر مرسوما يقضي بمصادرة املاك الكنيسة الكاثوليكية وعلى رجال الدين ان يتنازلوا عن سلطاتهم الدينية والدنيوية لمصلحة البلاد • وبعد المداولة مع مارتن لوثر نظم الدين الجديد واعترف باللوثرية دين الدولة الرسمي سنة ١٥٣٧ • لكن الكاثوليكية لم تمت بسهولة واحتجاجات الفلاحين والانسانيين استمرت مدة من الزمن ، وقد استنكر احد الانسانيين باسم هيلگيسن التغير

الديني لكن الدولة بثروتها الجديدة التي جمعتها من مصادرة املاك الكنيسة اصبحت أغنى دولة سكندنافية وانتصرت على المعارضة تدريجيا ، واصبحت تلعب دورا رئيسيا في السياسة الاوروبية في النصف الثاني من القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر واصبحت اللوثرية دينا قوميا في الدانيمرك والنرويج .

أما في السويد فنجاح اللوثرية يعود الى الملك ايضا . فقد ارتقى گوستافز ڤازا عرش السويد بفضل الفئات القومية ولو ان المعارضة كانت لا تزال تحت تأثير رجال الدين الكاثوليكي يتزعمهم رئيس اساقفة اپسالا upsala الذي كان يريد البقاء مع الدانيمرك . ولكي يتخلص من زعيم الوحدويين طلب الملك من البابا عزل رئيس الاساقفة وتعيين اسقف آخر يتفاهم مع القوميين . ولما رفض البابا ذلك ، انقطعت العلاقات مع روما . وقد تمكن گوستاف أن يقضي على ثورة المعارضين الوحدويين ، وبدأ بعد ذلك بنشر البروتستانتية في البلاد بصورة تدريجية . فقد ابقى الملك الكاثوليكية في اول الامر واكتفى بالغاء الأدرة ، ومصادرة ثلثي ضرائب الكنيسة ، ونشر ترجمة سويدية للانجيل . وفي ١٥٢٧ صادر الملك جميع املاك الكنيسة واعدم اسقفين كاثوليكيين . وفي نفس الوقت دعا رجال الدين اللوثريين الى السويد . وفي سنة ١٥٣١ عين احد البروتستانتيين رئيسا لاساقفة اپسالا . وانتشرت اللوثرية بعد ذلك بسرعة ، على الرغم من بعض المعارضة الكاثوليكية في النصف الثاني من القرن السادس عشر . واصبحت مقررات اگسبرگ المعتقد الرسمي للحكومة السويدية سنة ١٥٩٣ ، وفي سنة ١٦٠٤ ، جردت الحكومة الكاثوليك من وظائف الدولة

ونفتهم الى خارج البلاد • وكان العامل المساعد في كل ذلك ان البرلمان السويدي من النبلاء والطبقة الوسطى ايدوا الملك على طول الخط •

زوينگلي وكالفن في سويسرا :

لم تكن اللوثرية العقيدة البروتستانتية الوحيدة المنتشرة في اوروبا • فبينما انتشرت اللوثرية في المانيا والبلدان السكندناقية ، ارتأت اقطار أخرى ان تطبق البروتستانتية بالشكل الذي تلائم البلاد • ولما لم يتفق زعماء البروتستانتية على عقيدة واحدة ، مالت البروتستانتية الى التفرع الى عقائد مختلفة منذ البداية •

في الوقت الذي بدأت ثورة لوثر في المانيا ، ظهرت ثورة اخرى بعدها بقليل في سويسرا يقودها الماني سويسري من مدينة زوريخ اسمه هايلدريك زوينگلي Huldreich Zwingli، أو أولريك زوينگلي • وفي سنة ١٥١٦ ، ذهب زوينگلي الى مدينة آينزيدلن في مقاطعة شواير السويسرية كقس كاثوليكي • ولد زوينگلي من عائلة غنية وتثقف ثقافة عالية في « ڤيانا » و« بال » ، وظهرت رغبته في الانسانية والتعليم الجديد اكثر من اللاهوت والتقاليد الكنسية الكاثوليكية • ولما كان يقبض راتبا من البابا لم يكن يشك في عقيدته واخلاصه للكنيسة وخاصة كان قد مر عليه في المسلك الديني عشر سنوات •

كانت معارضة زوينگلي للباباوية مبنية على أسس سياسية • فقد تكلم زوينگلي ضد تأجير حكام الاجانب للجنود المرتزقة السويسريين ، ولام البابوات ورجال الكنيسة لتشجيعهم هذه الحرفة الفاسدة • وقد دفعه حماسه هذا الى الهجوم على جميع مساوىء الكنيسة • لكنه لم يرفض السلطة البابوية الا بعد ان عين وعاظا في كتدرائية زوريخ منذ

لقد كان لكتاب كالفن تأثير عميق على البروتستانتية لكنه لم
١٥١٨ • وبدأ هناك يرفض السلطه البابوية ، واعلن ان الانجيل هو
المرشد الوحيد للايمان والقواعد الاخلاقية ، وهاجم بعض التعاليم
المسيحية ، كالصيام ، وتقديس آثار القديسين وأباح الزواج لرجال
الدين وتزوج هو ايضا • وقد تأثر به مستمعوا وعظه وطبقوا تعاليمه ،
وهاجموا الكنائس ودمروها واحرقوا ما فيها من آثار •

لقد طلب البابا من اهالي زوريخ سنة ١٥٢٣ ، ان يتركوا زوينگلي،
لكن السكان اعلنوا استقلالهم التام عن البابوية • واشتعلت نيران
الثورة في جميع انحاء سويسرا ما عدا المقاطعات الخمسة التي في سفوح
جبال الالب حيث ظلت كاثوليكية • كانت تعاليم زوينگلي مشابهة تماما
لتعاليم لوثر ، لكن المحاولات للتوفيق بينهما فشلت لتكوين جبهة
موحدة ضد الكاثوليكية • وقد اجتمع الزعيمان لوثر وزوينگلي سنة
١٥٢٩ في ماربرگ ، واتفقا على كثير من الاسس والتعاليم البروتستانتية
لكنهما اختلفا على طبيعة سر التناول الذي اعتبره زوينگلي رمز للعشاء
الرباني الاخير ، بينما اعتبر لوثر النبيذ والخبز يقابلان الدم ولحم
المسيح • ويختلف زوينگلي عن لوثر في التأكيد على اصلاح الحكومة
والضبط وتأسيس دولة مثالية تنتظم فيها الفعاليات السياسية والدينية
دمقراطيا • لقد ابتعد زوينگلي اكثر من لوثر عن الكاثوليكية ،
واصبحت بروتستانتية صرفة •

وفي ١٥٣١ ، قرر زوينگلي فرض البروتستانتية على المقاطعات
الخمسة الكاثوليكية بالقوة • فنشبت الحرب الاهلية في سويسرا قتل
فيها زوينگلي وانتصرت المقاطعات الخمسة • ونتيجة الصلح بين

الجانبين تقرر أن يكون كل كانتون سويسري حرا في انتخاب العقيدة التي يختارها • ومنذ ذلك الوقت بقيت سويسرا مقسمة بين البروتستانت والكاثوليك ، وظل البروتستانتيون لا قائد لهم بعد زوينگلي الى ان جاء كلڤن واستقر في جنيف •

جون كالڤن :

يعتبر جون كالڤن الشخصية الثانية بعد لوثر من بين الذين انشقوا عن الكنيسة الكاثوليكية • ولد كالڤن سنة ١٥٠٩ ، من عائلة فرنسية من الطبقة الوسطى في مدينة ليون في مقاطعة پيكاردي وكان ينوي اعداد نفسه للكنيسة منذ الصغر • وقد درس في باريس وأظهر ميلا للاهوت والادب • لكن عندما بلغ التاسعة عشر من عمره نصحه ابوه ان يدرس القانون ويمارس المحاماة بدلا من مهنة الكنيسة ، ولذا انصرف كلڤن لدراسة القانون •

وحدث ان صار تغير في اعتقاده سنة ١٥٢٩ ، واعتقد ان صوتا الهيا يدعوه الى ترك الكنيسة الكاثوليكية ، وتأسيس كنيسة جديدة • وكان كالڤن قد اتصل بالذين تأثروا بلوثر لما كان طالبا في جامعة باريس• وكان المنتقدون للكنيسة الكاثوليكية كثيرين في فرنسا ، لكنهم اعتقدوا ان من الممكن اصلاح الكنيسة عن طريق التأكيد على الاخلاق الفاضلة والثقافة الممتازة • وكان حماس كالڤن الى الفكرة الجديدة قوية الى درجة لم يهتم بدراساته الاخرى ، لكن لم يهملها اهمالا تاما • وكان يبحث عن مخبأ يختبىء فيه لنشر تعاليمه وكتابة آرائه بعيدا عن الانظار• ولما أعلن فرنسوا الاول ملك فرنسا سنة ١٥٣٤ انه يقضي على الانشقاق الديني ضمن فرنسا ، وبدأت اضطهاد البروتستنت ، ترك كالڤن فرنسا

وسكن في مدينة « بال » بسويسرا . وهناك وجد مذهب زوينگلي منتشرا ، فبدأ يكتب عن البروتستانتية ومقارنتها مع الكاثوليكية ونشر كتابه «دستور الديانة المسيحية The Institute of christion religion واهداه الى الملك فرنسوا الاول سنة ١٥٣٦ ، كي يؤثر عليه ويفرض البروتستانتية على فرنسا . ومع ان الكتاب لم ينجز هذه الغاية ، لكنه نال شهرة عظيمة وعبَّر عن آراء كالڤن المقتبس قسم منها من لوثر وقسم من زوينگلي ومصلحين آخرين .

كان الكتاب موجزا ومنظما ولم يقف عند حد التأثر بزوينگلي ولوثر والانسانيين الآخرين فحسب بل دخل في الجدل الديني والتشكك في ادعاءات الكنيسة الكاثوليكية انها منحدرة مباشرة من رسل المسيح (الحواريون) . وبرفضه المعتقدات الكاثوليكية ، بدأ يطبق معتقدات آباء الكنيسة الاوائل كأفضل نظام ديني . اعتقد كالڤن ان الغرض الرئيسي من حياة الدنيا هو الخلاص من العذاب في الآخرة ، ولا ضرورة لوجود الكنيسة في انقاذ البشر . ان الايمان التام بالله والمسيح ، في نظره ، معناه ان الرجل اختاره الله ولا داعي لتوسط الكنيسة . لكن هذا الاختيار للرجل المؤمن مقدر من الازل في نظر كالڤن ، فالرجل الصالح المؤمن الذي اختاره الله هو ذلك الشخص الذي تتجلى صفاته في تصرفاته الممتازة وايمانه العميق بالتعاليم الدينية والتمسك بالخلق القويم وانجاز الواجب وتجنب الملذات . فمن ظهرت فيه هذه الصفات فهو ممن اختارهم الله من بين عباده وقد قدر ذلك في لوح القدر منذ الازل ، والخيار ليس بيد الانسان لانه مجبر[1] .

---

(1) Gottschalk pp. 161-163.

يوحد الكنيستين الرئيسيتين اللوثرية والكالڤنية • وفي سنة ١٥٣٦ ذهب كالڤن الى جنيف التي كانت في ثورة ضد امير سافوي الذي أراد ان يفرض الكاثوليكية عليهم • وقد أيّد كالڤن سكان المدينة ومذهبهم البروتستانتي ضد الامير ، ومقابل هذه الخدمة عيّنه الثوار رئيسا دينيا لهم بعد ان انتصروا على الامير • وحافظ كالڤن على منصبه الى ان مات سنة ١٥٦٤ •

لقد كانت حكومة جنيف في زمن كالڤن حكومة ثيوقراطية ، اي ان كالڤن كان رئيسا دينيا وحاكما سياسيا ولم يكن هناك انفصال بين الدين والدولة • واعتبر هذا نفسه رسولا الهيا في المدينة يمثل الطهارة والتقشف في الحياة اليومية • فكان متزمتا منع الحفلات والاعياد والمسكرات واغلق الملاهي والنوادي وجميع ملاذ الحياة وفرض عقوبة الاعدام على من يرتكب الزنا والحرق للملحدين والمجرمين • واحرق الطبيب الشهير مايكل سيرڤيتس لانه لم يشترك اشتراكا فعليا في اعماله • واشتهر استبداد كالڤن في اوروبا ، وأصبحت مدينة جنيف مثالاً للحكم البروتستانتي •

انتشار الكالڤنية :

لقد اهتم جون كالڤن بالتعليم ، فأسس المدارس الكثيرة من بينها جامعة جنيف التي جذبت الطلاب من كل انحاء اوربا • وكتب كالڤن رسائل كثيرة وترجم الانجيل الى اللغة الفرنسية ، واتصل بتلاميذه في مختلف انحاء اوروبا يحثهم على نشر تعاليمه • ولهذا انتشرت الكالڤنية اكثر من اي مذهب بروتستانتي آخر •

انتشرت الكالفنيـة اكثر من اللوثرية لان كالفن وضـع المبادىء الدينية باسلوب منطقي يفهمها الناس وترتاح اليه الطبقـة المثقفة . كما ان الكالفنيـة وافقت بصورة صريحة على تعاطي الربا خلاف ما كان شائعـا قبل ذلك في تحريمـه واستنكاره ، فاستمال بذلك الطبقـة الرأسمالية من اصحاب البنوك وغيرهم ، واصبحت الكالفنيـة مذهب الطبقـة الوسطى . كما امتـازت الكالفنيـة بالوضوح والبساطـة ، واستعاضت عن النظام الكهنوتي القديم بطبقـة واحدة من رجال الدين الذين يدعون بالمنستر . وكان لتأكيـد كالفن على التعليم وتأسيس المدارس والجامعات وقبول الطلاب من مختلف انحاء اوروبا تأثير كبير في انتشار الكالفنية . اذ ان هؤلاء التلاميـذ بعد رجوعهم الى اوطانهم كانوا ينشـرون تعاليم كالفن التي انتشـرت في هولندة واسكتلندة ، وبوهيميا وسويسرا ، وفي بعض الولايات الالمانيـة . وكانت الكالفنية في هولندة سببا من اسباب الثورة ضد اسبانيا في عهـد فيلب الثاني . كما ان حروب الثلاثين سنة في المانيا ١٦١٨ــ١٦٤٨ كانت بين الكاثوليك والبروتستانت الكالفنيين في اول الامـر ، وانتهت بمعاهـدة ويستفاليا التي اعترف فيهـا امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة بالكالفنية رسميا ، واعتبرها مساوية للوثرية والكاثوليكية .

وقد انتشرت الكالفنية في بعض اقسام هنگاريا واعتنقها عدد كبير من الفرنسيين المتنفذين الذين عرفوا بالهيگونوت . وانتشرت الكالفنية في سكتلندة على يد جون نوكس الذي درس الكالفنية في جنيف ولما رجع سنة ١٥٦٠ ، أقنع النبلاء في سكتلندة بالغـاء الكاثوليكية وجعل الكالفنية الدين الرسمي للبلاد . وقد تسربت الكالفنيـة من اسكتلندة

ومن القارة الاوروبية الى انگلترا ، وكافح معتنقوها كفاحا عظيما لجعلها دين الدولة الرسمي • ولما اخفقوا اخـذوا يكافحون في سبيل الحصول على الحرية الدينية • وبسبب الاضطهاد الديني هاجر قسـم منهم الى امريكا في بداية القرن السابع عشر •

هنري الثـامن والكنيسة الانكليزية

ظهرت البروتستانتية في انگلترا خـلال سنوات ١٥٢٠ و١٥٣٠ ، واتخذت شكلها النهائي خلال الخمسين سنة من ١٥٢٠ الى ١٥٧٠ • لقد قامت البروتستانتية في انگلتـرا على يد الملك هنري الثـامن ١٥٠٩ـ ١٥٤٧ ، الذي وجد ان وضعه السياسي والشخصي يستوجب الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية والبابوية ، وتأسيس كنيسة قوميـة خاضعة لارادة الملك •

لم يكن هنري الثامن يميل الى آراء لوثر ، وحتى انه ألّف كتابا ضد تعاليمه في ١٥٢١ ، دافع فيـه عن الاسرار السبعة واهداه الى البابا ليـو العاشـر الذي منحـه بالمقابل لقب حـامي العقيـدة Defender of the Faith ، واحتفـظ هنري بهـذا اللقب الى مماته • ولا يزال ملوك انگلترا يحتفظون بهذا اللقب حتى يومنا هذا •
ولم يكن هنري ينكر على البابا ادعاءاته السياسية ، وتحالف مـع ليو العاشر في عـدة مناسبات • وكـان مستشاره الكردينـال ولزي يدير السياسة الاوروبية لمصلحة انگلترا وهو حليف البابا •
لكن الوضـع في انگلترا كان يتغير خـلال العشرينات من القرن

السادس عشر كما كان وضع هنري الشخصي . اما بالنسبة للناحية الاولى فكانت (١) اللوثرية تتسرب في البلاد منذ ١٥٢١ وأثرت على جماعة صغيرة في جامعة كمبرج ومنها تسربت الى جامعة اكسفورد ، وانتشرت بين الطبقة المثقفة في لندن وغيرها من مراكز الثقافة في البلاد . وكان من بين المعتنقين الاوائل عدد من رجال الدين الصغار وتجار المدن الكبرى .

(٢) لقد كان الشعور السائد في انكلترا بوجوب اصلاح الكنيسة وتقويم تصرفات رجال الدين هو نفس الشعور الذي ساد في القارة الاوروبية . وكان من بين الذين يرون وجوب اصلاح الكنيسة مفكرين من امثال توماس مور ، جون كوليت المتأثرين بأرازمس .

(٣) ان الروح القومية النامية في انكلترا كانت تتعارض مع النزعة العالمية للكنيسة الكاثوليكية . كما ان ظهور ملوك اقوياء تساندهم الطبقة الوسطى وقضائهم على نفوذ النبلاء وامراء الاقطاع مهد السبيل الى الملكية المطلقة ، ولم يبق ما يعرقل طريقهم لتحقيق ذلك سوى الكنيسة ، ولما كانت البابوية لا تزال قوية وملوك انكلترا مخلصين لها ، تأخر انفصال الكنيسة الانكليزية عدة سنوات .

لكن الظروف ادت بالملك هنري الثامن الى ان ينفصل عن الكنيسة الكاثوليكية ، بعد ان حدث خلافا بينه وبين البابا كليمنت السابع الذي لم يساعده على الطلاق من زوجته كاترين آرگون . كانت كاترين بنت فردينند وايزابيلا قد تزوجت من آرثر ، الاخ الاكبر لهنري ، لكنه توفى بعد اشهر من الزواج . ولكي تستمر الصداقة بين اسبانيا وانكلترا ، حصل هنري السابع على موافقة البابا لزواج كاترين

من ابنه الثاني هنري • وكان هنري قد سئم من كاترين التي انجبت ستة اطفال في مدة ١٨ سنة من زواجهمـا ، ولم يعش من بينهم سوى طفلة مريضـة هي ماري تيودور • ولما كان هنري يرغب في ولد يرث العرش من بعده وعجزت كاترين عن ذلك ، اراد التخلص منها ، وقد قال لها بان زواجهما كان إثما لا يغتفر على الرغم من موافقـة البابا على ذلك ، لان تعاليم الكنيسة لا تجيز الزواج من ارملـة الاخ • والواقع كان هنري قد وقع في حب الفتاة الانكليزية آن بولين Anne Boleyn احـدى وصيفات القصـر ، وكان يأمل أن الزواج منهـا قد يؤدي الى ابن يرث العرش من بعده •

وفي سنة ١٥٢٧ ، خوّل هنري مستشاره الكاردينال ولزي بمهمة التوسط لدى البابا كليمنت السابع بمنحه الطـلاق من كاترين والزواج من آن بولين • ولم تكن مسألة الطـلاق سهلة بالنسبة للبابا في هـذا الوقت الحرج • اذ أن كاترين آرگون خالة الامبراطور شارل الخامس امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة وملك اسبانيـا ومستعمراتها وحاكم الاراضي المنخفضـة ــ اقوى حاكم في اوربـا • وكان الجيش الامبراطوري مستوليا على ايطاليـا وعلى ابواب رومـا يهددون البابا لكونه حليف ملك فرنسـا فرنسوا الاول ، فان منح الطـلاق في هذا الوقت يعرضه لنقمة الامبراطور الذي يعتبر ذلك اهانة له ولعائلته • كما ان منح الطلاق بحـد ذاته امر صعب ، اذ بذلك يكون البابا قد وضع مثلا خطـيرا لمن يقتدى بـه في المستقبل • ولهذا أخـذ البابا يستعمل المماطلة والتسويف الى ان ملّ هنري ، وكان شـغفه بآن بولين قد بلغ اقصاه فلم يستطع الانتظار ، وامر بفصـل الكنيسة الانكليزية عن روما

سنة ١٥٣١ ، وعزل ولزي وسجنه .

لقد كان البرلمان الانكليزي في هذا الوقت رهن ارادة الملك ولذا لم يجد هنري صعوبة في اغراء البرلمان بسن عدد من القوانين سنة ١٥٣٤ ، تسمى بقوانين الرئاسة اصبح الملك بموجبها رئيسا للكنيسة في انكلترا بدلا من البابا ، وصار في وسعه ان يفعل ما يروق له من الطلاق والزواج . وقد منع رجال الدين من دفع الضرائب الى البابا ، واصبح امر تعيينهم منوط بالملك . كما عيَّن الاسقف « كرامر » رئيسا لاساقفة كاتتربري ، وهذا بدوره اعتبر الزواج من كاترين آرگون ملغيا ، وحلل الزواج بآن بولين . وعلى أثر هذه الاجراءات التي قام بها هنري الثامن ارسل كليمنت السابع مرسوما باباويا يقضي بحرمان هنري الثامن ويعتبر زواج هنري من كاترين آرگون شرعيا منذ البداية . وهكذا انقطعت العلاقات بين انكلترا وروما .

لقد واجه هنري معارضة قوية من قبل رجال الدين الكبار والرهبان وعدد من قادة الفكر ، والجماهير الانكليزية المتدينة . وكان قد امر بمعاقبة كل من لا يعترف بان الملك هو الرئيس الاعلى للكنيسة . وقام بدعاية واسعة ضد الاديرة والرهبان لانهم خاضعين للبابا . وقد امر بمصادرة املاك الكنيسة والاديرة وثروتها فأخذ بعضها لنفسه ووزع الباقي على اتباعه من النبلاء والطبقة الوسطى الذين اصبحوا من اكثر الناس ولاءً للملك واشد الناس عداءً للبابوية . وعلى أثر ذلك قامت ثورة شعبية سميت بثورة الحجاج المجاهدين ، لكنه اخمدها الملك بسرعة وبطش شديدين واعدم الكثير من المعارضين

وخاصة من بين رجال الدين والرهبان وقادة الفكر ، أشهرهم سير توماس مور ، والاسقف المسن جون فيشر .

ومع ان هنري انفصل عن روما واصبح رئيسا للكنيسة الانكليزية، لكن البرلمان الانكليزي سن قانونا في ست مواد سنة ١٥٣٩ ، حافظ على أهم تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها ، ويعاقب المخالفين بموجبه اشد العقاب وقد اعدم هنري كل من أنكر رئاسة الملك للكنيسة ، كما انه احرق كل من لم يؤمن من البروتستانتيين بسر التناول وبقية الاسرار السبعة . وبلغ ضحايا هنري عدة آلاف . وفي عهد ادوارد السادس ١٥٤٧ـ١٥٥٣ ، تأثرت انكلترا اشد التأثر باللوثرية والكالفنية التي بدأت تنتشر بتشجيع من مجلس الوصاية على الملك الصغير ، واصبحت انكلترا بروتستانتية الى حد بعيد . فاعتبر الانجيل وحده مرشدا دينيا ، واعتبر الاعتقاد بالاعمال الصالحة من الامور الخرافية . وقاموا بتحوير بعض الاسرار السبعة وترجمة بعض الادعية ، كما ان الاسقف كرامر ترجم الانجيل الى اللغة الانكليزية ، وسمح لرجال الدين بالزواج ، وطبق قانون الانسجام بحيث تكون الكنيسة الانكليزية بروتستنتية . وقام الفلاحون بعدة ثورات معبرين عن سخطهم تجاه التغيرات الدينية . وفي عهد ماري تيودور بنت هنري الثامن ١٥٥٣ـ١٥٥٨ ، من كاترين أرگون ، اعيدت الكنيسة الى حظيرة الكثلكة بما فيها الاعتراف بسيطرة البابا على شؤون انكلترا الدينية ، واضطهاد البروتستانت . والسبب في ذلك هو ان ماري كانت بنت كاترين أرگون التي ماتت في السجن وهي كاثوليكية ، فمن الطبيعي ان تظل البنت كاثوليكية ، لانها لا تعتبر بنتا شرعية لهنري الثامن الا اذا

اعتبر زواج امهـا شرعيـا ، ولا يمكن ذلك الا اذا تمسـكت بالدين الكاثوليكي ، لان البـابا كما مر بنا هو الذي أكد على شرعيـة زواج كاترين آرگون من هنري الثامن ووافق عليهـا . وقد اضطهدت ماري البروتستانت واعدمت قادتهم ، وتزوجت من فيلب الثـاني ملك اسبانيا الذي كان يريد ارجاع البروتستانتيين الى حضيرة الكنيسة الكاثوليكية ومن بين من احرقهم الاسقف كرامر .

لكن هـذه السياسة كانت فاشلة لانها اضرّت بمصالح انگلترا الاقتصادية . اذ أن اسبانيـا كانت عبـارة عن دولة محتكرة للتجـارة العالمية والمستعمرات فالتحالف معها معناه عدم التعـدي على الاحتكار الاسباني ، في حين ان انگلتـرا بدأت تهاجم السفن الاسبانيـة وتنهب مستعمراتها . كمـا ان بقاء انگلترا على الديانـة الكاثوليكية معنـاه الخضوع لسـيطرة الكاثوليك وعـدم فسح المجـال لنمو الرأسمالية بتحريمها الربى والتمسك بأوامر البـابا الذي قضى بأن تحتكر اسبانيا والبرتغال التجارة العالمية والمستعمرات .

لكن البروتستانتية ترسخت في انگلترا في عهـد الملكة اليزابيث ١٥٥٨ــ١٦٠٣ بنت هنري الثامن من آن بولين . فاعتنق عـدد كبير من الشـعب الانگليزي البروتستانتية وتضاءل عـدد الكاثوليك . وسنّ البرلمان قانونا فصل الكنيسة عن رومـا مرة اخرى . واصبحت الملكة اليزابيث رئيسا أعلى للكنيسة . وسنّ البرلمان قانونا من ٣٩ مادة جعل الكنيسة الانگليزية بموجبه بروتستانتية صرفـة بتأكيده على الانجيل كمصدر وحيـد للايمان ورفضه الاعمـال الصالحة كوسيلة الخلاص والغاء القـداس ، وعزل رجـال الدين الذين عينتهم مـاري ، وعينت

اليزابيث جماعة جديدة من رجال الدين البروتستانت ، وفرضت الانسجام في الدين ومنعت العبادة العلنية للمنشقين عن الكنيسة الانكليزية •

اما ارلندة فقد ظلت كاثوليكية رغم محاولات ملوك انكلترا في ادخال البروتستانتية اليها ، ورغم اسكان عدد كبير من الانكليز في مقاطعة الستر في شمال ارلندة ، ولا تزال الاكثرية الساحقة تدين بالكاثوليكية •

ظهور البروتستانتية المتطرفة

لم تقتصر البروتستانتية على ما مرّ ذكره من الطوائف الثلاث الرئيسية • فقد ظهرت خلال القرن السادس عشر جماعات دينية في مناطق متفرقة في اوروبا خرجت عن الكثلكة وذهبت الى مدىً ابعد بكثير عما ذهب اليه لوثر وكالفن وهنري الثامن • وقد وقف هؤلاء ضد البابوية والكاثوليكية ، وحتى ضد الكنائس البروتستانتية الرئيسية التي ارادت بسط سيطرتها على الكنائس البروتستانتية الاخرى الاصغر منها • فكانوا بصورة عامة ضد اي تنظيم كنسي • وكانت المسيحية بالنسبة اليهم نوع من الحياة يظهر للفرد بطريقة غير منظورة ، معنوية ، وليست عبارة عن تنظيم ودراسة للعقائد الدينية • وكانوا يؤيدون لوثر وكالفن في ان الانجيل مصدر الدين المسيحي وقواعده الاخلاقية ، ولكن اختلفوا عنهما في تفسيرهم للانجيل •

لقد كانت جماعة « أنا باپتست » اولى هذه الجماعات المتطرفة •

ومؤسس هـذه الجماعة هو توماس منزر (١٤٨٩ـ١٥٢٥) الالماني الذي ذهب الى وتنبرگ وطلب من لوثر ان يكون متطرفا جدا لم يطرفه لوثر ، وعلى أثر ذلك أخذ يتجول في المانيا ويدعو الى قلب الحكومات الموجودة ، وتأسيس نوع من النظـام الشيوعي في محلها . وانكر الذي تعميد الاطفال واكد على تعميد الراشدين بعد ان يرتدوا عن معتقداتهم، ولهذا سميت هـذه الجماعة بـ أنا بايتست أو التعميـد المكرر . ولقد انضمت اليهم فرقة اخرى من اتبـاع جون ليدن ١٥١٠ـ١٥٣٦ الذي قال بتعدد الزوجات واتخذ لنفسه اربع زوجات . كما ظهرت فرقة ثالثة سـميت بـ « مانو نايتس » ، اتبـاع مينو سيمنس ١٤٩٢ ـ ١٥٥٩ الهولندي الذي ارتد عن الكثلكة سنة ١٥٣٦ ، وصار أنا بايتست ودعا الى حياة جديدة من البساطة الدينية ، وحرم الحرب ومنع القسم وتعميد الاطفال كما منع توحيد الكنيسة والدولة . والفرقة المانونيـة لا تزال موجودة في هولنـدة وشمال غربي المانيـا وسويسرا ويسمون ايضا بـ أنا بايتست . ومن بين البروتستانتيين المتطرفين جماعة «كارلستات» جماعة اندرو بودنشتاين ١٤٨٠ـ١٥٤١ التي حرمت القداس والاعتراف والتصاوير الدينية وسر التناول ووجود طبقة من رجال الدين . كما انها قالت ان بعض اقسام الانجيل لا يمكن الاعتماد عليه .

ومن بين البروتستانتيين المتطرفين جماعة الكونگريگاشناليست أو الابرشيين ١٥٥٠ـ١٦٣٣ اتباع روبرت براون الذي تخرج من الجامعة كمبرج في انگلترا وكوّن جماعة اخذ منهم العهود والمواثيق في اجتناب الاشرار من الناس . كما انه الّف كتابا سنة ١٥٨٢ قال فيه ان الكنيسة المسيحية يجب ان لا تكون تحت سيطرة البابوات والقسس والحكام ،

انما يجب تنظيمها بشكل هيئات مستقلة تضم المسيحيين المؤمنين وتضع قواعد واحكام لتنظيم وتدريب هؤلاء باسلوب ديمقراطي وينتخب القس انتخابا حرا في منظمته ، ومع ان براون اصبح في اواخر حياته منسجما مع تعاليم الكنيسة الانكليزية لكن افكاره الاولى ادت الى ظهور طوائف بروتستانتية مختلفة سميت بالمستقلين والانفصاليين واطلقت على الجميع كلمة الپيوريتان او التزمت .

كانت الابرشية تستلهم الراديكاليين البروتستانت الذين اخذوا يميلون الى الانا بايتست تدريجيا وأطلق عليهم فيما بعد اسم البابتست.

ظهرت حركة عقلية سميت بحركة الموحدين Unitarianism استندت على العقل بدلا من العاطفة . وأكد الموحدون على تفسير الانجيل من الناحية العقلية ، وحذف المعجزات والخرافات والغموض منه ، وتفسيره بشكل يلائم العقل السليم . فلم يؤمن هؤلاء بالوهية المسيح ومبدأ الثالوث ، فخرجوا عن الكاثوليكية والبروتستانتية . وكان من بين ضحايا الموحدين الطبيب الرياضي الاسباني الاصل مايكل سيرڤيتس ١٥١١–١٥٥٣ ، الذي أمر كالڤن بحرقه . كان سيرڤيتس استاذا درس في عدة جامعات اوروبية كجامعة باريس ولوڤين واستقر في ڤيانا . وقد انسجم هناك مع الكنيسة الكاثوليكية . لكنه كتب بحثا عن افكاره التي ينكر فيها الثالوث والوهية المسيح وأرسله الى كالڤن بغية التأثير عليه . غير ان كالڤن شعر بصدمة كبرى وأخبره بذلك . لكن اصبحت المسألة معروفة لدى الكاثوليك ايضا ، فخوفا على حياته فرّ من ڤيانا الى جنيف فقبض عليه كالڤن وأحرقه .

غير ان المتأثرين بالموحدين نشروا المبادىء وكانت احيانا تعرف بالمبادىء السوزينية نظرا لان اثنين بهذا الاسم من ايطاليا قاما بنشرها وهما ليليو سوزيني ، وابن اخيه فاوستو سوزيني • ومن بين الذين انتقدوا البروتستانتية هو جاكوب هيرمانسن ١٥٦٠–١٦٠٩ ، من هولندة ، والذي عرف باسمه اللاتيني ارمينيس • وكان هذا ضد التعصب والجمود في الكالفنية واضطهد اتباعه في هولندة •

اهمية الكنائس البروتستانتية المتطرفة :

لم تكن للكنائس البروتستانتية المتطرفة اهمية في القرن السادس عشر لان منتسبيها كانوا من الطبقة السفلى التي اضطهدها كل من الكاثوليك والبروتستانت ، غير انها بدأت تؤثر على الكنائس البروتستانتية الرئيسية بمرور الزمن ، لانها كانت بالنسبة لعدد كبير من الناس نتيجة طبيعية لما كان يؤكد عليه لوثر من التفكير الفردي في الحكم على الاشياء والاعتماد على نص الانجيل كما قال به كالفن • ولقد فرّقت الكنائس المتطرفة الكلفنية وأثّرت على اللوثرية فظهر بذلك الزهاد والاتقياء وكوّنوا طائفة هم الپايوتست Pietists في المانيا ، بينما ظهر الپيوريتان المتزمتين والميثوديست في الكنيسة الانكليزية والذي مهّد السبيل الى ظهور جماعة سميت بالفاندمينتاليست في امريكا أشد تعصبا من الپيوريتان وقالوا بان الانجيل معصوم من الخطأ • أمّا حركة الموحدين Unitarians التي ذكرناها آنفا فقد ظهر فيه نوع من التفكير الانتقادي العقلاني كما رأينا ذلك بانتقادهم الانجيل وانكار الثالوث والوهية المسيح بحيث ادت الى تمهيد السبل لانتشار النزعة الحرّة في المسيحية فيما بعد •

مجمع ترنت والاصلاح ضمن الكنيسة الكاثوليكية ١٥٤٥ ـ ١٥٦٣

لقد ظهرت حركات دينية قوية في كل من ايطاليا والنمسا وفرنسا واسبانيا كان الغرض منها اصلاح الكنيسة الكاثوليكية دون الخروج عنها ، وذلك بازالة المساوىء التي لحقت بها . وكان هناك عدد من الناس الذين طالبوا بالاصلاح وتهذيب رجال الدين الكاثوليك وازالة المبادىء السيئة التي تغلغلت في الكنيسة الكاثوليكية . وقد وجد البابوات ان حركة لوثر ليست مجرد نزاع بين الرهبان انما اخطر من ذلك بكثير . والدليل على ذلك ان الامبراطور شارل الخامس لم يستطع ان يمس شعر لوثر بسوء . وكانت الانتقادات اللوثرية ضد الرهبنة اثارت حفيظة الرهبان الكاثوليك في ايطاليا ، وانتعشت الرهبنة مرة اخرى بظهور عدد من التنظيمات الرهبانية الجديدة باسم الاخوة الدينية ، واشهرها الاخوة « كبوچين Capuchin » ، بالنسبة الى الروب والقلنسوة الرمادية اللون المرتبطة به والتي كانوا يرتدونها . وكان هؤلاء يعيشون في منتهى البساطة ويساعدون الفقراء ويعظونهم وبذلك جعلوا الطبقة السفلى في ايطاليا خاضعة للكثلكة .

لقد بدأت محاولة الاصلاح في الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٤٥ ودعا البابا رجال الدين المسيحي الى الاجتماع في المدينة الايطالية ترنت Trentسنة ١٥٤٥ ، واستمرت بصورة متقطعة الى سنة ١٥٦٣ . وقد طلب البابا من رجال الدين البروتستانت الحضور بغية المصالحة ، لكن هؤلاء خوفا من التأثيرات الايطالية على المجمع قدموا شروطا لم

تكن الكنيسة الكاثوليكية مستعدة لقبولها ، وخاصة تنازلات عقائدية النظرية والعملية بالنسبة للتقدم الفكري والتعلم الجديد • وعلى العكس من مطاليب العصر ضربت الكنيسة الكاثوليكية كل القيم الجديدة عرض الحائط وتمسكت بالعقائد القديمة بالتأكيد على الاسرار السبعة كفريضة واجبة على كل كاثوليكي ، والاعمال الصالحة ، والاعتراف بسيادة البابا وسيطرته في كل الامور التي تخص الكنيسة وادارتها ، وتفضيل السلطة الروحية على السلطة الدنيوية • والمرجع الوحيد لتفسير الانجيل هو البابا والكنيسة • واكلت على تثقيف رجال الدين •

وفي نفس الوقت ادخلت بعض الاصلاحات المالية والتعليمية في الكنيسة ومنعت الرشوة والوساطة وبيع الوظائف الكنسية أو أثاثها ، وكذلك كثير من القضايا التي تمس الاخلاق ، والتأكيد على الاخلاق الفاضلة بالنسبة لرجال الدين • واعتبروا اللغة اللاتينية هي لغة التعاليم الدينيـــة •

وقد صدر في روما كتاب موجز يحتوي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية واصبح لزاما على عامة الكاثوليك ان يتعلموا واجباتهم الدينية • وظهرت نسخة جديدة من الانجيل باللغة اللاتينية واصبحت النسخة التي يعتمد عليها • واعلنت قائمة باسماء الكتب التي حرمت على الكاثوليك قرائتها لانها كتب هرطقية ، ومن بينها كتب لوثر وكوبر نيكس • وقد خولت محاكم التفتيش سلطات واسعة للقضاء على المنشقين والمخالفين • واكد المجمع على صحة المعجزات واحضار الارواح والعشاء الرباني الاخير ، والتبرك بآثار القديسين •

الحركة اليسوعية

لقد ظهرت في هذه الفترة حركة جديدة كان لها الاثر الفعال في انتعاش الكثلكة هي الحركة اليسوعية • ويعتبر اغناتيوس لويولا ١٤٩١–١٥٥٦ ، مؤسس هذه الحركة في سنة ١٥٣٤ • وفي ١٥٤٠ وافق البابا على دستور المؤسسة •

كان اغناتيوس جنديا في الجيش الاسباني التابع للامبراطور شارل الخامس والذي كان يحارب فرنسا • فدخل المستشفى لجرح اصابه ، فقرأ هناك حياة المسيح والقديسين وكان التأثير عليه عظيما فقرر ان يكرس حياته للمسيح والكنيسة ، وان يناضل في سبيل اعلاء كلمة الله • وبعد قضاء بعض السنوات العجاف في خدمة الكنيسة ، قرر سنة ١٥٢٤ ، ان يثقف نفسه ، فدرس في جامعة باريس الكلاسيك والفلسفة واللاهوت ، وتعرف على عدد من الرجال المثقفين والاتقياء الذين اصبحوا من المنتسين الاوائل الى الحركة اليسوعية • كان غرض الجمعية ان تقوم بنشر المسيحية بين المسلمين ، لكنهم تحولوا الى مبشرين بين البروتستانت وبين سكان العالم اجمع من غير الاوربيين •

ان تنظيم اليسوعية اشبه بتنظيم الجيش نظرا لان مؤسسها كان جنديا • ومن مبادئها الفقر والعفة والطاعة والولاء للبابا • واصبح مركزها في روما • واكدت اليسوعية على السيطرة التامة على اعضاء الجمعية وطاعتهم لرؤسائهم • ولما وجد اغناتيوس ان الكنيسة الكاثوليكية في حالة حرب مع البروتستانت وجّه جهود زملائه الى الكفاح لارجاع البروتستانتيين الى حظيرة الكثلكة •

دخل اليسوعيون النضال الديني منذ تأسيس جمعيتهم ، فأسسوا المدارس والجامعات واشتهروا بنظام تعليمهم الممتاز على النطاق العالمي واحرزوا للكنيسة الكاثوليكية كثيرا مما فقدته من الاحترام والتقديس وذلك بفضل ما تحلّى به علماؤهم من الثقافة العالية وسعة الاطلاع • وقد بلغوا درجة عظيمة من الرقي في ميدان الوعظ لما كان لديهم من وضوح البيان ودقة التعبير وحسن الاداء فأحرزوا نجاحا باهرا في ميدان التبشير • واليهم يعزى الاحتفاظ ببولندة بعد ان اوشكت ان تصبح بروتستانتية • وبفضلهم ايضا استمرت الكثلكة في جنوب المانيا وبلجيكا وبين جماعات كبيرة في هنگاريا وچيكوسلوڤاكيا • لكنهم لم ينجحوا في انگلترا ، وكان الخطر يهددهم هناك دائما • لكنهم استعاضوا عما فقدوه في شمال اوربا بما ربحوه في بقية انحاء العالم ، اذ تنصّر عدد غير قليل من الهنود والصينيين والهنود الحمر والاقوام البدائية الاخرى •

وقد عقد البابا اتفاقيات تسمى بكونكوردات منح بموجبها امتيازات دينية الى كل من اسبانيا والبرتغال وايطاليا وفرنسا والنمسا مما أدى الى ان تتخذ الكنائس في هذه الاقطار طابعا قوميا •

نتائج الثورة الدينية

١ – انقسام الكنيسة المسيحية :

انقسمت الكنيسة المسيحية نتيجة للثورة الدينية الى ثلاثة أقسام رئيسية بدلا من قسمين : الاورثوذكس ، الكاثوليك ، البروتستانت •

الاورثوذكسية :

كانت الكنيسة الاورثوذكسية تشمل شبه جزيرة البلقان وروسيا، وكانت استانبول عاصمة الكنيسة الاورثوذكسية وقد اختلفت الكنيسة الاورثوذكسية عن الكاثوليكية ، في عدم اعتراف الاولى بالبابا كرئيس اعلى للكنيسة المسيحية • ولم تعترف الكينسة الكاثوليكية بتبعية الكنيسة للدولة كما هي الحالة مع الكنيسة الاورثوذكسية •

وبعد سقوط استانبول سنة ١٤٥٣ ، فقد بطريق الاورثوذكس كثيرا من امتيازاته التي كان يتمتع بها سابقا كرئيس الكنيسة الاورثوذكسية في اوربا الشرقية ، واصبح تابعا للسلطان العثماني • وفي سنة ١٥٨٢ ، نزولا عن رغبة القيصر الروسي وافق بطريق القسطنطينية على ان يمنح بعض الامتيازات الى رئيس الكنيسة الاورثوذكسية في روسيا منها صلاحية تنظيم الكنيسة الروسية والنظر في القضايا الدينية هناك • وهكذا انقسمت الكنيسة الاورثوذكسية من ناحية التنظيم الى قسمين احدهما في استانبول والآخر في موسكو • ولم تتأثر الكنيسة الاورثوذكسية بالثورة البروتستانتية واعترفت بالاسرار السبعة والتنظيم الكنسي والوهية المسيح والثالوث المقدس (الاب والابن وروح القدس) وغيرها من الامور التي اعترفت بها الكثلكة •

الكاثوليك :

اما الكنيسة الكاثوليكية فقد ظلت كما كانت في السابق ، الا ان مجمع ترنت احدث بعض التغييرات كما رأينا • وقد ظلت الكاثوليكية سائدة في ايطاليا وفرنسا واسبانيا والبرتغال وبولندة والنمسا وجنوب المانيا ومنطقة الراين وبلجيكا وارلندة وامريكا اللاتينية والفيليبين •

البروتستانت :

انتشرت البروتستانتية في المانيا الوسطى والشمالية والدانيمرك والسويد والنرويج وفنلندا وبريطانيا وشمالي ارلندة وامريكا الشمالية (كندا والولايات المتحدة الامريكية) واستونيا وليتوانيا • وقد اختلفت البروتستانتية عن الكثلكة والارثوذكس في عدم اعترافها بالاسرار السبعة ما عدا التعميد والتناول ، على ان يكون التعميد للراشدين فقط والتناول رمز للعشاء الرباني الاخير ، وليس كما يعتقد الكاثوليك ان الخمر والنبيذ يتحول الى لحم ودم المسيح باشارة من القس • واكدت البروتستانتية على الايمان فقط لاجل الخلاص الابدي • ولو ان هذا ايضا يختلف عند الكالفنيين الذين يعتقدون ان الخلاص قدر من الازل، واكدت الكنيسة الانكليزية على مبادىء لوثر •

ولقد رفضت البروتستانتية النظام الكنسي وطبقة رجال الدين كما هو موجود عند الكاثوليك والاورثوذكس • وقد ابقى لوثر الاسقف لتنظيم وادارة شؤون الكنيسة دون اعطائه تمييز ديني • أما كالفن فألغى النظام نهائيا وعيّن المنستر واعظا ومديرا للكنيسة • واستبقت الكنيسة الانكليزية النظام الكنسي وطبقة رجال الدين غير ان الملك والحكومة الانكليزية تقوم مقام البابا في ادارتها • وقد اختلفت الطقوس الدينية لهذه الكنائس •

٢ - التعصب الديني وعدم التسامح :

ومن نتائج الثورة الدينية التعصب الديني وتطبيق سياسة عدم التسامح • ولم يكن التعصب الديني شيئا جديدا في القرن السادس عشر ، فسياسة التعصب وعدم التسامح قديم بقدم الانسان ، وهناك

امثلة تأريخيـة كثيرة تثبت ذلك . فالتعصب كان موجودا بين القبائل والاقوام والشعوب والفرق الدينيـة . واذا خصصنا بالذكر التعصب الديني نجد ان الاقلية الدينية مضطهدة دائما من قبل الاكثرية كما هي الحالة عند انتشار المسيحية في روما . ولما أصبحت المسيحية دين الدولة في اواخر عهد الامبراطورية الرومانية وأصبحت دين الاكثرية انعكست الآية وأخذت تضطهد الاقلية الوثنية فالتعصب إذاً تابع للكثرة العددية والقوة التي تمارسها .

ولا يستثنى الكاثوليك من ذلك ، فقد اتبعت الكنيسة الكاثوليكية في الغرب سياسة عدم التسامح في العصور الوسطى ولكن هذه السياسة لم تطبق بشدة ضد المسلمين واليهود بقدر ما كانت عنيفة ضد الهرطقة والمنشقين عن الكنيسة . وكان الهرطقي يعتبر منحلاً يهدي الى الضلال وخطر على المجتمع ، والمتهمين بالهرطقة خونة وفوضويين يريدون ثورة اجتماعية . ولما كانت الهرطقة تظهر مع المعارضة السياسية والاقتصادية فكان القضاء عليها لأسباب سياسـية واقتصادية أيضـا . ولاستئصال الهرطقة أسست الكنيسة الكاثوليكية محـاكم التفتيش في القرن الثالث عشر . وكان اعضاء المحكمـة على الاكثر من الرهبـان ويستخدمون التعـذيب للحصول على الاعتراف . ومـع ان الكنيسة لم تكن تحكم بالموت على احد حتى الهرطقي لكن محكمة التفتيش كانت تستطيع ان تحكم بالموت وتقدم المحكوم عليه الى السلطة المدنيـة لتنفيذ الحكم . وكثير من المتهمين أو المحكوم عليهم بالهرطقة لاقوا حتفهم بالموت حرقا لانهم عارضوا بعض المعتقـدات او انتقدوا بعض المسـاوىء الموجودة في الكنيسة .

ولاسباب مختلفة منها انتشار الافكار الجديدة والكلاسيكية والانسانية واتصال اوربا بشعوب غير اوروبية نتيجة للاستكشافات الجغرافية قلّ التعصب الديني في اوروبا ، واصبحت الكنيسة اكثر تسامحا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر • لكن الثورة الدينية جددت التعصب الديني بشكل اقوى من السابق • وكانت هناك عوامل عديدة لتطبيق سياسة عدم التسامح • فالملوك الكاثوليك او البروتستانت ارادوا توحيد ممالكهم وتوطيد الامن والاستقرار فيها لترويج التجارة وازدياد الثروة الوطنية ، والانشقاق الديني والطائفي معناه انتشار الفوضى والاضطرابات وتفريق صفوف الشعب الامر الذي يعرقل الوحدة الوطنية وازدهار التجارة • ولهذا حاول الملوك والامراء القضاء على كل ما من شأنه تفريق ابناء البلد الواحد • ففي البلدان الكاثوليكية قضي على الاقلية البروتستانتية بمنتهى الصرامة كما هي الحالة في فرنسا • وفي البلدان البروتستانتية قضي على الكثلكة بنفس الصرامة التي استخدمها الكاثوليك ضد البروتستانت كما هي الحالة في البلدان السكندنافية • وما حرب الثلاثين سنة في المانيا ١٦١٨ـ١٦٤٨ ، سوى حالة من حالات التعصب الديني وعدم التسامح • ولكن بمرور الزمن اتخذت خطوات جريئة لتطبيق سياسة التسامح الديني • ففي بولندة اتبع الملك سيگسموند الكاثوليكي ١٥٤٨ـ١٥٧٢ سياسة معتدلة مع البروتستانت لان زوجته كانت اميرة المانية بروتستانتية ، وبعد موته منح البرلمان البولندي الحرية الدينية لغير الكاثوليك • وكانت الدولة العثمانية قد منحت الحرية الدينية الكاملة لسكان البلقان المسيحيين • وفي فرنسا

منح الملك هنري الرابع الحرية الدينية للبروتستانت بموجب مرسوم نانت سنة ١٥٩٨ • ولعل السبب في تطبيق سياسة التسامح هو ان الناس ادركوا ألا" فائدة تجنى من التفرقة والانشقاق ، وان التسامح الديني من شأنه ان يؤدي الى الوحدة الوطنية وتعزيز الملكية • وقد وجد المخلصون من الكاثوليك والبروتستانت انه من الافضل ان يسامحوا بعضهم بعضا لممارسة شعائرهم الدينية ، وخاصة ان الحروب الدينية احدثت رد فعل ضد القسوة والعنف الذي بعث الملل والسأم والكراهية في نفوس غالبية الناس • فظهرت حركة التزهد اولا ثم الحركة العقلانية التي وجهت الناس الى الاهتمام بالامور الحيوية كالعلوم الطبيعية التي هي أفيد لخير الفرد والمجتمع •

٣ـ تاثير الثورة الدينية على القيم الخلقية ومكافحة السحر وتاخر التعليم

من بين تأثيرات الثورة الدينية هو التأكيد على القيم الخلقية • فقد اراد كل من الكاثوليك والبروتستانت ان يبرهنوا عن طريق تصرفاتهم ان دينهم يقودهم الى مستوى خلقي اعلى من الطرف الآخر ، في الوقت الذي كان يتهم كل جانب الجانب الثاني بالانحلال الخلقي والتفسخ • فكان البروتستانت يتهمون الكاثوليك بانهم احتكروا الكذب لانفسهم ، بينما الكاثوليك اتهموا البروتستانت بالفساد في الامور المالية •

وفي جو من الاتهامات المتبادلة ظهر البيوريتان (المتزمتين) واكدوا على التقشف واجتناب الملذات وقيم خلقية عالية والتأكيد على العمل المنتج ، والاقتصاد وتقليل العطلات الدينية وزيادة ايام العمل •

وقد انتشر البيوريتان بين الكالفنيين والبروتستانتيين المتطرفين بالدرجة الاولى • لكن الكاثوليك واللوثريين ايضا طبّقوا قوانين صارمة ضد الانحلال الخلقي وعدم التمسك بالدين •

وقد أثّرت الثورة البروتستانتية على الفن وخاصة على الفن المعماري • فالكاثوليك انشأوا الكتدرائيات والكنائس الفخمة مستخدمين في بنائها أشهر الفنانين والمعماريين لاجل القيام بالاحتفالات الدينية وخاصة القداس • ولما كانت الكثلكة تؤكد على التماثيل والصور ، زينت الكنائس بالتصاوير الجميلة والتماثيل الممتازة • لكن الثورة البروتستانتية ألغت كثيرا من العقائد الكاثوليكية من بينها القداس فانتهى بذلك عصر بناء الكتدرائيات ، ودمرت التماثيل والصور فتدهور الفن في العالم البروتستانتي ، واستغرقت مدة طويلة لكي ترجع البلدان البروتستانتية وتهتم بالفن ثانية •

وكان من نتائج الثورة البروتستانتية ايضا القضاء على السحرة • ولم تكن مكافحة السحر شيئا جديدا في القرن السادس عشر ، فالباباوات كانوا ضد السحر والتعاويذ ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تبحث عن السحرة في كل مكان وتعاقبهم • لكن بمرور الزمن اخذت البلدان الكاثوليكية تخفف عقاب السحرة والغي العقاب فيما بعد • بينما الاقطار البروتستانتية استمرت في معاقبة السحرة مدة أطول •

أخرّت الثورة الدينية التعليم بعد التقدم الكبير في هذا الحقل في القرن الرابع عشر والخامس عشر • فقد قضت مصادرة املاك الكنيسة وثروتها في القرن السادس عشر على مورد كثير من المدارس والجامعات في الاقطار البروتستانتية فسدّت ابوابها واقتصر التعليم على الطبقة

وكانت الحروب الدينيـــة بين الكاثوليك والبروتستانت عامل آخر في تأخر التعليم • والجامعات اصبحت معرّضة للهجمات العسكرية والجدال الديني • فاضطرت ان تجاري الوضع الراهن فتدهور المستوى الجامعي وقلّ انخراط الطلاب في الجامعة ، ومنع البروتستانتيون ابنائهم من الدخول الى الجامعات الكاثوليكية . كما ان الكاثوليك اخذوا يراقبون جامعاتهم ويمنعون الدراسات البروتستانتية • وبلغ سخط البيوريتان في انكلترا درجة أراد أوليڤر كروموبل غلق جامعتي اكسفورد وكمبرج •

لكن مع ذلك لم تمت رغبة الاهتمام بالتعليم • فكانت سويسرا مركزا من اهم مراكز الدراسات الجامعية بفضل جون كالڤن وتلاميذه واهتمامهم بنشر الثقافة عن طريق فتح المدارس والجامعات كما مرّ معنا • وفي سكتلندة قام جون نوكس بنشر الثقافة ايضا • ولم تكن البلدان الكاثوليكية اقل اعتناء بالتعليم • فاليسوعيون أسسوا المدارس والجامعات ونشروا الثقافة • وبعد منتصف القرن السابع عشر نجد انتعاش عام للتعليم سواء في العالم الكاثوليكي او البروتستانتي •

تأثير الثورة الدينية على الدولة والمجتمع

كان للتقدم السياسي والاجتماعي اثر فعال في نشوب الثورة الدينية في القرن السادس عشر • وقد أثّرت الثورة على التقدم السياسي والاجتماعي فيما بعد • ولهذا التأثير المتبادل اسباب متعددة نذكر منها ما يلي :

١ — ان الوعي القومي الذي عزز الحكومات الوطنية الحديثة كان سببا من اسباب الثورة البروتستانتية • وقد تأسست الكنائس في

كل بلد على أساس قومي بخلاف الكنيسة الكاثوليكية التي كانت من دعاة الاممية . فاللوثرية اصبحت دينا قوميا لاكثرية الالمان والبلدان السكندناقية ، والكلقنية للهولنديين والسكتلنديين . وحتى الدول الكاثوليكية تأثرت بهذه النزعة القومية واخذت تحصل على امتيازات من روما واصبحت كل من فرنسا واسبانيا وايطاليا تؤسس كنائس قومية . وهكذا أخذت الثورة الدينية والاصلاح الديني تأخذ طابعا قوميا وتروج الحركات القومية .

٢ ــ كانت الرأسمالية في طريق نموها لما بدأت الثورة الدينية ، فأخذ كثير من الملوك والامراء يرحبون بآراء لوثر وكالقن وهنري الثامن لمصادرة املاك الكنيسة . واهتمت الطبقة الوسطى بما ابداه كالقن بتشجيع الاعمال المنتجة وتصريحاته بأن تحريم الربا من قبل الكنيسة الكاثوليكية امر لا يجيزه العدل ، وأحلّ الربا . فلما تقدمت الرأسمالية في انكلترا وفرنسا والمانيا وهولندا ، انتشرت الكالقنية بين افراد الطبقة الوسطى واخذت تشارك الطبقة الارستقراطية والملوك في ثروة الكنيسة التي صادروها . وقد تغيرت النظرة الى الثروة بانها نعمة من الله لعباده الصالحين ، وليست اثم سببها الجشع كما اعتقد الناس في العصور الوسطى ، واعتبروا البطالة والكسل شيئان متلازمان وإثم لا يغتفر .

٣ ــ واخيرا فان الثورة الدينية عززت الملكية المطلقة بمصادرتها ثروة الكنيسة واملاكها ، كما ان الملوك لم يكتفوا بذلك بل مارسوا سلطة البابوات في ادارة كنيسة بلادهم بعد الانفصال عن روما . وحتى في البلدان الكاثوليكية استفاد الملوك من ضعف البابوات فاستحصلوا منه

امتيازات كثيرة وربطوا الكنيسة بالتاج ، وساعد ذلك على ظهور حق الملوك الالهي الذي كان يمارسه البابا سابقا ويدعي به .

٥ ـ علاقة الثورة الدينية بالدمقراطية الحديثة :

كثيرا ما يعزى ظهور الدمقراطية الحديثة الى الثورة البروتستانتية وهذه الفكرة لا تخلو من الصحة . فقد اكدت البروتستانتية على الفردية ، وكان انتخاب اعضاء الكنائس في بعض الطوائف البروتستانتية المتطرفة بطريقة دمقراطية . كما ان الاقليات البروتستانتية قاومت الاستبداد وثارت ضد الاوتوقراطية . غير أن الطوائف البروتستانتية الرئيسية كاللوثرية والكالفنية والانكليكانية كانت ارستقراطية وليست دمقراطية . اذ ان اللوثرية انتشرت بين الامراء في المانيا وبلاد السكندنافيا . وقد مزج كالفن بين الحكم الديني والدنيوي في جنيف وكان هنري الثامن هو الذي اسس الكنيسة الانكليزية والذين اعتنقوا الانكليكانية كانوا من الطبقة الارستقراطية .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الدمقراطية كانت موجودة في بعض حكومات المدن في اوربا في العصور الوسطى ، كبعض مدن هولندة ، وفلورنسا في ايطاليا في وقت ما . وقد تطورت المؤسسات الدمقراطية في بعض الدول القومية الحديثة كالبرلمان في انكلترا مثلا ، قبل ظهور البروتستانتية ، وحتى ان بعض الاديرة كانت تدير شؤونها باسلوب دمقراطي . وقد نادى بعض الكتاب الكاثوليك من امثال جيزويت ماريانا ١٥٣٦ـ١٦٢٤ ، وفرنسيسكو سواريز ١٥٤٨ـ١٦١٧ في اسبانيا بمقاومة الاستبداد وحق الملوك الالهي .

ومع ان بعض الكنائس البروتستانتية المتطرفة (وخاصة الابرشيين) طبقت أساليب دمقراطية في ادارة شؤون كنيستها ، لكن فكرة الدمقراطية ومؤسساتها تطورت بمعزل عن الدين • فجذور الدمقراطية ترجع الى العصر اليوناني القديم لما كانت حكومة اثينا تدار باسلوب دمقراطي في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهذه الفكرة انبعثت من جديد في عصر النهضة ، كما ان تطور البرلمان الانكليزي ومبدأ التمثيل النيابي في اوائل العصور الحديثة ، وان الشعب يجب ان يكون له صوت حر في ادارة شؤونه عن طريق من يمثلونه في انتخاب حر ، اقتبسه كل من الكاثوليك والبروتستانت • والمفكرين البروتستانت في انكلترا وامريكا مهدوا السبيل للدمقراطية الحديثة • اما التجربة الدمقراطية في فرنسا الكاثوليكية فهي متأخرة زمنيا ومتأثرة فكرا وعملا بانكلترا وامريكا • وجون لوك هو رائد الفكر الدمقراطي السياسي ، وامريكا زودت فرنسا بتطبيق الفكر الدمقراطي عمليا •

٦ ـ نصيب الفلاحين :

لم تتحسن حالة الفلاحين بالثورة البروتستانتية بل ساءت في اغلب الاحيان • اذ ان التحسن الذي طرأ على أحوالهم الاقتصادية بتقليل الضرائب والواجبات الكنسية قبل الثورة انقلب الى تدهور عام بسبب زيادة الضرائب الحكومية وواجبات اصحاب الاراضي بعد الثورة وحرموا من كثير من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها سابقا (مثل قطعة من الارض كانت خاصة بالفلاح يزرعها لنفسه ، فصادرتها الحكومة او اصحاب الاراضي الجدد ، كما ان مصادرة املاك الاديرة وثروتها

حرمتهم من بعض الصدقات التي كانت تقدمها الاديرة الى الفلاحين) •
وكانت التشريعات الجديدة تقلل من حقوق الفلاحين وتكثر من واجباتهم وخاصة لما ألغيت العطل الكثيرة التي كانوا يتمتعون بها قبل الثورة والتي تحولت كلها او أغلبها الى أيام العمل المرهق • وقد منع الكلفنيون الرقص واللهو والتسلية التي تعيد النشاط الى الجسم بعد التعب المضني • وقد قام الفلاحون بثورات كثيرة لكنها اخمدت بمنتهى القساوة • وعليه فان الفلاحين في الاقطار البروتستانتية ساءت احوالهم اكثر بكثير من السابق •

ومما هو جدير بالملاحظة ان هذه التأثيرات التي ذكرناها ليست بدافع الثورة الدينية وحدها • فعوامل أخرى ايضا أدت الى هذه التأثيرات من بينها الثورة الدينية • لقد كان القرن السادس عشر قرن التحولات الكثيرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وكانت الثورة الدينية واحدة من هذه التحولات •

الاتجاه نحو العلمانية :

لقد انتقلت الفعاليات التي كانت تمارسها الكنيسة الكاثوليكية سابقا الى الدولة • ولم تقتصر هذه الفعاليات على مصادرة الاراضي والضرائب الكنسية بل شمل التعليم والاعمال الخيرية • فبينما كانت الكنيسة الكاثوليكية سابقا تقوم باعباء التعليم والثقافة وتنفق عليها ، كانت الاديرة تقوم بالاعمال الخيرية والاحسان • لكن بعد مصادرة املاك الكنيسة والقضاء على الاديرة ، اصبح ذلك من عمل الدولة • وفي عهد الملكة اليزابيث قامت الحكومة الانكليزية بسلسلة من

التشريعات لتحقيق هذين الغرضين ، ووضعوا الضرائب الجديدة لادارة المدارس واعاشة العجزة وغيرهم من الفقراء . كما انهم فتحوا بيوت العمل واجّروا الاصحاء للعمل هناك . وقد قامت الحكومات السكندناقية وامراء اللوثريين في سكسونيا وورتمبرك وغيرها بنفس الاعمال . وقامت السلطات البروتستانتية بفتح المدارس والجامعات والاشراف عليها . لكن الدروس الدينية استمرت في هذه المدارس .

اما في الاقطار الكاثوليكية فاستمرت الكنيسة تمارس التعليم فيها وتقوم بالاعمال الخيرية الى نهاية القرن التاسع عشر . وبدأت الدولة تحل محل الكنيسة بعد ذلك في ممارسة هذه الاعمال .

وحتما يجب ان لا تعزى جميع النتائج التي ذكرناها الى الثورة الدينية فقط ، بل ان العوامل الكثيرة تظافرت لاحداث هذه النتائج من بينها الثورة الدينية .

الفصـل الخـامس

الاحوال السياسية في القرن السادس عشر
عصـر الامبراطور شارل الخامس
١٥١٩ ــ ١٥٥٨

انتخاب شارل الخامس امبراطورا :

توفي الامبراطور مكسمليان الاول في كانون الثاني ١٥١٩ ، وكان يعتقد ان الناخبين الالمان ينتخبون حفيـده شارل الاول ملك اسبانيا ، وخاصة بعد ان رشاهم مكسمليان بسخاء • غير ان الامـور رجعت كما كانت بعد موت الامبراطور وكأن لم يحـدث شيئا • وكان المرشحون لعرش الامبراطورية بالاضافة الى شـارل ، كل من ملك فرنسا فرنسوا الاول ، وهنري الثامن ملك انكلترا •

لقد وعـد فرنسوا ، اثنـاء الانتخابات انه يحـارب دفاعـا عن الامبراطورية ضد الاتراك، ويبني شبكة واسعة من الطرق والمواصلات، ويفرض سيادة القانون واعادة الامن والنظام الى المانيا التي سادت فيها الفوضى والاضطرابات • والواقع ان فرنسوا كان يهتم بمملكته فرنسا فقط لو انتخب • ولم يكن الناخبين الالمـان يريدون الطرق أو سـيادة

(1) Green, op. cit; pp. 127

القانون بقدر ما كان اهتمامهم بالمحافظة على استقلالهم وعدم التدخل في شؤونهم . أما هنري الثامن فلم يكن مهتما بشكل جدي في مسعاه ، وكان كل من المرشحين الآخرين يريد الحصول على تأييده ، فظهر اخيرا يفضل انتخاب شارل . بينما البابا ليو العاشر أعلن تأييده لفرنسوا مما أغضب الناخبين الذين لم يرغبوا في تدخل البابا والضغط عليهم . ولربما ذلك أضرّ بمصلحة فرنسوا ايضا .

ومع ان الناخبين كلهم كانوا من الالمان ، لكنهم فضلوا مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة ، بالاضافة الى ان الرشوة كانت تؤثر عليهم . وكان فرنسوا مستعدا لتقديم الرشاوى بسخاء لكن لم تكن لديه ثروة شارل . وقد أيّده ناخب برندنبرگ وأخيه فرنسوا في بادىء الامر . وكان تأييد اميري پلاتينات وسكسونيا مشكوك فيه لانهما تضررا في عهد مكسمليان . وقد صرفت العوائل الرأسمالية الالمانية ما يقارب مليون جنيه للدعاية لشارل وخاصة عائلة فوگر .

ولما اقترح البابا ليو العاشر وفرنسوا الاول على أمير سكسونيا انتخاب فرنسوا أو ترشيح نفسه ، رفض فردريك امير سكسونيا الاقتراح ورشح شارل وأيّده بقية الناخبين ، فانتخب شارل امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة باسم شارل الخامس في ٢٨ حزيران ١٥١٩ في مدينة فرانكفورت . وتوّج في مدينة ايكس لاشاپيل ، عاصمة شارلمان ، في ٢٣ تشرين الاول سنة ١٥٢٠ ، وبعد انتخابه كتب اليه مستشاره گاتينارا Gattinara يقول : « سيدي ! إن الله رؤوف معك ، ورفعك في العالم المسيحي فوق الامراء والملوك ، الى سلطة لم يحلم بها احد منذ عهد جدك الاكبر شارلمان . فقد وضعك في منصب

تحقق بواسطته المملكة العالمية ، وتوحيد العالم المسيحي تحت ظل راع واحد . »[1]

ورث شارل الخامس امبراطورية واسعة وممتلكات كثيرة في اوربا وأفريقيا وأمريكا . وادعى آسيا ايضا . لكن ابّهة الامبراطورية كانت تلائم العصور الوسطى اكثر من العصور الحديثة . ولم تكن لشارل وسيلة تجعل هذه الامبراطورية وحدة متماسكة . فكانت الوحدة الالمانية ضرب من المستحيل في وجه استقلال الامراء ومحاولتهم التحرر من قيود الامبراطور . كما أن الثورة اللوثرية والحروب الدموية التي نجمت عنها وانتشار الفوضى والبربرية عقّدت الامور اكثر بكثير ، وتأخرت الوحدة الى القرن التاسع عشر .

لم يكن للامبراطور حكومة مركزية كفوءة قادرة على ادارة الامبراطورية الواسعة . كما لم يكن لديه جيش دائمي أو خزينة خاصة، فكان شارل دائم الانتقال بين عواصم ممتلكاته .

صفاته :-

لم يكن شارل يتمتع بذكاء جده مكسمليان أو جاذبية ابيه فيلب . ومع انه كان ماهرا في الفروسية ومقارعة الفرسان بالسيف ، لكن لم يكن مؤهلا ثقافيا لادارة هذه الامبراطورية الواسعة . فكان ثقيل اللسان ، لم يتعلم اية لغة بطلاقة ، حتى اللغة الفرنسية التي نشأ فيها وتربّى . وتعلم الهولندية قبل ان يبلغ سن الرشد ، ولم تتحسن لغته الالمانية واللاتينية . كما لم يتعلم الاسبانية . وقد برز في الرياضيات

---

(1) Green, H. The Renaissance and Reformation (Arnold, 1977), pp. 127-132.

والتأريخ لان الرياضيات تساعده في الحرب ، والتأريخ كان هواية العائلة المالكة • ومع ذلك فان سنوات الحكم الطويلة المليئة بالمشاكل دربته وتكاملت خبراته وتجاربه فاصبح اداريا حازما واثقا من نفسه .

كان شارل متدينا مخلصا للكنيسة الكاثوليكية « دين الآباء والاجداد » ، كما فسره هو عند رده على لوثر • ووجد انه من واجبه الدفاع عن الكثلكة ضد الهرطقة المتمثلة في البروتستانتية • وكان عليه ايضا محاربة فرنسوا الاول ملك فرنسا « عدو السلام والاستقرار في اوربا » ، وصد الاتراك العثمانيين في زحفهم غربا « دفاعا عن الحضارة الغربية » ، حسب قوله • وأراد تأسيس سلطة مركزية لكن المشاكل الكثيرة التي أشغلته كل حياته حالت دون تحقيق اي هدف •

مشاكل شارل الخامس الادارية :

اهتم شارل الخامس بامبراطوريته التي تمثل عائلته ، وممتلكاته الوراثية اكثر من اهتمامه بالمانيا التي اعتبرها جزءا من امبراطوريته الواسعة • وكانت هذه الامبراطورية الواسعة المؤلفة من اسبانيا ومستعمراتها عبر البحار ، والاراضي المنخفضة ، وايطاليا ، والمانيا بما فيها النمسا ، ارتبطت بعضها ببعض عن طريق الزواج والمصاهرة واصبحت ملكا لعائلة واحدة هي عائلة هبسبرگ النمساوية • فهذه العائلة كانت الرابطة الوحيدة التي تربط اجزاء الامبراطورية بعضها ببعض وبشخص الامبراطور ، رئيس هذه العائلة ، الذي ورثها عن آبائه وأجداده •

ولم تكن لهذه الامبراطورية حكومة مركزية تفرض سلطانها على

جميع لجزاء الامبراطورية ولا ادارة عامة موحدة تشرف عليها وتدير جميع أجزائها . فكانت لكل بلد أو قطر عاداته وقوانينه ومؤسساته ونظام حكمه دون ان يكون هناك اي شبه بين بلد وآخر ، أو رابطة تربط بين الاقطار المختلفة التي يملكها الامبراطور سوى شخص شارل الخامس . وحتى الاراضي المنخفضة التي تكونت من سبعة عشر مقاطعة ، كانت كل مقاطعة فيها وحدة سياسية متكاملة على الرغم من وجود ادارة مركزية ونظام تمثيلي لجميع المقاطعات . بينما امارة برگنديا التابعة لها كان لها تنظيم سياسي منفصل .

ولم تكن اسبانيا موحدة ايضا . فمملكة قشتالة تشمل أكثر أجزاء اسبانيا والممتلكات الامريكية المكتشفة حديثا ، وبعض اجزاء افريقيا . بينما مملكة آرگون كانت مؤلفة من أربع دول مستقلة وهي : آرگون، وكاتلونيا ، وبلنسيه ، وناڤار . يضاف الى ذلك كانت مملكة ناپولي وصقلية وساردنيا تابعة لمملكة آرگون . وكانت لكل من هذه الدول والمقاطعات ادارة مستقلة وبرلمانها الخاص ونظام ضرائبها الخاص . وكذلك الامر بالنسبة لممتلكات آل هبسبرگ الاصلية التي كانت عبارة عن : النمسا ، وستيريا ، وكارنيولا ، وكارنثيا ، وتيرول .

مشاكل شارل في المانيا :

لما اعتلى شارل الخامس العرش سنة ١٥٢٠ ، كانت الامبراطورية الرومانية المقدسة مقتصرة على الشعب الالماني مضافا اليه الچيك في بوهيميا . وكانت المانيا تتوقع الوحدة أسوة بفرنسا وانگلترا ، نظرا لشعور الجميع بأنهم من عنصر واحد ، ويتكلمون لغة مشتركة ، ولهم

عادات وتقاليد مشتركة • ولم تفتقر المانيا الى روح الوطنية اذ كان الفرسان والمدن الحرة وحتى النبلاء يدّعون بنوع من الوطنية والشعور بوجوب اصلاح المؤسسات القديمة • لكنهم اختلفوا على السبل التي يجب اتباعها لتحقيق الاصلاح • ولو ان شارل وجّه جهوده للامبراطورية الالمانية لاستطاع ان يوحد المانيا مضافا اليها هولندة والنمسا فكانت تصبح عندئذ اقوى دولة في القارة الاوروبية ، ولم تكن المصاعب التي تواجهه لتنفيذ هذا الغرض بأكثر من مصاعب ملوك فرنسا وانكلترا واسبانيا في توحيد أراضيهم • لكن شارل لم يكن مستعدا للتضحية بممتلكاته في اسبانيا وأمريكا والتخلي عن كل هذه الثروات المتدفقة منها الى خزينته ، لاجل وحدة المانيا التي موردها كان اقل من الاراضي المنخفضة ، أحد ممتلكاته المتواضعة ، مضافا اليها الاتعاب والجهود والنفقات الكثيرة التي تكلفها هذه الوحدة •

وقد وضع الامراء اللوم على الامبراطور واتهموه بقلة وطنيته واهماله شؤون المانيا • والواقع ان الامبراطور نفسه كان يتكلم اللغة الفرنسية بدلا من الالمانية ، ولم يكن احد من مستشاريه الرئيسين الماني المولد • وقبل ان يُنتخب شارل امبراطورا سنة ١٥١٩ ، طلب منه الناخبون من الامراء ان تحلّ اللغة الالمانية محل اللاتينية كلغة رسمية ، وان يعطي الوظائف في الامبراطورية الى الالمان فقط ، وان لا يستخدم الجيوش الاجنبية في الحروب التي يشنها الامبراطور الا بموافقة الدايت ، كما انه لا يتنازل عن اراضي المانيا للسلطات الاجنبية او يجبر الامراء بالخضوع للاجانب ، ويعترف باستقلال الولايات ويعيّن من بينهم مجلس الوصاية الذي يجب ان يشاركه في الحكم •

وقد اتخذ الدايت الالماني المجتمع في وورمز سنة ١٥٢١ ، قرارا بتاسيس مجلس الوصاية الذي يجب ان يتكون من ٢٣ عضو يمثلون مصالح امراء الولايات الالمانية . ولو استطاع مجلس الوصاية المنعقد في بداية حكم شارل من ضمان الاستقلال الاقتصادي بتكوين اتحاد كمركي بين الولايات عن طريق فرض الضرائب على البضائع المستوردة من الخارج وضمان مورد معين لخزينة الامبراطورية لقل اعتماد الامبراطور على الهبات التي يقدمها اليه الامراء وخطت المانيا خطوة نحو الوحدة السياسية . لكن الاحتجاجات الكثيرة من اغنياء المدن وتجار العصبة الهنسية وشكاويهم بان عبء الضرائب الجديدة سوف تقع على عاتقهم وتدمر تجارتهم اجبر المجلس على ان يتخلى عن هذه الفكرة ويعتمد مرة أخرى على الهبات التي تقدمها كل ولاية . وقد اجتمع مجلس الوصاية للمرة الاخيرة في نورمبرك بعد ثلاث سنوات ولم يقم بأي عمل مثمر سوى وضع مجموعة من القوانين وضعت حيز التنفيذ سنة ١٥٣٢ . وهكذا نجد ان الامبراطور لم يرغب ان يشاركه مجلس يقيد صلاحياته ، واطلق العنان لامراء الولايات في التمتع باستقلالهم .

شارل والفرسان :

نظام الفروسية في العصور الوسطى كان مرتبطا بالاقطاعية . وكان الفرسان في المانيا من بقايا نظام الفروسية المرتبطة بالامبراطور مباشرة . وقد قل موردهم بسبب ارتفاع الاسعار ، وقيدت حرياتهم بسبب ازدياد سلطات الامراء ، ومنع الحروب الداخلية بين الامراء ، وتطبيق القانون الروماني بدلا من القواعد الاقطاعية . وبحلول القرن السادس

عشر اصبح الفرسان وطنيين قوميين يكرهون الامراء اصحاب القلاع الذين لا عمل لهم سوى الحروب ونشر الفوضى ، وكذلك يحتقرون التجار في المدن • وقد تثقف قسم منهم ثقافة عالية ، لكنهم لم يميلوا الى الاستقرار ، وكانوا على العموم يفتخرون بقوميتهم الالمانية • وتحت قيادة فرانزفون سيكنگن وأولريك فون هتن ، استطاع الفرسان أن يقفوا موقفا شديدا في انتخاب الامبراطور شارل الخامس وتفضيله على المرشحين الآخرين غير الالمانيين فرنسوا الاول وهنري الثامن • وكان الفرسان يتوقعون من الامبراطور توحيد المانيا والاعتماد عليهم في نزاعه مع الامراء وأغنياء المدن وبامكانهم اخضاع الامراء تمهيدا لتأسيس حكومة المانية مركزية موحدة قوية •

لكن حدث ان ثار مارتن لوثر وظهرت البروتستانتية واعتنق الفرسان اللوثرية بدافع قومي أملا بأن انفصال لوثر عن البابوية سيؤدي حتما الى انفصال المانيا عن ايطاليا وتأسيس كنيسة المانية خاصة بها مما يؤدي الى وحدة المانيا • ولما حرم الدايت الالماني في وورمز مارتن لوثر سنة ١٥٢١ ، بتأثير الامبراطور وقف الفرسان ضد الامبراطور ، فثاروا سنة ١٥٢٢ ، ورفض سيكنگن سلطة المحكمة العليا التي أسسها دايت في وورمز ، وهجم على اسقفية ترير الكاثوليكية وممتلكات الكنيسة • وكان سيكنگن وزميله فون هتن اعتنقا اللوثرية ، غير ان الامراء ثارت في نفوسهم روح العداء القديمة ناسين الاعتبارات الدينية ، فقمعوا ثورة الفرسان سنة ١٥٢٣ ، وقتل سيكنگن ، وفرّ هتن الى سويسرا والتجأ الى جزيرة صغيرة في بحيرة زوريخ ومات « دون ان يترك شيئا سوى

قلمه » ، بحسب قول زوينكلي • وهكذا انتهت آخر محاولة لتوحيد المانيا في القرن السادس عشر •

ظل شارل الخامس كاثوليكيا لانه كان يعتقد ان سلطته السياسية متوقفة بصورة خاصة على المحافظة على المذهب الكاثوليكي وانه بحاجة الى مساعدة البابا في سياسته وتنفيذ مشاريعه الخارجية • وكان هذا هو السبب الاساسي في خروج امراء المانيا عن الكثلكة وقبولهم اللوثرية ، كي يقللوا من سيطرة الامبراطور عليهم • ولو أن الامبراطور والامراء قبلوا البروتستانتية جميعا او رفضوها ، لكانت الوحدة تتم ولاجتنبوا الحروب الاهلية وتقوم السلطة المركزية بتأسيس كنيسة موحدة • لكن الامراء اتخذوا الاختلاف الديني وسيلة لمعارضة الامبراطور الكاثوليكي ، وضمان الاستقلال المحلي وعدم توحيد المانيا • وهكذا كانت الامبراطورية الرومانية المقدسة مضطربة في عهد واحد يعتبر من اعظم اباطرتها •

ثورة الفلاحين :

وكما قضى الامراء على ثورة الفرسان في غياب شارل ، كذلك كان الامراء هم الذين قضوا على ثورة الفلاحين سنة ١٥٢٥ • لقد تحسنت أحوال الفلاحين في القرن الخامس عشر بسبب النقص السكاني وقلة الايدي العاملة ، ونالوا بعض الحريات ، وازداد وعيهم وانتقدوا الضرائب الاقطاعية والصيد في مزارعهم • وفي القرن السادس عشر لما قلّ مورد النبلاء بسبب الازمات الاقتصادية وازدياد الاسعار في بداية القرن ، أرادوا اعادة الرسوم الاقطاعية • غير ان الفلاحين أرادوا الحصول على حريات اكثر • وكانت مطاليبهم معتدلة اذ اشتكوا من

مصادرة غاباتهم ، واجبارهم على القيام بخدمات للنبلاء . وكانت تعاليم لوثر تشجعهم على القيام بثورة ، بتأكيده على الاخوة البشرية ومصادرة املاك الكنيسة . وكان توماس مونزر ، وساكاو ، اللذان أثارا الفلاحين في ثورنجيا قاما بنفس الدور في اثارة الفلاحين وتأسيس مجتمع شيوعي في مُلهاوزن في سكسونيا . وكان احد مناشيرهم التي انتشرت بين الفلاحين تقول: « ثوروا ، وقاتلوا في سبيل الله واستمروا ... يا سكان المدن والارياف وعمال المناجم استمروا ... طالما النار مشتعلة ولاتجعلوا الدم يبرد على سيوفكم ... لان الله معكم . »[1]

لقد بدأت الثورة في غابة السوداء وانتشرت في جنوبي غربي المانيا باتجاه النمسا وساكسونيا سنة ١٥٢٥ ، ورحب بها لوثر في بادىء الامر لانها كانت ضد الكنيسة ورجال الدين الكاثوليكي . وما أن انتشرت الثورة ضد النبلاء في وسط وجنوبي المانيا وجد لوثر الخطر يهدد اللوثرية فوقف ضد الثورة وحرض النبلاء على اخمادها ، وتمكن امير سكسونيا وهس دارمشتات من التغلب على الفلاحين بقيادة توماس مونزر في فرانكنهاوزن (مايس ١٥٢٥) ، وأخمدت الثورة بعد ذلك بسرعة .. لقد كان انتصار النبلاء على الفلاحين انتصار آخر ضد الامبراطور الذي كان يحمي الفلاحين ، وازدادت سلطة النبلاء على حساب الامبراطور ، وساءت حالة الفلاحين اكثر من السابق[2] .

حروب شارل الخامس :

اصبحت مشاكل شارل الخامس معقدة اكثر بسبب حروبه

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٨

(2) Ibid; 135-146.

الخارجية . فقد ورث شارل من أسلافه نزاعا مستمرا مع ملوك فرنسا ، يضاف اليه طمع فرنسوا الاول ملك فرنسا بتاج الامبراطورية الرومانية المقدسة الامر الذي أجبر شارل ان يحاربه طول حياته .

الحرب بين الامبراطور شارل الخامس
وفرنسوا الاول ملك فرنسا :

كان فرانسوا الاول ملك فرنسا رجلا مستهترا لا يشعر بالمسؤولية معجبا بنفسه وبمقدرته العسكرية . وقد اعتلى العرش سنة ١٥١٥ ، ووجد بلاده محاطة بأملاك آل هبسبرگ فحاول ان يتخلص من التطويق بتأليب الدول الصغرى على أقوى امبراطورية في اوربا . وقد فشل في الحصول على تاج الامبراطورية المقدسة كما اسلفنا ، فلم يتمالك نفسه واخذ يبحث عن الوسائل التي يتمكن بواسطتها تبرير موقفه في اعلان الحرب على شارل . أمّا الاسباب التي تذرع بها فهي :

(١) كان لويس الثاني عشر ملك فرنسا قد خسر ميلانو سنة ١٥١٢ ، وقد استعادها فرنسوا سنة ١٥١٥ . لكن شارل عندما اصبح امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة سنة ١٥١٩ ، قرر ضم هذه الدوقية الى امبراطوريته باعتبارها امارة اقطاعية تابعة له .

(٢) ادعى فرنسوا الاول عرش نابولي الذي تخلّى عنه سلفه لويس الثاني عشر سنة ١٥٠٤ ، لفردنند ملك اسبانيا وجد شارل الخامس من امه .

(٣) ادعى فرنسوا الاول ان مملكة ناڤار مقاطعة فرنسية ألحِقَ القسم الاكبر منها باسبانيا بالقوة في عهد فردنند وايزابيلا فيجب اعادتها الى فرنسا .

(٤) أراد فرنسوا الاستيلاء على الاراضي المنخفضة وكان شارل عقبة قوية في وجهه .

أما سياسة الامبراطور شارل الخامس فكانت مبنية على الحقوق التقليدية كاحترام الحقوق الاقطاعية. فقد نصحه مستشاروه البرگنديين ان دوقية برگنديا التي تربى فيها شارل ليست جزءاً من فرنسا أصلا . كما ان دوقية ميلان في شمال ايطاليا والتي كانت تحت سيطرة فرنسا منذ معركة ماريگنانو سنة ١٥١٥ ، حق اقطاعي للامبراطورية الرومانية المقدسة وبقائها تحت سيطرة فرنسا تقطع طريق المواصلات بين النمسا والبحر الابيض المتوسط . وكان شارل يعتقد أنه من واجبه اعادة السلام الى اوروبا باستخدام القوة اذا كان ذلك ضروريا .

بدأت العمليات الحربية سنة ١٥٢١ ، بمناوشات القوات الفرنسية والقوات الامبراطورية المرابطة على الحدود بين المانيا وفرنسا . وابتهج الامبراطور بهذه المناوشات لانها تؤدي الى تصعيد الحرب وقد دفعت المناوشات الجيش الفرنسي الى شمال ايطاليا ، واستطاع الجيش الامبراطوري استعادة دوقية ميلان وطرد الفرنسيين منها وتعيين عائلة سفورزا عليها باعتبارها امارة اقطاعية مربوطة بالامبراطورية الرومانية المقدسة وحصل البابا على پارما مقابل مساعدته للامبراطور . عندئذ عبر الجيش الامبراطوري جبال الآلب في اوائل سنة ١٥٢٤ ، وحاصر فرنسوا الاول في مرسيليا في الصيف من تلك السنة ، لكن فرنسوا انتصر عليهم وألحق بهم هزيمة منكرة دون ان يواصل سيره وراءهم، فبعث بقسم من جيشه الى نابولي وسار هو على رأس الباقي الى سهل پاڤيا بالقرب من ميلان لمحاصرة الجيش الامبراطوري .

وقد استطاع الجيش الامبراطوري المتقهقر الى ميلان ان يجمع قواه وأعاد الكرّة على فرانسوا ، ودحرَ الجيش الفرنسي في پاڤيا في شباط ١٥٢٥ ، وألحقَ به خسائر فادحة ووقع فرنسوا أسيرا اقتيد الى مدريد حيث كان شارل ينتظره • وبقى فرنسوا في الاسر قرابة سنة • لقد حطم شارل بانتصاره التوازن الدولي في اوربا وأصبح فرنسوا اسيره ، فهل يغزو فرنسا ويملي ارادته على الملك الفرنسي أم يستفيد من وضع اسيره ويبرم صلحا مشرفا في صالح الامبراطورية المقدسة ؟ لقد كان من الصعب ان يحصل على انتصار ساحق لو غزا فرنسا ، لأن الفرنسيين اعدّوا أنفسهم للدفاع • ولم يكن شارل قويا الى درجة ان يقوم بهذه المهمة • ولو أخذ برأي مستشاره گاتينارا الذي نصحه بابقاء اسيره في ايطاليا مدة طويلة ويستخدمه كضمان لاية محاولة عدوانية فرنسية ، كان على شارل أن يعامل سجينه « بشهامة مبعثها القوة ، ورحمة مصدرها الله » ، كما قال المستشار القدير المار الذكر ، ويطلب كل دوقية برگنديا باعتبارها حقه الشرعي ، ويبرم صلحا قاسيا لكن عادلا وكفيلا بضمان السلام وتحطيم اللوثرية ، ودفع الاتراك الى بلادهم • لكن شارل لم يأخذ بنصيحة مستشاره بل فضّل التفاوض • وبموجب معاهدة مدريد في كانون الثاني ١٥٢٦ ، تنازل فرانسوا عن الاراضي المنخفضة وايطاليا وبرگنديا وحلف بالكتاب المقدس عدة مرات ان يبر بوعده ويتزوج الينورا الاخت الاكبر للامبراطور (كانت زوجة فرنسوا الاولى قد ماتت سنة ١٥٢٤ ، وكانت عمرها ٢٤ سنة) •

لكن فرنسوا نقض عهده حالما وطأت قدماه اراضي فرنسا ملغيا

ان اليمين كان تحت الضغط ، والغى المعاهدة ، وبدأ يؤلب الامارات الايطالية ضد شارل من بينهم البابا كليمنت السابع ، وفرنسيسكو سفورزا ، وفلورنسا ، وفنسيا ، وهنري الثامن ملك انكلترا بتكوين عصبة كونياك في ٢٢ مايس ١٥٢٦ • وقد اصبح جليا ان الحرب بين فرنسا والامبراطور تتجدد • وقال شارل عن فرنسوا في ثورة غضب : « لو أن الملك [فرنسوا] احتفظ بوعده لما تجدد القتال ••• انه غشني ، انه لم يعمل كفارس أو نبيل ••• لقد عمل بنذالة » •

نهب روما :

لقد عبر الجيش الامبراطوري جبال الآلب متوجها نحو ايطاليا • وكان رواتب الجنود قد تأخرت ، والمؤن التي كانت معهم لم تكفهم • فتوجه الجيش نحو روما مارا بفلورنسا معتقدا ان في روما ثروة العالم كله • ولم يستطع قائدهم الفرنسي أن يسيطر عليهم فهاجموا المدينة في مايس ١٥٢٧ ، وبدأ السلب والنهب وهتك النساء والراهبات الجميلات بصورة خاصة ، مدة تسعة اشهر • واختفى البابا كليمنت في قلعة سنت انجيلو ، واضطر ان يعقد الصلح مع شارل بموجبه رجع سفورزا الى ميلان ومديتشي الى فلورنسا واسترجع البابا بعض اراضيه •

لقد أثار نهب روما سخط العالم الكاثوليكي وحتى ان هنري الثامن الذي كان لا يزال مخلصا للبابا ، ساعد فرنسوا في نزاعه ضد شارل • لكن اغلاط فرانسوا العسكرية كانت كثيرة فلم يستطع تثبيت اقدامه في ايطاليا ، فعقد صلح كمبري مع شارل سنة ١٥٢٩ ، وبموجبه تجددت بنود معاهدة مدريد بتنازل فرنسوا عن الاراضي المنخفضة

وايطاليا ، لكن لم يشدد على دوقيـة برگنديا . وفي سنة ١٥٣٠ ، زار الامبراطور ايطاليـا وهناك استلم تاج لومبارديا وتاج الامبراطورية الرومانية القديمـة من البابا . وكان هـذا آخر تتويج يقوم بـه البابا لامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسـة . وكان عمر شـارل عند التتويج ثلاثين سنة .

لقد تجددت الحرب بين شارل وفرنسوا بين ١٥٣٦ـ١٥٣٨ بتحالف فرنسا مع امراء البروتستنت في المانيا واسكتلندة والسويد والدانيمرك والدولة العثمانيـة . وكذلك تجددت الحـرب بين ١٥٤٢ـ١٥٤٤ ، واستمرت بعـد موت فرنسـوا سنة ١٥٤٧ ، وانتهت في صـلح كاتو كامبريسس سنة ١٥٥٩ ، بين هنري الثاني ملك فرنسا ١٥٤٧ـ١٥٥٩ ، وفيلب الثاني ملك اسبانيا ابن شارل الخامس . وبموجب هذه المعاهدة اصبحت ايطاليـا تحت سيطرة العائلة المالكة الاسبانيـة ، بينما حصلت فرنسا على ثلاث مدن حصينة من مدن الامبراطورية الرومانيـة المقدسة وهي ميتز وتول وڤيردون . وبذلك توسعت فرنسا على حساب المانيا .

كانت نتيجـة النزاع بين عائلة هبسبرگ وفرنسـا المحافظة على التوازن الدولي وعدم تدخل فرنسا في شؤون المانيا فيما بعد . لكن في نفس الوقت افسحت المنازعات المجال لظهور الدولة العثمانية في شرقي اوربا ، وانتشـار البروتستانتية في المانيا . واخيرا ادت المنازعـات الى التحالف الفرنسي التـركي وحصول فرنسـا على امتيازات واسـعة في الدولة العثمانية[١] .

---

(1) Ibid; 146-155.

شارل الخامس والدولة العثمانية :

في السنة التي توّج فيها شارل الخامس امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة ، اعتلى العرش العثماني أعظم سلاطين آل عثمان الا وهو سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦ . وقد وسّع سليمان القانوني رقعة امبراطوريته باستيلائه على بلاد القفقاس وجنوب روسيا فأصبحت منطقة البحر الاسود بحيرة عثمانية ، كما انه استولى على وادي الرافدين ووصل الى الخليج العربي وان اميراله البحري خير الدين باربروسا استطاع ان يسيطر على البحر الابيض المتوسط ويطارد البندقيين والجنويين في كل مكان . وهكذا صار البحر المتوسط بحيرة عثمانية تقريبا . وقد توجه السلطان سليمان غربا فأعلن الحرب على المجر بدعوى أن ملكها لم يهنئه عند تبوئه العرش العثماني وانتصر على الجيش المجري في معركة موهاكس الحاسمة سنة ١٥٢٦ واستولى على عاصمتها بوداپشت . كما تقدم نحو النمسا وحاصر ڤينا سنة ١٥٢٩ ، فرجع الامبراطور شارل ليدافع عن عاصمة ملكه ، ولم يدم الحصار اكثر من ثلاثة اسابيع لكن السلطان استولى على ثلثي أراضي المجر . وبعد نزاع طويل بين سليمان وشارل عقد الصلح بينهما سنة ١٥٤٧ ، بموجبه أخذ السلطان معظم اراضي المجر بما فيها العاصمة بوداپشت ، وقبل ملك المجر ان يدفع غرامة سنوية قدرها (٣٠٠٠٠) ليرة الى السلطان العثماني .

وقد تحالف فرنسوا الاول ملك فرنسا مع سليمان القانوني ضد شارل ولهذا كافأه السلطان بمنحه امتيازات خطيرة اصبحت فاتحة

الامتيازات الاجنبيــة في الدولة العثمانيــة . وكانت هــذه الامتيازات كما يلي :

(١) لفرنسا الحرية التامة في التجارة والملاحة في الموانىء العثمانية على ان تدفع رسما قدره (٥٪) من ثمن تجارتها .

(٢) لا يسمح لسفينة اجنبية بالملاحة في المياه التركية الا اذا رفعت علما فرنسيا .

(٣) يحاكم الرعـايا الفرنسيين في القضـايا المدنية والجنائيــة في قنصلياتهم .

(٤) للجالية الفرنسية المقيمــة في الدولة العثمانية امتيازات خاصة فيما يخص نقل ممتلكاتهم وبضائعهم داخل الدولة العثمانية .

(٥) للفرنسيين الحرية الدينية التامة ، وتعتبر فرنسا حامية مسيحي الاراضي المقدسة[١] .

وهكذا ظل شارل مهددا من قبل الدولة العثمانيــة طول حياته . وقد تجددت الحـرب سنة ١٥٥١ ، واستمرت بعد وفاة شـارل ، وعقد الصلح سنة ١٥٦٢ وعلى أثرهـا مات فردنند سـنة ١٥٦٤ ، ثم سليمان القانوني نفسه سنة ١٥٦٦ .

اسبانيا فى عهد شارل الخامس :

ارتقى شارل عرش اسبانيا باسم شارل الاول بعد وفاة جده من امه فردنند سنة ١٥١٦ . وزوال شخصية فردنـنـد القوية في بلد لم تكن

(1) Hayes, op. cit; pp. 225-241

وحدته متكاملة تماما فسح المجال لظهور النزاعات القديمة ومحاولة النبلاء استرجاع نفوذهم وبسط سيطرتهم على المدن ، بينما قاومت المدن ذلك . وكره النبلاء والمدن مجيء الهولنديين الى اسبانيا مع شارل الذي كان اميرا على الاراضي المنخفضة منذ وفاة والده فيلب سنة ١٥٠٦ . ترك شارل الاراضي المنخفضة الى اسبانيا في ايلول ١٥١٧ ، ووصل الى قشتالة في نهاية تشرين الاول . وفي شباط ١٥١٨ اجتمع بكورتيز قشتالة ووعد ان يراعي تقاليد وعرف البلاد ولا يعين غير المواطنين الاسبان في الوظائف الحكومية ، ووافق الكورتيز منحه مبلغا من المال لمدة ثلاث سنوات ، وان يكون شريك أمه جوانا في الحكم ووصيا عليها .

كانت محاولة شارل تأسيس ادارة منظمة وحكومة مستقرة ، ومطالبته المال في كل مدينة يزورها ، أثارت حفيظة النبلاء الذين تحرروا من قبضة فردنند بعد موته ، وأخذوا يبثون الفوضى والبلبلة ويوسعون اراضيهم على حساب الآخرين . وقد ظهرت بوادر الفوضى والاضطرابات ايذانا بالثورة لمّا تكاثرت الشكايات . واندلعت الثورة فعلا لما وصل نبأ وفاة الامبراطور مكسمليان ، وطلب الناخبون الالمان رجوع شارل الى المانيا لانتخابه امبراطورا . وكان الاسبان يكرهون التبعية للامبراطورية الرومانية المقدسة وحكم الاجانب من الالمان والهولنديين . وحاول الثوار منع الملك من ترك البلاد ، غير ان شارل تمكن من الافلات ، وعيَّن احد الهولنديين نائبا له في قشتالة ليواجه ثورة عارمة .

لقد كانت الثورة من عمل النبلاء وسكان المدن في آن واحد ، وكانت الكنيسة في كثير من الاماكن تؤيد مقاومة الاسبان للاجانب ،

وقد اكتسح الثوار القسم الكبير من البلاد ، وشكلوا حكومة لانفسهم في ١٥٢٠ ، واعلنوا الاطاحة بنائب الملك ، وشرعية حكومتهم . وقد وصل الثوار الى عاصمة قشتالة ، واعلنوا ان الملكة جوانا قد استعادت صحتها وطلبوا منها الموافقة على شرعية حكومتهم . لكن جوانا فقدت شعورها مرة اخرى قبل ان تنطق بالموافقة . وكان مطاليب الثوار عبارة عن شكاوى قديمة واصلاحات دستورية ، وتعيين الاسبان بدلا من الاجانب في مناصب الدولة ، ومنع تسرب الذهب والفضة الآتية من امريكا الى خارج اسبانيا ومعالجة ارتفاع الاسعار . أما مطاليب سكان المدن فكانت تدور حول اصلاح الكورتيز الذي لو تم لقيّد سلطة الملك . فكانوا يريدون اجتماع الكورتيز كل سنتين دون دعوة ملكية ، والغاء امتيازات النبلاء ، واعفائهم من الضرائب وتعيينهم في مناصب الدولة .

غير ان شارل أيّد النبلاء ضد مطاليب سكان المدن وبذلك احرز شارل انتصارا عظيما بكسب ولاء النبلاء الذين اخمدوا الثورة . ولما رجع شارل الى اسبانيا بعد تنويجه امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة ، كانت الثورة المعروفة بثورة كوميوناروس ، قد انتهت . وباخماد الثورة انتهى النظام البرلماني في اسبانيا وبدأ الحكم المطلق دون الغاء الكورتيز . وقد ايّد النبلاء وسكان المدن شارل الذي اعلن عفوا عاما للجميع . وكانت ثورة لوثر وتمسك شارل بالكنيسة الكاثوليكية والدفاع عنها ، وحصوله على منصب الامبراطور للامبراطورية الرومانية المقدسة ، قرّبه من الشعب الاسباني وأخذوا يعتزون به . وانهالت ثروة امريكا واسبانيا على شارل ، واصبح متعاطفا مع الاسبان وطبّق سياسة

اسبانية صرفة ، واتخذ الحيطة والحذر في الاساءة الى شعورهم الى حين وفاته[1] .

نهاية شارل الخامس :

تنازل شارل الخامس عن العرش سنة ١٥٥٦ بعد ان انهكته الحروب والمنازعات ، وقسّم املاكه بين ابنه فيلب وأخيه فردنند . وكانت اسبانيا والاراضي المنخفضة وامريكا وايطاليا من نصيب فيلب . بينما ورث فردنند ممتلكاته الوراثية في المانيا وكان منذ ١٥٣١ ، يحكم المانيا بدلا من اخيه شارل الذي كان غائبا على الاكثر . ولم يبق سوى لقب الامبراطور الذي احتفظ به شارل لنفسه الى حين وفاته سنة ١٥٥٨ . وقد قضى السنتين الاخيرتين من حياته في دير في اسبانيا يتعبد ربه .

انكلترا في عهد هنري الثامن

١٥٠٩ – ١٥٤٧

ورث هنري الثامن من ابيه هنري السابع مملكة موحدة وسياسة اقتصادية متزنة وسلاما عاما وثروة عظيمة . وكان يساعد هنري الثامن في الحكم في هذا الوقت مستشاره الكاردينال توماس وولزي ١٤٧٥–١٥٣١ ، الذي أشغل مناصب دينية ودنيوية في الكنيسة والدولة قبل ان يصبح كردينالا ومستشارا . وقد حبَّب نفسه لرجال الدين والسياسة وترقى تدريجيا الى أن اصبح وزيرا . وقد استغل

(1) Green, op. cit; pp. 132-135.

وولزي منصبه للحصول على السلطة والشهرة وصارت سلطاته واسعة بعد ان اصبح مستشارا لهنري الثامن وموجها لسياسة دولته الداخلية والخارجية ، واخذ يمني لنفسه بنيل منصب البابوية .

استطاع وولزي ان يقوي سلطة الملك فضعف النبلاء واستخدم محكمة قاعة النجوم لمحاكمتهم . ورشا البرلمان فكسب تاييدهم . وقد لاحظ المنافسة بين شارل وفرنسوا ، فاراد ان يستفيد من هذا النزاع ليحرز لنفسه وبلاده مكانا مرموقا . وكان في انكلترا من يقول آنذاك بسياسة العزلة لان انكلترا كانت دولة صغيرة ليس لها شان بين الدول العظمى ، لكن وولزي راى عكس ذلك فتقدم يساعده هنري فانحاز الى شارل الخامس حينا ، وفرنسوا حينا آخر فكسب بذلك لبلاده قوة داخلية ومركزا عاليا في الخارج واصبح هو المتنفذ في اوربا ، ولهذا يعتبر وولزي مؤسس سياسة التوازن الدولي .

وكان وولزي يميل الى شارل اكثر من فرنسوا نظرا لوجود صلة القرابة بين هنري وشارل ، ولكون الاخير حاكم الاراضي المنخفضة التي لانكلترا فيها مصالح كثيرة ، ولان له الاثر الاكبر في تحقيق مطامع وولزي في روما . ومع ان هنري وولزي مالا الى جانب فرنسوا حينا من الزمن ، لكن شارل استطاع ان يستميله الى جانبه ضد فرنسا بتقديم شيء من الرشوة اليه . وقد بعث وولزي حملة لمساعدة شارل ضد فرنسا ، ولكن لم يكن لهذه الحملة اثر فعال . وعند نهب روما سنة ١٥٢٧ ، تحول هنري الى جانب فرنسوا الاول ، فاربك بذلك موقف شارل .

ولم يكن نهب روما العامل الوحيد في تدهور العلاقات بين هنري وشارل ، فقد كان هنري يريد ان يتخلص من زوجته كاترين أركون التي لم تنجب له ابنا يرث العرش . ولما كان شارل الخامس ابن اخت كاترين صعب عليه الامر واوصى البابا بعدم منح الطلاق . اما وولزي فأراد ان يستفيد من الوضع فحبذ الطلاق لان ذلك يحرر الملك من ارتباطه باسبانيا ويفسح له المجال في التزويج باميرة فرنسية ، وتصبح فرنسا بذلك حليفة انكلترا ، ويكون وولزي قد حافظ على التوازن الدولي .

غير ان هنري كان له رأيه الخاص في النساء ، فلم يهتم باراء وولزي ولا بدبلوماسية الاميرة الفرنسية ، ولا تأثر بدموع زوجته كاترين أركون ، فتزوج من المرأة الانكليزية الفاتنة (آن بولين) التي شغف بها قلبه ، فخاب بذلك أمل فرنسوا الاول ، وسقط وولزي من الوزارة واودع رهن التوقيف ومات في السجن كمدا ، وساءت العلاقات بين انكلترا وشارل الخامس نتيجة لطلاق كاترين أركون وانفصال انكلترا عن الكنيسة الكاثوليكية ، واعتناق البروتستانتية .

لكن العلاقات تحسنت بين هنري وشارل بعد اعدام آن بولين ووفاة كاترين اركون وتزوج هنري باميرة انكليزية اخرى ، وزال بذلك العامل الرئيسي في تكدير العلاقات بين الاثنين . وقد تزوج هنري بعد ذلك عدة مرات الى ان وافاه الاجل سنة ١٥٤٧ .

اسبانيا في عهد فيلب الثاني ١٥٥٨ ـ ١٥٩٨

صفاته ومشاكله :

فيلب الثاني هو ابن شارل الخامس ، ولد سنة ١٥٢٧ ، لكنه لم يرث جميع املاك ابيه ، لان عمه فردنند انتخب امراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة وورث ممتلكات آل هبسبرك النمساوية .

اختلفت الآراء في فيلب الثاني ، فقد اعتبره البريطانيون فظا مستبدا لا يحب الخير الا لنفسه . بينما في نظر الاسبان رمز للوطنية الاسبانية وبطلا من ابطال الدين المسيحي وحاميا للحضارة الاوروبية . والسبب في هذا التناقض في الآراء يعود الى ما قام به فيلب من مؤامرات ضد بريطانيا فجلب على نفسه نقمة الشعب الانكليزي . بينما الأسبان عظموه لانه ولد في اسبانيا وسكن بينهم وتكلم بلغتهم ودافع عن الكثلكة ، ونشر الرخاء ، فكانت اسبانيا في عصرها الذهبي خلال حكم فيلب الثاني . وبدأ التدهور في أواخر حياته وبسبب سياسته التعسفية . كان فيلب المانيا من حيث المظهر (وجه احمر جذاب ، وشعر ذهبي ، وعينان زرقاوان) أكثر منه اسبانيا . تزوج من ماريا البرتغالية التي ماتت اثناء ولادة ابن لها « دون كارل » . وكان هذا مجنونا وسفاكا فحبسه والده وقيل انه امر بقتله في السجن ، وقيل ايضا انه مات موتا طبيعيا . وكانت زوجته الثانية ماري تيودور ملكة انكلترا التي شغفت بحبه دون ان يبادلها الحب . لكن زوجته الثالثة اليزابيت فالوا بنت هنري الثاني ملك فرنسا كانت الزوجة المثالية بالنسبة اليه وحزن كثيرا لموتها سنة ١٥٦٨ . وتزوج آن النمساوية بعد ذلك لاغراض سياسية

ولكي ينجب منها ولدا يرث العرش . لكن ابنهما فيلب الثالث لم يستطع ان يشغل مكان والده(١) .

كان فيلب الثاني رجلا مستبدا في الحكم ، مجدا في عمله ويشرف على جميع قضايا الدولة بنفسه . ولكثرة انشغاله بالتوافه من الامور لم يفطن الى الاسس العامة والقضايا الكبرى في الادارة والسياسة . وكان كاثوليكيا مخلصا لعقيدته ، وقد بلغ به إخلاصه درجة التعصب ، فأسس محاكم التفتيش لمحاكمة البروتيستانت وغير المسيحيين . ومن صفاته الاخرى انه كان مرتابا متحايلا تتمثل فيه السياسة الميكافيلية . ولم يكن يلتجيء الى الحرب الا اذا وجد في ذلك ضرورة . وكان يريد حل مشاكله بأساليب دبلوماسية . اما اذا كانت الحرب ضرورة ملحة فلم يكن يتردد في خوضها . وكانت مهمته الكبرى وحدة العالم المسيحي وجعل اسبانيا اعظم دولة في العالم . لكنه فشل في هذه المهمة لان فيلب اراد أن يدير ممتلكاته الواسعة بنفسه فتدخل في جميع الامور في آن واحد . فبينما كان يشرف على القضايا الادارية المعقدة كان عليه ان يدير المستعمرات بروح السياسة التجارية وينفذها في كل من آسيا وافريقيا وامريكا . كما كان عليه ان يقضي على الثورات والاضطرابات التي حدثت في الاراضي المنخفضة ، ويقف في وجه البروتستانتية في كل من انكلترا وفرنسا ، ويناصر المسيحية ضد المسلمين المسيطرين على جنوبي شرقي اوربا وشرقي البحر الابيض المتوسط . والنتيجة كانت كارثة على الدولة الاسبانية ومواردها ، ثم

---

(1) 1 did; pp. 198-203

ينته القرن السادس عشر الا وبدأت عوامل الانحلال تظهر بحيث ان فيلب الثاني نفسه لاحظ ذلك قبيل موته سنة ١٥٩٨ .

سياســته :

كان فيلب الثاني يؤمن بالوحدة الوطنية ، وجعل اسبانيا دولة ذات قوانين موحدة وعادات وتقاليد متجانسة . وهذا يعني تقوية الملكية المطلقة . ولهذا فالوحدة الوطنية في نظره يجب ان تتماشى مع الملكية المطلقة . ولم يعارض فيلب وجود الكورتيز (البرلمان) في البلاد ، وكان الكورتيز يجتمع بين حين وآخر ويوافق على الضرائب الجديدة ، بينما كانت الضرائب القديمة تستمر تكون دخلا سنويا للخزينة دون ان يحاول الغائها ، فوضع بذلك سابقة يسير عليها ملوك اسبانيا فيما بعد . وقد اعتمد فيلب على الطبقة الوسطى وعينهم في الوظائف بدلا من النبلاء في الوقت الذي كان يقرب النبلاء الى البلاط دون ان يكلفهم اموراً هامة .

كان فيلب يواصل اعماله من البلاط مراسلة عن طريق السكرتاريين على ان يؤخذ رأيه في كل صغيرة وكبيرة . ولهذا صارت الاجراءات الحكومية عقيمة وفيها كثير من الاهمال والتقصير ، وقضى على روح الابداع والتجديد عند الموظفين ، وضعفت الادارة المركزية .

ولم تكن حالة اسبانيا الاقتصادية والمالية بأحسن من حالتها السياسية والادارية . فقد وقعت عبء المشاريع الخارجية الكثيرة على قشتالة ، ولم تكن آركون تقدم من المال الا القليل بسبب فقرها . وكان المورد من الاراضي المنخفضة قد انقطع بسبب الثورة التي نشبت هناك .

وقلما كان المورد من الممتلكات الايطاليـة كافيـا لادارتهـا . اما الثروة المتدفقة من مناجم امريكا فاستفاد منها الرأسماليون الاجانب اكثر من الحكومة الاسبانية ، وكانوا معفوين من الضرائب الا اذا ما أرادت الحكومة ان تاخذ ما لديهم من المال احيانا . وقد فرضت ضريبة العشر على جميع المبيوعات فشلت بذلك المشاريع الصناعية في البلد . يضاف الى ذلك أن اضطهاد الموريسكوس (وهم العرب المراكشيين الذين بقوا في اسبانيا وأجبروا على اعتناق المسيحية) واليهود ادى الى نقص موارد الثروة في البلاد ، لان هذه الطبقة كانت تملك الثروة والصناعة . ولهـذا كانت اسبانيا في نهاية القرن السادس عشر على وشك الافلاس .

اما من الناحية الدينية فكان فيلب يرى ان اختـلاف المذاهب والمعتقدات في دولة ما يؤدي حتما الى التفرقة والهدم . ولما كان فيلب يرغب في وحدة الصف وجمع الكلمة لتوحيد اسبانيا فاكد على الكنيسة الكاثوليكية كعقيـدة رسـمية للدولـة لاسـباب سياسية ودينية . اما سياسيا فلان الاسبان والبرتغاليين كانوا كاثوليك وقاموا بنشر العقيدة الكاثوليكية اينما حلوا ، وهذا عامل مسـاعد بحد ذاته لضـم البرتغال الى اسبانيا في المسـتقبل . ولتنفيذ سياسـته الدينيـة كمؤمن مخلص للكثلكة شجع البابا على الاستمرار في اصـلاح الكنيسـة الكاثوليكيه ولا سيما اثناء اجتماع مجمع ترنت في ايطاليا . واسس محاكم التفتيش واستخدمها لتنفيذ سياسته الاستبدادية ، وخاصة من الناحية الدينية . وفي الوقت نفسه حاول القضاء على البروتستانت في فرنسـا وارجاع انكلترا الى حضيرة الكنيسة الكاثوليكية(1) .

---

(1) Idib.

ولتنفيذ سياسته الرامية الى وحدة شبه جزيرة ايبريا ، ادعى فيلب الثاني سنة ١٥٨٠ عرش البرتغال ، باعتبار ان والدته كانت بنت ملك البرتغال ، واقنع عائلة براكنز (التي كانت احق بالعرش من فيلب) بالتنازل مقابل مبلغ ضخم من المال . وهكذا اكتسح الجيش الاسباني البرتغال التي انضمت الى اسبانيا . واعترف فيلب بالمؤسسات السياسية والحقوق الدستورية للبرتغاليين وقرب النبلاء الصغار والمزارعين في ذلك البلد ، لكن هذه الوحدة لم تنل رضا الشعب البرتغالي الذي ظل يرضخ لسيطرة اسبانيا مدة (٦٠) سنة . وفي سنة ١٦٤٠ ، انفصلت البرتغال مرة اخرى واصبحت مستقلة بزعامة عائلة براكنز(٢) .

اضطهاد الموريسكوس وتهجيرهم من اسبانيا :

كانت سياسة فيلب الثاني اذلال المسلمين الترك واخضاع الموريسكوس (كما كان التعبير شائعا في حينه) .

وهؤلاء الموريسكوس هم من بقايا العرب الذين بقوا في اسبانيا واعتنقوا المسيحية تحت ضغط فردناند وايزابيلا ، لكنهم على الاعم الاغلب تمسكوا بدينهم الاسلامي سرا . والدليل على ذلك عدم مسايرتهم الاسبان في معتقداتهم وتطبيق شعائرهم . ويقال ان فيلب الثاني نصح محاكم التفتيش سنة ١٥٦٤ بأن لا تتشدد كثيرا ضد الموريسكوس ، وان تحاول الكنيسة الكاثوليكية تعليمهم شعائر الكنيسة وطقوسها واصول الديانة المسيحية . لكن شيئا من هذا لم يات الى حيز التنفيذ وكان فيلب الثاني كاي حاكم مستبد لم يسمح بمخالفة

---

(٢) المصدر نفسه .

سياسته ، وربط وجود المسلمين في اسبانيا بولائهم للاتراك العثمانيين(٣) .

وفي سنة ١٥٦٦ ، اصدر مرسوما باعادة تطبيق قانون ١٥٢٦ الذي ينص على الغاء اللغة العربية ، والاسماء العربية ، والملابس والحلي العربية والحمامات الشرقية ، ووجوب استخدام القابلات المسيحيات من قبل العوائل الموريسكوس عند الولادة . وفرض على الموريسكوس تعلم اللغة الاسبانية خلال ثلاث سنوات دون تعيين معلمين لهم . وقد عرض بعض القادة والحكام تطبيق هذه السياسة اللاعقلانية من بينهم حاكم غرناطة (دي ميندوزا) و (ديوك اوف الفا) . لكن لم يكن هناك من يثني فيلب الثاني عن عزمه . وبدأ تدمير الحمامات سنة ١٥٦٧ ، وفي كانون الاول ١٥٦٨ ، ثار الموريسكوس وبدأت المذابح ، فقد ذبح الموريسكوس الاسبان ، وذبح الاسبان الموريسكوس . وقال احد الجنود الاسبان بهذا الصدد : « كنا جميعا لصوص ، وكنت اولهم » . ولما حاول احد القادة ان ينهي المذبحة بالتفاهم عزله فيلب واحل اخوه دون جوان قائدا فقضى على الثورة . وشتت العوائل في مختلف انحاء اسبانيا دون ان يسمح لهم بأخذ ممتلكاتهم سوى الاموال المنقولة . وفرضت عليهم القيود اينما حلوا . لكن موريسكوس كانوا صناع وحرفيين مهرة استطاعوا ان يحسنوا احوالهم سرعان ما استقروا في مكان ما ونشروا الرخاء في المنطقة التي سكنوا فيها . ولعل هذا هو السبب الرئيسي في كسب عطف بعض القادة والحكام بان لا يتمادى

(٣) المصدر نفسه .

فيلب في اضطهاد موريسكوس • لكن امرهم لم ينتـه هنا • ففي سنة ١٦٠٩ امر فيلب الثـالث ابن فيلب الثـاني بتهجير الموريسكوس من اسبانيا نهائيا[١] •

معركة ليپانتو بين الاسطول الاسباني والعثماني ١٥٧١ :

وبعد ان قضى فيلب الثـاني على ثورة موريسكوس عيَّن اخوه دون جوان اميرالا على أسـطول الحلف المقـدس المكون من اسبانيا وڤنسيا وبعض المـدن الايطالية • وكان الاسـبان قد اندحروا امـام الاسطول العثماني سنة ١٥٦٤ • وكان فيلب يريد ابعاد الاتراك من المياه المحيطة باسبانيا دون التوغل في شرقي البحر المتوسط والتورط في حرب مستمرة مع الدولة العثمانيـة • وعليه لما اسـتولى الاتراك على قبرص سنة ١٥٧٠ تمكن البابا من ان يعقد حلفا بين ڤنسيا واسبانيا وفي المعركة البحرية العنيفـة دمر اسـطول الحلف الاسطول العثمـاني بالقرب من ليپانتو في تشـرين الاول ١٥٧١ • وكان هـذا الانتصار نقطـة تحول بالنسبة للدولة العثمانية اذ انها لم تستطع بعـد ذلك ان تمارس سياسة توسعية غربا بصورة فعالة • كما أن فيلب لم يستمر في حربه ضد الاتراك في المياه الشرقيـة لان ڤنسيا هي التي تتاجر في هـذه المنطقة ، وكانت ڤنسيا عدوة آل هبسبرگ التقليدي[٢] •

ثورة الاراضي المنخفضة

اسـباب الثورة :

بيَّنا في الفصل الاول ان الاراضي المنخفضـة وقعت تحت سيطرة

---

(١) المصدر نفسه

(٢) المصدر نفسه

امراء برگنديا في القـرن الخامس عشر • وبمقتل شـارل الجسور سنة ١٤٧٧ ، انتقلت الى بنته ماري التي تزوجت من الامبراطور مكسمليان الاول امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة • ولما توفيت ماري سنة ١٤٨١ ، ورثها ابنها فيلب • ولما توفي الاخير سنة ١٥٠٦ ، أصبح ابنـه شارل اميرا على الاراضي المنخفضة • غير ان شارل هذا اصبح ملكا على اسبانيا سنة ١٥١٦ ، بعـد وفاة جده من امـه فردنـنـد ، وامبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة سنة ١٥١٩ ، بعد وفاة جـده الآخر من ابيه مكسمليان •

ومع ان شـارل قضى القسـم الاخير من حياته خارج الاراضي المنخفضة ، لكنه ظلّ حبه للاراضي المنخفضة التي ولد فيهـا وتربى • وظل السكان هنـاك مخلصين له مع شيء من عـدم الرضا • فقد حاول شارل ان يوحد المقاطعات في ظل حكومة مركزية ، لكن واجـه معارضة شديدة ، لان السكان في المقاطعات تعوّدوا على الاستقلال الذاتي ولم يكن من السهل ان يرضخوا لادارة مركزية • وزيادة على ذلك ان شارل فرض ضرائب فادحة على سكان المدن والنبلاء لتفادي نفقـات حروبه الكثيرة ضد فرنسا وأمـراء البروتستانت • وكان سـكان الاراضي المنخفضة بصورة عامـة يريدون السلم والاستقرار لممارسـة تجارتهم وكانت الحروب ضـد مصالحهم الاقتصادية • ومـع ان بوادر الثورة أخذت تتبلور في أواخر حياة شارل ، لكنه اسـتطاع ان يحتفظ بولاء سكان الاراضي المنخفضة ، بسبب الادارة الحكيمة التي كانت تمارسها مارگريت اوف اوستريا وبعدها ماري اوف هنگاريا أختـا شارل اللتان حكمتا الاراضي المنخفضة نيابة عن أخيهما على التوالي •

انتشرت البروتستانتية في الاراضي المنخفضة عن طريق الاجانب الذين سكنوا في المدن الهولندية لكسب المعيشة وتأمين حياة افضل ، فنشروا معتقدات دينية جديدة كآنابابتست ، واللوثرية . وحاول شارل مكافحة الهرطقة وتأسيس محاكم التفتيش حوالي ١٥٥٠ ، فكان ذلك شديدا بالنسبة لشعب تعوّد على الحرية والاستقلال السياسي والاقتصادي ، ولهذا اعتنقوا الكالڤنية . هذا واجراءات أخرى كان شارل يقوم بها أدت الى استياء عام في زمانه . ولما جاء ابنه فيلب الى الحكم أراد ان يشدد في سياسة والده فأثار بذلك معارضة عامة من جميع الطبقات[1] .

كان النبلاء اول من عبّروا عن استيائهم عندما وجدوا ان فيلب يريد تنحيتهم عن المناصب الحكومية ، وسلبهم حقوقهم في المجالس المحلية . وقد جرد فيلب مجلس الدولة عن كل السلطات التي كان يتمتع بها . وقد اتهم فيلب النبلاء بانهم جماعة من المشاكسين الانانيين لا يشعرون بالمسؤولية تجاه الشعب . لكن المسألة كانت اكثر من هذا ، فقد أراد فيلب ان يقضي ليس فقط على امتيازات النبلاء الاقطاعيين ، بل على الحريات الدستورية لسكان المدن وفرض ارادته المطلقة على البلاد .

كما أن فيلب قرر القضاء على الهرطقة واستئصال البروتستانتية وتنظيم الكنيسة الكاثوليكية في الاراضي المنخفضة . لكن الاعتراضات كانت كثيرة . فالنبلاء استاؤا من فقدانهم ثروات الكنيسة ونفوذها . والتجار انتقدوا تدخل رجال الدين في شؤونهم الاقتصادية . وقد طلب

(1) Ibid; pp. 231-232.

سكان مدينة انتويرب من فيلب ايقاف تنظيم الكنيسة وفرض الكاثوليكية عليهم . وقد تحدى فيلب المعارضة القوية بفرض ارادته على الشعب .

وكان فيلب الثاني قد ورث دينا متراكما من عهد والده شارل الخامس بسبب سياسته الخارجية وحروبه المتواصلة البالغة التكاليف . وكان سكان الاراضي المنخفضة يدرفعون حصة الاسد من نفقات ملوك اسبانيا دون ان تكون لديهم اية مصلحة فيها . وكانوا يكرهون وجود جنود الاسبان في بلادهم بعد معاهدة كاتو كامبريسس سنة ١٥٥٩ والتي بموجبها انتهت الحرب بين اسبانيا وفرنسا . وكان على الهولنديين والبلجيكيين دفع نفقات هذا الجيش نقدا وعينا . لقد كان وجود هذا الجيش يمثل سلطة فيلب الثاني في الاراضي المنخفضة .

لم يكن فيلب يدري ماذا يجري حقيقة هناك . فهو لم يزر الاراضي المنخفضة الا مرة واحدة في اول حكمه سنة ١٥٥٩ . وكانت المسافة بعيدة بين مدريد وامستردام أو بروكسل . ولم تكن التقارير الواردة اليه كلها معتبرة . فالقضايا البسيطة التي كانت بالامكان معالجتها لو كان فيلب في مركز الاحداث ، تطورت الى مشاكل معقدة ادت الى ثورة قومية واسعة[1] .

الحاميات الاسبانية في المدن . وقد حاولت الاميرة مارگريت اوف بارما

(1) Ibid; pp. 232-234.

التي كانت حاكما عاما على هولندة ، ان تمنح الهولنديين قسطا أوفر من

كانت المعارضة في بادىء الامر ضد محاكم التفتيش ووجود

الامتيازات بسحب الحاميات الاسبانية من المدن وطرد بعض الموظفين المكروهين من الوظيفة . لكن فيلب كان مصمما على تنفيذ سياسته الدينية وأخبر اخته مارگريت بذلك ، على الرغم من طلب النبلاء ان ليس من المنطق تنفيذ هذه السياسة في الوقت الذي تعم الفوضى في البلاد . ولما أصر فيلب على تطبيق مقترحات مجمع ترنت الكنسي في الاراضي المنخفضة ، اجتمع النبلاء وقدموا عريضة الى الاميرة سنة ١٥٦٦ ، يئنوا فيها ولائهم ولكن حذروها بان الثورة ستنشب في البلاد ان لم تلغ محاكم التفتيش ولم يقم الملك برفع المظالم بحقهم . وقد استمعت الاميرة الى شكواهم اول الامر ولكن احد المستشارين الاسبان أنبأها بأن « ليس هناك ما يستوجب الخوف من هؤلاء المتسولين » ، وكان يقصد به امراء الاراضي المنخفضة . وعلى اثر ذلك سمى الثوار انفسهم « متسولين » واتخذوا « الكيس والكشكول » شعارا لهم ، وقد بعث المتسولون هيئة الى الملك في اسبانيا لعرض شكاويهم ، فوعد الملك في بادىء الامر بتنفيذ مطاليبهم والغاء محاكم التفتيش . لكن سرعان ما تراجع عن وعده ، وقرر تنفيذ سياسته الدينية . عندئذ هجمت الجماهير الغاضبة من البروتستانتيين المتطرفين في الاراضي المنخفضة على الكنائس الكاثوليكية وهدموها ودمروا التماثيل والصور ودنسوا الاديرة ودمروا كتدرائية انتويرپ في صيف ١٥٦٦ .

وقد ردّ فيلب الثاني على ذلك بأن أرسل أشهر قواده « دوق ألفا » على رأس جيش جرار لاخضاع سكان الاراضي المنخفضة . ووصل ألفا الى هناك في آب ١٥٦٧ وبدأ ينفذ أوامر الملك بنشاط وكفاءة . فقد أسس مجلس الثورة للنظر في القضايا الخاصة بالخيانة ، لكن المجلس

تحول الى محكمة عرفية نعتها الناس بمحكمة الدماء • بقي ألفا في الاراضي المنخفضة حاكما عاما لمدة ست سنوات أعدم فيها ثمانية آلاف شخص ، من بينهم عدد من النبلاء الكبار ، وجرد ثلاثين الف شخص من ممتلكاتهم ، وما لا يقل عن مئة الف شخص تركوا البلاد • وقد قام ألفا بجباية العشر الذي فرضه على أسعار جميع البضائع المبيوعة • وكان بذلك يجمع سبعة اعشار ثمن اية بضاعة مبيوعة • فكانت الضرائب وفقدان النظام وانعدام الامن والاستقرار قد ادى الى تدهور اقتصاديات البلاد • وعلى أثر ذلك اتحد سكان المدن البورجوازيين في الجنوب وهم كاثوليك وصناع ، مع نبلاء وتجار الشمال وهم بروتستانت واعلنوا الثورة ضد اسبانيا[1] •

انتخاب وليم اورنج قائدا للثورة :

وجد نبلاء الاراضي المنخفضة من وليم اورنج ١٥٣٣ـ١٥٨٤ امير هولندة وزيلندة سياسيا حازما وقائدا عظيما • وعندما وصل ألفا الى الاراضي المنخفضة كان وليم قد اعتنق البروتستانتية وترك البلاد وسكن في ممتلكاته في « ناساو » في المانيا • وكانت هذه العائلة تملك مقاطعة اورنج في جنوب فرنسا ومنها اشتقت اسم العائلة • وقد صادر ألفا جميع ممتلكاته في هولندة ولما أحرز الثوار بعض الانتصارات الجزئية ، دعوا وليم الى العودة الى البلاد ليقود الثورة سنة ١٥٦٨ •

لقد كان النصر في اول الامر حليف ألفا واسبانيا ، لكن وليم استطاع ان يؤسس قوة بحرية من المتطوعين والقرصان سنة ١٥٦٩ ،

---

(1) Ibid; pp. 234-237.

سميت بمتسولي البحار غايتها مهاجمة السفن الاسبانية . ولما كانت هذه القوة مؤلفة من العصاة والمجرمين فلم تتورع من ارتكاب ابشع الاعمال ضد الكاثوليك والاسبان ، واصبحت نواة البحرية الهولندية وكابوسا يقلق مضجع ألفا والحكومة الاسبانية . وكانوا يشجعون الثوار دائما على الاستمرار في ثورتهم . كما ان وليم أسس جيشا قويا لمواجهة جيش ألفا . ولما لم يستطع الاخير ان يعيد المياه الى مجراها الطبيعي استبدله فيلب بدبلوماسي أقل كفاءة اسمه ريكويزنز Requesens سنة ١٥٧٣ ، لكنه فشل ومات بالتيفوس سنة ١٥٧٦ . وعقب موته ظل الجنود بدون راتب مدة من الزمن فهجموا على بعض المدن وقاموا بنشر الفوضى وارتكاب الجرائم والسلب والنهب . عندئذ اجتمع ممثلو المقاطعات وأبرموا اتفاقية « غنت للسلام » سنة ١٥٧٦ ، أعلنوا فيها مقاومة الاسبان الى ان يلغي الملك محاكم التفتيش ويمنحهم حرياتهم السابقة . وعيّن عندئذ فيلب الثاني أخاه دون جوان حاكما على الاراضي المنخفضة . وقد وجد دون جوان ان التفاهم مع البروتستانت قد فات اوانه ، ومات سنة ١٥٧٨ قبل ان يجد حلا جديدا للمسألة[1] .

وأخيرا وجد فيلب سياسيا قديرا في شخص اسكندر فورنيزا امير پارما في ايطاليا عيّنه حاكما على الاراضي المنخفضة . استطاع فورنيزا ان يحكم الاراضي المنخفضة مدة ١٤ سنة (١٥٧٨-١٥٩٢) . وطبّق هذا السياسة المكياڤلية ، فبذر بذور الشقاق بين المقاطعات الشمالية التي سكانها يتكلمون الالمانية واغلبهم تجار وبروتستانت ، والمقاطعات الجنوبية التي سكانها يتكلمون الفرنسية وهم صناع وكاثوليك .

---

(1) Ibid; pp. 237-238.

فقال فورنيزا للسكان الجنوبيين ، ان ليس هنـاك ما يكدر العلاقات بينهم وبين اسپانيـا لقرابة الدين واللغة • لكن الحـذر كل الحذر من البروتستانت في الشمال الذين يختلفون عنهم لغة ودينا وحرفة • وعندئذ أبرم اتفاقيـة آراز مع ممثلي الولايات العشرة الجنوبيـة سنة ١٥٧٩ للدفاع عن الكثلكة ومصالحـة فيلب الثاني • وفي نفس السنة اجتمع ممثلو المقاطعات الشمالية وعقدوا اتفاقيـة أوتريخت على أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم دفاعا عن حرياتهم المغتصبة وحقوقهم المهضومة ، ويحاربوا ضـد الطغيان الاسپاني لتحقيق حريـة العبادة والتعبير في بلادهم • وهكذا قضيت على اتفاقيـة « غنت للسلام » ، وانقسمت الاراضي المنخفضة الى قسمين متخاصمين • وقد ظـل القسم الجنوبي تحت حكم آل هبسبرگ الاسـپاني اولا ، ثم النمساوي بعـد معاهدة أوتريخت سنة ١٧١٣ • بينما استقل القسم الشمالي واصبح حرا وسمي بهولندة التي أسست لنفسها مكانة ممتـازة بين الشعوب المتمـدنة في اوربا • كانت هولندة اكثر ثروة ورخاء من بلجيكا لمدة طويلة • فقـد دمرت الحـروب والخصومات القسم الجنوبي من الاراضي المنخفضة (بلجيكـا) • وبِسَدْ الهولنديين مجرى نهر الشيلت والسيطرة على البحار المجاورة قضوا على اقتصاديات بلجيكا ووجهوا ضربة قاضية الى ميناء آنتويرپ ، وانتقلت السيطرة التجـارية والصناعية الى مدينة آمستردام في هولندة(١) •

لقد استمرت الحروب والمنازعات بين اسپانيا وهولندة مدة طويلة ، وكان فورنيزا يعتقد انه يستطيع اخضـاع الشمال بالقوة كما استطاع

(١) المصدر نفسه ـ ص ٢٣٨ـ٢٤٤

اخضاع الجنوب بالدهاء والسياسة • لكن الهولنديين فازوا بالنصر النهائي ونالوا استقلالهم لاسباب كثيرة :

(١) طبيعة الاراضي في هولندة لم تكن تصلح للحركات العسكرية لوجود القنوات الكثيرة التي تؤلف شبكة تصلح ان تكون خطوطا دفاعية بفتح السد الموجود على نهر الشيلت وغمر الاراضي بالمياه •

(٢) مهارة الهولنديين في الملاحة وتنظيمهم حركة القرصنة وهجماتهم المتواصلة على السفن الاسبانية وتجارتها ومستعمراتها عبر البحار • واصبحت بعد مدة قصيرة مهاجمة السفن الاسبانية في البحار مهنة تمارسها الدول والجماعات •

(٣) كان الهولنديون يعتمدون في حروبهم على الجنود المرتزقة في الوقت الذي كرسوا جهودهم الى التجارة وتطوير البلاد اقتصاديا ، فانتشر الرخاء واصبحت هولندة دولة تجارية واستعمارية كبرى في اوروبا كما اصبحت امستردام من اكبر المدن التجارية في العالم •

(٤) كانت سياسة وليم اورنج الحربية تنطوي على عدم التصادم مع الاعداء في الاراضي المكشوفة • كما ان الجيش الاسباني كان معرضا باستمرار لهجمات اعدائهم الى أن عجزوا •

(٥) حصلت هولندة على مساعدات كثيرة من العالم الپروتستانتي وخاصة المانيا وانكلترا والپروتستانتيين الفرنسيين •

(٦) واخيرا كان لفيلب الثاني مشاريع كثيرة أراد تنفيذها في آن واحد فلم يستطع انجاز اي من هذه المشاريع على الوجه الاكمل • فبينما كان في صراع عنيف مع هولندة اعلن الحرب على الملكة اليزابيث

ملكة انكلترا ، كما كان يتدخل في شؤون فرنسا الداخلية الامر الذي ساعد الهولنديين على ان يدبروا أمورهم ويحرزوا الانتصار[1] .

وفي سنة ١٥٨١ ، اعلن فيلب الثاني ان وليم اورنج خائن خارج على القانون ووضع مكافأة لمن يأتي به حيا او ميتا . وكان رد وليم ان قدم اعتذارا يفند فيه الاتهامات الموجهة اليه . ثم جمع ممثلي المقاطعات الشمالية في لاهاي وهناك قرروا انفصالهم عن التاج الاسپاني واعلنوا ان ليس للملك اية سلطة عليهم . وتعتبر وثيقة لاهاي في ١٥٨١ بمثابة اعلان الاستقلال الهولندي . ومع ان وليم اورنج اغتيل من قبل عميل اسپاني سنة ١٥٨٤ ، فان الهولنديين استمروا في كفاحهم بقيادة موريس ابن وليم اورنج ضد فيلب الثاني الذي رفض ان يمنحهم الاستقلال . وكانت العلاقات قد توترت بين انكلترا واسپانيا كثيرا في هذا الوقت ، وخاصة بعد ان تمكن اسكندر فورنيزا ان يحتل انتويرپ ويسلبها من الهولنديين سنة ١٥٨٥ . وبدأت مساعدات انكلترا لهولندة واستمرت الحرب بصورة متقطعة الى سنة ١٦٠٩ ، عندما اضطر فيلب الثالث أن يعقد هدنة مع الهولنديين لمدة ١٢ سنة وبموجبها حصلت هولندة على أكثر مما كانت تتوقع ، لكن الاعتراف بهولندة كدولة مستقلة تأجلت الى سنة ١٦٤٨ .

وقد اتفقت المقاطعات السبعة الشمالية على تكوين دولة اتحادية خاضعة الى برلمان يمثل المقاطعات وحاكم عام وراثي من عائلة اورنج ، بينما تحافظ كل مقاطعة على ادارتها المحلية الخاصة بها . وقد حدث

---

(١) المصدر نفسه . ص ٢٤٤ـ٢٤٦

النزاع الدستوري بين الحاكم العام والبرلمان ، استمر خلال القرن السابع عشر ، وكانت الطبقة الرأسمالية واغنياء المدن يؤيدون البرلمان ويرغبون في ادارة اوليگاركية من شأنها قلة تدخل الحكومة المركزية في شؤون الولايات • بينما كانت الطبقة الفقيرة تؤيد الحكام وتساعدهم في تأسيس حكومة ملكية دستورية بزعامة عائلة اورنج مع برلمان عام كما هي الحالة في انگلترا • وخلال القرن السابع عشر كانت هولندة دولة برلمانية جمهورية مع قدر كبير من الحريات الفردية الممنوحة للشعب ورخاء اقتصادي لم يسبق له مثيل •

لقد كان منتصف القرن السابع عشر عصر هولندة الذهبي في ظل النظام الجمهوري • وكان رئيس الجمهورية جون دي ويت Dwitt ١٦٥٣–١٦٧٢ ، يحظى بتأييد سكان المدن الذين ساندوا الجمهورية • لكن اعتداء لويس الرابع عشر على هولندة سنة ١٦٧٢ ، أثار سخط الشعب فقتلوا دي ويت وأيدوا الحاكم الجديد وليم اورنج حفيد وليم الصامت قائد الثورة الهولندية ، وكان وليم هذا يؤيده سكان الارياف منذ القديم ، ومنحه الشعب الهولندي صلاحيات واسعة لمواجهة اعتداء لويس الرابع عشر الذي لم يستطع النظام الجمهوري السابق ان يمنعه ، وفقدت هولندة مستعمراتها • وقد ظل النظام البرلماني في هولندة بعد وفاة وليم اورنج سنة ١٧٠٢ • وترسخت الملكية في القرن الثامن عشر في عائلة اورنج • ولا تزال هذه العائلة تحكم هولندة حكما دمقراطيا برلمانيا على غرار النظام الانگليزي • أما بلجيكا فظلت تحت سيطرة اسبانيا ثم النمسا ، ونالت استقلالها سنة ١٨٣٩ بعد ان نشبت ثورة هناك ضد هولندة سنة ١٨٣١ •

انكلترا في عهد الملكة اليزابيث
١٥٥٨ - ١٦٠٣

توفيت ماري تيودور بنت هنري الثامن وزوجة فيلب الثاني ملك اسپانيا سنة ١٥٥٨ ، فانتقل العرش الانكليزي الى اختها اليزابيث من آن بولين . وكان لفيلب الثاني دورا في حماية اليزابيث وانتقال العرش اليها أملا بان يتزوجها بعد وفاة زوجته ماري .

كانت اليزابيث مستبدة متغطرسة ، لكنها اشتهرت بالذكاء النادر وقوة العزيمة . وأظهرت كفاءة ممتازة في الادارة والسياسة لم تتوفر الا في القليل من حكام اوربا المعاصرين لها ، وكانت لشخصيتها الجذابة أثر كبير في كسب احترام ومحبة وزرائها ومستشاريها .

لقد اتبعت اليزابيث السياسة المكياڤيلية المبنية على المكر والخداع . وحاول فيلب الثاني ان يتقرب اليها عن طريق الزواج لكنها رفضت . وقد أعلنت پروتستانتيتها وقوميتها الانكليزية تمشيا مع التيار الصاعد في انكلترا في ذلك الوقت . وقد توترت العلاقات بينها وبين فيلب الثاني عندما ساعدت اليزابيث الثوار الپروتستانتيين في الاراضي المنخفضة ضد اسپانيا ، وشجعت القرصنة في البحار ومهاجمة التجارة الاسپانية . عندئذ دبر فيلب الثاني المكائد لخلعها وقتلها . وأخذ يرشي الناس في انكلترا وفرنسا وارلندة ويغريهم بالمال للقيام بالمؤامرات ضدها . ووجد من ماري ستيوارت ملكة اسكتلندة آلة لتنفيذ مآربه(١) .

---

(1) Lunt, W. E. History of England, (Harper, 1957) pp. 335-351

ماري ستيوارت :

ولدت ماري ستيوارت بنت جيمس الخامس ملك سكتلندة سنة ١٥٤٢ ، وهي حفيدة مرگريت أخت هنري الثامن ملك انكلترا ، ولهذا كانت ماري ستيوارت مرشحا للعرش الانكليزي بعد وفاة اليزابيث التي لم تتزوج . وفي الوقت نفسه كانت ماري تنتمي بصلة القرابة لعائلة گيز الفرنسية ، وقد حاول هنري الثامن ان يزوج ابنه ادوارد السادس من ماري بغية توحيد الجزيرة البريطانية ، لكن العلاقات بين البلدين انگلترا وسكتلندة توترت الى درجة بسبب سوء سياسة هنري الثامن تجاه سكتلندة ، ومحاولته ضمها الى انكلترا بالقوة ، وفرض البروتستانتية عليها ، بحيث أرسل السكتلنديون الطفلة ماري الى باريس لتتربى في بلاط ملوك فرنسا .

لقد تعرضت انگلترا في هذا الوقت الى خطر غزو سكتلندي فرنسي ، لان الحرب انتهت بين اسپانيا وفرنسا بمعاهدة كاتوكامبريسس سنة ١٥٥٩ . وكانت ماري ستيوارت قد تزوجت من فرنسوا الثاني الذي اصبح الآن ملكا على فرنسا . أما سكتلندة فكانت تحكمها الوصية والدة ماري ستيوارت يساندها الجيش الفرنسي . ولما كان فرنسوا الثاني لا يزال قاصرا ، عمره (١٥) سنة ، سيطر على الحكم مستشاروه ومن بينهم اثنان من عائلة الگيز المتنفذة ، أخوال ماري ستيوارت . وقد أراد هؤلاء تنصيب ماري ستيوارت ملكة فرنسا ملكة على انگلترا ايضا باعتبارها الوريث الشرعي . وقد ادعى هؤلاء ان كاترين آرگون هي الزوجة الشرعية لهنري الثامن لان البابا كليمنت السابع رفض منح الطلاق ولهذا فزواج آن بولين لم يتم بحسب

القانون الكنسي وان اليزابيث من آن بولين بنت غير شرعي لهنري الثامن . لقد كان هذا التفسير منطقيا ومقبولا لدى الكاثوليك في اوربا لان البروتستانتية في نظرهم هرطقة . ومع ان فيلب الثاني أراد بقاء انگلترا كاثوليكية ، لكنه لم يرغب سيطرة فرنسا عليها .

وقد ساعدت الاحداث الملكة اليزابيث فتخلصت من خطر الغزو عندما نشبت ثورة پروتستانتية في سكتلندة سنة ١٥٥٩ . فقد رجع جون نوكس تلميذ جون كالڤن من سويسرا الى بلاده وبدأ ينشر عقيدة كالڤن في سكتلندة ، واعتنق عدد كبير من السكتلنديين البروتستانتية . كما ان الحركة القومية السكتلندية اصبحت قوية ضد السيطرة الفرنسية ووحدت الكاثوليك والپروتستانت السكتلنديين ، وطلب الثوار المساعدة من الملكة اليزابيث . ومع ان مساعدة اليزابيث تعني تقوية القضية البروتستانتية في اوربا وجلب عطفهم ، لكنها لم تكن تخلو من المخاطرة باتحاد الكاثوليك ، وخاصة اسپانيا وفرنسا ضد انگلترا . وفي ١٥٦٠ قررت الملكة اليزابيث مساعدة السكتلنديين فتغلب الجيش الانگليزي السكتلندي على الجيش الفرنسي ، وبموجب معاهدة ادينبرة بين الوصية والانگليز وافقت الوصية على انسحاب الجيش الفرنسي شريطة انسحاب الجيش الانگليزي من سكتلندة . وعندئذ الغى البرلمان السكتلندي الكاثوليكية واصبحت البروتستانتية الكنيسة الرسمية . وقد زال الخطر الفرنسي بموت فرنسوا الثاني في نهاية سنة ١٥٦٠ ، فلم يبق لارملته ماري ستيوارت اي أمل في فرنسا فرجعت الى سكتلندة سنة ١٥٦١ ، وعمرها ثمانية عشر سنة .

وجدت ماري ستيوارت الكاثوليكية ان الشعب السكتلندي بروتستانتي وميال الى انكلترا . فاستخدمت منتهى الذكاء والفطنة للتغلب على المشاكل . وكانت ماري في منتهى الذكاء والجمال ، فاستخدمتهما في استمالة كل من اتصل بها ، وحاولت كسب ود الشعب السكتلندي ، فأهملت الفروق الدينية واكدت على الناحية القومية وبذلك نالت بعض النجاح . وفي سنة ١٥٦٥ تزوجت ماري من لورد دارنلي Darnley الكاثوليكي والذي كان ينتمي بصلة القرابة للعائلة المالكة الانكليزية وبذلك عززت ماري طلبها بالعرش الانكليزي[١] .

وفي هذا الوقت بالذات كانت الكنيسة الكاثوليكية في ايطاليا قد انتهت من اصلاحاتها ، وقررت في نهاية جلسات مجمع ترنت (١٥٦٣) ان تكافح البروتستانتية واتخذت من فيلب الثاني ملك اسپانيا الزعيم الذي يستطيع القيام بالمهمة . ووجد فيلب انه قبل البدء بأي عمل من الضروري القيام بثورة دبلوماسية بتأجيل كل القضايا الاخرى لغرض القضاء على البروتستانت . وكخطوة اولى عقد مؤتمر في بوين في جنوب فرنسا سنة ١٥٦٥ ، بين الملكة الفرنسية كاترين مديتشي الوصية على العرش ، وممثل فيلب الثاني ملك اسپانيا ، وما دار هناك بين الجانبين ظل سرا ، لكن المؤتمر انهى الخلاف بين اسپانيا وفرنسا ووجه الجهود للقضاء على البروتستانتية في انگلترا وفرنسا وهولندة . ومعنى هذا بالنسبة لانگلترا مساندة اسپانيا وفرنسا لماري ستيوارت .

---

(١) المصدر نفسه

المنخفضة في هذا الوقت ، واضطر فيلب الثاني ان يرسل قوة كبيرة الى هناك لاخماد الثورة ، وانشغل بذلك مدة طويلة . كما ان الثورة الدينية حدثت في فرنسا وتطورت الى حرب اهلية انتهت سنة ١٥٨٩ .

ومرة اخرى ساعد الحظ الملكة اليزابيث فقد حدثت ثورة الاراضي

أما في سكتلندة فقد أزاحت ماري ستيوارت الستار عن عقيدتها الكاثوليكية علنا ، وبذلك ابتعد عنها البروتستانت . اما زوجها دارنلي، فكان غيورا متكبرا واحمقا فلم يساعد زوجته ماري في مفاوضاتها مع الدول الكاثوليكية ، وعاملها معاملة قاسية ، فاضطرت ماري ان تعتمد على سكرتيرها داڤيد ريزيو Rizzio ، الامر الذي أثار غيرة دارنلي الى حد الجنون وبتحريض من اللوردات البروتستانت ، قتل دارنلي ريزيو أمام عيني ماري ستيوارت . وبعد مصالحة بين الملكة وزوجها دامت فترة وجيزة انجبت ماري خلالها ولدا سنة ١٥٦٦ ، سمته جيمس . وقد استمر دارنلي في تصرفاته اللاعقلانية ضد زوجته بحيث التمست العون من احد مستشاريها المخلصين بوثويل Bothwell وقد دفعتها معاملة زوجها الى ان تقع في حب بوثويل الذي لم يتردد من قتل دارنلي واختطاف ماري وطلاق زوجته ، ورجوعه الى ادنبرة والزواج من ماري ستيوارت بحسب الطقوس البروتستانتية .

لقد فقدت ماري كل المساعدات على أثر هذه الاحداث واصبح الشعب السكتلندي ضدها . وقد استطاعت القوات البروتستانتية التغلب على قوات بوثويل وأسر ماري ستيوارت التي تنازلت عن العرش لابنها جيمس . وقد احتجزت ماري مدة لكن مؤامرة دبرت ساعدتها على الفرار الى انگلترا سنة ١٥٦٨ . لم ترغب اليزابيث تسليم

ماري الى اعدائها البروتستانتيين ولا أن تساعدها ضد اعدائها ، بل وضعتها في قلعة كانت سجنا لها بقية حياتها .

لكن ماري في السجن لم تكن اقل خطرا من ماري لما كانت ملكة على سكتلندة . فقد ثار الكاثوليك بقيادة نورفولك في شمال انكلترا سنة ١٥٦٩ ، بأمل اذا نجحت الثورة يتزوج نورفولك ماري ستيوارت ويصبح ملكا على انكلترا ويفرض العقيدة الكاثوليكية على البلاد . وكان النبلاء الذين ايدوا « ديوك اوف نورفولك » استاؤا من تضاءل نفوذهم وقلة نصيبهم في وظائف الدولة وسيطرة اللورد سيسل على الحكومة وازدياد نفوذه . لكن الباعث الديني هو الذي دفعهم الى الثورة وتأييد نورفولك . وكان فيلب الثاني يشجع نورفولك على الثورة عن طريق سفيره في لندن . لكن الثورة انهارت قبل ان تبدأ ، لان الانكليز الكاثوليك رفضوا ان يثوروا ضد حكومتهم ، كما ان المساعدات الاسپانية لم تتحقق . فانهزم قادة الثورة ، وانتقمت اليزابيث من الاتباع . كما ان الحكومة السكتلندية قبضت على القادة الثائرين وسلمتهم الى الملكة اليزابيث ليواجهوا مصير اتباعهم .

وفي سنة ١٥٧٠ ، اصدر البابا امر الحرمان بحق اليزابيث ونشر الامر في انكلترا نفسها . ولو صدر الحرمان قبل الثورة لكان تأثيره اكثر بالنسبة للكاثوليك الانكليز . لكن صدوره بعد انتهاء الثورة كان له تأثير معاكس بأثارة الحقد والبغضاء ضد الكاثوليك . وفي سنة ١٥٧١ قام احد الصيرفيين الايطاليين واسمه ريدولفي بمؤامرة بموافقة البابا وفيلب الثاني لقلب نظام الحكم في انكلترا وذلك بأن تتزوج ماري ستيوارت من نورفولك (الذي تخلى عن الثوار في الثورة السابقة

وخلص نفسه بذلك من الاعدام) ويتبوأ العرش الانكليزي بمساعدة قوة اسپانية ترسل لهذا الغرض • وقد اكتشف اللورد سيسل المؤامرة منذ البداية وتركها تتبلور الى ان جمع خيوطها كلها في يده عندئذ طرد السفير الاسپاني ، وقبض على المتآمرين وعلى رأسهم نورفولك وأعدمهم • وقد اقتنع البرلمان بان حياة اليزابيث في خطر طالما بقيت ماري ستيوارت فطلب اعدامها لكن اليزابيث رفضت • ولمدة ما بعد ذلك انقطعت المؤامرات الى سنة ١٥٨٤ •

كانت الملكة اليزابيث تساعد الثوار الپروتستانتيين في الاراضي المنخفضة سرا وعن طريق الپروتستانتيين الفرنسيين احيانا • لكن انقسمت الاراضي المنخفضة سنة ١٥٧٩ الى الجنوبيين الكاثوليك الموالين لاسپانيا ، وشماليين پروتستانت قرروا النضال لاجل الاستقلال• ولمدة ما حاولت اليزابيث ان تساعد الپروتستانتيين في الشمال وتطلب من اميرانجو أخو الملك الفرنسي الصغير ان يساعد الهولنديين مقابل تعيينه حاكما على هولندة بعد الانتصار • لكن لسوء الحظ توفى هذا الامير ، كما ان وليم اورنج قائد الپروتستانت اغتيل سنة ١٥٨٤ • فلم يبق المجال لأليزابيث الا ان تساعد الهولنديين علنا لان غزو اسپانيا لهولندة يعقبه غزو انكلترا •

وفي سنة ١٥٨٥ أرسلت اليزابيث الجيش الى هولندة لمساعدة المقاطعات السبعة الپروتستانتية ضد اسپانيا • وكان فيلب الثاني قد دبر مؤامرة يقوم بها الكاثوليك لقلب نظام الحكم في انكلترا وقتل اليزابيث وارتقاء ماري ستيوارت العرش الانكليزي • اكتشف والشنگهام ، أحد وزراء اليزابيث المؤامرة فقبض على المتآمرين

وأعدمهم سنة ١٥٨٦ . عندئذ وجد البرلمان ان لا استقرار في البلاد طالما ظلت ماري ستيوارت على قيد الحياة . وعليه قرر البرلمان الانكليزي اعدام ماري ستيوارت ووافقت اليزابيث على ذلك فأعدمت سنة ١٥٨٧ .

لقد كانت المؤامرة الاخيرة آخر سلاح بيد فيلب الثاني لاخضاع انكلترا ، فلما فشل في ذلك اعلن الحرب عليها .

حرب الارمادا ١٥٨٨ :

وجد فيلب الثاني انه لا يستطيع حكم هولندا وامريكا والمحافظة على الطرق التجارية الا باخضاع انكلترا . وكان الانكليز يهاجمون السفن الاسپانية ومستعمراتها منذ مدة . وكان السير فرانسيس دريك اول من سلب السفن الاسپانية من بضائعها من الفضة والذهب ، وقادها الى الموانيء الانكليزية . ولم يقل ريچارد هوكنز ووالتر رايلي عن دريك في القضاء على الاحتكار الاسپاني البرتغالي للتجارة والمستعمرات .

ولكي ينتقم فيلب الثاني من الانكليز أعد اسطولا عظيما لم يشهد العالم المسيحي مثله سابقا . فكان الاسطول مؤلف من ١٣٠ سفينة ضخمة وثمانية آلاف بحار و(١٩) الف جندي على ان يلتحق به اسكندر فرتيزا حاكم الاراضي المنخفضة بعدد اضافي آخر قدره (٣٣) الف جندي . لكن فيلب أخطأ في ظنه ان انكلترا انقسمت على نفسها بسبب النزاع بين الكاثوليك والپروتستانت . فقد تغلب العامل القومي على المعتقدات الدينية واتحدوا يدا واحدة للدفاع عن البلاد ، كما ان الاسطول الانكليزي مع قلة عدد سفنه وصغر حجمها كان سهل الانقياد سريع الحركة أربك الاسطول الاسپاني وسفنه الضخمة الصعب الانقياد.

يضاف الى ذلك كان للانكليز ملاحين مهرة وبحارة جربوا الحرب في البحار ، وخاصة الانقضاض على السفن الاسپانية ، وتفوقوا على الملاحين الاسپان في هذا المجال • وقد تحطمت السفن الاسپانية في زوبعة بحرية قوية في البحار المحيطة بانكلترا وخاصة في السواحل الصخرية لاسكتلندة • وبفشل الارمادا تحررت هولندا ، وزال الاحتكار الاسپاني للتجارة والمستعمرات ، كما كان اول خطوة لسيادة بريطانيا على البحار[1] •

استقرت انكلترا بعد حرب الارمادا ، وأصبحت سكتلندا دولة صديقة • كما ان سكان ويلز اعتبروا عائلة تيودور عائلة ويلزية ، لان هنري السابع ملك انكلترا كان اصلا من ويلز • اما الثورات التي حدثت في ارلندة فقضت عليها اليزابيث بسهولة •

فرنسا في عهد الحروب والمذابح الدينية

١٥٥٨ ـ ١٥٩٨

توفي فرنسوا الاول سنة ١٥٤٧ ، وخلفه ابنه هنري الثاني فأكثر من سلطة الملك وتوسع شرقا نحو الراين على حساب الاراضي الالمانية، وقد تزوج من كاترين مديتشي الفلورنسية التي اشتهرت بالذكاء والمقدرة الفائقة في الحيل والخداع تتناسب مع قبح وجهها وضخامة جسمها • وقد استمرت الحرب في زمانه بين فرنسا والامبراطورية

(1) Travelyan, G. M. History of England (Longman, 1958) pp. 323-360

الرومانية المقدسة واسپانيا الى أن انتهت بمعاهدة كاتوكامبريسس سنة ١٥٥٩ ، وبموجبها حصلت فرنسا على المدن الالمانية ميتز وتول وڤيردون الحصينة ، بينما تمت سيادة اسپانيا على ايطاليا والاراضي المنخفضة . وقد لقي هنري الثاني مصرعه في مباراة بالاسلحة مع قائد حرسه باصرار من الملك نفسه في تموز من تلك السنة . فاضطرت كاترين مديتشي ان تشترك في الحكم مع اولادها الضعفاء فرنسوا الثاني ١٥٥٩ ــ ١٥٦٠ ، وشارل التاسع ١٥٦١ ــ ١٥٧٤ ، وهنري الثالث ١٥٧٤ ــ ١٥٨٩ .

لقد وجدت كاترين ان مركزها ومركز اولادها مهدد بامور ثلاثة :

(١) انتشار البروتستانتية في فرنسا والتي كانت تسمى بهيگونوت

(٢) توسع نفوذ النبلاء الكبار وخاصة عائلتي الگيز والبوربون

(٣) تدخل فيلب الثاني ملك اسپانيا في شؤون فرنسا .

(١) الهيگونوت (البروتستانت) :

نمت البروتستانتية الكالڤنية وانتشرت في فرنسا بسرعة فائقة في اواسط القرن السادس عشر بحيث شملت ٣٠٪ من الفرنسيين . وبحلول الستينات من القرن المذكور بدأ النبلاء ينضمون الى الكنيسة البروتستانتية . وكان جون كالڤن حريصا على جلب النبلاء الفرنسيين الى حضيرته ، فلم تمر مدة طويلة حتى اصبح النبلاء هم المسيطرين على الاجتماعات الكنسية البروتستانتية . وتمت السيطرة السياسية والعسكرية لما انضم كوليني اميرال البحر الفرنسي ، وكوندي قائد الجيش الفرنسي من عائلة البوربون ، فرع العائلة المالكة ، الى الكنيسة البروتستانتية .

ومع وجود النفوذ السياسي والعسكري لهؤلاء لكنهم لم يرغبوا في خلق المشاكل للعائلة المالكة او وضع حد لسلطة الملك • وكل ما أرادوه هو حرية العبادة بحسب الطقوس البروتستانتية • اما كوندي الذي كان ينتمي الى عائلة بوربون فكان يرغب في الانضمام الى مجلس الوصاية خلال المدة الى ان يبلغ الملك سن الرشد • لقد كان الاثنان كوليني وكوندي يسيطران على حركة ثورية ذات تنظيم سياسي وعسكري وديني وكان فرنسوا الثاني ملك فرنسا قاصرا لما توفى والده فأصبح آلة بيد أخواله من عائلة الگيز • ولما مات في كانون الاول ١٥٦٠ ، خلفه اخوه شارل التاسع البالغ من العمر عشر سنوات ، فانتهزت كاترين مديتشي الفرصة وأخذت تحكم بالنيابة عن ابنها •

كانت غاية كاترين المحافظة على وحدة فرنسا وبقاء الملكية في اولادها • وقد منحت البروتستانتيين حرية العبادة سنة ١٥٦٠ ، على ان يتخلوا عن التنظيم العسكري ، لكن وجدت ان التسامح لا يقل صعوبة عن المحافظة على وحدة الصف ومنع الانشقاق • ومع ان الهيگونوت كانوا أقلية في فرنسا لكنهم كانوا من خيرة الطبقة الوسطى الغنية المثقفة • وكان اغلبهم من أصحاب النفوذ والمناصب العالية في الدولة منذ عهد فرنسوا الاول • غير ان تأكيدهم على المطالبة بالتسامح الديني لانفسهم واجتماع البرلمان بصورة منتظمة وسيطرة ممثلو الشعب على خزينة الدولة كان يتعارض مع تعاظم الملكية المطلقة والوحدة الوطنية ، ولهذا شنوا حملات كثيرة على البروتستانت واضطهدوهم في كل مكان• كما حدثت مذابح وحروب دينية استمرت من ١٥٦٢ الى ١٥٩٣ ، كانت الغاية منها القضاء على البروتستانت •

(٢) النبــلاء :

كانت العائلتان الرئيسيتان همـا الكيز والبوربون اللتان تنازعتا السلطة مع العائلة المالكة . اما عائلة البوربون فكانت تنحدر من لويس التاسع (التقي) ملك فرنسا في القرن الثالث عشر ، ولهذا كانت فرعا من العائلة المالكة . وكان رأس هذه العـائلة في زمن هنري الثاني وكاترين مديتشي اسمه « أنتوني » الذي كان ملكا على مقاطعة نافار بين فرنسا واسبانيـا . وقد بيّنا ان أخوه الاصغر كوندي اصبح پروتستانتيا . وبموت ملوك فرنسـا اولاد هنري الثاني واحدا بعـد الآخر دون ان يتركوا وريثا للعرش اصبحت عائلة البوربون الوريث الوحيـد للعرش الفرنسي بموجب القـانون الذي ينص على عـدم توليـة الانثى عرش فرنســـا (Salic Law) . وكان انتوني المار الذكر قد تزوج من ملكة نافار فاصبح هو ملكا عليها علما بان الجزء الجنوبي من المقاطعـة الحقت باسپانيـا سنة ١٥١٢ . وكان أخوه لويس أمـيرا على مقاطعة كوندي واشتهر بالشجاعة والاخلاص ، وكان كلاهما پروتستانتيان .

اما عائلة الكيز فقد انحـدرت من دوق اللورين ، وكانت مقاطعة اللورين جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، لكن اميرهـا كان ميالا الى فرنسا واتصل ببلاط فرنسوا الاول واستطاع ان يحصل على مدينة ميتز من الامبراطور وكاليه من انكلترا وألحقهمـا بفرنسا ، فنال بذلك شعبية عظيمة بين الفرنسيين . وقد ظل دوق اللورين كاثوليكيا ، كما ان اخاه كان كادينالا اشتهر بالثروة والبذخ .

وازداد نفـوذ هذه العائلة في زمن هنري الثـاني لاشتراكهم في الحروب ضـد شـارل الخامس وفيلب الثـاني وتحريضهم الملك على

مكافحة البروتستانت ، وتزويج احدى قريباتهم (ماري ستيوارت) من فرنسوا الثاني ولي العهد . لكن لما مات فرنسوا الثاني سنة ١٥٦٠ ، لاقت عائلة الگيز معارضة عنيفة ليس فقط من عائلة البوربون المنافسة لها بل من الملكة كاترين مديتشي التي أنحت دوق الگيز من مجلس الوصاية .

خشيت كاترين من طمع عائلة الگيز وتزايد نفوذ البروتستانت ، فدبرت سلسلة من المذابح والحروب الداخلية بين المتحمسين من اتباع الگيز الكاثوليك والبوربون البروتستانت . وكانت تساند هذه الجبهة حينا والجبهة الثانية حينا آخر حتى بلغ عدد المذابح ثمانية انتهت كلها بمنح الامتيازات للبروتستانت . وكان أعنفها مذبحة سنت برثولوميو في ٢٤ آب ١٥٧٢ . كانت كاترين مديتشي تخشى من نفوذ الادميرال كوليني الذي سيطر على الملك بمقدرته الفائقة وشخصيته المحترمة ، فطلبت مساعدة عائلة الگيز واقنعت ابنها شارل باصدار مرسوم بافناء البروتستانت . وكانت الاشارة للبدء بالمذبحة دق الاجراس في كنائس باريس في الساعة الثانية بعد منتصف ليلة ٢٤ آب ١٥٧٢ ، فاستمرت المذبحة في باريس طوال ذلك اليوم اما في الاقاليم فاستمرت عدة اسابيع . فقتل حوالي (١٠) آلاف بروتستنتي من بينهم زعيمهم الادميرال كوليني . ولم يترددوا في قتل النساء والاطفال والعجزة . لكن لم تقض المذبحة على البروتستانت ولا أثبطت عزائمهم ، وانقسمت فرنسا نتيجة لذلك الى قسمين ، قسم أكد على ان المذبحة لم تستمر لتقضي على جميع البروتستانت ، وهم اتباع عائلة الگيز . والقسم الآخر وقفوا ضد المذبحة وعارضوا استخدام السلاح واساليب العنف

للاغراض الدينية ، وهم الكاثوليك المعتدلين الذين كونوا حزبا سياسيا لهذا الغرض سموا بالپوليتيك يعني السياسيين ، ولاموا عائلة الگيز في استخدام سياسة عدم التسامح واللجوء الى الحروب الدينية لتحقيق الاغراض السياسية[1] .

ولما تفاقمت الامور اصبح اولاد كاترين الضعفاء غير قادرين على ادارة الدولة . ونشبت الحرب الاهلية بين عائلة الگيز والبوربون والعائلة المالكة سميت بحرب هنري الثلاث ، هنري دوق الگيز ، وهنري ناڤار رئيس عائلة البوربون ، وهنري الثالث ملك فرنسا ، استمرت الى سنة ١٥٨٩ ، قتل فيها دوق الگيز ، وتوفى ملك فرنسا هنري الثالث دون ان يترك وريثا فانتقل العرش الى هنري ناڤار رأس عائلة البوربون فاصبح ملكا على فرنسا باسم هنري الرابع سنة ١٥٨٩ . وكان فيلب الثاني يساعد دوق الگيز الكاثوليكي بينما كانت الملكة اليزابيث تساعد هنري ناڤار والپروتستانتيين . وبمجيء هنري الرابع الى الحكم بدأ عصر جديد هو عصر تعاظم فرنسا في القرن السابع عشر وتدهور اسپانيا والبرتغال .

---

(1) Green, op. cit; pp. 247-266.

الفصل السادس

اوربا في القرن السابع عشر

اوربا في سنة ١٦٠٠ :

ساد أوربا سلام نسبي في مطلع القرن السابع عشر بعد ان شاهدت ما يقارب قرنا من الحروب الدينية والخصومات السياسية . ولم يكن الناس قد اوجدوا حلولا للمسائل التي أدت الى هذه الحروب والمنازعات ، ولذا كان من المنتظر ان تشتعل نار حرب ضروس لم تشاهد اوربا مثلها من قبل الا وهي حرب الثلاثين سنة . ففي فرنسا اعتلى هنري الرابع العرش واستمرت الحرب الاهلية بين الكاثوليك والپروتستانت ولم تنته الا بمنح الاخير امتيازات خاصة بموجب مرسوم نانت سنة ١٥٩٨ ، وعندئذ ساد السلام في البلاد . وفي انكلترا اتجهت المنافسات التجارية والاستعمارية بين انكلترا واسپانيا بعد سنة من اعتلاء جيمس الاول عرش انكلترا سنة ١٦٠٣ . فاتبع هذا الملك سياسة التهدئة مع اسپانيا فأثار بذلك سخط الطبقة الوسطى التي اعتادت على نهب المستعمرات الاسپانية . أما هولندا فكانت حروبها مع اسپانيا في نطاق ضيق في اوربا وانتهت باعلان الهدنة بينهما سنة ١٦٠٩ لمدة ١٢ سنة . وقبل ان تنتهي الهدنة اندلعت حرب الثلاثين سنة التي اشتركت فيها معظم الدول الاوربية[١] .

---

(1) Cottschalk, L. Europe and Modern World (Chicago, 1951), V. I. pp. 260-277; 298-304; 353-360

المجتمع الاوربي في القرن السابع عشر :

على الرغم مما أحدثته الثورات السياسية والاقتصادية والدينية والفكرية من التطورات العظيمة في اوربا ، فان المجتمع الاوربي كان مشابها الى درجة ما للمجتمع الاوربي في القرن السابق ظاهريا على الاقل . فكان الملوك هم رؤساء الدول باستثناء بعض الجمهوريات . وكانت منزلة رجال الدين عظيمة في المجتمع . كما ان النبلاء اشغلوا مناصب رفيعة في الدولة وكانوا في قمة الطبقات الاجتماعية وينظرون باحتقار الى الطبقة البورجوازية التي كانت لا تزال تكافح لاجل المساواة في الحقوق . أما أكثرية السكان فكانوا من الفلاحين وفقراء المدن المهملين .

الحكم المطلق وحق الملوك الالهي :

كان الملوك يستندون في حكمهم على نظرية الحق الالهي لان الملك هو رئيس الدولة والكنيسة ويستطيع توجيه تفكير الناس في بلاده ، وتكييف مؤسساتها بحسب رغبته واجبار رعيته اعتناق الدين الذي يعتنقه . والملوك هم الذين وحدوا بلادهم وقضوا على كل ما يسبب تفرقة الصفوف كما كانت الحالة في فرنسا وانكلترا . وقد تأسست دولة بروسيا نتيجة لجهود بعض الملوك . أما في روسيا فقد اصبحت الملكية مطلقة في القرن السابع عشر ، واصبح الشعار السائد للممالك الاوربية هو ملك واحد يحكم مملكة واحدة ذات قوانين موحدة ومذهب او عقيدة دينية واحدة . وكانت الدول من جهة اخرى قد اعترفت بالمؤسسات المحلية والتقاليد المحلية . وكان النبلاء ورجال الدين وحتى النقابات يقاومون تجاوز الملوك على امتيازاتهم . لكن مع وجود المقاومة

والانشقاق الديني في بعض الدول استطاع الملوك ان يسيطروا على الوضع بصورة عامة وانجزوا نوعا من الوحدة الدينية والسياسية في البلاد . واصبح الملك رئيس الكنيسة وقام باستتباب الامن والنظام في البلاد ، ونظم بواسطة مساعديه موارد الدولة واستغلها لمنفعة البلاد أو لاغراض استعمارية توسعية[1] .

دور الجيش في مصير الدولة :

كانت السياسة والعلاقات الخارجية من اهم اعمال الملوك في اوربا في القرن السابع عشر . وكانت منزلة دولة ما وقوتها تتوقف على قوة جيوشها في ساحة الحرب . ولهذا ولاجل المحافظة على النظام في الداخل كانت الدول تركز اهمية كبرى على القوة العسكرية لتثبيت السلطة الملكية . ولم يكن التجنيد الاجباري موجودا في ذلك الوقت . وكان الملوك يعتمدون على جيش قضى افراده حياتهم في الجندية واصبحت العسكرية مهنة لهم . كما ان الضباط كانوا من النبلاء الذين اعتبروا الخدمة العسكرية شرفا لهم . وكانت المرتزقة ايضا تكملة للجيش وهم على الاغلب من السويسريين والالمان المدربين الذين كانوا من خيرة الجنود في اوربا في ذلك الوقت .

كانت الحروب عديدة ومستمرة وفترات السلم قصيرة ، ولهذا اصبحت الحرب عبئا ثقيلا على كاهل الطبقة الوسطى والفقيرة وتستنفد خزينة الدولة . وكان الملوك المسيطرين على الوضع في البلاد يستخدمون موارد المملكة وقوة الجيش في توسيع رقعة ممالكهم على

(1) Ibid.

حساب الدول والامارات الاخرى • ولم تكن الحرب واسعة النطاق كما هي الآن ولذا كانت الخسائر محدودة •

نفوذ رجال البلاط :

كان لنبلاء البلاط نفوذ عظيم في اوربا ولو انه اختلف من حيث الدرجة من دولة الى اخرى • فكثير من الوظائف والمهن كانت تخصهم دون غيرهم ، وكانوا معفوين من الضرائب ويستلمون الرسوم الاقطاعية من الفلاحين الذين يزرعون اراضيهم • وكانت لهم اهمية كبرى في الدولة كرجال عسكريين او دبلوماسيين ، او موظفين فنيين • وكان الشبان من هذه الطبقة يتدربون منذ الصغر للمهنة التي يرثونها في المستقبل ، وكثير من النبلاء صاروا حماة للعلوم والفنون والآداب • غير ان نفوذهم السياسي أخذ يتدهور بسبب تعاظم نفوذ الملك والطبقة الوسطى التي كانت تطلب المشاركة في السلطة السياسية •

أما نبلاء الاقاليم فامّا كانوا فقراء لا تساعدهم حالتهم المالية الذهاب الى البلاط ، أو أن كبريائهم كان يحول دون ذلك فيبقى في بلده يدير شؤونه ولا يقبل ان يكون من اتباع الملك او بطانته • وهكذا كان الحال مع نبلاء بروسيا وفرنسا وحتى انكلترا • وقد احتفظ هؤلاء بمكانتهم وكانوا موضع احترام عند سكان الاقاليم لكنهم كانوا أقل شهرة من رجال البلاط •

نمو الطبقة البورجوازية :

في الوقت الذي كانت الاراضي اساس الثروة وكانت الطبقة الارستقراطية تمارس سلطة سياسية عظيمة ، كانت الطبقة الوسطى من

التجار واصحاب المـال والصناعات تكافح لاجل زحزحـة هذه الطبقة ونيل الحقوق السياسية ومشاركتها في الحكم • ففي انكلترا قامت هذه الطبقة بالثـورة الانكليزية في منتصف القـرن السابع عشر وأسست جمهورية اوليفر كرومويل ، لكن في فرنسـا كانت لا تزال تحت سيطرة الملك المطلق • وسبب اعتماد الملوك على الطبقة الوسطى يرجع الى الزمن الذي كانت الاقطاعية من أشد اعداء الملوك في اواخر العصور الوسطى واوائل العصور الحديثة • وكانت الطبقة الوسطى من التجار واصحاب المال والصناعات يريدون التخلص من الاقطاعية والبربرية فتحالفوا مع الملوك وساعدوهم بالمـال للقضاء على نفوذ النبلاء وامراء الاقطـاع • واستمر هذا التحالف في القرن السابع عشر • يستثنى من ذلك انكلترا التي بدأت فيها الطبقة الوسطى تشعر بان مصالحها لا يمكن ان تستقر وتزدهر الا بالمشاركة في الحكم ونيل الحقوق السياسية ، والحـد من الملكية المطلقة التي بدأت الآن تعتدي على حقوق هذه الطبقة مما أدى الى ثورة البرلمـان والحرب الاهلية في منتصف القـرن السابع عشر ، وسنذكر ذلك في حينه • اما في بقيـة القارة فقد تأخرت الثـورة ضد الملكية المطلقـة الى نهاية القرن الثامن عشر لمـا قامت الثورة الفرنسية وأطاحت بالعهد القديم • وعلى أي حـال فان الملوك في اوائل العصور الحديثة كانوا يشجعون التجارة والصناعة ويبرمون المعاهدات التجارية مع الاقطار الخارجية لهذا الغرض • ويمنحون امتياز تأسيس الشركات التجارية والقيام بالمشاريع الاقتصادية المربحة الى أفراد الطبقة الوسطى الذين أثبتوا كفاءاتهم في الاعمـال التجارية والمشـاريع الاقتصادية • وعليه كان أصحاب المال والصناعات وابناء الطبقة الوسطى بصورة عامة

طوع ارادة الملك .

وقد أدى تمادي الملوك في الحكم المطلق ووقوع عبء الضرائب على عاتق الطبقة الوسطى وعدم مساواتها مع الطبقة الارستقراطية اصحاب الاراضي في الحقوق والامتيازات ، الى أن تحاول هذه الطبقة في وضع حد لذلك ، وخاصة بعد أن ازداد عددها وكثرت ثروتها واقتصرت الثقافة والمعرفة على ابنائها . فقامت بثورات في انكلترا في القرن السابع عشر وفرنسا في نهاية القرن الثامن عشر وبقية القارة الاوروبية في القرن التاسع عشر[1] .

وقوع عبء الضرائب على عامة الشعب :

كان عبء الضرائب يقع على عاتق الفلاحين الذين دفعوا نفقات الدولة والبلاط والحروب دون الحصول على ما يشير الى تحسين احوالهم . لقد كان الفلاحون يؤلفون ثلاثة ارباع سكان اوربا . ولما كانت الاراضي والزراعة لا تزال تعتبر مصدر الثروة ، وقع عبء الضرائب على عاتق الفلاحين لان النبلاء اصحاب الاراضي كانوا معفوين من الضرائب . ولم تكن المدن الاوروبية في القرن السابع عشر مزدحمة بالسكان ، وقلما تجاوز نفوس المدن مئة الف نسمة باستثناء العواصم الكبرى كباريس ولندن التي لم تبلغ كل واحدة منها نصف مليون . ولم يستطع عمال المدن واصحاب الحرف الصغيرة من دفع الضرائب ، وأخذوا يكوّنون الاتحادات العمالية بشكلها البدائي دون أن تعترف بها الحكومات .

---

(1) Ibid.

أما التجار واصحاب المال والصناعات فكانوا يدفعون القسط الاكبر من الضرائب • ولكن لما كان هؤلاء قليلي العدد وقع العبء الثقيل على عاتق الفلاحين •

عدم وجود قوة شعبية تستطيع القيام بالتغيير :

قلما اهتم اصحاب السلطة السياسية بالرأي العام وقوة الجماهير • ولم تكن الجماهير عبارة عن قوة ثورية ، بل رضوا بنصيبهم في الحياة لاعتقادهم بان الله قدّر لكل طبقة دورا في الحياة الاجتماعية ، ونصيب النبلاء هو الادارة والسياسة ونصيب الفلاحين زراعة الاراضي • وكان باستطاعة الملوك المقتدرين ادارة الجماهير ادارة فعالة واستحواذ ولائهم • ومع ان مشاكلهم كانت واضحة لكن لم تكن خطرة على النظام القائم • وقلما ثار الفلاحون ، وحتى أن ثوراتهم كانت لمسائل بسيطة تخمد بسرعة • اما اقطاب الحركات الفكرية فكانوا من الطبقة الوسطى وقليل من الطبقة الارستقراطية •

ولما كان الوعي السياسي والفكري مفقودا تقريبا بين الجماهير الفلاحية ، لم يهتم هؤلاء بالتيار السياسي والفكري والديني السائد في اوربا ، ولم يقوموا باية حركة مهمة لتحسين احوالهم المعاشية او تملك الاراضي • فكانت معيشتهم بسيطة واستخدموا الاساليب البدائية في الزراعة • غير ان بعض الاقطار في اوربا الغربية كانت تشذ عن هذه القاعدة • ففي انكلترا ، مثلا ، كان لنمو الرأسمالية وتجارة الصوف المربحة اثر عظيم في القضاء على الاقطاعية وتوحيد المقاطعات الصغيرة لتكوين المراعي لرعي الاغنام وتطبيق نظام تسييج الاراضي • واصبح الفلاحون اما عمالا زراعيين مأجورين او رعاة للاغنام • وقسم منهم

ذهب الى المدن ليشتغل تحت النظام الاهلي او في المعامل الصغيرة التي بدأت تظهر في هذا الوقت في انكلترا • وبمرور الزمن تمكن الاغنياء من اصحاب الاراضي شراء الاراضي المجاورة لهم وضمها الى بعضها البعض لتكوين المزارع الكبيرة ، واصبحت انكلترا تشتهر فيما بعد بمزارعها الواسعة •

أما في اوربا الشرقية فتدهور وضع الفلاحين بسبب توسيع رقعة المزارع الكبيرة ، وارتبط الفلاح بالارض واستمر هذا الوضع الى القرن التاسع عشر والعشرين •

توسيع الشقة بين الغنى والفقير :

لقد اتسعت الشقة بين الطبقة الارستقراطية والطبقات الدنيا في المجتمع • فبينما كان اللورد في العصور الوسطى يعيش مع الفلاحين في القرى والارياف ويشاركهم في طرز المعيشة ، اصبح الآن يعيش في المدن ويتنعم بالحياة المدنية ويصرف بسخاء على المأكل والملبس والملذات التي لم يحلم بها اسلافه في الارياف سابقا• ولم يكن المجال مفتوحا للفقراء في النفوذ الى هذه الطبقة ، فكان عليهم التمسك بمنزلتهم الاجتماعية • لكن اغنياء الطبقة الوسطى استطاعوا بواسطة ثرواتهم ان يخترقوا الحاجز ويتصاهروا مع الطبقة الارستقراطية ويتغلغلوا في صفوفهم • كما أن ابناء الطبقة الوسطى الذين نالوا قسطا وافرا من المعارف والثقافة احتلوا مناصب رفيعة في الدولة ودخلوا في صفوف الطبقات العليا •

ومع وجود هذه الشقة الواسعة بين الطبقات الاجتماعية فان الامر كان طبيعيا في نظر الناس • ولم تكن الثورات ترمي الى التغيير

الاجتماعي الا نادرا ، بل كانت ترمي الحصول على بعض الحقوق او ازالة بعض المساوىء • وكان التغيير الاجتماعي بطيئا ، والولد كان يمارس مهنة ابيه عادة ويتدرب عليه دون ان يحدث ذلك تغييرا ظاهرا في اساليب المعيشة • وكان الجيل اللاحق يشبه تماما الجيل السابق في العادات والتقاليد وطرز المعيشة • وكانت التيارات الثورية سياسية وفكرية اكثر منها اجتماعية واقتصادية ولم تنل من امتيازات النبلاء وسلطات الملوك ، كما لم تتناول حق الطبقة العامة في الوظائف الحكومية ، او توزيع الاملاك بالتساوي بين الناس • وكانت حركة دعاة المساواة (الليفلير) في انكلترا في منتصف القرن السابع عشر تعتبر متطرفة ولم يؤيدها الا القليل من الناس • وكان على اوربا ان تنتظر قرنا آخر لاحداث تغييرات سياسية واجتماعية واقتصادية •

الامبراطورية الرومانية المقدسة وحروب الثلاثين سنة

استمرت عائلة هبسبرگ النمساوية تحكم ممتلكاتها الوراثية : النمسا وبوهيميا وهنگاريا بالاضافة الى انتخابها لعرش الامبراطورية الرومانية المقدسة • فقد خلف فردنند الاول أخوه شارل الخامس سنة ١٥٥٨ • ولما توفي فردنند سنة ١٥٦٤ ، انتخب ابنه مكسمليان الثاني امبراطورا • وكانت الامبراطورية منذ اواخر عهد شارل الخامس تفقد عظمتها وقوتها بسبب تأكيد الامبراطور شارل على اسپانيا التي كانت تملك جيشا قويا أثبت كفائته في حروب شارل الخامس ، ودخلا سنويا

من الممتلكات الاسپانية ساعد على استمرار هـذه الحروب • فكان فيلب الثاني ملك اسپانيا ورث من ابيه شارل القوة والثروة دون الامبراطورية التي ورث ممتلكاتها عمه فردنند الاول • وبمرور الزمن فقد الدايت الالماني كل صلاحياته بعد عهد شارل وأخيه فردنند « واصبح يجتمع فقط للتصويت على الضرائب »[1] •

اتخذ الامبراطور رودولف الثاني ١٥٧٦ــ١٦١٢ ابن فردنند مدينة براغ في بوهيميا عاصمة له ، ليتجنب مؤامرات اخيه ماثيوز ١٦١٢ــ ١٦١٩ ، الذي استولى على ممتلكات آل هبسبرگ في ڤيانا • وقد تدهور الوضع في الامبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الاخوين رودولف وماثيوز من الناحية السياسية والاقتصادية والدينية أدى الى الحرب الاهلية وبالتالي التدخل الاجنبي •

لقد كان من المؤمل أن يحل صلح اگسبرگ (١٥٥٥) المسائل الدينية في الامبراطورية الرومانية المقدسة • لكن الصلح فشل في تحقيق ذلك لسببين : أولا ، استمرار أمراء البروتستانت مصادرة اراضي الكنيسة الكاثوليكية ، واحتفاظ رجال الدين الكاثوليك بأملاك الكنيسة ومواردها لانفسهم عند اعتناقهم البروتستانتية خلافا لصلح اگسبرگ • وثانيا ، اعترف صلح اگسبرگ باللوثرية والكاثوليكية ، بينما ظهرت الكلڤنية في جنوب ووسط المانيا وبوهيميا وطلب هؤلاء المساواة في الحقوق مع اللوثرية والكاثوليكية والاعتراف الرسمي بالكلڤنية •

(1) Pennington, D. H. 17th Cenctury Europe (London 1974) p. 282.

ولأجل تنقيح صلح أگسبرگ والحصول على امتيازات اكثر من الامبراطور الكاثوليكي رودولف ، اتحد امراء المانيا الپروتستانتيين برئاسة فردريك ناخب ولاية الپلاتينات على الراين سنة ١٦٠٨ ٠ ولمقاومة الپروتستانت ومنعهم مصادرة املاك الكنيسة الكاثوليكية واستعادة ما فقدته الكنيسة الكاثوليكية من الاراضي ، إن امكن ، اتحد امراء المانيا الكاثوليك بقيادة مكسمليان امير باڤاريا لتكوين العصبة الكاثوليكية سنة ١٦٠٩ ٠ وهكذا انقسمت المانيا الى معسكرين متحاربين مهددا الامبراطورية الرومانية المقدسة بحرب اهلية لا تبقي ولا تذر ٠

لقد تبين ان العصبة الكاثوليكية تؤيد الامبراطور الكاثوليكي ضد الاتحاد الپروتستانتي ، لكن لم يكن امراء الكاثوليك يرغبون تقوية الامبراطور على حسابهم ، فان رغبتهم في الحفاظ على استقلالهم ومصالحهم من تجاوزات الامبراطور لم تقل عن رغبة أمراء الپروتستانت ٠ ولم يكن ذلك يخاف على الامبراطور نفسه ، وكان يعلم ان سلطة الامبراطور تزول تدريجيا نتيجة الحرب ، لكن لم يستطع منعها ٠ وهكذا تظافرت العوامل السياسية والاقتصادية والدينية لنشوب حرب الثلاثين سنة ٠

ثورة بوهيميا :

لم يكن للامبراطور ماثيوز ١٦١٢ــ١٦١٩ ، ولدا يرث العرش فرشح ابن عمه فردنند ليخلفه ٠ ولما كان هذا قد كرس حياته للكثلكة والحكم المطلق ، كثر المعارضين لانتخابه في كل من النمسا وهنگاريا ولكن بدرجة اشد في بوهيميا ٠ فقد خاف أمراء الچيك الكالڤنيين في

بوهيميا من ان يمنعهم الامبراطور الكاثوليكي من ممارسة شعائرهم الدينية ويلغي امتيازاتهم ويصادر ممتلكاتهم ، فهجمت جماعة منهم على دائرة موظفي الامبراطور في براغ في ٢٣ مايس سنة ١٦١٨ ، وألقوا الموظفين من على شباك احدى الغرف الى القناة المحاطة بالقلعة التي فيها الدائرة ، وكان الارتفاع شاهقا يبلغ ستين قدما . وقد اعلن الثوار خلع الامبراطور وترشيح فردريك ناخب البلاتينات ملكا على بوهيميا ، وقبل فردريك التاج في براغ واستعد للدفاع عن لقبه .

وقد توفى الامبراطور ماثيوز في هذا الوقت وانتخب فردنند ١٦١٩–١٦٣٧ امبراطورا باسم فردنند الثاني . فاتخذ هذا الاجراءات السريعة لطرد فردريك من بوهيميا ، واتفق مع فيلب الثالث ملك اسپانيا على ان يبعث اليه جيشا اسپانيا للاستيلاء على البلاتينات بينما يتوجه الجيش النمساوي والعصبة الكاثوليكية بقيادة القائد الامبراطوري تيلي Cont Tilly الى بوهيميا . وكان فردريك يتوقع المساعدة من صهره جيمس الاول ملك انگلترا الذي تزوج فردريك من بنته اليزابيث . كما توقع العون من الامراء اللوثريين في شمال المانيا ، لكن خاب ظنه في كلتا الحالتين . إذ ان جيمس الاول كان منشغلا بالصراع مع البرلمان الانگليزي ولم يرغب معاداة اسپانيا فاكتفى بتقديم النصائح الزائفة الى فردريك في الوقت الذي كان الشعب الانگليزي يصر على مساعدة فردريك ومساندة القضية البروتستانتية في المانيا . أما الامراء اللوثريين فقد استمعوا الى نصائح جون جورج امير سكسونيا بالوقوف على الحياد أملا بالحصول على امتيازات اكثر من الامبراطور .

لقد انتصر تيلي على القوات البروتستانتية في معركة التل الابيض في بوهيميا سنة ١٥٢٠ ، وانهزم فردريك الملقب بملك الشتاء وأعيدت المملكة الى حظيرة الامبراطورية الرومانية المقدسة تحت حكم الامبراطور فردنند الثاني • وخسر كثير من نبلاء الچيك حياتهم وأراضيهم ، ومنع ممارسة الشعائر البروتستانتية في بوهيميا • وقد استولى الجيش الاسپاني على ولاية البلاتينات وخسر فردريك كل ممتلكاته هناك ، وألحقت بولاية باڤاريا التي اصبح اميرها مكسمليان ناخبا للامبراطور بدلا من فردريك مكافأة لخدماته للامبراطور • اما فردريك فأصبح هاربا مشردا في حالة يرثى لها • وهكذا انتهى الدور الاول من الحرب لصالح الامبراطور والكاثوليك واجبر سكان البلاتينات على الراين ان يعتنقوا الكاثوليكية بعد ان كانوا كالقنيين • كما ان اسپانيا اصبحت تلعب دورا رئيسيا في اوربا بين ١٦٢١ و١٦٢٥[1] •

تجديد الحرب بين هولندا واسبانيا :

توفي فيلب الثالث ، واعتلى ابنه فيلب الرابع عرش اسپانيا سنة ١٦٢١ • وقبل ان تزول نشوة انتصار الاسپان على البلاتينات ، قرر فيلب احتلال هولندا مرة أخرى ، ويستفيد من وجود الجيش الاسپاني في البلاتينات لهذا الغرض وخاصة ان هدنة ١٢ سنة مع هولندة لسنة ١٦٠٩ ، قد انتهت سنة ١٦٢١ •

لقد حصلت هولندا على مساعدة كل من انگلترا وفرنسا ، وأرسل الهولنديون حملة ضد البرازيل ، لكن الحملة فشلت • وأرسل

(1) Ibid; pp. 282-288.

الانكليز حملـة الى ميناء قادس الاسپانيـة سنة ١٦٢٥ ، لكن الحملة صدت ، وانتصرت اسپانيا باستيلائها على مدينة بريدا الهولندية في نفس السنة بعـد محاصرة طويلة فخلد الفنـان الاسپاني فيلاسكويز هـذا الانتصار بلوحة فنية رائعة .

كان لانتصار الامبراطور الكاثوليكي واسپانيا تأثير مروّع على امراء الپروتستانت في شمالي المانيا . ومع ان الامراء اللوثريين استاؤا من تهور فردريك الشـاب في بوهيميا وقيامه باعمـال السلب والنهب وحرق القرى مع بقايا جنوده ، لكنهم بدأوا يعطفون عليـه لخوفهم من توسع باڤاريا الكاثوليكية وتعزيز الامبراطورية المقدسـة واسپانيا بعد الانتصارات التي احرزوها في هولنـدا والپلاتينات وبوهيميا . ورفض الامبراطور منح اي امتياز للامراء اللوثريين طالما ظـل فردريك مستمرا في اعماله التخريبية .

دخول الدانيمرك في الحرب ١٦٢٥–١٦٢٩ :

وبينما كان امـراء الپروتستانت حـائرين في موقفهم بين الولاء للامبراطور او الثورة ضـده ، دخل ملك الدانيمرك كريستين الرابـع الحرب ، ودخلت المانيا دورها الثاني المعروف بالدور الدانيمركي . كان كريستين الرابع ١٥٨٨–١٦٤٨ ، رجـلا عاطفيا وطموحا . وكأمير على مقاطعة هلشتاين اشترك عضوا في دايت الامبراطورية الرومانية المقدسة، لكنه كان ضد آل هبسبرگ . ولما كان ملكا على الدانيمرك والنرويج أراد مد نفوذه وبسط سيطرته على سواحل بحر الشمال .وكرجل مؤمن باللوثرية أراد ان يسـاعد اللوثريين في المانيـا واستعادة الاراضي التي فقدها البوتستانت الى الكاثوليك .

وفي سنة ١٦٢٥ ، هجم الجيش الدانيمركي على المانيا لمساعدة الجيش البروتستانتي اللوثري والكالفني • وقدمت انكلترا مساعدات مالية للبروتستانتيين في حربهم ضد الامبراطور الكاثوليكي •

لم يكن باستطاعة القائد الامبراطوري تيلي الوقوف في وجه الجيش البروتستانتي ، لولا ظهور مغامر شجاع اراد الدفاع عن قضية الامبراطور والكاثوليك اسمه والشتاين • لقد حصل والشتاين على الثروة بعد مصادرة املاك النبلاء في بوهيميا ، وطلب السماح من الامبراطور في تأسيس جيش مستقل يستطيع بواسطته ان يعيد النظام الى الامبراطورية ويطرد الدانيمركيين • وقد تمكن بواسطة جيشه البالغ (٥٠) الف جندي من المرتزقة الذين عاشوا على السلب والنهب والمكون من شعوب مختلفة وعقائد متباينة من كاثوليك وپروتستانت يجمعهم الولاء التام للقائد ، ان يلقي الرعب في كل مكان في المانيا •

وفي المعركة التي دارت في لوتر Lutter في شمال المانيا سنة ١٦٢٦ اندحر الجيش الدانيمركي امام القوات المشتركة للقائدين تيلي ووالشتاين Wallenstein ، واصبحت الولايات الالمانية اللوثرية تحت رحمة العصبة الكاثوليكية • وكان امير براندنبرك يؤيد الامبراطور وضد تدخل الدانيمرك في المانيا • وكان فقدان القوة البحرية سببا في عدم احتلال الدانيمرك من قبل الجيش الامبراطوري • وخوفا من تدخل السويد في الحرب ويأس الملك الدانيمركي أدى الى عقد صلح لوبيك بين الامبراطور والدانيمرك سنة ١٦٢٩ الذي بموجبه احتفظ ملك الدانيمرك بمقاطعة شلزويك وهلشتاين وجتلند ، لكن طرد

من المانيا(١) .

مرسوم الاسترجاع لسنة ١٦٢٩ :

لقد أجبرت العصبة الكاثوليكية الامبراطور على اصدار مرسوم استرجاع الاراضي التي صودرت من قبل البروتستانت خلافا لنصوص صلح اكسبرك لسنة ١٥٥٥ . وتقوم اللجان التي يشكلها الامبراطور وكلهم من الكاثوليك بتنفيذ المرسوم . وقد استرد الكاثوليك في مدة ثلاث سنوات خمس اسقفيات ، وثلاثين مدينة من مدن العصبة الهنسية سابقا ، ومئة دير وعدد كبير من الابرشيات .

كان العداء لحد الآن مستحكما بين الامبراطور والكلفنيين ، ولم يشمل غضب الامبراطور اللوثريين . لكن مرسوم الاسترجاع أرعب اللوثريين وأخذوا يخشون انتقام العصبة الكاثوليكية فالتجأوا الى أقوى دولة پروتستانتية في اوربا وهي السويد طلبا المساعدة . ولم يكن الامبراطور مستعدا لمواجهة غزو اجنبي جديد ، لان جيشه ضعف بعد ان عزل والشتاين سنة ١٦٣٠ ، بناء على طلب العصبة الكاثوليكية التي تذمرت من اعمال جنوده التخريبية .

تدخل السويد في حرب الثلاثين سنة ١٦٣٠–١٦٣٥ :

بدأ الدور الثالث من حرب الثلاثين سنة بدخول السويد في الحرب سنة ١٦٣٠ . لقد كان ملك السويد گوستاف ادولف ١٦١١–١٦٣٢ ، حفيد گوستافز ڤازا الذي استقل ببلاده وجعل اللوثرية الكنيسة الرسمية في السويد . كان گوستاف ادولف رجلا جذابا ، اشتهر

(1) Ibid; pp. 289-291.

بثقافته العالية ومعرفته سبع لغات وميله الى الشعر والموسيقى . غير انه كان طموحا وشجاعا جمع بين الرجل النظري والعمل الجدي . وكان يحلم بتكوين دولة سويدية كبرى تسيطر على شمال أوربا وعمل على تحقيق هذا الحلم . وقد استطاع ان يجعل بحر البلطيق بحيرة سويدية باستيلائه على فنلندة واستونيا . وبموجب معاهدة ١٦١٧ تخلت روسيا عن أنگريا للسويد . وفي الصراع الذي نشب بين السويد وپولندة سنة ١٦٢١-١٦٢٩ ، حصلت السويد على ليڤونيا ومصب نهر الڤيستولا ، وبذلك حصل على السواحل الشرقية والشمالية لبحر البلطيق . والآن تحولت انظار گوستاف ادولف الى السواحل الشمالية من المانيا في الوقت الذي اصدر الامبراطور مرسوم الاسترجاع ومصادرة املاك الكنائس الپروتستانتية في المانيا ، وفي الوقت الذي كان الكردينال رشيليو ، وزير لويس الثالث عشر ملك فرنسا يريد استمرار حرب الثلاثين سنة كي تضعف عائلة هبسبرگ وتتقوى عائلة البوربون الفرنسية وتحصل على بعض المنافع على حساب المانيا . ولتنفيذ هذه السياسة تحالف رشيليو مع گوستاف ادولف على ان يساعد ملك السويد بالمال والسلاح شريطة منح الحرية الدينية للكاثوليك في المناطق التي يحتلها .

وفي سنة ١٦٣٠ ، نزل گوستاف ادولف في پوميرانيا (في شمال المانيا) وأخذ يتحالف مع امراء الپروتستانت وخاصة ناخب براندنبرگ وسكسونيا ، وبينما كان يفاوض امير براندنبرگ في پوتسدام ، استولى القائد الامبراطوري تيلي على مدينة مگدبرگ الحصينة سنة ١٦٣١ ، بعد حصار طويل . وعقب الاستيلاء على المدينة بدأت مذبحة السكان

المدنيين دون تمييز . فقتل حوالي (٢٠) الف شخص وعملت يد النهب والتخريب في القضاء على المدينة . ولما كانت المدينة لوثرية أثارت سخط الامراء اللوثريين في المانيا . عندئذ توجه گوستاف ادولف يصحبه امير براندنبرك وسكسونيا وامراء البروتستانت الآخرين فقهر جيش تيلي في موقعة برايتنفيلد قرب مدينة لايبزك في ايلول ١٦٣١ . ثم توجه نحو جنوبي غربي المانيا باتجاه نهر الراين للتحالف مع الامراء الكلڤنيين هناك . وكادت تقع اسقفية مينز وكولون وترير تحت سيطرة ملك السويد لولا احتجاج الكردينال رشيليو الذي طلب منه ترك هذه المناطق الثلاث . فولى گوستاف وجهه نحو الشرق وأغار على باڤاريا واحتلها ودحر جيش تيلي مرة أخرى في معركة (ليك Lech) في نيسان ١٦٣٢ ، وقتل تيلي . ثم توجه ملك السويد نحو النمسا ، عندئذ استدعى الامبراطور قائده المعزول والشتاين Wallenstein لمواجهة گوستاف ادولف ، وأبرم اتفاقية مع ملك اسپانيا فيلب الرابع للدخول في الحرب بجانبه[1] .

وفي خريف ١٦٣٢ ، التقى الجيش السويدي بجيش والشتاين وفي المعركة الحاسمة التي دارت في لوتزن Lutzen انهزم جيش والشتاين لكن گوستاف ادولف قتل في المعركة . ومع ان الجيش السويدي واصل انتصاراته ، لكنه لم يجد من يحل محل قائدهم المقتول . وقد تلقى الامبراطور خبرا مفاده ان والشتاين يحاول عقد الصلح مع البروتستانت ، فاغتاله احد اتباع الامبراطور في معسكره سنة ١٦٣٤ . وبزوال القائدين گوستاف ادولف ووالشتاين على مسرح الحرب

(1) Ibid; pp. 292-297.

الدموية وجد الجانبان ان لا فائدة في استمرار الحرب التي انهكت البروتستانت والكاثوليك وقضت على اقتصاد الامبراطورية ، ورغبة منهم في طرد الاجانب من المانيا عقدوا صلح براغ سنة ١٦٣٥ بين الامبراطور والامراء الذين رغبوا في الكف عن الحرب • وبموجبه تقرر وضع امراء المانيا السلاح ، واصبح الجيش الالماني تحت سيطرة الامبراطور ما عدا امير سكسونيا الذي احتفظ ببعض الفرق • كما تقرر الغاء التكتلات الكاثوليكية والبروتستانتية ، واسترجاع الاملاك التي استولى عليها الجانبان اثناء الحرب الى اصحابها الاصليين • اما بخصوص الاراضي التابعة للكنيسة فقد تقرر ان تبقى هذه الاراضي بيد اصحابها كما كانت في سنة ١٦٢٧ ، ولمدة (٤٠) سنة ، سواء أكانت هذه الاراضي قد امتلكها اصحابها قبل او بعد صلح اكسبرك الى ان يصل الجانبان الى حل نهائي • وهكذا انتهى الدور السويدي من حرب الثلاثين سنة •

دخول فرنسا في حرب الثلاثين سنة ١٦٣٥ــ١٦٤٨ :

اعتقد الكردينال رشيليو ان عظمة فرنسا تتوقف على التغلب على آل هبسبرك النمساوية والاسپانية • ولهذا صمم على تأديب الامبراطور وتدمير المانيا كليا • وبدلا من تقديم المساعدات الى امراء البروتستانت في المانيا أو ملك السويد ، أعلن رشيليو الحرب على آل هبسبرك النمساوية والاسپانية • كان غرض رشيليو اذلال الامبراطور والاستيلاء على مقاطعة الالزاس ، لكن غرضه الرئيس كان التخلص من فيلب الرابع ملك اسپانيا • وقد اعتمد رشيليو على امراء البروتستانت في المانيا والسويد في مواصلة الحرب ضد الامبراطور في الوقت الذي

كانت تطوق ممتلكات فرنسا .

يستعد رشيليو لمواجهة اسبانيا التي

كان فيلب الرابع يساعد ابناء عمه في النمسا الى سنة ١٦٣٥ والمانيا . لكن بعد هذا التأريخ ويواصل حروبه الهجومية في هولندا واجه هجوما فرنسيا عنيفا في هولندا وبلجيكا والاراضي الفرنسية وشمال ايطاليا وداخل اسپانيا نفسها . فاضطر فيلب ان يترك الهجوم ويبدأ بالدفاع عن أراضيه . لقد كان النصر في باديء الامر حليف الاسپان لان جيوشهم كانت مدربة ويقودها احسن القادة من امثال پيكلوميني الايطالي الذي حارب مع والشتاين واشترك في اغتياله . بينما كان الجيش الفرنسي البالغ (٣٠٠) الف جندي ينقصه التدريب والقيادة الكفوءة . فدخل الجيش الاسپاني شمال فرنسا سنة ١٦٣٦ وكادت تستولي على باريس . وفي سنة ١٦٣٧ عبر جيش اسپاني آخر جبال البرنس واستولى على جنوبي فرنسا . غير ان الجيش الاسپاني أخذ يتقهقر تدريجيا كلما اكتسب الجيش الفرنسي خبرة في الحرب وظهر فيه قادة عسكريين امتازوا بالكفاءة العالية في ادارة دفة الحرب فتقهقر الجيش الاسپاني من هولندة والراين وشمال ايطاليا .

وبدأت نقطة التحول في الصراع الاسپاني الفرنسي لما ثار البرتغاليون سنة ١٦٤٠ ، وأعلن مجلس النبلاء البرتغالي المجتمع في ليشبونة خلع فيلب الرابع وتعيين جون الرابع من عائلة براگنزا ملكا على البرتغال . وبدأ الهولنديون يساعدون الفرنسيين في حربهم ضد اسپانيا . وقامت الثورة في آرگون ونابولي ضد فيلب لكنه اخمدها بسرعة . ومع ان فيلب الرابع استطاع الدفاع عن ميلان وبلجيكا لكن ذلك كان على حساب ثروته التي اوشكت على النفاد . وفي معركة

روكروي سنة ١٦٤٣ انتصر الفرنسيون انتصارا ساحقا على جيش فيلب وبدأ تدهور اسپانيا وافلاسها .

اما في المانيا فقد تمكن الامبراطور ان يقف في وجه الپروتستانت. لكن بعد اندحار الاسپان استطاع الفرنسيون ارسال جيوشهم لمساعدة الپروتستانت . وقد حاول فردنند الثالث الذي اصبح امبراطورا بعد موت والده فردنند الثاني سنة ١٦٣٧ ، ان يعقد صلحا مع فرنسا سنة ١٦٤١ ، لكن المحاولات فشلت الى ما بعد موت رشيليو سنة ١٦٤٢ . وقد واصلت الجيوش الفرنسية انتصاراتها واحتلت باڤاريا سنة ١٦٤٦ . واخيرا عقدت عدة معاهدات في مدينتي منستر Münster واوزنابروك Osnabriick في مقاطعة ويستفاليا سنة ١٦٤٨ والتي بموجبها انتهت حروب الثلاثين سنة في الامبراطورية الرومانية المقدسة[1] .

معاهدة ويستفاليا ١٦٤٨ :

اصبحت عائلة هبسبرگ النمساوية تحكم ممتلكاتها الوراثية في النمسا وبوهيميا وهنگاريا بموجب صلح ويستفاليا ، لكن سلطتهم السياسية ضعفت في الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وأحدثت تغيرات هامة في المانيا نفسها . وهذه التغيرات هي : (١) أصبح كل امير حاكما مطلقا في ولايته ويتمكن ان يعلن الحرب ويعقد الصلح دون ان يعيقه في ذلك الامبراطور . (٢) حصلت فرنسا على مقاطعة الالزاس باستثناء مدينة سترازبرگ الحرة . كما حصلت على اعتراف بتملك الاسقفيات

---

(1) Ibid; pp. 297-302.

حصلت السويد على پوميرانيا الالمانية الثلاث ميتز وتول وڤيردون • (٣) حصلت السويد على پوميرانيا الغربية الواقعة على مصب نهر الاودر ، وأسقفية بريمن والاراضي المحيطة بهذه المدينة ، والسيطرة على مصب نهر الأيلب والويزر • (٤) لفرنسا والسويد حق التدخل في الشؤون الالمانية لامتلاكها الاراضي الالمانية ، والتصويت في الدايت الالماني • (٥) حصلت امارة براندنبرگ على پوميرانيا الشرقية وعدد من الاسقفيات من ضمنها اسقفية مگدبرگ ، وبذلك تشكلت نواة الدولة الپروسية • (٦) انقسمت ولاية الپلاتينات على الراين بين مكسمليان الباڤاري رئيس العصبة الكاثوليكية في الحرب ، وابن فردريك امير الپلاتينات وقائد الپروتستانت في الدور البوهيمي (الاول) من حرب الثلاثين سنة ، وبذلك اصبح لباڤاريا والپلاتينات حق الاشتراك في انتخاب الامبراطور ، وحق التصويت في الدايت • (٧) اصبحت كل من هولندا وسويسرا دولة مستقلة واعترفت بهما الدول رسميا في مؤتمر ويستفاليا •

ومن شروط معاهدة ويستفاليا غير السياسية : (١) الاعتراف بالكنيسة الكلڤنية ومنحها حقوقا متساوية مع اللوثرية • (٢) ان يكون استملاك الاراضي الكنسية الكاثوليكية والپروتستانتية بحسب القاعدة التي كانت عليها في بداية سنة ١٦٢٤ • (٣) ان يجلس عدد متساو من القضاة الكاثوليك والپروتستانت في محاكم الامبراطور •

نتائج حرب الثلاثين سنة :

كانت حرب الثلاثين سنة آخر الحروب الدينية في اوربا • وعلى الرغم من انها بدأت كصراع ديني بين الكاثوليك والپروتستانت لكن

العوامل الرئيسية كانت سياسية واقتصادية ، ويمكن ملاحظة ذلك بان امير برندنبرگ البروتستانتي ساعد الامبراطور الكاثوليكي ، بينما ساعدت فرنسا الكاثوليكية امراء الالمان البروتستانت وقد مهدت حروب الثلاثين سنة الطريق للحرية الدينية والتسامح الديني فيما بعد .

ظهور التمثيل الدبلوماسي في العلاقات الدوليه :

اصبح التمثيل الدبلوماسي وتبادل السفراء عرفا شائعا بين الدول الاوربية بعد حرب الثلاثين سنة . وقد ظهر العرف الدبلوماسي بين المدن الايطالية في القرن الخامس عشر ، وانتشر في القرن التالي بين اسبانيا وفرنسا وانگلترا . لكن الامبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن ضمن نطاق العرف الدبلوماسي لانها كانت اكثر سطوة واعظم نفوذا من هذه الدول . وما حققته حرب الثلاثين سنة هو جعل الامبراطورية الرومانية المقدسة في مستوى الدول الاوربية الاخرى ، كما اصبحت الدول الاوروبية تتعامل مع بعضها البعض على اسس المساواة بين الدول المستقلة ذات السيادة . وكان للتبادل الدبلوماسي تأثير كبير في توطيد العلاقات الدولية وخاصة في وقت السلم . واصبحت المعاهدات التجارية والمحالفات الدفاعية اساسا لهذا النوع من العلاقات بعد ان كانت المصاهرة اساس الروابط بين الدول . وصارت الدبلوماسية مهنة في حد ذاتها مقتصرة على الطبقة الارستقراطية المدربة على عادات المجتمعات الراقية والاسلوب الدبلوماسي كي يمثل بحق بلاده وحكومته ويعطيها المركز اللائق بها في البلدان الاجنبية . وكان مؤتمر ويستفاليا اول مؤتمر دولي بعثت اليه الدول ممثليها لاعادة السلم في اوربا[1] .

(1) Gottschalk, op. cit, 304-308

ظهور القانون الدولي :

كان من نتائج حرب الثلاثين سنة ايضا ظهـور القانون الدولي • فقد تأثر عـدد كبير من النـاس باعمـال السلب والنهب وحرق القرى والارياف وسفك الدماء ، ووجدوا ان من الافضل وضع بعض القواعد والاسس لحمـاية الدول المحايدة ، ومعالجـة المرضى والجرحى ومنع اراقة دماء الابرياء والتدمير • وأشهر من كتب في هـذا الموضوع هو هوگو گروشيس •

كان گروشيس من سكان هولندا ومن اشهر رجالات المعرفة • وقد سجن مدى الحيـاة بسبب نشـاطه السياسي ضـد حكام هولندا ودعوته الى التسـامح الديني • لكنـه دبر الهروب من السـجن سنة ١٦١٩ ، وسكن في باريس ، وهنـاك كتب كتـابه الشهير الذي عنوانه « مقال عن قانون الحـرب والسلم » نشره سنة ١٦٢٥ ، واصبح اول كتاب يعـالج موضوع القـانون الدولي بصورة منظمة ولهـذا اعتبر گروشيس مؤسس القانون الدولي •

يعتبر گروشيس القـانون الطبيعي شريعة اخلاقيـة مقبولة لدى الناس لانه يوافق الطبيعة البشرية في جميع انحاء العالم • ومع ان هذا القانون مشتق من الفلسفة اليونانية القديمة لكنه يوافق الاسس الدينية القائلة : أحب لغيرك ماتحب لنفسك • وقد وضع گرشيس نظرياته لضمان العدالة في العالم على اسس هذا المبدأ • وقد اكد گروشيس بان الحرب لا مفر منها بين الدول لانها تعتمد على العاطفـة وهوى النفس ولهذا فمن الصعب ان تتفق الدول على أسس المحافظـة على السـلام أو منع الحروب • وعليه اذا كانت الحروب لابد منهـا فيجب حصرها في نطاق

ضيق لا تتعدى الى الدول التي لا تشترك فيها ، ومحاولة اجتناب أعمال السلب والنهب واراقة دماء الابرياء وحرق الاخضر واليابس .

لقد كان تأثير كتاب كروشيس عظيما في تخفيف اهوال الحرب ، وتضمنت الاتفاقيات الدولية فيما بعد كثيرا من آراء هذا المشرع الهولندي . ولقد نمى القانون الدولي وتطور في اوربا في القرن السابع عشر واخذت الدول تتمسك به في منازعاتها الجزئية . وحتى في المعاهدات الدولية تلتزم الدول المتعاقدة بالقانون الدولي ومبادئه . كما أضيفت العادات والتقاليد الممارسة بين الدول الى القانون الدولي والتي لم تكن في صلب المعاهدات الرسمية ، نظرا لما فيها من المنافع الكثيرة لتحسين العلاقات بين الدول وحل المشاكل الدولية . لكن عند اصطدام المصالح الكبرى والمنافع الجسيمة كانت الدول تعتبر نفسها غير مرتبطة بالقانون الدولي وكانت المعاهدات والمحالفات تنهار دون ان يبالي بها أحد(1) .

ظهور مبدأ التوازن الدولي :

لقد كان هناك حدا لطموح الدول يحول دون توسعهم عبر عنه بالتوازن الدولي . وهذا معناه عدم افساح المجال لدولة او مجموعة من الدول المتحالفة بان تتقوى الى درجة تهدد مصالح الدول الاخرى وتقضي عليها ، بتكوين كتلة مضادة تستطيع اعادة التوازن بين الدول الاوروبية . وكانت المدن الايطالية تطبق هذا المبدأ على نطاق ضيق في القرن الخامس عشر . كما ان الكردينال ولزي مستشار هنري الثامن

(1) Ibid; pp. 304-308.

سار على هذا المبدأ في القرن السادس عشر . لكن هوگو گروشيس جعل من سياسة التوازن الدولي مبدأ تسير عليه الدول في السياسة العالمية بتأسيس التوازن بين الدول في اوربا للمحافظة على السلام . وكان تألب الدول ضد امبراطورية آل هبسبرگ في حرب الثلاثين سنة تعبيرا صادقا لهذه السياسة . وكان صلح ويستفاليا عبارة عن محاولة الدول لتقليل سيطرة آل هبسبرگ على اوروبا بأخذ بعض اجزائها حتى تنزل الى مستوى الدول الاخرى وبذلك يمكن المحافظة على التوازن الدولي والسلام في اوربا .

لقد صار مبدأ التوازن الدولي اساسا تسير عليه الدول بعد حرب الثلاثين سنة ، وكان واسطة للمحافظة على السلام ومجابهة العدوان من قبل مجموعة من الدول . وفي كثير من الأحيان كانت الكتل المتنازعة على الغنائم تجبر بموجب هذا المبدأ ان تتنازل عن بعض مطامعها الى ان يتعادل الميزان .

وهكذا أصبح مبدأ التوازن الدولي وسيلة تتذرع بها الدول الكبرى لتبرير موقفها في تجزئة الدول الضعيفة . فاذا ما حاولت دولة قوية ان تأخذ جزءا من اقليم دولة ضعيفة ، أخذت الدولة القوية الثانية الجزء الآخر حتى تتعادل الكفتان . لقد ظل التوازن الدولي مستمرا في القرون التالية واستخدم بنطاق واسع في القرن العشرين .

ولما لم يؤثر التوازن الدولي في توطيد السلام واستمر العدوان بعد الحرب العالمية الاولى اصبح الضمان الاجماعي لاجل السلام اساسا للدبلوماسية الحديثة .

ومن نتائج حرب الثلاثين سنة المباشرة تقلص الامبراطورية الرومانية المقدسة وتدهورها وتأجيل الوحدة الالمانية بسبب انانية امراء الولايات وتدخل الاجانب في شؤون المانيا الداخلية كفرنسا والسويد والدانيمرك . هذا من الناحية السياسية ، اما من الناحية الاقتصادية فقد تحولت المانيا الى اراض قاحلة بفعل الحرب والتدمير . فقد قضي على ثلثي السكان (اي حوالي ١١ مليون نسمة) وخرب حوالي خمسة اسداس القرى والارياف واصبحت ثلث الاراضي في شمال المانيا غير قابلة للزراعة . كما انتقلت التجارة الالمانية الى هولندا وفرنسا . وقد انعدم التعليم وسادت الخرافات في جميع انحاء البلاد . ويكفي ما لاقت المانيا من البؤس والدمار ان عائلة من بلاتينات نهبت ثمان مرات خلال سنتين ، وكان قطعان الذئاب تحوم حول الجثث في سكسونيا .

أما اسپانيا فعلى الرغم من ان اراضيها لم تكن ساحة حرب لأنها كانت تحارب في هولندا وايطاليا وجنوب المانيا ، لكن الجيش الاسپاني خسر عددا كبيرا من الشبان نتيجة للقتال المتواصل منذ القرن السادس عشر . وكانت النتيجة ان ضعفت اسپانيا ماليا وعسكريا . ومع ان فيلب الرابع بذل جهده لانقاذ عائلة هبسبرگ النمساوية ، لكن الامبراطور لم يبذل نفس الجهد لصد فرنسا عندما أرادت الحصول على الاراضي الاسپانية . ولما طلب فيلب من الامبراطور فردنند الثالث مواصلة الحرب معه ضد فرنسا بعد ١٦٤٨ ، رفض فردنند ذلك ، فاضطرت اسپانيا ان تواصل الحرب وحدها ضد فرنسا لمدة اكثر من عشر سنوات اخرى الى ان انتهت سنة ١٦٥٩ بمعاهدة البرنس . وقد تنازلت اسپانيا بموجبها عن مقاطعة روسليني في شرقي جبال البرنس ،

والجزء الجنـوبي من بلجيكا بما فيهـا مدينة أرتوا وعدد من المدن الحصينة لفرنسا • كما وافق فيلب الرابع ان يزوج بنته (ماريا تريزا) من الملك الفرنسي لويس الرابع عشر • وعلى أثر ذلك لم تطلب فرنسا اكثر من هذا من اسپانيا ، املا بان بنت فيلب الرابع تجلب معهـا ثروة عظيمة ، لكن الحقيقة كانت اسپانيـا فقيرة فعلا ولم تستطع دفـع نفقة الملكة الجديدة لفرنسـا • وقد حاول فيلب الرابع اسـترجاع البرتغال لكنه فشل ومات سنة ١٦٦٥ ، وترك العرش لابنـه شارل الثاني الصغير وبموته انتقلت سيادة اوربا من اسپانيا الى فرنسا •

تدهور اسبانيا فى القرن السابع عشر :

تمتعت اسپانيـا بالسيادة الاوروبيـة الى منتصف القرن السابع عشر • وكان التدهور والانحلال قد بدأ منذ أواخر حكم فيلب الثاني • ويمكن اعتبار حرب الارمادا نقطـة تحول في تأريخ اسبانيا لانها أثبتت عجز فيلب الثاني في السيطرة على الشؤون الاوروبيـة والتحكم فيها • ومـع ذلك فان الفشـل لم يؤثر على حكم ونفـوذ عـائلة هبسبرگ الاسپانيـة •

وقد استمرت اسپانيـا اقوى دولة في اوربا واكثرهـا ثروة خلال النصف الاول من القرن السابع عشر • وظلت العلاقات قوية بين فرعي عائلة هبسبرگ الاسپانية والنمساوية • وقد بيّنا ان فيلب الثالث خلف اباه فيلب الثاني سنة ١٥٩٨ ، وحكم الى سنة ١٦٢١ • كما ان ابنه فيلب الرابع ١٦٢١—١٦٦٥ ، دخـل في حرب الثلاثين سنة لمسـاعدة اقاربه النمساويين ، ولاستعادة هولندا والبرتغال واذلال فرنسا • وكان الوضع الدولي عاملا مهما في احتفاظ اسپانيا بسيادتها • اذ ان الحروب الاهلية

في اواخر القرن السادس عشر دمرت فرنسا • كما ان مقتل هنري الرابع والاضطرابات التي حدثت في عهد رشيليو ومازارين كما سنرى في الفصل القادم انهكت قوى فرنسا في النصف الاول من القرن السابع عشر • وكانت المانيا قد دمرتها حروب الثلاثين سنة في هذا الوقت • اما انكلترا فقد انشغلت باضطراباتها الداخلية والصراع بين الملك والبرلمان الذي ادى الى الحرب الاهلية • ولهذه الاسباب كلها عاشت اسپانيا في فترة سلم ورخاء نسبي • وكانت الحرب قد انتهت بينها وبين هولندا بموجب هدنة ١٦٠٩ ، فصارت اسپانيا تتمتع بثروتها ومستعمراتها وتجارتها الشرقية • وقد تقدمت الفنون والآداب في هذه الفترة ، وظهر الفنانون والادباء من امثال ڤالاسكويز ، وموريللو ، وجيزويت ماريانا وغيرهم •

وعلى الرغم من تدفق الثروة وازدهار الفنون والآداب بدأت اسپانيا تتدهور وتفقد سطوتها ونفوذها في اوربا بسبب العوامل التاليـة :

(١) ان الثروة الضخمة التي تدفقت الى اسپانيا من ما وراء البحار لم يستفد منها الشعب الاسپاني ، انما استفاد منها فئة قليلة من التجار والنبلاء ، وكان اغلب المستفيدين هم التجار والرأسماليين الاجانب وخاصة الهولنديين والالمان وبالدرجة الثانية الايطاليين كما لاحظنا ذلك من قبل •

(٢) كان الصناع والفنانون المهرة من الطبقة الوسطى أغلبهم من الموريسكوس (اي المراكشيين بقايا العرب في اسپانيا المعتنقين

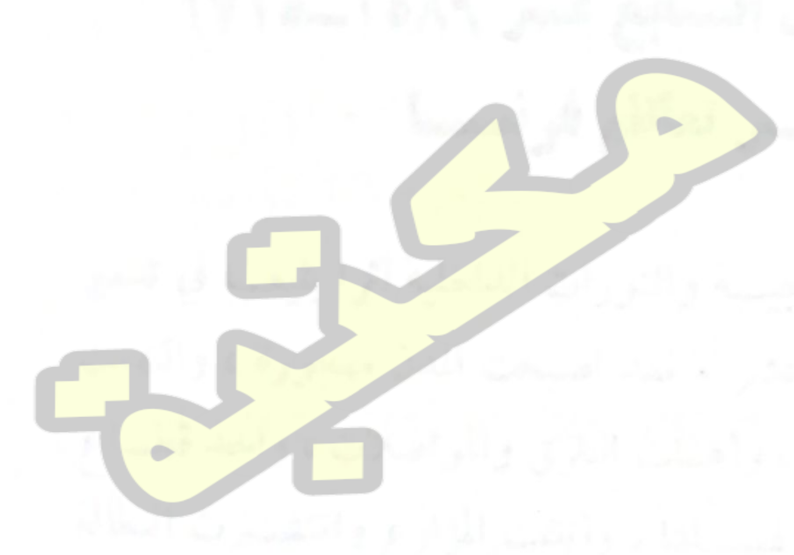
المسيحية) ، وقد اضطهدتهم الحكومة الاسبانية بغية تحقيق الوحدة القومية والدينية ، ثم اجبرتهم على ترك البلاد سنة ١٦٠٩ • وبذلك فقدت اسبانيا الطبقة الصناعية التي كانت باستطاعتها الاستفادة منها لتطوير الرأسمالية فيها •

(٣) ان الضرائب الكثيرة المفروضة على الشعب أدت الى اضعاف الاحوال الاقتصادية للشعب الاسباني •

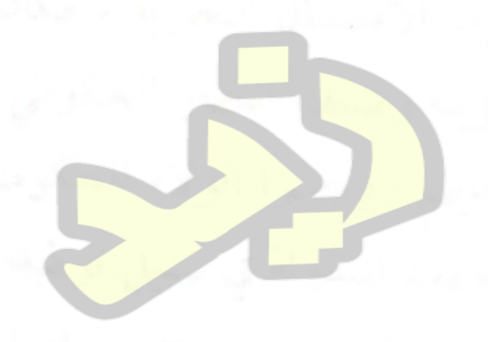
(٤) تدخل اسبانيا في الشؤون الاوروبية ودخولها في حرب الثلاثين سنة ولمدة خمسين سنة بالنسبة لاسبانيا ، أدى الى نتائج وخيمة بحيث خرجت اسبانيا من الحرب دولة مغلوبة على أمرها وفقدت مستعمراتها وجميع ثرواتها •

(٥) كانت الملكية المطلقة والادارة المركزية سببا آخر لتدهور اسبانيا • فلا يستطيع شخص الملك انجاز كل الامور الخاصة بهذه الامبراطورية الواسعة • ولما كان ملوك اسبانيا بعد فيلب الثاني ضعفاء عيّنوا حكاما اتصفوا بالضعف وعدم الكفاءة ولهذا شل الجهاز الحكومي وتدهور بعد منتصف القرن السابع عشر • ويعزى ضعف ملوك اسبانيا الى التزاوج بين ابناء وبنات العم من فرعي عائلة هبسبرك الاسبانية والنمساوية • فقد كان شارل الخامس وفردنند الاول شقيقين ، وقد تزوج فيلب الثاني ابن شارل الخامس بنت ابن عمه الامبراطور مكسمليان الثاني ابن فردنند الاول • بينما تزوج مكسمليان

اخت فيلب الثاني • ولهذا كان فيلب الثالث ابن فيلب الثاني حفيد مكسمليان •. وهكذا استمرت المصاهرة بين العائلتين بحيث ان شارل الثاني ابن فيلب الرابع آخر ملك من عائلة هبسبرگ الاسپانية كان مريضا طوال مدة حكمه التي دامت قرابة اربعين سنة وانتظر ملوك اوربا موته بفارغ الصبر سنة ١٦٩٧ •







الفصل السابع

فرنسا في القرن السابع عشر ١٥٨٩ـ١٧١٥

عصر تعاظم فرنسا

كان للحروب الخارجية والثورات الداخلية أثرا بليغا في تدمير فرنسا في القرن السادس عشر . فقد اصبحت المدن مهجورة ، والتهمت النيران عددا كبيرا منها ، وأهملت الطرق والمواصلات ، واخذ قطاع الطرق يعيثون في الارض فسادا ، وأتلفت المزارع وانتشرت البطالة بسبب وقوف الاعمال التجارية . فكان نصيب الدولة من كل ذلك افلاس الخزينة وضعف الجهاز الحكومي مما شجع النبلاء ان يأخذوا السلطة بأيديهم ويرفضوا الولاء للحكومة المركزية . فبدا للمرء لاول وهلة ان الجهود المبذولة في سبيل توطيد اركان الدولة وتوحيد البلاد منذ القرن الخامس عشر ستذهب ادراج الرياح ، لكن ظهور بعض الشخصيات القوية انقذ الوضع ، اذ تمكنوا من استتباب الامن وارجاع النظام الى نصابه ، والقيام بسلسلة من الاصلاحات التي من شأنها تقوية السلطة المركزية والملكية المطلقة وجعل فرنسا اقوى دولة في اوربا في القرن السابع عشر . وكان اول هؤلاء هو هنري نافار المعروف بهنري الرابع .

عائلة بوربون والملكية المطلقة :

لم يكن الحكم المطلق الذي استقر في فرنسا على يد آل بوربون تعوزه الاسس النظرية . فمنذ عام ١٥٧٦ ، ايد الكاتب الفرنسي « جان بودان » ذلك النمط من الحكم . لقد كان بودان محاميا من جملة موظفي الملك ومتأثرا بالتراث الكلاسيكي . واعتقد هو كمن سبقه من كتاب الرومان بان الملك فوق القانون ، وان كل شيء في الدولة خاضع لارادته ، ومن واجب الناس جميعا ان يقدموا له الطاعة . وليس من حق البرلمان مشاركة الملك في سلطته العليا ، اذ ليست البرلمانات الا مجالس استشارية[1] .

هنري الرابع اول ملك آل بوربون

١٥٨٩ ـ ١٦١٠

صفاته :

يعتبر هنري الرابع رأس عائلة بوربون ، وتسنم العرش سنة ١٥٨٩ ، عقب حروب دموية انتهت بموت هنري الثالث ملك فرنسا ونهاية اسرة ڤالوا المالكة . كان هنري الرابع رجلا قويا يفيض حيوية ونشاطا . وكان حاد الذكاء ولا تفارق الابتسامة وجهه مما يدل على خفة روحه وعلو همته . وكان شغوفا باصلاح امور المملكة وتمشية مصالح الناس والترفيه عنهم . لكن مع ذلك عرف بالبخل وحب الذات ،

---

(1) Gottschalk, op. cit; pp. 261-278
Hayes, op. cit; pp. 276-319.

ولكونه كان عسكريا لم يعطف على معارضيه ، واراد تنفيذ اوامره دون هوادة •

هنري الرابع ومرسوم نانت :

استمرت الحرب الاهلية في فرنسا مدة اربع سنوات بعد اعتلاء هنري الرابع العرش • ولكي يثبت مركزه ترك هنري المذهب البروتستنتي واعتنق الكثلكة مذهب اكثرية فرنسا وذلك سنة ١٥٩٣ ، وعندئذ انتهت الثورة • وفي سنة ١٥٩٨ ، اصدر هنري مرسوما في مدينة نانت منح بموجبه الحرية الدينية للبروتستانت الفرنسيين (الهيگونوت) والذي نص على ما يلي :

(١) أن للبروتستانت الحق في ممارسة شعائرهم الدينية والقيام بطقوسهم في اماكنهم الخاصة دونما تدخل من قبل الحكومة او اية جهة من الجهات •

(٢) للبروتستانت الحق في ممارسة شعائرهم الدينية في المحلات العامة في ٢٠٠ مدينة ، و٣٠٠٠ قلعة في فرنسا •

(٣) تمنح الحكومة الفرنسية المساعدات المالية للمدارس البروتستانتية •

(٤) السماح لهم بنشر الكتب البروتستانتية وعدم مضايقتهم من قبل الهيئات الحكومية والكاثوليكية •

(٥) للبروتستانت حقوق دينية وسياسية كاملة •

(٦) يحق للبروتستانت عقد الاجتماع لممارسة بعض الامور القضائية •

(٧) ولضمان تنفيذ هذه المقررات منحت الحكومة البروتستانتين حق السيطرة على ٢٠٠ مدينة محصنة لمدة ثمان سنوات .

لقد كان هـذا المرسوم بداية الحرية الدينية في فرنسـا ، لكن لم يرض البروتستانت بذلك لان هـذه الامتيازات منحت لا عن عقيدة ، انمـا لضرورات سياسية لان هنري كان يعتقـد ان الفرنسيين يجب ان لا يحاربوا بعضهم بعضـا بسبب القضايا الدينية وارتد هو نفسـه الى الكثلكة . كما ان الكاثوليك لم يرضوا عنه ، لانه منح الحرية الدينية الى البروتستانت ، وقد اغتيل بيـد كاثوليكي متعصب . وقد استمرت حرب هنـري الرابع مع فيلب الثاني ملك اسبانيـا الى سـنة ١٥٩٨ ، وانتهت في تلك السنة بمعاهدة ڤيرڤن Vervin ، التي اكدت فيها على مقررات معاهدة سنة ١٥٥٩ ، والتي بموجبهـا اعترفت فرنسا بسيطرة اسبانيا على نابولي وصقلية ودوقية ميلانو في ايطاليـا ، بينما اعترفت اسبانيا بسيطرة فرنسا على المدن الالمانية الثلاثة ميتز وتول وڤيردون .

اصـلاحات سـولي :

وبعـد ان تغلب هنري الرابـع على الاضطرابات الداخلية واعاد الامن والاستقرار الى البـلاد ، قام باصلاحات واسـعة بواسطة وزير المالية « ديوك اوف سولي » .

كان سولي بروتستانتيا مخلصـا يميل الى الاقتصاد في النفقات . وقد قام بجولة في فرنسا فشاهد الوضـع المالي المزري فقرر اصلاحه . وكان اول اجراءاته ان منع حكام الاقاليم من فرض الضرائب وجمعهـا وأزال مساوىء جبـاية الضرائب وبهذه الواسـطة استطاع سولي ان يقتصد مليون جنيـه سنويا بين ١٦٠٠ ـ ١٦١٠ . وكـان الملك يؤيد

سياسة سولي الاقتصادية بحماس فقلل من المساعدات المالية الى الفنانين والمحسوبين وأمر بتسريح الجنود فلم يبق الا عددا يكفي للقضاء على الثورات الداخلية واستتباب الامن في فرنسا .

ولاجل المحافظة على السلام العالمي اقترح سولي نوعا من الاتحاد الكونفيدرالي بين الدول في العالم سمي بمشروع سولي العظيم . لكنه فشل نظرا لتضارب مصالح الدول الاوروبية . وكان هذا بداية للتفكير في مسألة نزع السلاح والسلام العالمي الا ان الوقت لم يكن قد حان لتطبيقه[1] .

وقد حاول سولي ايجاد مصادر جديدة للثروة في البلاد لنشر الرخاء والرفاه الاقتصادي بين ابناء الشعب . وكان سولي يعتقد ان مصدر الثروة في البلاد هو الزراعة ولهذا يجب تشجيعها حتى اذا كان ذلك على حساب التجارة والصناعة . وتنفيذا لهذا الغرض الغى سولي المكوس على المنتجات الزراعية بين المقاطعات الفرنسية المختلفة ، وساعد على تربية المواشي وتجفيف المستنقعات ، ومنع قطع الاشجار للمحافظة على الغابات وشرع في بناء الطرق والمواصلات ، ووضع مشروعا لفتح القنوات وبناء الجسور . وقد ادخل دودة القز في البلاد لصناعة الحرير التي اصبحت شهيرة في فرنسا وبسببها تقدمت كل من مدينة باريس وليون ومارسيليا .

وقد شجع هنري التجارة وابتنى السفن التجارية ، وشرع في تأسيس اسطول حربي وأخذ يمزق احتكار اسبانيا التجاري

---

(1) David Ogg, Europe in the 17th Century. (London, 1965), pp. 51-72

الاستعماري وينافس هولندة وانكلترا في تجارة البحار وقد استحصل لفرنسا على مرافق تجارية في الهند ، أسس نواة الامبراطورية الفرنسية الاستعمارية في امريكا . وهكذا وضع هنري الرابع الاسس اللازمة لتعاظم فرنسا .

أغتيل هنري الرابع سنة ١٦١٠ ، كما نوهنا سابقا وكاد زواله على مسرح السياسة الفرنسية يؤدي الى انهيار الصرح الذي بناه هو ووزيره سولي لولا ظهور بعض الشخصيات البارزة من امثال رشيليو ومازارين انقذوا الموقف .

الملكة ماري مديتشي :

كان لويس الثالث عشر في التاسعة من عمره لما اغتيل ابوه هنري الرابع ، فوضع تحت وصاية امه ماري مديتشي . كان البروتستانت يكرهون سياسة ماري الكاثوليكية ، ولم يرض عنها النبلاء مطلقا لانهم أرادوا الاحتفاظ بنفوذهم وامتيازاتهم . وقد افلست الخزينة نظرا لان الملكة احاطت نفسها بالمحسوبين الذين كلفوا الدولة اموالا كثيرة ، فواجهت الحكومة مشكلة مالية أجبرتها على استدعاء مجلس الطبقات سنة ١٦١٤ ، للموافقة على ضرائب جديدة . وكان ملوك فرنسا يحاولون منذ عهد لويس الحادي عشر الغاء هذه المؤسسة التي هي بمثابة البرلمان ، لانها تقلل من سلطانهم المطلق فلم يدعوها الى الانعقاد الا عند حدوث الازمات الاقتصادية او الاضطرابات الداخلية . ولم يستطع مجلس الطبقات أن يلعب دورا هاما في تكوين حكومة دستورية برلمانية على غرار انكلترا في ذلك الوقت ، لان تركيب مجلس الطبقات حال

دون ذلك . فكان النبلاء ورجال الدين والطبقة العامة يجتمعون بصورة منفصلة في غرف ثلاث ، كل طبقة في غرفة خاصة . ولم يرض النبلاء ورجال الدين الاجتماع بالطبقة العامة في قاعة واحدة ، ورفضوا التصويت بحسب الافراد دون الطبقات كما رفضوا دفع الضرائب . واظهروا سخطهم للپروتستانت الذين كانوا يؤلفون عددا لا يستهان به من الطبقة العامة . ولم يعطفوا على الفلاحين الذين تألف منهم معظم سكان فرنسا . ولهذا لم يستمر اجتماع مجلس الطبقات اكثر من ثلاثة اسابيع . وفشلت المهمة التي اجتمع من اجلها المجلس ، فأمرت الملكة بغلق قاعة الاجتماع مدعية انها تحتاج اليها للرقص ، وبعثت النواب الى بيوتهم . ولم يستدع المجلس بعد ذلك مدة ١٧٥ سنة اي الى الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

وقد تدهورت شؤون الدولة بعد ذلك وساءت الاحوال وانتشرت الفوضى ، واشتد النزاع بين النبلاء والپروتستانت من جهة ، وبين هؤلاء جميعا والبلاط الملكي من جهة اخرى . وكانت سياسة ماري ترمي الى تقوية العلاقات الودية ومحالفة اسبانيا ظنا منها ان اسبانيا دولة قوية تساعدها في التغلب على مشاكلها الداخلية ، بعكس هنري الرابع الذي اعتبر اسبانيا عدوة تقليدية لفرنسا وحاول ان يثبط محاولات فيلب الثاني في تدخله في شؤون فرنسا . وقد دبرت ماري زواج ابنها لويس الثالث عشر بالاميرة آن النمساوية بنت فيلب الثالث ملك اسبانيا ، وبذلك واجهت ماري معارضة قوية في فرنسا ، وثار النبلاء البروتستانت ضدها . ولما بلغ لويس الثالث سن الرشد مارس الحكم بنفسه واجبر امه على التخلي عن شؤون الدولة .

لويس الثالث عشر

لم يكن لويس الثالث عشر يمتاز بالمقدرة في الحكم لانه كان مغرما بالصيد ويحب اللهو والتسلية ومجالس الانس والاستماع الى الموسيقى ، ولهذا لم يكن باستطاعته ان يحسن الاحوال التي تدهورت اليها فرنسا منذ موت ابيه هنري الرابع . لكنه اعتمد في ادارة شؤون الدولة على وزيره الشهير الكردينال رشيليو .

الكردينال رشيليو ١٥٨٥-١٦٤٢ :

ولد الكردينال ارماند دي رشيليو سنة ١٥٨٥ ، وقد أهلته دراسته للوظائف الدينية فتعين اسقفا في احدى المقاطعات الصغيرة وعمره (٢١) سنة ، وقد ظهرت براعته لاول مرة عندما دافع عن رجال الدين الكاثوليك ببلاغة متناهية في اجتماع مجلس الطبقات سنة ١٦١٤ ، فدعته الملكة ماري مديتشي الى البلاط واصبح احد مستشاري الملكة ، وأشارت هذه الى البابا ان يعينه كردينالا للكنيسة في فرنسا ، وقد ارتفعت منزلته وعلا شأنه وصار المستشار الرئيسي للملك لويس الثالث عشر سنة ١٦٢٤ .

لقد امتاز رشيليو بالحكمة والدهاء ، وعلى الرغم من احتلاله منصبا رفيعا في الكنيسة الكاثوليكية كان ولوعا بامور الدولة . وكانت خدمته في سبيل اعلاء شأن المملكة اكثر من خدمته في سبيل الله . وقد جمع في جسمه النحيف ارادة جبارة وذكاء وقادا . ودلت سيماء وجهه الشاحب المستطيل على قسوة ومضاء عزيمة كثيرا ما جعلت اعدائه يرتعدون خوفا بين يديه .

سياسته :

تمكن رشيليو بذكائه الثاقب ان يعرف جذور الفساد في فرنسا فقرر ان يستأصلها . وقد وعد الملك عند تعيينه ان يبذل ما في وسعه للقضاء على البروتستانت الهيگونوت وتحطيم النبلاء ، وتوجيه الناس نحو واجباتهم ، واعلاء شأن الملك بين الدول الاجنبية . وقد قضى بقية ايام حياته في تنفيذ هذه الوعود . ولما عارضت الملكة ماري مديتشي أمر رشيليو بنفيها . ولم يكن لويس الثالث عشر يحبه ، انما خوّفه رشيليو فلم يستطع الاستغناء عنه وخاصة لما كان يبديه من الاخلاص لبلاده وللتاج الفرنسي .

القضاء على الهيگونوت او البروتستانت :

لقد كان رشيليو رجلا سياسيا يستخدم السياسة لخدمة الدولة ، فبينما كان يساعد البروتستانتيين في المانيا ضد الامبراطور ، اخذ ينزل ضرباته على الهيگونوت أو البروتستانتيين الفرنسيين باعتبارهم يخلقون المشاكل للدولة . لقد كانت البروتستانتية في فرنسا حزبا سياسيا ودينيا متنفذا وباعثا على انشقاق الوحدة الوطنية . وقد منحهم هنري الرابع امتيازات كثيرة بموجب مرسوم نانت المار الذكر . ولم يكن رشيليو يرغب في حرمانهم من حرية العبادة وانما اراد ان يجعلهم خاضعين لاوامر الدولة من الناحية السياسية . ولما ثاروا سنة ١٦٢٥ ، قرر رشيليو تحطيمهم . وعلى الرغم من المساعدات الانگليزية التي حصلوا عليها ، لم يستطع الهيگونوت الصمود امام ارادة رشيليو الحديدية ، فحاصرهم في مدينة لاروشيل المحصنة (١٥) شهرا واجبرهم على الخضوع . وقد منحهم حرية العبادة وظلت وظائف الدولة مفتوحة

امامهم بموجب مرسوم (آلي Alais) لسنة ١٦٢٩ ، لكن منعهم من عقد الاجتماعات السياسية ودك حصونهم •

تحطيم النبلاء :

واجه رشيليو مصاعب كثيرة في معالجته معارضة النبلاء • لقد جرت العادة تعيين بعض النبلاء حكاما على الاقاليم المتعددة التي تألفت منها فرنسا ، لكنهم بدلا من ان يكونوا موظفين اداريين خاضعين لاوامر السلطة المركزية ، استقلوا وتحدوا اوامر الحكومة المركزية في باريس وألفوا جيوشا لانفسهم ، وانتشرت قلاعهم الحصينة هنا وهناك الامر الذي جعلهم في وضع يهددون به الحكومة المركزية متى شاؤا • ومما زاد في الطين بلة ان النبلاء في البلاط الملكي قاموا بحبك المؤامرات ضد الكردينال الذي بلغ اعلى منصب ديني ودنيوي في الكنيسة والدولة ، واخذوا يضايقونه في كل مكان • وكان زعيمهم (ديوك اوف اورليان) آخو الملك ، والملكة الوالدة ماري مديتشي[1] •

ولاجل القضاء على النبلاء بث رشيليو الجواسيس والعيون في جميع انحاء فرنسا للكشف عن مؤامراتهم ، ولم يتردد في قتل زعمائهم واخماد ثوراتهم مهما كانت خطيرة وقضى على مسببيها بالموت • ولم يخش من التهديد والوعيد ولا تأثر بالالتماس والاستعطاف فبعث الرعب في قلوب النبلاء وكأنه القضاء المنزل •

وفي سنة ١٦٢٦ ، اصدر مرسوما يقضي بتدمير القلاع المحصنة التي لا تحتاجها البلاد في الدفاع الخارجي ، وساعده في تنفيذ ذلك

---

(1) Ibid; pp. 183-226

الفلاحون وسكان المدن الذين لاقوا الامرين من تعسف النبلاء .

جعل الادارة مركزية في فرنسا :

لم يكن الحكام الاقطاعيين يمتازون دائما بالكفاءة الادارية ، انما حصلوا على مناصبهم عن طريق المحسوبية والرشوة ولهذا قرر رشيليو ان يخلد اعماله بجعل الادارة مركزية . وقد عين حكاما جددا اختارهم من بين المحامين والطبقة المثقفة ، وخولهم جميع السلطات الضرورية لادارة الاقاليم ، كالاشراف على جباية الضرائب ، وتنظيم الشرطة المحلية والجيش والمحافظة على الامن والنظام والنظر في الامور القضائية . وقد اطلق على هؤلاء اسم الطغاة الثلاثين ، نظرا لانهم كانوا ينفذون القوانين ويقدمون التقارير الى الحكومة المركزية التي كانوا مدينين اليها بوظائفهم .

لم تكن الحكومة الفرنسية في عهد رشيليو متماسكة الاجزاء كما هي الحالة الآن ، انما كانت عبارة عن رشيليو والحكام الذين يأتمرون بأوامره ، اذ لم تكن هناك حكومة مركزية قوية تتشعب دوائرها في جميع انحاء فرنسا ، ولم يحاول رشيليو تأسيس جهاز كهذا .

لكن مع ذلك استطاع رشيليو ان يقلل من نفوذ الاقطاع ويعزز سلطة الملك المطلقة ، ويوجه الناس الى طاعته ، ويفرض ارادته على جميع اجزاء فرنسا ويجبرهم على تنفيذ اوامره . ومع انه لم يلغ مجلس الطبقات رسميا لكنه لم يأمر بجمعه خوفا من ان ذلك يقلل من سلطة الملك المطلقة فاصبح مهملا . وهكذا وضع رشيليو الاسس الضرورية لتقوية الملكية المستبدة بالقضاء على الاقطاع وتقليص القوة السياسية

للهيكونوت ، فصار الجيش بعد ذلك يعرف بجيش الملك والخزينة بخزينة الملك .

لقد اشترك رشيليو في الحروب الثلاثين سنة كما رأينا ، وحصلت فرنسا في زمانه على مكانة عظيمة بين الدول في اوربا ، اذ انتصرت في الحرب بفضل قائدين عظيمين هما تورين ، وكوندي وهما من أشهر قواد فرنسا . كان رشيليو وطنيا مخلصا لعائلة بوربون ، واستطاع ان يكون من فرنسا دولة عظمى باضعاف اسبانيا وعائلة هبسبرك النمساوية . وكان مستعدا لمساعدة اية دولة تحارب أسرة هبسبرك في حرب الثلاثين سنة . ولم يعش رشيليو ليرى ثمرة سياسته الخارجية اذ توفي سنة ١٦٤٢ ، أي قبل انتهاء الحرب بست سنوات . وتوفي لويس الثالث عشر في سنة ١٦٤٣ ، وترك العرش لابنه الصغير لويس الرابع عشر الذي كان في الخامسة من عمره .

عصر لويس الرابع عشر

١٦٤٣–١٧١٥

الكردينال مازارين ١٦٠٢–١٦٦١ :

بلغ الحكم المطلق ذروته في عهد لويس الرابع عشر ، ذلك العهد الذي استغرق اكثر من سبعين عاما . ولم يكن من المستبعد ان تصيب فرنسا كارثة عظيمة واضرارا جسيمة بعد موت رشيليو لولا أن الكردينال مازارين ١٦٤٣–١٦٦١ ، قبض على زمام الحكم بيد من حديد ، واحتذى سياسة سلفه الكردينال رشيليو . لقد كان مازارين

ايطاليا من نابولي ، وخدم الكنيسة في روما واسبانيا وقام بعدة مهام دبلوماسية للبابا آخرها كانت في باريس • وتقرب من رشيليو فاستخدمه لويس الثالث عشر واصبح مواطنا فرنسيا في ١٦٣٩ • وقد ترقى في المناصب الحكومية واصبح كردينا لاوخليفة لرشليو بعد موت الاخير •

كان مازارين مثل رشيليو ولوعا بامور الدولة ومهتما بها ، ولم يكن أقل ذكاء وكفاءة في الادارة والسياسة • وقد انتهت حرب الثلاثين سنة في زمانه وحصد ما بذره رشيليو ، كما انتهت الحروب الطويلة ضد اسبانيا ايضا بمعاهدة البرانس سنة ١٦٥٩ وقد بحثناها في فصل حروب الثلاثين سنة • ولقد قضى مازارين على آخر ثورة قام بها النبلاء ضد الحكم المطلق وهي ثورة الفروند •

ثورة الفروند ١٦٤٨–١٦٥٢ :

كانت ثورة الفروند آخر محاولة قام بها النبلاء لاستعادة نفوذهم وتقييد سلطة الملك • وقد استطاع رشيليو أن يكبح جماحهم ويقضي على نفوذهم • لكن بعد موته انتهز النبلاء الفرصة ضد الكردينال مازارين الايطالي الاصل ونالوا مساعدة الطبقة الوسطى ، فاتهموه بنهب الخزينة وتدخله في شؤون البرلمانات في فرنسا • أما هذه البرلمانات فكانت عبارة عن هيئات قضائية عددها (١٣) في فرنسا في القرن السابع عشر • وكانت تحاكم القضايا المهمة في الدولة وتنظر في قضايا الاستئناف من المحاكم الصغيرة • وكان برلمان باريس أهم هذه البرلمانات ، اد كان من بين وظائفه الاخرى تسجيل المراسيم والاوامر الملكية • وقد بلغ نفوذ برلمان باريس درجة كان يرفض في بعض الاحيان

تسجيل بعض المراسيم مدعيا ان الملك قد استشار الجاهلين بقوانين البلاد ، او ان هذه المراسيم تتنافى مع القوانين والمراسيم السابقة ، وكان يرجو من الملك بان يغير رأيه ويعدل المرسوم او يلغيه • ونتيجة لذلك أخذ الملك يحضر جلسات البرلمان بنفسه ويأمر بتعديل أو تغيير او تسجيل المراسيم •

وقد تأثر برلمان باريس بالثورة الانكليزية التي نشبت في هذا الوقت واعلن حصانة البرلمان من بطش الملك وسيطرته ، وتحدى لويس الرابع عشر والكردينال مازارين باعلان عدم جواز فرض الضرائب او جمعها ما لم تكن هذه الضرائب مفروضة من قبل ممثلي الشعب • وألغى البرلمان بعض الدوائر الحكومية واحتج ضد التوقيف والسجن دون تبرير • وقد ساند جماهير باريس البرلمان في مطاليبه • ولما كان مازارين لا يزال منشغلا بحرب الثلاثين سنة أذعن لمطاليب البرلمان • وما ان انتهت الحروب ورجعت الجيوش الفرنسية سنة ١٦٤٨ ، الا وألغى مازارين سلطة البرلمان • لكن الجماهير استمرت في ثورتها الى ان قضى عليها نهائيا سنة ١٦٥٢ • وكانت نتيجة ثورة الفروند (١) القضاء على نفوذ النبلاء نهائيا (٢) عدم السماح للبرلمان بالتدخل في الشؤون السياسية والمالية (٣) عدم السماح للباريسيين بحمل السلاح وانتخاب موظفي البلدية (٤) اصبح نفوذ الملك اكثر مما كان عليه في زمن الكردينال رشيليو • وهكذا اغتنم مازارين كل فرصة لتقوية سلطة الملك • فلما توفى سنة ١٦٦١ ، كان لويس الرابع عشر قد بلغ سن الرشد وكان طريق الحكم المطلق ممهدا امامه بفضل جهود رشيليو ومازارين وجده هنري الرابع •

لويس الرابع عشر

الحكم المطلق :

أعلن لويس الرابع عشر بعد وفاة مازارين انه يحكم البلاد ويدير السياسة الداخلية والخارجية بمفرده . وكان لويس رجلا انيقا ومهابا تمثل فيه الملكية المطلقة المستندة على حق الملوك الالهي . وكان يلقب بالعاهل العظيم نظرا لانه طبق ما كان يدعيه . وكانت نظرية الدولة التي تمثلت في لويس قد تبلورت بشكل انيق من قبل الاسقف بوسويه ١٦٢٧–١٧٠٤ ، الذي كان يعلم اولاد الملك . كانت الحكومة في نظر بوسويه « هبة الهية لتنظيم البشر في مجتمع سياسي للعيش معا . والنظام الملكي هو النظام الطبيعي الذي امتاز بالكفاءة والقوة ، ولهذا فهو احسن انواع الانظمة . ولما كان هذا النظام اشبه بالعائلة التي يحكمها الاب فيجب ان يكون النظام الملكي وراثيا . والملك مقدس لانه دهن بالزيت المقدس عند التتويج في الكنيسة ، والاعتداء على شخص الملك والتآمر ضده كفر والحاد . ولما كان الملك بمثابة الاب لشعبه فله الحق دون غيره ان يرفه عنهم وينشر الرخاء بينهم . ان سلطة الملك مطلقة ولا يمكن لاحد ان يحاسبه سوى الله . ولا يجوز لاحد ان يعصي اوامره . ان الملك ظل الله في ارضه ، موهوب بعقل أرجح من عقول بقية الناس ويجب ان لا ينظر اليه كمجرد انسان انما هو شخصية عامة يتمثل فيه الشعب بأسره . واذا ساء فعله فما على الناس سوى ان يبتهلوا الى الله ان يهديه الطريق المستقيم . »

هذه هي نظرية حق الملوك الالهي التي دبجتها يراعة بوسويه والتي

استند اليها لويس الرابع عشر في حكمه واعتقد بها معاصروه وكذلك الناس من بعده[1] .

التنظيم الاداري :

جعل لويس الرابع عشر ادارة مملكته مركزية وانشأ عددا من الوزارات كالمالية والجيش والبحرية والاشغال العامة التي كانت في السابق تحت سلطة وزير واحد . واصبح الوزراء هؤلاء تحت حكمه وينفذون اوامره والسياسة التي يقررها . ونظم السلك الدبلوماسي والجيش وأصلح المالية . وكان الوزراء يساعدهم في الحكم امناء السر والمساعدين في العاصمة ، والحكام والموظفين في المقاطعات ويقدمون التقارير بشأن اعمالهم الى الملك دون ان يتخذوا الاجراءات اللازمة الا بعد الحصول على موافقة الملك . ولاجل اضعاف النبلاء أعطاهم الوظائف في العاصمة دون ان يكون لديهم نفوذ . كما ازدادت سلطة الحكام في المقاطعات اكثر مما كانت عليه في عهد رشيليو على حساب المجالس البلدية ومجالس الادارة ، فكانوا مسؤولين ايضا عن مالية المقاطعة وصناعتها وزراعتها بالاضافة الى الادارة والقضاء والامن والنظام . وكان الملك هو الذي يعين موظفيه ويخضعون لاوامره .

ولقد عمل ثلاثين سنة بعد اعتلائه العرش على تنظيم اجهزته الحكومية وتحسينها وتقوية ادارتها وتسهيلها بحيث اصبح اعظم انجاز قام به خلال مدة حكمه . وهكذا كان الملك هو الحاكم بأمره يعمل ليلا ونهارا لادارة مملكته . وكان يقول « ان الفرد يحكم بالعمل ولاجل

(1) Ibid; pp. 281-322

العمل . » ولما كان يجلس على عرشه المذهب تحف به حاشيته وعليهم سيماء البشر والتزلف والطاعة .

ڤيرساي :

وقد ابتنى لويس لنفسه قصرا فسيحا في ڤيرساي على بعد ١٢ ميل من باريس لا يضاهيه قصر آخر في الروعة والجلال . كان قصر ڤيرساي يسع بالاضافة الى الملك واهله مئات من النبلاء وعدد كبير من الخدم والجنود . وكانت تزين غرفه وردهاته انواع الاثاث والنقوش المزركشة بالذهب وانواع التصاوير . وكان كل ما فيه على نمط يظهر عظمة لويس الرابع عشر . وكان ڤيرساي تحفه الحدائق الغناء والبرك الاصطناعية وانواع التماثيل ، كما كانت تكتنفه غابات يصطاد فيها الملك اذا ما أراد . ولا يزال ڤيرساي ومرابعه يدهش الزوار .

وعبثا حاول الملوك تقليد ذلك المسكن الفخم والمتنزه البديع ، اذ لم يظهر في اوربا ما يضاهيه . وقد انجذب اليه النبلاء كما ينجذب الفراش الى النور . ففيه كانوا يعيشون عيشة بذخ وترف دون ان يقوموا بأي عمل خطير . وكان الدوق منهم او الكونت يفتخر اذا ما ناول الملك بعض ملابسه حين يلبس او اذا ما ناوله المنشفة بعد الاستحمام . وقد اصبح النبلاء الاقطاعيين هناك بمثابة ادوات الزينة كالثريا مما كان يزدان بها البلاط . انما كانوا ادوات زينة تكلف نفقات باهضة . ولقد كان عظيما اقبال الادباء والفنانين الى ذلك البلاط العامر والتمتع بذلك بفضل الملك وتشجيعه . وكان من اشهر رجاله الكتاب الثلاثة في الادب التمثيلي كورنيلي مؤسس المسارح الفرنسية ، والشاعر موليير اعظم كاتب في الدراما انجبته فرنسا ، والكاتب راسين ، والكاتب

القصصي لافونتين ، والاديبة مادام سافيني التي برعت في كتابة المذكرات . ففي ميدان الادب كما في ميدان السياسة والحرب توجهت انظار ذلك العصر الى ڤيرساي .

لقد كان لويس الرابع عشر نصيرا للفنون في البناء والنحت والنقش والتصوير والموسيقى . وقد انجذب الى ڤيرساي عدد كبير من الفنانين شملهم لويس برعايته ، فأظهروا براعتهم الفنية في تزيين ڤيرساي . فكان (مانزرت) المعماري هو الذي بنى القسم الرئيسي من القصر ، وكذلك القاعة الضخمة المعروفة بگراند تريانون . كما انه وضع تصميم القبة المعروفة في باريس بقبة انڤاليد . وكان جيراردون النحات الرسمي ، وليبرن المصور الخاص للملك . وقد ألف الموسيقار « لولي » قطعات جميلة من الاوبرات والباليه . وحتى ان صناعة الطبخ اصبحت فنا في عهد لويس الرابع عشر . ومن الطريف ان نذكر ان ڤاتيل ، رئيس طباخي القصر انتحر بسبب ما أصاب لونا من الوان الطعام خللا فنيا . غير ان ملكا اوتوقراطيا مثل لويس الرابع عشر لم يكن يعيش لمجرد المديح والملذات . فكان من بين اعماله قراءة ما يرفعه اليه حكامه وسفرائه من التقارير بنفسه ، وكان يترأس جلسات أكابر وزرائه ويقرر سياسة الدولة في الحرب والسلم وتشريع القوانين وتعيين حكام المقاطعات وغيرهم من رجالات الدولة .

كولبير ١٦١٩-١٦٨٣ :

كان لويس الرابع عشر يساعده في تنفيذ سياسته الداخلية وزيره الشهير كولبير . لقد كان هذا ابن تاجر عينّه مازارين في الحكومة واخذ يترقى من منصب الى آخر فاصبح بعد موت مازارين الوزير الرئيسي

لويس الرابع عشر . وقد ترأس جميع الوزارات ما عدا الحربية .
وكانت باكورة اعماله اصلاح مالية الدولة . فقد طرد من الخدمة كل من
عرف بالخيانة في جباية الضرائب . وفرض رسوما غير مباشرة على
البضائع حتى يتوزع عبء الضرائب على جميع الطبقات وليست الطبقة
العامة ، وخفف من الضرائب المباشرة على الارض ليخفف العبء المالي
على الفلاحين . وشجع كولبير تربية الحيوانات الداجنة واصلح الطرق
ووسائل المواصلات الاخرى .

تشجيعه للتجارة والصناعة :

اشار كولبير بضرورة تشجيع التجارة والصناعة لان القوة الحربية
تعتمد على ذلك ، وان الشعب الفقير لا يستطيع تزويد الحكومة بالمال
اللازم عن طريق الضرائب ، فمن واجب الحكومة انعاش الحركة
الاقتصادية في البلاد بكل الوسائل الممكنة وعلى هذا وافقه الملك ،
وتقدم كولبير لتحقيق تلك الغاية بعزيمة لا تعرف الكلل . واخذ يكافيء
المخترعين ويقدم المنح لمن يقدم على مشاريع تجارية جديدة ، ثم انه
شجع العمال الاجانب للاشتغال في فرنسا ومنع العمال الفرنسيين من
ترك البلاد . وقد الغى سبعة عشر عطلة من بين العطل القديمة العديدة ،
وذلك ليزيد من ايام العمل . فهدف كولبير الاسمى كان ايجاد دولة
صناعية جميع افرادها يشتغلون .

كان كولبير من دعاة المذهب التجاري ، واعتقد بانه اذا أرادت
فرنسا ان تصبح دولة غنية وجب عليها ان تبيع الى الامم اكثر مما
تشتري منها وذلك عن طريق ازدياد المنتجات المحلية وتقليل الواردات .
وللوصول الى هذا الهدف اخذ يشجع المصنوعات والمنتجات المحلية

ويعرقل دخول المتاجر الاجنبية . فمثلا نجده يستوفي ضريبة على السفن الاجنبية بينما يقدم المساعدات المالية لصنع السفن داخل فرنسا ، وتشحين السفن الفرنسية بالبضائع . وقد فرض ضرائب عالية على البضائع المستوردة ، ووضع شروطا مفصلة لاتقان المصنوعات الفرنسية وجعلها من الجودة بحيث تغري الاجانب في شرائها . وكان يعتقد بان للمستعمرات فائدة تجارية عظمى يمكن ان تكون سوقا رائجة للمصنوعات الفرنسية . ولهذا اشترى جزر (المارتينيك) و(كوادا لوب) من جزر الهند الغربية . وقد شجع استيطان الفرنسيين في كندا ولويزيانا في امريكا الشمالية ، وسنت دومينكو في امريكا الوسطى . وأسس المراكز التجارية المهمة في الهند ومدغشقر وسنغال ، وبذلك اصبحت فرنسا دولة استعمارية كبرى .

اما فيما يتعلق بتشجيع التجارة داخل فرنسا ، فانه عمل على تسهيل انتقال البضائع بين مختلف انحاء البلاد وذلك بتسهيل المواصلات والغاء المكوس الداخلية قدر المستطاع على البضائع المنقولة من منطقة الى اخرى . وأسس المرافيء في طولون وروشفورد وكاليه وبريست وهافر ، وحصنها . لقد بذل كولبير جهدا عظيما في سبيل تقوية البحرية الفرنسية ، فأسس المدارس والمستودعات وانشأ السفن الحربية واجبر البحارة على البقاء مدة معينة في مسلكهم . وأمر القضاة بضرورة تزويده بأكبر عدد ممكن من المجرمين ليكونوا جذافين في السفن الحربية .

كان كولبير مبدئيا رجل المال والاقتصاد ، لكن انجازاته في الحقول الاخرى لا تقل عن مشاريعه المالية والاقتصادية . فقد أسس

بالاكاديميات لتشجيع العلوم والفنون والريازة والموسيقى كاكاديمية العلوم أو المعهد الفرنسي كما يسمى في الوقت الحاضر . وامر برفع مستوى أكاديمية فرنسا التي أسسها رشيليو ، وبنى المرصد الفلكي العظيم في باريس . ولقد قوى النظام الاداري الذي أسسه رشيليو . ووجد خلال اعماله الكثيرة الجبارة وقتا كافيا للاهتمام بشؤونه الخاصة حتى انه خلف ثروة طائلة بعد موته سنة ١٦٨٣ ، بعد ان خدم الدولة كوزير حوالي (٢٠) سنة[1] .

نقائص عهد لويس الرابع عشر

الملكية المطلقة :

على الرغم مما ظهر في عهد لويس من ابهة القصر وانتشار الرخاء بفضل خدمات كولبير ، فانه من السهل توجيه الانتقادات الكثيرة الى سياسة الدولة . ففي الملكية المطلقة كل شيء منوط بمشيئة الملك وهو شخص واحد وفي هذا النقص الكثير . فلا يستطيع المرء مهما كان كفوءا ان يدير شؤون الدولة تدبيرا صحيحا . ومع ان لويس امتاز بالكفاءة والمقدرة العظيمة لكنه كان مختالا ، فخورا ، مترفعا كل الترفع في الشؤون العامة ، ولم يستطع ادراك مشاكلها والشعور معها فيما تصبو اليه . وكان سهل الانخداع بتزلف من التف حوله من ذوي الادمغة الفارغة والاخذ بآرائهم احيانا . وقد ادى به شغفه بنيل الانتصارات ان جلب المصائب على فرنسا .

(1) Ibid; pp. 323-364

اضطهاد البروتستانت :

كانت سياسة لويس الدينية احدى نقائص عهده . فالبروتستاتنين الفرنسيين الهيگونوت ، كانوا أقلية ضئيلة لكنهم مارسوا نفوذا عظيما . وكانت هذه الطبقة تتمتع بكثير من الامتيازات التي منحها اياهم هنري الرابع اول ملوك آل بوربون سنة ١٥٩٨ . لكن لويس رغبة منه في تكوين الوحدة الدينية في فرنسا اتبع سياسة اضطهاد الهيگونوت المتعصبين وتقديم المنح الى البروتستاتنيين الذين يعتنقون الكثلكة . واخيرا في سنة ١٦٨٥ الغى لويس الرابع عشر مرسوم نانت وبذلك حرم جماعة مهمة من الفرنسيين حرية العبادة . ولهذا تأخرت فرنسا في مضمار التقدم نحو الحرية الدينية وتضعضع كيانها الاقتصادي الذي اقيم بجهود كولبير العظيمة ، فالهيگونوت كانوا طبقة منتجة اغلبهم من الطبقة الوسطى فهاجروا بسبب الاضطهاد الديني الى هولندا وانگلترا وبروسيا وانضم عدد غير قليل منهم الى جيوش الاعداء ضد لويس الرابع عشر اثناء حروبه الكثيرة . وقدّر عدد المهاجرين البروتستانت بثمانمائة الف شخص ، وبهجرتهم تدهورت اقتصاديات فرنسا وتقدمت كل من هولندا وانگلترا اقتصاديا .

النزاع مع البابا والقضاء على الجانسنيين :

حدث النزاع بين لويس الرابع عشر والبابا على قضية بسيطة وهي الضرائب التي كان يجمعها لويس من رجال الدين عند تعيين اي موظف ديني في منصبه الكنسي . فالبابا كان يدعي بان ذلك من حقه وليس من حق الملك . ولم يقتصر النقاش حول حق جمع الضرائب بل تعدى الى الناحية الدستورية وهي هل يحق للبابا ان يتدخل في شؤون الحكومة

الفرنسية وكنيستها ! وبذلك تجدد النزاع بين الكنيسة الكاثوليكية والحكومة الفرنسية • وكانت الحركة لفصل الكنيسة الفرنسية عن البابا قوية في هذا الوقت واراد الفرنسيون تأسيس كنيسة مستقلة على غرار الكنيسة الانكليزية ولهذا أيد جماعة من رجال الدين لويس الرابع عشر في دعواه • وفي سنة ١٦٨٢ اعلن المجلس الاكليري الفرنسي مرسوما من وضع الاسقف بوسويه ينص على ما يلي :

١ ـ ان الملك مستقل عن البابا في الشؤون الزمنية • ٢ ـ ان المجلس البابوي اعلى من البابا • ٣ ـ بطلان القرارات البابوية المخالفة لتقاليد الكنيسة الفرنسية • ٤ ـ موافقة رجال الدين ضروري في جميع المقررات البابوية •

وقد ادى اعلان هذا المرسوم الى نزاع شديد بين لويس الرابع عشر والبابا انوسنيت الحادي عشر • واستمر الوضع هكذا مدة عشر سنوات لكن الحروب الكثيرة التي انغمس فيها لويس اجبرته على ان يتصالح مع البابا بعد هذا التأريخ فالغى مقررات تحرير الكنيسة الفرنسية المار الذكر • وحصل على موافقة البابا في ممارسة حق الملك بجمع الضرائب المفروضة على رجال الدين عند تعيينهم •

ولم ينته النزاع الديني عند هذا الحد اذ ظهر ضمن الكنيسة الكاثوليكية مذهب جديد عُرف بمذهب الجانسنية اتباع كورنيليس جانسن ، احد علماء اللاهوت في هولندا في مطلع القرن السابع عشر • وكان جانسن هذا قرأ كتابات سانت اوغسطين وتوصل الى نفس النتيجة التي توصل اليها كالقن من الايمان بالجبرية والقضاء والقدر

وقد اصطدمت هذه العقيدة بايمان اليسوعيين بحرية الارادة والالهام • اذ كان هؤلاء يؤمنون بان الانسان ينال الخلاص عن طريق الاعمال الناتجة عن ارادته الحرة تحت اشراف القس • وكان الجانسيون يشبهون الكالفنيين في تقشفهم وتمسكهم بالاخلاق الفاضلة وتأكيدهم على الاقتصاد في النفقات ولهذا كانت الطبقة الوسطى تميل اليهم لكنهم اصبحوا عرضة لمكافحة اليسوعيين •

وكان العالم الفيلسوف باسكال ذا شهرة عالمية في الرياضيات ووضع نظرية الاحتمالات ومهد السبل لمعرفة الضغط الجوي وقدم الشيء الكثير من الرياضيات والعلوم الاخرى • والآن دخل باسكال في الجدل الديني وهاجم اليسوعيين الذين كانوا اقوياء في فرنسا •

وقد اتخذ البابا الاجراءات اللازمة ضد الجانسنيين واجبرهم على التخلي عن الكثير من معتقداتهم وتفرقت جماعاتهم في عهد لويس الرابع عشر • ولم يفسح لويس المجال لحركة دينية اخرى بالظهور • وقضى على جماعة الهادئيين الذين اكدوا على الحب الالهي والانغماس فيه والتأمل العميق بدلا من الخلاص •. فأجبر لويس زعمائهم من امثال فينيلون ، ومدام گويان ان يتخلوا عن مناصبهم أو يتراجعوا عن معتقداتهم • وفشلت هذه الحركة كما فشلت بقية الحركات الدينية الناتجة عن عدم الرضى بالعقيدة الكاثوليكية •

واخيرا كان لويس يروج مصلحة آل بوربون ويفضلها على مصلحة فرنسا وكان مغرما بحياة ڤرساي واقامة الحفلات فيها وجلب النبلاء اليها • وقد بلغ شغفه بها درجة ان صار لا يهتم بحياة غيرها

وبذلك ترك اثرا سيئا لخلفاءه • اذ بينما كان اسلافه يطوفون فرنسا لمعرفة احوال الناس اصبح الذين أتوا بعده لا يتركون قرساي مطلقا •

لقد صارت ادارة المملكة منوطة به واصبحت سلطته مطلقة اكثر فأكثر • واخذ يعين حكاما غير كفوئين في الاقاليم في اواخر حياته ولم يستمع الى شكاوي الناس ضدهم • وكان حبه للنظام المركزي حال دون معرفته لفضائل الحكم الذاتي والمحلي فقضى بذلك على الابتكار الفردي للناس • فكان يعتقد ان لم تعمل الحكومة شيئا لا يمكن عمله من قبل الآخرين •

يضاف الى ما ذكرنا ان لويس لم يحاول رفع العبء المالي عن الشعب الفرنسي عامة فكانت حروبه الكثيرة والاموال التي صرفت على بناء قرساي واقامة الحفلات فيها تكلف الخزينة الفرنسية غاليا • ولو ان لويس حاول توزيع الضرائب بصورة عادلة على جميع الطبقات لهان الامر • لكن الطبقة الغنية وهي النبلاء ورجال الدين كانت معفوة من الضرائب ولم يبق غير الطبقة الوسطى والفقراء يدفعون تكاليف رغبات لويس فكانت النتيجة دمار الشعب الفرنسي •

ومع ذلك كان لويس الرابع عشر هو الذي يتصرف في المدنية الفرنسية من الادب والفن والذوق الرفيع والتصرفات الاجتماعية الراقية • وقد وضع مجموعة من القوانين عن التصرفات الاجتماعية الصحيحة في البلاط ومجموعة اخرى من المراسيم لتنظيم القوانين المدنية المعروفة بمراسيم لويس • كما وضع قوانين لتنظيم تجارة العبيد • واخذت المدنية الفرنسية تنتشر في اوربا وحلت اللغة الفرنسية محل اللغة اللاتينية كلغة الادب والدبلوماسية •

سياسة لويس الخارجية :

ومن نقائص عهـد لويس الرابع عشر ايضا حـروبه الكثيرة التي استنزفت اموال الدولة وقوى الشعب . كانت سياسة لويس الخارجية تنحصر في : اولا : الوصول الى الحدود الطبيعية وذلك بالوصول الى جبال الالب والبرانس في الجنوب الشـرقي والجنوب من فرنسا ونهر الراين في الشرق . ثانيا : تقـوية نفوذ آل بوربون ورفع سمعتهم على حساب عـائلة هابسبرك النمساوية والاسبانية . ولاجـل تنفيذ هذه السياسـة شـن لويس الرابـع عشر سلسلة من الحـروب بين سـنة ١٦٦٧ – ١٧١٣ .

حروب لويس الرابع عشر :

لم يكن لويس الرابع عشـر رجلا عسكريا ولم يظهر في حيـاته بملابس عسـكرية كما لم يقود جيشه الى ساحة الحرب ولم يعرف شيئا عن العلوم العسكرية . لكنه استعاض عن هـذا النقص بانتخاب احسن العسكريين لتعيينهم في وزارة الحرب وقيادة الجيش وقد عين في وزارة الحرب لوڤوا Louvois ١٦٤١–١٦٩١ الذي كان في ادارته للشؤون العسكرية لا يقل عن كولبير في ادارته للشؤون الماليـة والاقتصادية . لقد كان لوڤوا واحـدا من اعظم وزراء الحرب في التـاريخ الاوروبي الحديث . وقد اسس جيشا من احسن جيوش اوربا في زمانه ، وجهزه بكامل معداته ، ووضع تنظيمات عسكرية شديدة الغرض منهـا الطاعة والنظـام والضبط . وقد درب لوڤوا جيشـه احسن تدريب ، ووضع الحياة العسكرية في المخيمـات على أسس صحية واصبح التقدم على اساس الكفاءة وليست المحسوبية .

وكان من بين مهندسيه العسكريين ڤوبان Vauban الذي اشتهر ببناء الخطوط الدفاعية في الحرب والقلاع الحصينة في الحدود الشمالية والشرقية لفرنسا . ومن اشهر قادته القائدان تورين وكوندية اللذان احرزا انتصارات فائقة لفرنسا في حرب الثلاثين سنة .

لقد كان لويس الرابع عشر من اعظم دبلوماسي زمانه وبمساعدة كولبير ولوڤوا استطاع ان ينفذ سياسته الخارجية التي نوهنا عنها . فلما ارتقى لويس العرش سنة ١٦٦١ كانت اسبانيا تحكم بلجيكا ومقاطعة فرانش كونتيه Franche Conté في شرقي فرنسا وميلانو في شمال ايطاليا . بينما كانت عائلة هابسبرگ النمساوية تحكم ولايات الراين في الحدود الشرقية لفرنسا . ولتبرير حروبه اكد لويس على الحدود الطبيعية وقال بانه يجب ان يكون لكل بلد حدودا طبيعية من جبال وانهار وبحيرات ، ولما كانت فرنسا في الزمن القديم محاطة بحدود طبيعية وهي جبال الالب والبرانس ونهر الراين والمحيط الأطلسي فيجب على فرنسا استعادة تلك الاراضي التي انسلخت عن فرنسا ضمن هذه الحدود . ولتحقيق هذه الغاية خاض لويس حروبا ثلاثة هي حرب الانتقال ، والحرب ضد هولندا ، حرب عصبة اوكسبرگ .

اما الحرب الرابعة فقد خاضها ضد اسبانيا ليحصل على عرش اسبانيا لاحد احفاده .

اولا : حرب الانتقال ١٦٦٧ – ١٦٦٨ :

عندما توفي فيليب الرابع ملك اسبانيا سنة ١٦٦٥ ادعى لويس بان زوجته (بنت فيليب الرابع) يجب ان ترث الاراضي المنخفضة الاسبانية

(بلجيكا) وكان يريد بذلك ضم هذه المنطقة الى فرنسا . فلما رفضت اسبانيا ذلك نشبت الحرب بين الطرفين انتصر فيها الجيش الفرنسي على الاسبان . وقد استطاع لويس ان يضمن حياد السويد وهولندا والولايات الالمانية البروتستانتية . وهدد الامبراطور النمساوي بالحرب الاهلية اذا تدخل للدفاع عن اسبانيا . وكانت انكلترا في حرب تجارية مع هولندا في هذه الفترة ١٦٦٥–١٦٦٧ في امريكا وفي المحيط الشمالي . وقد خشيت الدول الاوربية من التوسع الفرنسي واخذت هولندا تسوي خلافاتها مع انكلترا وتكون حلفا ثلاثيا من انكلترا وهولندا والسويد للوقوف في وجه لويس الرابع عشر واسترجاع التوازن الدولي . فاضطر لويس ان يطلب الصلح . فاجتمعت الدول وعقدت معاهدة ايكس لاشابيل سنة ١٦٦٨ التي بموجبها حصلت فرنسا على القسم الجنوبي من بلجيكا ومجموعة من المدن الحصينة التي هي ليل ، وتورنية ، وشارلروا . اما الجزء الاكبر من بلجيكا فظلت تحت سيطرة اسبانيا .

ثانيا : الحرب ضد هولندا ١٦٧٢ – ١٦٧٨ :

أمر لويس الرابع عشر جيشه بالهجوم على هولندا لانها وقفت ضده في حربه مع اسبانيا وألبت الدول عليه . كما انه كان يريد الحصول على بعض الاراضي الهولندية كي تصل فرنسا الى نهر الراين . وكان هو وكولبير يعتقدان بان الطبقة التجارية الفرنسية تستفيد كثيرا بالقضاء على الاحتكار التجاري الهولندي . ولم تكن هولندا ترغب في وجود دولة فرنسية قوية جدا بجوارها وخاصة بعد ظهور منافسة تجارية عنيفة بين الطرفين في الوقت الذي كان كولبير يقوم

بتأسيس مشاريعه العظيمة في فرنسا ويريد القضاء على الاحتكار الهولندي التجاري • وقد حاول لويس الرابع عشر عزل هولندا بالقضاء على التحالف الثلاثي فدبر معاهدة دوفر السرية مع انكلترا سنة ١٦٧٠ التي بموجبها منح لويس الرابع عشر شارل الثاني ملك انكلترا منحا مالية سنوية قدرها (٢٠٠٫٠٠٠) باون استرليني كي لا يعتمد شارل على البرلمان في الحصول على المال مقابل اعتناقه الديانة الكاثوليكية وفرضها على الشعب الانكليزي وانسحابه من التحالف الثلاثي ووقوفه على الحياد ، كما استطاع لويس ان يحصل على حياد السويد بتقديمه منحا سخية الى ملكها • فظلت هولندا وحدها تواجه لويس الرابع عشر ، وقد تمزقت بفعل المنافسة الداخلية بين اتباع عائلة أورنج الذين يريدون ارجاع الملكية الى البلاد ويؤيدهم في ذلك سكان الارياف وقسم من النبلاء ورجال الدين البروتستانت ، واتباع جون دي ويت الذي كان رئيسا للجمهورية ويساعده في ذلك الطبقة الارستقراطية والاحرار وسكان المدن بصورة عامة • وكان جون في الحكم خلال العشرين سنة الاخيرة • لكن بظهور وليم اورنج اخذت الكفة تميل الى جانب الملكيين •

وفي هذا الوقت بالذات اعلن لويس الرابع عشر الحرب على هولندا سنة ١٦٧٢ واستولى على مقاطعة لورين بحجة ان اميرها يساعد الهولنديين وتوجه نحو امستردام • عندئذ قتل الهولنديون جون دي ويت وتولى وليم اورنج القيادة فأمر بفتح السدود فغمر قسم عظيم من الاراضي في شمال هولندا ، الامر الذي جعل ايقاف الزحف الفرنسي شيئا حتميا • ولما رفض لويس شروط هولندا السخية للصلح

اتفق الهولنديون مع الامبراطور ليوپولد امبراطور النمسا ، وامير براندنبرگ (بروسيا) في تكوين حلف عسكري هجومي انضمت اليه اسبانيا وبعض الامارات الالمانية فيما بعد • ولما كانت فرنسا هي الدولة المنتصرة دخلت انكلترا الحرب ضدها بجانب هولندا ، لان الانگليز وجدوا ان فرنسا هي القوة العظمى النامية والمنافسة لها في التجارة والاستعمار وليس هناك ما يخشى من هولندا الصغيرة • فاضطر لويس عندئذ ان يعقد الصلح المعروف بصلح نيموپگن سنة ١٦٧٨ اعترف بموجبه باستقلال هولندا • لكن لويس حصل على مقاطعة اللورين وفرانش كونتيه (مقاطعة بورگندي) من اسبانيا وبعض الحصون من بلجيكا • وفي نفس الوقت اجبر امير براندنبرگ بروسيا ان يتنازل عن جميع ما استولى عليه في بوميرانيا الى السويد بموجب معاهدة اخرى في نفس السنة تعرف بمعاهدة سان جرمان •

لقد حصل لويس على مقاطعات كثيرة باتجاه الراين مع انه لم يستطع ان يعاقب الهولنديين الذين احتفظوا بأراضيهم واستقلالهم • ونتيجة لهذه الحرب افلست الخزينة الفرنسية وخسرت اشهر قادتها العسكريين اذ قتل تورين في نهاية الحرب وتقاعد كونديه بسبب اعتلال صحته •

حرب عصبة اوگسبرگ ١٦٨٩ ـ ١٦٩٨ :

أمر لويس الرابع عشر اعوانه بالبحث في السجلات الاقطاعية لاثبات ما كان تابعا اقطاعيا لملك فرنسا يوما ما من الاراضي العائدة الى الدول الاخرى • وعلى هذا الاساس ألّف لويس مجمعا سمي بمجمع الاسترجاع لرد املاك فرنسا مؤلفا من القضاة الموالين له • وبناءا على

ابحاثهم ادعى لويس ان مدينة سترازبرك الحرة في مقاطعة الالزاس من مدن الامبراطورية الرومانية المقدسة مدينة فرنسية واحتلها الجيش الفرنسي عام ١٦٨١ كما احتل لوكسمبرك وعددا من المدن الالمانية الأخرى منتهزا فرصة هجوم الجيش العثماني في هذا الوقت على الامبراطورية الرومانية المقدسة ومحاصرتهم مدينة ڤينا • وقد استطاع الامبراطور ليوبولد ان يؤلف حلفا من اسبانيا والسويد وبعض الامارات الالمانية كساكسونيا وباڤاريا وپلاتينات على الراين وساڤواي في ايطاليا سنة ١٦٨٦ • وقد تمكن لويس من احتلال البلاتينات مدعيا حقه الباطل في تلك المنطقة • وفي هذا الاثناء حدثت ثورة في انكلترا (سنة ١٦٨٨) انهزم فيها الملك جيمس الثاني والتجأ الى فرنسا واصبح وليم اورنج حاكم هولندا ملكا على انكلترا باسم وليم الثالث • وكان وليم هذا من ألد اعداء لويس الرابع عشر وخصمه العنيد وكان متزوجا من بنت جيمس الثاني ملك انكلترا المخلوع • والآن وقد اتحدت هولندا مع انكلترا تحت حكم عاهل واحد وهو وليم اورنج انتهت المنازعات التجارية بينهما ودخلتا في الحرب ضد لويس الرابع عشر • واستمرت الحرب مدة ثماني سنوات واصبحت عالمية لان قوات هذه الدول اشتبكت في البحار وفي امريكا بالاضافة الى اوربا وكانت الحرب في امريكا تسمى بحرب الملك وليم • لقد كان لويس الرابع عشر قد وعد جيمس الثاني ان يساعده في استعادة عرشه فنزل جيمس على رأس جيش في ايرلندا سنة ١٦٩٠ وفي معركة بوين التي نشبت بين وليم وجيمس انتصر وليم وانهزم جيمس مرة ثانية الى فرنسا • وعلى الرغم من بعض الانتصارات التي احرزتها فرنسا في بداية الحرب في القارة

الاوربية انقلبت الآية فيما بعد فانتصرت النمسا بفضل قائدهـا يوجين امير سافوي واضطر لويس ان يعقـد صلح ريزويك مع الحلفـاء سنة ١٦٩٧ • لم يربح لويس شيئا بموجب هذه المعاهدة فقد تنازل عن ادعائه بمقاطعة البلاتينات على الراين واعاد مقاطعة اللورين الى اميرها وسمح للهولنديين ببناء قلاع حصينة على حدودهم مع فرنسا وعقد معها معاهدة تجارية • واعترف بوليم الثالث ملكا على انكلترا ووعـد ان لا يساعد جيمس ضده ، لكنه احتفظ بمدينة سترازبرگ في مقاطعة الالزاس •

وهكذا نجد انه بحلول العقد الاخير من القرن السابع عشر حلت فرنسا محل اسبانيا في سيادة اوربا واصبحت عائلة بوربون ندا لعـائلة هابسبرگ وتوسعت فرنسا شرقا دون ان تصل الى نهر الراين او جبال البرانس على الرغم من حصولهـا على الالزاس وفرانش كونتيه ، لكن الخزينة الفرنسية اصبحت فارغة واخذ الناس يشكون من الحكم المطلق وصلاحية نظام الحكم في البلاد •

حرب الوراثة الاسبانية ١٧٠١ ـ ١٧١٣ :

لم تكد تمضي مدة قليلة على معاهدة ريزويك حتى وجـد لويس الرابع عشر الفرصة السانحة لاضعاف آل هابسبرگ وجعـل نهر الراين حدودا لفرنسا • لقد كان شارل الثاني ملك اسبانيا رجـلا مريضا منذ الولادة ولم ينجب ولدا يرث العرش بعده ، وكان كل من لويس الرابع عشر والامبراطور النمساوي ليوبولد يدعي ان وراثة العرش الاسباني من حقـه • أما لويس فلان امـه كانت اخت فيليب الرابع ملك اسبانيا وزوجته بنت فيليب الرابع واخت شارل الثاني ملك اسبانيـا المريض •

اما الامبراطور النمساوي ليوبولد فادعى بان شارل الثاني ملك اسبانيا هو ابن بنته وانه احق بعرش اسبانيا بعد وفاة حفيده شارل لان العائلة المالكة الاسبانية هي احد فروع آل هابسبرگ ، وكان لويس الرابع عشر قد وعد بان لا يطالب بالعرش الاسباني بموجب معاهدة البرانس بين اسبانيا وفرنسا سنة ١٦٥٩ على امل ان يحصل على مهر ضخم عند زواجه من ماريا تريزا اخت شارل الثاني . ولما لم يحصل على ذلك وجد لويس نفسه في حل من هذه المادة . وقد حاول الجانبان الفرنسي والنمساوي الوصول الى حل سلمي لهذه المعضلة . وكانت الدول الاوروبية قد قبلت انتقال العرش الاسباني الى امير باڤاريا ، لكن هذا الامير توفى قبل شارل الثاني ، وعليه كان لزاما على الدول ان تجتمع مرة اخرى لحل المشكلة . ولم تكن هذه الدول توافق على انتقال العرش الاسباني ومستعمرات اسبانيا الى الامبراطورية النمساوية خوفا من رجوع عهد شارل الخامس ، ولا ارادت ان يتحد تاج اسبانيا بتاج فرنسا . بل ارادت المحافظة على التوازن الدولي في اوربا مع الحصول على امتيازات تجارية في المستعمرات الاسبانية .

ولما توفى شارل الثاني ملك اسبانيا سنة ١٧٠٠ ، أوصى بانتقال عرشه الى فيلب حفيد لويس الرابع عشر ، على ان لا يتحد تاج اسبانيا بتاج فرنسا . وبعد تردد قصير قبل لويس حفيده ان يكون ملكا على اسبانيا باسم فيلب الخامس ، لكنه توقع في نفس الوقت الحرب مع انكلترا والنمسا .

وفي الوقت نفسه كوّن وليم الثالث ملك انكلترا والامبراطور النمساوي ليوبولد حلفا انضمت اليه هولندا وامير براندنبرگ

بروسيا ، وهانوفر وبلاتينات ، والبرتغال التي ابرمت في هـذا الوقت معاهدة تجارية مع انكلترا سنة ١٧٠٣ (انضمت ايضا بتأثير انكلترا) .
كما انضم امير سافوي الى الحلف على ان يعترف بدوقيته كمملكة بعد الحرب . وطلب الحلفاء انتقال العرش الاسباني الى الارشيدوق شارل الابن الثاني للامبراطور النمساوي ليوبولد ، والقضـاء على الاحتكار الاسباني للتجارة ، ووضع حد لسطوة الملك الفرنسي .

لقد ارتبطت المسائل التجارية والاستعمارية بالقضايا السياسية . فبموجب نظريات المذهب التجاري السائد في ذلك الوقت ان البلد الذي يملك المستعمرات يحتفظ بحق التجارة في مستعمراتها لمواطنيها . وطالما كانت فرنسا واسبانيا منفصلتان فمن المؤمل ان تحصل انكلترا وهولندا على الامتيازات التجارية في المستعمرات الفرنسية والاسبانية . لكن اذا اتحـدت المملكتان يكون الاحتكار التجـاري والاستعماري قويا الى درجة يمنع توسع التجارة الانكليزية والهولندية ، بينمـا يزداد الرخاء الاقتصادي الاسباني الفرنسي . ولهذا كان وليم الثالث يحـاول جهد طاقته المحافظة على التوازن الدولي في اوربا .

استمرت حرب الوراثة الاسبانية من ١٧٠٢ الى ١٧١٣ . ومع ان وليم الثالث مات في بداية الحرب لكنه كان واثقا من ان حكومة إنكلترا تستمر في مواصلة الحرب . وكانت الحرب في المستعمرات تسمى بحرب الملكة آن التي خلفت وليم الثالث على عرش انكلترا . وقد دارت الحرب في هولندا وجنوب المانيا وايطاليا واسبانيا .

لقد كان النصـر حليف الفرنسيين في اول الامر ، لكن سرعان ما احرز الحلفاء انتصارات فائقـة بفضل قوادها العظام من امثـال القائد

الانكليزي مارلبورو ١٦٥٠–١٧٢٢ ، والامير يوجين امير سافوي ١٦٦٣–١٧٣٦ . وقد استطاع يوجين من طرد الفرنسيين من النمسا سنة ١٧٠٤ ، وايطاليا سنة ١٧٠٦ ، كما ان مارلبورو طرد الفرنسيين من المانيا بعد ان دحرهم في معركة بلينهايم سنة ١٧٠٤ ، وفي نفس السنة استولت انكلترا على جبل الطارق . كما طهر مارلبورو الاراضي المنخفضة من الجيش الفرنسي سنة ١٧٠٩ بفضل عبقريته الحربية . وتوالت الاندحارات على الجيش الفرنسي وكاد الحلفاء المتقدمين في الاراضي الفرنسية يدخلون باريس لولا حدوث الانشقاق في صفوف الحلفاء . فقد تغيرت الوزارة في انكلترا سنة ١٧١٠ ، وجاءت الى الحكم وزارة ميالة الى السلم وعزلت القائد مارلبورو من القيادة . كما ان الامبراطور جوزيف الذي خلف ليوبولد سنة ١٧٠٥ قد توفى سنة ١٧١١ وارتقى العرش اخوه الامبراطور شارل الذي كان قبل ذلك مرشح الحلفاء لعرش اسبانيا . فلم يكن الحلفاء يرغبون توحيد التاج الاسباني بالتاج النمساوي بنفس الشدة التي رفضوا اتحاد التاج الاسباني بالتاج الفرنسي حفظا على التوازن الدولي . فاضطرت الدول ان تعقد الصلح في مدينة أتريخت الهولندية سنة ١٧١٣ .

معاهدة أتريخت ١٧١٣

(١) اعترفت دول الحلفاء بفيلب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكا على اسبانيا ومستعمراتها على ان لا يتحد التاج الاسباني بالتاج الفرنسي في المستقبل . (٢) حصلت عائلة هبسبرگ النمساوية على

نابولي ، وساردنيا ، وميلانو وبلجيكا التي اصبحت تسمى بالاراضي المنخفضة النمساوية واستمرت هذه التسمية الى سنة ١٧٩٧ • (٣) وقد فازت انكلترا بحصة الاسد من الغنائم التجارية والاستعمارية بحصولها على نيوفوندلاند ونوڤاسكوشيا (كانت تسمى أركاديا) وخليج هدسن من فرنسا ، وحصلت على جبل الطارق وجزيرة مينوركه من اسبانيا • كما حصلت على الافضلية في اصدار البضائع الى ميناء قادس الاسبانية واحتكار تجارة العبيد • وحق ارسال سفينة من البضائع سنويا الى المستعمرات الاسبانية • ووعدت فرنسا ان لا تساعد عائلة ستيوارت لاستعادة العرش الانگليزي • (٤) اما الهولنديون فاستعادوا الحصون على الحدود الفرنسية البلجيكية ووعدت النمسا تقديم المساعدات المالية اليها لحراستها ، كما حصلت هولندة على حق احتكار التجارة على نهر الشيلت • (٥) اصبح منتخب براندنبرگ ملكا على بروسيا واعترف الامبراطور بذلك سنة ١٧٢٠ وبذلك تكونت نواة الوحدة الالمانية • (٦) اصبحت دوقية ساڤوي مملكة وحصلت على جزيرة صقلية ، ولما استبدلت صقلية بساردنيا ، اصبحت تسمى بمملكة ساردنيا • وبذلك تكونت نواة الوحدة الايطالية[١] •

نهاية لويس الرابع عشر :

ادرك لويس خطأه بعد فوات الاوان • فبينما كان مضطجعا على فراش الموت التفت الى حفيده وقال : « حذار من ان تكون مولعا

(1) James White. The Origins of Modern Europe (New York, 1966), pp. 52-97.

بالابنية والابهة والحروب كما ولعت بها انا ، بل اعمل لتخفيف آلام الشعب اذ لو لم تنغمر فرنسا في تلك المآسي لاصبحت اغنى وأرفه دولة في اوربا . »

توفى لويس سنة ١٧١٥ بعد ان حكم ٧٢ عاما ، اطول حكم في التأريخ قاسى فيه الشعب الفرنسي خلاله انواع المصاعب والويلات . ولما مرّ جثمانه بشوارع باريس انهالت عليه اللعنات من قبل الجماهير المحتشدة لانهم قاسوا في عهده من آلام الجوع الوانا .



الفصل الثامن

انكلترا في القرن السابع عشر

عهد آل ستوارت ١٦٠٣–١٧١٤

توفيت الملكة اليزابيث سنة ١٦٠٣ ، واوصت بانتقال العرش الى جيمس السادس ملك اسكتلندة وابن ماري ستيوارت ليصبح ملك انكلترا باسم جيمس الاول ، واستقبله الشعب الانكليزي بحرارة خلال مروره من سكتلندة الى لندن الذي استغرق شهرا كاملا . « ولم يشك احد في حقه بالعرش الانكليزي ، لكن مقدرته في الحكم واجهت اختبارا عنيفا »[1] . ان الشعب الذي كظم غيظه تحت حكم آل تيودور الحديدي بدأ يتنفس الصعداء لان الحاجة الى ذلك النوع من الحكم قد انتهت . فليس هناك من خصم يريد ان ينافس جيمس على العرش ، وقد قضت اليزابيث وأسلافها على نفوذ وسطوة النبلاء ، واصبحت البروتستانتية الانكليزية الكنيسة المقبولة لدى الشعب الانكليزي واستقرت القضايا الدينية ، كما ان حرب الارمادا وانتصار الانكليز على اسبانيا (اقوى دولة في اوربا في هذا الوقت) انهى

(1) Lunt, W E History of England (New York 1957). p 385

المخاوف من غزو اجنبي • فقد تركت اليزابيث انكلترا آمنـة ومزدهرة ومرفهة • ولما لم يكن الشعب الانكليزي بحاجـة الى ملكية قوية على غرارحكم آل تيودور قررالتخلص من بعض الاضرار والمعوقات في الحكم السابق • فمنذ نهـاية حكم الملكة اليزابيث بدأ البرلمـان يتحرك نحو ضبط الملكية وتقييدها ، لكن خدمات الملكة اليزابيث لانكلترا والمرونة السياسية التي طبقتها مع البرلمان ورجال السياسة والشعب الانكليزي جعلتها تعيش في قلوب الناس ، ولم يكن البرلمـان يريد ان يضايقها في اواخر حياتها بدافع الوفاء والاخلاص • فلمـا توفيت اليزابيث تحرر البرلمان من رابطة الولاء لارادة الملك •

جيمس الاول ١٦٠٣ـ١٦٢٥

لم يكن جيمس الاول يتوقـع المشاكل • فقد جاء الى العـرش الانكليزي وعمره ست وثلاثون سنة كلهـا تجاريب صراع مع نبـلاء سكتلندة • ومع علمه الغزير في القضايا الدينيـة وتربيته الانكليكانية لم يكن يعرف شيئا عن انكلترا وطبيعـة الشعب الانكليزي • لقد كان جيمس مغـرورا ، ومهذارا ، تنقصه البصيرة بالناس واتخـاذ القرار المناسب في الوقت المناسب • وكان احدى نقاط ضعفه الكثيرة انه يصر على رأيـه ويتمسك بـه في الوقت الذي تستوجب الضـرورة المرونة والتفاهم ، بينما يتراجع عن رأيه ويتنازل في الوقت الذي يتطلب الامر الصلابة • لقـد كانت مشكلة جيمس الاول جهله بانكلترة والشـعب الانكليزي والدستور الانكليزي • وكان يأخذ باستشارة ذوي الادمغة

الفارغة ويهمل نصح فرنسيس بيكن . وقد ابقى جيمس روبرت سيسل الذي مهد له السبل في ارتقاء العرش الانكليزي مستشاره الرئيسي ووزيره الاول كما اصبح فرنسيس بيكن مستشاره الثاني . وظل كذلك بقية رجالات عهد اليزابيث في وظائفهم باستثناء بعض العسكريين . وطالما بقي روبرت سيسل في الحياة كانت الامور تحل قبل ان تتفاقم ، غير انه بعد موت سيسل لم يكن هناك من يستطيع ان يدبر الامور لجيمس ويحل له مشاكله[1] .

نظرية الحق الالهي :

جاء جيمس الاول الى انكلترا ليطبق نظرية الحكم المطلق وحق الملوك الالهي التي لم يستطع ان يطبقها في سكتلندة . وكان جيمس يؤمن بان الرعية لا تملك حقوقا Rights انما يتمتعون بامتيازات منحها اياهم الملك ، مقابل تأدية الواجبات Duties ، والملكية في نظره « منحدرة من الله » فان الله عيّن الملوك ليحكموا ، وكان انبياء بني اسرائيل يباركون ملوك اليهود ، وقد اوصى القديس بطرس وبولص المسيحيين بطاعة اسيادهم . فكما يؤدب الاب ابنائه ، يؤدب الملك رعاياه . فالملك يدير المجتمع السياسي كما يدير الرأس اعضاء الجسم . ولذا فان السلطة الملكية شيء طبيعي واهم قوة مؤثرة في القضاء على الفوضى والاضطرابات . ليس الملك مسؤولا امام البرلمان والشعب ، بل امام الله الذي هو فقط يحاسبه . يستمد البرلمان والاجهزة الحكومية الاخرى سلطتها من الملك ، وما على الرعية سوى

---

(1) Trevelyan, G. M. History of England (Longman, 1958), pp. 381-382.

الطاعة واداء الواجب • والتمرد والعصيان كفر صريح لان الملك هو الذي يعرف مصلحة شعبه وما يسبب خيرهم وصلاحهم ورفاهيتهم فالملك فوق القانون والامة والبرلمان »[1] •

الصراع بين الملك والبرلمان :

كان جيمس الاول يعتقد انه جرب السياسة وأصبح خبيرا بكل شؤونها • وبيّن للبرلمان والناس ان عباراته كلها حكمة وعبرة يستفيد منها الشعب • ونظر الى البرلمان الانكليزي كما كان ينظر الى البرلمان السكتلندي • وكانت تجاربه مع برلمان سكتلندة انه قاعة لتسجيل اوامر الملك • ولم يدر ان البرلمان الانكليزي شيء يختلف عن سكتلندة •

لقد كان جيمس يرغب في جمع السلطة في يده ، واعتقد ان الملكية غير مقيدة فعارضه البرلمان • لقد استطاع آل تيودور فرض حكمهم المطلق واستغنائهم عن البرلمان كلما سنحت لهم الفرصة حتى في القضايا المالية عن طريق الاقتصاد في النفقات والاعتناء في جمع الضرائب ومصادرة املاك الكنيسة وثروتها وتوزيعها وتجنب المشاكل المالية والعمل على ترويج مصلحة انكلترا • ولهذا لم يكن هناك اختلاف في الآراء بين الملك والبرلمان •

وقد بدأ الصراع ليس فقط على المسائل الدستورية وصلاحيات كل منهما انما تجاوز الى السياسة العامة للبلاد • فكان جيمس يمارس

---

(1) Lunt, op. cit; p. 386.

سياسة معارضة لمصلحة انكلترا والشعب الانكليزي ، سواء في معاملته مع البيوريتان المتزمتين او الكاثوليك أو في سياسته الخارجية • ولم يكن يهتم برغبات الشعب ومصالحه ، فلما اراد البرلمان ان يفرضها عليه ، بيّن لمجلس العموم صراحة : « انه ليس من شأنهم التحدث عن المسائل السياسية التي هي مهنة الملوك وليست مهنتهم ، وفوق قابلياتهم • » وقد تحمل البرلمان هذه المضايقات في اول الامر ، لكن لما تكررت أبدى البرلمان مخاوفه وأخذ يؤكد على حقوق الشعب ، وقرر وضع حد لصلاحيات الملك • لقد أدت محاولة الملك في ازدياد صلاحياته الى النزاع مع البرلمان وانتهت في الحرب الاهلية •

كان جيمس ملكا مبذرا يحتاج الى موافقة البرلمان للحصول على المال ، غير ان تمسكه بمبدأه حال دون التزلف للبرلمان ، ولما رفض الاخير منحه المال اللازم التجأ جيمس الى اساليب غير دستورية لجمع المال بفرض المكوس ومنح الاحتكارات وبيع المناصب ، كمنصب اللوردات والوظائف الكبيرة في الدولة ، وفرض الديون الاجبارية • وقد احتج البرلمان ضد هذه الاعمال وضد سياسته الداخلية والخارجية وسيطرته المطلقة على التعيين في المناصب وادارة المحاكم • لكن احتجاجه سبب ازدياد غضب الملك •

ظهور البيوريتان المتزمتين في البرلمان :

لقد اشتد النزاع بين الملك والبرلمان بسبب عامل آخر ايضا وهو ظهور البيوريتان • كان جيمس الاول قد تربى تربية انكليكانية وفق مبادىء الكنيسة الانكليزية ، وأراد تطبيق ما حدث من التفاهم بين

ملوك آل تيودور والكاثوليك الانگليز ، على أن يخضع رجال الدين الكاثوليك لسيطرة الملك . غير ان هذا التفاهم لم يعد مقبولا لدى الاكثرية الساحقة في انگلترا التي اعتنقت البروتستانتية ، وقسم كبير من هؤلاء صاروا كالقنيين . فالكاثوليك كانوا اقلية ضئيلة في انگلترا في زمن جيمس الاول . وقد ظهرت جماعة متطرفة من البروتستانتيين في انگلترا في اواخر عهد الملكة اليزابيث ، وأغلبهم من التجار والمثقفين واصحاب المال والثروة من اهل المدن ، وكلهم من الطبقة الوسطى . وكان هؤلاء ينادون بترك كل ما له علاقة بالكاثوليك والبابوية ، والتأكيد التام على الانجيل والتمسك بروحية التوراة والسير حسبما تقتضيه آداب اللياقة في السلوك والمأكل والملبس والصيام وغيرها ، وترك الملاهي والرقص وكل ما من شأنه الترفيه عن تعب الحياة من الملذات والتسلية . وقد سمي هؤلاء بالمطهرين او البيوريتان . وكانت الملكة اليزابيث تكرههم وتخاف منهم . وقد ظل قسم من البيوريتان ضمن الكنيسة الانگليزية محاولا اصلاحها داخليا بحسب معتقداتهم . وقسم تطرف واراد تأسيس كنيسة على غرار الكنيسة السكتلندية . وقسم اسس كنائس منفصلة وسموا بالمستقلين[1] .

وقد استاء البيوريتان من سياسة الشدة التي كانت تطبقها اليزابيث ضدهم . ولما أرتقى جيمس الاول العرش الانگليزي قدم البيوريتان عريضة الى الملك سنة ١٦٠٤ موقعة من قبل الف شخص من رجال الدين البيوريتان ، طالبوا فيها الاعتدال في تطبيق تعاليم الكنيسة الانگليزية . وكان بامكان الملك ان يكون متسامحا في هذا الوقت لان

(1) Ibid; pp. 387-388.

مطاليبهم كانت بسيطة . لكن مزاجه العصبي دفعه الى ان ينتهرهم في مناسبة ما بان البيوريتان يجب ان يكيفوا انفسهم لتعاليم الكنيسة الانكليزية وطقوسها او يتركوا البلاد . وبدأ النزاع بينهم وبين الملك منذ ذلك الوقت .

وقد تذمر البيوريتان من تسامح الملك مع الكاثوليك ورفضه نفس السماح الى البيوريتان ، وعزوا ذلك الى ان ام الملك (ماري ستيوارت) كانت كاثوليكية ، وكانت زوجته (بنت ملك الدانيمرك) تقرب الكاثوليك . والواقع كان الملك متشددا مع الكاثوليك ايضا ، وتآمروا عليه عدة مرات آخرها مؤامرة البارود Gun Powder Plot التي دبرت سنة ١٦٠٥ ، بتفجير القاعة التي يجتمع فيها الملك ومجلس العموم واللوردات ، والسيطرة على زمام الامور والمجيء الى الحكم نتيجة للارتباك الذي تحدثه المؤامرة . لقد اكتشفت المؤامرة وعوقب المتآمرون . لكن عاد الناس يخشون رجوع الكثلكة الى البلاد بعد ان استقر الوضع بالنسبة اليهم بعد حرب الارمادا ، وسن البرلمان قوانين صارمة اكثر ضد الكاثوليك ، لكن لم ينفذها الملك . فتذمر البروتستانت عامة والبيوريتان بصورة خاصة[1] .

تدخل جيمس في الانتخابات :

اصطدم جيمس الاول بالبرلمان في اول جلسته سنة ١٦٠٤ . لقد قرر جيمس ان نتائج الانتخابات لمجلس العموم يجب ان تعرض على

---

(1) Ibid.

هيئة عليا لتصفية غير المرغوب فيهم . وقد فاز احدهم في الانتخابات اسمه گودون Goodwin الذي انتصر على خصمه فورتسكيو المقرب من الملك . غير ان الهيئة اعلنت ان گودون خارج عن القانون ولا يحق له اشغال كرسيه في مجلس العموم ، وامرت باجراء انتخابات جديدة فاز فيها فورتسكيو . ولما اجتمع البرلمان قرر مجلس العموم شرعية انتخاب گودون ، وانه ليس خارجا عن القانون ، وحتى اذا كان خارجا عن القانون فان ذلك لا يمنعه من ترشيح نفسه وفوزه في الانتخابات . وأمر گودون باشغال كرسيه . وقد اغتاظ جيمس لذلك وقال في البرلمان ان مجلس العموم لا يحق له التدخل في نتائج الانتخابات . عندئذ شعر المجلس بالخطر واعلن ان الملك يريد ان يقضي على حرية الانتخابات ، ولا ينتخب من الآن فصاعدا الا الذين يريدهم الملك واعوانه ، وقرر المجلس ان يستمر في الدفاع عن صلاحياته ، عندئذ اعتذر الملك واعترف بحقوق وصلاحيات البرلمان وحق مجلس العموم في تقرير انتخاب اعضائه . وهكذا نجد ان الملك أثار القضايا الدستورية التي اعترف بها الشعب الانكليزي منذ امد بعيد ووافق عليها الملوك السابقين دونما حاجة الى هذه الاثارة .

نتيجة اعمال البرلمان الاول :

استمر البرلمان الاول من ١٦٠٤ الى ١٦١١ ، وعقد خلال هذه المدة خمسة اجتماعات ، ناقش فيها قضايا صلاحيات وحقوق وامتيازات البرلمان والملك . وقد بحثنا قسما من الصراع بين السلطتين . وكانت القضايا المالية من اهم المسائل التي ازعجت البرلمان

والملك . وكان الملك يستغل مقررات المحاكم في فرض الضرائب التي لم يكن البرلمان يوافق عليها . وقد اعترف الملك بحقوق وصلاحيات البرلمان ، كما ان البرلمان اوضح للملك أن الملكية في انكلترا مقيدة ، وان القانون يسري عليه كما يسري على اي مواطن آخر . وان فرض الضرائب من حق البرلمان .

وقد حدث ان أجبر احدهم اسمه (بهيت ـــ ، في ١٦٠٦ على دفع ضريبة بصورة غير قانونية لان البرلمان لم يفرض هذه الضريبة على الرغم من انها كانت تجمع في زمن الملكة اليزابيث . وكان قرار المحكمة في صالح الملك ، بان لا يمكن للملك ان يحكم دون مورد ، وانه له الحق ان يجمع موارده كلما دعت الحاجة الى ذلك . ومع ان البرلمان اعترض على شرعية الضريبة اخذ الملك يجمع هذه الضريبة على المستوردات من الخمور . كما انه بدأ يجمع بقايا بعض الضرائب الاقطاعية التي اهملت منذ امد بعيد دون ان يلغيها البرلمان رسما ، مع ان مجلس العموم قرر دفع مبلغ سنوي ضخم (اي ١٠٠ الف باون استرليني) مقابل الغاء هذه الموارد . وقد استمر الجدل مدة طويلة تناول امورا اخرى كحق النقاش في كل الامور التي تخص القضايا المالية وحرية الكلام والدفاع عن صلاحيات البرلمان واعضاء مجلس العموم . واضطر جيمس اخيرا ان يوافق . لكن في نفس الوقت قرر ان يحل البرلمان في اوائل ١٦١١ ، ويقتصد دون الاعتماد على البرلمان .

كانت الموارد المالية اقل مما يحتاجه جيمس ، ولم يستطع ان يعيش ضمن ما حدده له البرلمان من المال ، كما لم يستطع ان يقتصد

في النفقات • وفشل في محاولة اصلاحاته المالية • فاضطر ان يدعو البرلمان الى الاجتماع سنة ١٦١٤ • فلما اجتمع المجلس في نيسان من تلك السنة كانت المناقشات عنيفة جدا مما يدل على ان الاعضاء قرروا مقاومة الملك • ولم يستمع الاعضاء الى طلب الملك منحه مبلغا من المال كافيا لنفقاته • واستمر يناقش الملك في مساوىء الادارة والاجراءات اللاقانونية التي تمارسها الحكومة • فغضب الملك وحل البرلمان في حزيران من تلك السنة دون ان يقوم باي تشريع او عمل • وبعد حل البرلمان قبض جيمس على عدد من النواب الذين عارضوه بشدة في المجلس وحبسهم في برج لندن • وخلال المدة من ١٦١٤ الى ١٦٢١ حكم الملك دون ان يدعو البرلمان الى الانعقاد •

الصراع بين الملك والقاضي سير ادوارد كوك :

وجد الشعب بغيته من قاضي القضاة سير أدوارد كوك للدفاع عن حقوق الشعب الانكليزي ضد الملكية المطلقة • لقد كانت القضايا الدستورية التي تتصل بالنزاع بين الملك والبرلمان تعرض على المحاكم التي تعرف بـ كومون لو كورت Common Law Court التي يترأسها قاضي القضاة سير ادوارد كوك المار الذكر • وكان رأي السير ادوارد ان تتخذ المحكمة موقفا مستقلا عن الملك والبرلمان الا في المقررات التي تنظر فيها المحكمة العليا في البرلمان والتي يشترك فيها الملك • وكانت معرفته بالقوانين الانكليزية منذ العصور الوسطى واسعة وعميقة الى درجة يستطيع ان يبت في كل قضية بانها قانونية او غير قانونية بحسب السوابق • وقد وجد ان الملكية مقيدة في العصور

الوسطى وأبلغ جيمس الاول في وجهه ان القانون فوق الملك • وكانت مقررات ادوارد كوك ضد ما يدعيه الملك •

أما جيمس فكان يعتقد ان المحاكم تستمد سلطتها من الملك استنادا الى سوابق القرن السادس عشر التي تثبت دعواه • ولم يستطع كوك ان يغير رأيه مع غزارة علمه • وكان سير فرانسيس بيكن من الذين أيدوا الملك وقال بان المحاكم يجب ان تكون مقيدة • واعتقد بيكن انه اذا فسح المجال للقضاة ان يقرروا المسائل السياسية والادارية الواسعة في النطاق الضيق للقوانين السابقة المعروفة بكومون لو ، فان المقررات هذه تكون ضد مصلحة الدولة وخيرها •

وقد تعين ادوارد كوك قاضيا للقضاة سنة ١٦٠٦ ، وعارض مع الحكام الذين تحت امرته كل القضايا التي كانت تبت بها المحاكم الخاصة • وفي ١٦١٤ أصبح كوك رئيس المحاكم الملكية • وحاول الملك ان يقنع القضاة ومن بينهم كوك ادانة شخص لكن كوك عارض ذلك • ولما عرضت مسألة سلطات الملك في تعيين الموظفين على المحكمة أمر الملك القضاة ان لا يبتوا في المسألة دون مشاورة الملك • لكن عارض ادوارد كوك وحده ذلك عندما استدعى القضاة امام الملك • عندئذ امر الملك بعزل سير ادوارد ، واصبح الحكام خاضعين للملك[1] •

سياسة جيمس الخارجية :

لقد اتبع جيمس الاول سياسة خارجية تتنافى مع رغبة الشعب الانگليزي • ففي سنة ١٦٠٤ عقد الصلح مع اسبانيا وانتهى بذلك

(1) Ibid, pp. 387-394.

العداء القديم بين البلدين . ومع انه لم يكن هناك مبرر لبقاء حالة الحرب مع اسبانيا ، فان الشعب الانكليزي ، الذي اعتبر اسبانيا عدوا ، استاء من ذلك . وكان لهم الحق لان معاهدة الصلح لم تحرز اي نجاح بخصوص حق الانكليز في التجارة مع المستعمرات الاسبانية ، وبذلك خسرت انكلترا تجارة مربحة كانت تقوم بها مع الموانيء والمستعمرات الاسبانية لو كانت حالة الحرب قائمة . ومع ان جيمس زوّج بنته اليزابيث من فردريك امير ولاية البلاتينات الالمانية على نهر الراين سنة ١٦١٢ ، لكنه لم يساعد فردريك في حرب الثلاثين سنة لما اصبح قائد البروتستانت ضد العصبة الكاثوليكية سنة ١٦١٨ — ١٦٢٠ . ومع ان الشعب الانكليزي أيّد الزواج لكنه استاء من وقوف جيمس مترددا في مساعدة البروتستانت . كما ان محاولة جيمس من ان يزوج ابنه شارل من بنت فيلب الثالث ملك اسبانيا سنة ١٦٢٣ ، لقيت معارضة شديدة ، وفرح الناس لما رجع شارل من اسبانيا ساخطا على البلاط الاسباني الذي اراد ان يرتده الى الكثلكة قبل الزواج .

ولما اشتد الحاح الشعب الانكليزي على الدخول في الحرب ضد اسبانيا التي دخلت حرب الثلاثين سنة واحتلت البلاتينات وطردت فردريك من امارته ، اضطر جيمس ان يدعو البرلمان الى الانعقاد مرة اخرى سنة ١٦٢١ لكي يوافق على الدخول في الحرب لمساعدة البروتستانت وتزويد الملك بالمال اللازم لهذه الغاية .

لقد سرّ الشعب الانكليزي بهذه البادرة . وكان البرلمان المجتمع خاضعا تماما لاوامر الملك ولم يبينوا اي سخط تجاه اعمال الملك الذي

حكم بشكل غير دستوري منذ ١٦١١ وبصورة خاصة منذ ١٦١٤ ، أملا بان الملك يدخل الحـرب لمساعدة البروتستانتيين • وكانت الفرصـة سانحة بان يسوي الملك خلافاته مع البرلمان ويتم التفـاهم ، لكن الملك طلب المال دون ان يبين السبب • فمنح البرلمـان مبلغا جزئيا عسى ان يتشجع الملك ويبين انه اعلن الحـرب على العصبة الكاثوليكية تأييدا للبروتستانت وفردريك • لكن جيمس وجـد ان اعـلان الحـرب من صلاحياته وليس للبرلمـان حق التدخل • ولمـا انتظر الاعضاء دون ان يحصلوا على رد من الملك ، بدأوا يناقشون المظـالم بحق الشـعب ، وخاصة منح الاحتكارات والمنح غير القانونية التي بلغت حدا لا يمكن قبولهـا • وقد اتهم البرلمـان احد الذين يتمتـع بواحـد من اسـوأ الاحتكارات ، وقد حوكم المتهم مع عدد من الاشخاص الآخرين الذين اتهموا بابتزاز الاموال ، وطردوا من الوظيفة ، وقد حاول جيمس منـع ذلك ، لكن مجلس العموم امر بطرد السير فرنسيس بيكن من الوزارة ايضا لانه أخـذ الرشوة • والواقـع انتقم المجلس من بيكن لانه كان يؤيد الملك في كل اعماله • لقـد كان ذلك انذارا لكل من ينصح الملك ضد البرلمان • وقبل ان يلغي البرلمان الاحتكارات اجّل جيمس المجلس ولكن الغى بنفسه ثمانية عشر احتكارا من اسوأ الاحتكارات •

ولما اجتمع البرلمـان مرة اخرى في نفس السنة ، طلب الملك المال دون ان يبين السبب • وكان مجلس العموم يريد اعـلان الحرب ضد اسبانيا التي احتلت البلاتينات ، وطرد السفير الاسباني السيء الصيت خشية زواج ولي العهد شارل من الاميرة الاسبانية • لقد كان السفير الاسباني گوندومار يعرف نقاط ضعف الملك جيمس فاستغلها لصالحه

وحاول بنجاح ايقاف دخول انكلترا في الحرب ضد اسبانيا ، وحرك الملك جيمس ضد البرلمان . فأبلغ الملك مجلس العموم بان لا يتدخلوا في شؤون الدولة وزواج ابنه لانه ليس من صلاحياتهم ، وان استمروا في ذلك فيعاقبهم . عندئذ طلب البرلمان من الملك ان يفسر تهديداته التي لا مبرر لها . وان حرية الكلام والمناقشة من صلاحية البرلمان وحقه منذ القديم . ومع ان جيمس اعترف بحرية المناقشة في المجلس ، لكن منعهم من التدخل في السياسة التي من حقه . عندئذ قدم البرلمان احتجاجا دوّن في السجل العام . فقد اعلن البرلمان انه من حقوقهم الشرعية بحث ومناقشة القضايا التي تخص الملك وحالة الدولة واوضاع البلاد وغيرها من الامور . ولكل عضو الحق الكامل في مناقشة هذه المواضيع بحرية تامة . عندئذ اجّل الملك البرلمان ومزّق الصفحة التي دوّن فيها احتجاج البرلمان من السجل ، وحلّ الملك المجلس بعد ذلك[1] .

لقد نجح گوندومار في خداع جيمس ، وكان يعتقد ان الملك من ذلك النوع من الرجال يمكن انخداعه دائما ، فبيّن للملك ان اسبانيا سوف تنسحب من البلاتينات ، وبذلك اجّل ارسال الحملة الانكليزية ضد اسبانيا . وقد حدثت محاولة زواج شارل الفاشل بالاميرة الاسبانية في هذا الوقت . وحرض شارل ابوه على دعوة البرلمان واعلان الحرب ضد اسبانيا . فاجتمع البرلمان سنة ١٦٢٤ ، ووجد

(1) Davies, G. the Early Stuart, 1603 - 1660 (Oxsford, 1959), pp. 1-33.

الشعب الانكليزي من شارل الملك الذي يقود بلاده الى كل ما فيه الخير والصلاح لانكلترا .

لقد كان جيمس يريد حربا ضد اسبانيا في البلاتينات بينما كان البرلمان يريد حربا بحريا على غرار حرب الارمادا لاذلال اسبانيا . وكان السفير الاسباني يحاول جهد الامكان منع الحرب ضد بلاده . ولما وجد شارل ان اباه قد انخدع بنصائح وزير الخزانة الميال الى اسبانيا حرض مجلس العموم بطرده ، فطرده مجلس العموم حالا لانه بنصح الملك ضد رغبة البرلمان . وقد اجّل الملك البرلمان ، وفي نفس الوقت حاول التحالف مع فرنسا كي ترسل جيشا الى البلاتينات ضد اسبانيا ، وان يزوج ابنه شارل من هنريتا ماريا اخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا . ومع ان فرنسا لم تعط وعدا قاطعا بارسال جيش الى البلاتينات ضد اسبانيا لكن اقنعت جيمس بانها ستفعل ذلك اذا ما عاملت انكلترا الكاثوليك معاملة حسنة واطلقت سراح المساجين الكاثوليك . وقد انجز جيمس ما وعد . لكن فرنسا لم تعلن الحرب . وكان الوضع بهذا الشكل لما توفى جيمس في اوائل ١٦٢٥[1] .

يقول دين جونز في الحكم على الملك جيمس الاول : « ان جيمس كان من الناحية الفكرية على صواب في اغلب الاحيان . اذ لم يكن مسؤولا عن تصرفات فردريك الطائشة وتهوره العاطفي وحماقته . وكان على حق في عدم تبذير الاموال الانكليزية على فردريك والپروتستانتيين ، وانقاذ بلاده من التدمير الذي اصاب اوربا الشمالية والوسطى . »

(1) Lunt, op. cit: pp. 394-401.

« لكن من الناحيــة السياسية فيجب ادانة جيمس للاساليب التي استخدمها دون الدوافــع • ان دبلوماسيته الغامضة ورفضه نيل ثقــة الشعب أفسدت سياسته وجعلت سلطته ضعيفة • وان العرائض الكثيرة التي قدمها البرلمان بكل احترام لدليل صارخ عن المضايقات التي كان الشعب يحس بها والسخط الذي كان يعاني منه • » وقد أثبت جيمس ازدرائه للشعب بتمزيق سجل البرلمان وحــل المجلس عدة مرات خلال حكمه ضد رغبات الشعب الانكليزي[1] •

الملك شارل الاول

كان شــارل بعكس ابيــه وسيما عليــه سيماء الملك والرجولة ، محبوبا لدى الشــعب الانكليزي • لكنــه كان فخورا يتبجح بملكيته المطلقة وحق الملوك الالهي • وقد سر الناس بفشله في زواج بنت فيلب الثالث ملك اسبانيا ، وان لم يكن زواجــه من هنريتا ماريا بنت هنري الرابع ملك فرنســا واخت الملك لويس الثالث عشر شعبيا لانها كانت كاثوليكية •

ومع ان شارل لم يشارك أباه في التأمل الفكري والقابلية الادبية والخطابية ، لكنه اعتقد بنظرية الحق الالهي واكد عليها •

لما اعتلى شارل العــرش سنة ١٦٢٥ ، اضطر تحت وطأة الحاجة الى المــال ان يدعوا البرلمــان الى الانعقاد • وقد زود البرلمــان الملك

(1) Deane Jones, The English Revolution, 1603-1714 (London, 1931), pp. 17-18.

الجديد بمبلغ لولا ان البلد كان في حالة الحرب بسبب ارسال جيش الى البلاتينات لكان كافيا لدفع حاجات الملك . لكن الوضع الحربي اقتضى اموالا اكثر من هذا ، وما دفعه البرلمان كان يساوي سبع ما احتاج اليه الملك[1] . وبدأ الاعضاء يناقشون المظالم ، وبينوا ان سبب الحرب مع اسبانيا هو فشل زواج الملك ليس غير ، ومن الافضل على الملك ان يستشير المستشارين في المجلس الاستشاري بدلا من الاستماع الى واحد او اثنين من المحسوبين . كما ان البرلمان بحث زواج شارل من اخت لويس الثالث عشر وبيّن ان هذه الاميرة تقرب الكاثوليك ، وهناك اتفاق سري بشأن التسامح مع الكاثوليك واطلاق سراح المسجونين منهم ، ومن الافضل ان يقضي الملك على الكثلكة[2] .

وعبثا حاول الوزير الاول ومعتمد الملك بكينگهام ان يدافع عن سياسة الملك والمطالبة بأموال اخرى لدفع نفقات الحرب ، لان البرلمان كان يريد حربا بحريا ضد اسبانيا على غرار حرب الارمادا التي تكون نفقاتها اقل والانتصار مضمونا ، واحتج على ما بيّنه بكينگهام بان الملك أرسل جيشا الى البلاتينات لمناصرة البروتستانت ومساعدة الهولنديين في حرب الثلاثين سنة ، ونجدة الدانيمركيين . وبيّن الاعضاء ان ذلك برنامج واسع وخطر وكثير التكاليف ولا يتضمن فيه الانتصار . واتهم الاعضاء بكينگهام بان ذلك من تدبيره ، وهاجم البرلمان المحسوبية في الدولة . ولكي لا يطيح بوزيره حل الملك البرلمان .

غير ان الامور لم تتحسن بحل البرلمان قبل ان يوافق على منحة

(1) Davies, op. cit; p. 34.
(2) Ibid; p. 35.

مالية اخرى . لقد ساءت الاحوال الحربية ، لان انكلترا ارسلت جيشا الى المانيـا ، ووعدت الدانيمرك بالمـال والمساعدة ، كمـا ان معاهدة التحالف مع فرنسا وزواج شارل من اخت لويس الثالث عشر ، احتوت مادة تنص على تسـليم انكلترا ثمان سـفن حربية الى فرنسـا لغرض الحرب ضد اسبانيا . لكن ظهر في هذا الوقت ان رشيليو يريد السفن لحصار لاروشيل ضـد البروتستانت الامر الذي اغـاظ الانكليز . وللتخلص من المأزق ارسل بكينگهام حملة الى قادس (الميناءالاسباني) لنهب الموانيء الاسبانيـة وسفنها اسوة ببحارة عهـد الملكة اليزابيث وحرب الارمادا . لكن الحملة فشلت ورجع البحارة بخفي حنين . غير ان شارل لم يكن يرغب التخلي عن الحرب بهـذا الشكل المزري ، ولم يكن يستطع مواصلتها ايضا لانه لا يملك المال ، لان البرلمان لم يزوده بالمال الكافي . عندئذ اضطر ان يدعو البرلمان الثاني سنة ١٦٢٦ .

لقد مهـد الملك السبل للبرلمان الثـاني بتعيين زعمائهم في بعض الوظائف ، وتنفيذ القوانين ضد الكاثوليك . كما عيّن الاسقف لود Laud ، كي يعظ في المجلسين، العموم واللوردات عند اجتماعهم . لقد كان الوعظ استعراضا عاما لوحدة الدين والدولة ، « طاعة الاوامر الملكية هي حمد وثناء لله وشرف للرعية . ان الملك لا ينحرف عن طاعة الله وخدمتـه وخدمة شـعبه والاعتنـاء بهم وادارة خزائنـه ادارة حكيمة »(1) . ومع ان البرلمـان ايد ذلك لكن لم يهتم به كثيرا . بل استمعوا الى صـوت زعيم المعارضة ، سـير جون اليوت Eli (١٥٩٢–١٦٣٢) . أكد اليوت على الكارثة التي حلت بالبـلاد حديثا

(1) Ibid; pp. 35-36.

في القارة الاوروبية وقال : « ان سفننا أغرقت ، ورجالنا هلكوا ، لا بسيف الاعداء ، ولا عن طريق الصدفة ، انما بسبب الذين وضعنا الثقة فيهم »[1] .

لم يستمع البرلمان الى طلب الملك بتزويده بالمال ، بل قرر محاسبة المسؤولين عن الكوارث التي حلت بالجيش والبحرية في المانيا وقادس واتهموا بيكنگهام وطلبوا طرده . عندئذ قبض الملك على ايليوت وسير دودلي ديگيز Dudley Digges، زعيما مجلس العموم . غير ان المجلس اوقف كل الاعمال الى ان يطلق سراحهما ، ففعل الملك ذلك ، وطلب مناقشة المنح المالية قبل كل شيء فلما لم يفعل المجلس امر الملك بحله .

كانت النكبات التي تتوالى على الجيش الانكليزي هي نتيجة لقلة المال والمعدات ورفض البرلمان تزويد الملك بالمبلغ الكافي . وقد طلب الملك من الشعب الهدايا او المنح ، لكن الشعب رفض ذلك . كما رفض القروض الاجبارية التي كان من المفروض ان تبلغ ما يساوي المنح التي يقدمها البرلمان ، كما رفض الشعب دفع القروض ايضا ، وسجن عدد من الناس الذين رفضوا الدفع من بينهم خمسة اعضاء طلبوا بيان سبب سجنهم . وقد جهز بكينگهام حملة بحرية قادها بنفسه لمساعدة البروتستانت في لاروشيل لكن الحملة فشلت بعد ان هزم بكينگهام في جزيرة (رەی) القريبة من لاروشيل . وكان سبب الانهزام قلة المال والمعدات . وقد وزع البحارة ، قبل الابحار الى لاروشيل وبعد الرجوع الى انگلترا ، على البيوت لتأمين الاكل

---

(1) Ibid; p. 35.

والنوم ، وكانوا يواجهون الرفض احيـانا ، او يسببون ازعاج البيوت والمنطقة التي تؤويهم[1] .

كانت نتيجة هذه الاوضاع المتدهورة وافلاس الخزينـة والتذمر العام ان أمر الملك باطلاق سراح المسجونين ، في بداية ١٦٢٨ ، واجراء الانتخابات لاجتماع البرلمان الثالث . وقد انتخب الشعب في هذه المرة كل من وقف ضد الملك وخاصة الذين سجنوا . ولمـا اجتمع البرلمان كان موضوع البحث منع جمع الاموال دون موافقة البرلمان ، او توقيف وحبس الناس دون بيان السبب . وقد قدم البرلمـان عريضة الى الملك سميت بملتمس الحقوق نصت على (١) عدم فرض وجباية الضرائب او القروض الاجبارية او الهبات والمنح الا بموافقة البرلمـان . (٢) عدم توقيف او سجن الناس الا باصدار امر رسمي من المحاكم المختصة يبين السبب . (٣) عـدم انزال الجنود وتوزيعهم على بيوت النـاس بغية سلبهم ومضايقتهم ، او اعلان الاحكام العرفية في وقت السلم . وافق الملك على العريضة ، وقرر البرلمان دفع المال اللازم[2] . ومن حسن حظ الملك أن قتل بكينگهام قبل ان يبدأ البرلمان بمناقشة المظالم فساعد ذلك على تخفيف التوتر بين الملك والبرلمان . لقد كان مقتل بيكنگهام اثناء عطلة البرلمـان ، وخلال هـــذه المدة كان الملك يجمـع المكوس على المستوردات التي لم يكن البرلمـان قد فرضها ، لكنهـا كانت متبعـة سابقا . وكان بعض التجار واعضاء البرلمـان الذين رفضوا الدفع القي القبض عليهم وارسلوا الى المحاكمة امام محكمـة قاعة النجوم التي لم

(1) Ibid; pp. 37-38.
(2) Ibid; pp. 39-41.

تكن عريضة ملتمس الحقوق تشملها .

ولما اجتمع البرلمان سنة ١٦٢٩ هاجم الضرائب التي لم يوافق عليها البرلمان ، ووقف ضد بعض القضايا الدينية وممارستها[١] . وكان سبب هذا الخلاف ظهور عدد متزايد من الپيوريتان الميالين الى الكلفنية في مجلس العموم ومعارضتهم لرجال الدين الكنيسة الانكليزية المتسامحين وتأييد الملك للكنيسة الانكليزية . وقد اجابه احد اساقفة الكنيسة الانكليكانية واسمه (مونتاگ) « ان البابوية تؤدي الى الدكتاتورية ، بينما الپيوريتانية تؤدي الى الفوضى ، وكلاهما عدو الاستقرار والاعتدال »[٢] . وقد ادى النزاع الديني بين ايليوت وپيم Pym ، زعماء البرلمان الى ان يقف الملك بجانب اساقفة الكنيسة الانكليزية . وفي الجلسة الاخيرة قرر المجلس ان اي شخص يؤيد الكاثوليكية او بعض البدع الجديدة خائن ، كما ان اي شخص يجبي الضرائب على المستوردات التي لم يوافق عليها البرلمان خائن للمملكة . ونتيجة لهذا النزاع امر الملك بحل البرلمان . وكان النزاع الديني قد ادى الى الانشقاق بين مجلس اللوردات والعموم . وخطاب الملك عند حله البرلمان يظهر ذلك بصراحة لما فرّق بين « كفران وتمرد مجلس العموم ، ورزانة ووقار مجلس اللوردات »[٣] . وقد ادى تصرفات ايليوت وپيم ومجلس العموم بصورة عامة الى وقوف مجلس اللوردات على الحياد وتأييدهم للملك احيانا . لكن الملك ايضا لم يدرك ان الشعب الانكليزي يؤيد النظام البرلماني ، وان العقيدة الپيوريتانية

(1) Ibid; pp. 41-44.
(2) Ibid; pp. 44-45.
(3) Ibid; pp. 45-46.

انتشرت وغالبية الانكليز يؤيدونها • واعتقد الملك ان تصرفات مجلس العموم نتيجة لخطابات بعض الزعماء فالقى القبض على ايليوت وحبسه في برج لنـدن الى ان مات في السجن سنة ١٦٣٣ • لقـد كان انتخاب معارضي الملك بصورة متزايدة في كل انتخاب للبرلمان خلال هذه الفترة لدليـل على تأيد الشعب الانكليزي لمطاليب مجلس العموم وللنظام البرلماني الذي لم يدركه الملك واعوانه(١) •

الحكم الفردي ١٦٢٩ - ١٦٤٠ :

بدأ شارل يحكم انكلترا حكما فرديا مدة (١١) سنة دون استدعاء البرلمان ، وشعر انه بحله البرلمان تخلص من عبء ثقيل • واعتبر نفسه حامي الكنيسـة الانكليزية والدستور ضد الفوضويين والذين يدنسون المقدسات الدينيـة • كما انه يحـافظ على شـعائر وطقوس الكنيسة الانكليزية ، وحقوق وحريات الرعيـة • و« نفذ ما قاله »(٢) • لقـد اعتبر شـارل التمسك بالكنيسة الوطنية (الانكليزيـة) هي الوطنية الصحيحة وان رجال الدين وحدهم يستطيعون حـل القضايا العقائدية باجتماعهم في مجلس خاضـعين لارادة الملك فقط • ولا يجـوز لعامة الناس ان يجادل مقرراتهم بل يؤمن بها دون سؤال وجواب •

وكما لا يحق للمواطن العـادي ان يناقش مقررات الكنيسـة ، كذلك حل البرلمان جرد الملك من اية سلطة في تشريع القوانين للبلاد • وقد اكد على طاعـة القوانين وكان يقصد بذلك كلمـا اعتبره القضاة شرعيا وقانونيا • وكان يعتقد انه « يعرف منطقيا كيف يجب ان يكون

---

(1) Ibid; pp. 45-46.
(2) Ibid; p. 81.

القانون » ، ويطرد القاضي الذي لا يوافق رأيه ، ويعين مكانه القاضي الذي يخضع لارادته • وكنتيجة لهذه الاحوال لم يعر الناس للمقررات القضائية وزنا وصار القضاة في نظرهم اداة لتنفيذ الحكم الاستبدادي • ولقد كانت المحاكم مهمة لان مورد الملك الرئيسي اصبح يعتمد على ما يدره عليه محاكم القضاء وليس البرلمان(١) •

اضطر الملك ان يقتصد في النفقات كي يعيش ضمن نطاق ما حدده له البرلمان من مصادر مالية • ولما وجد ان مورده لا يكفي لحروب خارجية ابرم الصلح مع اسبانيا وفرنسا ، وبذلك وفر لنفسه قسطا كبيرا من المال • لكن حتى هذا لم يكن يخلص شارل من العبء المالي الذي وقع على عاتقه • فقد بلغت الديون القومية مليون باون استرليني بسبب الحرب وحتى اذا اهملت هذه الديون فان مورده لا يكفي لنفقات الدولة • عندئذ بدأ يجمع المال بشتى الوسائل التي وان كانت قانونية ، وان شارل لم يخرج عن نطاق ملتمس الحقوق ، لكنها لم تتفق مع روحية الشعب المعارض والاصول البرلمانية •

ومن بين ما التجأ اليه شارل هو تغريم كل من يملك عقارا أو ارضا بمورد سنوي لا يقل عن اربعين باونا واهمل ان يكون فارسا (اي ان يحصل على لقب السير) • ومع ان ذلك كان قانونيا واتبع سابقا لكنه اهمل منذ عهد هنري السابع • كما ان ضريبة الغابات كانت موردا آخر للملك ، فكل ارض كانت غابة في الماضي وقطعت يجب اعادة تشجيرها ودفع الضريبة عنها • وقد منح شارل الاحتكارات للشركات مقابل مبالغ من المال كاحتكار صناعة الصابون والخمور

(1) Ibid; p. 82.

والملح . ومما اثار سخط الناس كثيرا هو اعادة ضريبة السفن . لقد كانت الموانيء الانكليزية سابقا تصنع السفن للدفاع عن المملكة ، ولما اسست الحكومة الانكليزية اسطولا للدفاع عن البلاد ، انقطعت الموانيء الانكليزية عن صناعة السفن . غير ان شارل طلب من هذه المدن دفع مبلغ سنوي للاسطول الانكليزي مقابل انقطاعهم عن صناعة السفن . ولما رفض احدهم جون هامدن دفع الضريبة باعتبارها غير قانونية ، سيق الى المحكمة التي ادانت هامدن . فاحتج البيوريتان في كل مكان في انكلترا واصبح هامدن بطلهم المنكوب ، وبينوا ان ضريبة السفن غير شرعية ومخالفة لملتمس الحقوق الذي وقعه شارل بنفسه سنة ١٦٢٨ ، نصا وروحا . عندئذ التجأ شارل الى القضاء لابداء الرأي بخصوص شرعية الضريبة ، فأكدوا انها شرعية[1] .

لقد كانت القضية الدينية تثير حساسية الشعب الانكليزي . وكان الملك قد عين الاسقف وليم لود Laud رئيسا لاساقفة الكانتربري ليدير شؤون الكنيسة الانكليزية وهو اعلى منصب ديني في انكلترا . وقد خفف وليم لود القوانين الصارمة بحق الكاثوليك ، وشدد على البيوريتان وأجاز الترفيه عن النفس باقامة الحفلات والذهاب الى المسارح الليلية لسماع الموسيقى والتسلية بصورة عامة والتي حرمها البيوريتان . وقد انزعج الاخير الى درجة بحيث ان آلاف البيوريتان هجر البلاد الى امريكا .

---

(1) Ibid; pp. 83-85.

الثورة السكتلندية ١٦٣٨ :

لم يكتف شارل بذلك بل اراد ان يغير تعاليم الكنيسة السكتلندية الكلفنية وتنظيمها بحسب تعاليم وتنظيمات الكنيسة الانكليزية التي فيها بقايا من التنظيم الكاثوليكي عندئذ عقد رجال الدين السكتلنديين ميثاقا فيما بينهم سنة ١٦٣٨ ، واقسموا ان يدافعوا عن كنيستهم وطردوا الاساقفة الذين ارسلهم شارل للقيام بعملية التغيير وثاروا . ولما لم يستطع شارل ان يتغلب على الثوار في اول تصادم معهم سنة ١٦٣٩ ، دعا البرلمان الانكليزي الى الانعقاد سنة ١٦٤٠ حتى يحصل على المبالغ اللازمة لقمع الثورة . ولما اجتمع البرلمان وطلب الملك المال لقمع الثورة السكتلندية دون ان يشير الى المظالم ، بدأ زعماء المعارضة يناقشون المظالم دون الاشارة الى المال ويسردون اعمال الحكم الفردي منذ ١٦٢٩ . ولما يئس الملك من الحصول على المال حل البرلمان المسمى بالقصير لانه لم يستمر اكثر من ٣ اسابيع . لقد كان حل البرلمان في ٥ مايس ١٦٤٠ خطأ سياسيا عظيما ارتكبه الملك ، واعترف به معارضوه ، لان البرلمان القصير ما كان يقوم بما قام به البرلمان الذي خلفه . وكان مجلس اللوردات مستعدا للتوسط بين الملك ومجلس العموم ، وخاصة لما كان من المقرر بحث الثورة السكتلندية وطلب الملك (١٢) منحة من المال لمواجهة الثورة ثم مناقشة المظالم وحريات الشعب في ٧ مايس . وكان من المعتقد ان مناقشة المظالم تحدث رد فعل لمصلحة الملك ، وفي هذه الحالة لم يكن يتنازل للبرلمان عن عشر ما تنازل عنه في البرلمان التالي ، لان مطاليب البرلمان القصير كانت قليلة ولم يصل بعد الى درجة اليأس الذي وصل اليه البرلمان الثاني .

الحرب الاهليـــة والثورة الانكليزية

١٦٤٢-١٦٤٩

أراد الملك ان يجمـع المال بشتى الوســائل لتزويد جيش يطرد السكتلنديين الذين احتلوا شمالي انكلترا . ولما لم يستطع امر بانعقاد البرلمان في تشرين الثاني سنة ١٦٤٠ . وكان حوالي ٦٠٪ من الاعضاء المنتخبين جلسوا في البرلمــان السابق القصير . وقيــل ان اغلب اعضاء المقاطعات الغنية كانوا من المعارضين للبلاط والملك .

البرلمان الطويل :

ولما اجتمـع البرلمان المسمى بالبرلمان الطــويل ، لانه استمر بين ١٦٤٠ ــ ١٦٦٠ اصر على انه يتمتـع بالسلطة العليا في البــلاد ، وانه يتجــاهل اوامــر مجلس اللوردات والملك التي تتنافى مـع مصــالح الشعب . ولقد اعترف جيمس الاول بحق البرلمــان في طرد الوزراء ، والآن يستطيع مجلس العموم حبسهم واعدامهم ، وقبض في الحال على رئيس اسـاقفة كنتربري ، وليـم لود ، وتوماس وينتورث المعروف بـ ايرل اوف سترافورد ، الذي كان مستشارا لشــارل الاول منــذ ١٦٢٩ . وقد اعدم سترافورد بتهمة الخيانة العظمى لانه اراد ان يجلب الجيش الارلندي الى انكلترا لاخضاع البرلمان . ومـع ان البرلمان لم يجد دليلا لادانته لكن زعمـاء مجلس العموم خافوا من ان سترافورد يتهمهم بالخيانة بتواطئهم مع الســكتلنديين الذين اغاروا على انكلترا ،

فتخلصوا منه باعدامه . اما وليم لود رئيس اساقفة كنتربري فبقي في السجن الى سنة ١٦٤٥ حيث اعدم . وقد دلت الدلائل على ان سترافورد كان بريئا لكن لم يسمح له ان يدافع عن نفسه .

اصلاحات البرلمان :

وقد استمر البرلمان في اصلاحاته الدستورية (١) بالغاء المحاكم الخاصة كمحكمة قاعة النجوم ، ومحكمة ويلز ، ومحكمة المقاطعات الشمالية ، ومحكمة التفويض العليا ، وقرر عدم تأسيس ما يشبه هذه المحاكم في المستقبل ، وجرد المجلس الاستشاري من كل صلاحياته . (٢) وان يجتمع البرلمان في مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات بعد حله ، سواء أكان الاجتماع بدعوة من الملك أم لم يكن ، ولا يجوز تأجيل او تعطيل او حل البرلمان الا بموافقة مجلس العموم . (٣) لا يجوز فرض الضرائب وجمعها الا بموافقة البرلمان . (٤) يعين القضاة على اساس حسن سمعتهم وتصرفاتهم لا بحسب رغبات الملك . وقد وافق الملك على هذه الاجراءات .

وقد اكد البرلمان على الدين البروتستانتي والمحافظة عليه ، لكن مجلس العموم قرر ابعاد رجال الدين عن التدخل في الشؤون الدنيوية ومنع الاساقفة عن عضوية مجلس اللوردات . لقد كان النقاش حادا على القضايا الدينية في صيف ١٦٤١ ، وحدث الانشقاق بين المجلسين العموم واللوردات ، كما انقسم اعضاء مجلس العموم الى قسمين . لقد كانت الاصلاحات الدينية اكثر ميلا الى تعاليم البيوريتان الذين هم الاكثرية الساحقة في المجلس ، ولم يكن مجلس اللوردات يريد تغيير تركيبه . فلما فرض مجلس العموم تنفيذ مقرراته من قبل

السلطات المسؤولة احتج مجلس اللوردات مبينا ان ما يقوم به مجلس العموم ليس اصلاحا بل ثورة في جميع نواحي الحياة في البلاد ، ورفضوا الموافقة على المقررات .

وكان الملك قد قام بزيارة لسكتلندة في صيف ١٦٤١ لاستمالة الزعماء السكتلنديين الى جانبه ، لكن البرلمان السكتلندي اصر على ان موظفي الملك يجب تعيينهم من قبل البرلمان فرفض شارل ذلك ولم يحصل على مساعدة السكتلنديين(١) .

ولما رجع الملك الى انكلترا وجد ان مجلس اللوردات لم يقبل بالاصلاحات الدينية التي قام بها مجلس العموم يؤيدهم في ذلك قسم من اعضاء مجلس العموم نفسه . وقالوا ان شرذمة من البيوريتان يريدون فرض ارادتهم على انكلترا . وكان البرلمان قد اثقل كاهل الشعب بالضرائب الفادحة التي لم يكن البرلمان نفسه يرضى بمنح اقل منها بكثير الى الملك سابقا . وشعر قسم كبير من الناس ان البرلمان قد سلب حقوق الملك اكثر مما يستوجب . ولم يكن مجلس اللوردات يريد ان يتمتع مجلس العموم بصلاحيات اكثر من الملك . بل كان يريد ان يتساوى البرلمان والملك في الصلاحيات . بالاضافة الى كل ذلك ظهرت جماعات دينية كانت تفسر الانجيل كل بحسب اهوائها دون التقيد بتعاليم الكنيسة . وهكذا احدث البرلمان رد فعل في البلاد في صيف ١٦٤١ ، بحيث انه كان الكثيرون يؤيدون الملك . وكان العامل الرئيسي الذي منع استرجاع الملك شعبيته هو الخوف من رجوع الكاثوليكية والبابوية الى البلاد بسبب الثورة التي نشبت في ارلندة .

---

(1) Ibid; pp. 99-105.

ولكي يستعيد البرلمان شعبيته قدم وثيقة الى الملك في خريف ١٦٤١ ، سمي (بالاحتجاج العظيم) مبينا في (١١٩) مادة الاولى مساويء الادارة وتفسخ الجهاز الحكومي والاجحاف بحق الشعب في العهد الملكي الجائر • ثم يبين في المواد التالية الاصلاحات التي قام بها البرلمان خلال هذه المدة • وكان الغرض الاساسي من الاحتجاج العظيم استمالة الشعب والرد على مزاعم الذين مالوا الى جانب الملك واشاعوا بان البرلمان اخذ يعتدي على حقوق الملك الاساسية على الرغم من ان الاخير وافق على كل الاصلاحات التي قام بها البرلمان لانها وجد فيها فائدة للشعب •

يعتبر الاحتجاج العظيم وثيقة خطيرة من اهم الوثائق في تاريخ الدستور الانكليزي • وقد اعترف الناس بذلك في وقته • وهو يتجلى بوضوح في المناقشات الحادة التي جرت في البرلمان عند اعداد الوثيقة• وقد اعتبر الملكيون الغرض من الاحتجاج اتهام الملك بما لم يرتكبه • وكان في نظر الاجانب حيلة اراد بها زعماء مجلس العموم استرجاع شعبيتهم التي فقدوها في صيف ١٦٤١ ، بتوجيه التهم الى الملك والاستخفاف باعماله في الماضي والحاضر • وقد اجتازت الوثيقة مجلس العموم باغلبية ضئيلة وقدموها الى الملك للمصادقة[1] •

لم يكلف شارل نفسه بالرد على الوثيقة ، وقد اعلن خلال الفترة المحددة لذلك انه ينوي ليس فقط الموافقة على القوانين التي تشرع ، بل منح الحريات ضمن حدود العدل والانصاف والمحافظة على الكنيسة الانكليزية • لقد كان شارل في مركز قوي الآن وكان اغلب

(1) Ibid; pp. 118-123.

مجلس اللوردات بجانبه وكان باستطاعته ان يتغلب على زعماء مجلس العموم لو تمسك بالصبر وتصرف بحكمة .

وكانت قد حدثت ثورة في ارلندة بعد اعدام سترافورد الذي سيطر على المنطقة بيد من حديد ، وقتل الارلنديون كثيرا من البروتستانتيين البيوريتان الامر الذي حدا بالبرلمان ان يعين جيشا لاخماد الثورة على ان يكون امر تعيين ضباط الجيش والقادة منوط بالبرلمان وليس الملك خشية ان يستخدم الاخير الجيش لاخضاع البرلمان . وكان قد اشيع كذبا بان الارلنديين يثورون باسم الملك ونالت الاشاعة رواجا في انكلترا . لقد كان قرار البرلمان تجاوزا على صلاحيات الملك الدستورية ، غير أن مجلس العموم لم يكتف بذلك بل اراد استفزاز الملك في هذا الوقت بالذات بالغاء نظام الاسقفية في انكلترا وجعلها كلفنيا بتعيين المنستر بدلا من الاساقفة ، وطرد (١٢) اسقفا من مجلس اللوردات . ومما زاد في الطين بلة قدم زعماء مجلس العموم لائحة الى البرلمان تقترح تعيين قائد عام يقوم بتجنيد الجنود وجباية الضرائب اللازمة لدفع رواتب رجال الجيش واعلان الاحكام العرفية .

عندئذ لم يتمالك شارل نفسه وقرر القاء القبض على خمسة من زعماء مجلس العموم اهمهم (جون بيم) زعيم المعارضة و(هامدن) و(هالس) متهما اياهم بمحاولة القضاء على قوانين البلاد الاساسية ودعوة السكتلنديين للهجوم على انكلترا واحتلال القسم الشمالي منها . لكن الاعضاء الخمسة فروا واختفوا . عندئذ أيقن الملك ان

الحرب الاهلية لا مفر منها[1] .

الحـرب الاهليـة :

ترك شارل لندن في اوائل ١٦٤٢ ، ولم يكن معـه سوى ثلاثين شخصا ، واخذ يعد العدة لمواجهة جيش البرلمان وتم له ذلك واستطاع ان يواجه الجيش البرلماني في ايدج هل Edge Hill بعد عشرة اشهر بفضل السياسة التي وضعها له (ادوارد هايد) الذي كان عضوا بارزا في مجلس اللوردات لكنـه اصبح اخيرا من مناصـري الملك . اتخذ ادوارد هايد بعض تنويهات جون پيم في مجلس العمـوم اساسا لوضع سياسته . فقد قال پيم في البرلمان في احـدى المناسبات : « ان القانون الصحيح هو الذي يميز الحق عن البـاطـل ، وان الملك في اصراره على حقه الشرعي وعدم شرعية مطاليب البرلمان انما يعتمد على فقدان الرغبة في البرلمان للاعتراف بان الدستور القـائم لا يصلح للبـلاد ويجب ان يتغير . ان الاكثريـة في البرلمـان لا توافق على قانون يسلبهم التمتع بمقاطعاتهم ، في الوقت الذي تحميهم قوانين الحصانة ، ولما كان زعماء البرلمـان هم الذين يقومون بالتغـيـيرات الدستورية في البـلاد وطرد خصومهم ، فانهم في الوقت الحـاضر لا يمثلون الرأي العـام تماما ، ويمكن اتهامهم بكل سهولة انهم يؤسسون حكومة استبدادية . »[2]
وكان غرض (پيم) ان الرأي العـام الانكليزي قد تغير خـلال مدة سنتين واصبح اكثر يسارية من السابق عندما انتخب البرلمـان الطويل سنة ١٦٤٠ . وعليه فاذا اجريت انتخابات جديدة فينتخب عناصر يسارية

(1) Ibid; pp. 124-125.
(2) Ibid; p. 124.

اكثر تستطيع ان تؤسس حكومة تمثلهم تماما • وان اية حكومة يؤسسها البرلمان الحالي لا تمثل الشعب لانها يمينية وبالنسبة لليسار استبدادية •

اما خطة البرلمان او منهجه السياسي فيتلخص في المقترحات التسعة عشرة (١٩) التي قدمها البرلمان الى الملك في حزيران ١٦٤١ ، واصبحت اساسا للحرب الاهلية • ومجمل المقترحات هو : « تعين مستشاري الدولة ، والموظفين الكبار ، وحكام القلاع والحصون بموافقة البرلمان • كما انه يجب ان تكون تربية وتثقيف اولاد الملك وزواجهم من قبل اشخاص يثق بهم البرلمان • وتطبيق القوانين الصارمة بحق الكاثوليك ، وطرد اللوردات الكاثوليك من مجلس اللوردات ، وان يقوم الملك باصلاح الكنيسة بحسب توجيهات البرلمان ، ويوقع على مرسوم تأسيس المليشيا ، ويتخلى عن المقصرين لعدالة البرلمان • كما ان اللوردات الذين يعينون في المجلس الاعلى يجب ان ينال موافقة المجلسين • »(١)

لقد رد شارل على هذه المقترحات بقوله « انها مثيرة للسخرية والازدراء » ، ولا يبقى « شيء من سلطة الملك غير الابهة الفارغة • » اما بخصوص الكنيسة والدولة فأجاب شارل بان « ليست هناك اصح وأطهر من الكنيسة الانكليزية ومبادئها ، ولا حكومة وقوانين وانضباط اجمل واحسن مما هو موجود هنا • وانه يحميها ويحافظ عليها ضد البابوية والبيوريتان الانفصاليين • »(٢)

---

(1) Ibid; pp. 125-126.
(2) Ibid; p. 126.

ان الذين وقفوا تحت لواء الملكيـة كانوا مدفوعين بدافع الولاء للعرش الانكليزي والدفاع عن الكنيسـة • وكثير من الذين عارضوا سياسـة الملك ، خافوا من البابوية التي كانت الملكة تروجهـا ، وقفوا بجانب الملك لانهم آمنوا بنظرية الحق الالهي وقدسية الملكية والتزود بنعمته كما يتبين من قول ايدموند ڤيرني : « انني لا أحب النزاع واود من كل قلبي ان الملك يتنازل للبرلمـان ، ويوافق على مطاليبهم ، حتى ارضي ضميري واتبـع سيدي الذي تزودت بنعمتـه وأكلت من خبزه وخدمته مدة طويلة ولا ارضى بنفسي ان اكون دنيئـا الى درجة اتركه في وقت الشدة • »

وكان العامـل الاجتماعي سببا آخر لتأييـد الملك • فقد خشى اصحاب الاراضي من قول الطبقات الدنيـا في ايلول ١٦٤٣ ، « انهم خدموا النبـلاء والسـادة مدة طويلة ، والآن جاء دورهم ليخدمونا • » وقد عبر عن ذلك احـد الشعراء والذي كان شـعره على لسان جنود البرلمان في كل مكان والتي ترجمتها هي :

انا نعلم النبلاء درسا في الخضوع ، ونجعلهم يسقطون
وان التصرفات الراقيـة والخاق الرفيع المشبع بالغرور
يجب القضاء عليها وتسقط ، ثم نصعد نحن •

ولهذا فان كثير من اصحاب الاراضي والنبلاء وقفوا بجانب الملك ووجدوا أن مصالحهم مهددة اذا سقطت الملكية[1] •

اما من جهة البرلمـان فيتبين من قول كرومويل : « لم يكن الدين سبب النزاع في بادىء الامر (بين الملكيين والبرلمانيين) لكن ارادة الله

(1) Ibid; pp. 126-127.

جعل الدين في وسط النزاع واثبت الدين انه كان اعز شيء عندنا • »[1]

ان الذين انحازوا الى البرلمان على الاكثر من الطبقة الوسطى التجار واصحاب الحوانيت الذين تضرروا كثيرا من اجراءات شارل التعسفية وجباية الضرائب منهم قسرا • وكان هؤلاء أغلبهم پيوريتان وممثليهم في البرلمان شكلوا الاكثرية • فصار العامل الديني متحدا مع العامل السياسي والاقتصادي • وفي كل الاحوال وقف البرلمانيون للسيادة البرلمانية والحرية وضد الملكية المطلقة ، وقسم كبير من مؤيدي البرلمان أرادوا تغييرات اجتماعية •

لقد اتخذ البرلمان موقفا غير قابل للتفاهم في صيف ١٦٤٢ ، معتقدا ان الملك لا يستطيع تأسيس جيش ، لانه لما ترك لندن في كانون الثاني من تلك السنة ، كان يائسا • وقد وصل الى مدينة يورك في مارت (آذار) وبعد شهر وصل الى مدينة هل Hull ، لكنه منع من الدخول • عندئذ توجه جنوبا وفي آب آغسطس رفع لوائه في نوتنگهام • وحتى في ذلك الوقت لم يكن معه سوى ٨٠٠ فارس و٣٠٠ مشاة • وقد يئس ومن معه ، وأشار بعض مستشاريه بالعودة الى لندن ومفاجأة البرلمان ومنحهم شروطا مناسبة •

وكان الملك قد ارسل زوجته واولاده الى فرنسا قبل ان يترك لندن • وفي هذه اللحظة اليائسة انقذه تصريح البرلمان في (٦) ايلول من الاستسلام التام • فقد اصدر البرلمان في ذلك التأريخ بيانا بانهم لا يسرحون جنودهم ما لم يسلم شارل الى عدالة البرلمان اولئك

(1) Ibide: p. 127.

المقصرين الذين صوت البرلمان ضدهم ، ويجب ان يتحمل هؤلاء تكاليف الجيش وان ديون الذين دفعوا القروض الى البرلمان يجب دفعها من قبل معارضي البرلمان . كان هذا التصريح عاما وشاملا . وكل من خشي على نفسه وكان محايدا في النزاع بدأ يتسلح للدفاع عن نفسه بجانب الملك . وخشى الملكيون البارزين فقدان اراضيهم وانحازوا الى جانب الملك . وقبل نهاية ايلول تمكن الملك من جمع الفي فارس وستة آلاف مشاة . لكن واجهوا مشكلة السلاح . ولم تستطع الملكة هنريتا ماريا ان تزود زوجها بالاسلحة من هولندة لان البحرية وقفت بجانب البرلمان . كما ان الملك كان يفتقر الى المال فاضطر ان يبيع مستلكات جامعتي كمبرج واكسفورد من اواني ذهبية وفضية ويحصل على منح مالية من بعض العوائل الغنية .

اما البرلمان وان كان في المال والسلاح في وضع افضل بكثير ، لكن جنوده لم يمارسوا الحرب وتنقصهم الخبرة والشجاعة . وكان القائد العام للجيش البرلماني ايسيكس تحت امرته (٥) آلاف فارس (٢٥) الف مشاة مسلحين عندما واجهوا الملك في ايدج هل في تشرين الاول ١٦٤٢ .

وكان جيش الملك الفرسان مسترسلي الشعر لهم الخبرة في الحرب بينما جيش البرلمان ذوي الرؤوس المستديرة كانوا يحلقون شعرهم . وقد تمكن فرسان الملك من تطويق جيش البرلمان في ايدجهل وتغلبوا عليهم لكن فاتتهم فرصة ثمينة بابادة جيش البرلمان عندما كانوا يتابعون فرسان البرلمان . فتمكن عندئذ مشاة البرلمان من التغلب على مشاة الملك لكن لما رجع فرسان الاخير تعادلت الكفتان . وقد استولى

شارل على مدينة بانبرى وتراجع الى اكسفورد بينمـا تراجع قوات البرلمان الى لندن •

لقد كان الفرسـان منتصرين خلال السنتين الاولى من الحرب • وقد تمكن الفرسـان من الاستيلاء على الجنوب الغـربي من انكلترا فصار الملكيون اقوياء في الغرب والشمال بينمـا البرلمانيون في الشرق والجنوب • وقد استطاع البرلمان بزعامة پيم ان يتفق مع السكتلنديين ويسوي خلافاتهم الدينيـة بتأسيس كنيسة واحدة كلفنيـة في البلدين على غرار الكنيسـة السكتلندية وحصـل بذلك على خدمـة الجيش السكتلندي قبـل ان يموت في ديسمبر كانون الاول ١٦٤٣ • وعندئذ في تمـوز ١٦٤٤ التقى الجيش الملكي المؤلف من (١٨) الف بقيـادة روپرت ابن أخت الملك وأمير البلاتينات بجيش البرلمان ذوي الرؤوس المستديرة والجيش السكتلندي وقـد بلـغ عددهم (٢٧) الف • وفي معركـة مارستن مور انتصـر البرلمانيون وتغلبوا على أحسن قائد في خدمة الملك وهو روپرت • لقد كانت معركة مارستن مور اعظم معركة في الحرب الاهلية فتحت شمال انكلترا للبرلمان • لكن الملكيون ربحوا الجنوب الغـربي بانتصـارهم على قـوات ايسيكس قائد البرلمـان واستسلامه في ايلول ١٦٤٤[1] •

وقد برز دور كرومويل في هذا الوقت عندما قام بتنظيم الجيش وكوّن ما يسمى بالجيش النموذجي • وكان بامكان البرلمـان ان يزود

---

(1) Trevelyan. G. M. England under the Stuarts (Penguin, 1960), pp. 226-227. Also pp. 245-246.

جيشه بالمال والمعدات ، في الوقت الذي كان الملكيون بحاجة الى الاثنين .

اصبح الجنرال فيرفيكس القائد العام للجيش الجديد واوليفر كروموِيل الذي كوّن الجيش النموذجي نائبه وقائد الفرسان . وفي صيف ١٦٤٥ استطاع القائدان من احراز انتصار عظيم على الجيش الملكي الرئيسي في معركة نيسبي Naseby (١٤ حزيران) ، وقد تمكن جيش البرلمان ان يطهر المناطق من جيوب الفرسان هنا وهناك . ولم يبق الا الملك لاجئا في اكسفورد الذي استسلم الى السكتلنديين في ٢٤ حزيران ١٦٤٦[1] .

الثورة الانكليزية الثانية ١٦٤٧-١٦٤٩

انتهت الحرب الاهلية باستسلام الملك ، وكان البرلمان مرتبطا بميثاق مع السكتلنديين الذين لعب جيشهم دورا رئيسيا مماثلا لدور الجيش الانكليزي النموذجي في المعركتين الرئيسيتين مارستون مور ونيسبي اللتان انتصرفيهما البرلمان . وكان الميثاق ينص على تأسيس الكنيسة السكتلندية البريسبيتارية في انكلترا التابعة لسيطرة الدولة . وفي نظر اغلب البيوريتان لا تختلف الكنيسة السكتلندية عن الكنيسة الانكليزية في سيطرة الدولة على الكنيسة وفرض طقوس العبادة . وكان هؤلاء البيوريتان يريدون كنائس حرة مستقلة وسموا بالمستقلين Independent . وقد ازداد عددهم واصبحوا متنفذين في الجيش النموذجي .

(1) Ibid; pp. 254-259.

وفي نفس الوقت كان البرلمان ينفذ ميثاقه بتأسيس الكنائس البريسبيتارية السكتلندية في انكلترا ، متجاهلا المستقلين ورغبتهم في تأسيس الكنائس الحرة . وفي بداية ١٦٤٧ ، أمر تسريح الجيش النموذجي دون دفع بقايا رواتب الجيش . لكن الجيش رفض ووضع خطة العمل بانتخاب القادة . فعندما حس البرلمان بثورة الجيش أراد التفاهم مع الملك واعادته الى الحكم . لكن الجيش كان أسرع من البرلمان فقبض على شخص الملك . وخلال هذه الفترة تطورت افكارا سياسية جديدة في الجيش كنظرية الحقوق الطبيعية للانسان التي اثرت على الكتاب والمفكرين فيما بعد في انكلترا وامريكا وفرنسا . واكدت على ان الحكومة الشرعية تستند على موافقة ورضا المحكومين ، على ان تكون الحكومة برلمانية مكونة من مجلس واحد ينتخب عن طريق التصويت العام للذكور وتكوين الدمقراطية السياسية .

لم يكن كروميل يؤمن بالدمقراطية وقال بان أغلبية الانكليز لا يريدون الدمقراطية مهما كانت حسنة من الناحية النظرية . واقنع الجيش بان يعرضوا على الملك حلا بعنوان رأس المقترحات ينص على التسامح الديني وسيطرة البرلمان على المليشيا ووظائف الدولة لعشر سنوات . ولا يجبر احد أن يقبل الكنيسة السكتلندية البريسبيتارية ، ولا يمنح الاساقفة سلطات قسرية . كما طلبوا حل البرلمان الطويل وانتخاب برلمان جديد على اساس منح حقوق انتخابية اكثر وتأسيس مناطق انتخابية متساوية بعدد اكثر . ولما رفض شارل المطاليب اصبح كروميل في موقف حرج . وقد أثر الراديكاليون ، الذين سموا انفسهم الليفلير لانهم أرادوا ان يجعلوا الناس متساوون سياسيا ، على

الجيش ، وبذل كروموبل جهده لتجنب ثورة . فقد وضع الجنود بتأثير الليڤلير دستورا سمي باتفاق الشعب طلبوا فيه استفتاء شعبيا والتخلي عن الملك والبرلمان والرجوع الى الشعب كمصدر لجميع السلطات . وقد الغى الاتفاق الملكية ومجلس اللوردات ، ووضع الحكم في برلمان مكون من مجلس واحد منتخب عن طريق التصويت العام للذكور . ووضع قيودا حتى على البرلمان بان هناك بعض الحريات الفردية لا يستطيع البرلمان منعها او سلبها من الناس . وكان كروموبل يقول هل ان الشعب الانكليزي مستعد لتقبل هذا النظام ؟ وكان يجد صعوبة تطبيق هذا الدستور . وتمكن مع زملائه الضباط ان يقنع الجيش بان يكون معتدلا اكثر في مطالبيه . وهذه المناقشات والجدال بين اعضاء الجيش اصبح قسما من دستور الولايات المتحدة .

حاول كروموبل انقاذ الملكية لكن لم يستطع ان ينقذ شارل الاول . فقد اقنعت المفاوضات بين الجيش والملك ان الأخير يحاول ان يستفيد من الانشقاق الموجود في صفوف الثوار « ليستعيد بالاحتيال ما فقده في القتال . » كما قال احد رجال الجيش . ولما رفض شارل مقترحات الجيش فقد البرلمان ايضا ثقته فيه . لكن الملك أسخط الجيش تماما لما ابرم اتفاقية مع السكتلنديين الذين قبلوا باعادته للعرش مقابل تأسيس الكنيسة البريسبيتارية السكتلندية لمدة ثلاث سنوات . وعندئذ أغار السكتلنديون على انگلترا ، وايد كثير من الملكيين ملكهم . لكن الجيش الانگليزي اتحد مرة أخرى بعد تسوية خلافاتهم وواجه الجيش السكتلندي سنة ١٦٤٨ ، وانتصر عليه . وخلال هذه المدة التي كان الجيش في حرب مع سكتلندة ؛ اتفق

البرلمان مع شارل بان يرجع الى العرش على ان لا يتسامح في الدين .

وهذا وضع نهاية للملك[1] .

فلما رجع الجيش منتصرا قرر ان ينهي امر الملك والبرلمان . ففي ٦ كانون الاول ١٦٤٨ وقف العقيد برايد Pride على رأس كتيبة في باب البرلمان ومنع النواب المؤيدين للكنيسة السكتلندية بالدخول . وطهر البرلمـان من كل النواب الذين لا يؤيدون الجيش والمستقلين . فبقى حوالي ستين نائبا في البرلمـان من مجموع ٥٠٤ الذين انتخبوا في ١٦٤٠ . واطلق على البرلمان المطهر اسم رامپ Rump، واصبحت انكلترا من الآن فصاعدا تحت حكم الجيش[1] .

اعدام شارل الاول :

بعد ان انتهى الجيش من تطهير البرلمان طلب النواب الذين بقوا في مجلس العمـوم ان يشكل مجلس اللوردات لجنة لمحاكمـة شارل الاول . فلما رفض مجلس اللوردات ذلك قرر مجلس العموم في اوائل ١٦٤٩ أن السلطة العادلة للشعب ولما كان البرلمان يمثل الشعب فيتمتع بالسلطة العليا ، وما يعتبره البرلمان قانونا يكون قانونا بغض النظر عن موافقة الملك واللوردات . وعلى ضوء الوضـع الجديد حوكم شارل وتقرر اعدامه في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٩ . والواقـع ان المجلس الذي جلس لمحاكمة الملك لم يكن يمثل الشعب الانكليزي في ذلك الوقت . ولهذا فكانت المحاكمة والاعدام غير قانونية . لقد أثر اعدام الملك على الشعب الانكليزي والقـارة الاوروبية . وحتى ان الذين وقفوا ضده وحاربوه لم يرغبوا في اعدامه . فلما رفع رأسه الدامي امام الناس بعد

(1) Ibid; pp. 260-276.

اعدامه مباشرة ، ضاعت هتافات الجنود وسط بكاء وحزن جماهير الشعب[1] .

ان الثورة الانكليزية لم تكن نتيجة تدهور المجتمع الانكليزي والصراع الطبقي الذي شهدته فرنسا قبل واثناء الثورة الفرنسية . بل كان صراعا لتطبيق المثل الدينية والسياسية في مجتمع مرفه اقتصاديا وقوي اجتماعيا . وعليه لم تكن اسباب الثورة اقتصادية ، واجتماعية فقط بصورة غير مباشرة . فالشعب الانكليزي انقسم الى قسمين متحاربين يوجد في كل قسم عدد من النبلاء والطبقة الوسطى بقدر القسم الآخر . وكان العامل الديني قد لعب دورا رئيسيا منذ البداية الى النهاية ولم يكن اقل تأثيرا من العامل السياسي كما يرى القارىء من قرائته تفاصيل الثورة .

دكتاتورية اوليفر كromويل العسكرية

١٦٤٩ - ١٦٥٨

قرر مجلس العموم المطهر ان انكلترا جمهورية ليس فيها ملك ومجلس اللوردات . ولم تكن هذه الجمهورية دمقراطية اذ لم يسمح ضباط البيوريتان اجراء انتخابات حرة لعلمهم ان اكثرية الشعب الانكليزي كانوا ضدهم ، فاعتمدوا على الجيش للسيطرة على شؤون الدولة . وقد اسند البرلمان السلطة التنفيذية في مجلس الدولة (مجلس السيادة) المكون من ٤١ عضوا ، كان ثلاثون منهم اعضاء في مجلس

(1) Ibid; pp. 276-277.

اما السلطة التشريعية فبقيت في البرلمان القديم المكون من العموم . ولم يكونوا يمثلون سوى نسبة ضئيلة من الشعب وهم ستين عضوا ، ولم تحصل الجمهورية تأييدا حماسيا من العالم البيوريتان المتطرفين . لان الجمهوريين كانوا اقلية في انكلترا فرضوا انفسهم بالقوة الخارجي على الشعب الانكليزي والذين كانوا يحكمون هم رجال الجيش . وقد يبين جون ليلبورن ، الكاتب الانكليزي ، في مقال بعنوان « قيود انكلترا الجديدة » كيف ان مجلس الدولة فرض نفسه قسرا على الشعب الانكليزي ، وطلب من البرلمان استعادة سلطاته المغتصبة .

لقد كانت الحكومة الجمهورية مهددة بعد اعدام الملك بتمرد الملكيين . وساعد السكتلنديون الانكليكانيين الانكليز للدفاع عن شارل الثاني ابن شارل الاول . وثار الكاثوليك في ارلندة ثورة ناجحة ضد الحكومة الانكليزية . لكن الجمهورية واجهت هذه المشاكل بسهولة لانها كانت قوية اقتصاديا وعسكريا ، بينما خصومها كانوا ضعفاء من الناحيتين .

وقد تمكن كروموبل ان يسحق الجيش الاولندي سنة ١٦٥٠ ، ثم توجه نحو سكتلندة سنة ١٦٥١ ودمر جيشهم وفر شارل الثاني الى فرنسا . لقد نجح كروموبل في المنافسة التجارية مع هولندا وسن البرلمان الانكليزي قانون الملاحة سنة ١٦٥١ يمنع بموجبه استيراد البضائع الى انكلترا الا على السفن الانكليزية او سفن مستعمراتها . غير ان كروموبل مع قيامه بكل هذه الاعمال الجسام اخفق في تأسيس نظام حكم دائم يحل محل النظام الملكي القديم الذي كانت عامة الناس قد تعودوا عليه في الوقت الذي كان البيوريتان وجيشهم يتطيرون منه .

كرومويل يصبح الحامي الاعلى للدولة ١٦٥٣–١٦٥٨ :

ولد اوليفر كرومويل سنة ١٥٩٩ ، وهو من الملاكين الصغار واصبح عضوا في البرلمان سنة ١٦٢٨ . ولما نشبت الحرب الاهلية اصبح من ابرز قادتها . كان كرومويل ذا ارادة حديدية وطبع ناري وعقيدة راسخة . فكانت عبارات الانجيل حاضره على شفتيه . كما كان يقول ويعمل لتنفيذ المهمة التي في نظره القاه الله على عاتقه . وقد نالت انگلترا في زمانه من الرخاء والتقدم ما لم تنله الا في ادوار قليلة من عهد ملوكها العظام .

كان كرومويل وليد الخبرة ونال منصبه بقوة الجيش وكان من الصعب عليه ان يحكم حكما دستوريا برلمانيا وقد ضاق كرومويل ذرعا بالبرلمان الذي رفض ان يحل نفسه فحاصرهم سنة ١٦٥٣ ، وامرهم باخلاء البرلمان ، واخذ يحكم حكما دكتاتوريا لمدة خمس سنوات ونصف . وقد سن كرومويل واعوانه دستورا جديدا تحت اشراف المجلس العسكري واصبح هو بموجبه رئيس الدولة مدى الحياة ، واخذ يدعى بالحامي الاعلى لانگلترا وارلندا وسكتلندة . ومنحه الدستور صلاحيات واسعة حتى خوله ترشيح من يخلفه في رئاسة الدولة . وكان يساعده في الحكم مجلس السيادة المكون من اعضاء مدنيين يقومون بمهام السلطة التنفيذية . ولم يستغن الدستور الجديد عن البرلمان ، الا أن البرلمان كان آلة بيد كرومويل يديره كما يشاء . وقد نجحت الدكتاتورية في انگلترا لان كرومويل كان قويا وقديرا وتحت قيادته وتصرفه جيش لا يقهر وخزينة لا تنضب ، وطبق سياسة خارجية تنعكس فيها مصلحة انگلترا وفرض احترامها في الخارج .

استعادة الملكيـة في انكلترا

عندما توفي كروموبل سنة ١٦٥٨ ، اصبح ابنـه ريتشارد الحامي الاعلى . وكان هذا شاب حسن النية عديم المقدرة فلم يستطع السيطرة على النزعات المختلفة التي انتشرت في البـلاد . فكان هناك من القادة من يريد الحكم الدكتاتوري ، ومنهم من اراد الجمهـورية ، ومنهم من اراد الملكية باسترجاع آل ستيوارت الى الحكم . فتخلى ريتشارد عن منصبه من تلقاء نفسه وعندئذ منع الجنرال مونك (احد قواد كروموبل) اي شخص آخر من رجال الجيش ان يحل محل كروموبل وابنه .

وقد امر قادة الجيش باجتماع مؤتمر وطني ينتخب انتخابا حرا ، وبدأت المفاوضات مع عائلة ستيوارت للرجوع الى الحكم وفق شروط اعلنها شارل الثاني في بريدا بهولندة (في نيسان ١٦٦٠) ينص على انه يراعى الماگناكارتا (العهد الاعظم) وملتمس الحقوق الذي وافق عليه ابوه سنة ١٦٢٨ ، وانه يترك الشؤون الدينية والمالية للبرلمان . واصدر عفوا عاما للجميع الا الذين يجد البرلمان ضرورة معاقبتهم لانهم صوتوا باعدام والده . كما ترك امر تسـوية الاراضي والممتلكات التي تلاعبت بها الايدي منذ الثورة الى البرلمـان ووافق على جميـع القوانين التي سنت ووقع عليهـا ابوه الى سنة ١٦٤٢ ، والغى جميـع اللوائح التي سنت بعد ذلك . واعتبر تأريخ مجيئـه للحكم من يوم اعـدام والده سنة ١٦٤٩ .

نزل شـارل الثاني ابن شـارل الاول في دوڤر قادمـا من القارة الاوروبيـة ، واصبح ملكـا على انكلترا في مايس ١٦٦٠ . وبرجوع

آل ستيوارت الى الحكم انتهت تلك الادوار الطارئة التي مرت بها البلاد ، وانتهى الحكم الفردي الذي كان يتمتع به جيمس الاول وشارل الاول . ولقد كان عظيما حماس الشعب الانكليزي في استقبال شارل الثاني . وسرعان ما أخذت الامور مجراها الطبيعي في ظل الملكية ، واصبحت الكنيسة الانكليزية الكنيسة الرسمية للدولة .

كان شارل رجلا ذكيا امتاز باللباقة والتلون . وعلى الرغم من تمسكه بالحكم المطلق ، كان يعلم الى اي حد يستمر في ذلك دون ان يصطدم بالبرلمان . وقد وجد بالتجربة ان الله لم يتدخل في انقاذ والده بتأكيده على نظرية الحق الالهي . ولهذا كان يذعن عندما كان يتفاقم الامر بينه وبين البرلمان . وقد صرح مرارا بانه لا يرغب النفي والاسفار في البلدان الاجنبية مرة اخرى ، واصبح ملكا دستوريا بريطانيا كما تبين ذلك من تصريحات بريدا .

لكن شارل الثاني وأخوه جيمس كانا متأثرين بالديانة الكاثوليكية والحكم المطلق ايضا . فقد كانت امهما (هنريتا ماريا بنت هنري الرابع) كاثوليكية ، وتربى الاثنان منذ الصغر في بلاط لويس الرابع عشر فتأثرا بالحكم الفرنسي . فلما رجع شارل سنة ١٦٦٠ ، لم يستطع ان يستمر طويلا في الحكم البرلماني والتمسك بالكنيسة الانكليزية . ومع انه لم يصرح بالكثلكة والحكم المطلق ، وهذا سر بقائه في الحكم ، لكنه كان في نزاع مستمر مع البرلمان ، ولكونه مداهنا أخفى غاياته ووضع اللوم بكل صلافة على وزرائه ومستشاريه الذين كانوا ضحايا بريئة لاخطائه .

وقد الغى البرلمان بقايا الحقوق الاقطاعية التي قد يستند اليها الملك لجمع المال وطلب الخدمات في بداية حكم شارل ، خوفا من تكرار ما كان يقوم به شارل الاول وجيمس الاول في نزاعهم مع البرلمان . لقد كان هذا الأجراء مهما من ناحيه زوال كل النظريات الاقطاعيه في انكلترا ، والتاكيد على النظريات الرأسمالية ومبدأ الملكيه الخاصة . لقد استفاد اصحاب الاراضي كثيرا من زوال بقايا الخدمات الاقطاعية .

وحصل شارل الثاني على مبلغ (١٠٠) الف باون استرليني من البرلمان مقابل ذلك كان يجمعها كضريبة على المشروبات الكحوليـة ويدفعها جميع طبقات الشعب . وكانت مع مجموع الضرائب الاخرى كضريبة العقار وموارد البريد ، يدر دخلا سنويا للملك بمبلغ ١٫٢٠٠٫٠٠٠ باون استرليني يكفي لمصاريف البلاط والحكومة ، لكنه لم يكن كاف بالنسبة لشارل الثاني الذي كان مبذرا بطبيعته ، يرشي اعضاء البرلمان ، ويريد أن يؤسس جيشا نظاميا ينفق عليه بغية ازدياد نفوذه . وقد ساد التذمر في الاوساط الشعبية وحتى من قبل اصحاب الاراضي من ان مصاريف البلاط كثيرة ، وشاع بين الناس ان شارل يستخدم الجيوش الاجنبية لاخضاع الانكليز . ونتيجة لذلك اصبح البرلمان يدقق مصاريف البلاط اكثر من ذي قبل ويضع ميزانية الملك مادة فمادة حسب احتياجاته ويطلب قائمة الحسابات .

ومع ذلك استمر شارل يقترض المال بشتى الوسائل . وكان قد اقترض من صائغي لندن مبلغ مليون وربع باون استرليني للحكومة واعلن سنة ١٦٧٢ ، ان هذا القرض يجب ان يكون دينا دائميا . وفي سنة ١٦٧٠ ، عقد معاهدة سرية في دوفر مع لويس الرابع عشر وافق

لويس بموجبه ان يدفع سنويا مبلغ (٢٠٠) الف باون الى شارل على ان يساعده في حربه مع هولندة واسبانيا وينضم الى الكنيسة الكاثوليكية • ومع ان شارل ساعد لويس لكنه لم ينضم الى الكنيسة الكاثوليكية •

اما في سياسته الدينية فقد تمكن بمساعدة الطبقة الارستقراطية ان يجبر البروتستانتيين المتطرفين (البيوريتان) من تكييف انفسهم للكنيسة الانكليزية بموجب قانون الانسجام الذي وضعه البرلمان سنة ١٦٦٢ • اما المنشقين من رجال الدين فجردوا من وظائفهم ، واجبروا ان يسكنوا على بعد خمسة اميال من كنائسهم بموجب قانون الاميال الخمسة الذي سنه البرلمان سنة ١٦٦٥ ، الا اذا وافقوا على تعاليم الكنيسة الانكليزية وأقسموا يمين الولاء للملك • واذا تكرر زيارات المنشقين الى كنائسهم لاجتماعاتهم التي تعودوا عليها في الكنيسة فان قانون الاجتماعات الذي وضع سنة ١٦٦٤ ، ينص على ان يعاقبوا بالاشغال الشاقة المؤبدة في جزر الهند الغربية •

ولما وجد البرلمان ان عداء شارل الثاني للبيوريتان ليس بدافع الحب للانكليكانية بقدر ما هو عطف على الكاثوليك ، اتفق الانكليكان مع البيوريتان ضد سياسة الملك • وفي سنة ١٦٧٢ ، اعلن جيمس اخو الملك كاثوليكيته بصراحة بالغة ، عندئذ اصدر شارل بيان التسامح وايقاف الاجراءات بحق الكاثوليك والمنشقين ، وقد اشيع في نفس الوقت ان شارل يقبض المال من لويس الرابع عشر •

---

(1) Lunt, op. cit; pp. 446-466.

لقد كان من حق الملك ايقاف القوانين بين حين وآخر ، لكن البرلمان اصبح الآن قويا الى درجة يستطيع فرض القوانين التي سنها ، وطلب من الملك الغاء البيان . وكان الخوف من انتشار الكثلكة والاضطهاد قد انتشر بين الناس ، وروجت الاشاعات بان الكاثوليك يتآمرون ضد سلامة الدولة مما ادى الى اضطهاد الكاثوليك وقتل عدد من الكاثوليك البارزين .

وفي سنة ١٦٧٩ ، قدم البرلمان لائحة لتنحية جيمس اخو شارل عن العرش . وخلال النقاش على تنحية جيمس وافق البرلمان على قانون هيبيس كوربس Habeus Corpus Act الذي بموجبه يمنع التوقيف او الحبس الا بعد اصدار بيان رسمي من المحاكم يبين السبب . وقد انقسم الارستقراطيون في البرلمان حول موضوع تنحية جيمس الذي صار كاثوليكيا . قسم ايد التنحية يؤيدهم في ذلك البيوريتان والمنشقين البروتستانت بصورة عامة فسموا هؤلاء بـ هويك Whig (اي ثائر ، لان البروتستانتيين قاموا بالثورة) . والقسم الآخر كان اكثر اعتدالا تجاه جيمس ، وارادوا المحافظة على الوضع الراهن في الكنيسة والدولة لمنع تكرار الحرب الاهلية . وكان هؤلاء متمسكين بالكنيسة الانكليزية وبينوا ان الملكية هي صمام الامن بالنسبة للصراع بين الارستقراطيين والتجار ، والافضل الخضوع لملك كاثوليكي من ان نعرض البلاد الى حرب اهلية اخرى . وقد فاز هؤلاء عندما رفض مجلس اللوردات لائحة التنحية سنة ١٦٨٠ . وسمي هذا القسم الذي ايد جيمس الكاثوليكي بـ التوري Tory (الكلمة التي كانت تطلق على الارلنديين الكاثوليك العصاة) .

وفي السنوات الاخيرة من حكم شارل الثاني كثرت معارضة الهويگز بزعامة اللورد شافتسبري ، وقيل انهم تآمروا على قتل شارل وتنصيب ابنه غير الشرعي مونماوث Monmouth على العرش • هذه الاشاعات وغيرها احدثت رد فعل لدى التوري فأيدوا شارل في حكمه دون استدعاء البرلمان من ١٦٨١ الى ١٦٨٥ ، وذهب زعماء الهويگز الى المنفى • ولما توفي شارل الثاني سنة ١٦٨٥ ، قام مونماوث بثورة ، لكن الثورة اخمدت بسرعة ، واصبح جيمس ملكا باسم جيمس الثاني[1] •

جيمس الثاني ١٦٨٥–١٦٨٨ :

لم يكن جيمس الثاني مداهنا كأخيه شارل ، لانه كان حاد الطبع واعلن اعتناقه الكاثوليكية ، وتمسكه بالحكم المطلق • وقد صرح بان له الحق في جعل افراد رعيته في حل من قوانين البرلمان ، وحاول ان يؤسس جيشا نظاميا ضباطه من الكاثوليك • وقد وقف الهويگز في المعارضة تجاه سياسة جيمس هذه ، ولم يكن التوريز راضين عنه • وفي سنة ١٦٨٧ ، اصدر قانون التسامح بموجبه يعفي الكاثوليك والمنشقين البروتستانت عن مخالفتهم لهذه القوانين • وعين الموظفين الكاثوليك في الوظائف العسكرية والمدنية • وعلى الرغم من المعارضة الشديدة اصدر جيمس الثاني قانون التسامح الثاني سنة ١٦٨٨ وامر بقراءة المرسوم في الكنائس الانگليكانية • ولما رفض سبع اسقف قراءة القانون اتهمهم بالمخالفة ، ولما لم يتهم المحلفون في المحاكم هؤلاء

(1) Ibid.

الاساقفة اطلق سراحهم • لقد استاء التوريز من هجماته على الكنيسة الانگليزية ، وتأسيس الجيش الدائمي ، واستنكر الهويگز انحيازه للكاثوليك وتقريبهم ، واهمال التشريعات البرلمانية •

لقد كان من السهل تحمل المساوىء الناجمة عن سياسة جيمس التعسفية طالما كان الامل عظيما بمجيء ماري وآن ابنتا جيمس البروتستنتيتان الى العرش بعد والدهما • لكن ولد لجيمس من زوجته الثانية الكاثوليكية ابن سنة ١٦٨٨ ، فتحطمت الآمال في تحسين الاحوال من بعده • عندئذ اتفق اتباع الكنيسة الانگليزية من الهويگ والتوري مع المنشقين البروتستانت فدعوا ماري وزوجها وليم اورنج حاكم هولندا ليتسنم العرش الانگليزي باسم وليم الثالث[1] •

الثورة الجليلة ١٦٨٩

وبدعوة زعماء التوري والهويگ عبر وليم وماري القنال الى انگلترا على رأس جيش هولندي لتبوأ العرش الانگليزي دون معارضة • ولما وجد جيمس ان جيشه ايضا تخلى عنه انهزم الى فرنسا • وبذلك تمت ثورة لم يرق فيها الدماء ، وقدم التاج الى العاهلان من قبل المؤتمر الوطني الانگليزي الذي اجتمع لهذا الغرض سنة ١٦٨٩ •

لقد كان وليم اورنج حاكم هولندة ابن اخت شارل الثاني وجيمس الثاني • واصبح الآن ملكا على انگلترا باسم وليم الثالث • واعلن البرلمان خلع جيمس الثاني لمخالفته الدستور الانگليزي وتقاليد البلاد وتركه العرش شاغرا •

(1) Ibid.

انهت الثورة الجليلة الحكم المطلق في انكلترا واكدت على سيادة البرلمان الفعلية في شؤون الدولة واصبحت الملكية مقيدة منذ ذلك الوقت .

قانون الحقوق ١٦٨٩ :

لقد وافق البرلمان على لائحة الحقوق التي فيها الضمان القطعي لسلطة البرلمان وضرورة اعتناق الملك المذهب الانكليكاني وعدم تمكنه من تعطيل القوانين وجباية الضرائب واعفاء الناس من العقوبات التي يفرضها القانون ، والاحتفاظ بالجيش دون موافقة البرلمان . وقد اكد البرلمان على صيانة اعضائه وحق الشعب الانكليزي في حمل السلاح وتقديم العرائض وحرية الكلام والتعبير عن الافكار والآراء دون اي تقييد . كما اكد على الانتخابات الحرة وعقد الاجتماعات البرلمانية بصورة مستمرة ومحاكمة ابناء الشعب من قبل محاكم عادلة وتطبيق نظام المحلفين واجتناب العقوبات القاسية وتحديدها[1] .

وللبرلمان حق فرض الضرائب ، وتجهيز الجيش لسنة واحدة فقط بالمال اللازم . وما لم يدع البرلمان في كل سنة لا يجوز دفع الرواتب للجنود ، وما لم يدع البرلمان لا يعاقب الجنود تحت الاحكام العرفية في حالة التمرد .

---

(1) Clark, G. M. The Later Stuart (Oxford. 1955). pp. 144-145; Also pp. 145- ff

اما من الناحية الدينية فظلت القيود على الكاثوليك بينما منح البروتستانت المنشقين حرية العبادة بموجب قانون التسامح[1] .

وخلال عهد وليم الثالث والملكة آن بعده سن البرلمان عدة قوانين ، منها قانون اجتماع البرلمان لسنة ١٦٩٤ ، ينص على ان لا يتجاوز حل البرلمان عن ثلاث سنوات ، وكذلك لا يستمر اجتماع البرلمان عن ثلاث سنوات ، وقانون التولية لسنة ١٧٠١ ، انه في حالة وفاة الملك وليم الثالث ينتقل العرش الى الملكة آن بنت جيمس الثاني . وعند وفاة ابن آن تقرر انتقال العرش الى منتخب هنوڤر . وقانون الوحدة لسنة ١٧٠٧ الذي بموجبه اتحدت اسكتلندة وانگلترا بدمج البرلمان السكتلندي بالبرلمان الانگليزي وتكوين مملكة جديدة باسم بريطانيا العظمى .

ظهور الاحزاب السياسية في انكلترا

بدأ ظهور حزبين سياسيين مختلفين في اواخر عهد شارل الثاني هما حزبي هويگز وتوري . وكان يدعم حزب الهويگ على وجه العموم نفس الجماعات التي كانت تساند البرلمان في الثورة الاهلية من البروتستانتيين اليوريتان والمنشقين والارستقراطيين الذين ساندوا البرلمان . اما التوري فكانوا من الارستقراطيين انصار الملكية والكنيسة الانگليزية والسياسة التقليدية . ولم يكن الفرق واضحا بين الحزبين سوى ان الهويگز برئاسة ايرل أوف شافتسبري كانوا اشد معارضة لسياسة شارل الثاني الموالية لفرنسا واستنكروا عليه ميله

(1) Ibid.

الى الكثلكة وارادوا منه تطبيق سياسة بروتستانتية للتفاهم مع هولندا ضد فرنسا التي تهدد مصالح انكلترا التجارية . كما اكدوا على تنحية جيمس الثاني عن العرش لانه اصبح كاثوليكيا . وكان التوري يؤيدونهم في كل ذلك سوى تنحية جيمس الثاني لان تأييدهم للملكية قد بلغ درجة يقبلون فيه ملكا كاثوليكيا يحتفظ بدينه لنفسه على ان لا يتعرض للكنيسة الانكليزية .

وقد ازدادت اهمية هذين الحزبين نتيجة لثورة ١٦٨٨ التي ايدت سلطة البرلمان للهيمنة على شؤون الدولة . واصبحت الارجحية سجالا بين الحزبين في عهد الملك وليم الثالث ١٦٨٨–١٧٠٢ ، والملكة آن ١٧٠٢–١٧١٤ . وقد تناوب الحزبان في الحكم في عهد وليم . ومع ان الاخير كان يميل الى التوري بطبيعته لكن وجد ان هؤلاء يشربون نخب صحة جيمس الثاني في المنفى ، فاعتمد على الهويكز ، وخاصة لما لاحظ ان اجهزة الدولة تسير سيرا منتظما بالنسبة اليه اذا كان الهويكز في الحكم . وقد توفي وليم الثالث في آذار ١٧٠٢ في الوقت الذي ألّب الدول الاوربية ضد لويس الرابع عشر واعلن الحرب عليه كما بحثنا ذلك في حينه .

وقد استمر تناوب الحزبين في الحكم في زمن الملكة آن التي اعتمدت على حزب الهويكز في اول الامر حتى سنة ١٧١٠ . لكن بعد هذا التأريخ جاء حزب التوري الى الحكم وتألفت الوزارة منهم الى سنة وفاة الملكة آن سنة ١٧١٤ . واستمر الحال هكذا بالنسبة للحزبين حتى اصبح نظام الحزبين من اهم مظاهر الحياة السياسية في انكلترا .

نشـــوء الوزارة (الكابنيت)

لقد اصبح النظـام الوزاري من اهم ما تمتاز به الحياة السياسية في انكلترا . لقـد اعتـاد ملوك آل ستيوارت ان يختـاروا نفرا من اصحاب النفـوذ السياسي من النبـلاء ويستعينوا بهم في ادارة شؤون الدولة الماليـة والعسكرية . وكان لكل فرد من هؤلاء المستشارين ان يترأس دائرة من دوائر الدولة . وكانوا احيـانا يجتمعون بالملك للنظر في الشؤون العامة . وقد اصبحت هذه الفئـة القليلة من رجال الدولة البارزين تسمى بالوزارة او الكابنيت نظرا لاجتمـاعهم بالملك في غرفة صغيرة التي تسمى بـ كابينيت .

لقد كان الوزراء قبل الثـورة الجليلة يتألف ممن يختارهم الملك غير ان الوضع قد تغير بعد ذلك تدريجيا حتى اصبح الملك مضطرا ان يختار اعضاء الوزارة من زعماء الحزب الذي له الاكثرية في البرلمان . ففي زمن الملك وليم الثالث كان الهويگ دائما في الحكم لان الاكثرية في البرلمان كانت منهم . وكذلك كان الوضع في زمن الملكة آن . ومع ان الملوك مالوا الى التوري لكن وجدوا من الحكمـة موافقة الاكثرية في البرلمان وعـدم مخالفتها . وكان الملك هو الذي يترأس اجتماعات الوزراء . لكن في عهـد عائلة هانوفر اجتنب جورج الاول اجتماعات مجلس الوزراء ، واناب وزيره الاول وترك له زمـام الامور لان الملك جورج لم يكن يعرف اللغـة الانكليزية . ومنـذ ذلك الوقت اصبح الوزير الاول يسـمى رئيس الوزراء . وهكـذا تكونت الصـفتان الاساسيتان اللتان تمتاز بهما الوزارة وهي (١) سـيطرة الوزارة على شؤون الدولة . (٢) اعتمادها في الحكم على الاكثرية في البرلمان .

الفصل التاسع

ظهور الامبراطورية الروسية

ذكرنا في الفصل الاول تحرير روسيا من سيطرة المغول في عهد ايفان الثالث الذي ضم منطقة نوفگورود الى امارته ، ونال شهرة بزواجه من الاميرة صوفيا ، احدى قريبات القسطنطين الحادي عشر آخر الاباطرة البيزنطيين • وقد ادعى ايفان انه خليفة القياصرة ، واستخدم خاتم زوجته المنقوش عليه صقر الامبراطورية الرومانية ذو الرأسين • وقد منح الامبراطور مكسمليان الاول امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة لقب الملك لـ ڤاسيلي الثالث ابن ايفان ، لكنه رفض ذلك لانه اراد لقب الامبراطور(١) •

ايفان الرابع الرهيب

وفي زمن ايفان الرابع ١٥٣٣–١٥٨٤ ، ابن ڤاسيلي توسعت امارة موسكو نتيجة استيلائها على قازان واستراخان وبذلك سيطر ايفان الرابع على حوض نهر الڤولگا • وقد تمكن من القضاء على طبقة النبلاء ، كبار ملاكي الاراضي ، المسماة « بويارس » ، ووزع املاكهم على اعوانه وبذلك خلق طبقة جديدة من الملاكين الخاضعين لايفان ، واجبر الفلاحين على الاستقرار في اراضيهم لخدمة هذه الطبقة وربطهم بالارض بقوانين صارمة • ولمعاملته القاسية مع بويارس سمي بـ « ايفان الرهيب » • وفي سنة ١٥٤٧ ، اتخذ لنفسه لقب القيصر باعتباره حفيد صوفيا الاميرة البيزنطية • لقد قام ايفان بأعمال عمرانية

(1) Koenigsburg, op. cit; pp. 196-203.

فاستخدم المهندسين الالمان والفنانين الايطاليين لبناء موسكو جديدة ، فبنوا الكرملن ، وكنائس ، وابنية كثيرة ، وقام بابرام معاهـدة تجارية مع انكلترا التي أسست شـركة موسكوفي لهذا الغرض سنة ١٥٥٨ . وقد استولى على القسم الغربي من سيبريا وبذلك فتح لاحفـاده طريق المحيط الهادي .

بوريس گودونوف :

مات ايفـان الرابع سنة ١٥٨٤ ، وكان قد قتل ابنه الاكبر واسمه ايفان ايضا سنة ١٥٨٢ . وكان ابنه الآخر ثيودور مختـلا فصار خاله بوريس گودونوف وصيا عليـه . ولما مات ثيودور (فيـدور) سنة ١٥٩٨ ، اضطربت احوال البـلاد بسبب استمرار بوريس على سياسة ايفـان الرابع في ترويج مصلحة التجـار وصغار الملاكين ضـد طبقة البويارس الذين امتعضوا من سياسة بوريس وارادوا استرجاع نفوذهم وامتيـازاتهم . وقد اضطر بوريس في مضايقـة الفلاحين ايضا ارضاء لصغار الملاكين مما اسخط الفـلاحين كثيرا[1] . وبعد موت ثيودور ، رفضت زوجته العرش ، وكان اخـوه ديمتري المصاب بشلل قد انتحر سنة ١٥٩١ . فاجتمع البرلمـان (زيمسكي سوبور) لانتخاب قيصر ، وانتخبوا بوريس گودونوف قيصرا . وكان هـذا طيب القلب حكيما يحب الخير لشعبه . وهو أول من أرسل شباب روسيا الى اوربا لدرس الحضارة الغربيـة ، لكن القدر كان ضـده فلم يرجع احـد منهم الى روسيا . كما ان المجاعة فتكت بالشعب الروسي ، فاتهمـه الناس بدس

---

(1) Vernadskv. B. A. History of Russia (New york, 1967) pp. 98-107.

السم لايفان الرابع وابنه القيصر ثيودور الذي كان بوريس وصيا عليه ، كما اتهم ايضا بقتل ديمتري الاخ الاصغر للقيصر ثيودرو • وقد فند المؤرخ الروسي « كرمزين » هذه الاتهامات عدا قتل ديمتري ، وأيده المؤرخون فيما بعد باستثناء عدد قليل ، لكن الدلائل كلها تشير الى ان ديمتري انتحر •

الحرب الاهلية

بدأت المجاعة تنتشر في روسيا منذ صيفة ١٦٠١ بسبب فشل المحاصيل الزراعية ، وعبثاً حاول بوريس ايجاد العمل للناس باشغالهم في البناء والتعمير • فكانت الوفيات هائلة وكثر قطاع الطرق وأعمال السلب والنهب • وقد استفاد البويارس من الوضع المتأزم وأرادوا استرجاع امتيازاتهم التي قضى عليها ايفان الرابع ، فاتهمهم بوريس بالخيانة والتآمر على سلامة الدولة • وأجبر احد زعمائهم ثيودور رومانوف ، أحد ابناء عم القيصر السابق ايفان الرهيب (الرابع) ، على الدخول في سلك الرهبنة ، كما اصبحت زوجته راهبة • ونفى بقية اعضاء عائلة رومانوف الى شمالي روسيا • عندئذ بدأ البويارس يحثون الشعب الروسي على القيام بالثورة ضد بوريس • وبمساعدة بولندة نشبت الثورة وأعد البويارس شابا ادعى انه ديمتري ابن ايفان الرابع ، وانه لم ينتحر كما أشيع سنة ١٥٩١ • وبدأ ديمتري هذا ثورته سنة ١٦٠٣ على رأس جيش من المتطوعين ، ولم يساعده الحظ على الانتصار الا بعد موت بوريس گودونوف في نيسان ١٦٠٥ • وقد استطاع ديمتري ان يدخل موسكو في مايس ١٦٠٦ بعد ان ساعده بعض فرسان القوزاق الساخطين على بوريس گودونوف •

لم يكن ديمتري هذا من النوع الذي يقع آلة بيد البويارس ، وقد اظهر شخصيته وأثبت انه لا يقل عن اسلافه قابليـة وذكاء . واراد ان يحكم بنفسه منذ ان ارتقى العرش . فتآمر البويارس عليه منذ اليوم الاول . وقـد أدت عجرفة ديمتري الى ثورة اهـالي موسكو ضـده بتحريض من البويارس الذين دخلوا القصـر فقتلوه ، ونادوا بزعيمهم الامير باسل شوسكي قيصرا[1] .

لم تستقر الاحوال لشوسكي وبويارس ، فثار الفلاحون والعبيد ضدهم ، واستمرت الاضطرابات حتى بعـد القضاء على الثورة . فقد انتخب مدعيـا آخر قيصـرا وتبعه عدد كبير من النـاس ودحر جيش شوسكي فطلب الاخير مساعدة السويد . ولما كانت السويد في حرب مع بولنـدة قبلت ان تسـاعد روسيا شريطة ان تبقى حليفـة السويد الدائميـة . وقد تمكن شوسكي من دحر اعـدائه بمساعدة السويد وانهزم المدعي بعرش روسيا . لكن ملك بولندة سگسموند وقف ضد هذه المحالفـة واعلن الحرب على روسيا ودحـر جيش شوسكي سنة ١٦١٠ . عندئذ خلع اهل موسكو شوسكي . وبعد المفاوضات مع ملك بولندة تقرر انتخاب ڤلادسلاف ابن سگسموند قيصـرا . لكن الملك البولندي أراد ان يكون هو القيصـر بدلا من ابنـه . ورفض الروس الرضوخ لدولة اجنبيـة وطلبت الكنيسـة الارثوذكسية من جميـع الروس تأسيس جيش لطـرد البولنديين من موسـكو . وقـد تمكن الجيش الروسي من طرد البولنديين بحلول عام ١٦١٣ .

(1) Ibid, pp. 113-121

ميخائيل رومانوف :

وفي كانون الثاني ١٦١٣ ، اجتمع مؤتمر وطني منتخب من جميع انحاء روسيا في موسكو لانتخاب قيصر جديد • وبعد مداولات دقيقة انتخب ميخائيل رومانوف ابن ثيودور رومانوف ، قيصرا لروسيا •

استطاع ميخائيل رومانوف ان يضمن الامن والسلام في روسيا ويحافظ حدود البلاد من الاعتداءات الاجنبية خلال مدة حكمه واخذ مدينة «فگورود» من السويد وجعل نهر دنيبر حدا بين روسيا وبولندة • لكن ظلت روسيا بعيدة عن بحر البلطيق وظلت انگريا وكاريليا تحت سيطرة السويد • مات ميخائيل سنة ١٦٤٥ ، واصبح ابنه اليكسيس قيصرا •

التوسع الروسي :

أخذ الشعب الروسي ينتشر في السهول الجنوبية والشرقية باتجاه سيبريا وعلى طول الانهر المتشعبة مشتغلا بالزراعة والرعي • وكان في مقدمة هؤلاء فرسان القوزاق الذين سكنوا في حوض نهر الدون وفولگا والدنيبر • وقد توسع القوزاق باتجاه سيبريا خلال القرن السادس عشر والسابع عشر وأسسوا مدينة توبولسك في سنة ١٥٨٧ ، وتومسك سنة ١٦٠٤ ، وياكوتسك على نهر لينا سنة ١٦٣٢ ، واركوتسك على بحيرة بيكال في سنة ١٦٥٢ • وقبل نهاية القرن السابع عشر احتلوا شبه جزيرة كامشاتكا ووصلوا الى المحيط الهادي • وفي بداية القرن الثامن عشر احتلوا آلاسكا • لقد كان في سيبريا (٧٠) الف روسي في سنة ١٦٦٢ ، ومليون بعد قرن من ذلك التأريخ ، اي سنة ١٧٨٣ • وقد تغلغل الروس في وادي آمور بين

١٦٤٠ و١٦٥٠ ، واصطدموا بالصين لاول مرة . وبحلول الثمانينات من القرن السابع عشر ١٦٨٠ صد الصينيون التقدم الروسي بهذا الاتجـاه .

وفي نفس الوقت حدثت حروب بين موسكو وبولندة حول اوكرانيا ، فقد انضمت اوكرانيا الى بولندة عام ١٥٦٩ ، عندما اتحدت ليتوانيا مع بولندة في تلك السنة . وقد امتلك نبلاء بولندة اراضي كثيرة في اوكرانيا وحولوا الفلاحين الاحرار الى اقنان . ولم يكن هؤلاء يريدون القنانة فاتفقوا مع امراء القرم (شبه جزيرة القرم في البحر الاسود) ضد بولندة . وفي الحرب التي نشبت سنة ١٦٤٨ انتصر الاوكرانيون بساعدة فرسان القوزاق على البولنديين . وبموجب المعاهدة التي ابرمت بين الجانبين احتفظ الملاكين البولنديين بأراضيهم في اوكرانيا دون الغاء نظام القنانة الامر الذي ادى الى احتجاج الفلاحين الاوكرانيين الذين اتهموا القوزاق بالخيانة . وهاجر آلاف الفلاحين الى اطراف موسكو وسكنوا في ضفاف نهر دونيتز .

وتجددت الحرب بين القوزاق والبولنديين وانتصر الاخير ، وطلب الاوكرانيون من القيصر اليكسيس ضم اوكرانيا الى دولته . وقبل القيصر ذلك بعد موافقة البرلمان الروسي سنة ١٦٥٣ ، وبموجب المعاهدة التي ابرمت بين القيصر والاوكرانيين حصلت الاخيرة على امتيازات واسعة وحكم ذاتي وجيش قوامه (٦٠٠٠٠) جندي على ان يبقى القيصر هو الحاكم الاعلى . وقد نشبت الحرب بين موسكو وبولندة وتحررت اوكرانيا من سلطة ملاكي بولندة . لكن في ١٦٥٧ حدث الانشقاق بين الاوكرانيين انفسهم فقسم من اصحاب الاراضي

الاوكرانيين فضلوا بولندة وانضموا اليها . وفي هذا الوقت هاجمت السويد بولندة ونشبت الحرب بين روسيا وبولندة انتهت سنة ١٦٦٧ بتقسيم اوكرانيا فاصبح القسم الغربي من نهر الدنيبر عائدا الى بولندة ، وشرقي النهر انضم الى موسكو بما فيه مدينة كييف .

الثورات الداخليـــة :

كانت الحقبة بين ١٦٥٠ ـ ١٧٠٠ حقبة اضطرابات سياسية واجتماعية . فقد امتعض الفلاحون من قوانين نظام القنانة التي سنتها حكومة موسكو سنة ١٦٤٩ . وقامت عدة ثورات بعد ذلك ، اهمها ثورة ستيفن رازين سنة ١٦٦٧ ، الذي قاد القوزاق ضد حكومة موسكو . وقد تمكن الثوار من احتلال مدن نهر القولگا واحدة بعد الاخرى من بينها استراخان وساراتوف وسامارا . وفي ايلول ١٦٧٠ ارسلت حكومة موسكو جيشا مدربا لمواجهة الثوار ، وفي القتال العنيف الذي نشب بين الجانبين في الشهر التالي تغلب جيش الحكومة الذي شتت قوات الثوار وفرض سلطة القيصر على المناطق الثائرة . وقبض على ستيفن رازين واعدم سنة ١٦٧١ .

لقد اصبحت سلطة القيصر دكتاتورية بعد هذه الثورة ، واجبر الناس في المناطق الثائرة على ان يحلفوا يمين الولاء للقيصر . واهمل الاخير البرلمان المسمى زيمسكي سوبور الذي كان يساعد القيصر في ادارة البلاد ، وتحرر القيصر من كل القيود .

انشقاق العائلة المالكة :

مات القيصر اليكسيس سنة ١٦٧٦ ، وخلفه ابنه الاكبر ثيودور من زوجته الاولى ، وتوفي هذا سنة ١٦٨٢ دون ان يترك وريثا ، فخلفه في الحكم اخوه الاصغر ايڤان الذي كان مريضا ولا يستطيع الحكم . ولقد فضل كبار المسؤولين ورؤساء الكنيسة أخوه الاصغر بطرس من زوجة اليكسيس الثانية . واجتمع كبار القوم من النبلاء في الساحة الحمراء في موسكو ونادوا ب بطرس قيصرا لروسيا وكان عمره (١٠) سنوات . لكن صوفيا اخت ايڤان رفضت تعيين بطرس وحرضت الحرس الملكي على التمرد . وكانت النتيجة ان تقرر تعيين كل من ايڤان وبطرس قيصرا جنبا الى جنب وتكون صوفيا وصية عليهما لان ايڤان كان في (١٥) من عمره .

القيصرة صوفيا :

أدركت صوفيا ان حكومتها تحت رحمة الحرس الملكي ، فأخذت القيصرين ايڤان وبطرس الى احدى ضواحي موسكو . وهناك سمعت بان حراس القصر يدبرون مؤامرة للاطاحة بها ، فدعت صوفيا المليشيا من الملاكين الصغار وعدد من فصائل الجيش مما أرهب الحرس الملكي ، ورجع النظام الى نصابه في ايلول ١٦٨٢ .

حكمت صوفيا سبع سنوات ، وكانت سياستها التفاهم مع بولندة والغاء القنانة ، وادخال الحضارة الغربية في البلاد . وقد استقرت الاحوال الداخلية في روسيا ، واشتركت مع بولندة في صد الحملة التركية على اوربا . وارسلت حملتين للاستيلاء على شبه جزيرة قرم

سنة ١٦٨٧ و١٦٨٩ ، لكنها فشلت . كما ان الصين صدت تقدم الروس في وادي نهر آمور في الشرق الاقصى . وبموجب معاهدة نيرچينكس بين الجانبين تخلى الروس عن وادي نهر آمور .

أضر فشل القيصرة صوفيا في السياسة الخارجية بسمعتها . وأدركت ان بطرس قدير ونشط ويقوم بانقلاب ضدها عندما يبلغ سن الرشد ، فأبعدته الى قرية قريبة من موسكو . وهناك تعلم من الخبراء الهولنديين صناعة السفن واهميتها . كما درس الرياضيات ، وأسس من بين زملائه كتيبتين عسكريتين . ولما سمع ان عملاء صوفيا يحاولون قتله ، تمكن هو ان يقوم بانقلاب فاستولى على القصر وقبض على صوفيا وارسلها الى دير وأبعد مستشاريها واعلن نفسه قيصرا سنة ١٦٨٩ وعمره (١٧) سنة[1] .

بطرس الكبير ١٦٨٩–١٧٢٥

صفاته :

كان بطرس الكبير فظا ، حاد المزاج ، رث الثياب ، غير مهتم بهندامه ويكثر من شرب الخمر . لكنه كان قوي الارادة ذكيا ونشطا . وقد أظهر ولعا ببناء السفن منذ صباه مما حدا به ان يسافر الى اوربا الغربية سرا ليطلع على ما كانت عليه تلك الاقطار من تقدم . فزار انكلترا وفرنسا وهولندة . وكانت لهذه الزيارة اهمية كبرى في تطوير

(1) Ibid; pp. 121-138.

روسيا ، اذ اقتنع بطرس بضرورة ادخال الحضارة الغربيـــة في روسيا ، وجعلها في مصاف الدول الغربية .

ظلت روسيا بلدا شرقيـــا لان تقاليدها الاجتماعية وعاداتها كانت مقتبسة من المغول الذين حكموا البـــلاد عدة قرون . كما ان المذهب الاورثوذكسي الذي يعتنقه الروس كان شرقيا . ولهـــذا كانت روسيا اقرب الى آسيا منها الى اوروبا . ومن ناحية اخرى كانت روسيا مغلقة لان الدولة العثمانيـــة كانت مستولية على شمال البحر الاســود وبلاد البلقـــان ، واستولت السويد وبولندة على الســواحل الشرقيـــة لبحر البلطيق الامر الذي عرقل تجارتهـــا . ولما كان النبـــلاء ورجال الدين متنفذين جعلوا سلطة القيصـــر مقيدة . فكان على بطرس الكبـــير ان يتخلص من كل هذه القيود ليجعل روسيا دولة غربية حديثة .

اصلاحات بطرس :

لم يدع بطرس فرصة تمر الا واغتنمها في سبيل تقـــوية حكمه . ولقد قال ان القيصـــر هو السيد المطلق وانه غير مسؤول امام احد في العالم . وجعل من الواقع ما يؤيد قوله . وقد زار اوروبا سنة ١٦٩٧ ، كما بينا فدرس بناء السفن والتشريح والزخرفة في هولندة ، وفي انكلترا درس الصناعـــة والتجـــارة ، وفي پروســـيا لاحظ التنظيم العسكري البروسي . وفي كل مكان جمع الفنانين والصناع والمهندسين وارسلهم الى روسيا لتعليم الروس . وبينما كان في طريقه من ڤيانا الى البندقية (ڤنسيا) سمع بان حرسه الخـــاص تمردوا في موسكو . فقفل راجعا وانتقم من المتمردين ، فأعدم حوالي سبعة آلاف منهم ، وألغى تنظيمه

العسكري وقرر ان يقوم بتغيير شامل في البلاد . ومن بين اصلاحاته :

(١) تنظيم الجيش :

كان بطرس عسكريا واعتزم على خلق جيش قوي من الجماهير الروسية يترأسه ويديره الضباط الاجانب يعتمدون على القيصر في كل شيء ، ويحل هذا الجيش محل الجيش القديم المؤلف من رجال الاقطاع الذين لم يخضعوا للقيصر تمام الخضوع . وكان الجيش الجديد قد تأسس على الطراز السويدي والالماني وجعل الترقية في الجيش على أساس الكفاءة .

(٢) الادارة :

لقد ألغى بطرس مجلس الدوما (البرلمان) الذي كان يتمتع ببعض السلطة التشريعية منذ العصور الوسطى ، وعين محله مجلسا استشاريا للدولة يعين هو اعضائه . وقضى على الادارات المحلية وقسم البلاد الى مقاطعات تدار من قبل عملاء القيصر . ولكثرة المعارضة اعتمد على الاجانب لتنفيذ اصلاحاته . وأسس شرطة سرية للتحري عما قد يكون هناك من مؤامرات ضده . وكان قد تأثر بلويس الرابع عشر فوجد ان الحكم المطلق هو الذي يصلح لروسيا ، فأصبح السيد المطلق لبلده .

(٣) النبلاء والفلاحون :

استطاع بطرس ان يحدث حركة ثورية في المجتمع الروسي بخلق عدد كبير من النبلاء الجدد اضافهم الى الطبقة القديمة . وكان النبلاء الجدد قد خدموا خدمة فعالة في الجيش فوزع بطرس عليهم الاراضي ،

واصبحوا من اخلص رجال الجيش للقيصر . وبذلك خلق بطرس طبقة من النبلاء اصحاب الاراضي يملكـون معظم الاراضي الزراعيـة في روسيا . ففي سنة ١٧٠٠ كانت هناك ٢٫٩٨٥ عائلة نبيلة في روسيا قبل الاصلاح . بينما كانت هناك مئة الف عائلة نبيلة في روسيا سنة ١٧٣٧ (بعـد الاصلاح) عـدد النبلاء فيهـا (٥٠٠٫٠٠٠) نبيـل (٢٠٠٫٠٠٠) منهم كانوا موظفين .

كان الفـلاحون الذين يشتغلون في الاراضي التي تملكها الدولة احرارا لكنهم كانوا يدفعون الضرائب ويؤدون اعمال السخرة . بينما كان الفلاحون الذين يشتغلون في اراضي النبلاء قد انحدروا الى طبقة العبيد وإن كان في نظر القانون لا يزالون احـرارا يستطيعون الالتجاء الى المحـاكم . وما عمـلـه بطرس هو سن قوانين صارمـة بخصوص الفلاحين وربطهم بالارض وجعلهم اقنانا اشبه بالعبيـد . وكان بطرس مسؤولا عن وضع الفلاحين السيء بصورة عامة .

(٤) الكنيسـة :

كانت الكنيسة الاورثوذكسية خاضـعة لبطريق موسكو ، وكان للكنيسة تأثير كبير على الشعب الروسي مما جعـل القيصر يرغب في السيطرة على هـذه القوة المؤثرة في البـلاد . وكان بطريق موسكو ينتخب من قبل رجال الدين . فأقدم بطرس على الغائها وأسس مجلس ديني اعلى يتألف من عدد من الاساقفة يختارهم القيصر ويرأسه شخص من غير رجال الدين يعينه القيصر نفسه . وهكـذا سيطر بطرس على الكنيسة وجعلها ركنا من اركان حكمه المطلق .

(٥) التقليد في المظهر الاجتماعي :

لاحظ بطرس شيوع اللحى الطويلة في روسيا والشوارب الضخمة ، فأمر بقطع الشوارب واللحى المسرحة ، وفرض غرامة على من لم يمتثل لاوامره . كما أمر بترك الالبسة الفضفاضة ولبس الملابس الغربية . واجبر النبلاء على تعاطي التدخين ، ومنع ما كانت عليه النساء من عزلة فأمر باقامة الحفلات والولائم تشترك فيها النساء .

(٦) التربية والتعليم :

انشأ بطرس عددا من المدارس للاغراض العملية لتخريج المهندسين والضباط والبحارة . وكانت هذه الناحية على كونها محدودة بداية تسرب الثقافة الاوروبية في روسيا ، وكان التدريس منحصرا على القراءة والكتابة والحساب والهندسة وبناء السفن .

ان ما قام به بطرس من استخدام الفنانين الاوروبيين وصناع اوروبا لصنع ما يحتاجه جيشه وبحريته كان حافزا قويا لنشوء الصناعة في روسيا . وقد وجه اهتمامه الى الاحوال الاقتصادية في البلاد وأكد على تشجيع الزراعة . وكان يعلم ان روسيا تنقصها الطبقة الوسطى الغنية ، وحاول تكوين هذه الطبقة بتشجيع التجارة والصناعة . وكان يرغب في تأسيس صناعات تملكها الدولة ، وتكوين النقابات . لكن الحروب الكثيرة حالت دون تنفيذ مشاريعه الاقتصادية .

سياسة بطرس الخارجية

كانت سياسة بطرس الكبير الخارجية مبنيـة على التوسع شرقا باتجاه سيبريا واواسط آسيا ، وجنوبا باتجاه ايران والدولة العثمانية والبحر الاسـود ، وغربا باتجاه بحـر البلطيق ، واستكمال العلاقات التجارية والثقافيـة مع اوربـا • وكان يرى ان بحـر البلطيق والبحر الاسود هما الطريقان المؤديان الى الغرب والى المياه الدافئة • ولما كان بحر البلطيق بحيرة سويدية ، والبحر الاسود بحـيرة عثمانية ، فكان على بطرس ان يعلن الحرب على الدولتين • وبينما لم يستطع ان يعمل شيئا ضد الدولة العثمانية لانهـا كانت لا تزال قوية ، نجح في صراعه مع السويد • ولما كانت السويد دولة عظمى مسيطرة على بحر البلطيق وشمال المانيا منـذ حرب الثلاثين سنة نذكر نبذة عن السـويد قبل صراعها مع بطرس •

السويد في القرن السابع عشر :

لقد تمكن گوستاف ادولف ملك السويد ان يجعل بحر البلطيق بحيرة سويدية باشتراكه في حرب الثلاثين سنة • وكانت السويد تحكم فنلندة ومقاطعات كاريليا وانگريا وايستونيا وليڤونيـا • وقد حصلت بموجب معاهدة ويستفاليا مقاطعة پوميرانيا الغربية ومصب نهر الايلب، واودر ، والويزر ، ولذا كانت السـويد تتدخـل كثيرا في الشـؤون الالمانية • وقد ازدهرت تجارة السويد مع اطراف بحر البلطيق وكانت روسيا وبولندة تصدران بضائعهما عن طريق مينـاء ريگا السويدية ، والموانىء الاخرى في شمال المانيا وتشحن في السفن السويدية •

لقد حاولت الدانيمرك ، وبراندنبرك ، وبولندة القضاء على الاحتكار السويدي للتجارة في تلك المنطقة دون جدوى • وكانت السويد منتصرة دائما وصادقت على معاهدة ١٦٦٠ لتملك المقاطعات التي استولت عليها • لقد كانت السويد في ذلك الوقت تشغل مساحة واسعة تعادل بلاد اسكندناقيا والمانيا • وكانت ستوكهولم عاصمة امبراطورية سويدية عظيمة ، وتزعمت السويد العالم البروتستانتي في اوربا • على ان عظمة السويد كانت وقتية فلم تستطع ان تحكم الاقوام المختلفة التي انتهزت الفرص للتخلص من قبضتها وخاصة الالمان والروس والبولنديين • ولاجل اخضاع هذه الاقطار كان عليها ان تجند اغلب السويديين ، وتصرف مبالغ طائلة على الجيش في الوقت الذي كانت الاراضي التي تحت حكمها قليل السكان • وكان الفلاحون في فقر مدقع ، ووقع على كاهل الشعب السويدي ضرائب فادحة • وكانت مساعدة فرنسا هي التي جعلت سيطرة السويد تدوم على هذه الاقطار • وبظهور روسيا وبروسيا كدول قوية ، وتداعي لويس الرابع عشر في اواخر القرن السابع عشر ، اصبحت قبضة السويد على ممتلكاتها ضعيفة •

ومما ساعد على تدهور الامبراطورية السويدية هو ان ملوكها كانوا على العموم محاربين ، ولم يهتموا بشؤون السويد الداخلية وتقوية مصالحها والعمل على توفير السلام والاستقرار اللذين كان الشعب السويدي بأمس الحاجة اليهما • فبالاضافة الى ضحايا الحرب بالآلاف ، كانت المبالغ الجسيمة التي تكلفها النفقات الحربية والضرائب الفادحة التي اثقلت كاهل الشعب أشاعت الفوضى في الادارة ،

وانزلقت السلطة الملكية تدريجيا من قبضة الملوك في الوقت الذي كانوا بأمس الحاجة اليها لمواجهة الخطر الخارجي • وقد استفاد من ذلك النبلاء فاسترجعوا امتيازاتهم السياسية والاقتصادية ، وادى جشعهم الى تدمير البلاد •

شارل الثاني عشر ملك السويد وحرب الشمال :

ارتقى شارل الثاني عشر عرش السويد سنة ١٦٩٧ ، وعمره (١٥) سنة • وكانت الدول المجاورة المتحالفة ترى الفرصة سانحة لاسترجاع اراضيها من السويد • وعليه اتفقت روسيا وبولندة والدانيمرك وساكسونيا في اعلان الحرب على السويد • وكان ملك ساكسونيا اغسطس الثاني الذي كان ملكا على بولندة ايضا قد قرر ان تسترجع بولندة ليفونيا وتضم ايستونيا اليها • كما تستولي روسيا على انگريا وكريليا وميناء على البحر البلطيق ، وتستولي براندنبرگ على مقاطعة هلشتاين ومصب نهر الايلب والويزر • ويبقى شارل الثاني عشر ملكا على السويد وفنلندة • ولما كانت الحرب الوراثة الاسبانية على وشك الاندلاع سنة ١٧٠٠ ، لم تكن دول اوروبا الغربية تستطيع منع انهيار الامبراطورية السويدية • لكن شارل الثاني عشر كان يمتاز بعبقرية نادرة في الحرب ، وفاجأ اعدائه من الحلفاء ، وبسرعة فائقة دحر الدانيمرك ، واجبر ملكها على عقد صلح منفرد • وبعد ذلك بقليل هزم الجيش الروسي بقيادة بطرس الكبير في معركة نارفا ، واباد جيشه • ثم توجه جنوبا وطرد البولنديين والسكسون والروس من ليفونيا وليتوانيا على الساحل الشرقي من بحر البلطيق • ثم توجه الى قلب بولندة فاستولى على وارشو ، وكراكاو • وهناك اجبر البرلمان

البولندي على خلع ملكهم اغسطس وانتخاب ملك جديد من انفسهم سنة ١٧٠٤ • لقد عمل شارل كل هذه الاعمال وحده وهو بين الثامنة عشر والثاني والعشرين من عمره • وعليه كان من الطبيعي ان يصبح مغرورا ويفتخر بقابلياته ، وجعلته الحرب قاسيا متصلبا يقتل الناس ويدمر الحرث والنسل لاعتقاده انه من الافضل قتل الابرياء كي لا يفر المجرم •

وقد استفاد بطرس من انشغال شارل ببولندة وساكسونيا لاعادة تنظيم جيشه على غرار الجيش السويدي ، وتجنب الاصطدام مع شارل • وتقدم نحو ساحل البحر وبنى مدينة پتروگراد سنة ١٧٠٣ •

كان بطرس يريد التفاهم مع شارل ويكتفي ببعض الاراضي في الساحل الشرقي من بحر البلطيق وميناء على البحر • لكن شارل لم يرغب في المصالحة • وتوجه بجيشه نحو موسكو وتوغل في اعماق روسيا سنة ١٧٠٧ • وقد تراجع الروس كعادتهم وأثر شتاء روسيا على جيش شارل ولم يستطع الحصول على الذخائر والمواد الغذائية • وفيما كان شارل يتوجه نحو فرسان القوزاق في الجنوب اصطدم بجيش بطرس الكبير فجأة والذي كان ضعف جيش شارل • وفي معركة بالتاڤا سنة ١٧٠٩ قضى الجيش الروسي نهائيا على الجيش السويدي •

ومن بالتاڤا انهزم شارل الى استانبول مع بقايا جيشه ، وتمكن هناك من اقناع السلطان بشن حرب ضد الروس ، فاسترجعت الدولة العثمانية بعض الاراضي التي كان بطرس قد استولى عليها كميناء آزوف في شبه جزيرة القرم • بقي شارل في الدولة العثمانية خمس سنوات يحرض السلطان على الحرب ضد الروس • وقد ملّ السلطان من

الحاجه ، فترك شارل استانبول فجأة عائدا الى بلاده التي وجدها في حالة سيئة . فقد اتحدت هذه المرة بعض الدول ضد السويد كانكلترا وهانوفر وبروسيا مع الحلفاء السابقين بغية الحصول على اراضي سويدية . واثناء الحرب مع النرويج قتل شارل سنة ١٧١٨[1] .

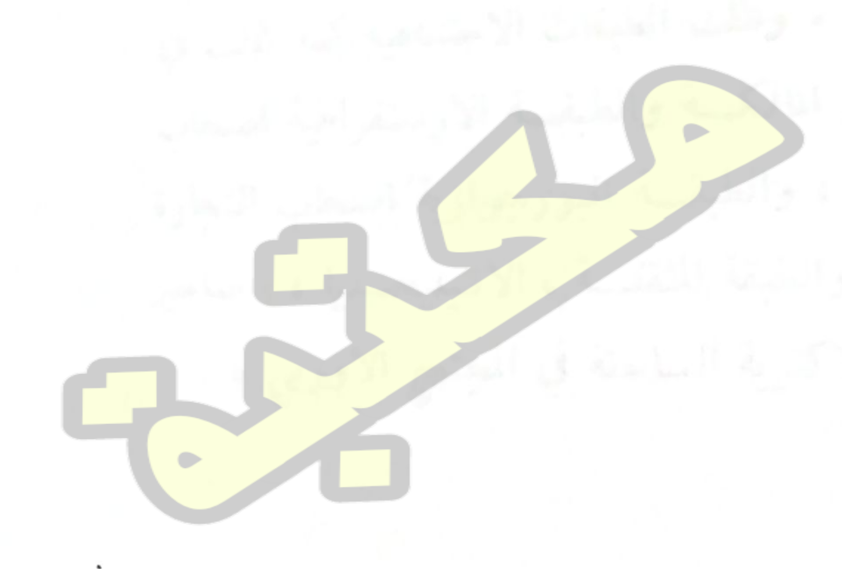
معاهدة ستوكهولم ونيستاد

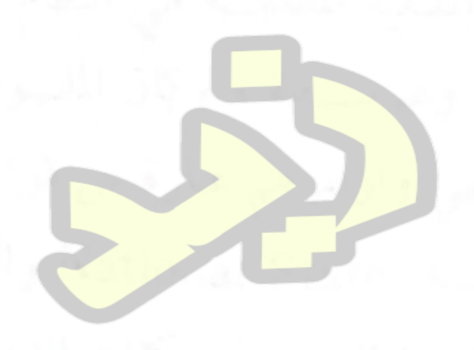
وبعد موت شارل اصبح الصلح ممكنا بين السويد واعدائها . وبموجب معاهدة ستوكهولم سنة ١٧١٩ ، تنازلت السويد عن كل اراضيها الالمانية باستثناء جزء من پوميرانيا الغربية بما فيها مدينة سترالزند . وحصلت الدانيمرك على هلشتاين وتعويض نقدي ، كما حصلت هانوفر على مصب نهر الايلب والويزر . وحصلت بروسيا على مصب نهر اودر وپوميرانيا الغربية ومدينة ستاتن . ورجع اغسطس الثاني الى العرش البولندي .

وبموجب معاهدة نيستاد مع روسيا سنة ١٧٢١ ، ضم بطرس الكبير كريليا وآنگريا على ساحل بحر البلطيق وكذلك ضم استونيا وليڤونيا وجزء ضيق من جنوبي فنلندة بما فيها حصن ڤايبرگ المنيع ، وبذلك حقق بطرس ما كان يحلم به وهو الوصول الى بحر البلطيق ، وحلت روسيا محل السويد في زعامة اوربا الشمالية . ومع ان بطرس

(1) Ibid; pp. 138-158.

لم يحقق ما كان يطمح اليه على البحـــر الاسود ، لكن ترك امبراطورية واسعة وجيش قوي لعب دورا مهما في السيـاســة الاوروبية بعد موته سنة ١٧٢٥ واصبحت روسيا دولة عظمى كما اصبح بطرس بطلا قوميا .





١ ـ المجتمع الاوربي في القرن الثامن عشر[1]

على الرغم من التقدم العلمي والتطور الفلسفي فان المجتمع الاوربي لم يتغير كثيرا في القرن الثامن عشر عما كان عليه في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وظلت الطبقات الاجتماعية كما كانت في السابق عبارة عن العوائل المالكة والطبقة الارستقراطية اصحاب الاراضي ، ورجال الدين ، والطبقة البورجوازية اصحاب التجارة والصناعة والحرف المختلفة والطبقة المثقفة ، الانتيليجنسيا ، وجماهير الفلاحين الذين يكوّنون الاكثرية الساحقة في المجتمع الاوربي .

الملكية المطلقة :

لقد ظلت الملكية المطلقة هي النظام السائد في الدول الاوربية باستثناء انكلترا وهولندة . وكان الملوك يستندون في حكمهم على نظرية الحق الالهي واوامرهم عبارة عن قوانين . وعلى الرغم من وجود الدول القوميـة National State والوطنية وحق تقرير المصير للشعوب منذ الثورة الفرنسية . كانت الدولة الواحدة تتضمن شعوبا مختلفة لغة وعنصرا يجمعهم فقط الولاء للملك الذي يعتبر مملكته ارثا عائليا له ولهذا لم تكن هناك الدولة القومية ، والوطنية القومية ، بالمعنى الحديث .

(1) Anderson, M. S. Europe in the 18th century (London. 1961) , pp. 24-58

النبـــلاء :

كان النبلاء هم اصحاب الاراضي ويؤلفون الطبقة الارستقراطية العليا في المجتمع وحول الملك . وكانت هـذه الطبقة تتمتع بامتيازات واسـعة باحتكارهم الوظـائف العليـا لانفسـهم في السلك المـدني والعسكري . وكانت ابواب المجتمعات والنوادي الراقية مفتوحة لابناء هذه الطبقة ، كما ان القاب الشرف والاحتكارات التجارية كانت خاصة بهم . وكان كل نبيـل يملك قصرا ، ومساحات واسـعة من الاراضي الزراعية وامتيازات اقطاعية ، ويوصي بانتقال ممتلكاته الى ابنه الاكبر من بعده ، وبالاضافة الى الهبات والمنح التي بين حين وآخر يستلمونها من الملك ، كانوا معفوين من الضـرائب واداء الواجبات التي فرضت على الشعب .

رجـال الدين :

كان رجـال الدين يتمتعـون بنفس الامتيازات التي يتمتـع بها النبلاء . وكان رجال الدين الكبار يملكون اسقفيات وابريشيات كثيرة بما في ذلك آلاف الدونمـات (الايكرات) من الاراضي التي تعتبر من ممتلكات الكنيسة . وقيل ان اسقف ستراسبرگ (في مقاطعة الالزاس) كان مورده من املاك الكنيسة سنويا (٥٠٠) الف فرنك بالاضافة الى القصور والذهب والثروات الاخرى العـائدة للكنيسـة . غير ان الفرق بينهم وبين النبـلاء ، هو ان رجال الدين ينتخبون انتخـابا ولا يرثون الاملاك والامتيازات لان ذلك كانت خاصة بالنبـلاء . وكان النبـلاء ورجال الدين كل يملك خمس الاراضي الفرنسية ، بينما الكنيسـة كانت تملك ثلث اراضي اوربا وربع المورد وثلث رأس المال . وقد بلغ النبلاء

في فرنســـا (١٥٠) الف نبيــل ورجــال الدين (١٣٠) الف ، من خمس وعشرين مليون نسمة ، تعوس فرنسا قبل ثورة ١٧٨٩ .

ولم يقدم النبلاء ورجال الدين شيئا من الخدمات الى الدولة او يتحمل قسطا من الاتعــاب . ومع ان الكنيسة كانت تقدم احيانا مبالغ سنوية تقدر بمئات الالوف من الدولارات الى الملك ، لكن المبلــغ لم يتجاوز واحد بالمئة من مورد الكنيسة . ولم تكن ضرائب الدولة تشمل الكنيسة ورجــال الدين . كما ان النبــلاء كانوا معفوين من الضرائب المباشرة وتجنبوا في اغلب الاحيــان الضرائب غير المباشــرة باستثناء انكلترا .

الفــلاحــون :

كان الفــلاحون هم الاكثرية الساحقــة من الجماهير الاوربيــة ويشتغلون بالزراعة ، ولم يكن هناك اختلاف في نوعيــة العيش وطرق الزراعة واساليبها ونوعيــة العمل والمستوى المعــاشي والاجتماعي بين فلاح قطر وآخر ، باستثناء بريطانيا ، ولربما كانت حالة الفلاح الفرنسي احسن بكثــير من بقية دول القــارة الاوربية . اما في اوربا الشرقيــة وخاصة روسيا ، فلم يكن هناك فرق بين الفلاحين والعبيــد . وكانت اساليب الزراعة في القرن الثامن عشر هي نفسها في القرون السابقة ولو أن تحسنا طرأ على الزراعة واساليبها في بريطانيا ، كما نلاحظ ذلك في البحث عن الثورة الزراعية في انكلترا ، وبعض اجزاء القــارة الاوربية كبروسيا وهولندة التي استوردت الاساليب الحديثة في الزراعة وتربية الحيوانات من انكلترا .

وكان الفلاحون يدفعون ضرائب للدولة ويقومون بجميع الاعمال ويحملون كل التبعات والاتعاب في الدولة ، بالاضافة الى ماكانوا يدفعونه من الضرائب ويقومون به من الاعمال للنبلاء اصحاب الاراضي وللكنيسة. فالفلاح يدفع ضريبة الدخل وضريبة الرأس وضريبة الاراضي وضرائب اخرى لا تحصى . وهكذا نجد انه كان يتحمل كل هذه المشقات ويقع عليه كل العبء وهو راض لانه يعتقد ان الله قدّر له أن يعيش عيشا كهذا ، مجردا من كل الامتيازات .

الاحوال الاجتماعية في المدن :

لم يشارك النبلاء ورجال الدين الصغار رغد العيش الذي كان يتمتع به ابناء طبقتهم الكبار . وقد اصبحت الطبقة البورجوازية النامية لها منزلتها ووزنها في المجتمع بسبب ثروتها ورؤوس اموالها التجارية والصناعية والثقافة العالية التي امتاز بها ابنائها .... والبورجوازية معناها سكان المدن ، وازداد عددهم في أوربا الغربية والوسطى بصورة خاصة بحلول القرن الثامن عشر . وقد بلغ سكان لندن في منتصف القرن نصف مليون نسمة ، وباريس ربع مليون وكذلك ڤيانا . أما برلين فكانت حوالي (١٢٠) الف نسمة . وقد هبطت نسبة الوفيات بين الاطفال الصغار . وكانت نسبة الوفيات اكثر من المواليد في بداية القرن في المدن لكن حافظت الاخيرة على توازن سكانها بهجرة سكان الارياف الى المدن ، وقد قدر نيكر (وزير مالية لويس السادس عشر ، بعد استقالة تركو) ١٧٧٦–١٧٨١ ، ان ربع سكان فرنسا يموتون قبل بلوغ الثالثة من اعمارهم ، ويموت ربع السكان قبل بلوغ الخامسة

والعشرين ، وربع السكان الآخر يموت قبل بلوغ الخمسين . والذي يتجاوز الخمسين وخاصة بين الطبقة العاملة يكون منهارا جسما وعقلا.

لقد قدم مجلس العموم البريطاني لائحة سنة ١٧٧٢ ، بخصوص منح التقاعد للعجزة والمسنين ، لكن مجلس اللوردات رفض اللائحة بدعوى ان هذه اللائحة غير ضرورية ما دام الناس يموتون قبل بلوغ سن الشيخوخة . وكانت الامراض التي تفتك بالناس وبصورة خاصة الفقراء هي الجدري ، والادمان ، والملاريا ، والتيفوس ، والسل ، والتنفوئيد ، وسوء التغذية بصورة عامة . وكانت الاوبئة تنتشر بسرعة فائقة لعدم وجود الوقاية الصحية ، واهمها الطاعون ، والكوليرا . وقد اختفى الجذام في اوربا في القرن الثامن عشر وقل خطر السفلس . وكان للتقدم العلمي وخاصة الطب والصحة تأثير كبير في ذلك .

وقد أثر التقدم الصحي والرفاه الاقتصادي على ازدياد نفوس الطبقة الفقيرة وساعد ذلك على تزويد المصانع والمعامل بالعمال بكثرة . وقال احد المؤرخين انه « لولا وفرة ورخص العمال لما نجحت الثورة الصناعية » . وكانت المتنزهات كثيرة في المدن وبدأت الحكومات تقوم بانارة الشوارع بفوانيس كيروسين .

الصناعة والتجارة :

وصاحب نمو المدن ازدياد التجارة والصناعة . وتجاوز الانتاج الصناعي الحد المألوف للاستهلاك المحلي كما كانت الحالة في القرون السابقة الى الانتاج على نطاق واسع واصدارها الى بقية انحاء العالم .

وقد بدأت الثورة الصناعية في انكلترا في القرن الثامن عشر باختراع بعض الآلات والمكائن واستخدام القوة المائية والبخارية لتحريكها وخاصة في صناعة النسيج والاقمشة ، وبدأ الانتاج الرأسمالي على نطاق واسع ، ونمت الرأسمالية الصناعية نموا عظيما ، كما نمت التجارة واصبحت هناك سوقا عالمية للمنتجات الاوربية والرأسمال الكافي لاستغلالها . ونشطت التجارة بين آسيا واوربا وامريكا ، واخذت المنتجات الاوربية والآسيوية والامريكية تملأ الاسواق العالمية . وكانت التجارة الخارجية البريطانية في مطلع القرن الثامن عشر تقدر بحوالي (٦٠) مليون دولار ، والتجارة الخارجية الفرنسية بحوالي ٤٠ مليون دولار . وسهلت الحكومات التجارة الداخلية ببناء طرق ممتازة وجسور وقنوات للمحافظة على الارض باستخدام الطرق النهرية وتسهيل نقل البضائع وتوفيرها بكثرة للمواطنين .

نمو البورجوازية :

لقد كانت الدول الاوربية الكبرى في القرن الثامن عشر تملك امبراطوريات واسعة ، وأثرت نتيجة للتجارة الواسعة التي تقوم بها مع الاقطار الخارجية والمستعمرات . وكانت تجارتها وصناعتها تجذب الفلاحين الى المدن بالآلاف وعشرات الالوف . أما الطبقة البورجوازية التي تشمل اصحاب المال والاعمال من التجار واصحاب الصناعات والبنوك والطبقة المثقفة ، من الاطباء والمحامين وغيرهم ، فأصبحت لها اهميتها الكبرى في المجتمع الاوربي ، ولها تأثيرها على المال والصناعة والتجارة ، وطغت على الطبقات الاخرى بالمال والمعرفة . وكانت الطبقة

البورجوازية طبقة طموحة زودت الدولة بالموظفين في مختلف المجالات وايدت الملوك المطلقين في بداية العصور الحديثة ، وحصلت على بعض المكاسب السياسية في انكلترا بتمثيلها في مجلس العموم ، لكنها كانت تريد المساواة مع النبلاء الارستقراطيين والمشاركة في الحكم في القرن السابع عشر . ولما كانت تملك الثروة ارتأت ان يكون لها القول الفصل في فرض الضرائب وجبايتها . ولكونها تملك المعرفة وجدت في نفسها الكفاءة اكثر من غيرها في القيام بادارة مهام الدولة والحكومة بالطرق الحديثة . وكانوا يشجعون الطبقة المثقفة ، ويقرأون آخر كتاب في العلوم والمعرفة خرج من المطبعة ، ولهذا ايدوا المطالبة بالسيادة الشعبية والتمثيل النيابي والحكومة الدستورية المقيدة واطلاق الحريات الاساسية .

المطالبة بالاصلاح :

بناء على ما ذكر كانت هذه الطبقة تطالب الحكومات باصلاحات جذرية . وقد لعبت البورجوازية دورا مهما في اصلاح انكلترا عن طريق ثورة البيوريتان سنة ١٦٤٨ والثورة الجليلة ١٦٨٩ . وكانت الثورة الامريكية انتصارا للطبقة الوسطى وفلسفة العقل والاستنارة . واصبحت هذه الطبقة تطالب بالاصلاحات السياسية والاجتماعية في اوربا . وكانت الثورة الفكرية قد مهدت السبل لهذه الاصلاحات لكن فرنسا التي كانت ثانية دول اوربا في الصناعة والتجارة والثروة والمعرفة بعد بريطانيا وقفت ضد الاصلاح بسبب ضعف ملوكها وخاصة الملك لويس الخامس عشر .

٢ ـ فرنسا في عهد لويس الخامس عشر

الوصـــاية :

توفي لويس الرابع عشر وعيّن مجلسا للوصاية حتى يبلغ حفيده لويس الخامس عشر سن الرشـد . لكن دوق الاورليان ابن عم لويس اصبح هو الكل في الكل خلال هذه الفترة .

كان فيليب دوق الاورليان رجلا موهوبا لكنه انصرف الى اللهو واهمل تثقيف الملك الصغير وقد اتبع سياسة خارجية ضعيفة ولم ينجح في محاولاته العديدة لاصلاح بعض المساوىء في المؤسسات السياسية والاقتصادية التي خلفهـا لويس الرابع عشر . وقد استطاع ان يخدعه احـد المغامرين السكتلنديين المسـمى جون لو (١٦٧١ ـ ١٧٢٩) ، وقد اقترح جـون تأسيس شركة تقوم بمهـام التجارة في المستعمرات الفرنسية فتقوم ببيع الاسهم في طول البلاد وعرضها وتستخدم الحاصل للقضاء على الديون الوطنية ، وذلك في سنة ١٧١٧ ، وكان قبـل ذلك بسنة قد أسس بنكا بموافقة الاورليان . ولو اقتصـر جون على البنك لكان النجـاح حليفه ، لكنه دمج هـذا بالشركات الاخرى كشـركة مسيسبي وشركة الهند الشرقية الفرنسية والشركة الافريقيـة وغيرها فأصبحت هذه الشركات والبنك كأنها مؤسسة حكومية واحدة ، واخذ الناس يقبلون على شراء الاسهم بدرجـة عظيمة . وفي سنة ١٧٢٠ صار (جون لو) مديرا عاما للمالية الفرنسية اعظم منصب مالي في البلاد . ونتيجة لبعض الاخطـاء التي حدثت كتقييـد استخدام العملة المعدنية وخصم قيمة الاوراق النقدية الى النصف تضعضعت ثقة الناس بمشروع

جون ، وخلال ايام قليلة تدهورت اسـعار الاسهم بسرعة فائقة وأفلس المشروع وانهزم جون لو • ولما اعلنت الحكومة الفرنسية انها لا تقبل الاوراق النقـدية عندئذ نزل سـعر الاسهم الى الثلث ، لكن مؤسسة مالية في باريس باسم (دوفرو اخوان) جاءت لانقاذ الوضـع وانتهت المشكلة •

الكردينـال فلوري :

توفي دوق الاورليان سنة ١٧٢٣ ، وقد بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وعيّن الكردينال فلوري معلمه ومستشاره رئيسا للوزارة • وحاول الكردينال فلوري ان يضمن لفرنسا سـلما دائميا واصلاحات داخلية عظيمة وخاصـة من الناحية الماليـة فقلل من المصروفات وشجع التجارة والمصنوعات الفرنسـية ، وحاول التوازن في ميزانيـة الدولة لصالح الطبقة الوسطى • لكن الكردينال كان شيخا مسنّا ووجد نفسه في الاخير فاشلا في مهمـة الاصلاح وتوطيد السـلام ، لان البوربون انفسهم كانوا ميالين الى الحرب والصرف •

لقد تزوج لويس الخامس عشر من مـاري ليبنسكا ابنـة الملك البولندي السابق وذلك سنة ١٧٢٥ • وكانت ماري امرأة قبيحـة لم تنل اعجـاب الملك فأخـذ يميل الى المحظيات ، فأكثر منهن في قصر فرساي ، واشهرهن همـا « مدام دي باري ومدام بمبـادور » • وقد تدخل لويس في حـرب الوراثة البولندية ١٧٣٣ ـ ١٧٣٨ لكي ينتصر لصهره ضد تدخلات الحكومة الروسية في تنحيته وتعيين شخص آخر من مؤيدي روسـيا ملكا على بولنـدة • وكانت النتيجـة ان وقفت اسبانيا بجانب فرنسا ضد النمسا وروسيا •

وقد انتهت الحرب الوراثـية البولندية بمعاهدة « فينا » سنة ١٧٣٨ التي نقل عرش نابولي وصقلية بموجبهما الى اسبانيا ، كذلك دوقية بارما بعد ١٧٤٨ . اما دوقية لورين فانضمت الى فرنسا سنة ١٧٦٦ . وهكذا حلت عائلة بوربون محل عائلة هبسبرك في اسبانيا والصقليتين وبارما . وقد اعتلى عرش اسبانيا بعد فيليب الخامس ابنه شارل الثالث ١٧٥٩ــ١٧٨٨ وكان رجلا اداريا اهتم بنشر الرخاء في البـلاد ، ولكن اولاده فيرديناند الاول الذي حكم الصقليتين وشـارل الرابع ملك اسبانيا امتازا بالحماقة والقساوة لاقى الناس منهما الامرّين .

تدهور فرنسا في عهد لويس الخامس عشر :

اخذت فرنسـا تتدهور في عهـد لويس الخامس عشر ١٧١٥ ــ ١٧٧٤ ، وكان ذلك واضـحا في الادارة العامة والماليـة وازدياد نفوذ النبلاء . ولقد حكم لويس بنفسه بعد موت الكردينال فلوري سـنة ١٧٤٣ ولم يعمل لاصلاح البلاد ، فكان يتهرب من الاصـلاح ويقضي اوقاته في الصيد والقنص والحفلات الليليـة . وقـد تدخلت مدام بمبادور في ادارة البـلاد بصورة فعلية لمـدة عشرين سنة بين ١٧٤٥ــ ١٧٦٤ .

ودخلت فرنسا في هذه الفترة في حرب طاحنة وهي الحرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠ــ١٧٤٨ وحرب السبع سنوات ١٧٥٦ــ١٧٦٣ اسرعت في تدهور فرنسا وافلاس الخزينة ومهدت السبيل للثورة الفرنسية . لكن مع ذلك فقد كانت فرنسـا لا تزال اقوى دولة في اوربا واغناها . والحضارة الفرنسـية بهرت الاوربيين في كل مكان ، اذ كانت الآداب

والفنون والحيـاة الاجتماعية الراقيـة في فرنسا ارقى ما توصلت اليها الحضارة الاوربية[1] .

٢ ـ الامبراطورية النمساوية وظهـور بروسيا

لقـد ظلت الامبراطورية الرومانية المقدسـة في القرنين السابع والثامن عشر تشمل العناصر المتكلمة باللغة الالمانية وظل الدايت يجتمع برئاسة الامبراطور . وقد انقسمت المانيا الى كاثوليك وبروتستانت . وحتى البروتستانت انقسموا الى اللوثريين والكالفنيين ، وكان النزاع مستمرا بينهما . وقد جلبت حروب الثـلاثين سنة في النصف الاول من القرن السابع عشر الدمار الى البلاد . وخسرت المانيـا نصف سكانها وثلثي ممتلكاتها في هذه الحروب . فقضيت على الطبقـة البورجوازية وعلى اقتصـاديات المانيـا ، وانحلت العصـبة الهنسية نظرا لفقرهـا الاقتصادي .

ولم ينج الفلاحون من هذا الخراب الذي لحق بألمانيا . عندئذ انتهز امـراء المانيـا الفرصـة لتقوية سـلطتهم بالقضـاء على المؤسسات الديمقراطية التي وجدت في السابق .

وقد ظهرت في المانيـا كيانات قوية في اواخر القـرن السابع عشر استطاعت ان تلعب دورا مهما في المسرح السياسي في القرن الثامن عشر أهما بروسيا .

(1) Gottschalk, op. cit: pp. 481-84.

بروسـيا :

نشأت بروسيا ونمت على يد افراد عائلة هوهنزلرن • ففي اواخر القرن الخامس عشر امتلكت هـذه العائلة مقاطعة براندنبرگ الواقعـة حوالي مدينة برلين ، ولم تكن هذه المدينة حينذاك سوى قرية صغيرة .

اما المقاطعات المسماة بـ (بروسيا) فانها تقع شرقي براندنبرگ ، ولم تدخل تحت سيادة آل هوهنزلرن الا حوالي القرن السابع عشر . فقد حدث في عام ١٦١٨ ان اتحدت المقاطعتان تحت سيطرة هذه العائلة. ثم نتيجة لحرب الثلاثين سنة استطاعت عـائلة هوهنزلرن ان تجعل من بروسيا دولة من الدول العظمى في اوربا اذ ان معاهدة ويستفاليا جردت الامبراطور نوعا ما من اية سلطة فعلية على الدويلات الالمانية •

فردريك وليم الملقب بالناخب الكبير :

كان امراء بروسيا من آل هوهنزلرن يلقبون اثنـاء القرن السابع عشر بناخبي براندنبرگ • وقد اصبح احـدهم فردريك وليم ١٦٤٠ـ ١٦٨٨ يدعى بالناخب الكبير نظرا لاهميته • واستفاد هـذا الناخب من حرب الثلاثين سنة في توسيع رقعة مملكتـه منتهزا ضعف الامبراطور ، فحصل على بوميرانيا الشرقية وعدد من الاسقفيات في مقدمتها مكدبرگ واصبح يملك جيشا قويا •

كان الناخب فردريك وليم يعتقد بضرورة الحكم المطلق ، اسوة بملوك اوربا الغربية ، والنظرية القـائلة بحق الملوك الالهي السائدة في ذلك الوقت • وعندما تسلم فردريك الحكم وجد مملكته (براندنبرگ بروسيا) تدار حسب نوع من النظام الدستوري ، اذ كان قبله يحكمون

بالاشتراك مع برلمان يدعى دايت فوجه فردريك همه للقضاء على نفوذ هذا المجلس ، فتجمعت في يده بمرور الزمن السلطة العليا . وعند وفاته خلف دولة تستند الى الحكم الملكي المطلق والحق الالهي فعلا لا اسما.

ظهور الملكيـة في بروسيا :

لقد نمت بروسيا واصبحت دولـة كبرى ، وازداد نفوس برلين نوصل الى (٢٠) الف نسـمة في نهاية القرن السابع عشر بينمـا كان نفوسها (٨) آلاف نسمة في منتصف القرن . وقـد منح الامبراطور ليوبولد الاول امير بروسـيا لقب الملك على امير بروسيا سنة ١٧٠١ ، لان الامير وقف بجانب الامبراطور ضـد لويس الرابع عشر في الحرب الوراثة الاسبانيـة . وفي معـاهدة اتريخت سنة ١٧١٣ اعترفت الدول الاوربية بمملكة بروسيا واصبحت بروسيا في القرن الثامن عشر تشارك النمسا في زعامة المانيـا لانها اصبحت من الدول العظمى من الدرجـة الاولى .

فردريك وليم الاول ١٧١٣ ـ ١٧٤٠ :

لقد اصبحت بروسيا دولـة عظمى في القـرن الثامن عشر نتيجة نجهود فردريك وليم الاول حفيد الناخب الكبير . وكان هـذا شديدا في تمسكه بالحكم المطلق ويكره البطالة وحاول القضاء عليها بالقوة .وقد اعتنى بجيشه الذي اصبح مفخرة المانيا في القرن الثامن عشر . وقد نجح في ان يجعل لبروسيا مركزا عسكريا عظيما بين الدول الاوربيـة . ومع ان بروسيا كانت تسـبقها اثنتا عشر دولة من حيث المساحـة والنفوس

لكنها صارت رابع دولة في اوربا من حيث القوة العسكرية . فكان لها جيش قوامه (٨٥) الف جندي يستنفد ايراد الدولة وقد ادخل الملك التعليم الابتدائي الالزامي في بروسيا لاعتقاده ان التعليم والتهذيب يحسن نوعية جنوده . وقد حاول الملك تحسين البلاد من الناحية الاقتصادية لان الدولة الغنية تستطيع ان تموّن جيشا قويا مرفها . وقد استفاد من قوة جيشه في التهديد كما استفاد منه في الحرب . وقد تمكن من ضم الاراضي السويدية الواقعة على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق (بوميرانيا الغربية) الى مملكته . وهكذا خلف لابنه جيشا قويا ومالا وفيرا .

الملك فردريك الثاني الكبير ١٧٤٠ – ١٧٨٦ :

رسخت الملكية المطلقة في بروسيا على عهد فردريك الكبير . واستطاع هذا أن يستخدم جيش والده وماله الوفير في أغراض شتى . يعتبر فردريك اعظم ملوك آل هوهنزلرن . كان شخصا قصير القامة ، ذا عينين زرقاوين ، امتاز برقة الشعور في حداثته ولهذا يعزى ولعه بالفنون والموسيقى والشعر والرقص . وكانت تربيته على يد والده في غاية من الشدة والعنف ، وعندما تسنم العرش اظهر ميلا شديدا الى المجد والشهرة عن طريق الحروب والفتوحات ، وقد لقب بالمستبد العادل . كانت فاتحة اعماله اغتصاب منطقة سيليزيا بما فيها مدينة برسلاو من النمسا ، ولاجل الاحتفاظ بهذه المنطقة خاض حربين طاحنتين دامتا حوالي (١٥) عاما ولعبقريته الحربية خرج من كلتيهما منتصرا واحتفظ بما استولى عليه . وقد اتفق سنة ١٧٧٢ مع ماريا تريزا (والدة ماريا انطوانيت) امبراطورة النمسا وكاترينا الثانية قيصرة

روسيا على اقسام بولونيا فوسع بذلك رقعة مملكته .

فردريك المستبد العادل :

مرّت على اوربا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر موجه فكريه اصبح بموجبها الملوك المطلقون في اوربا يدعون بالمتنورين لانهم كانوا يديرون شؤون الدولة بكل جد واهتمام متبعين في ذلك اصول العقل والمنطق في اصلاح شؤون شعوبهم ورفع مستواهم . وقد اعتبر فردريك الكبير اول هؤلاء الملوك ، جريا على تلك السنّة ، والخادم الاول في الدولة . وقد قال بهذه المناسبة : « ان الشعوب لا تعيش لاجل الحكام ، ولكن الحكام يعيشون في سبيل الشعوب وتمشية مصالحهم ورفع مستواهم الصحي والمعاشي والثقافي » . ولقد كان فردريك كثير الاشغال ينكب على اعمال الدولة معظم ساعات النهار . وقد ملأ مناصب الدولة بالموظفين الذين اشتهروا بكفائتهم في العمل واخلاصهم للواجب ، وراقب اعمالهم مراقبة دقيقة . وقد اعتنى بأحوال البلاد الاقتصادية وخاصة الزراعة باستخدام الاساليب العلمية وتجفيف المستنقعات لتكثير الاراضي الزراعية وزرع الفواكه والخضروات وتربية المواشي باسلوب علمي . وحاول تخفيف عبء الضرائب والعمل عن عاتق الفلاحين . واستطاع بواسطة سياسته الاقتصادية ان يوفر مالا ويزيد عدد جنوده الى جيش قوامه ٢٠٠٫٠٠٠ جندي . وقد اشرف على تدريبهم وقيادتهم بحيث اصبح محل حسادة الدول الاوربية . ولم يدخل فردريك في حرب بعد ١٧٦٣ ، سوى مرة واحدة في ١٧٧٩ لمنع باقاريا ان تنضم الى النمسا .

وقد اهتم فردريك اهتماما عظيما بادارة المحاكم وتحقيق العدالة .

وقد كره الاعمال الروتينية في المحاكم وتطبيق القانون . وفي احدى القضايا طرد الحاكم الذي حكم على فقير حكما جائرا . وسجنه لمدة سنة واجبره على دفع الغرامة بنفسه الى الشخص الذي صار ضحية جوره .

وقد اشرف على جمع وتبسيط قوانين المملكة . والغى التعذيب في سبيل الحصول على الاعتراف وادخل اصلاحات اخرى في السجون. وكان فردريك ينقصه الحساس الديني فكان يشك في الدين المسيحي والانجيل والقواعد الاخلاقية المبنية عليها ، فكان متسامحا مع جميع الاديان والمذاهب وحتى لو سكن المسلمون هناك (لشيّد لهم المساجد) ، كما قال في احدى المناسبات ، لكنه مع ذلك كان يكره اليهود لا لسبب ديني وانما بسبب بعض الصفات الموجودة في اليهود والتي اعتقد فردريك انها اشياء متمركزة في العنصر اليهودي . وقد وضع التقييدات الكثيرة عليهم .

أسس فردريك اكاديمية العلوم في برلين واهتم بالتقدم العلمي والتأمل العقلي ، وفتح المدارس الابتدائية بدرجة هائلة لتعليم الطبقة العامة ونشر المعرفة بينهم ، وقد شجع الادباء والكتّاب وكان مولعا بالادب الفرنسي ، ودعا الكتّاب الفرنسيين الى بلاطه ، ومن اشهر من نادمه هو « ڤولتير » .

الامبراطورة ماريا تريزا امبراطورة النمسا :

حكمت النمسا في هذا الوقت الامبراطورة ماريا تريزا وقد اعتبرت من المستبدين المتنورين . لكن لم تكن في رتبة فردريك

الكبير ، انما تنورها كان بشكل عاطفي ديني ، فكانت تحب الخير لشعبها وعرفت بالتسامح وحاولت اصلاح جهاز الدولة وقد ساعدها في ذلك زوجها فرنسيس الاول ، ثم ابنها الامبراطور « جوزيف الثاني ». لكنها كانت بعكس فردريك تخاف من انتشار المعرفة والعلوم وتكره الفلسفة الانتقادية المنتشرة في ذلك العصر . وقد اكدت على السلطة المطلقة في الدولة ، وامرت بايقاف وغلق البرلمانات المحلية او ما يسمى « بالدايت » وجعلت السلطة مركزية . ووحدت الجيش الامبراطوري وجعلت اللغة الالمانية هي اللغة الرسمية في الجيش بدلا من اللاتينية وزيدت الضرائب وقضت على اليسوعيين . ومع ذلك فقد ساعدت الموسيقاريين ونشرت التعليم الابتدائي بتأسيس المدارس الكثيرة .

ولما توفيت ماريا تريزا سنة ١٧٨٠ جاء الى العرش ابنها « جوزيف الثاني » الذي كان يساعد أمه في الحكم منذ سنة ١٧٦٥ . كان جوزيف رجلا مثقفا معجبا بروسو وفولتير . وبارى فردريك الكبير في حماسه للاصلاح ونشر المعرفة . وقال بهذا الصدد : « انني جعلت الفلسفة مشرعا لبلادي ، ان اسسها المنطقية ستغير النمسا » فكان يرى تطوير النمسا على غرار فلسفة روسو السياسية والسيادة الشعبية . اننا لا نذكر الى اي مدى استطاع جوزيف ان يطبق اصلاحاته ، لكننا نذكر ان حماسه للاصلاح كان اكثر من قابليته في تنفيذ اصلاحاته . فبينما كان يحاول اصلاح كل شيء في آن واحد ظهر انه لم يصلح شيئا .

اما سياسته فتتلخص في توسيع رقعة مملكته شرقا حتى البحر الاسود والادرياتيك والتخلص من المجالس المحلية وتعيين موظفين خاضعين الى الامبراطور محل هذه المجالس وحاول رفع الطبقة العامة

وخفض النبلاء حتى يتساوى الجميع امامه لينظروا اليه ويتوسلون منه . كما حاول الحصول على باقاريا باستبدالها بالاراضي المنخفضة . لم ينجح جوزيف الثاني في هذه المحاولات ، فوقف فردريك في وجهه ضد الحصول على باقاريا . وفي حروبه مع الدولة العثمانية لم يستطع الحصول على اراضي في البلقان . اما في سياسته الادارية فكان نصيبه الفشل الذريع . اذ الغى الدايت المجري وحمل تاج القديس اصطفان من بودابست الى ڤيينا مما اغضب المجريين . وجعل الادارة مركزية من ڤيينا ونظم الجيش على الطراز البروسي . وقد ثارت الاراضي المنخفضة النمساوية كذلك التيرول في شمال ايطاليا ، واحتج المجريون تجاه سياسته وقد حاول تحرير الفلاحين من النبلاء وفرض الضرائب على جميع الطبقات . لكن النبلاء والطبقة الوسطى كرهوا سياسته الرامية الى القضاء على امتيازاتهم . والفلاحون لم يرغبوا في التجنيد الاجباري وهكذا مات جوزيف سنة ١٧٩٠ دون ان ينفذ شيئا . هكذا كان وضع النمسا والامبراطورية الرومانية المقدسة في القرن الثامن عشر بصورة عامة . وقد اشتبكت الدولتان النمساوية والبروسية في حروب طاحنة في منتصف القرن لتوسيع رقعة اراضيهما. وكان فردريك الكبير هو البادىء كما مرّ معنا باستيلائه على سيليزيا.

حروب فردريك : حرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠ — ١٧٤٨ :

ارتقت ماريا تريزا عرش امبراطورية النمسا سنة ١٧٤٠ وهي السنة التي تسلّم فيها فردريك الكبير عرش بروسيا . وقد ذكرنا سابقا كيف ان فردريك بدأ اعماله باغتصاب سيليزيا من الامبراطورة ماريا تريزا . ولقد كانت هذه القضية جزء من المشكلة الكبرى التي جابهت

الامبراطورة في مفتتح عهدهـا اذ عارض الطامعون تسلم امرأة عرش آل هبسبرك ، رغم ما اصدره ابوها شارل السادس من مرسوم يقضي بتوليها العرش من بعده ، ورغم ما احرزه من موافقة الدول الاوربية على ذلك المرسوم • غير انه عند وفاة شارل السادس ظن بعض ملوك اوربا ان سنحت الفرصة بتولي امرأة الحكم في النمسا ليقتسموا املاك آل هبسبرك • وقد اتفق كل من فردريك الكبير وملك فرنسا وملك اسبانيا البوربوني على ذلك • لكن المصلحة ايضا دفعت كل من انكلترا وهولندة الى جانب النمسا للمحافظة على التوازن الدولي في القارة • وكانت المنافسة الاستعمارية بين انكلترا وفرنسا قد ساعدت على ذلك • وعرفت الحرب التي تشبت من جراء ذلك بحرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠ــ١٧٤٨ •

لقد كانت الحرب طاحنة ظهرت آثارها في المستعمرات وسميت في امريكا بحرب ملك جورج « نسبة الى جورج الثاني ملك انكلترا » وانتهت اخيرا بصلح « اكس لاشابول » سنة ١٧٤٨ • لم تحصل اية دولة على شيء بموجب هذا الصلح سوى بروسيا التي احتفظت بسيليزيا • لكن الصلح ساعد ماريا تريزا ان تحافظ على املاكها •

حرب السبع سنوات ١٧٥٦ــ١٧٦٣

ارادت ماريا تريزا استعادة سيليزيا التي استولى عليها فردريك الكبير ، فاقتربت من امراء المانيا وألفت عصبة الحكام • وكانت سكسونيا احدى الدول التي يمكن الاعتماد عليها كما انها حاولت

بواسطة دبلوماسية كوينتز ان تجر فرنسا الى جانب النمسا باعطائها
مقاطعات الراين •

ولما كانت قيصرة روسيا ضد فردريك استمالتها ماريا تريزا
بسهولة • اما انكلترا فقد كانت في نزاع استعماري مستمر مع فرنسا
في المستعمرات وقد تجددت الحرب بين الدولتين سنة ١٧٥٤ في امريكا
والهند ، عندئذ مالت انكلترا الى جانب فردريك على ان يضمن الاخير
سلامة هانوفر والمانيا بصورة عامة • عندئذ قررت انكلترا مساعدة
فردريك ماليا في حالة الحرب مع فرنسا والنمسا •

لم ينتظر فردريك اعلان الحرب فهجم على سكسونيا واخذ منها
غرامة حربية وجنّد فيها جيش قوي ، ثم تقدم الجيش البروسي نحو
بوهيميا • ولكن في هذه الأثناء تقدمت الجيوش الفرنسية من الغرب
والسويدية من الشمال والروسية من الشرق والنمساوية من الجنوب ،
فاصبحت جيوش فردريك محاطة من جميع الجهات وهنا ظهرت عبقرية
فردريك الكبير بتخلصه من السحق ، اذ ان جيوشه كانت اقل من جيش
اية دولة من الدول التي اعلنت الحرب عليها • وبسرعة فائقة هجم
فردريك على الجيش الفرنسي ودحرهم في معركة « روزباخ » سنة
١٧٥٧ ، ثم رجع الى سيليزيا ودحر الجيش النمساوي في ليوثن ١٧٥٨
والروس في زورندورف ، وقد اضطر فردريك بسبب قلة جيشه ان
يتخذ موقفا دفاعيا وان يجنّد الاعداء ويعفي عن الهاربين من جيشه ،
ولمدة خمس سنوات الباقية اخذ يتخذ موقفا دفاعيا لعدم استطاعته ان
يهجم • وقد تقدم الجيش الروسي في بروسيا الشرقية واستطاع مع
ذلك ان يدحر الجيش الفرنسي سنة ١٧٥٩ • دخلت اسبانيا الحرب

بجانب فرنسا سنة ١٧٦١ ، وساعد الحظ فردريك بأن ماتت قيصرة بيل الى فردريك فانسحب من الحرب واضطرت كل من النمسا وفرنسا الى عقد الصلح مع بروسيا . واجتمعت الدول الاوربية وفرنسا الى ان يعقدا الصلح مع بروسيا . وقد اجتمعت الدول الاوربية في باريس لعقد الصلح سنة ١٧٦٣ .

كانت معاهدة هبرنسبرگ بين فردريك وماريا تريزا نصرا كبيرا لبروسيا . فاعترفت ماريا بانضمام سيليزيا الى بروسيا . وفي باريس خسرت فرنسا مستعمراتها ولم تبق الا النزر اليسير من الجزر في المياه الامريكية وبعض المحطات التجارية في الهند . وهكذا بدأت السيادة البريطانية في امريكا الشمالية والهند واصبحت انگلترا اعظم دولة بحرية في العالم .

وكان من نتائج حرب السبع سنوات ان تدهور الحكم المطلق في كل من فرنسا واسبانيا ، واخفق الحكام المطلقون في كلتا الدولتين في حروبهم التي قاموا بها في القرن الثامن عشر . وخسرت فرنسا كثيرا من المال والرجال ، بالاضافة الى مستعمراتها وكانت الاحوال فيها تنذر بحدوث ثورة كبرى تستهدف القضاء على الحكم المطلق . ومن نتائج حرب السبع سنوات ايضا تقوية بروسيا حتى اصبحت دولة عظمى ومنافسة عائلة هوهنزلرن لعائلة هبسبرگ في السيادة الالمانية[1] .

(1) Ibid; pp. 424-26; 478-79; 507-508; Hayes, op. cit; pp. 320-56.

٥ ـ روسيا في عهد كاترينا الثانية

توفي بطرس الكبير سنة ١٧٢٥ ، دون ان يعهد الى من يخلفه لانه قتل ابنه ، ولي العهد ، في حياته لمخالفته اياه في الرأي . وتحت ضغط حراس القصر اصبحت ارملته كاترينا قيصرة روسيا ، لكن السلطة الحقيقية انتقلت الى المجلس الاعلى supreme privy council المكوّن من رجال الدولة الكبار ، ، واستمر المجلس يمارس السلطة الى حين وفاة كاترينا في ١٧٢٧ . وكان بطرس الثاني ابن ولي العهد اليكسيس وحفيد بطرس الكبير قاصرا ومات بالجدري قبل ان يتوج سنة ١٧٣٠ . فاستدعى المجلس الاعلى بعض قريبات القيصرة زوجة بطرس وهما آن واليزابيث اللتان حكمتا روسيا على التوالي وانتقلت السلطة الفعلية الى المجلس الاعلى . لكن الحرس لم يقبل بذلك عندئذ انتهزت الامبراطورة الفرصة فوعدت الحراس بتحسين احوالهم الاقتصادية وامتيازاتهم والغت المجلس الاعلى واسترجعت سلطتها وقربت هذه العناصر الموالية لالمانيا . ولما توفيت آن وبعد اضطرابات شبيهة بالاضطرابات التي حدثت بعد موت بطرس الكبير ، ارتقت اليزابيث عرش روسيا في بداية عام ١٧٤٢ . وكان النبلاء الروس يؤيدون اليزابيث فقربتهم وابعدت النبلاء الميالين الى المانيا . وشجعت الثقافة الفرنسية بدلا من الثقافة الالمانية . لكن مع ذلك كانت الحضارة الغربية بثقافاتها الانكليزية والفرنسية والالمانية سائدة في البلاط الروسي .

وخلال حكم خلفاء بطرس الكبير في زمن كاترين وآن واليزابيث لم تستطع روسيا انجاز اي عمل سياسي بارز • وقد تدخلت القيصرة آن في حرب الوراثة البولندية ١٧٣٢ـ١٧٣٨ ، معارضة المرشح الفرنسي للعرش البولندي مع العلم ان الصراع لم يمس مصلحة روسيا • كما ان الحرب ضد الدولة العثمانية لم تكن مثمرة •

وخلال حكم القيصرة اليزابيث تدخلت روسيا في حرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠ـ١٧٤٨ ، وحرب السبع سنوات ١٧٥٦ـ١٧٦٣ بجانب فرنسا ضد بروسيا وفردريك الكبير دون انجاز عمل عظيم او فائدة تذكر •

ولما ماتت اليزابيث جاء الى الحكم ابن اخيها بطرس الثالث فأبرم الصلح مع الالمان • لكن هذا لم يعش طويلا وترك العرش لزوجته الالمانية كاترينا التي عرفت بكاترينا الثانية ، وهكذا ان الاربعين سنة التي فصلت بين بطرس الاكبر وكاترينا الثانية كانت سنوات عقيمة بالنسبة لروسيا •

كانت كاترينا الثانية ١٧٦٢ـ١٧٩٦ ، اميرة المانية بروتستانتية ، وقيل انها كانت ابنة فردريك الكبير ، وقد رشحها فردريك الكبير لتتزوج بطرس الثالث قيصر روسيا • كانت كاترينا الثانية ذكية استطاعت ان تكيف نفسها للمحيط الجديد فتعلمت الروسية وقربت الروس بدلا من الالمان واظهرت وطنية صادقة وتظاهرت بالارثوذكسية، وكان الناس يتوجهون اليها حتى في زمان زوجها بطرس الثالث لعرض مشاكلهم • ومن ناحية أخرى كانت كاترينا مع دهائها امرأة سيئة الخلق

غير هيابة وبدون ضمير • وحكمت روسيا بيد من حديد واكملت اعمال بطرس الكبير •

السياسة الداخلية :

قامت كاترينا الثانية بتنظيم الحكومة والادارة العامة وتنظيم المقاطعات التي انقسمت اليها روسيا ، وجعلت الادارة مركزية مرتبطة بنفسها عن طريق حكام المقاطعات الذين كانت هي تعينهم • وقداستولت على املاك الكنيسة وجعلتها ملكا للدولة واصبح رجال الدين تحت سيطرة الدولة •

لقد اعتبرت كاترينا الثانية نفسها من المتأثرات بفلسفة الاستنارة السائدة في ذلك الوقت • وكانت من المستنيرات المستبدات • وراسلت ڤولتير وديدرو ، ودعتهما الى روسيا • واسست المدارس والاكاديميات لتعليم الطبقة العليا الروسية وجعلت اللغة الفرنسية اللغة الدبلوماسية والمجتمع الراقي • وارسلت شباب الطبقة الارستقراطية الى انكلترا لمعرفة آخر التطورات العلمية والفنية وخاصة في الزراعة •

لم تكن كاترين من الذين تعطف على الفلاحين وتحسين احوالهم • ولم تحاول خلاصهم من الفقر والجهل • وقالت بصراحة لاحد النبلاء ان تحسين احوال الفلاحين وتعليمهم معناه انتهاء حكم القياصرة والنبلاء • وقد هدد النبلاء المتآمرين ضدها بمنح عدد كبير من سكان المدن شرف النبل عام ١٧٦٧ ، واصبح النبلاء الجدد خدام اوفياء لكاترين • وقد قضت على ثورة الفلاحين بقيادة بكاشيف الذى طالب بالغاء القنانة في روسيا وأعدمت بكاشيف سنة ١٧٧٥ • لقد اثرت هذه

الثورة على النبلاء واصحاب الاراضي فساندوا القيصرة ولم يعد النبلاء يعارضونها •

سياسة كاترين الخارجية :

اصبحت روسيا دولة اوربية عظمى في عهد كاترينا الثانية • لقد تمكن بطرس الكبير ان يقضي على سيطرة السويد ويستولي على المقاطعات السويدية شرقي بحر البلطيق ، وبقيت بولندة (بولونيا) والدولة العثمانية في الغرب والجنوب يجب التخلص منهما • لقد كانت بولندة دولة قومية مهمة منذ القرن السادس عشر • وكانت الدولة البولندية تشمل عناصر ثلاثة ، بولونيين وليتوانيين واللاتفين (Lativians) في كورلاند • وقد لعبت بولندة دورا بارزا في السياسة الاوربية في القرن السابع عشر ودافعت عن النمسا ضد الدولة العثمانية سنة ١٦٨٣ • لكن بحلول القرن الثامن عشر بدأت عوامل الضعف تنخر في بولندة • لقد كانت بولندة فقيرة اقتصاديا لا تستطيع تأسيس جيش دائمي يواجه روسيا وبروسيا والنمسا ، وكانت هناك عناصر اخرى روثينية في الجنوب والمانية في حوض البلطيق وقد مارست الحكومة البولندية نوعا من التسامح الديني والعنصري لان الروثينيين كانوا ارثوذكس والالمان بروتستانت • لقد طالبت العناصر المختلفة في بولندة بالمساواة وحقوق اكثر مما تمنحها الحكومة البولندية • ولما لم تلب مطاليبهم استنجد الالمان بالبروسيين والارثوذكس الروثينيين بالروس • وكان فردريك الكبير وكاترينا الثانية مستعدان لتلبية النداء •

لقد كان الوضع السياسي والاجتماعي في بولندة سيئا جدا ، فقد ادت سيطرة السويد على البلطيق في نهاية القرن السابع عشر الى ضائقة اقتصادية في بولندة • فقد انحطت الطبقة الوسطى وتقلصت ثروتهم وتدهورت المدن البولندية • وبقيت الطبقة الارستقراطية النبلاء اصحاب الاراضي تمارس سيطرة سياسية ،وهم في نزاع مستمر فيما بينهم واضطهدوا الفلاحين ، ولهذا كانت بولندا في القرن الثامن عشر في فوضى سياسية واجتماعية واقتصادية • ولما كانت الملكية انتخابية في بولندة كان الملوك المنتخبين يمنحون امتيازات واسعة للنبلاء قبل انتخابهم فأصبحت الملكية ضعيفة ورمزية ، واغلب ملوك بولندة المتأخرين كانوا اجانب من الالمان السكسون الذين صرفوا اموالهم لتعزيز سكسونيا •

وكان في الدستور البولندي اتفاق بين النبلاء سمي ليبرام ڤيتو (Liberum Veto) ينص على انه لا يسن قانون من قبل البرلمان اذا وجد احدهم انه يعارض مصلحته ويرفضه • وقد ادى هذا القانون الى نوع من الفوضى والبلبلة لان النبلاء كانوا يرفضون اي قانون يمس مصلحتهم فرديا واجماعيا •

ولما توفي اغسطس الثالث ملك بولندة بعد انتهاء حرب السبع سنوات اخذت كاترينا الثانية تدخل في شؤون بولندة • وبتحريض من فردريك الكبير اقنعت نبلاء بولندة بانتخاب بونيا توفسكي احد المقربين من القيصرة ملكا على بولندة سنة ١٧٦٤ باسم ستانسلاوس الثاني ، ولما اصبح هذا ملكا اصبح الروس مسيطرين على بولندة ،

ولما اراد البولنديون اصلاح دستورهم تدخل الروس واجبروهم على نبذ الفكرة .

ولما نشبت ثورة لهذه الغاية وضد تدخل الاجانب ارسلت كاترين جيشا لاخمادها . ولما عبر الجيش الروسي بعض اراضي الدولة العثمانية للوصول الى بولندة نشبت الحرب بين الدولتين .

الحرب الروسية التركية :

استمرت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا من ١٧٦٨–١٧٧٤ . فقد خشيت الدولة العثمانية من سياسة روسيا الخارجية التي تنوي ضم بولندة ثم التفرغ للدولة العثمانية . وكانت فرنسا تشجع الاتراك في حربهم ضد روسيا ، لكن لويس الخامس عشر كان في وضع مالي سيء لا يستطيع الدخول في الحرب لانقاذ بولندة ولا يتمكن من تقديم المساعدات المالية الى الاتراك .

كانت الدولة العثمانية في تدهور مستمر ، وكان الجيش العثماني في حالة يرثى لها من حيث التنظيم والتسليح والتدريب العسكري . فتوالت الهزائم على الجيش التركي واستولت روسيا على آزوف وولايتي ولاكيا ومولدافيا في رومانيا ودخل الجيش الروسي بخارست . وكانوا على وشك عبور الدانوب الى البلقان لما اعلن صلح كجك كنارجي في ١٧٧٤ . وبموجبه تنازلت الدولة العثمانية :

(١) عن آزوف وما جاورتها من الاراضي شمال بحر الاسود الى روسيا .

(٢) واستبقت الدولة العثمانية رومانيا لنفسها وكذلك اليونان على

ان يقطع السلطان وعدا بادارة افضل لليونان والبلقان .

(٣) ان تمخر السفن التجارية الروسية بحرية في المياه العثمانية .

(٤) ان تكون روسيا حامية الكنيسة الاورثوذكسية في الدولة العثمانية .

وبموجب معاهدة اخرى في عام ١٧٩٢ اصبح نهر دنيستر حدود بين الدولة العثمانية وروسيا .

وهكذا فان روسيا وصلت الى الحدود الطبيعية جنوبا واصبحت الدولة الرئيسية على البحر الاسود ، وتبحر سفنها عبر المضيق بسهولة ، واشرفت على المياه الدافئة . واعتبرت روسيا نفسها حليفة المضطهدين من المسيحيين في الامبراطورية العثمانية . وبدأت الدولة العثمانية تتدهور بسرعة بعد معاهدة كجك كنارجي .

تقسيم بولندة :

وبينما كانت روسيا تحارب الدولة العثمانية اتفقت مع بروسيا والنمسا سنة ١٧٧٢ على تقسيم بولندة ، واخذت روسيا كل الاراضي الواقعة شرقي نهر الدوناودنيبر ، واخذت بروسيا ، بروسيا الغربية باستثناء ميناء دانزك . كما اخذت النمسا غاليسيا عدا مدينة كاراكاو . وبذلك جردت بولندة من ربع اراضيها وخمس سكانها . وفي سنة ١٧٩٣ ، قسمت بولندة مرة اخرى بين الدول الثلاث ، وقسمت نهائيا في سنة ١٧٩٥ بين هذه الدول وزالت بولندة عن خارطة اوربا . وحصلت بروسيا على مصب نهر فستولا بينما حصلت النمسا على القسم الباقي والبقية الباقية من بولندة اصبحت من حصة روسيا .

ماتت كاترينا الثانية سنة ١٧٩٦ وقد تمكنت ان تجعل من روسيا دولة عظمى بوصولها الى بحر البلطيق والبحر الاسود وضم روثينيا (اوكرانيا) ومعظم بولندة الى روسيا[١] .

٤ ـ انكلترا في عهد آل هانوفر :

توفيت الملكة آن Ann ، بنت جيمس الثاني ، في اول آب ١٧١٤ ورفض البرلمان الانكليزي انتقال العرش الى اخيها الكاثوليكي باسم جيمس الثالث ، لذا انتقل العرش الى ناخب هانوفر واستدعي الى لندن ليصبح ملكا على انكلترا باسم جورج الاول[١] ، وشكّل الملك وزارة من الهويكز بزعامة تاونسيند (طاوزن) ، ولم يعارضه البرلمان الذي كانت اكثريته من التوري . ورفض اغلب التوري المناصب الوزارية لما طلب الملك منهم ذلك . وفي الانتخابات التي اجريت سنة ١٧١٥ ، نال الهويكز الاكثرية في البرلمان ، واتخذ الهويكز اجراءات ضد بعض زعماء التوري بدعوى انهم يتآمرون لتنصيب جيمس الثالث الكاثوليكي ، ابن الملك جيمس الثاني المخلوع ، على عرش انكلترا . وانهزم عدد من هؤلاء التوري الى القارة الاوربية من بينهم بولينبروك وأرمند . وقد نجى اكسفورد من الحبس وبرأ مجلس اللوردات ساحته ، سنة ١٧١٧ ، لان مجلس العموم لم يصر على

---

(1) Vernadsky, of Russia (New Haven, 1967). pp. 158-170 .

(١) انتقل العرش الى عائلة هانوفر بموجب قانون التولية لسنة ١٧٠١ ، وكان جورج الاول ابن الاميرة صوفيا حفيدة جيمس الاول ملك انكلترا .

طرده ، كما لم يستطع البرلمان اثبات مشاركة التوري في التآمر • ومن المؤكد ان التوري لم يشتركوا في المؤامرة لكنهم حاولوا اقناع جيمس الثالث ليغيّر مذهبه الى البروتستانتية •

لقد ادى اضطهاد التوري من قبل الهويكز الى ثورة مؤيدة لجيمس الثالث سنة ١٧١٥ ، وكان اغلب التوري يعطفون على جيمس ويبعثون اليه الهدايا ويراسلونه • وقد فشلت ثورة جيمس المعروفة بثورة اليعاقبة لاستعادة عرش انكلترا الى آل ستوارت • وظلّ آل هانوفر مهددين من قبل آل ستوارت الى سنة ١٧٤٥ حيث قضي على آخر ثورة قام بها شارل ادوارد بن جيمس الثالث • وكان سبب فشل ثورة اليعاقبة في سنة ١٧١٥ هو ان جيمس الثالث كان قائدا ضعيفا لم يستطع وضع خطة عسكرية لحملته ، ولم يبين لمؤيديه فيما اذا يوافق على تأييد الكنيسة الانكليزية • كما ان لويس الرابع عشر الذي وعده بالمساعدة توفي في هذا الوقت ، ولم يستطع فيلب دوق اورليان الوصي على الملك الصغير لويس الخامس عشر ، ان ينفذ الوعد لانه كان في نزاع مع ملك اسبانيا فيلب الخامس الذي ادعى حقه بعرش فرنسا على الرغم من ان معاهدة أتريخت منعته من ذلك • وعليه لما بدأت ثورة اليعاقبة (انصار جيمس الثالث) في مرتفعات سكتلندة دون تخطيط سابق وقليل من تأييد التوري ، تمكنت الحكومة الانكليزية من اخمادها بسرعة • وهذا هو السبب الذي جعل الملك جورج يتمسك بهويكز في الحكم مدة طويلة •

كان الوضع السياسي في اوربا غير مستقر ، لان معاهدة اتريخت اثارت كثيرا من السخط في الاوساط الاوربية • فقد احتجت اسبانيا

على سيطرة النمسا على ايطاليـا وحاول الملك الاسباني الحصول على عرش فرنسا ، بينما اراد الامبراطور النمساوي شـارل السادس عرش اسبانيا وجزيرة صقلية التي اخذتها مملكة سافوي • وفي نفس الوقت كانت الدول الشمالية في حرب مع السـويد ، تلك الحرب التي اندلعت بين بطرس الكبير قيصر روسيا وشارل الثاني عشر ملك السويد حوالي سنة ١٧٠٧ • وقد تمكن الملك جورج الاول ان يعقد اتفاقيتين احداهما اتفاقية ويستمنستر سنة ١٧١٦ بين النمسا وبريطانيا على ان تساعد كل منهما الاخرى للدفاع عن ممتلكاتها ، والثانية مع فرنسا ضد الطامعين في العرش في كل من انكلترا وفرنسا • ومع ان المعاهدة الفرنسية كانت لاجل مساندة العائلة المالكة الانكليزية (عـائلة هانوفر) ضد جيمس الثالث الذي كانت تساندة فرنسا ، والعائلة المالكـة الفرنسية ضد طلب فيلب الخامس ملك اسبانيـا بعرش فرنسا ، لكنهـا كانت ضد مصلحة بريطانيا التي اعتبرت فرنسا عدوتها الاولى في التجارة والمستعمرات • وعليه وقف تاونسيند (طاوزن) ضد المعـاهدة واستقال ، فعيّن الملك محله « ستانهوب » المؤيد للمعاهدة بحجة ان سـلامة بريطانيا مهددة من قبل المدعين بالعرش ، وصداقة فرنسا تعزز هذا السلام •

تمكن ستانهوب ان يحافظ على السـلام في اوربا بعقـد حلف رباعي سنة ١٧١٨ لاخضاع اسبانيا التي هـاجمت النمسا في ايطاليا في السنة السابقـة • ولما لم تخضع اسبانيا ، غزاهـا الجيش الفرنسي من الشمال ، ودمر الاسطول الانكليزي اسـطولها ، فاضطرت اسبانيا الى الانسحاب من ايطاليا • وفي مؤتمر اوربي عقد سنة ١٧٢٢ حلت الدول

الاوربيـــة مشاكلها ، وكانت حـــرب الشمال بين السود والروس قد انتهت في السنة السابقة •

لقد كانت شـــعبية ستانهوب وقتية • ففي ســـنة ١٧٢١ ، افلست الشركة التي اسسها « جون لو » في فرنســـا ، والتي نالت تأييدا قويا في انگلترا ، وتوغل في صفقاتها المالية عدد من وزراء الانكليز بقبولهم الرشوة من الشركة • فأثّر افلاس الشركة على ثقة الناس بحكومتهم ، وكاد حزب الهويگز يسقط لولا ان سير روبرت والبول انقـذ الموقف سنة ١٧٢١ •

سير روبرت والبول اول رئيس وزراء انكليزي ١٧٢١–١٧٤٢ :

كان سير روبرت والپول Sir Robert Walpole ابن احـــد النبلاء اصحاب الاراضي في مقاطعة نورفولك ، درس في جامعة كمبرج ، وكان لا يزال طالبا لما توفي اخوه الاكبر ، فورث جميع ممتلكات ابيـه الغنيـــة ، فأخرجه ابوه من الجامعة ليـدير شؤون ممتلكاته • واصبح والپول رجل اعمال ماهر • دخل والپول البرلمـــان سنة ١٧٠٠ ، وتمكن ان يتقدم في المناصب ، وقابليتـــه في الحساب والرياضيات كانت سببا لهذا التقدم • وفي سنة ١٧١٤ ، اصبح وزيرا في حكومة الهويگز • ولما افلست شـــركة جون لو ، كان والپول الوحيـــــد الذي لم يتورط في القضايا المالية مع الشركة فعيّن وزيرا للمالية ، ثم اصبح الوزير الاول ورئيسا للحكومة ، وكُلّف باصلاح الوضع المالي •

استمر والپول رئيسا للوزارة الانگليزية من ١٧٢١ الى ١٧٤٢ ، واظهر خلال هذه الفترة الطويلة مقدرة فائقـــة في ادارة الدولة وتركيز

قواعد الحكومة الانكليزية على اسس رصينة • وبرهن انه رجل الدولة • لقد كان والپول يتبع سياسة لا تثير المعارضة ويساير الرأي العام ، في الوقت الذي كانت معارضة اليعاقبة قوية وعائلة هانوفر فقدت شعبيتها • ولما وجد ان اصلاح الضرائب التي اقترحها هو ، واجه معارضة شعبية قوية سنة ١٧٣٣ اهمله ، مع العلم ان الاغلبية في البرلمان كانت تؤيد الاصلاح •

اما في السياسة الخارجية فوجد والپول ان مصلحة بريطانيا تتناقض مع كل من فرنسا واسبانيا في التجارة والمستعمرات ، لكنه اتبع سياسة سليمة معهما ، لان السلام كان ضروريا لنشر الرخاء الاقتصادي والاستقرار في بريطانيا • وقد اهتم في سياسته الداخلية بالصناعة وتصدير البضائع المصنوعة للحصول على العملة والبضائع الاجنبية • وقد الغى الضرائب المفروضة على الصادرات وخفض الضرائب على المستوردات التي تحتاجها بريطانيا • وهكذا نشطت التجارة والصناعة في زمانه واصبحت بريطانيا احسن تنظيما من اية دولة اوربية اخرى اقتصاديا •

يعتبر روبرت والپول اول رئيس للوزراء في بريطانيا بالمعنى الحديث • وتحت قيادته ظهر نظام الوزارة وتطور واصبح مستقلا عن الملك • وقلما حضر الملك جلسات الوزراء ، وترك رئاسة الجلسة لوزيره الاول سير روبرت ، لان الملك جورج الاول لم يتكلم اللغة الانكليزية • واصبحت هذه الظاهرة قاعدة عامة في زمن الملك جورج الثاني ١٧٢٧ ـ ١٧٦٠ ، الذي لم يحسن اللغة الانكليزية ايضا ، وصار من الممكن للوزراء ان يحسموا خلافاتهم قبل الاتصال بالملك الذي لم

يستطع ان يؤثر على مقرراتهم . كما ان الملك وجد من الضروري ان يشكل وزارته من الحزب الذي يتمتع بالاكثرية في البرلمان ، وكان روبرت والپول الرجل الوحيد الذي يستطيع ادارة مجلس العموم والتفاهم معهم ، فأبقاه في منصبه .

كانت الوزارة سابقا لا تمثل تماما الحزب الحاكم ، لان وزارة الهويگز احتوت على عدد من التوري ، كما ان وزارة التوري قبل ذلك تضمنت عددا من الهويگز . لكن في زمن روبرت والپول اصبحت وزارة الهويگز كلها ممثلا لحزب الهويگز . كما ان الانسجام الوزاري والمسؤولية الوزارية اصبحت ضرورية من الآن فصاعدا عند اقرار أية سياسة . ولاول مرة استعملت كلمة رئيس الوزراء في زمن سير روبرت ، واصبحت الوزارة مستقلة عن الملك وتعتمد ثقة على اكثرية مجلس العموم لبقائها في الحكم .

استقال سير روبرت من منصب رئيس الوزراء سنة ١٧٤٢ ، لما فقد ثقة الاكثرية في البرلمان بسبب اتحاد بعض الشباب البارزين في حزب الهويگز الذين نحّاهم سير روبرت من الوزارة بسبب وقوفهم ضد سياسته الخارجية . لقد كانت اسبانيا تهدد استقرار اوربا وحلّت فرنسا مشاكلها العائلية معها سنة ١٧٣٣ في معاهدة سرية على ان تروج الدولتان سياستهما التجارية والاستعمارية ضد بريطانيا . ولم تظهر عواقب هذه المعاهدة السرية بسبب انشغال فرنسا بحرب الوراثة البولندية ١٧٣٣ـ١٧٣٨ ، واعلن سير روبرت حياد بريطانيا في هذه الحرب ، على الرغم من ان مصالح الملك جورج الثاني في هانوفر كانت

بمدة . وتوسط السير روبرت لانهاء الحرب وتكوين علاقات الصداقة مع اسبانيا وفرنسا حتى بعد ان علم بالاتفاقية السرية بين الدولتين . عندئذ انتهزت المعارضة من الحزبين الفرصة للهجوم على سياسته التي أضرت بمصالح بريطانيا التجارية والاستعمارية . اذ كانت اسبانيا لا تزال تحتكر التجارة والمستعمرات في امريكا وتفتش السفن الانكليزية في عرض البحار ، وتعامل البحارة الانكليز معاملة سيئة .
بدات المعارضة تهاجم سياسة رئيس الوزراء ، لانه لم يدافع عن مصالح بريطانيا التجارية وينتقم من الاسبان . وكان مجلس العموم قد استجوب عددا من هؤلاء البحارة وبيّن احدهم ان الاسبان اساءوا اليه وقطعوا اذنيه واخرج علبة فيها اذناه المقطوعتان . ولما سأل احد النواب هذا البحار المقطوع الاذن (واسمه كبتن جينكنز) ، ماذا فعل بعد قطع اذنيه اجاب انه توكل على الله وعلى بلده ليأخذ بثأره . ان هذه القصة وامثالها من أن البحارة الانكليز يتعذبون في سجون اسبانيا على يد محاكم التفتيش مكبلين بالسلاسل ، كانت كافية لاثارة الشعب الانكليزي . لقد حاول والپول حل القضية بالمفاوضات على ان تدفع اسبانيا تعويضا للخسائر ، لكن المعارضة اتهمته بالتخاذل والمهادنة بدلا من اشهار السيف . ولما ثار الرأي العام الانكليزي ضد المعاهدة مع اسبانيا اضطر سير روبرت ان يعلن الحرب سنة ١٧٣٩ ، ولما كانت هذه الحرب ضد رغبته استقال سير روبرت لكن الملك جورج أصر على بقائه .

كانت الحرب في صالح بريطانيا التي نالت بعض الانتصارات . لكن اندلعت حرب الوراثة النمساوية في اوربا سنة ١٧٤٠ ، ودخلت

فرنسا في الحرب بغية تجزئة الامبراطورية النمساوية ، وكانت بريطانيا ترغب في الدخول في الحرب ضد فرنسا دفاعا عن النمسا ، لكن الملك جورج وقف على الحياد خوفا من ضياع مقاطعته هانوفر . فثار الرأي العام الانكليزي ضد الحكومة التي في نظرهم تضع مصلحة هانوفر فوق مصلحة بريطانيا . وفي عام ١٧٤١ أجريت الانتخابات واسفرت عن فوز المعارضة فاستقال سير روبرت في بداية عام ١٧٤٢ .

قاد الملك جورج الثاني حملة ضد فرنسا وانتصر الانكليز ، لكن ابنه انهزم امام الفرنسيين في معركة فونتينوي سنة ١٧٤٥ . عندئذ انتهز شارل ادوارد حفيد الملك جيمس الثاني ، الفرصة فشن حربا على انگلترا بمساعدة السكتلنديين . لكن الانكليز انتصروا عليه وهزموه في معركة كلودين Culloden عام ١٧٤٦ . وبذلك انتهت آخر محاولة قام بها آل ستوارت لاستعادة العرش .

لم يكن خلفاء روبرت والپول يمتازون بالكفاءة باستثناء وليم پت Pitt ، الذي منعه الملك من الدخول في الوزارة لانه كان يكرهه ، لكن دخول انگلترا في حرب السبع سنوات سنة ١٧٥٦ وعدم استطاعة الوزارة تسيير دفة الحرب ، اجبر الملك استدعاء وليم پت الى رئاسة الوزارة .

وليم پت Pitt وحرب السبع سنوات :

ظهر وليم پت كرجل بارز في البرلمان الانگليزي دون ان يتمتع بمنزلة سياسية او اجتماعية او ارتباط عائلي او ثروة ضخمة . وقد

كو ّن پت نفسه وحصل على ثروة عن طريق التجـارة ، ودخل مجلس العموم معتمـــدا على ثروته • وقد اظهر براعـة فائقــة في المحاورات البرلمانية بحيث اعتبر ابلغ اهل زمانه • وقد عارض روبرت والپول من اليوم الاول ، فاصبح لسان حال الجماهير • وقد تمكن بفضل سياسته الحكيمة وقيادته أن يخلّص البلاد وينتصر ويحطم قوة فرنسا في حرب السبع سنوات ، وانهـاء امبراطوريتها الاستعمارية ، وحـلّ بريطانيا محل فرنسا • فقد حصلت بريطانيا على كندا والهند • وقد وجد وليم پت ان اسبانيـا التي بقيت محايدة في حـرب السبع سنوات الى سنة ١٧٥٩ ، قد اتفقت سـرا مع فرنسا لاعلان الحـرب على انكلترا • ولما اقترح وليم پت اعلان الحـرب على اسبانيـا لزملائه ، رفضـوا ذلك فاستقال پت •

وحدث ان توفي جورج الثاني وجاء الى العرش الانكليزي حفيده جورج الثالث ، فعيّن لورد بيوت Bute رئيسا للوزراء الذي اعلن الحرب على اسبانيا واستولى الانكليز على هـاڤانا في كوبا عام ١٧٦٢ ومانيلا في الفيلبين • وكان الجانبان الانكليزي والفرنسي قد انهكتهما الحرب ، فابرم الصلح في باريس عام ١٧٦٣ ، وبموجبه حصلت بريطانيا على كنـدا والسيطرة التامـــة على الولايات الامريكيـة حتى نهـر المسيسيبي • كمـا حصلت على فلوريدا من اسبانيـا ورجعت اليهـا هاڤانا ، وانتهت بذلك امبراطورية فرنسا الاستعمارية •

عهد الملك جورج الثالث ١٧٦٠ ـ ١٨٢٠ :

ولد جورج الثـالث عام ١٧٣٨ ، في انكلتـرا ، وكان ابوه ولي العهد فردريك ابن جورج الثـاني مات سنة ١٧٥٧ ، قبـل وفاة والده

بثلاث سنوات . كان جورج الثالث انكليزيا احبه الشعب في بداية حكمه ، واهتم بشؤون مملكته كملك يريد ان يمارس الحكم بنفسه ، وكان يميل الى التوري وتمكن عن طريق الاستمالة والرشوة ان يحول الاكثرية البرلمانية من كلا الحزبين الى جانبه .

لم يكن جورج الثالث يحب وليم پت الذي كان يدعي النزاهة والنبل والوطنية كما كان يدّعي بهـا الملك . لكن مع ذلك اسبغ عليه [illegible] (The Earl of chatham) مقابل خدماته .

وقد تخلص الملك من وزراء الهويگز تدريجيا وأحلّ التوري محلهم ، لتكوين وزارة محافظة . وعيَّن لورد بيوت Bute المحافظ رئيسا للوزراء سنة ١٧٦١ ، واستمر الى ان ابرم صلح باريس سنة ١٧٦٣ ، والتي بموجبها انتهت حرب السبع سنوات . ومع ان المعارضة كانت قوية في البرلمان ضد المعاهدة ، لكن الاكثرية صوتت لها . والذين وقفوا ضد المعاهدة طردهم رئيس الوزراء بيوت من البرلمان ومن الوظيفة . غير ان رئيس الوزراء لم يكن شعبيا لانه كان من المقربين للملك فاضطر ان يستقيل . وظهر بعد ذلك عدة رؤساء وزارات تناوبوا في الحكم خلال الستينات من القرن الثامن عشر . وخلال هذه الفترة بالذات ظهرت قضية جون ولكس التي اشغلت الدولة ردحا من الزمن .

قضية جون ويلكس :

كان جون ويلكس محررا لجريدة « نورث بريتون » ، التي هاجمت سياسة لورد بيوت بشدة ، وانتقدت خطاب العرش الذي القاه الملك في البرلمان دفاعا عن معاهدة باريس ١٧٦٣ ، دون ذكر اسم

الملك . ولما كانت القاعدة الجارية ان يكتب الوزراء خطاب العرش ، فكان من البديهي ان تقع المسؤولية على عاتقهم . لكن الملك كان قد لعب دورا هاما لا يمكن اخفاؤه في ابرام المعاهدة ، لهذا اعتبر النقد موجها اليه فأمر باتخاذ اجراءات قانونية ضد جون ويلكس . وبتصريح عام امرت الوزارة تفتيش منزل ويلكس الذي كان عضوا في مجلس العموم ، وكان هذا الاجراء مخالفة صريحة للقانون ، عندئذ طلب ويلكس تطبيق قانون هيبيس كوربس Habeus Corpus الذي ينص على انه لا يجوز احتجاز وتوقيف وحبس اي شخص دون ترخيص من المحاكم المختصة ببيان التهمة . وعليه اطلق سراح جون ويلكس .

لكن الملك استمر في اضطهاد جون ويلكس وتمكن من اقناع البرلمان بطرده من مجلس العموم . وفي مبارزة مع خصم له ، جرح وانهزم الى فرنسا ، فحكم عليه البرلمان غيابيا واعتبر خارجا عن القانون سنة ١٧٦٤ .

ان هذه الاجراءات التعسفية اثارت نقمة الشعب ، والعطف على جون ويلكس ، الذي اعتبر ضحية الاستبداد . وبدأت المظاهرات تأييدا لويلكس والمطالبة بحرية الشعب .

وقد تعاقبت الوزارات خلال هذه المدة ورجع جون ويلكس الى انكلترا سنة ١٧٦٨ ورشح نفسه للنيابة وفاز بعضوية مجلس العموم . لكنه سجن لانه كان قد حكم عليه غيابيا . ولم يهتم البرلمان بالمظاهرات التي قامت دفاعا عن ويلكس والذي قتل فيها عدد من الناس . ونشر

ويلكس بيانا يتهم فيه الوزارة بتدبير مذابح للشعب • عندئذ اتفق جميع اعضاء البرلمان على طرد ويلكس من مجلس العمـــوم ، وعلى الرغم من اعادة انتخابه عدة مرات ، رفض مجلس العموم قبوله عضوا في البرلمان.

وزارة لورد نورث Lord North ١٧٧٠ - ١٧٨٢ :

اعاد جورج الثالث تنظيم الوزارة بزعامة لورد نورث الذي اصبح رئيسا للوزارة واستمر كذلك الى ١٧٨٢ •

كان لورد نورث رجلا بليغا وقديرا في الحوار البرلمـاني يستطيع ادارة مجلس العموم وينال الاكثرية ولهذا أحبـه الملك • واذا لم يتفق هو والملك على رأي ، كان يضطر ان ينفذ اوامر الملك • ولقـد حدثت الثورة الامريكية في زمانه وأدت الى استقلال الولايات المتحدة ، وكان البرلمان قد تدهور خلال القرن الثامن عشر ووصل الى الحضيض ولهذا نستعرض نظـام الحكم في انكلترا في القـرن الثامن عشر ونبين لمـاذا تدهور البرلمـان بعـد كل هـذه الاصـلاحات العظيمـة في القـرن السابع عشر •

الدستور الانكليزي في القرن الثامن عشر :

تشذ بريطانيا الآن عن بقية الدول بأن ليس لها دستور مكتوب ، فالدستور الانكليزي عبـارة عن مجموعـة من الممارسات التقليـدية والاعـراف المتوارثة والاجراءات الحكوميـة التي انتظمت الحكومة البريطانية بواسـطتها واديرت دون ان تدون • وقـد تطور الدستور

الانكليزي تدريجيا وتغير تدريجيا عبر تاريخه الطويل ، وخاصة نتيجة للثورة الانكليزية في القرن السابع عشر ، واخذ يتصف بميزات خاصة اهمها :

ان الملك ظل رئيسا للدولة والحاكم للمملكة بموجب القانون . وكانت القوانين تسن والمعاهدات تبرم والموظفون يعينون باسمه . وهو الرئيس الاعلى للدولة والكنيسة . لكن من الناحية العملية كانت الوزارة تقوم بهذه الاجراءات ، وهم مسؤولون امام البرلمان . وهذا التحويل اصبح كاملا في القرن الثامن عشر . فصار الشعار السائد الملك يملك ولا يحكم .

وقد اصبح الملك مقيدا لا يستطيع فرض الضرائب وجمعها ، وخصص له راتبا سنويا . فكان وليم الثالث يستلم (٧٠٠) الف باون استرليني في السنة . كما لم يستطع سن القوانين او تعطيلها او الغائها . وظل يتمتع بحق الڤيتو (او الرفض) من الناحية النظرية ، لكن لم يلتجيء اليه ملك منذ عهد الملكة آن . وقد فقد الملك سيطرته على المحاكم ولا يستطيع عزل الحكام حتى اذا كانت مقرراتهم ضد الملك . كما ان قانون هيبيس كوربس منع القاء القبض على اي فرد الا بتحرير رسمي من المحكمة يبين سبب اتهامه والقاء القبض عليه ومحاكمته محاكمة عادلة . كما لا يجوز تأسيس جيش نظامي في وقت السلم او اعلان الاحكام العرفية او اعلان الحرب . ولا يجوز تعيين الوزارة او اقالتها ، وانتقل هذا الحق الى البرلمان . وتشكل الوزارة من الحزب الذي له الاكثرية في البرلمان ، واذا فقدت الوزارة ثقة الاكثرية تسقط .

وقد انتقلت سلطات الملك الى البرلمان الذي يتمتع بحرية التعبير
السلطة العليا الوحيدة في الدولة . وكان من المفروض ان يمثل
انسلطة العليا الوحيدة في الدولة . وكان من المفروض ان يمثل
البرلمان الشعب البريطاني ، لكن الواقع كان التمثيل غير عادل . ان
البرلمان مكون من مجلسين تشريعيين لا يستطيع احدهما تشريع القوانين
ممثلي رجال الدين واللوردات المدنيين من ممثلي نبلاء الاقطاعيين في
العصور الوسطى ، والنبلاء الذين عيَّنهم الملك من بين افراد الطبقة
الوسطى اصحاب الثروات التجارية .

اما مجلس العموم مع كونه اكثر تمثيلا للشعب كان لا يزال مكونا من الارستقراطيين . والنواب اما يمثلون القرى او المدن وفق دون موافقة الآخر . ومجلس اللوردات كان المجلس الاعلى مكونا من شروط معينة ، وهي الملكية ، وكان حق الانتخاب يقتصر على الذين يملكون دخلا سنويا لا يقل عن (٤٠) شلن . وكان التصويت علنيا ولهذا خشي الناس من التصويت .

وكانت المدن الحديثة محرومة من التمثيل البرلماني ، لان المقاعد البرلمانية لم توزع بشكل عادل تمثل جميع السكان . والمدن القديمة وحتى المندثرة كانت تتمثل دون الحديثة والمزدحمة بالسكان . ومع ان الانتخابات في بعض المدن كانت تحت سيطرة رجال الاعمال ، لكن في المدن الاخرى كان النبلاء واقطاب التجار هم المسيطرين ويتمثلون في البرلمان دون اجراء انتخابات احيانا . وكان رجال المال والاعمال والارستقراطيين واقطاب الثروة يمثلون في مجلس العموم ويستخدمون

شتى الوسائل لتحقيق هذا الغرض كالتهديد والرشوة او التعيين .

هكذا كان البرلمان الانكليزي في القرن الثامن عشر لا يمثل الا جزءا قليلا من السكان هم النبلاء والاغنياء . ولم يكن نظام الحكم دمقراطيا بل اوليكاركيا سيطر عليه فئة من الارستقراطيين الذين اعتبروا السياسة مهنة لهم . واغلب النواب ينفذون اوامرهم .

وفي سنة ١٧٠٧ اتحدت المملكتين اسكتلندة وانكلترا نهائيا . ووافق البرلمان على ذلك واخذ اللوردات والنواب الانكليز والسكتلنديين يجلسون في البرلمان الموجود في ويستمنستر في لندن . واصبحت المملكة تسمى ببريطانيا . لكن الكنيسة السكتلندية ظلت منفصلة عن الكنيسة الانكليزية . واصبح البرلمان الجديد يسيطر على الجزيرة البريطانية وامبراطوريتها . وقد عينت الحكومة حكاما على مستعمراتها وسنت قوانين لادارتها وجباية الضرائب فيها .

اما بخصوص ارلندة ، فكان ملوك انكلترا قد غزوها في القرن الثاني عشر وبمرور الزمن اصبحت تحت حكم انكلترا . وظل الارلنديون اجانب بالنسبة للانكليز وتمسكوا بكنيستهم الكاثوليكية ، ولم تستطع انكلترا فرض المذهب الانكليزي عليها . وكان سكان ارلندة يتعاونون مع اعداء انكلترا كفرنسا واسبانيا ، ودافعوا عن شارل الاول وجيمس الثاني ضد البيوريتان المتزمتين في البرلمان الانكليزي . وقد استوطن البروتستانتيون في شمال ارلندة في مقاطعة آلستر بغية اخضاع الكاثوليك لكن لم تجد هذه السياسة نفعا وسببت ازدياد الكراهية والبغضاء بين الارلنديين الناقمين . وكان لارلندة برلمان لكن كان على البرلمان الانكليزي ان يوافق على جميع القوانين

التي يسنها برلمان ارلندة منذ القرن الخامس عشر • وحرم الكاثوليك من البرلمان في القرن السابع عشر واصبح البرلمان تحت سيطرة الارستقراطيين البروتستنت المنحدرين من الانكليز الذين اسكنهم كرومويل في ارلندة •

والخلاصة ان النظام الانكليزي في القرن الثامن عشر كان دستوريا برلمانيا اوليكاركيا بيد النبلاء الارستقراطيين واقطاب المال والثروة ، ولم يكن دمقراطيا • وكان البرلمان يحكم امبراطورية واسعة بشتى الوسائل لازدياد نفوذ بريطانيا وهيبتها وترويج مصالحها الاقتصادية • وفي وزارة لورد نورث الطويلة حدثت الثورة الامريكية واستقلت امريكا في ١٧٨٣ • وكانت الصدمة عظيمة بالنسبة لانكلترا • وكثرت الانتقادات لنظام الحكم الانكليزي ومن بين الناقدين كان توماس پين الانكليزي Thomas Pain الذي قال ان النظام الجديد في امريكا اقرب الى فلسفة جون لوك وآراء جون ملتن من النظام الانكليزي المبني على برلمان لا يمثل احدا ، وارستقراطية مسيطرة على الحكومة ، وقيود على حريات الناس ، وعدم مسايرة النظام مع فلسفة التنور • ولما وجد الملك جورج الثالث ان حكومته المحافظة اصبحت مكروهة اضطر ان يقيل لورد نورث ، وتعيين حكومة جديدة تقوم باصلاحات في ١٧٨٢ •

الاصلاحات البرلمانية :

من بين الاصلاحات الضرورية التي قامت بها الحكومة البرلمانية الانكليزية ، اصبح البرلمان الارلندي مستقلا في ١٧٨٢ واصبح من حق

الكاثوليك ان يصوتوا في الانتخابات للبرلمان الارلندي .وفي عام ١٨٠٠ اندمج البرلمان الارلندي بالبرلمان الانكليزي على غرار البرلمان السكتلندي الانكليزي في ١٧٠٧ . ولمدة مئة سنة بعد ذلك عرفت انكلترا بالمملكة المتحدة البريطانية الارلندية .

وقد استمرت المطالبة بالاصلاحات البرلمانية ووضع قيود اكثر على النظام الملكي ، وان يكون البرلمان يمثل الشعب اكثر بتوسيع قاعدة الانتخابات ، والقضاء على الرشوة والمحسوبية وتحقيق المبادىء الدمقراطية التي نادى بها اصحاب الثورة الانكليزية والثورة الجليلة لسنة ١٦٨٩ .

شارل جيمس فوكس ودعاة الاصلاح :

وكان من بين دعاة الاصلاح وكلهم تقريبا من حزب الهويگز الذين حرمهم التوري من الحكم بسبب افساد النواب والموظفين عن طريق المحسوبية والرشوة . واشهر من دعا الى الاصلاح هو شارل جيمس فوكس ١٧٤٩–١٨٠٦ ، الذي اشتهر بالسكر والعربدة مع ولي العهد الامر الذي حال دون مجيئه الى الحكم . لكن مع ذلك كان رجلا قديرا وخطيبا بليغا ، ومحبا للخير وخاصة للطبقة الفقيرة والمضطهدة . وكان اصدقاؤه في البرلمان يتوخون منه الاصلاحات البرلمانية والتسامح الديني الكامل والغاء تجارة العبيد . لكن عدم استطاعته في التوفيق بين حياته الخاصة ومنزلته السياسية كرجل دولة حالت دون نجاحه . وقد دافع فوكس عن المصلحة العامة ، وهاجم السياسات الرجعية

والموظفين الفاسدين . وقدم منهجا موسعا لاصلاح البرلمان مكون من ستة مطاليب : (١) التصويت العام للذكور (٢) التمثيل البرلماني بالنسبة للسكان (٣) دفع الرواتب للنواب كي يستطيع الفقراء ان يرشحوا انفسهم لعضوية البرلمان (٤) الغاء حق التملك لاعضاء البرلمان (٥) تطبيق التصويت السري (٦) الانتخابات السنوية للبرلمان .

وليم پت الاصغر :

لم يكن فوكس يستطيع دفع منهج اصلاحي برلماني كهذا لقلة انصاره في مجلس العموم . وقد وقع هذا الاجراء على عاتق وليم پت الاصغر William Pitt ١٨٩٩–١٨٠٦ ، ابن وليم پت الكبير المعروف بـ ايرل اوف چاتام The Earle of chattam كان پت الصغير قد درس الكلاسيك ، وبرع في الحوار ، ومرّن نفسه على الخطابة . وفي الحادي والعشرين من عمره كان رجلا بليغا وسياسيا حاذقا واثقا من نفسه على نحافة جسمه . وقد رشح نفسه للبرلمان واصبح نائبا عن حزب الهويگز ونال احترام المجلس مع انه كان اصغر الاعضاء سنا .

لقد تمكن وليم پت الاصغر ان يشكل حزبا جديدا للمحافظين التوري من الذين ارادوا اصلاح البرلمان والقضاء على الفساد . وكان نبله وحبه للاصلاح سببا لشعبيته وتعيينه رئيسا للوزراء من قبل الملك جورج الثالث . وقد نال اعجاب واحترام المحافظين القدماء ورجال الدين ايضا من مؤيدي الملك . وفي انتخابات ١٧٨٤ نال پت الاكثرية الساحقة واصبح يتمتع بالاكثرية في كلا مجلس البرلمان .

لقد اصبح الاصلاح قريبا بتخفيف تجارة العبيد وحرية الصحافة وقدمت لائحــة الى البرلمان تدعو الى الغاء المناطق الانتخابيــة القديمة التي اندثرت وتوزيع مقاعدها على المناطق الآهلة بالسكان . لكن قبل الانتهاء من هــذه الاصلاحات حــدثت الثــورة الفرنسـية وتأجلت الاصلاحات مدة نصف قرن تقريبا الى سنة ١٨٣٢[1] .

الرخاء الاقتصادي والتقدم الزراعي في انكلترا

لقــد كانت انگلترا في نهــاية القرن السابع عشر لا تزال بلدا زراعيا ، وقد اتبعت الحكومات المختلفة وعلى الاخص (التوري) ، وهم من اصحاب الاراضي ، سياسة زراعية . وكان البرلمــان الانگليزي قد فرض رسوما على الحبوب بغية حماية المحاصيل الانگليزية من المنافسة الاجنبية . وكانت الحكومــة في نفس الوقت تقدم منحــة لاصحاب الاراضي عن كل بشل من الحبــوب التي يصدرونها اذا كان ثمن البيع اقل من ستة شلنات للبشل الواحد . وقد استمرت هــذه السياسة في القرن الثامن عشر عنــدما سن البرلمــان سلسلة من القوانين الخاصــة بالحبوب وكان الغرض منها الاكثار من زراعــة الحبوب في انگلترا ، ورفع اسعار المواد الغذائية لاثراء اصحاب الاراضي الريفيــة . وساعد البرلمان اقطاب النبلاء في عملية تسييج الاراضي الزراعية ، وذلك بدمج المقاطعات الصــغيرة وتكوين مزارع كبيرة لاتمسهم وحرمان المزارعين الصغار من الاستفادة من الاراضي المشاعة .

---

(1) Lunt, W. E. op. cit; pp. 505-526; 541-563.

ولقد كانت نتيجة الحروب الاوربية التي شنها لويس الرابع عشر بين سنة ١٦٨٩-١٧١٤ ، ان حصلت انكلترا على مستعمرات كثيرة في امريكا الشمالية وجزر الهند الغربية ، فازدهرت تجارتها وعقدت معاهدة تجارية مع البرتغال عرفت بمعاهدة « ميثون » سنة ١٧٠٣ ، اصبحت البرتغال بموجبها حليفة انكلترا وتصدر اليها الخمور مقابل استيراد البضائع الانكليزية .

وقد اسست الحكومة الانكليزية بنك انكلترا سنة ١٦٩٤ واودع الشعب الانكليزي حوالي ١٫٢٠٠٫٠٠٠ باون استرليني في هذا البنك الذي اخذ يقرض الحكومة بربح قدره ٨٪ وهكذا بدأت الثروات تتكدس في انكلترا نتيجة للتوسع التجاري والاستعماري وبتجمع رؤوس الاموال في أيدي النبلاء اصحاب الاراضي الذين كانوا اعضاء بارزين في الشركات التجارية الضخمة ظهر نوع جديد للرأسمالية الزراعية والتجارية . واخذ هؤلاء يصرفون بسخاء على انفسهم ، ويستغلون ثرواتهم للتحسن الزراعي . وكانت الحاجة ماسة الى الاكثار من المحاصيل الزراعية بسبب الحروب التي اندلعت بين انكلترا وفرنسا في الربع الاخير من القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر . وكانت صناعة الاقمشة الصوفية قد نمت في البلاد وتوسعت التجارة الانكليزية وازداد عدد سفنها التجارية ، وصحب ذلك تزايد سريع في سكان انكلترا الامر الذي اقلق بال الكثيرين من الناس لايجاد وسيلة للاكثار من المواد الغذائية ومواد الخام . وما كان قانون الملاحة الذي سنه كرومويل وشارل الثاني ، وقانون الحبوب المار الذكر سوى تاكيد على حماية التجارة الانكليزية وحاصلاتها الزراعية من المنافسة

الاجنبية ومحاولة انتاج المحاصيل الزراعية بكثرة في انكلترا . ومما هو جدير بالذكر ان الاكثار من الانتاج الزراعي لم يكن امرا هينا لان ذلك كان يحتاج الى استخدام الاساليب العلمية في الزراعة فكان باستطاعه كل مزارع القيام بها في الوقت الذي لم تكن المكائن الزراعية الحديثة قد اخترعت ، ولا المعلومات العلميـة كانت موجودة في حقل الزراعة . كما ان (الامكانيات الماليـة) لم تكن متوفرة الا لدى كبـار الملاكين واقطاب الرأسمال . ولهـذا فليس من الغريب ان نجـد الذين قاموا بالثورة الزراعية هم الاغنياء اصحاب الاراضي والنبلاء الذين امتلكوا اراضي كثيرة .

الثـورة الزراعيـة :

ان اول من بدأ بالثـورة الزراعيـة واشهرهم هـو جيثرو تول ١٦٧٤ — ١٧٤٠ ، ابن احـد الملاكين في بركشاير في انكلتـرا . درس جيثرو القانون في لنـدن والكلاسيك في اوكسفورد ، وقام بسفرة في القارة الاوربية ولما رجع الى انكلترا استقر في مقاطعتـه ، وبذل جهدا عظيما في ازدياد محـاصيله الزراعية . وتنيجـة لتجاريبه الشخصية في الزراعة اخذ يفرق بين البذور الجيدة والرديئة . وبرهن على ان الزرع الخفيف ينشر بصورة متباعدة ، والحرث المستمر يساعدان على انتاج المحصول الجديد . وقد نبه عماله ان لا ينشروا البذور بشكل تراكم في مكان واحـد بل زرعهـا على شكل صفوف متراصـة متباعدة كي تستفيد من الضوء والهواء وتسهل عملية ازالة الاعشاب المضرة النامية في الزرع . ولما اعترض عماله على ذلك واشتكوا من الاعمال الاضافية

اخترع جيشرو آلة تحفر الارض وتضع البذور فيها بصورة اوتوماتيكية سريعة وبالشكل المرغوب • وهكذا تمكن جيشرو ان يكثر من محاصيله من (٦) بوشل (وزنة) للدونم الواحد الى (٢٤) بوشل للدونم • وقد نشر جيشرو معلوماته في كتاب سنة ١٧٣١ •

وفي الوقت نفسه قام فيسكونت تاونسيند ١٦٧٤ ــ ١٧٣٨ باستخدام اسلوب جيشرو في الزراعة الحديثة واضاف طريقة جديدة باستخدام الدورة الزراعية وذلك بزرع الحنطة والشعير واللوبيا والشلغم وغيرها بصورة متتالية في سنوات متعاقبة • وباستخدام هذه الدورة الزراعية التي تستغرق اربع سنوات ، واستخدام الاسمدة الممتازة استطاع تاونسيند ان ينتج ضعف ماينتجه المزارعون الآخرون.

اما روبرت باكويل ١٧٢٥ــ١٧٧٥ اضاف الى طريقتي جيشرو وتاونسيند طريقة اخرى هي تحسين الحيوانات ولا سيما الحيوانات الخاصة بانتاج الالبان والمستخدمة في الزراعة واهمها الابقار والاغنام والخيول • فكانت نتيجة تجاريبه ان ازداد ما كان يباع من اللحوم ثلاثة اضعاف بين ١٧١٠ــ١٧٩٥ • ولقد اخذ النبلاء والملوك يستخدمون الاساليب الجديدة في الزراعة وتحسين الحيوانات واهتم جورج الثاني ملك انكلترا بنشر كتاب جيشرو في الزراعة الجديدة واخذ الناس ينشرون هذه المعلومات الجديدة في انكلترا والقارة الاوربية • واشهر من قام بنشر المعلومات عن الزراعة الحديثة هو ارثر يونك ١٧٤١ ــ ١٨٢٠ ، الكاتب الانكليزي الذي كتب عن الزراعة وأحد اصحاب الاراضي في انكلترا • لم يستطع يونك ان يعيش بمورده الضئيل من اراضيه فأخذ يكتب عن الزراعة الحديثة في مجلته الشهرية

المسماة « احداث الزراعة » وتأثر بها جمع غفير من الناس في انكلترا وفي القارة الاوروبية وامريكا .

ولقد قام يونك بسفرات كثيرة في انكلترا واوربا يلقي المحاضرات فزار فرنسا وبروسيا وامريكا يحث الناس على تطبيق الاساليب الحديثة في الزراعة وكانت نتيجة استخدام الاساليب العلمية في الزراعة ان اصبحت المزارع في انگلترا فردية خاصة يمتلكها عدد من النبلاء الرأسماليين من الطبقة الارستقراطية ، واخذت المزارع الصغيرة تتقلص وتندمج بالمزارع الكبيرة عن طريق التسييج المار الذكر بحجة ان الاساليب الحديثة في الزراعة لا يمكن ان تكون ناجحة مؤدية الى اكثار المحاصيل الا في المقاطعات الواسعة ولما كانت هذه تكلف مبالغ كثيرة فما كان باستطاعة احد القيام بها غير الاغنياء من النبلاء والرأسماليين الذين بحكم سيطرتهم على البرلمان تمكنوا من تشريع القوانين اللازمة لحماية مزروعاتهم كقانون الملاحة وقانون الحبوب . ونتيجة للتقدم العلمي في حقل الزراعة كثر الانتاج الزراعي وازداد ايجار الاراضي الزراعية بالنسبة لاصحاب الاراضي ، كما ازداد دخل الزرع السنوي وارتفع اجور العمال الزراعيين في القرن الثامن عشر .



الفصل الحادي عشر

الصراع الاستعماري في القرنين السابع عشر والثامن عشر

الرواد الاوائل :

كانت اسبانيا والبرتغال هما الدولتان الاستعماريتان اللتان احتكرتا التجارة الشرقية والمستعمرات الامريكية منذ بدء الاستكشافات الجغرافية حتى نهاية القرن السادس عشر • ولم يستغل الانكليز والفرنسيين الرحلات الاستكشافية القليلة التي قاموا بها في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر مباشرة • ولما بدأت التجارة الشرقية والمستعمرات الامريكية تعطي ثمارها للبرتغاليين والاسبان ، اخذ الانكليز والفرنسيين والهولنديين يدركون اهمية التجارة والمستعمرات •

بدأت انكلترا حملاتها البحرية في عهد الملكة اليزابيث ١٥٥٨-١٦٠٣ ، وذلك عن طريق التهريب والقرصنة وتجارة العبيد • وكان احد اشهر هؤلاء هو جون هوكنز John Hawkins ١٥٣٢-١٥٩٥ ، الذي بدأ من مسقط رأسه في مدينة بليموث بتجارة الزنوج مع البرتغاليين الذين كانوا يصطادون الزنوج من غينيا في الساحل الافريقي الغربي وينقلونهم الى العالم الجديد ، ويبيعونهم الى المستعمرين الاسبان • بدأ هوكنز بحملته في الستينات وقدم حصة الملكة اليزابيث من الارباح ، واصبح ثريا الى درجة في السبعينات بحيث استقر

كرأسمالي كبير وأخذ يرسل حملات متعددة للاشتغال بتجارة العبيد ، ومهاجمة المستعمرات الاسبانيـة في امريكا ومقاتلة السفن الاسبانية المحملة بالذهب ونهبها عند عودتهـا من امريكا • وقام بتنظيم اسطول انكليزي تحت الاشراف الملكي ، وكأميرال لعب دورا مهمـا في صد السفن الاسبانية في حرب الارمادا • ومع ذلك كان هوكنز يعتبر نفسه من البيوريتان المتزمتين •

وفوّضت الملكة اليزابيث رسميا سير فرنسيس دريك Sir Francis Drake ١٥٤٥ ـ ١٥٩٥ احد ابناء عم جون هوكنز للقيام بالتهريب والقرصنة ، فحصل على الثروة والشهرة على حساب الاسبان وقام في ١٥٧٧ بسفرة بحرية حول العالم استغرقت ثلاث سنوات كانت ثانية سفرة بحرية حول الكرة الارضية بعد ماجلان • وكانت سفنه محملة بالبضائع والثروة التي نهبها دريك من الاسبان في طريقه • وكان نائب اميرال البحر في حرب الارمادا سنة ١٥٨٨ • ومن بين المغامرين الانكليز توماس كاڤيندش Cavendish ١٥٥٥ـ١٥٩٢ الذي قام بالرحلة الثالثة حول العـالم سنة ١٥٨٦ـ١٥٨٧ في سنتين وخمسين يوما • وقد نهب اينمـا حل ، ولما رجع كان بحـارته يلبسون الحرير • وقيل ان اشرعة سفنه كانت مكسوة بالحرير المزركشة بالذهب •

وكان سير همفري گيلبرت ١٥٣٩ـ١٥٨٣ ، ووالتر رايلي Walter Raleigh ١٥٥٢ـ١٦١٨ اشهر المغامرين الذين ذكرناهم • وقد ربح گيلبرت عن طريق القرصنة واشترك في حرب هولندة ضد

الاسبان ، لكن نال الشـهرة لانه اعتقد الوصول الى الصين والهند شمالا عن طريق البحر القطبي او الشمال الشرقي باعتبار ان هـذا الطريق اقصر الطرق المؤدية الى الهنـد من انكلترا • واتخذ هو وعدد من اصحابه الطريق الشمالي سنة (١٥٧٨ - ١٥٧٩) • ومع ان المحاولات باءت بالفشـل بسبب البحر المتجمد ، لكنهـا ساعدت على ازدياد المعلومات الجغرافية وسيطرة بريطانيـا على مصايد الاسماك في البحار الشمالية وخاصة صيد الحوت • ومن الناحية الثانيـة أسس گيلبرت مستعمرة سنت جون في نيوفوندلند New Foundland سنة ١٥٨٣ • ومع ان المستوطنة الاولى فشلت لكن استمرار استعمارها ادى الى تكوين امبراطورية استعمارية في كندا •

اما الشخص الثـاني والتر رايلي فكـان من المقربين الى الملكـة اليزابيث ، وحصـل على المال بالهجـوم على المستعمرات الامريكيـة والتجارة الاسبانية • وصرف هـذه المبالغ على مشاريعهـا بسخاء ، وشارك گيلبرت في تأسيس مستعمرة نيوفاندلاند ، وسمّاها مستعمرة فيرجينيا باسم الملكة اليزابيث البكر Virgin • واسس مسـتعمرة اخرى في جزيرة رونوك في نورث كارولاينا • ومع ان هـذه المستعمرة لم تدم لكن الموجات التالية من المهاجرين عمر المنطقة كلها •

كان هناك عدد لا يستهان به من المغامرين الاشـداء الذين عمروا الولايات المتحـدة الامريكية وكنـدا ، وربحوا من وراء مغـامراتهم الارباح الكثيرة دفعوا منهـا حصة الملكة ، وكلها باسـم البروتستانتية ضد الكثلكة •

لقد كانت انكلترا هي الدولة التي حطمت قيود الاحتكار الاسباني بمساعدة الهولنديين والفرنسيين وكل من سولت له نفسه مهاجمة الاحتكار الاسباني للتجارة والمستعمرات في عهد فيليب الثاني ٠ وانتشر البحارة الانكليز بعد حرب الارمادا ضد اسبانيا (١٥٨٨) في البحار والمحيطات ، وبدأوا بالتجارة مع الشرق والغرب وأسسوا الشركات واخذت الثروة تتدفق الى انكلترا وأثرى عدد كبير من الناس من الارستقراطيين والطبقة الوسطى والمغامرين ٠

وفي زمن جيمس الاول استمرت التجارة الانكليزية ، ولو ان القرصنة ومهاجمة السفن الاسبانية انقطعت بسبب سياسة جيمس السلمية اتجاه اسبانيا ٠ وتأسست الشركات التجارية وكانت اولى هذه الشركات هي شركة موسكوفي التي تأسست في زمن ماري تيودور للتجارة مع روسيا ، واستمرت تجارتها مع الروس في زمن الملكة اليزابيث وجيمس الاول الى ان انقطعت في عهد بطرس الكبير ٠

وقد تأسست شركة الهند الشرقية الانكليزية سنة ١٦٠٠ لاجل احتكار التجارة شرقي راس الرجاء الصالح ، لمدة (١٥) سنة ، مع الاقطار التي ليست تحت سيطرة الدول الاوربية ٠ وقد لاقت الشركة بعض النجاح في اول الامر ، ولكن بعد ان تجددت امتيازاتها سنة ١٦٠٩ ، وازدادت رؤوس اموالها باستمرار ، اصبحت مصدر القوة والثروة الانكليزية في الهند ٠ ومن مركزها في مدينة سورات على الساحل الغربي من شبه القارة الهندية تمكن الاسطول الانكليزي للشركة ان يطرد البرتغاليين من بعض المدن في الساحل الغربي ، واستولت على الميناء المهم من الساحل الشرقي المعروف بـ مزولي

نام . وفي سنة ١٦٢٢ استولى اسطول الشركة على جزيرة هرمز في المضيق المعروف بذلك الاسم في الخليج العربي وطردوا البرتغاليين . وبذلك وضعت اسس الامبراطورية التجارية الانكليزية في الهند وايران .

وفي عهد جيمس الاول هاجر البيوريتان المتزمتين الى امريكا سنة ١٦٠٧ واسسوا مدينة جيمس تاون ، وكذلك هاجر قسم آخر سنة ١٦٢٠، واسسوا مدينة بليموث في ساحل نيوانگلند ، وبدأ بعد ذلك سيل المهاجرة الانكليزية الى امريكا . وقد بحثنا ذلك في الفصل الخاص بالولايات المتحدة الامريكية .

كما ظهرت مستوطنات انكليزية في بوستن (١٦٣٠) ، وپروڤيدينس (١٦٣٦) وهارتفورد (في ١٦٣٦) ونيوهاڤن (في ١٦٣٨) وفي اقطار اخرى . وقد ازداد سكان فرجينيا واسس لورد بالتيمور مستوطنة ميري لاند سنة ١٦٣٤ . كما ان الانكليز استولوا على جزر سنت كريستوفر ، وباربادوس (١٦٢٥) ونيفيس (١٦٢٨) وآنتيگوا وموتيسيرات (سنة ١٦٣٢) من جزر الهند الغربية .

تعاظم التجارة والاستعمار الفرنسي :

بذلت فرنسا جهدها ايضا للقضاء على الاحتكار الاسباني التجاري والاستعماري . وكانت الرأسمالية قد تطورت في فرنسا كما كانت في انكلترا ، وكان الفرنسيون يتنافسون على التجارة والارباح بنفس الشدة . واصبحت المنافسة الاستعمارية عنيفة بين انكلترا وفرنسا في

القرنين السابع عشر والثامن عشر . لقد بدأ الفرنسيون بتأسيس مراكز لهم في امريكا في عهد لويس الثاني عشر وفرنسوا الاول . وكان اشهر المكتشفين الفرنسيين الاوائل هم فيرازانوا ، وكارتيير . وكان الادميرال كوليني قد شجع المغامرين الفرنسيين بالهجوم على السفن والمستعمرات الاسبانيـة والبرتغالية ونهبها وخاصـة في فلوريدا والبرازيل . وقـد استمرت المغامرات الاستعمارية الفرنسية في القرن السابع عشر في عهد هنري الرابـع ، وتمكن احدهم واسـمه سموئيل چاپلن ان يكتشف وادي نهر سنت لورنس ، واسس مدينـة كويبيك سنة ١٦٠٨ . وقبل منتصف القرن السابع عشر كان الفرنسيون قد استعمروا كندا وآكاديا (نوفاسكوشيا فيمابعد) ، واستغلوا تجارة الفرو والاسماك والاخشاب في امريكا الشمالية . كما ان الفرنسيين اشتركوا في المغامرات التجارية في الشرق الاقصى وتجارة العبيد في الساحل الافريقي الغربي .

التجارة الهولندية والاستعمار الهولندي :

كانت هولندة هي خليفة اسبانيا والبرتغال في التجارة والاستعمار بحلول منتصف القـرن السابع عشر . وكانت هولنـدة هي الدولـة المستفيدة من المستعمرات الاسبانية والتجـارة البرتغالية ، ولهذا كانت اغنى دولة في اوربا في عهـد الامبراطور شـارل الخامس . ولما شنت هولندة الحرب على فيليب الثاني واولاده واحفـاده كانت النتيجة هي المنتصرة . ومنذ ١٥٩٣ بدأت هولندة بتجارة العبيـد من ساحل غينيا في افريقيا الغربية . وفي ١٥٩٥ ، بدأت اول حملـة هولندية الى الهند وجزر الهند الشرقية التي كانت تسمى جزر البهـار . وفي سنة ١٦٠٢

انشئت شركة الهند الشرقية الهولندية بدمج شركات سابقة ، وطردوا البرتغاليين من سيلان وجاوة وسومطرا وجزر ملاقا (جزر البهار) . وكان للانتصار الذي احرزه الاسطول الهولندي في ملاقا ضد الاسطول البرتغالي الاسباني سنة ١٦٠٦ ، وانهزام بقية الاسطول الاسباني من جبل طارق امام الاسطول الهولندي سنة ١٦٠٧ ، الاثر الاكبر في تدهور اسبانيا والبرتغال وسيطرة هولندة على البحار والطرق التجارية . وقام جون كوين John Coen بادارة المناطق التي استولت عليها هولندة من المراكز التجارية وعقد المعاهدات مع رؤساء المناطق التي اسس فيها هذه المراكز . وشملت الاراضي شبه جزيرة مالايا ، وفورموزا ، وبورنيو ، وسيليبس ، وقسم من نيوگينا ، والساحل الغربي لاستراليا . واسس كوين Coen مدينة باتافيا في جزيرة جاوة كمركز لهذه الامبراطورية التجارية الاستعمارية سنة ١٦١٩ .

لقد حلت هولندة محل الدول الاوربية الكبرى في التجارة الشرقية وخاصة في الشرق الاقصى مع الصين واليابان والهند . وكان الملاح الهولندي آبيل تاسمان Abel Tasman ١٦٠٣–١٦٥٩ ، دار حول استراليا (١٦٤٢–١٦٤٣) واكتشف جزيرة تاسمانيا . كما اكتشف نيوزيلندة وجزر تونگا وفيجي . كما ان ملاح هولندي آخر استولى على جزيرة سنت هيلانة في ١٦٤٥ . وعندما دمرت العواصف السفن الهولندية قرب رأس الرجاء الصالح سنة ١٦٤٨ اسس الهولنديون بالقرب من مكان الحادثة بعد ذلك مدينة كابتون ومستعمرة افريقيا الجنوبية .

وفي نفس الوقت وضع الهولنديون اسس الاستعمار الهولندي في امريكا باستيلائهم على البرازيل سنة ١٦٢٤ ، واغتصبوا من الاسبان جزيرة توباگو وكراساو في جزر الهند الغربية ١٦٣٢–١٦٣٤ • كما استوطن بعض الهولنديين في وادي نهر هدسن المار الذكر ، واسسوا في مصب هذا النهر مدينة نيو امستردام (نيويورك) وعلى مسافة ١٥٠ ميلا شمالي هذه المدينة اسسوا حصنا باسم اورنج • وسموا المنطقة كلها نيو نيزرلاند (الاراضي المنخفضة الجديدة) • وبذلك حلت هولندة في منتصف القرن السابع عشر محل اسبانيا والبرتغال في التجارة والمستعمرات في آسيا وافريقيا وامريكا والمنافس الرئيس لكل من انكلترا وفرنسا • واصبحت الدول الاوروبية تحسد هولندة في رخائها ، كما اصبحت مدينة امستردام المركز الصيرفي العالمي •

الحرب التجارية بين انكلترا وهولندة :

ادى ثراء هولندة ومحاولتها احتكار التجارة والمستعمرات لنفسها دون غيرها من الدول ، وابعاد الاجانب عن كل ذلك الى نمو الكراهية ضدها ومحاولة الدول الاوربية الكبرى كسر الاحتكار الهولندي للتجارة والمستعمرات • وكانت فرنسا وانكلترا في مقدمة الدول • لقد ادى نمو الرأسمالية في كل من هولندة وانكلترا الى تفضيل المصالح الاقتصادية على بقية القضايا القومية • ونشبت سلسلة من الحروب بين البلدين في القرن السابع عشر • بدأت المنافسة على مصائد الاسماك في المحيط الاطلسي الشمالي وفي جزر الهند الغربية والساحل الافريقي الغربي على تجارة العبيد ، وعلى المراكز التجارية

في الهند . وكان لتأسيس مستعمرة الاراضي المنخفضة الجديدة (الى الجنوب من نيو اينگلند) تأثير عظيم في تهديد المستوطنات الانكليزيه في فرجينيا . وقد منعت شركة الهند الشرقيـة الهولندية مماثلتها شركة الهند الشرقية الانكليزية من القيام بأي عمـل تجاري مع جزر البهار (جزر الهنـد الشرقية) ، وفي سـنة ١٦٢٣ قام الاسـطول الهولندي بمذبحة امبويانا حيث قضى على جميع التجار الانكليز هناك .

وفي ١٦٥١ ، سنت حكومة اوليفر كرومويل قانون الملاحة مقتصرا التجـارة الانكليزية على السـفن الانكليزية ومنـع الهولنـديين من المتاجرة مباشرة مـع انكلترا . عندئذ بدأت سلسلة من الحـروب بين البلدين . وكانت هذه الحروب نشبت بين ١٦٥٢ــ١٦٥٤ وفيهـا تغلب الهولنديون بقيادة الاميرال دي رويتر De Ruyter وفان ترومب ، على الانكليـز ، لكن بعض النجـاح الذي احـرزه الانكليز جعل الهولنديون يتنـازلون عن مركز تجـاري لهم في جزر الهنـد الشرقية بموجب معاهدة ويستمنستر ١٦٥٤ . كمـا دفعت هولندة تعويضا عن مذابح آمبويانا للانكليز . ونتيجة لثورة في البـرازيل سنة ١٦٦٢ ضد هولندة تنازلت الاخيرة عن البرازيل للبرتغال وبقيت مستعمرة صغيرة لهولندة في امريكا الجنوبية سورينام في غينيا .

اما الحـرب الثانية بين انكلترا وهولنـدة فنشبت سـنة ١٦٦٥ واستمرت الى ١٦٦٧ وقد احرق دي رويتر السفن الانكليزية في مصب نهر التايمز وأرهب سكان لنـدن ، لكن النجاح في هـذه الحرب كان حليف الانكليـز الذين استولوا على مدينـة نيو امستردام وسموها نيويورك .

اما الحرب الثالثة ١٦٧٢–١٦٧٤ ، كانت نتيجة اعتداء لويس الرابع عشر على هولندة ، وكان شارل الثاني ملك انكلترا حليف لويس ، واعتقد ان هولندة لا تزال تشكل تهديدا خطيرا للتجارة الانكليزية . لكن البرلمان الانكليزي اقتنع ان هولندة لم تعد تهدد مصالح انكلترا بأي حال من الاحوال ، وان فرنسا هي العدوة الاولى في المستقبل . وعليه اتبع شارل الثاني واخيه جيمس من بعده سياسة متذبذبة بين هولندة وفرنسا . وخلال هذه المدة الى حين الثورة الجليلة اقتنعت انكلترا ان دور هولندا انتهى وان فرنسا هي الخصم الوحيد امام تعاظمها . وبدأ الصراع الانكليزي الفرنسي في ١٦٨٩ واستمر حتى القرن التاسع عشر .

الصراع الانكليزي الفرنسي

فرنسا في امريكا :

لا يستبعد قيام الفرنسيين بصيد الاسماك في سواحل كندا منذ اواخر القرن الخامس عشر . وقد بعث فرنسوا الاول ملك فرنسا فيرازانو الى امريكا في ١٥٢٤ ، كما ارسل ثلاث حملات اخرى بقيادة جاك كارتر خلال سنوات (١٥٣٤–١٥٤٢) . وقد بيّنا انه اكتشف وادي نهر سنت لورنس حتى مونتريات . ولما أسس سموئيل چاپلن مدينة كوبيك سنة ١٦٠٨ ، كان الانكليز قد اسسوا جيمس تاون في ڤرجينيا في السنة السابقة . وقد اكتشف چاپلن عددا من البحيرات وكوّن صداقة متينة مع الهنود الحمر ، لكنه عادى الايروكيز

Iroquies وبذلك جلب على نفسه نقمة هذه القبائل القوية من الهنود الحمر • ولما توفي چابلن سنة ١٦٣٥ ، كان الفرنسيون قد استولوا على مساحة من كندا اكبر من فرنسا بين وادي نهر سنت لورنس والبحيرات الكبرى سُمِّيت بفرنسا الجديدة •

وقد أسس الكاردينال رشيليو شركة مساهمة سنة ١٦٢٧ لاستثمار المناطق المحتلة باسم فرنسا الجديدة في امريكا • واصبحت هذه الشركة تحتكر تجارة الفرو والاراضي التي تشمل هذه التجارة • واشترطت حكومة رشيليو من الشركة اسكان (٤) آلاف فرنسي في فرنسا الجديدة خلال (١٥ سنة) واعاشتهم لمدة ثلاث سنوات بعد وصولهم الى امريكا • ولم تكن ارباح الشركة كافية للقيام بهذه المهمة • وفي سنة ١٦٣٧ كانت الشركة قد اسست مزرعتين فقط ، وكان الفرنسيون الآخرون عبارة عن موظفين وتجار الفرو والجنود والقسس• وقد استوطن بعض الفرنسيين البروتستانت في البرازيل وفي فلوريدا لكنهم ذابوا في سكان تلك المستوطنات • ولم يسمح للبروتستانتيين الفرنسيين بالمهاجرة الى امريكا ، والذين تمكنوا من الهجرة فضلوا جزر الكاريبي حيث عدد كبير من الفرنسيين على كندا •

وفي زمن لويس الرابع عشر اتبع كولبير سياسة جديدة • ففي ١٦٦٤ ، انهى حكم الشركة وجعل الادارة حكومية مباشرة من فرنسا • ففي سنة ١٦٧٢ عيَّن كولبير كومت دي فورتيناك حاكما عاما لادارة فرنسا الجديدة واستمر هذا الى سنة ١٦٩٨ باستثناء الفترة من ١٦٨٢–١٦٨٩ • وقد وسَّع فورتيناك رقعة فرنسا الجديدة غربا

وجنوبا • وفي سنة ١٦٧٣ نزل لويس جوليت وآخر في نهر مسيسبي
الى حد اركنسا • كما ان سوير دي لاسال اكتشف ولاية الينوي ، وفي
١٦٨٢ نزل في نهر المسيسبي واكتشف البقية الباقية من النهر ، واعتبر
وادي نهر المسيسبي فرنسيا دون ان يصل الى نيو اورلين وسماها
لويزيانا تثمينا باسم لويس الرابع عشر • وقد اغتيل في احدى
الحملات من قبل جماعته • وتأسست مستوطنة فرنسية على خليج
المكسيك سنة ١٦٩٩ • وهكذا ادعت فرنسا امبراطورية في امريكا تمتد
من مصب نهر سنت لورنس الى مصب نهر المسيسبي •

ولم يقتصر السكان الفرنسيين على وادي نهر سنت لورنس
وكندا بل قسم منهم سكن نيو اينگلند ، وكذلك في وادي نهر مسيسبي
وفي ١٧١٧ اسسوا مدينة نيو اورلين ، وقد اسسوا مدنا اخرى مثل
سنت لويس وديترويت •

الانكليز والفرنسيين في افريقيا :

كان الانگليز قد اسسوا مستعمرات لهم في ساحل الذهب وكامبيا
في افريقيا الغربية ، بينما الفرنسيون استوطنوا في مصب نهر السنغال
ومدغشقر في كورى • وكانت هذه المراكز الافريقية محطات لتجارة
العبيد ، والذهب والعاج وغيرها ولم تستعمر افريقيا تماما الا في القرن
التاسع عشر • ومن ذهب غينيا اشتق اسم الجنيه الانگليزي (گينيا)

الصراع الانگليزي الفرنسي في الهند

الهند في القرن السابع عشر :

كانت الهند اكثر الاقطار في العالم تجلب النظر الاوربي للتجارة ، ولهذا كانت غاية الدول الاوربية منذ اواخر العصور الوسطى الوصول الى الهند • وشبه القارة الهندية نصف اوربا من حيث المساحة ، وكانت نفوسها في القرن السابع عشر حوالي (٢٠٠) مليون نسمة • وكان الاوربيون يريدون الحصول على البضائع الهندية من القطن والكتان والنيلة والتوابل والعقاقير والحرير والاحجار الكريمة والمصنوعات الدقيقة •

كانت الهند تحكمها عائلة مغولية مسلمة منذ القرن السادس عشر وكان الامبراطور اكبر ١٥٥٥—١٦٠٥ ، اعظم اباطرة هذه العائلة ، وحّد الهند في زمانه واتبع سياسة التسامح بين العناصر والاديان وفسح المجال للتجارة • وحكم بعده اباطرة اقوياء ، تقدم الفن في زمانهم ، ومن ابرز آثارهم الفنية والمعمارية تاج محل الذي بني من الرخام الابيض بين ١٦٣٢—١٦٥٣ اجمل تحفة فنية في العالم تمثل الفن الاسلامي •

اما من الناحية الادارية فان اباطرة المغول المتأخرين حكموا من دلهي على المناطق الشاسعة والمقسمة الى الولايات المتعددة عن طريق الولاة الذين كانوا يسمونهم نواب • ولم تكن الادارة قوية ، واغلب الراجات كانوا نوعا ما مستقلين في اماراتهم • اما الاكثرية من الهندوس فكان ولائهم للامبراطور المغولي مشكوكا فيه ووجد الاوربيون نقطة

الضعف هـذه واستغلوها بحيث انهم فرضـوا انفسهم على الهنـود والاباطرة في القرن التالي •

كان البرتغاليون اول الاوربيين الذين اسسوا مراكز تجـارية في الهند منذ عهد فاسكو ديكاما ١٤٩٨ • وقد تغلب عليهم الهولنديون في نهاية القرن السادس عشـر وحلوا محلهم في اوائل القرن التالي • وفي هذا الوقت بالذات اخذ الانكليز يقومون برحلاتهم الى الهند وجنوبي شرقي آسيا • وتأسست اولى المحطات الانكليزية التجارية في مزولي باتام سنة ١٦١١ ، وفي سورات سنة ١٦١٢ • وكان اسطول شركة الهند الشرقية الانكليزية قد اشتبك عدة مرات في قتال مع البرتغاليين ، وفي ١٦٢٢ طُرد البرتغاليون من جزيرة هرمز في مدخـل الخليج العربي • وفي ١٦٨٩ حصل الانكليز على ثلاث مراكز رئيسية للتجارة في الهند • اولهما : كلكتا في مصب نهر الغانج على خليـج بنغال والتي بنيت سنة ١٧٨٦ ، لكن لم يكن مؤكدا فيما اذا يتمكن الانكليز المحافظـة عليها ضـد الامبراطور المغولي • ثانيهمـا اسس سير فرانس دهي Day حصن سـنت جورج سنة ١٦٤٠ الى الجنـوب من مدراس • ثالثهما حصلت بريطانيا على مدينة بومباي في الساحل الغربي من الهنـد سنة ١٦٦٢ ، وذلك كمهـر من بنت ملك البرتغال التي تزوجت من شـارل الثاني ملك انگلترا • واخذت هذه المدينـة تتفوق على مدينة مدراس كمركز تجاري •

الفرنسيون في الهند :

كانت الحكومة الفرنسية قد اسست شركة الهند الشرقية الفرنسية سنة ١٦٠٤ في زمن الملك هنري الرابع ، لكن المركز التجاري الفرنسي لم يتأسس في سرات الا في سنة ١٦٦٨ . ولم ينافس الفرنسيون الهولنديين والانكليز في الهند حتى نهاية القرن السابع عشر . الا ان مراكزهم التجارية في شاندرناغار (١٦٧٢) بالقرب من كلكتا ، ومركزهم الآخر التجاري على بعد مئة ميل من مدراس كانت في خطر عظيمين وكدّرت العلاقات بين انكلترا وفرنسا في الهند .

توتر العلاقات بين الانكليز والفرنسيين في المستعمرات :

يتبين مما سبق ان فرنسا ولو انها دخلت في سباق الاستعمار ببطء ، لكنها اصبحت دولة منافسة قوية وخصم عنيد لبريطانيا . وكان على الدولتين اثبات وجودهما لا عن طريق الاسبقية في بناء المراكز التجارية والحصون بل في ساحة القتال . وقد تبين ان فرنسا التي كانت اغنى واكثر نفوسا من انكلترا واقوى في الساحة الاوربية اضعف الدولتين في بناء امبراطورية عالمية . ويرجع السبب في ذلك الى ان انكلترا اهتمت بتقوية اسطولها بصورة مستمرة ، بينما فرنسا توغلت في السياسة والحروب الاوروبية على الرغم من بعض اهتمامات الكردينال رشيليو ببناء الاسطول الفرنسي . وترك لويس الرابع عشر مسألة بناء الاسطول نتيجة حروبه الاوربية الكثيرة . بينما الانكليز بحكم موقعهم الجغرافي في وسط البحر وانعزاليتهم عن القارة الاوروبية ، اهتموا بالقوة البحرية وبناء الاسطول بصورة متزايدة منذ

حرب الارمادا ضد اسبانيا سنة ١٥٨٨ • وقد تمكن الاميرال الانكليزي روبرت بليك Robert Blake • ان يحرز انتصارات بحرية فائقة على الهولنديين • كما ان قانون الملاحة لسنة ١٦٥١ــ١٦٦٠ بمنعه المتاجرة بين انكلترا ومستعمراتها بالسفن الاجنبية ، جلب ارباحا طائلة وثروة عظيمة الى اصحاب السفن الانكليزية • وكانت الدول الاوروبية تخشى مجابهة الاسطول الانكليزي في عرض البحار ، ولذا فان الصناعة والتجارة الانكليزية التي نمت تحت رعاية آل تيودور وآل ستيوارت ولدت طبقة غنية من اصحاب المال والثروة قوية الى درجة انها حصلت على حقوق وامتيازات من البرلمان الانكليزي •

وعلى النقيض من الانكليز فان الفرنسيين كان لهم مشاكلهم الخاصة ، بسبب الرسوم والضرائب الكثيرة المفروضة بين المقاطعات الفرنسية التي ادت الى اعاقة التجارة الفرنسية ، وكانت النقابات الباقية منذ العصور الوسطى اعاقت نمو التجارة والرأسمالية التي لا تعيش الا على الارباح • وكانت الحروب الدينية والاهلية التي استنزفت الطبقة العاملة وهددت ممتلكات وارواح الطبقة التجارية ، دمرت التجارة الفرنسية وانزلتها الى الحضيض قبل حلول عام ١٦٠٠ • وقد انتعشت فرنسا في عهد هنري الرابع ودب النشاط الاقتصادي حيوية جديدة تمثلت في الازدهار والرخاء الذي انتشر في فرنسا في العقد الاول من القرن السابع عشر ، لكن تزايد السلطة الملكية جعلت من الصعب للتجار البروتستانتيين في فرنسا الحصول على السلطة السياسية اسوة بانكلترا ، وعليه لم تستطع الطبقة التجارية الفرنسية منع لويس الرابع عشر من تدمير بلدهم فرنسا بانغماسه في حروب

مدمرة . ومع ان كولبير بسياسته الحكيمه تمكن من تشجيع الصناعه والتجارة وخاصة الحرير ووضع القوانين الضرورية لتحسين الصناعة والكفاءة الادارية ، وفرض الضرائب على المستوردات التي تنافس السلع الوطنية ، لكن الصناعة الفرنسية لم تستطع منافسة الصناعة الانكليزية ولا بلغت مستواها . ومع ان كولبير كان يلام في سياسته بفرض الضرائب على المستوردات ، وعلى اعاقة التجارة ، لكن الحقيقة ان حروب لويس الرابع عشر ورشيليو والضرائب الكثيرة لتمويلها ادت الى نفاد المال والارواح وتدهور فرنسا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

كانت السياسة الاستعمارية الفرنسية بصورة عامة اشد من السياسة الانكليزية . وتمكن الفرنسيون أن يسيطروا على فرنسا الجديدة في امريكا وازداد المهاجرون اليها بنسبة ٣٠٠٪ في مدى عشرين سنة في زمن كولبير . كما ان الفرنسيين في كل من امريكا والهند تمكنوا من نيل صداقة السكان الاصليين ، بينما كان الانكليز في حرب متواصلة مع الهنود الحمر . لكن الفرنسيين من ناحية اخرى منعوا مهاجرة البروتستانتيين الفرنسيين الى مستعمراتها في الوقت الذي هاجر الانكليز بمختلف مذاهبهم الى المستعمرات الانكليزية وساعدوا انكلترا في حروبها ضد الاعداء .

التحالف الانكليزي الهولندي ضد فرنسا :

لم يكن الوضع ملائما لتصادم بريطانيا وفرنسا طالما كان آل ستيوارت يحكمون انكلترا وهم ميالين الى الكثلكة وصداقة لويس

الرابع عشر . لكن الوضع قد تغير بعد الثورة الجليلة حيث فرض البرلمان الانكليزي نفسه على البلاد ، وارتقى وليم الثالث العرش الانكليزي . وكان هذا بروتستانتيا واميرا على هولندة ومن ألد اعداء لويس الرابع عشر وهذا معناه تحالف الدولتين ضد فرنسا .

حرب الملك وليم :

سرعان ما ارتقى وليم اورنج العرش الانكليزي حتى اشتعلت حرب عصبة اكسبرك التي ذكرناها في موضوع حروب لويس الرابع عشر والتي استمرت من ١٦٨٩ الى ١٦٩٧ . وفي هذه الحرب تغلب وليم على جيمس الثاني وحلفاءه الفرنسيين والارلنديين في معركة بوين (١٦٩٠) كما ان اسطوله على الرغم من اندحاره في رأس بيچي هيد Beachy Head سنة ١٦٩٠ ، تمكن (الاسطول الانكليزي) وحده ان يدمر الاسطول الفرنسي في معركة بحرية دامت ثلاثة ايام بالقرب من لاهاي سنة ١٦٩٢ .

وكانت هذه الحرب في المستعمرات الامريكية تسمى بحرب الملك وليم . وكان الانكليز في المستوطنات الامريكية قد استولوا على بورت رويال وكويبك في كندا . بينما احرق الفرنسيون بعض الاماكن في نيوهامشر ونيويورك . لكن بموجب معاهدة ريزويك ١٦٦٧ استرجعت فرنسا هذه الاراضي . وقد بحثنا ذلك في حينه .

حرب الملكة آن :

وعرفت حرب الوراثة الاسبانية التي اندلعت بين انكلترا وحلفائها وفرنسا ١٧٠٢–١٧١٣ بحرب الملكة آن في المستعمرات

الامريكية . وقد دمر الهنود الحمر قرى نيو اينگلند بينما استولى الانگليزعلى بورترويال وكويبيك . وقد بحثنا ذلك في موضوع الولايات المتحدة وحروب لويس الرابع عشر . كما بحثنا الحروب التالية التي حدثت في زمن الملك جورج الثاني المعروفة بحرب الملك جورج . وكانت فرنسا مع خسارتها في الحرب كانت لا تزال محتفظة بكثير من مستعمراتها في امريكا والهند .

انتصار انكلترا على فرنسا :

كان الصراع الانگليزي الفرنسي عنيفا في امريكا وفي البحار والهند . ففي امريكا كانت فرنسا لا تزال تحتفظ بعد معاهدة اتريخت بوادي نهر سنت لورنس وجزيرة كپ بريتون ، وامتيازات في مصائد الاسماك في نيوفاوندلاند ، وحرية التجارة في جزر الهند الغربية ، وكذلك احتلال وادي نهر المسيسبي . وقد بنت فرنسا قلاعا كثيرة لحماية الممتلكات الفرنسية من بحيرة چاپلن الى نياگرا ، وسنت ماري وبحيرة وينبيك ، ونهر واباش والينوي وعلى طول نهر المسيسبي الى خليج المكسيك . واستوطن الفرنسيون في موبيل ١٧٠٦ ونيو اورلين ١٧١٨ وادعت فرنسا ان وادي نهر مسيسبي ملكها .

وفي الهند اخذ الحاكم العام الفرنسي دوبلي Dupleix المعيّن سنة ١٧٤١ ، يتقرب من امراء الهنود وأسس جيشا مدربا من السيبوي (الهنود) وبنى حصونا ، وحصّن مركز مدينته بوند شيري مقره العام . وقلّد امراء الهنود في المظهر .

وخلال الحرب التي نشبت في عهد جورج الثاني لم يحدث تغير حاسم في سيطرة الدولتين على مستعمراتهما . علما بان انكلترا احتفظت بنوفاسكوشيا ونيوفوندلند وخليج هدسن بموجب معاهدة اتريخت .

والمسألة التي يجب ان تحسم بين انكلترا وفرنسا هي هل تبقى فرنسا مسيطرة على وادي نهر مسيسبي ، وتبقى انكلترا محصورة على الساحل الشرقي في امريكا ؟ وهل تبقى فرنسا متنفذة في الهند وتؤسس امبراطورية هندية ؟ وكانت حرب السبع سنوات هي التي حلت هذه المشاكل . وكانت هذه الحرب بالنسبة للمستعمرات قد استغرقت تسع سنوات من ١٧٥٤ الى ١٧٦٣ . وقد خسرت فرنسا في هذه الحرب كل مستعمراتها تقريبا . فانهزم جيشها في اوربا امام جيش فردريك الكبير ، وقضى الانكليز على القوة البحرية الفرنسية واستولوا على اغلب مستعمراتها في جزر الهند الغربية ، وانهارت التجارة الفرنسية . وفي الهند تمكن كلايف ان يحطم مخططات دوبليي . وفي امريكا انتهت مطامح فرنسا .

وقد تمكن الانكليز بعد نكسات وانهزام في ١٧٥٦ ، ان ينالوا انتصارات عظيمة في امريكا بعد ان جاء وليم پت الى الوزارة سنة ١٧٥٧ . واستولت القوات الانكليزية على الحصون الفرنسية كما استولى جنرال ولف على كويبك ومونتريال سنة ١٧٥٩-١٧٦٠ ، واستولت انكلترا على فرنسا الجديدة . وقد بحثنا التفاصيل في موضوع الولايات المتحدة .

اما في الهند فقد تدهورت الامبراطورية المغولية في القرن الثامن عشر ، واصبح حكام الولايات مستقلين وخاصة حكام ديكن ، وبنغال واوذ Oudh . وكان دوپليي قد تحالف مع اغلب الحكام وتمكن في ١٧٥٠ ان يتغلب على حاكم « نواب » ساحل كارناتك Carnatic . لكن روبرت كلايف احبط مساعي دوپليي . وكان هذا موظفا يشتغل في الشركة الهندية الانكليزية في مدراس . وقد انخرط في الجيش بين سنة ١٧٤٠ــ١٧٤٨ وبيّن كفاءة عظيمة في الحرب . وقد رجع بعد الحرب الى ممنته الاولى . وقد تمكن ان يطرد الفرنسيين والهنود الموالين لهم من كارناتيك الامر الذي اجبر الحكومة الفرنسية ان تستدعي دوپلي سنة ١٧٥٤ الى فرنسا . واصبح كلايف سيد المنطقة .

اما في البنغال فكان احد النواب باسم سراج الدولة قد استولى على كلكتا سنة ١٧٥٦ ، وسجن (١٤٦) انگليزيا لم ينج منهم سوى ٢٢ ، فتوجه كلايف من مدراس الى كلكتا لمعاقبة سراج الدولة ، واستولى على شاندر ناغار التي كانت تحت سيطرة فرنسا . وبعد معركة دامية مع سراج الدولة في سهل پلاس Plassey سنة ١٧٥٧ احرز كلايف انتصارا باهرا . وحصل على مليون ونصف المليون باون استرليني من مرشحه مير جعفر الذي حل محل سراج الدولة . واصبح الانكليز مسيطرين على البنغال . كما استولى الانكليز مرة اخرى على مسالي باتام سنة ١٧٥٨ ، وكذلك على بوندشيري سنة ١٧٦١ . وهكذا تمت السيطرة الانكليزية على الساحل الشرقي من الهند . لقد اثبت

سقوط مونتريال في ١٧٥٩ ، وكويبيك في ١٧٦٠ وبوندشيري في ١٧٦١ نهاية الاستعمار الفرنسي . لكن الحرب استمرت حتى عام ١٧٦٣ وانتهت بصلح باريس في تلك السنة . وقد خسرت فرنسا كندا ووادي نهر سنت لورنس وكل الاراضي شرق نهر مسيسبي وجزيرة كرانادا في البحر الكاريبي . ولم تبق بيد فرنسا سوى بعض الجزر وجزء من غيانا في امريكا الجنوبية . وحصلت بريطانيا من اسبانيا شبه جزيرة فلوريدا . ولم تخسر اسبانيا بل عوضت عن ذلك بحصولها على لويزيانا غربي نهر المسيسبي . وسمح للفرنسيين بالتجارة من مراكزها القديمة في الهند دون استعمارها . واسترجعت اسبانيا كوبا وفيلبين .

وهكذا انتهت الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية في القرن الثامن عشر ، وحلت بريطانيا محلها في امريكا والهند وفي البحار . ولم تبق سوى جزيرتين بيد فرنسا في نيوفوندلند .

الهند البريطانية

ظهرت بريطانيا كدولة استعمارية كبرى في ١٧٦٣ بتغلبها على فرنسا وتجريدها من مستعمراتها . فكانت تملك امريكا شرقي نهر المسيسبي وكندا والهند ومراكز تجارية في جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) واغلب جزر الهند الغربية والساحل الغربي من افريقيا . وكانت التجارة الانكليزية مزدهرة اكثر من اية دولة اخرى . وتوسعت بريطانيا في الهند في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . كانت شركة الهند الشرقية الانكليزية الى منتصف القرن تؤسس مراكز تجارية

وتحصنها وتقوم بالتجارة • لكن بعد ١٧٦٣ تغير الوضع واصبح الموظفون الانگليز يتدخلون في شؤون الهند السياسية اضافة الى مهمتهم الرئيسية التجارة والحصول على الارباح • وبمرور الزمن وقع اغلب امراء الهند تحت سيطرة بريطانيا وقد تعلم كلايف هذا الدرس من خصمه الفرنسي دپلي Dupleix • ولم يبق للانگليز منافس في التجارة في المستعمرات • وانهت حرب السبع سنوات الخصومات وتمت سيادة بريطانيا الاستعمارية والبحرية ، وأسست شركة الهند الشرقية الانگليزيه امبراطورية سياسية واقتصادية في الهند لكن مع ذلك كانت الاراضي التي تملكها بريطانيا في الهند قليلة تشمل كلكتا وديلتا نهر الكنج (البنغال) في الشمال الشرقي ، ومدراس وبعض الاراضي في الساحل الشرقي الجنوبي ، وبومباي المحصنة على الساحل الغربي • لكن الفوضى والاوضاع السيئة التي ادت الى الاستعمار الغربي والسيطرة الاجنبية كانت مستمرة في الهند في العهد الانگليزي• وقد استغل الانگليز هذا الوضع المتدهور للتوسع وامتلاك الاراضي وضمان الرخاء الاقتصادي في بريطانيا نفسها •

كان امراء الولايات في حروب مستمرة فيما بينهم منذ انحلال الامبراطورية المغولية في الهند في اوائل القرن الثامن عشر • واعمال دوپلي وحرب الوراثة النمساوية وحرب السبع سنوات اضافت الوقود في النار • فلما انتهت الحروب وتمت السيطرة البريطانية على الهند وجدت الاخيرة ان امراء المهراتا في وسط الهند وغربها كوّنوا اتحادا كونفدراليا مهددين الامبراطورية المغولية المتدهورة ومهددين المستوطنات الانگليزية في الهند على الساحل •

وكان كلايف باني الامبراطورية البريطانية في الهند قد وضع سياسة لتوسيع الامبراطورية والمحافظة عليها .

ففي سنة ١٧٦٥ ، رجع كلايف الى انكلترا ، ومنح لقب اللورد وعيِّن حاكما عاما في الهند . فلما عاد الى كلكتا اخذ يساعد الامبراطور المغولي ضد امراء الولايات ، وساعد اولئك الامراء الذين يؤيدون الامبراطور . وكانت غايته اعادة سيطرة الحكومة المركزية على الهند والمحافظة على الامن والاستقرار الذي كانت التجارة البريطانية بأمس الحاجة اليها ، وعقد مع الامبراطور المغولي معاهدات وأخذ منه امتيازات لنفسه وللشركة الانكليزية . ووجد انه باعادة الاستقرار الى البلاد يستطيع ان يفرض الضرائب ويجمعها بواسطة الموظفين البريطانيين دون الهنود ، وأسس جيشا نظاميا بقيادة الضباط البريطانيين وعلى رأسهم كلايف نفسه . وهكذا اصبحت مقاطعة البنغال تحت الحكم الانكليزي . ومن هناك سيطر على مقاطعة بهار في اعالي نهر الكنج ، وسركار على الساحل الشرقي وفي هذه المقاطعات طبّق نفس السياسة وربط امراء الولايات بمعاهدات مع بريطانيا . ولما رجع كلايف الى انكلترا سنة ١٧٦٧ ترك امبراطورية بريطانية راسخة في الهند . وقد اتهمه بعض الموظفين في الهند بأخذ الرشوة والمنافع لنفسه ، وتحت ضغط المحاكمة البرلمانية اختل عقله وانتحر عام ١٧٧٤ .

عيّنت الحكومة الانكليزية ويرن هستنك Warren Hasting خلفا لروبرت كلايف . دخل هستنك خدمة شركة الهند الشرقية الانكليزية في السابع عشر من عمره . وخلال عشرين سنة من خدمته

الوظيفية في الهند حصل على تجاريب وخبرات كثيرة في السياسة الهندية ونفسيات الهنود • وقد عيّنته الحكومة الانكليزية حاكما لولاية البنغال سنة ١٧٧٢ ، وفي ١٧٧٤ عُيّن حاكما عاما على جميع الممتلكات الانكليزية في الهند • ولاول مرة اتحدت الممتلكات الانكليزية الثلاثة ، البنغال ، مدراس ، وبومباي ، تحت ادارة حاكم عام واصدر بموجب قانون سنّه البرلمان الانكليزي سنة ١٧٧٣ ، والذي نص ايضا على ان جميع موظفي شركة الهند الشرقية الانكليزية يجب ان يوافق الملك على تعيينهم • وهذا يعني ان الهند اصبحت جزءا اساسيا من الامبراطورية البريطانية • وفي ١٧٨٥ سن البرلمان الانكليزي قانونا بموجبه تأسست دائرة حكومية في لندن للاشراف على ادارة وفعاليات شركة الهند الشرقية الانكليزية •

بقي هستنگ حاكما عاما الى سنة ١٧٨٥ ، وشن حربا ضد اتحاد امراء مهراتا بين ١٧٧٤ و١٧٨٢ وبمساعدة بعض الامراء الموالين لبريطانيا تغلب على امراء مهراتا في شمال الهند • كما تمكن من الدفاع عن بومباي وصد هجمات المهراتا عليها • وتغلب ايضا على حيدر علي الذي اراد تأسيس سلطنة لنفسه في ولاية ميسور الجنوبية التي كانت في اتحاد مع امراء مهراتا • واخيرا اضطر امراء مهراتا ان يعقدوا صلحا مع هستنگ بتسليم مدينة سالسيت بالقرب من بومباي الى الانكليز • كما اصبحت مدينة بنارس المقدسة على نهر الكنج تحت السيطرة البريطانية •

تمكن هستنگ من تأسيس ادارة مركزية بريطانية قوية في الهند واصلح الجهاز المالي وأسس نظاما للشرطة ، كما حوّل الادارة

العسكرية الى ادارة مدنية قوية مستقرة • وحصل من وراء اعماله على فوائد مالية لنفسه وللشركة الانكليزية • واخيرا استدعي هستنك الى لندن لمواجهة التهم الموجهة اليه عن ادارته في الهند • وكان خصمه العنيد هو الكاتب والرجل السياسي ادمندبرك • لكن البرلمان اصبح متعاطفا مع هستنك الذي كان من الذين رسخوا دعائم الامبراطورية البريطانية في الهند •

وقد حكم الهند ، بعد هستنك ، اثنان آخران ، احدهما كورنوالس ١٧٨٦–١٧٩٣ ، الذي كان قائد الانكليز في الحرب بين انكلترا والثوار الامريكان ، واستسلم الى الثوار • والشخص الثاني هو مركيز ولزلي ١٧٩٨–١٨٠٥ • وفي حكم هذين الشخصين قضي نهائيا على مقاومة امراء مهراتا ، وتوسعت الممتلكات الانكليزية في الهند • ففي الشرق سيطرت بريطانيا على اوريسا Orissa وگونتور Guntur وفي الجنوب ترافينكور Travancour ، والكارناتك Carnatic وقسم كبير من ولاية المايسور ، وفي الساحل الغربي سيطرت على ساحل مالابار Malabar وبروج Broach وفي الشمال اصبح امراء ولاية اوظ Oudh موالين لبريطانيا • وفي سنة ١٨٠٣ ، استولت بريطانيا على دلهي Delhi العاصمة ولم يبق للامبراطور المغولي سوى الرمز • ولما رجع ولزلي الى انكلترا سنة ١٨٠٥ ، كانت بريطانيا مسيطرة على امبراطورية واسعة في الهند ، واغلب امراء الولايات الهندية يقبضون الرواتب من الانكليز

ويخشونهم . وكانت سطوة بريطانيا متساوية لثروتها ورخائها الاقتصادي .

التوسع الانكليزي خارج الهند :

توسعت بريطانيا خارج الهند ايضا . فقد سيطرت على مضيق مالاقا ، الطريق المائي المؤدي الى الشرق الاقصى ، فاستولت الشركة الانكليزية على بنكگ Peneng سنة ١٧٨٥ ، وعلى المضيق الذي كان تحت حكم الهولنديين سنة ١٧٩٥ ، وفي نفس الوقت اغتصبت بريطانيا جزيرة سيلان من هولندة . وأسست انكلترا مستعمرة سيراليون سنة ١٧٨٧ على الساحل الافريقي الغربي بحجة ملجأ للعبيد المحررين كما استولت بريطانيا على مجموعة من الجزر في الساحل الافريقي الشرقي (١٧٩٤) . واغتصبت افريقيا الجنوبية وكپ تاون من الهولنديين سنة ١٧٩٥ . واصبحت جنوب افريقيا من الدومنيونات البريطانية الكبيرة فيما بعد .

اكتشاف استراليا

منذ القرن السادس عشر كانت هناك شائعات بين البحارة والمستكشفين بوجود قارة في المحيط الجنوبي . وفي مطلع القرن السابع عشر اقترب ملاح برتغالي اسمه دي كيروز Det Quiros من استراليا . وبعد ذلك بقليل اكتشف بعض الملاحين الهولنديين الساحل الغربي من استراليا وسموها هولندة الجديدة وقدموا تقريرا

عن عدم جدواهـا . وفي سنة ١٦٤٢ ، اكتشف مـلاح هولندي باسم
تاسـمان Tasman الساحل الجنوبي والجنوب الشرقي وسميت
الجزيرة الصغيرة في جنوب القـارة باسمه . وقام المغـامر الانكليزي
وليم دامبير سنة ١٦٨٨ ، في دورانه حـول الارض باكتشاف هولنـدة
الجديدة ، وكتب عن ذلك ، ومع ان الحكومـة الانكليزية اوفدته بعد
عشر سنوات لمسح المنطقة ، لكن البعثة لم تجد نفعا .

وبقيت استراليـا غامضة ، ولو معـروفة لدى كل من الهولنديين
والانكليز في القـرن السابع عشر . ولم يحتـل الاوربيون القـارة
الاسترالية الا في القرن الثامن عشر بعد زيارة كبتن جيمس كوك المثيرة
في النصف الثاني من ذلك القرن . وكان جيمس كوك James Cook
١٧٢٨-١٧٧٩ ، ابن عامل زراعي في مقاطعـة يوركشاير في انكلترا ،
اشتغل في صغره عند صاحب مصنع للسفن ، وتعلم كثيرا عن الملاحة في
البحار عن طريق سفراته البحرية الى النرويج وبحر البلطيق . وفي سن
(٢٧) دخل الاسطول الملكي البريطاني ، واشترك في المعـارك البحرية
ضد الفرنسيين في المياه الامريكية في حرب السبع سنوات . وكمساح
بحري لمسـح نيوفوندلند خدم اربـع سنوات ، ثم ارسلته الحكومة
الانكليزية للقيـام باستكشافات جغرافية في البحـار الجنوبية . وقام
بثلاث رحلات مهمة ، وأظهر كفاءة قيادية في استكشافاته . وكانت دقة
ملاحظاته ووصف رحلاته واكتشافاته جعلته من بين المستكشفين العظام
في التاريخ واعتبره الشعب الانكليزي احـد عظماء المستعمرين الذين
شيدوا الامبراطورية البريطانية .

لقد زار كپتن كوك جـزيرة تاهيتي Tahiti ١٧٦٩ ـ ١٧٧٠ ودار حول نيوزيلندة ورسم خريطتها كما قام بمسـح الساحل الشرقي لاستراليا وسماها نيو سوث ويلز ، وويلز الجنوبيـة الجديدة ، ونزل في المكـان الذي بنيت فيه مدينة سـدني فيما بعـد واعتبرهـا ملكا لبريطانيا بشكل رسمي • وفي رحلته الثانية ١٧٧٢ـ١٧٧٥ زار استراليا مرة اخرى ونيوزيلنـدة واكتشف نيوكاليدونيا ودار حـول السـاحل الجنوبي من استراليا وافريقيا وامريكا الجنوبية ، وبيَّن للعالم ان ليس هناك قارة كبيرة في النصف الجنوبي من الكرة الارضية سوى هولندة الجديدة التي سماهـا كپتن كوك ويلز الجـديدة وهي صغيرة بالنسبة للقارات الكبرى في النصف الشمالي من الكرة الارضـية • و في رحلته الثالثـة ١٧٧٦ـ١٧٧٩ ، اكتشـف كوك مرة اخرى جـزر هواي التي اكتشفها الاسبان في القرن السادس عشر لكنهـا فُقِدَت بعد ذلك ، وسماها جزر سندويج ، باسم وزير البحرية الانگليزي في ذلك الوقت • وبعد رحلة لمضيق بهرنك رجع كوك الى هواي حيث قتل في مناوشات مع سكان الجزيرة •

لم تعترف الحكومة الانگليزية ابدا بكپتن جيمس كوك كرحالة ومكتشف وعالم جغرافي قدم خدمات كثيرة ومعلومات عظيمة للبشرية ، وكأحد مؤسسي الامبراطورية البريطانيـة • لكن الحكومة البريطانية استغلت استكشافات كپتن كوك بمهارة وسرعة فائقـة • ففي سنة ١٧٨٦ اصبح النصف الشرقي من استراليـا مقاطعة نيو ساوث ويلز ، وفي ١٧٨٨ ، استوطن الانگليـز في مقاطعة بوتني بي وميـنـاء جاكسن موضع مدينة سدني الحالية • وكان المستوطنون الاوائل من المجرمين

الذين نقلتهم الحكومة الانكليزية من سجون انكلترا • واختلط معهم مهاجرون احرار من انكلترا فعمّروا المنطقة • وبمرور الزمن وخلال النصف الاول من القرن التاسع عشر انقسم القسم الشرقي والجنوبي الى مقاطعات متعددة وبنيت فيها المدن وكثر فيها السكان من المهاجرين ، واستغلت استراليا تدريجيا •

وعلى اي حال فان بريطانيا اصبحت امبراطورية عظيمة في نهاية القرن الثامن عشر ، وعوّضت عن خسارتها في امريكا باستحواذها على الهند واستراليا وافريقيا الجنوبية وغيرها من الاقطار ، وفاقت بقية الدول الاستعمارية • واصبحت الامبراطورية البريطانية اوسع واغنى امبراطورية عرفها التاريخ ، واصبحت اللغة الانكليزية لغة مئات الملايين من الناس كما انتشرت الحضارة الاوروبية عن طريق انكلترا في المستعمرات البريطانية ، وسيطرت بريطانيا على البحار كافة • وازدهرت التجارة البريطانية وتدفقت الثروة الى انكلترا وانتقلت اسواق المال والتجارة من امستردام الى لندن كمركز للصيرفة العالمية • واصبح البنك الانكليزي المؤسس سنة ١٦٩٤ أكبر مؤسسة للصيرفة في العالم • ونشأت بنوك اخرى في انكلترا وخارجها مثل بركلي في اوائل القرن الثامن عشر ، ولويد بنك في ١٧٦٥ وبورصة لندن في ١٧٧٣ • واخذت الرأسمالية الانكليزية تنمو وتزدهر وتساعد على التحسن الزراعي والصناعي • وبذلك اصبحت بريطانيا اقوى دولة في اوربا واكثرها ثروة ومهدت السبل لتكوين الرأسمالية الصناعية في المستقبل[1] •

---

(1) Hayes, op. cit; pp. 384-422; Gottschalk; op. cit; pp. 66-75; 211-217; 260-271; 7541757.

الفصل الثاني عشر

ظهور الولايات المتحدة الامريكية[1]

نتيجة لتطبيق سياسة التعسف التي اتبعها الملك البريطاني جيمس الاول (١٦٠٣ـ١٦٢٥)، هاجر عدد من المضطهدين المتزمتين (البيوريتان) الى ما يسمى الآن الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٦٠٧ وسكنوا في ولاية ڤرجينيا Virginia في جيمس تاون، في امريكا. وقد التحق بهم آخرون في السنة التالية.

ولم تكن سياسة الاضطهاد السياسي او الديني هي الدوافع الوحيدة للهجرة الى امريكا بل ان الحكومة الانكليزية اتجهت منذ وقت مبكر الى التوسع وتأسيس اسطول قوي، وكان التجار والمغامرين يؤيدون هذا التوسع بشدة لتأسيس امبراطورية استعمارية واسعة فيما وراء البحار. وكان المستعمرون الاوائل من مختلف الفئات، من المتزمتين المضطهدين دينيا، او الطامعين بالثراء بشتى الوسائل، او الفقراء والمعوزين الذين وجدوا في الدنيا الجديدة وسيلة للعيش برفاه، او الذين اظهروا عدم الرضا في سياسة الحكومة الانكليزية وتركوا البلاد الى غير رجعة. فكان سيل من المهاجرين

(1) Ibid; pp. 243-87; 437-458; 543-595.

الانگليز تركوا انگلترا للعيش فيما سميت بالولايات المتحدة الامريكية فيما بعد .

انتهت حروب الوردتين سنة ١٤٨٥ ، وظهرت في انگلترا حكومة مركزية قوية قادرة على وضع سياسة قومية بعيدة المدى من بينها تأسيس اسطول قوي يكون درعا حصينا للدفاع . وكان تحطيم الاسطول الاسباني وانهزام اسبانيا في حرب الارمادا ١٥٨٨ ، قد برر هذه السياسة التي جعلت انگلترا قلعة حصينة في وجه كل تدخل اجنبي في شؤون بريطانيا . كما ان الاسطول الانگليزي ساعد على التوغل في البحار والتوسع في العالم الخارجي والسكنى في القارة الجديدة . وبينما كانت الدول الاوربية مشغولة بحروبها الداخلية لاجل الحصول على اراضي اوربية قريبة كانت تفقدها بمجرد الانهزام في الحرب ، كانت انگلترا تتجنب الصراع على اراضي اوروبية حيث احتمال فقدانها بسرعة ، وتحاول الحصول على مستعمرات خارج القارة الاوربية ، وبشن حروب ضد اقوى الدول الاوربية متخذة اسطولها القوي درعا حصينا وسلاحا ماضيا لكسب الغنائم في امريكا وآسيا والمحافظة عليها لخدمة انگلترا .

لقد كان العامل الاقتصادي باعثا مهما للمغامرة وتأسيس المستعمرات فقد وصف المستعمرون الاوائل ولاية فرجينيا في امريكا بكثرة الذهب ، وان السكان يجمعون اليواقيت والماسات على سواحل البحر ليزينوا بها ملابس اطفالهم . هذا بالاضافة الى البطالة المنتشرة في انگلترة بسبب نظام تسييج الاراضي وتحويل الاراضي الزراعية الى المراعي والغاء الاديرة ومصادرة املاكها ، مما اجبر هؤلاء العاطلين

ان يبحثوا عن وسيلة اخرى للعيش والشراء وكانت امريكا المكان الموعود .

واضافة الى ذلك فان حروب الثلاثين سنة في اوربا في النصف الاول من القرن السابع عشر اغلقت الاسواق الانكليزية في القارة الاوروبية وقضت على مصانع الاقمشة الانكليزية ، واصبح آلاف من الصناع عاطلين عن العمل . كما ان السنوات العجاف جلبت معها محاصيل رديئة وارتفاع الاسعار ففكر الناس في الهجرة الى امريكا بغية الحصول على لقمة العيش . وقد وجد الناس ان انكلترا التي نفوسها في ذلك الوقت خمس ملايين نسمة مكتظة بالسكان والحل الوحيد لتخفيف الضغط والقضاء على البطالة هو الهجرة .

وفي نفس الوقت شجع اصحاب المذهب التجاري الاستعمار لان المستعمرات تزود انكلترا بالمواد الخام ، وتكون سوقا رائجة لبضائعها ومنتجاتها الصناعية . فمن الافضل ان تحصل انكلترا على الاسماك من مستعمراتها بدلا من ان تشتري السمك من الهولنديين البخلاء خصمها ، كما قال احدهم . واكد هؤلاء التجار انه من المخاطرة ان يعتمد الاسطول الملكي على اخشاب دول البلطيق وزفتها وقارها لان المنطق يتطلب استيراد هذه المواد الضرورية للبحرية من اقطار يمكن الوصول اليها اثناء الحرب .

ومع ان العامل الاقتصادي كان قويا للاستعمار ، كان الدافع الديني ايضا مهما . وحاول عدد من الانكليز نشر المسيحية بين الهنود الحمر الوثنيين . وقد نصت وثيقة امتيازات شركة فرجينيا والشركات

الاخرى من بين موادها نشر الديانة المسيحية والكتاب المقدس بين الهنود الحمر . ويظهر ان الشركة لم تهتم كثيرا بنشر المسيحية بين الهنود بقدر ما كانت ترغب في استعمار المنطقة ، واتخذ الدين ستارا لتنفيذ رغبة بعض الاقليات الدينيـة في انكلترا كالپيوريتان المتزمتين والكاثوليك والكويكرس الذين وجدوا ملجأ لممارساتهم الدينية في العالم الجديد . وبينما كانت اسبانيا وفرنسا تمنعان الاقليات الدينية من الهجرة الى العالم الجديد ، كانت انكلترا تريد ان تتخلص منهم بأسرع ما يمكن .

وكانت الدوافع الشخصية كثيرة ايضا . فهناك المغامرون الذين بحثوا عن الثروة والحياة الافضل والمجد والشهرة . وهناك من اراد التخلص من ماضي مخيف وسمعة سيئة فيختفي في سهوب امريكا . ومنهم من اراد التخلص من ملاحقة الشرطة في كل مكان بسبب الاجرام التي ارتكبوها . وقسم اراد ان يتخلص من البؤس والفاقة ليعيش عيشا هنيئا في العالم الجديد . وكثيرا من هؤلاء الافراد ضاعوا او لقوا حتفهم دون ان ينجزوا شيئا وكان مصيرهم بأتعس مما كان في بلدهم الاصلي .

تاسيس المستعمرات الانكليزية فى امريكا :

كانت المحاولات الانكليزية الاولى لاستعمار امريكا فاشلة . فقد قام سير هامفري گيلبرت بحملتين الى امريكا فشلت الاولى بسبب العواصف البحرية ، وانتهت الثانية باختفاءه في البحار سنة ١٥٨٣ . وبعد ذلك قام اخوه من امه سير والتر رايلي باقناع الملكة اليزابيث

بمنحه امتيازا « لاستعمار Colouize كل الاراضي التي تستطيع استغلالها » . وافقت الملكة بشرط ان يدفع السير والتر خمس الانتاج من المعادن الثمينة الى التاج . وبعد حملة استكشافية سنة ١٥٨٤ قدم تقريرا منجما عن « البلاد والمناخ الملائم والمنتج والمثمر والصحي اكثر من اي بلاد العالم » . ارسل رايلي حملتين اخريين وفشلت الاثنتان . وانتهت الاخيرة التي ابحرت في ١٥٨٧ في نتيجة غامضة فانحصر المستعمرون في جزيرة رونوك Roanoke . واختفوا دون اثر باستثناء كلمة غامضة وهي كرواتون Croatian المحفورة في فرع شجرة .

لم يقم والتر بمحاولة استعمارية اخرى وانتهى القرن السادس عشر دون وجود مستوطنات انكليزية دائمية في امريكا . وقد اثبتت هذه التجارب ان المغامرات الفردية للاستيطان والاستعمار ضخمة وغالية الى درجة لا طاقة للافراد او الجماعات التغلب عليها وتمويلها ، ان المشاريع من هذا النوع يجب ان تقوم بها الحكومات او الشركات الكبرى .

لقد حصلت الشركات التجارية الكبرى ، المتكونة من الطبقة الارستقراطية الانكليزية واصحاب المناصب الرفيعة في الدولة وكبار الرأسماليين ، على امتياز من التاج البريطاني « بجمع الضرائب وسك النقود وتنظيم التجارة وشراء الاراضي وبيعها واعلان الحرب وضم الاراضي في المناطق التي تكتشفها وتستعمرها » . وكانت وثيقة الامتيازات Chartes التي تحصل عليها الشركات عبارة عن دستور الشركة ونظامها ، واصبحت نواة لدساتير الولايات التي

واثنتان من المستعمرات الانكليزية في استقلت عن بريطانيا فيما بعد . والاولى امريكا تأسست بواسطة الشركات التجارية الانكليزية ، الاولى فرجينيا التي تأسست سنة ١٦٠٧ بواسطة شركة لندن ، والثانية مساجوسيت المؤسسة سنة ١٦٣٠ بواسطة شركة خليج مساجوسيت . وكانت شركة فرجينيا قد حصلت على امتيازاتها من الملك جيمس الاول سنة ١٦٠٦ مخولة اياها بتأسيس شركتين ثانويتين اخريين هما شركة لندن ، وشركة بليموث . وكانت شركة لندن قد خولت حق التجارة والاستيطان بين خط عرض ٣٤ و٤١ ، بينما خولت شركة بليموث حق التأسيس بين خط عرض ٣٨ و٤٣ ، واحتفظ الملك بسيطرة الدولة على الشركات . وكانت الشركات تمنح مستوطنين في الاراضي التي تستغلها كل الامتيازات والحريات والحصانات ... كما لو كانوا مولودين وساكنين في انكلترا والدومنيونات الانكليزية .

عندما انزلت ثلاث سفن ركابها المائة وخمسة اشخاص على بعد ٣٢ ميلا من مصب نهر جيمس في فرجينيا في مايس ١٦٠٧ ، لم يكن هؤلاء من الناس القادرين على تطوير الاراضي . ومع ان قسما منهم كانوا عمالا وميكانيكيين لكن الاغلبية لم تكن اناس يستطيعون تكييف انفسهم للاراضي المقفرة غير المستغلة . وان المنطقة التي بنيت عليها مدينة جيمس تاون كانت مستنقعا وفتكت الامراض بالسكان في السنة الاولى . وكانت الحملة الثانية في السنة التالية من الناس الذين لم يختلفوا كثيرا من حيث الاعداد والاستعداد عن الناس الذين جاءوا في الحملة الاولى . وكان قسم منهم من المشتغلين بصياغة الذهب اتوا

لاجل اخراج الذهب ، غسل الذهب ، وتنقية الذهب ، وشحن حمولات الذهب .

ولم يبق من الذين هاجروا الى امريكا في الحملتين الا ربع العدد . ويرجع الفضل في بقاء المستعمرة الى قيادة قائد السفينة جون سميث الذي بيّن للشركات ارسال مستوطنين قادرين على العمل واستخدام ايديهم وفرض على المهاجرين الجدد قانونا صارما هو ان الذي يعمل يأكل .

كانت شركة لندن تتوقع ثروة سريعة في مدة قليلة ، لكن المستعمرة واجهت المصاعب الكثيرة ، ولم تكن الارباح والفوائد تجنى بسهولة . ولما لم يحصل احد على الذهب تمكن احدهم جون رالف John Ralf سنة ١٦١٢ ، ان يستفيد فائدة كبرى من زراعة التبغ تعوّض عن الذهب . وبحلول ١٦١٩ ، سكن في ڤرجينيا ما لا يقل عن (١٠٠٠) شخص وفي تلك السنة ارسلت الشركة تسعين امرأة شابة لائقة فاضلة ، تزوجن من الرجال المهاجرين الذين تمكنوا من دفع اجور نقلهن . وكان اولاد واحفاد هؤلاء من اقدم العوائل في ڤرجينيا . وقد هاجرت اعداد من النساء سنة بعد اخرى الى ڤرجينيا واصبح اولاد هؤلاء مواطنين اصليين لامريكا . وحدث في ١٦١٩ ان انزلت سفينة هولندية اول حمولة من الزنوج العبيد وابتاع سكان ڤرجينيا عشرين زنجيا منهم . وقد مر نصف قرن قبل ان يشتغل الزنوج باعداد كبيرة في الاعمال الزراعية ، وخاصة زراعة التبغ . وفي نفس السنة (١٦١٩) منحت الشركة المستوطنين حق تأسيس المجلس النيابي . وهذا المجلس

اصبح اول مجلس تشريعي لولاية ڤرجينيا فيما بعد واول حكومة تمثيلية في امريكا •

وفي سنة ١٦٢٤ ، الغى الملك جيمس الاول امتياز شركة ڤرجينيا لان مصالح الشركة التجارية كانت تتعارض مع نظام الضرائب الذي فرضه جيمس ، واصبحت ولاية ڤرجينيا مقاطعة ملكية يحكمها حاكم ملكي يساعده مجلس صغير وجمعية تشريعية ينتخبها المزارعون وهكذا اصبحت ڤرجينيا اول مقاطعة ملكية انگليزية في امريكا •

البيوريتان المتزمتين في مساچوسيت :

كان البيوريتان المتزمتين لا ينسجمون مع الكنيسة الانگليزية وارادوا اصلاح الكنيسة هذه وفق تعاليم البيوريتان المتقشفة ، ولما رفض الملك جيمس ذلك وهددهم بأن يكيّفوا انفسهم للكنيسة الانگليزية او يتركوا البلاد ، انهزم قسم منهم من مقاطعة نوتنگهام شاير الى هولندة • لكن الوضع هناك ولو كان احسن من انگلترا بالنسبة اليهم ، لم يرق لهم بسبب العزلة فقرروا الهجرة الى امريكا على ظهر الباخرة سپيدويل Speedwell • كما ان جماعة اخرى من البيوريتان تركوا انگلترا على ظهر السفينة ميفلاور Mayflower ، في نفس الوقت ، ايلول ١٦٢٠ ، وتركت مدينة بلايموث متجهة الى امريكا • ولما لم تستطع الجماعة التي تركت هولندة ان تشق الطريق انضمت الى جماعة ميفلاور في طريقهم الى ڤرجينيا • وقد جرفت العواصف والتيارات السفينة عن مجراها الاصلي وكان عدد الركاب ١٠٢ من

الرجال والنساء والاطفال • وشقت ميفلاور طريقها الى سواحل نيو اينگلند في تشرين الثاني • وكانت هذه المنطقة خارجة عن امتيازات شركة لندن ، ولهذا لم يكن هؤلاء الحجاج Pilgrims كما اعتاد البيوريتان على ظهر السفينة ميفلاور ان يسموا انفسهم ، تحت سيطرة الشركة ، ولم يكن لهم اي حق على الاراضي التي نزلوا فيها • ولتزويد انفسهم بحق شرعي ، وضع الحجاج هؤلاء وثيقة بموجبها اسسوا حكومتهم • وبموجب هذه الوثيقة « تسن وتؤسس وتوضع ذلك النوع من القوانين والانظمة والدساتير والدوائر العادلة بين حين وآخر التي تلائم الخير العام في المستوطنة » • لقد كان هذا العقد الذي ابرم في ميفلاور اول دستور مكتوب ، وعقد اجتماعي وضع برضى المحكومين وقد انتخب الناخبون (وعددهم ٤١ من الرجال) جون كارفر Carver حاكما لهم •

لقد نزل الحجاج في ميناء بليموث في نيو اينگلند (في شمالي شرقي الولايات المتحدة الحالية) • وقد قضى شتاء نيو اينگلند على نصفهم لكن الباقين لم ييأسوا واستمروا يكافحون لاجل البقاء • وزرعوا الزرع في مساحة من الارض سعتها ٢٠ دونما • وقد التحق بهم اعداد اخرى من المهاجرين البيوريتان • فقد جاءت المجموعة الثانية سنة ١٦٢٨ وسكنت في مساجوسيت وظلت بليموث مستقلة عن مساجوسيت مدة من الزمن الى ١٦٩١ • وكانت اهمية المستوطنة لا في اقتصادياتها الجزئية بل في حكومتها الشعبية واستقلالها •

كافح جيمس الاول البيوريتان الذين ارادوا تغيير المذهب الانگلكاني وفق مبادئهم وشعائرهم الدينية المتقشفة • ولما جاء الملك

شارل الاول الى الحكم اضطهدهم اكثر من والده • فبدات هجرة البيوريتان الى امريكا كحل وحيد للمصاعب التي تواجهها هذه الفئة الدينية • وفي ١٦٢٩ حصلت جماعة من البيوريتان على امتياز ملكي لشركة خليج مساجوسيت التي تنقل المهاجرين الى امريكا •

لم تكن هذه الجماعة التي سيطرت على شركة مساجوسيت من الطبقة الفقيرة التي هاجرت الى امريكا ، انما كانوا من الطبقات المثرية المثقفة واصحاب الاراضي من الطبقة الوسطى نظموا انفسهم في امريكا لتكوين حكومة ولو تابعة لانكلترا لكن تتمتع بادارة مستقلة • وقد اصطحبت الشركة معها (٧٠٠) مهاجر في احد عشر سفينة يقودها حاكمهم جون وينثروب ونزلوا في مساجوسيت سنة ١٦٣٠ واسسوا فيما بعد مدينة بوستن وچارلستن ودورجستر ، وفي مدى عشر سنوات بعد هذا التاريخ وصل عدد المهاجرين الى مساجوسيت (١٥) الف • ويعزى سبب المهاجرة بهذه الاعداد الضخمة الى الاضطهاد الذي مارسه موظفو الملك شارل الاول ضد البيوريتان في انكلترا • واصبحت مستعمرة مساجوسيت مرفهة وملجأ لكل مضطهد من البيوريتان •

ولم يؤسس البيوريتان المهاجرين مجتمعا دمقراطيا في مساجوسيت بل ابتكر زعماؤهم مجتمعا طبقيا بتكوين مزارع كبيرة يزرعها وكلاء مأجورين ، وعمالا مرتبطين بعقد وعبيد من الزنوج • لكن لم تتحول مزارع مساجوسيت الى مستعمرات زراعية كبرى كما هي الحالة في فرجينيا في الجنوب • كما ان تجارة العبيد لم تكن رابحة هنا • ولهذا تحولت نيو اينگلند الى مزارع صغيرة يملكها زراع احرار • واثر هذا

النوع من التطور الاقتصادي في التطـوير الاجتماعي ايضا فظهرت في مساجوسيت مدن كثيرة اصبحت مركزا للنشاط السياسي والاجتماعي. وفي سنة ١٦٣٤ ، ظهر نظام تمثيلي نيابي حيث كان يجتمع سكان كل مدينه في اجتماعـات مفتوحـة لانتخاب عضـو او عضوين يمثلهم في بوستن حيث تأسس هناك مجلس تشريعي له الصلاحية لتشريع القوانين وجباية الضرائب •

كانت حكومة جون وينثروب وجماعته في مساجوسيت ثيوقراطيا كالقنيـا لا يستطيع ان يصـوت في الانتخـابات الا الذين يتمسكون بزعمائهم الكلفنيين في آرائهم عن الدين والدولة[1] •

ولذا فان هذا النظام المتصلب انهار عندما ثار روجر وليمس احد القسس في مدينـة سيلم Salem • وكان روجر يؤمن بانفصـال الكنيسة عن الدولة ، واحتج ضـد الدكتاتورية في المعتقـدات الدينية وممارسات الشـعائر • ولما كان روجر وليمس من مؤيدي التسـامح الديني انكر على جون وينثروب وجماعته شرعية حكومتهم التي لم تلق موافقـة او اذنا من انكلترا بتأسيسها • فطرد روجر من مساجوسيت ، وأسس هـذا مستوطنة بالقرب من رودايلند • وبعـد ذلك التحقت به مسز آن هجنسن التي عارضت دكتاتورية حكومة مساجوسيت ودعت الى الحرية الدينيـة • وبمرور الزمن التحق بهـذه المستوطنة الجديدة عدد كبير ممن اضطهدتهم حكومـة مساجوسيت الثيوقراطية ، وكانت هـذه المستوطنـة الجـديدة تسـمى في اول تأسيسـها

---

(١) الحكومة الثيوقراطية هي التي تجمـع بين الدين والدولة كحكومة كالفن في جنيف سنة ١٥٣٦ •

مستوطنة بروفدنس او مزرعة بروفيدنس Providence Plantation

وفي سنة ١٦٤٤ ، منح البرلمان الطويل في انكلترا (اثناء الثورة الانكليزية) امتيازا لهذه المستوطنة وافق عليه شارل الثاني ايضا سنة ١٦٦٣ واصبحت مستعمرة رودايلند نموذجا عظيما للدمقراطية الحديثة . وقد توصل سكان هذه المستوطنة من الرجال والنساء الى عقد اجتماعي يختلف عن تعاقد جماعة بوستن وجماعة امتياز مساجوسيت بانه « كان عقدا حرا لم يكن تحت تأثير الكنيسة او التاج البريطاني » . وعليه اصبحت رودايلند اكثر ديمقراطية وعلمانية من اية مستوطنة انكليزية في امريكا ، والدستور الذي وُضِع لمستوطنة رودايلند سنة ١٦٤٧ أثبت ذلك . وبموجب هذا الدستور اصبحت رودآيلند جمهورية اتحادية من مجموعة من المدن المستقلة التي احتفظت بحرياتها الى الثورة الامريكية .

وفي ١٦٣٦ بدأت هجرة اخرى من مساجوسيت بزعامة توماس هوكر الذي بلور نظرية مفادها ان السلطة تنبثق من رضا الشعب معبرا عنها بحرية تامة . ولم تكن هذه الآراء تتفق مع الحكومة الثيوقراطية في بوستن ، فهاجر هو وجماعته الى ما يسمى في الوقت الحاضر بولاية كناتيكت Connecticut وسكنوا في مدينة هارتفرد والمدن الاخرى . وفي ١٦٦٢ ، حصلت على امتياز ملكي من شارل الثاني ملك انكلترا لتكوين مستوطنة كناتيكت تشمل عددا من المدن اهمها هرتفرت ، وندسور ، ويذر سفيلد ونيوهافن .

وقد ظهرت مستوطنات اخرى متفرعة من مساجوسيت وكناتيكت، فانفصلت نيوهامشر عن مساجوسيت سنة ١٦٧٩ ، ومن هذه

المستوطنات ايضا تفرعت مستوطنات اخرى منها ڤيرمونت Vermont ومين Maine لكن لم تصبح هذه المستوطنات مستقلة قبل الثورة الامريكية •

في منطقة نيو اينگلند New England ظهرت شركة تجارية حصلت على امتيازات من الملك في انگلترا، وبدأت بتأسيس مستوطنات بمنح ملكية مساحات من الاراضي الى فرد او مجموعة من الافراد غير مشتركين في الشركات وهذا المالك ينتمي الى الطبقة العليا من المؤثرين او من المقربين الى الملك • واستطاع هؤلاء الافراد الحصول على مساحات من الارض في امريكا اسسوا فيها مستوطنات لغايات اقتصادية صرفة • وقد أسس الافراد سبع مستوطنات بهذا الشكل مثل ميريلاند ، نيويورك ، نيوجرزي ، پنسلڤانيا ، ديلاوير وساوث كارولينا • كما ان ولاية جورجيا تأسست ايضا بتأثير شخص واحد ، لكن جورجيا كان يحكمها في بادىء الامر مجلس الوصاية •

كانت ميرلاند قد منحها الملك شارل الاول الى اللورد بالتيمور الكاثوليكي سنة ١٦٣٢ مقابل خمس ما يجده من خامات الذهب والفضة سنويا • وسميت المقاطعة بمقاطعة ميريلاند تيمنا باسم زوجة شارل الفرنسية هنريتا ماريا • ولكي يعمر المقاطعة منح اللورد بالتيمور ١٠٠٠ دونم لكل نبيل يجلب معه خمسة مزارعين مزودين بالمؤن والحاجيات • كما وزعت مساحات من ١٠٠ دونم الى خمسمائة دونم للعوائل المهاجرة على حسابهم • وكان لورد بالتيمور قد جعل مقاطعته

ملجاء للكاثوليك المضطهدين في انكلترا • وقد سمح للبروتستانت ايضا ان يسكنوا في ميريلاند • وفي سنة ١٦٤٩ سن مجلس ميريلاند التشريعي قانون التسامح للكاثوليك والبروتستانت على السواء • غير انه حكم بالاعدام على الموحدين unitarian وغير المسيحيين • ولما اصبح احفاد بالتيمور بروتستنتيين بين سنة ١٦٩٢ الى ١٧١٥ ، طردوا من حكومة ميريلاند لكنهم استلموا الواردات من ممتلكاتهم الخاصة الوراثية •

تاسيس مستوطنات في كارولاينا الشمالية والجنوبية :

لما ارتقى الملك شارل الثاني العرش سنة ١٦٦٠ كافأ كثيرا من اتباعه النبلاء الذين ساعدوه هو ووالده اثناء الثورة الانكليزية ومحنة المنفى ، بمنحهم الاراضي فيما وراء البحار • فحصل ثمان من هؤلاء على املاك واسعة في جنوبي ڤرجينيا ، سنة ١٦٦٣ ، التي سميت بكارولاينا تيمنا بالملك شارل الثاني • وكان المالكون الكبار قد منحوا السكان المهاجرين حرية العبادة والتسامح الديني في اراضيهم ، فجاء اليها الكويكرس والهيگونوت الفرنسيين والالمان والسويسريين ، واستخدموا الزنوج في الزراعة ، وخاصة زراعة الرز والنيلة • ولما لم يطق السكان سياسة المالكين والموظفين الحكوميين اشترى التاج كارولاينا الشمالية والجنوبية من اصحابها واصبحت ملكا للملك سنة ١٧٢٩ •

تاسيس نيويورك :

كان الهولنديون بغية وصولهم الى الشرق الاقصى قد استاجروا هنري هدسن الانكليزي لهذه الغاية ، فأبحر هدسن سنة ١٦٠٩ ، من

مصب النهر المعروف باسمه (نهر هدسن) وصادف في طريقه قبائل الهنود الحمر المعروفين بـ موهاك Hertford توزع عليهم البرانديي لحصل على صداقتهم . وكانت رحلة هدسن البحرية تبعتها رحلات سنوية لاربع رحالة آخرين (تجار) فاكتشفوا شواطىء نهر ديلاوير وخليج لونك ايلاند . واسست مراكز تجارية في منهاتن (الجزيرة التي تقع عليها معظم المراكز التجارية في نيويورك) سنة ١٦١٤ .

وفي سنة ١٦٢١ تأسست شركة الهند الغربية الهولندية لاحتكار التجارة لمدة ٢٤ سنة بين افريقيا الغربية وامريكا ، على ان تقوم الشركة « باستيطان الاماكن الخالية استيطانا مثمرا » . مع ان غاية الشركة الاساسية كانت القضاء على احتكار اسبانيا . وقد وصلت اول مجموعة من المهاجرين الى منهاتن سنة ١٦٢٤ ، وبنوا حصن استردام هناك واصبح مركز الحكومة . وقد اسسوا مستوطنة باسم حصن اورنج في الباني ، وحصن ناساو على نهر ديلاوير بالقرب من فلادلفيا ، وحصن آخر في كناتيكت . وبهذا اسس الهولنديون المدينة التي سموها فيما بعد بنيوامستردام وغيّره الانكليز الى نيويورك ونيوجيرزي الى الجنوب . ومع انها منحت الاراضي لكل من يأتي بـ ٥٠ عائلة للاسكان هناك على طول نهر هدسن ، لكن الرغبة كانت قليلة ، وقليل من النبلاء جازف ولم ينجح منهم الا تاجر مجوهرات الماس واللآلىء اسمه كيليان ڤان رينسلر Killian Van Rensselaer الذي حصل على اراضي في منطقة الباني . لكن بصورة عامة لم تستطع ان تحصل على الراغبين للسكنى هناك ، ولهذا فان نيونيزرلاند (كما

لم يرغب الناس ان يسكنوا فيها
كانت تدعى منطقة نيويورك آنذاك)
، وقعت هذه المنطقة تحت سيطرة الانكليز
وفي سنة ١٦٦٤
. وكان سبب فشل الهولنديين من
المجاورين دون اطلاق رصاصة
الاحتفاظ بوادي نهر هدسن ومانهاتن هو اولا لم تكن هناك رغبة من
جانب الهولنديين في الهجرة الى الخارج . فان التجارة المربحة
والاستكشافات اغرقت هولندة بالثروة والرخاء في القرن السابع‌عشر .
وكان للتسامح الديني والامتياز الثقافي اهمية كبرى بالاضافة الى
الازدهار الاقتصادي في جعل هولندة بلدا يحسد لها ولا يرغب
مواطنوها في تركها . ثانيا ان مستعمرة نيونيزرلاند توغلت في حرب
وحشية مع السكان الاصليين المعروفين الكونكنس . ولما عاد السلام
الى المنطقة في ١٦٦٥ كانت المستعمرة قد فقدت الفي نسمة . وثالثا ،
كانت هولندة خلال الاربعين سنة من ١٦٢٤ الى ١٦٦٤ ، انشغلت
بحروب دموية مع اسبانيا وانكلترا فلم تستطع الانصراف الى
المستعمرات الامريكية . كانت شركة الهند الغربية الهولندية راغبة في
نهب السفن الاسبانية في المحيطات وفي امريكا الجنوبية والانشغال
بتجارة العبيد والتوابل والسكر . ولم يهتموا باستعمار نيونيزرلاند
في امريكا . ان سيطرة شركة الهند الغربية على ادارة المستعمرة قتلت
الابداع الفردي ، وحكمت حكما دكتاتوريا على مجلس المستعمرة
الاداري ولم تصغ حكومة هولندة الى شكاوى المستوطنين المحرومين
من الحرية الادارية . وعليه فان النزاع بين الشركة والمستوطنين منع
الهولنديين من المهاجرة ، ولما اراد الانكليز غزو المستعمرة سنة ١٦٦٤
رفض المستوطنون مساعدة الحاكم الهولندي بيتر ستايفيزانس .

لما سقطت نيونيزرلاند ، سيطرت انكلترا على المنطقة الساحلية كلها وفي سنة ١٦٦٤ حصل ديوك اوف يورك (لقب الملك جيمس الثاني قبل ارتقائه العرش) كل المنطقة من كناتيكت الى نهر ديلاوير ، من اخيه الملك شارل الثاني ومن هذه المنطقة انفصلت فيرمونت ونيويورك ونيوجيرزي • وأبقى ديوك اوف يورك منطقة ولاية نيويورك لنفسه • وتغير اسم مدينة نيو امستردام الى نيويورك • وبقي الدوق يورك هناك الى ان استدعي سنة ١٦٨٥ ليتولى عرش انكلترا • عندئذ اصبحت نيويورك منطقة ملكية •

ومن آثار الحضارة الهولندية في ولاية نيويورك التسامح الديني والعنصري • وقيل انه لما استولى الانكليز على نيويورك كانت اللغات المستعملة في الشوارع قد بلغت ١٩ لغة • وبقيت الاسماء الهولندية كبروكلن واورنج ورينسلر باقية كما ان بعض العائلات من اصل هولندي لا تزال باقية كروزفلت ، وشويلر وفان بيورن ، وفاندربيلت• بالاضافة الى ذلك آثار الحضارة الهولندية من العاب مثل الكولف والسكي (التزحلق على الجليد) وسنت كلوز (بابا نويل) • كما ان التأثير الهولندي في البناء باق في المنطقة لحد الآن •

وقد تمكن لورد بركلي Lord Berkely وسير جورج كارتريت Carteret الحصول على امتياز بواسطة ديوك اوف يورك لامتلاك اراضي في نيوجيرزي (بين ديلاوير ونهر هدسن) • ونيوجيرزي اسم جزيرة في القنال الانكليزي الذي دافع عنها كارتريت اثناء الثورة الانكليزية •

وقد سلم احفاد بيركلي كارتريت جميع حقوقهم الى التاج سنه ١٧٠٢ وكانت الاضطرابات في هذه المنطقة كثيرة الى الثورة الامريكية .

ومن بين الولايات الاخرى التي تأسست كمستوطنة في القرن السابع عشر پنسلڤانيا التي أسسها وليم پين Penn رجل متحمس لمذهبه الجديد كويكر وهو مذهب لا يؤمن بألوهية المسيح والخطيئة التي ارتكبها نبي الله آدم بانها متوارثة بين ابناء البشر . وقد طالب وليم پين الملك شارل الثاني مبلغ (١٦) الف باون استرليني ، ومقاطعة في امريكا له ولاتباعه الكويكريين ، فمنحه شارل ذلك وامر بتسمية المنطقة پنسلڤانيا (او غابات پين) سنة ١٦٨١ . لقد كانت هذه المنطقة التي يسقيها نهر ديلاوير مسكونة من قبل السويديين سابقا وسميت السويد الجديدة ، ثم سكنها الهولنديون وبعد ذلك استولى عليها الانكليز سنة ١٦٦٤ .

واخذ پين يطور منطقة پنسلڤانيا اقتصاديا فوصل الى پنسلڤانيا سنة ١٦٨٢ وبنى مدينة فلادلفيا (او الحب الاخوي) ، وتصالح مع الهنود الحمر بشروط سخية للجانبين واعلن التسامح للجميع وتأسيس مجلس شعبي . وقد نشر اعلانات مغرية في اوربا لجذب المهاجرين الى پنسلڤانيا وتطويرها . وكان احد الاعلانات يقول « الهواء النقي ، والنهر الصالح للملاحة والمحصول الهائل للذرة وازدهار الحياة في مدينة فلادلفيا يجعل كل فرد فقير من الرجال والنساء يحصل على ثلاثة اضعاف ما يحصل عليه في انكلترا » .

جورجيا :

كانت الولاية الاخيرة قد تأسست قبل الثورة الامريكية ومؤسس هذه المستوطنة جندي اسمه جيمس اوكلثورب سنة ١٧٣٣ . فقد هالته الاحوال السيئة للمدنيين في سجون انكلترا ، فقرر ان يخفف عنهم بتأسيس مستوطنة اخرى في امريكا ووافقت الحكومة الانكليزية لانها وجدت من هذه الولاية منطقة تفصل بين الانكليز والاسبان في فلوريدا . وقد اناط الملك جورج الثاني ادارة هذه الولاية الى مجلس الوصاية لمدة ٢١ سنة . ورحب بكل من يأتي للسكنى الا الكاثوليك . ومنع شرب بعض الكحوليات او بيعها ، وكذلك تجارة العبيد . لكن بسبب الاضطرابات التي حدثت نتيجة لمجيء المهاجرين الجدد ، الغي قانون منع تجارة العبيد وبيع المشروبات . ووجد مجلس الوصاية من الصعوبة بمكان ادارة المستوطنة ، فسلم جميع حقوقه الى التاج البريطاني واصبحت ولاية جورجيا ملكية .

نمو السكان :

كانت الهجرة الكبرى لامريكا قد حدثت بين ١٦٢٠ و١٦٤٢ . وقدر المهاجرون الانكليز للسنة الاخيرة بـ ٦٥٠٠٠ نسمة وكان عدد السكان في امريكا سنة ١٦٨٩ في نيو اينگلند ٨٠٠٠٠ ، اما نيويورك ونيوجيرزي وبنسلفانيا وديلاوير ٤٠٠٠٠ ، اما الولايات الجنوبية الاربعة ميريلاند ، فرجينيا ، وكارولاينا الشمالية والجنوبية فاكثر من ٨٠٠٠٠ نسمة ـ اي حوالي ٢٠٠٠٠٠ نسمة ، ويعزى هذا النمو في

السكان الى سنة ١٦٨٩ الى المهاجرة الكثيرة • وكان هوس اكبر مدينة سنة ١٦٩٠ بوستن ٧٠٠٠ ، وفلادلفيا ٤٠٠٠ ونيويورك ٣٩٠٠ نسمة ، وكانت الثقافة السائدة الثقافة الانكليزية مع خليط من الثقافة الالمانية والفرنسية والهولندية •

والملاحظ ان التمييز الطبقي لم يتلاش في المستعمرات الامريكية. وكان الملاك لا يزال يتمتع بمنزلة اعلى من المستأجر ، وكذلك التجار في المدن اعتبروا انفسهم يتميزون عن سكان الارياف • اما المناطق الحدودية بين المناطق الشرقية الآهلة بالسكان والاراضي المقفرة في الغرب ، كانت المهارة الفردية والشجاعة والقوة والمثابرة والعزم والابداع والدهاء وسعة الحيلة والثقة بالنفس مصدر عظيم للنجاح اكثر من النسب والمال والثقافة والسلوك الحسن • وقد اندمجت الثقافات المختلفة في امريكا لتكوين ثقافة جديدة امريكية منبثقة عن الحضارة الاوروبية وتختلف عنها وزالت الموانع الاجتماعية بين البيض انفسهم ، لكنهم نظروا الى الهنود الحمر كعدو شديد البأس ، واعتبروا الزنوج حيوانات خلقت للعمل •

لقد كانت نتيجة هذا الاندماج ظهور الشعور بقومية جديدة والاستقلال عن الوطن الام انكلترا • واخذ هذا الشعور ينمو تدريجا في القرن الثامن عشر • لقد اعتبر الامريكيون انفسهم اوربيين عنصرا ولغة وحضارة حتى اذا كانوا مولودين في امريكا لكن هناك فرق واضح بينهما وهو ان الامريكان كانوا مهاجرين الى عالم اضطروا فيه ان يكيفوا انفسهم للاحوال البدائية الجديدة ويحاولوا بناء جديدا

بعيدا عن الحضـارة الاوروبية • ولتحقيق ذلك كانوا يحتـاجون الى سعة الحيلة والابداع ومجابهـة العوز والفاقة بجرأة متناهيـة في تلك الاراضي المقفرة • وهكـذا ، فان المهاجرين واحفـادهم اتجهوا غربا متوغلين قفـار القارة الامريكيـة مزودين فقط بصـفات المغـامرين الاشداء ، والافكار التي استوردوها من اوربا او ورثوها من المهاجرين الاوائل • وكلما توغلوا غربا كلما قلّ ارتبـاطهم باوربا • وكانت المستوطنات القديمة في امريكا تريد ان تكون اكثر تشابها لاوربا ، بينما المستوطنات الجديده ابتعدت • ولكن المهاجرة المستمرة البشرية والمادية والحضارية من اوربا كانت تجـدد هذه الرابطة وكانت المـدن والقرى تنتشر باتجاه الغرب ، والسكان يكيّفون قيمهم وطرز حياتهم مع البيئة الجديدة باسـتمرار وشعروا بعـدم الحاجة الى تدخـل الاوربيين في شؤون امريكا •

الاقتصاد الامريكي :

كانت الاكثرية الساحقـة من سـكان الولايات الثـلاث عشرة يشتغلون بالزراعة ، لكن الزراعـة هنا كانت تختلف عما كانت عليها في اوربا • ففي اوربا كانت الايدي العـاملة كثيرة والاراضي قليلة ، على العكس من امريكـا حيث مساحات واسعة جـدا من الاراضي وندرة الايدي العـاملة • كما ان الزراعـة في اوربا كانت عمليـة بين الملاكين اصحاب الاراضي والفـلاحين اي علاقة التابع والمتبوع بينهمـا هوة اجتماعية سحيقة • اما في امريكا فان المهاجرين كانوا يكافحون الطبيعة باستمرار للتغلب عليها واستغلالها • وادى هـذا الكفاح الى ان يزداد

الامريكان ثقتهم بانفسهم وفقدان صلتهم بوطنهم الاصلي في اوربا .
كانت الاراضي في نيو اينكلند اقل خصوبة من الولايات الجنوبية لكثرة الصخور المبعثرة في اراضيها والجبال الوعرة ، باستثناء بعض الاقسام الشرقية والوسطى ، كما ان الانهار غير صالحة للملاحة ، والصيف قصير والشتاء طويل فأثر ذلك على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية . فلا تساعد نيو اينكلند على تأسيس المزارع الواسعة ولا السخرة واشتغال الزنوج في المزارع . بل كانت ملائمة بتأسيس مزارع صغيرة يملكها ويزرعها ملاك صغير . واذا كانت نيو اينكلند فقيرة في الزراعة فيمكن التعويض عنها بأشياء اخرى . فهي تملك مساحات شاسعة من الغابات تشجع الناس على صناعة الخشب Lumber Industry وتزويد اصحاب السفن بالاخشاب لصناعة السفن وكذلك للبناء والبراميل التي يحتاجها مزارعو التبغ والسكر وغيرها . كما ان صيد الاسماك اصبح صناعة مربحة في نيو اينكلند مصدراً كميات كبيرة من الاسماك وزيت كبد الحوت الى اوربا . وعليه فان منطقة نيو اينكلند اصبحت تشتهر بالصناعة والتجارة ولا تعتمد على تسخير العبيد في العمل ولا على الزراعة .

كما انه في المناطق الوسطى كنيويورك وبنسلفانيا ونيوجيرزي وديلاوير وغيرها فان استواء الارض وخصوبة التربة انتجت محاصيل زراعية على نطاق اوسع من اكثر المناطق خصوبة في نيو اينكلند بكثير واصدار الزائد عن الحاجة وقد تمكن المستوطنون اصدار كميات كبيرة من الحنطة والطحين واللحم الى اوربا وجزر الهند الغربية . وكان نظام تملك الاراضي اشبه بنيو انكلند .

اما في الولايات الجنوبية ، فلم تكن هناك مزارع كبرى في القرن السابع عشر ، لان ذلك لم يكن مربحا حينئذ . والسبب في عدم تأسيس المزارع الكبيرة هو قلة الايدي العاملة . وكان العمال المزارعين في هذا الوقت من البيض الذين جاءوا ليملكوا الاراضي لكن اجور سفرهم جعلتهم مدينين للملاكين فكان عليهم ان يشتغلوا الى ان يدفعوا الديون . وبمرور الزمن دفع هؤلاء ديونهم واصبحوا ملاكين احرار يملكون مساحة صغيرة لانفسهم . لكن بحلول القرن الثامن عشر تغير الوضع كثيرا . فلأجل ان تكون الارض مربحة يجب استيراد الايدي العاملة الرخيصة لا من اوربا ، بل من افريقيا . واصبحت تجارة العبيد بين افريقيا وامريكا مربحة . وصار اصحاب المزارع الواسعة يشغلون اعدادا كبيرة من الزنوج في الزراعة واستغلال الاراضي . وقد ساعد الاقتصاد الزراعي في الجنوب على سيطرة اصحاب المزارع الكبيرة على الحياة السياسية والاجتماعية ، وتبلور فلسفة سياسية واجتماعية تؤكد على استخدام العبيد في الاعمال الزراعية وزراعة تعتمد على القطن والنيلة والتبغ وتبادل المنتجات الزراعية هذه بالمنتجات الصناعية . وعليه ظهرت الاختلافات الاساسية السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين الشمال والجنوب منذ البداية والتي ادت الى الحرب الاهلية .

كانت الزراعة والاساليب الزراعية بدائية في هذا الوقت الى ١٧٥٠ . واستخدمت نفس الطريقة الاوربية في الزراعة قبل الثورة الصناعية . وكانت الاستعانة بالنجوم والقمر لمعرفة اوقات الزرع والحصاد الطريقة الوحيدة المتبعة في الوقت الذي كانت التقاويم نادرة ولا يعتمد عليها ولم يكن التنبؤ بحالة الجو معروفا . وكان المزارع

الامريكي مكتف ذاتيا . فهو في الوقت الذي يقوم بالزراعة يصنع آلاته وادواته وملابسه واثاث بيته وجميع ما يحتاجه واحيانا يقوم ببيع الزائد من مصنوعاته اذا كان صانعا ماهرا .

لقد اشتغل عدد كبير من سكان المستوطنات الامريكية في مهن اخرى غير الزراعة ، كصيد الاسماك والحوت ، وقطع الاخشاب من الغابات للتجارة وصناعة السفن والصناعات الاخرى . وقد اشتهرت منطقة نيو اينگلند بكثرة صناعاتها واقتصادها الصناعي والمهني اكثر من الزراعة ، بينما منطقة نيويورك الى الجنوب منها زودت موانىء صالحة لرسو السفن وصيد الاسماك . اما جنوب الولايات المتحدة فاشتهرت بالزراعة معتمدة في ذلك على العبيد . فولاية فرجينيا اشتهرت بزراعة التبغ ، بينما كارولاينا الشمالية والجنوبية وجورجيا بزراعة النيلة والرز . وكان في جيمس تاون هولنديين وبولونيين وايطاليين جلبتهم شركة لندن لانتاج الزفت والقار والبوتاس والصناعات الحديدية والزجاجية . لكن هؤلاء وجدوا الحياة لا تطاق بين الانگليز وخصومهم الهنود الحمر فتركوا المنطقة ، وظلت فرجينيا منطقة زراعية .

وكلما تقدمت الزراعة والصناعة في المستوطنات الامريكية كلما قلّ الاعتماد على التجارة الانگليزية وكانت النتيجة ان فرضت الحكومة الانگليزية على الامريكان استيراد مصنوعاتها من انگلترا . لكن كلما نمت الصناعات الامريكية كلما ازدادت الرغبة للتحرر الاقتصادي والسياسي من السيطرة الانگليزية . وكانت تجارة الجلود والفرو الامريكي مع اوربا مربحة . وقد استفاد المهاجرون الاوائل من

تجارة الفرو وأول شحنة ارسلت الى اوربا سنة ١٦٢١ كانت جلود الحيوانات غير المدبوغة . وقد حصل المستوطنون الاوائل في نيوانگلند على الفرو من الهنود الحمر الذين كانوا يحصلون بالمقابل على الملابس والسكاكين والخرز والويسكي والاشياء الاخرى ، وربح من وراء ذلك التجار ارباحا طائلة . وكان الفرو بقيمة (٣٠) الف باون استرليني يصدر من موانيء كارولاينا الجنوبية الى اوربا سنويا .

ولما ازداد السكان وقلّ الفراء ، بدأ التجار يتوجهون غربا بحثا عن الجلود ، وهناك اصطدموا بالفرنسيين وكان باعث من البواعث التي ادت الى الحرب بين انكلترا وفرنسا ، علما بان هذه التجارة التي ادت الى الحرب كانت في زوال .

وفي نيوانگلند حيث الغابات الكثيفة ، والاشجار الباسقة تقطع ، تطورت صناعة الاخشاب وصدّرت الى انكلترا التي كانت بحاجة الى الخشب لصناعة السفن . كما كانت المستوطنات الامريكية بحاجة الى الاخشاب للبناء ، وصناعة العربات الامريكية المعروفة بـ واگون Wagon والاثاث البيتية وللتصدير الى الخارج .

وقد تطورت صناعة السفن في نيوانگلند بسبب كثرة اخشابها . وكانت اول سفينة صنعت في نيوانگلند سنة ١٦٣١ ، سفينة وينثروب حاكم مساچوسيت ، بركة الخليج التي كان وزنها تسعون طنا . وفي مدة قليلة اصبح الساحل يعج بالسفن . وقد ساعد صيد الاسماك على الاهتمام بصناعة السفن . كما ان قانون الملاحة الانكليزية في عهد كروموبل وشارل الثاني اكلت التجارة على السفن الانكليزية ومستعمراتها ، وبلغت صناعة السفن قمتها في سنوات ١٧٠٠ و١٧٣٥ .

ومع صناعة السفن تقدم صيد الاسماك واصبح جزء لا يستغنى عنه في الحياة الاقتصادية الامريكية . وقد بلغ انتاج السمك سنة ١٧٦٠ مليوني دولار سنويا ، وكان الناس يقولون ينتج بقدر قيمة الذهب المنتج هناك . وقد تطورت صناعة الحديد في كل مستوطنة لوفرة خامات الحديد والفحم من فرجينيا الى نيوانگلند . وكان في بادىء الامر يصدر الحديد المطاوع الى انكلترا ، لكن بمرور الزمن كانت الحاجة المحلية الملحة اوقفت الاصدار ، واخذ يستخدم للصناعات المحلية كالمدافع والآلات الزراعية والادوات التي تستعمل في صناعة السفن . وقد بلغت المخاوف في انكلترا بحلول عام ١٧٥٠ بحيث سن البرلمان قانونا يشجع اصحاب صناعات الحديد انتاج الحديد المطاوع للاستعمال في بريطانيا ، ومنعهم من استخدامه في الصناعات المحلية . ولكن اصحاب مناجم الحديد ، استمروا في انتاجه للصناعات المحلية على الرغم من التقييد .

لقد ازداد النشاط التجاري بين الولايات الامريكية واوربا . وكانت الفرصة مواتية للتجار ان يستفيدوا فائدة كبرى من التجارة بين امريكا واوربا بتصدير الحبوب واللحوم والاخشاب والاسماك اليها ، مقابل البضائع الاوربية من الخمور والفواكه والمنتجات الصناعية الانكليزية والربح من وراء ذلك ، او التجارة مع جزر الهند الغربية للحصول على السكر والمنتجات الاستوائية . وكانت التجارة بين الولايات الجنوبية وبريطانيا اكثر بكثير من مستوطنات اخرى ، لان بريطانيا كانت بحاجة الى الانتاج الزراعي من التبغ والرز والقطن وغيرها كما ان الولايات الجنوبية كانت بحاجة الى المصنوعات

الانكليزية لعدم وجود الصناعات في الجنوب • وكانت المنتجات الصناعية لولايات الشمالية كنيوانيكلند تنافس البضائع الانكليزية مما اثار اصحاب الصناعات والتجار في انكلترا وبالتالي الى التصادم بين انكلترا ونيوانيكلند • ويعزى ذلك ايضا الى تشابه المناخ بين المنطقتين بينما مناخ جنوب الولايات المتحدة يختلف تماما عن مناخ بريطانيا وكذلك اقتصادياتها ، ولهذا فكانت التجارة بين الولايات الجنوبية وانكلترا مربحة •

العلاقات الانكليزية الامريكية قبل الثورة :

كان المهاجرون الانكليز الى امريكا مزودين بالتراث الانكليزي السياسي والاقتصادي • لقد كان الارستقراطيون الانكليز الذين اسسوا مزارع في الولايات الجنوبية الامريكية قد مارسوا السلطات السياسية في بلادهم وكانوا اعضاء في البرلمان وسنّوا القوانين ، او كانوا محامين او موظفين في دوائر الدولة ولهم خبرة سياسية وادارية كبيرة • وفي الوقت نفسه كان البيوريتان المتزمتين المهاجرين الى نيوانيكلند يكافحون الطبيعة القاسية ، ويتحدون الجوع والمرض والشتاء القارس • وشاركوا مع اقاربهم من انكلترا في الكفاح ضد الملكية المستبدة الى ان نالوا حقوقهم في الحرية والعبادة ومتابعة الحياة السعيدة • لقد كان انتصار البرلمان في انكلترا هو انتصار لسكان المستوطنات ايضا •

ولم يتلاش تأثير الحكومة الانكليزية على امريكا • فقد منحت الحكومة الانكليزية الامتيازات الى مؤسسي المستوطنات في امريكا

وتقسيم الاراضي ونوعية الحكم في هذه المستوطنات . كما ان البحرية الانكليزية كانت تدافع عنها ضد العدوان وتحمي وتشجع التجارة وساعدت على النشاط الاقتصادي في المستوطنات في الوقت الذي كانت هذه المستوطنات بحاجة الى هذه المساعدة .

كانت الانظمة السياسية في المستوطنات الامريكية متشابهة ، تختلف فقط في التفاصيل . فقد اسست جمعيات تشريعية لكل مستوطنة ينتخب اعضاؤها من قبل السكان من الذين يملكون الاراضي او يدفعون الضرائب من الذكور . وكانت الجمعية تسن القوانين ، ولكي يقيّد الجمعية التشريعية التجأ الملك الانكليزي الى جعل المستوطنات من ممتلكات التاج فانتقلت السلطة التنفيذية الى الحاكم العام الذي يعينه الملك . ويستثنى من ذلك فقط ولايتي رود آيلند وكناتيكت اللتان ظلتا تنتخبان ممثليهما للجمعية والادارة الى ان نالت امريكا استقلالها . وعليه فقد نشأت في المستعمرات الانكليزية في امريكا ثلاثة انواع مختلفة من الانظمة الحكومية :

(١) الحكومة الانكليزية تعين الحاكم العام للمستعمرة وهو يمثل التاج الانكليزي . (٢) مصالح تجارية تتوسط بين ادارة المستعمرة وانكلترا . (٣) المجالس النيابية تمارس الحكم الذاتي . وقد كره بعض رجال السياسة الانكليز النزعة الاستقلالية والحكم الذاتي في بعض المستعمرات الانكليزية .

كان الحكام العامين على الاكثر من رجال السياسة ، او الجيش او القانون وقسم منهم كانوا كفوئين وبعضهم جشعين غير هيابين .

وقسم منهم كان يهتم بحبه فقط لخزن المـال . كان سير وليم بيركلي حاكما في ڤرجينيا لمدة ثلاثين سنة تغير من حاكم منتخب محترم الى حاكم مستبد لما اصبحت ڤرجينيا مستعمرة التـاج وسبب ثورة هنـاك سنة ١٦٧٦ . وكان الحكام بصورة عامـة يتمتعون بصلاحيات واسعة حتى حق الاعدام وحل الجمعية التشريعية أو تأجيلهـا . وكان هناك مجلس تنفيذي استشاري وكان اعضاؤه من المتجولين واصحاب النفوذ يمكن ان تضغط على الجمعيـة التشريعية . لكن احتفظت الجمعيـة بقوتها ما دام الماليـة كانت من صلاحياتها . فلا يمكن تقديم المـال الا بعد الحصول على الامتيازات كالبرلمـان الانكليزي تمـاما . وقد تمكنت المستعمرات الانكليزية ان تنال درجة من الاستقلال الذاتي قبل الثورة . وقد حصلت هـذه المستعمرات الامريكيـة تدريجيـا على التجاريب الكافية في الادارة والسياسة لكن كانت هناك حاجـة الى التعاون بين المستعمرات (الولايات) الامريكيـة ايضا . ولهـذا كانت الولايات تجتمع لمناقشة المشاكل العامة وحلها . فكانت اخطـار الهنود الحمر في ١٦٤٣ ، جعل ولاية مساجوسيت وكناتيكت ونيوهاڤن تتقارب لتكوين اتحاد نيوانيگلند . وكذلك خطر الهنود الحمر دفع بڤرجينيا ان تدافع عن كارولينا . ولما زال الخطر زال التحـالف والتعاون . لكن الخطر لم يأت من جانب الهنود الحمـر فكانت الدول الاوربيـة ايضا تهدد هذه المستوطنات .

حرب اكسبرك ١٦٨٩–١٦٩٧ :

لما اعلن لويس الرابع عشر الحـرب على الامبراطورية المقدسـة وتألبت الدول الاوربيـة ضد لويس ، كان وليم الثـالث ملك انكلترا

عدوا لدودا للويس وانضم الى الحلف وقد انعكست هذه الحرب في امريكا التي عرفت بحرب الملك وليم . وهاجم الفرنسيون في كندا المستوطنات الانكليزية في امريكا بالتحالف مع القبائل الهندية المجاورة . فهاجموا نيويورك ومساجوسيت ومين Maine . وقد قام الانكليز بحملة ضد الفرنسيين واستولوا على بورت رويال ، لكنهم فشلوا في الاستيلاء على كويبيك ومونتريال .

حرب الوراثة الاسبانية ١٧٠٢-١٧١٣ :

حرب وليم الثالث في امريكا بين الانكليز والفرنسيين لم تؤد الى نتيجة ، ولم تتبادل فيها الاراضي ، لكن دب النشاط في سكان المستوطنات لابراز حماسهم الوطني والتعاون في الحرب . ولما بدأت حرب الوراثة الاسبانية بعد ذلك بقليل ، بدأت في امريكا باسم حرب الملكة آن ١٧٠٢ وكوّن الفرنسيون والهنود الحمر محالفة جديدة ضد الانكليز في امريكا . وقد ارسل الانكليز جيوشا ضد مواقع الفرنسيين الحصينة ، وكان ميليشيا نيوانگلند هو الذي استولى مرة اخرى على بورت رويال في كندا وظلت بأيديهم الى نهاية الحرب . وكان الاسبان حلفاء فرنسا وشنوا غارة على كارولينا . وقد انتهت حرب الملكة آن بمعاهدة اتريخت وبموجبها ضمت انكلترا كثيرا من الاراضي الى امبراطوريتها في امريكا . فقد حصلت على آركاديا التي استبدل اسمها الى نوڤاسكوشيا ، ونيوفاوندلاند ومنطقة خليج هدسن وكلها في كندا . وبذلك خسر لويس الرابع عشر معظم اجزاء امبراطوريته في امريكا الشمالية .

حرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠–١٧٤٨ :

وقد خسر لويس الخامس عشر البقيـة الباقية من مستعمراته في حرب الوراثـة النمساوية التي عرفت في امريكـا بحرب الملك جورج (الثاني) . وقد توغـل الانكليز في هذه الحـرب بسبب المنافسة الاستعمارية . وقد استولت حملة من نيوانگلند على حصن لويسبرگ في جـزيرة « كاب بريتـون » التي كانت ملجأ للقرصـان المهاجمين على تجارة نيوانگلند . لكن لما انتهت الحـرب رجعت الجزيرة الى فرنسا مما اسخط المستوطنات الانكليزية في نيوانگلند .

حرب السبع سنوات ١٧٥٦–١٧٦٣ :

لم تكن حرب الملك جورج الثاني ذات نتيجة ، وكانت حربا ثانية تلوح في الافق ، وخاصـة لما اجبرت المستعمرات الامريكيـة على رد الاراضي التي استولت عليها . ومـع ان الانكليز كانوا اكثر عددا في امريكا من الفرنسيين (في كندا وبعض اجزاء امريكا) ، لكن في الوقت الذي كان الانكليز في مستوطنات مستقلة ، كل لها ادارة خاصة ، كانت المستعمرات الفرنسية تتمتع بادارة مركزية قوية . وقد حاول الانكليز ان يحصلوا على صداقة الهنود الحمـر وتكوين نوع من الاتحاد بين المستوطنات الامريكية . وفي سنة ١٧٥٤ ، دعت الحكومـة الانكليزية ممثلي المستعمرات الانكليزية الى عقد مؤتمر عقد في الباني بالقرب من نيويورك . وجـاء الممثلون من مـاري لاند وبنسلفانيـا ونيويورك ومستوطنات نيوانگلند . وكان الغـرض من المؤتمر تكوين نوع من

الاتحـاد الكونفيدرالي بين المستوطنات الانكليزية في امريكا والدفاع المشترك عن انفسهم وعن مصالحهم في وقت الحرب والسلم .

وقد وافق المؤتمرون بان الاتحاد ضروري وقدم بنيامين فرانكلن خطـة لاتحـاد المستعمرات الانكليزيـة تحت حكـم رئيس عـام President general ومجلس اتحـادي لتأسيس جيش نظـامي وجمع الضرائب ، والسيطرة على الاراضي العامة ، وتكفـل العلاقات مع الهنود الحمر . ومع ان المؤتمرين وافقوا على هـذه الخطة المعروفة بمشروع البـاني ، لكن حكومات الولايات لم ترغب ان تتنـازل عن سلطاتها واستقلالها . كما ان حكومـة لندن تخوفت من هذا المشروع الذي يمكن ان يضر بمصالح التاج . وقد ناقش شعوب المستعمرات هذا المشروع بحماس وساعد على تكوين الاتحاد فيما بعد .

نشبت الحرب في امريكا سنتين قبل بدءها في اوربا ، وذلك عندما اطلق جـورج واشنطن ، وهو ضـابط مسح ، النار على جماعـة من الفرنسيين في بنسلفانيا . وقد غيّر هذا العمـل تاريخ المنطقة ، وكان تأثيره على الدول الاوربية ان نشبت الحـرب فيما بينها بعد سنتين . وبينما كانت الحـروب السابقة في امريكا انعكاس للحروب الاوربية ، كانت حـرب السبع سنوات قد بدأت في امريكـا سنة ١٧٥٤ وعرفت بحرب الفرنسيين والهنود واستمرت الى سنة ١٧٦٣ ، اي مدة تسـع سنوات . فقد بدأت ببناء الفرنسيين عـددا من الحصون في وادي نهر اوهايو وبذلك هدد تقدم المستوطنين الامريكان نحـو الغرب . فتقدم الانكليز لمواجهـة الخطر الذي يهددهم من الخلف . غير ان انتصـار الهنود الحمر على الجنرال ادوارد برادوك وجيشـه النظامي الذي لم

بنعود على حرب الهنود الحمر في الغابات في سنة ١٧٥٥ ، اوقف تقدم الانكليز وادخل الشك في اذهان سكان المستوطنات الانكليزية في امريكا حول قابلية الجيش الانكليزي الحربية في امريكا .

وقد توالت الانتصارات الفرنسية عندما ألحق القائد الفرنسي ماركيز دي مونتكالم Marquis de Montcalm الهزائم اثر الهزائم على الجيش الانكليزي في امريكا . لكن الوضع تغير عندما جاء وليم پت الى الوزارة في لندن . فقد وجد هذا ان الصراع بين انكلترا وفرنسا حول تأسيس امبراطورية على النطاق العالمي فقرر تعبئة جميع موارد الثروة والطاقة الانكليزية لهذه الغاية . وبينما ترك الحرب الاوربية لفردريك الكبير ملك بروسيا حليفته ، ركز هو جهوده على الحرب في امريكا . فاستولى الجيش الانكليزي على لويزبرك ، وعدد من الحصون الفرنسية في منطقة البحيرات الكبرى ووادي نهر اوهايو ، وفي ١٧٥٩ ، توجه القائد الانكليزي وولف Wolfe ، مع ٤٥٠٠ جندي نحو مدينة كويبك والتقى بجيش مونتكالم الفرنسي في سهل يسمى بسهل ابراهام . وفي المعركة الحاسمة بينهما قتل القائدان وولف ومونتكالم ، لكن الانكليز انتصروا وانتهى بذلك دور فرنسا في امريكا . وقد اقنعت فرنسا اسبانيا بالدخول في الحرب لكن النتيجة ان خسرت اسبانيا كثيرا من اراضيها في امريكا واستولى عليها الانكليز .

وفي معاهدة بارس التي وقعت سنة ١٧٦٣ وانتهت بموجبها حرب السبع سنوات ، اجبرت بريطانيا اسبانيا ان تتنازل عن فلوريدا ، كما اجبرت فرنسا ان تتنازل عن كندا ووادي نهر مسيسبي عدا نيواورلين

في مصب النهر . وقد حصلت اسبانيا على مقاطعة لويزيانا من فرنسا مقابل دخولها في الحرب بجانبها . ولم يبق لفرنسا في امريكا سوى بعض الجزر بالقرب من نيوفوندلند ، وفي البحر الكاريبي ونيوگينيا في امريكا الجنوبية .

كلفت الحرب بريطانيا كثيرا من الاموال والانفس . وقد بلغ الدين القومي ١٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون باون ، وكان على الشعب الانگليزي بما في ذلك سكان سكتلندة ان يدفعوا المبلغ . وشعرت الحكومة الانگليزية بأن الحاجة ماسة لفرض ضرائب جديدة وخاصة فان هذه الحرب اعلنت لخير سكان الانگليز في امريكا وانگلترا ودفاعا عن مصالحهم . كما ان سكان المستعمرات الامريكية لم يعودوا فقراء كما كانوا سابقا . وقد بلغ عددهم في ١٧٦٣ ، حوالي ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة . وكانت الزيادة الهائلة في السكان تعود الى المهاجرة الكبرى في القرن الثامن عشر . فكثير من الالمان والسكتلنديين والارلنديين والسويسريين هاجروا ليبدأوا حياة جديدة في امريكا . فازدحمت المدن الامريكية واندفع الناس غربا . وكانت المستوطنات الامريكية غنية ولهذا وجدت الحكومة الانگليزية ان ليس هناك ما يدعو الى اعفائهم من الضرائب واشراكهم في دفع الديون القومية الناتجة عن الحرب .

وكان سكان امريكا قد بينوا انهم كسوا (٢٥) الف جندي وانفقوا عليهم خلال الحرب ولا يؤيدون تحمل عبء اكبر . ومع انهم استفادوا كثيرا من الحرب ، لكن ذلك جعلهم غير راغبين في دفع نفقات الحرب وخاصة لمصلحة بريطانيا . لقد تحررت المستعمرات الامريكية

من تهديدات فرنسا ، ولا تحتاج الى حماية بريطانيا • وسببت الهجرة الكبرى تغييرا في تركيب السكان في امريكا بمجيء عدد كبير من الاوربيين غير الانكليز الذين عارضوا الانكليز وسياستهم الانگليكانية ودفع نفقات حروبهم • وبدأ الصراع ولم ينته الا بالحرب والاستقلال •

الثورة الامريكية

المجتمع الامريكي قبل الثورة :

كانت اكثرية المجتمع الامريكي في المستعمرات الثلاثة عشر قبل الثورة انكليزيا هاجروا من انكلترا ، وجلبوا معهم الحضارة الانكليزية من لغة وقوانين وانظمة وادب وثقافة ومؤسسات سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية • لكن هذه المؤسسات الانكليزية بدأت تتطور في امريكا وتأخذ قالبا امريكيا بعد القرن السابع عشر • فمن الناحية الاجتماعية كانت الرابطة العائلية المتوارثة من النظام العائلي الانكليزي موجودا ومبنيا على العرف والتقاليد الانكليزية الموروثة بأن الاب هو رأس العائلة اقتصاديا وقانونيا وانهم يشتركون جميعا في استغلال الارض • لكن هذا التماسك الاوربي اخذ يرتخي في العالم الجديد بسبب الظروف الاقتصادية الجديدة • فقد قدمت امريكا اراض رخيصة وحرف كثيرة جديدة تستهوي الشبان ليتركوا بيوت آبائهم والبدء بحياة جديدة معتمدين على انفسهم • وكانت النتيجة ارتخاء سلطة الاب •

كما ان الفرص الاقتصادية الكثيرة قضت على التقاليد الاجتماعية الجامدة التي تقرر منزلة العائلة . فكان من السهل ان يصبح الخادم ملاكا كبيرا والحداد صاحب مصنع كبير ، والفلاح الفقير كتوماس جيفرسن رئيسا للجمهورية وبنيامين فرانكلن المفلس عالما ومخترعا وسفيرا لبلده وصاحب ثروة .

ويمكن القول من هذا العرض السريع للمستعمرات الامريكية ان امة جديدة ظهرت الى حيز الوجود ، كانت تتطور منذ الهجرة الاولى سنة ١٦٠٧ الى ان نشبت الثورة في ١٧٧٦ . وقد كتب جون آدمز John Adams ثاني رئيس جمهورية للولايات المتحدة يقول : « ان الثورة بدأت قبل اشتعال الحرب . اذ كانت الثورة في فكر وقلب الشعب » . واذا تتبعنا نمو هذه المستوطنات منذ البداية نلاحظ كيف ان مجرى تأريخ هذا الشعب تأثر بمؤثرات خارجية . فقد ولدت امريكا وتطورت من التيار العام للتأريخ الاوربي والعالمي .

ان التيارات التي احدثت التغييرات في أوربا في بداية العصور الحديثة وجدت تأثيراتها في امريكا . فقسم من الشعب الامريكي هاجر بتأثير الثورة الدينية في عهد الاصلاح الديني . وقد أثرت الثورة السياسية في القرن السابع عشر على مؤسساتها كما ان الثورة الفكرية في عصر النهضة والتنور وجدت انعكاساتها في امريكا في القرن الثامن عشر . ان التجارة الحديثة والثروة التي تدفقت نتيجة للاستكشافات الجغرافية احدثت مشاكل في اوربا وامريكا ولم تستطع سياسة احتكار التجارة وتقييدها حلها . وقد ولّدت الحروب الاوربية التوسعية والاستعمارية الشعور في المستعمرات الامريكية بأن آن

الاوان للانفصال بعد مدة طويلة من الوصاية والحكم الذاتي . ولم يبق سوى احداث بسيطة ومنازعات قليلة بين ١٧٦٠ و١٧٧٦ حتى تنفصل هذه المستعمرات ، علما ان بريطانيا قد تغلبت على مشاكل ومنازعات أهم وأشد قبل وبعد الثورة الامريكية في اماكن اخرى ، لكن احداث امريكا كانت من نوع آخر أدت الى الثورة فالحرب بين بريطانيا ومستعمراتها الامريكية .

لقد كان الاصطدام بين بريطانيا والمستعمرات الامريكية « نتيجة توسع الشقة بين الجانبين اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، منذ عشرات السنين ، ولم يعد النظام السياسي والاجتماعي يلائم الظروف الامريكية المتغيرة مما ادى الى الثورة والاستقلال . لقد كان عامل البعد والمحيط والظروف التاريخية من الاسباب التي بلورت روح القومية الامريكية» . ومع ذلك فان العامل الاقتصادي والمالي هو الذي ادى الى تأزم الوضع في الستينات من القرن الثامن عشر ثم اشتعال الثورة في ١٧٧٦ .

وعلى الرغم مما ذكرنا كان الشعور السائد في المستعمرات الامريكية بانهم رعايا بريطانيا وان الدم الانكليزي يجري في عروقهم . وكتب بنيامين فرانكلن في ١٧٦٠ ، اثناء حرب السبع سنوات بين الانكليز والفرنسيين في امريكا « انه مسرور باخضاع كندا ، ولو انه أحد رعايا المستعمرات ، لانه بريطاني الاصل . » كما انه كتب بعد معاهدة باريس ١٧٦٣ ، لما رجع من انكلترا « انه لا حدود لسروره ، ولا احد يشاركه في السرور ، بقدر ما هو يشعر في انكلترا » . وحتى لما توترت العلاقات بين سكان المستعمرات الامريكية وبريطانيا ، كان الناس ينشدون في الاغنية التي كان عنوانها ڤرجينيا هرتس اوف اوك

Virginia Hearts of oak اتمائهم البريطاني •

ولو نحن نحتفل ونسمن على التربة الامريكية

لكننا نختص برعايا الجزيرة البريطانية

ومن الذي تبلغ به النذالة ان ينكر اسمنا

ما دام الدم البريطاني الصحيح يجري في عروقنا

وهـذا إن دل على شيء ، يدل على ولاء سكان المستعمرات الامريكية للوطن الام واستمر هذا الولاء الى حين نشوب الثورة •

القيود على المستعمرات :

لقد كانت المستعمرات الامريكيـة تتمتع بنوع من الاستقلال الاقتصادي منذ أمد بعيد ولو ان السكان لم يشعروا به تماما • وكانت النتيجة المنطقيـة لذلك الاستقلال السياسي ، لكنهم لم يطالبوا بذلك الا بعد أن شعروا أن استقلالهم الاقتصادي في خطـر ، ولا يمكن حمايته الا بالاستقلال السياسي •

لقد كان الصـدام الاقتصادي بين بريطانيـا وامريكا متأصل جذوره في المبادىء الاساسية للمذهب التجـاري الذي اكد على وجود المستعمرات التي تكوّن سوقا رابحـا للبضائع الانكليزية ، ومصدرا مهما للمواد الاولية والمواد الخـام التي لا تتوفر في بريطانيا ، وحصنا منيعا للدفاع عن الامبراطورية البريطانيـة ، ولم تحـدث مشكلة بين الجانبين طالما سـارت مصلحة الوطن الام جنبـا الى جنب مع مصلحة المستعمرات الامريكيـة • لكن بعد حرب السبع سـنوات انتهى عهد

المصالح المشتركة لان المستعمرات اصبحت اغنى من الوطن الام وتستطيع ان تدافع عن نفسها .

كانت انكلترا قد فرضت قيودا على التجارة منذ عهد اوليفر كرومويل . فبموجب قانون الملاحة الذي سُنّ سنة ١٦٥١ ، يجب ان تكون الحمولات التجارية بين بريطانيا ومستعمراتها على السفن الانكليزية والبحارة الانكليز . وفي ١٦٦٠ صدر قانون آخر فرض بالاضافة الى ما ذكرنا ان تكون السفن مصنوعة في بريطانيا ومستعمراتها . كما فرض القانون ان بعض المنتجات كالتبغ والقطن والكتان والسكر والنيلة وغيرها والمنتجة في المستعمرات يجب ان تشحن الى بريطانيا فقط . واضيفت بمرور السنين بضائع اخرى بحيث شملت اغلب المنتجات الامريكية بحلول ١٧٦٤ ، كالحديد والنحاس والفرو والجلود والحرير الخام والاخشاب وجوز الهند والزفت والقار وكل ما تحتاجه السفن . كما منعت الحكومة الانكليزية المستعمرات الامريكية من الاستيراد المباشر من البلدان الاجنبية وخاصة تلك التي تنافس البضائع البريطانية . وان البضائع الاجنبية الى المستعمرات يجب ان تمر ببريطانيا . وفي سنة ١٦٩٩ ، وضعت قيود على اصدار المنتجات المستعمرات الصناعية الى الخارج كي لا تنافس المصنوعات البريطانية وخاصة الاقمشة الصوفية . كما منع تصدير القبعات المصنوعة في المستعمرات الى الخارج . وقيدت بريطانيا تجارة المستعمرات مع جزر الهند الغربية .

وفي ١٧٥٠ سمح البرلمان الانكليزي تصدير الحديد الخام الى انكلترا لحاجة الصناعات الانكليزية الى الحديد ، لكن منعت

المستعمرات من المصنوعات الحديدية كي لا تنافس الصناعات البريطانية . ومما اثار سخط الناس في المستعمرات قرار البرلمان سنة ١٧٥١ بعدم قبول الاعتمادات المالية لدفع الديون في نيوانكلند ، وذلك لان عجز الميزان التجاري في المستعمرات الامريكية منذ ١٦٩٠ أجبرت بعض الولايات الى استخدام العملة الورقية بدلا من المعدنية ، وخاصة ايام الحرب . ولما قبلت حكومات الولايات العملة الورقية التي لم يكن لها رصيد لدفع الضرائب ، اصبحت هذه العملة مرغوبة . وبصورة تدريجية تحولت عملة الولايات الامريكية الى العملة الورقية . لكن نجاح العملة الورقية في المستعمرات ادى الى التضخم وانخفاض سعر العملة وشكاوى التجار الانكليز انهم يخسرون اموالهم مما اجبر البرلمان الانكليزي الى سن القانون المار الذكر سنة ١٧٥١ .

وعلى الرغم من كل تلك القيود سكت سكان المستعمرات لانهم كانوا بحاجة الى بريطانيا تدافع عنهم في الوقت الذي كان الفرنسيون المستولين على كندا يحرقون قراهم بالاتفاق مع الهنود الحمر ، وكان الجيش الانكليزي يدافع عنهم . كما ان بريطانيا في النصف الاول من القرن الثامن عشر كانت تغض النظر عن التهريب وعدم تنفيذ القيود التي فرضتها على القارة ، لان سير روبرت والپول رئيس الوزراء وجد ان تنفيذها يكلف بريطانيا كثيرا من حيث الموظفين والسفن والبحارة والاموال التي يجب ان تخصص لكل ذلك . ولهذا طبق سياسة الاهمال او السكوت وعدم الحركة ودع الكلب نائما ، كما كان التعبير شائعا في ذلك العهد .

لقد تغير الوضع بانتهاء حرب السبع سنوات ، واصبح جورج كرانفل رئيسا لوزارة المحافظين سنة ١٧٦٣ ، واراد هو وزملاؤه انهاء السياسة السابقة في الاهمال والتقصير ، وخاصة ان بريطانيا استولت على اراضي واسعة من فرنسا كوادي نهر سنت لورنس ومسيسبي ، وان الحرب كانت باهضة التكاليف ، وعليه يجب :

(١) اجبار المستعمرات ان تدفع جزءا من تكاليف الحرب والدفاع •

(٢) فرض سيطرة تامة على الاراضي الجديدة التي استولت عليها في الغرب من فرنسا •

(٣) تطبيق قوانين التجارة ، وخاصة قانون الملاحة تطبيقا محكما ، وقد واجهت هذه المقترحات معارضة شديدة في المستعمرات الامريكية.

ضريبة السكر :

وفي ١٧٦٤ قرر كرانفل وضع ضريبة على السكر المستورد الى امريكا بغية جمع (١٥٠) الف باون سنويا ، وتنفيذ قانون الملاحة لمنع التهريب • وكانت الضريبة الثانية على الطوابع سنة ١٧٦٥ • وعليه يجب استخدام الطوابع في جميع الامور بوضع طابع على العرائض وورق اللعب والجرائد والكراسات • فوقع عبئها على عاتق الشعب ، وكان اصحاب الجرائد والمحامون والتجار اكثرهم تذمرا • وانتشر التذمر في كل مكان • وقال احد المحامين جيمس اوتس otis في بوستن ان دفع الضريبة دون تمثيل برلماني عمل استبدادي • واصبحت العبارة شائعة بعد ذلك • وكان هؤلاء يقولون ان سكان

المستعمرات الامريكيـة هم رعايا الانكليز الحقيقيين وهم من اصل انكليزي ويتمتعون بنفس الحقوق التي منحهـا لهم الدستور والتقاليد الانكليزية ، وان دفع الضريبة دون تمثيـل برلماني تجاوز صريح على حقوقهم الطبيعيـة والدسـتورية • وانهـم في نفس الوقت يدفعـون الضرائب الى حكومات ولاياتهم لانهم ينتخبون ممثليهم الى السلطات التشريعية في هذه الولايات ، بينما البرلمـان البريطاني لا يمثلهم لانهم لا ينتخبون ممثليهم الى ذلك البرلمـان • واقنـع المثقفون منهم عامـة الشعب انه برفضهم دفع الضرائب الى البرلمان الانكليزي انما يدافعون عن مبدأ الحرية والحكم الذاتي • وادت المعارضة الى عقـد مؤتمر في نيويورك في تشرين الاول ١٧٦٥ سمي بمؤتمر الطـوابع الذي اصدر اعلان الحقوق : كحق المحاكمـة بوجود المحلفين ، ويكون لهم الحق بفرض الضرائب على انفسهم ، والغاء قانون الطوابع •

ادت المعارضة ومقاطعـة البضائع الانكليزية واعمال العنف الى الغاء قانون الطوابـع في انكلترا • وفي هـذا الوقت تغـيرت الوزارة واصبح روكينگهام من الهويگز رئيسـا للوزارة (١٧٦٦) والبرلمان اعلن حقه الدستوري في التشريع للمستعمرات • واكد وزير الخزانة ، شارل تاونسند ، هذا الحق • وقدم عـددا من المقترحات الى البرلمان بفرض الضرائب على الواردات وزيادة الدخل •

قانون تاونسند ١٧٦٧ :

ومن بين الضرائب المفروضة ، ضريبـة على الشاي ، واخرى على الزجاجيات والورق والمخالف يحاكم دون وجود المحلفين • لقد سبّب

هذا القانون اعتراضا واحتجاجا عاما . ونقص الاستيراد من بريطانيا .
وكانت النتيجة الاصطدامات الدموية في بوستن عام ١٧٧٠ . وفي هذا الوقت بالذات (١٧٧٠) عيَّن الملك وزارة جديدة برئاسة لورد نورث (التوري) الذي كان مخلصا للملك ، فالغى هذا ضرائب تاونسند .
لكن حدث ان اضطرب الوضع المالي لشركة الهند الشرقية الانكليزية التي اصبحت على وشك الافلاس . ولانقاذ الشركة منح البرلمان الانكليزي عدة امتيازات الى الشركة سنة ١٧٧٣ ، من بينها اعادة الضرائب المدفوعة عن الشاي الهندي المخزون في لندن الى الشركة شريطة تصديرها الى امريكا . لقد كان الشاي الهندي المخزون في لندن من النوع الممتاز الذي بيع بسعر ارخص من الشاي الهولندي الرديء الذي تعوّد الامريكان شرائه .

اعتبر المتطرفون في امريكا عمل البرلمان هذا نوعا من الرشوة التي قد تؤدي الى القضاء على الحقوق والحريات التي يتمتعون بها . ويمكن اتخاذ ذلك ذريعة في المستقبل لفرض ضرائب اخرى . وعليه تنكّر جماعة من أهل بوستن في زي الهنود الحمر وافرغوا السفينة البريطانية المحملة بصناديق الشاي في احدى ليالي كانون الاول (ديسمبر) ١٧٧٣ .

لقد كان العقاب صارما . اذ ان الحكومة البريطانية اغلقت ميناء بوستن (في ١٧٧٤) ، وألغت حكومتهم ونظام حكمهم الذاتي ، واحتل الجنود البريطانيون ولاية مساجوسيت . وبموجب قانون كويبيك في حزيران ١٧٧٤ ، منحت الحكومة البريطانية المستعمرات التي حصلت عليها من فرنسا في كويبيك كندا في حرب السبع سنوات والتي ظلت

مهملة الى ذلك الوقت ، الحرية الدينيـة الكاملة ، وممارسة قوانيهم الفرنسية . وفي نفس الوقت ألحقت بريطانيا كل الاراضي الواقعة شمال نهر اوهايو بمقاطعـة كويبيك . وبذلك وضعت الحكومـة البريطانية حداً لشـركات الاراضي في ڤرجينيـا وغيرها من اسـتثمار وادي نهر اوهـايو . وكان الغـرض من قانون كويبيك الانتقـام من سـكان نيوانگلند البيوريتان المتزمتين بالحاقهم بالكاثوليك الفرنسيين الذين يكرهونهم .

المؤتمر القاري الاول :

وفي سنة ١٧٧٤ اجتمع ممثلو الولايات الامريكية في فلادلفيا للبت في وضع قرار يوصي بموجبه الولايات كي تتخـذ اجراءات لاسترداد حقوقها العادلة وحرياتهم الدينية والمدنية ، واعادة العلاقات الودية بين الولايات وبريطانيـا . وارسل المؤتمرون عريضـة الى الملك جورج الثالث ، لكنهم استمروا على مقاطعة البضائع الانكليزية . وكان الملك جورج والحكومة ضـد التنازلات ، على الرغـم من ان وليم پت في مجلس اللوردات وادموند برك في مجلس العموم وقفا لاجـل التفاهم دون جـدوى ، ظنـاً منهم ان الثبات في وجـه المستعمرات يؤدي الى التراجع . وكان هناك من يريد الوقوف في وجه بريطانيا وهؤلاء سمّوا أنفسهم الوطنيون وأرادوا تحدي الحكومة الانكليزية والبرلمان وفعلا اعلنوا الثـورة . وفي نيسـان ١٧٧٥ بدأت الاشتباكات بين القـوات الانكليزية وسكان المستعمرات في ليكسنكتن مساجوسيت . وبعـد شهر قدم المؤتمر عريضـة اخرى الى الملك لتخفيف العبء على سكان المستعمرات . وفي نفس الوقـت عيَّن سـكان المستعمرات جورج

واشنطن قائدا عاما للمليشيا .

لقد انقسم الامريكيون الى الثوار الذين دعوا انفسهم وطنيين وآخرين موالين لبريطانيا وسموا بالمخلصين . وقام هؤلاء الموالين ببذل الجهد لترويج سياسة بريطانيا في امريكا . ولربما كان عدد كبير من سكان امريكا غير مبالين بما يجري ولم يهتموا بأي من الجانبين . لكن الوطنيين ازداد عددهم بصورة تدريجية وسيطروا على المجالس التشريعية في المستعمرات وعلى المؤتمرات القارية . ونشر الوطنيون مناشير وكراسات ذات طابع ثوري ، اشهرها تلك التي كتبها توماس پين والتي عنوانها البديهيات Comm on Sense . وكان پين انگليزيا مهاجرا الى امريكا وتعاطف مع الثوار . وقال پين ان الوقت قد حان للمستعمرات ان تقرر الانفصال النهائي من انگلترا . وليس هناك مبرر للبقاء مخلصا للملك . ولم يُمنح الملوك حقا الهيا ليحكموا زملائهم البشر، والملوك انذال متوّجين ، واذا كانت سلطاتهم مطلقة فهم طغاة، واذا كانوا ملوكا دستوريين كملوك انگلترا فلا فائدة فيهم ويكلفون الشعب كثيرا . ونشرت كراسة توماس پين في فلادلفيا في كانون الثاني ١٧٧٦ في الوقت الذي كان جورج الثالث يتجاهل عرائض الامريكان للمصالحة ، ويدعو الى ارسال الجيوش الى امريكا لسحق الثورة . ولهذا كانت نشرات توماس پين توزع بالالوف في المستعمرات وتلاقي رواجا عظيما . وهكذا فان المعارضة للضرائب تحولت الى الثورة .

اعلان استقلال امريكا ١٧٧٦ :

وفي ٤ تموز ١٧٧٦ ، وافق مؤتمر فلادلفيا باجماع الآراء اعلان الاستقلال الذي كتبه توماس جيفرسن والذي ينص على ان الناس

كلهم ، وليس بالضرورة الانكليز ، منحهم خالقهم حقوقا لا يمكن اخذها منهم ، من بينها حق الحياة والحرية ومتابعة الحياة السعيدة المفضلة ، وكل حكومة تستمد سلطتها من الشعب ورضى الشعب ، وعليه فمن حق الشعب الاطاحة بحكومة جائرة وتأسيس حكومة شعبية بقوة السلاح اذا اقتضت الضرورة ، اي حق الثورة . وهكذا اصبحت الحقوق الطبيعية والسيادة الشعبية وحق الثورة اساسا لاتحاد المستعمرات الامريكية وتكوين دولة حرة مستقلة . واستقبل الشعب اعلان الاستقلال بحرارة .

وفي نيويورك كانت الفرحة عظيمة وحطموا تمثال الملك جورج الثالث وصنعوا منه الاسلحة ، واسكتوا الموالين لبريطانيا ، واعلنوا انهم يحاربون بريطانيا كدولة مستقلة ودعوا الدول للاعتراف بهم .

رد فعل بريطانيا :

صرح كل من الملك جورج والبرلمان ان اعلان الاستقلال عمل خياني والثوار عصاة متمردين . وحاول الثوار عبثا جلب الهويكز في انكلترا والكنديين الى جانبهم . فالكنديين الفرنسيين في كويبك ونوفاسكوشيا وجدوا انهم كاثوليك وحرياتهم تضمن من قبل بريطانيا البعيدة المتسامحة اكثر من الامريكان البروتستانتيين المتطرفين القريبين منهم ؛ ولهذا بقوا مخلصين للتاج البريطاني .

لقد كان باستطاعة بريطانيا بقوتها وثروتها وسطوتها ان تسحق الثورة وخاصة ان اغلبية سكان امريكا لم يكونوا مع الثوار . لكن انكلترا لم تعمل بصورة جدية فقد ارسلت (٣٠) الف جندي في بداية الثورة اغلبهم من المرتزقة الالمان ، للاستيلاء على نيويورك . وقد نالت

القوات الانكليزية انتصارات كثيرة . وكان واشنطن حذرا ينسحب امام القوات التي تفوق بكثير قواته ، ويحارب في معارك جانبية . غير ان استسلام الجنرال الانكليزي بركوين في ١٧٧٧ في ساراتوكا مع ستة آلاف جندي بعد ان هاجم نيويورك ، في الوقت الذي كان فرانكلن يقنع الحكومة الفرنسية ان تتحالف مع امريكا ، غيّر الموقف واعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا سنة ١٧٧٨ .

لقد اصبحت الحرب على نطاق عالمي بعد ان انضمت كل من اسبانيا وهولندة في الحرب بجانب فرنسا والثوار الامريكيين . فقد دخلت اسبانيا في الحرب ضد انكلترا سنة ١٧٧٩ ، وهولندة التي منعتها بريطانيا من التجارة مع مستعمراتها الامريكية اعلنت الحرب بجانب فرنسا واسبانيا سنة ١٧٨٠ . وانغمست دول اخرى كان الاسطول الانكليزي يعيق سير سفنها ويفتش البضائع الموجودة فيها خشية نقلها الى امريكا . ومن بين الدول التي اعلنت الحياد المسلح ضد الانكليز كاترينا الثانية قيصرة روسيا والسويد والامبراطورية النمساوية والبرتغال والدانيمرك ، لكن الحرب الحقيقية دارت بين انكلترا ضد فرنسا وهولندة واسبانيا . ولم تكن حرب هولندة تعني كثيرا الا في بحر الشمال . لكن الاسطول الاسباني الفرنسي كان يهاجم الامبراطورية البريطانية في كل مكان ، وحتى الجزيرة البريطانية كانت مهددة بالهجوم في سنة ١٧٧٩ ، لما ابحرت ست وستون سفينة ضخمة حاملة ستون الف جندي . لكن الحملة فشلت لان القوات الانكليزية في جبل طارق صدت الهجوم الاسباني الفرنسي على المملكات الانكليزية .

اما في المستعمرات الامريكية ، تمكن الثوار بمساعدة الجيش والاسطول الفرنسي التغلب على الجيش الانكليزي • فقد استطاع الجيش الامريكي بقيادة جورج واشنطن والجيش الفرنسي بقيادة مركيز دي لافايت ومساعدة الاسطول الفرنسي ان يطبق على القائد الانكليزي الجنرال لورد كورنوالس في يورك تاون فرجينيا ويجبره على الاستسلام في تشرين الاول ١٧٨١ ، مع سبعة آلاف جندي • لقد كان استسلام كورنوالس نهاية الحرب الامريكية لان بريطانيا كانت بحاجة الى جنودها في الحرب في اماكن اخرى من امبراطوريتها •

وقد تمكنت بريطانيا ان تنال انتصارا على الاسطول الفرنسي في جزر الكاريبي سنة ١٧٨٢ ، وتستعيد الموازنة مع الفرنسيين في الهند بين ١٧٧٨–١٧٨١ ، كما انتصرت على الهولنديين وصدت الاسبان في جبل طارق • لكن الحرب الطويلة والانهزام في امريكا اجبرتها على عقد الصلح في باريس مع الامريكان في ١٧٨٣ ، ومع اسبانيا وفرنسا في فرساي •

معاهدة باريس وفيرساي ١٧٨٣ :

بموجب معاهدة باريس اعترفت بريطانيا باستقلال الولايات الثلاثة عشر الامريكية باسم الولايات المتحدة الامريكية تحدها شمالا كندا والبحيرات الكبرى ، وشرقا المحيط الاطلسي ، وغربا نهر المسيسبي ، وجنوبا فلوريدا • ومنحت الولايات المتحدة حق صيد الاسماك في نيوفوندلاند والملاحة في نهر المسيسبي • وبموجب معاهدة فيرساي استرجعت فرنسا السنغال التي فقدتها في حرب السبع سنوات،

وتوباكو الجزيرة الواقعة في البحر الكاريبي • اما اسبانيا فحصت على جزيرة مينوركا ، وفلوريدا التي كانت تضم في ذلك الوقت الجزء الجنوبي من الباما والمسيسبي[1] • اما هولندة فعقدت صلحا منفردا مع بريطانيا سنة ١٧٨٤ بموجبه منعت من التجارة والمراكز التجارية في الهند واجبرت على ان تشارك بريطانيا في تجارة شبه جزيرة الملايو •

الولايات المتحدة الامريكية :

كانت حرب الاستقلال نهاية لسيطرة بريطانيا في المستعمرات الامريكية ، وضربة قاضية لنظرية الحق الالهي وحكم الطبقة الارستقراطية وانتصارا لمبادىء الثورة الانكليزية لسنة ١٦٤٨ والثورة الجليلة لسنة ١٦٨٩ ، ولنظرية العقد الاجتماعي التي طورها جون لوك والمبادىء الدمقراطية والفلسفية التي ظهرت في القرن الثامن عشر وبلورها روسو ومنتسكيو وجيفرسن وتوماس پين وغيرهم •

لقد اكدت الجمهورية الجديدة على النظام البرلماني الجمهوري الحر ، والسيادة الشعبية وحق تقرير المصير للشعوب • واصبحت الحكومة الجديدة بقيامها بتجربة الدمقراطية لنفسها وتصديرها الى الخارج ايضا ، مثالا لشعب كافح الظلم والملكية والاستعباد •

---

(١) احتفظت بريطانيا بموجب معاهدة باريس بكندا واعطت فلوريدا وغربي نهر المسيسبي الى اسبانيا . وقد وجد الامريكان انفسهم محاطين بالاعداء من كل الجهات . فقد اغلقت بريطانيا اسواق جزر الهند الغربية في وجه البضائع والسفن الامريكية . وكذلك فعلت اسبانيا وسدت منفذ نيواورلين في وجه الملاحة الامريكية . كما ان فرنسا فرضت قيودا على التجارة ومنعت تبوغ فرجينيا واسماك نيوفوندلند من اسواقها . وهذا يعني ان بريطانيا انتقمت من سكان الولايات المتحدة .

وقد تحولت جمهوريات الولايات بصورة تدريجية الى حكومات دمقراطية بالغاء شرط الملكية او شروط اخرى كأساس للتصويت في الانتخابات . واصبحت الانتخابات حرة غير مقيدة بشروط لكل فرد بلغ سن الرشد ، والانتخاب يشمل الموظفين وحكام الولايات ايضا .

لم يكن الاتحاد بين الولايات قويا في اول الامر بموجب الدستور الذي وضعه المؤتمر القاري الثوري سنة ١٧٧٧ . لكن في سنة ١٧٨٧ ، وضع دستور اتحادي في فلادلفيا وحد الولايات الثلاث عشرة . ففي الوقت الذي تقوم كل ولاية بادارة شؤونها ولها مجلسها التشريعي لوضع قوانين الولاية ، تأسست حكومة اتحادية فيدرالية قوية تتمتع بصلاحيات واسعة . فهناك السلطة التشريعية من مجلس النواب الذين ينتخبون عن طريق التصويت الشعبي ، ومجلس الشيوخ يمثلون الولايات بعضوين لكل ولاية ، وينتخبون بالتصويت الشعبي ايضا . والرئيس ينتخب بصورة مباشرة من قبل الشعب ليترأس حكومة الولايات المتحدة والسلطة التنفيذية . ومجلس قضائي اعلى يكون حكمه هو القرار الفاصل النهائي في كل مشكلة . وفي ١٧٩١ اجري اول تعديل للدستور لضمان الحريات الفردية وحرية العبادة .

وفي سنة ١٧٨٩ انتخب جورج واشنطن اول رئيس للولايات المتحدة الامريكية . وبرهنت التجربة ناجحة لما اعتزل جورج واشنطن الحكم من تلقاء نفسه سنة ١٧٩٧ ، بعد ان خدم دورتين في رئاسة الجمهورية دون ان يفرض نفسه دكتاتورا . وخلفه جون آدمز ، من ولاية مساجوسيت ، في الرئاسة ، وكان هذا احد واضعي الدستور

الامريكي . ومنذ ذلك الوقت اصبح رئيس الجمهورية يرشح نفسه لمدة لا تتجاوز ثمان سنوات عن طريق الانتخابات التي تثير اهتمام الشعب . ولم يستثن من ذلك الا الرئيس فرانكلين روزفلت الذي انتخب اربع مرات بين سنة ١٩٣٣-١٩٤٤ . وهكذا فان الثورة التي قادها الثوار الوطنيون الراديكاليون حتى النصر ضد بريطانيا والادارة المركزية في لندن ، جنى ثمارها المخلصون الامريكان الموالين لبريطانيا[1] واسسوا حكومة فيدرالية مركزية قوية وضعت النهاية للثورات . كما ان الدستور ، مع ما فيه من النقص الذي لاحظه حتى واضعوه في ١٧٨٧ ، الا انه اثبت للتاريخ تأسيس حكومة قوية تستطيع ضمان الاستقرار الاقتصادي والتوازن السياسي في الداخل والاحترام الخارجي المتزايد .

---

(١) كانت اكثرية السكان في المستوطنات الوسطى والجنوبية مخلصين لبريطانيا وضد الاستقلال ، بينما الراديكاليون الجمهوريون هم من سكان نيوانيگلند ونيويورك وفرجينيا الذين ارادوا الانفصال وسموا انفسهم وطنيين . واثناء حرب الاستقلال بين ١٧٧٦-١٧٨٣ ، انجرف الناس مع التيار ووجدوا ان لا مفر من الانفصال عن بريطانيا فقبلوا بالامر الواقع وارادوا تأسيس حكومة مركزية قوية . وكان الجمهوريون الراديكاليون قد اسسوا حكومة كونفدرالية لادارة دفة الحرب اتهمتها المعارضة من مؤيدي حكومة مركزية قوية بالفساد وعدم الكفاءة ، وقبضت على زمام الحكم في ١٧٨١ لادارة دفة الحرب وكان اصحاب الحكومة المركزية القوية التي جاءت الى الحكم في ١٧٨١ ، من الذين كانوا موالين لبريطانيا في اول الامر وهم الذين قادوا الحرب نحو الاستقلال واسسوا الحكومة الامريكية .

الفصل الثالث عشر

الحركة الفكرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر

التقدم العلمي في عصر العقل والاستنارة (1) :

تمتاز العلوم الحديثة بانها افكار تنجت عن ملاحظة العلماء للحقائق المادية وتكوين فرضيات وضعوها تحت التجربة ، فاذا كانت النتيجة تأييدا لفرضياتهم اصبحت قوانين علمية ، والا فاهملت او عدلت بشكل من الاشكال • ولما كان العلماء لا يهتمون الا بما يمكن قياسه فيزياويا ورياضيا ، اهملوا الحدس والغموض •

وقد ظهر عدد من العلماء في اوائل العصور الحديثة امتازوا بقوة الذكاء وسعة الخيال ووضوح الذهن وعمق الفكر ، تمكنوا من وضع فرضيات مفيدة واصبحت بعد التجربة نظريات وقوانين علمية • وقد ذكرنا بعضا منهم في فصل سابق ، واشهرهم كوبرنيكس وغاليلو وكيبلر ونيبير وهارفي ، وغيرهم وعاش اغلبهم في القرن السادس عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر • وقد شاهد النصف الثاني من

(1) James White, op. cit; pp. 132-155. Hayes, op. cit; 491-576. Gottschalk; pp. 279-297.

القرن "...بيع عشر ثورة في الحركة العلمية أدت" الى ما يسمى بالحركة العقليـة والاستنارة في هذا الوقت وفي القـرن الثامن عشر • واشهر هؤلاء العلمـاء قاطبة الفيلسوف الفرنسـي ريني ديكـارت والرياضي الانكليزي اسحق نيوتن •

ريني ديكارت ١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ :

عـالم رياضي فرنسي وفيلسوف عقـلاني تجول كثيرا في فرنسا والمانيا وهنكاريا وهولندة ، وانتهى به المطـاف في السـويد حيث توفي سنة ١٦٥٠ •

وكعالم رياضي استطاع ديكارت ان يكتشف الهندسة التحليلية سنة (١٦٣٧) بتحليل الهندسة جبريا وايجـاد الترابط بينهما وتحويل الهندسة الى المعادلات الجبرية وتطبيقها في الفيزياء ، فيكون من السهل حينئذ تعبير الظواهر الفلكية ومعرفة حركة الاجسام في الفضاء •

وكفيلسوف عقـلاني كتب ديكارت كتابا عن الاسلوب الفلسفي طبعه ايضا سنة (١٦٣٧) ، بحث فيه فلسفته الثنائيـة التي يفصل فيها بين الجسم والروح والمادة والعقـل • وقال ان الروح والعقـل حقيقة اساسية ، لكنها تختلف في جوهرها عن ظواهر الطبيعة المادية بان الروح ليست مادة ، لان ليست لها ابعاد ، بينما العـالم المادي مكون من كل ما يمكن قياسه ماديا • ان الكون لا يمكن ان يكون معمولا من ذرات تختلف عن ذرات المادة معلقة في الفراغ ، لان لا يمكن ان يكون هناك فراغا لا يحتله شيء مادي •

اذا فتفسير الروح هو ان الكون مليء بجزيئات صغيرة ، او ذرات متناهية في الدقة ، غير منظورة مكونة من مواد اثيرية شفافة . وهذه الذرات الدقيقة تدور في دوامة ضخمة تتمركز في الشمس ، واسراب منها تعدو بسرعة فائقة حول الشمس وتدفع السيارات معها . وللارض دوامة صغيرة تحركها مع القمر .

لقد آمن ديكارت وعدد كبير من الناس بهذا المنطق في تفسير حركة الكون ، لان ذلك في نظرهم ، حل مسألة الجاذبية وحركة السيارات . وظن هؤلاء ان الحركة نتيجة اصطدام الاجسام بعضها ببعض . وهكذا اصبح الكون في نظر ديكارت وجماعته عبارة عن آلة ميكانيكية ضخمة خاضعة للقوانين الفيزياوية والرياضية .

جورج بيركلي ١٦٨٤–١٧٥٣ :

وقد علق جورج بيركلي ، وهو قس انگليكاني ارلندي هاجر الى امريكا ، على فلسفة ديكارت الثنائية ، بان ديكارت حاول ان يفسر ظواهر الطبيعة عن طريق المادة والحركة ، بان الله خلق كمية كافية من هذه (المادة) وتلك (الحركة) ودفعهما للعمل ، فاخذت تعمل دون مساعدة .

وكان بيركلي يعتقد ان الحقيقة تظهر للعيان عن طريق الحواس التي تنقلها الى الدماغ . والحواس وحدها تستطيع ان تجعل الشيء حقيقة . ان الفكر في نظره يعي الاشياء قبل ان يحس بها ، ولما يدركها عن طريق الحواس يجدها على حقيقتها . وبعبارة اخرى ان الفكر وهو

(الله) موجود قبل العالم المادي ، وما العالم المادي سوى تجسيد للصورة الموجودة في ذهن الخالق قبل الخلق .

اسحاق نيوتن Newton ١٦٤٢-١٧٢٧ :

واجه ديكارت مقاومة عنيفة بسبب فلسفته ومنعت الكنيسة الكاثوليكية نشر كتبه . لكن وجود ديكارت في فرنسا وهولندة أبعده عن محاكم التفتيش التي احتجزت غاليلو في بيته ، وتمكن ديكارت ان يتمتع بحريته . كذلك الحال بالنسبة لاسحق نيوتن الذي تمكن في جو الحرية الانگليزية ان يكتشف قوانين الكون وينشرها دونما اعتراض .

ولد نيوتن في السنة التي توفي فيهـا غاليلو ، من عائلة انگليزية متواضعة في احدى القرى الانگليزية . وقد بيّن منذ صباه ذكاء خارقا في حل المسائل الرياضية مما جلب انتباه اساتذته في جامعة كمبرج فعينوه استاذا في الجامعة وهو في السابع والعشرين من عمره . ومنحته الملكة آن ١٧٠٥ لقب الفارس لنبوغه .

أوجد نيوتن رياضيات التفاضل والتكامل Calculus سنة ١٦٦٧ ، وبعد ابحاث دامت عشرين سنة نشر كتابه سنة ١٦٨٧ ، باسم المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية ، واختصر العنوان الى برنسپيا . وتوّج ابحاثه بقانون الجاذبية الموحى اليه اثر حادث سقوط تفاحة من الشجرة التي كان يسير تحتها في مسقط رأسه عندما كان في اجازة بسبب انتشار مرض الطاعون في انگلترا سنة ١٦٦٦ . ومضمون قانون الجاذبية هو : « ان قوة التجاذب بين كتلتين تتناسب طرديا مع حاصل ضربهما وعكسيا مع مربع المسافة بينهما » .

فقد بيّن نيوتن باكتشافه هذا ان الكواكب حافظت على توازنها في الكون ودورانها حول الشمس بفعل الجاذبية وبذلك حلّ مشكلة لم يحلها حتى ديكارت . وقَبِلَ العالم نظرياته وآراءه دون اعتراض . وكانت الفترة من عهد غاليليو وكبلر كافية لتقبل اذهان الناس نظريات جديدة مبنيــة على الاسس العلميــة الفيزياوية والرياضيــة . وكانت اكتشافات كبلر وغاليليو وديكارت عامــلا مساعدا ومحفزا لابحــاث نيوتن واكتشافاته .

وقــد اوجــد العــالم الالمــاني ولهلم ليبنيتز Leibnetz حساب التفاضل والتكامل في نفس الوقت الذي اكتشفه فيــه نيوتن . وهذا يدل على ان الحضارة الغربيــة قد بلغت درجة من الرقي والتقدم بحيث ان اثنين في نفس المستوى الثقافي والذكاء يمكن ان يتوصلا الى نفس النتيجة من البحث . ولم تقتصر ابحــاث نيوتن على ما ذكر فقد بحث الطيف الشمسي وتركيب الضوء وانحرافه وانعكاسه . كما وضع نظرية ذات الحدين والهيدرودايناميك . ان طريقة نيوتن العلمية كانت عبارة عن تطبيق الافكار والنظريات العقلانية تجريبيا ، واصبح العصر منــذ ذلك الوقت يسمى بعصــر العقــل The Age of Reason

وكان تأثير نيوتن على الطبيعة مباشــرة وفورية . وقد وفّق نيوتن بين الطــريقتين العلميتــين الاستقرائيــة Inductive Reasoning والاستنتاجيــة Deductive Reasoning لاول مرة .

كريستن هيگن Christian Haigen ١٦٢٩–١٦٩٥ :

كان كريستن هيگن عالما هولنديا معاصرا لنيوتن ومن اشهر علماء الفيزياء في عصره ، نال شهرة اوربية باختراعه ساعة الرقاص ، واضاف الشيء الكثير الى ابحاث غاليليو في كتابه الذي نشره سنة ١٦٧٢ . فسّر التذبذب وعلاقة طول الرقاص بزمن تذبذبه . وادى شغفه بالعدسات الى تحسين التلسكوب ، وبيّن ان الضوء يسير بشكل التموجات .

الفلك :

تقدم الفلك ايضا في النصف الثاني من القرن السابع عشر . فقد اكتشف ادموند هالي Halley ، ١٦٥٦–١٧٤٢ ، المذنّب المعروف باسمه سنة ١٦٨٢ ، وتنبأ بظهوره مرة اخرى عام ١٧٥٩ وحدث ذلك فعلا . وكان هالي صديقا لنيوتن . كما ان جيمس برادلي ١٦٩٣–١٧٦٢ ، اكتشف ميلان الارض عن محورها سنة ١٧٤٨ ، كما اكتشف انحراف الضوء ١٧٢٩ . اما وليم هرشل ١٧٣٨–١٨٢٢ ، درس الرياضيات وراقب النجوم وحسّن التلسكوب واكتشف الكلف الشمسي وجبال القمر والقطب الثلجي في المريخ . وفي ١٧٨١ اكتشف الكوكب اورانوس . ونشر في كتابه حركة المجموعة الشمسية .

الفيزياء :

ظهر في الفيزياء عدد من العلماء قاموا باكتشافات عظيمة كتورشيلي الايطالي ١٦٠٨–١٦٤٧ ، الذي اخترع البارومتر لقياس الضغط

الجوي عام ١٦٤٣ . كما ان اوتوفون جيرك الالمـاني ١٦٠٢–١٦٨٦ ،
اخترع مفرغة الهواء عام ١٦٥٠ . وتمكن عـالم الماني آخر سكن في
انكلترا وهولندة ، واسمه فهرنهايت ١٦٨٦–١٧٣٦ ، من أن يحسّن
المحرار الزئبقي ويكتشف المحـرار المعروف بفهرنهايت والمستعمل في
عالم الانكلوساكسون بكثرة . وقد اجريت التجارب الكثيرة في حقل
الكهرباء والمغناطيسية .

وفي سنة ١٧٤٦ ، تمكن اثنان من اساتذة جامعة ليدن في الاراضي
المنخفضة من اكتشاف زجاجة ليـدن (مشعة ليدن) لخزن الشحنات
الكهربائيـة . وقـام بنيـامين فرانكلين ١٧٠٦ ـ ١٧٩٠ بالتجـارب
الكهربائية بواسطة زجاجة ليدن واخترع مانعـة الصواعق في فلادلفيا
سنة ١٧٥٣ .

الكيميـــاء :

اشتهر روبرت بويل Boyle الارلندي ١٦٢٧–١٦٩١ ، في
الكيمياء واكتشف (عام ١٦٦٠) القانون المعروف باسمه : « بان حجم
الغاز يتناسب طرديا مع الضـغط الجوي اذا كانت درجـة الحرارة
ثابتـة » . وفرّق بويل بين المحـاليل والخليـط ولقـد حضّر بويل
الفوسفور كيمياويا ، وجمع الهيدروجين في قنينة فيها ماء ، واستحضر
الكحـول من الخشب ، ودرس تركيب الكرستال . وفي كتـابه الذي
الفه سنة ١٦٩١ بحث نظرية العناصر الكيمياوية وتنبأ بالنظرية الذرية

وتمكن جوزيف بلاك سنة ١٧٥٥ ان ينسف نظريه فلوجستين المتصاعد من النار ، كما اعتقد ، وان الغاز المتصاعد من النار هو ثاني اوكسيد الكربون .

وقد اكتشف هنري كفندش Cavendish الانكليزي ١٧٣١ ــ ١٨١٠ ، غاز الهيدروجين او الغاز الملتهب . كما فسّر كافيندش الهواء بانه مركّب من الاوكسجين والنايتروجين . والماء مركّب من اوكسجين ونايتروجين . كما أن جوزيف بريستلي الانكليزي ١٧٣٣ــ١٨٠٤ أكتشف غاز الاوكسجين ، وقال بان هذا الغاز يساعد على الاحتراق والتنفس عند النبات .

واخيرا فان العالم الفرنسي لافوازي ، اشهر كيمياوي في القرن الثامن عشر ١٧٤٣ــ١٧٩٤ ، أعاد تجاريب بلاك وبريستلي وكفندش واثبتها ونبذ نظرية فلوجستين وبيّن ان المادة قد تتغير حالتها في التفاعلات الكيمياوية لكن كميتها تبقى ثابتة . وهذا التحليل الكمي يعني ان مبادىء نيوتن في الفيزياء يمكن تطبيقها في الكيمياء . وقد تمكن الكيمياوي السويدي شيلي ١٧٤٢ــ١٧٨٦ ان يكتشف الكلور وقام بتحضير الكليسرين .

التعدين :

كان هناك تقدم ثابت في حقل التعدين منذ عصر النهضة . وفي بداية القرن الثامن عشر فسّر العلماء المتحجرات وضغوطها بشكل اكمل . واشهر جيولوجي في هذا القرن هو جيمس هتن Hutton

السكتلندي ١٧٢٦-١٧٩٧ ، الذي كان محاميا وفيزياويا ومزارعا Fanmer ، يزرع مزرعته بالطرق العلمية الحديثة . درس هتن الصخور ، وطبيعة وتكوين الصخور والمعادن واصولها وتوصل بذلك الى فهم الارض ، ونشر ملاحظاته سنة ١٧٨٥ في تقرير قدمه الى الجمعية الملكية في ادنبرة بعنوان نظرية الارض ، او البحث في القوانين التي يمكن ايجادها في تركيب وانحلال واعادة الاراضي على سطح هذه الكرة . وشرح هتن باسهاب نظريته بأن ما نجده من التغيرات في سطح الارض نتيجة لعوامل التعرية والتآكل بفعل الامطار والرياح والانهار والبراكين ، ما هي الا عمليات كانت اشد واقوى غيّرت شكل الارض عبر الملايين من السنين ، وان الارض بشكلها الحالي مرت بأدوار التطور التدريجي . لقد كانت هذه النظرية ثورية لكنها وضعت باسلوب غامض لم يجلب الانتباه الا في القرن التاسع عشر .

الطب وعلوم الحياة :

تطورت العلوم البايولوجية والطبية تطورا عظيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكان العالم الايطالي ماليبجي ١٦٢٨-١٦٩٤ ، من جامعة بولونا ، أثبت عن طريق التشريح واستخدام المكروسكوب دوران الدم في الاوعية الشعرية الدموية . واكتشف جسيمات ماليبجي في الكلية التي تقوم بترشيح وتصفية الدم . ووجد ماليبجي في سنة ١٦٧١ ان النباتات تتنفس بواسطة اوراقها وتتكاثر عن طريق التلقيح . وذكر الطبيب توماس سيدنهام الانكليزي ١٦٢٤-١٦٨٩ ، ان المرض ، وخاصة الحمى ، عبارة عن محاولة الطبيعة لطرد

المواد المرضية من الجسم . وقد وصف الطبيب الايطالي موركاني
Morgagni ١٦٨٢–١٧٧١ ، نتيجة ابحاثه في تشريح الجثث في
كتاب عن تشريح المرضى واعتبر اول من كتب عن الباثولوجي او علم
الامراض . وكان الشاعر السويسري هالر Histology ٨٠٨١–٨٨٨١
عالما في التشريح وفيلسوفا . وكان من العلماء البارزين في الفسلجة .

اما بيكات الفرنسي ١٧٧١–١٨٠٢ فقد درس الانسجة ووضع اسس علم الانسجة

وقد اكتشف روبرت هوك Hook ١٦٣٥–١٧٠٣ ، التركيب الحجيري لبناء النبات وابتكر اسم الحجيرة Cell . كما اكتشف اتتوني فان لوينهوك الهولندي ١٦٣٢–١٧٢٣ ، الباكتريا ، وبروتوزوا (اي وحيد الخلية) . وهو اول من وصف الحياض عند الانسان .
وكتب جان سوامردام الهولندي ١٦٣٧–١٦٨٠ تأريخ الحشرات . واعيد طبعه بشكل موسع عام ١٧٣٧ تحت عنوان انجيل الطبيعة ، مبيّنا تحول الحشرات من اليرقة الى شرنقة كاملة ، وكذلك التطورات التي تجري على جنين الانسان .

النبـــات :

نشر جون رەى John Ray الانكليزي ١٦٢٧–١٧٠٥ ، اول مسلسلة من الكتب عن علم النبات . وكان ذلك تحسن كبير في تصنيف النباتات . درس رەى فيما بعد الحيوان واستخدم التشريح المقارن . وكانت دراساته قد ادت الى تقدم لا يستهان بـه من التصنيف الطبيعي للطيور والحشرات .

كارل ليناس :

يعتبر كارل لينايس Karl Linnaeus ١٧٠٧–١٧٧٨ ، السويدي اشهر عالم صنّف النباتات تصنيفا مبنيا على الخلايا الجنسية للنبات . وتقبّل العلماء هذا التصنيف وحلّ محل تصنيف رءي الآنف الذكر . وقد وجد كارل اختلافه العناصر البشرية ووضع الانسان مع القرود والليمور في تصنيفه . وقسّم البشر الى اربعة اصناف بحسب لون البشرة وبعض الصفات الاخرى .

الحيـوان :

تقدم علم الحيوان بدراسة الحيوانات الغريبة التي وجدها الرحالة والسواح عبر البحار في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وبلغت معرفة علم الحيوان القمة على يد العالم الفرنسي بافون Buffon ١٧٠٧–١٧٨٨ . ففي كتابه التأريخ الطبيعي للحيوان بيّن بافون ان لا فرق بين الانسان والحيوانات السفلى . وقال لولا الانجيل لأمكن القول بان الانسان والقرود والحصان والحمار من اصل واحد .

ان هذه النخبة المفضلة من العلماء الذين استعرضناهم أثّروا تأثيرا عظيما على معاصريهم ، وقبِلَ الناس نتائج ابحاثهم العلمية . ولم يكتف هؤلاء بالتجارب والبحث العلمي بل تأملوا في الطبيعة والوجود وما وراء الطبيعة والله خالق الكون . واصبحت فلسفة ماوراء الطبيعة جزءا من العلوم الطبيعية بسبب ارتباط المعارف الطبيعية كالفيزياء بالفلسفة التي بتساؤلاتها عن كشف ما وراء الطبيعة جعلت

الاخيرة ضد اللاهوت بعد ان كانت تدرس مع اللاهوت في العصور الوسطى الى القرن السابع عشر . وقد ذكرنا في فصل سابق فيلسوفان من بين قادة فلسفة ما وراء الطبيعة الحديثة وهما جيور دانو برونو Brunuo وفلسفة وحدة الوجود ، والثاني فرنسيس بيكن في مقالاته نوفام اوركانام او التعلم الحديث . كما ذكرنا في بداية هذا الفصل ديكارت والفلسفة الكارتيزية وتأثيرها على الحركة العقلية وما وراء الطبيعة . وكان بيير كازيندي ١٥٩٢ـ١٦٥٠ المعاصر لديكارت ورياضي ايضا ، فسّر الطبيعة تفسيرا طبيعيا . وقال بان المعرفة تتكون عن طريق الاحساس بالمادة وانعكاساتها في الدماغ . والمادة ذرية لا تخلق ولا تفنى في اعتقاده .

تأثير الحركة العلمية على الدين

تأثر الدين بصوره خاصة بالتقدم العلمي والفلسفي ، لكن لم يكن ذلك واضحا الا في القرن الثامن عشر . اما في القرن السابع عشر فكان الفلاسفة والعلماء لا يزالون متمسكين بدينهم ، سواء اكانوا كاثوليك ام بروتستانت . وقد استمر الصراع بينهم وبين المذاهب البروتستانتية المختلفة طوال هذا القرن ، في الوقت الذي كان المذهبان الرئيسيان ـ الكاثوليك والبروتستانت ـ يضاعفان بعثاتهما التبشيرية الى الخارج .

ظهور مذهب الزهاد Pietism :

ظهر مذهب جديد في النصف الثاني من القرن السابع عشر في صفوف البروتستانتيين يسمى بمذهب الزهاد . ولم يكن ظهور هذا

المذهب نتيجة للتقدم العلمي والفلسفي بقدر ما كان بتأثير المنازعات والحروب بين الطوائف الدينية المختلفة التي بعثت النفور والاشمئزاز في نفوس قسم كبير من الناس . وكان اصحاب المذهب الجديد المعروفين بالزهاد Pietist يصرون على ان يكف المسيحيون عن الجدال العقائدي ويكتفون بالشعور بالتقوى والزهد والعيش على نمط السيد المسيح فيظهر عندئذ الحقيقة الكامنة للمسيحية . وكان فيليب سبينر Philip Spenner ١٦٣٥-١٧٠٥ ، احد الزهاد اللوثريين البارزين الالمان نشر كتاب سنة ١٦٧٥ بعنوان الشعور القلبي لاصلاح الكنيسة الانجيلية الصحيحة التي ترضي الله ، ينصح فيه جماعته ان يتركوا الجدل العقائدي المثير ، ويصبحون زهادا عمليين . وقال ان الدين يجب ان يكون فرديا كي يحل روح القدس في كل مؤمن وتحركه نحو الزهد والتقى والقدسية . وقد قام عدد من اللوثريين والكالفنيين بنشر آراء سبينر في الاجيال التالية ، وخلال القرن الثامن عشر في اوربا وخاصة في المانيا . وكان ولهلم ليبنيتز احد الزهاد الذين ارادوا التقريب بين الكاثوليك والبروتستانت . كما ان عمانوئيل كانت نشأ في محيط المتزهدين .

ومن الزهاد البارزين في القارة الاوربية ايضا عمانوئيل سويدنبرك ١٦٨٨-١٧٧٢ ، ابن احد الاساتذة اللوثريين في جامعة ابسالا upsala في السويد . وقد اشتهر في اوربا كعالم في الرياضيات والفيزياء والجيولوجي والهندسة . وقد ادعى سنة ١٧٤٥ ، انه نال النور الالهي والكشف ، وكرس حياته لكتابة عدد كبير من الكراسات الدينية عن

الحكمة والحب الالهي • وقد اسس تلاميذه بعد وفاته كنيسة سميت بسويدنبرك او القدس الجديدة •

جورج فوكس وجماعة الاصدقاء Quakers :

ظهرت جماعة الاصدقاء المتزهدين في انكلترا ، وكان مؤسس الحركة جورج فوكس الانكليزي ١٦٢٤-١٦٩١ • لقد ثقف فوكس نفسه بنفسه ، وكان معتدا برأيه مؤمنا بالخرافات ، لكنه كان صادقا مخلصا متحمسا لعقيدته متزهدا • وكانت الكنيسة في نظره قد انحطت الى الرذائل والكفر • واكد على ان الدين روح تأتي عن طريق الانارة الداخلية التي لا تحتاج الى الكنيسة ومحل العبادة • وقال بان البساطة في الحياة وعدم الالتجاء الى الحرب وحمل السلاح والكلام الليّن وعدم الالتجاء الى القسم بالله حتى عند الضرورة ، من الشروط الاساسية للدين • ولقد كانت هذه الجماعة المعروفة بجماعة الاصدقاء الكويكرز مبغوضة مدة طويلة الى ان انتمى اليها بعض الارستقراطيين الانكليز من امثال وليم پين William Penn ١٦٤٤-١٧١٨ • وقد اثّرت معتقدات الكويكرس الخاصة بالتسامح وعدم حمل السلاح والاشتراك في الحرب على البروتستانتيين الراديكاليين وخاصة البابتست (المعمدانيين) والكونكريگاشنالست (اي الابرشيين) •

ولما كانت الكنيسة الانگليزية تعتمد على الطبقة الارستقراطية ولا تكترث بالطبقة العامة ، اظهرت فتورا تجاه الزهاد • وبمرور الزمن اتجه الشعب نحو الزهاد ، واتنهز احد القسس جون ويزلي ١٧٠٣-١٧٩١ الفرصة لجلب عامة الناس الى دعوته الجديدة المعروفة بالمنهجيين •

حركة المنهجيين الميثودست :

كان جون ويزلي John Weseley ابن قس انكليكاني ، وبينما كان يدرس في اكسفورد في ١٧٢٩ ، اصبح زعيم عدد من الطلاب الذين سموا انفسهم بأصحاب النادي المقدس ، واطلق عليهم اسم « الميثودست » أو المنهجيين ، لانهم يمتنعون عن الملذات والتسلية والاستمرار في الزهد والاحسان والحماس الديني . وقد ترك انكلترا بعد ذلك الى الهند وجورجيا واتصل هناك بالمبشرين الالمان البروتستانت ، وتعلم منهم تعاليم الزهاد الاوربيين . ولما رجع الى انكلترا سنة ١٧٣٨ ، كان قد تحول الى زاهد . والدين بالنسبة اليه شعور واختيار فردي . لقد انفصل الميثوديون (المنهجيين) عن الكنيسة الانكليزية بسبب عدم اكتراثهم للطقوس ، وحماسهم العاطفي وتزمتهم وتقربهم من عامة الناس . وأصبح هذا المذهب منتشرا في امريكا وانكلترا .

الابرشيين Congregationalists :

اثر ويزلي وجماعته المنهجيين المتزهدين على كثير من البروتستانتيين غير المنسجمين مع الكنيسة الانكليزية والمنتشرين في الاقطار الانكلوسكسونية . وكان حماسهم العاطفي وتقواهم وتزهدهم يؤثر على البابتست (المعمدانيين) والابرشيين والبرسبيتيريان (الكنيسة الاسكتلندية) ، كما أثر على الكنيسة الانكليزية ، وقبل نهاية القرن الثامن عشر بارى عدد كبير من قسس الكنيسة الانكليزية

جماعـة الابرشيين في التأثير على عامـة الشعب • وقد ادت حركـة الابرشيه الى فتح مدارس ايام الاحاد ، والحملات التبشيرية •

مولينوس والهادئيين Quaetists :

بدأت حركـة الهادئيين في الدول الكاثوليكية في القـرن السابع عشر • وكان زعيم هـذه الحركة ميكائيل مولينوس ١٦٤٠–١٦٩٧ ، قسا اسبانيـا سكن في رومـا • واعتقد هو وجماعتـه ان القدسية الصحيحة تعتمد لا على الكنيسة والعقائد او العقل ، بل على ان يتوكل الفرد على الله مباشرة ليدخـل في ضميره النور الالهي ويقبل ما يحدث له دون اعتراض • وقد ايّد البابوات ورجال الدين هـذه الحركة املا بأن تؤثر على الكاثوليك كما أثّرت حركة الزهاد على البروتستانت • وقد انتشـرت الحركة في فرنسا وأيدهـا الاسقف فينيلون ١٦٥١– ١٧١٥ • ولكن في سنة ١٦٨٧ ، امر البابا مولينوس بتهمـة الهرطقة ، ووجّه توبيخا الى فينيلون سنة ١٦٩٩ ، وماتت حركة الهادئيين •

عصـر العقـــل والاستنارة

الاستنارة او التنور Enlightenment

ان الفكـرة الاساسية للتنوّر ، او الاسـتنارة ، هي الاعتقـاد السائد بان عقل الانسان قادر على ادراك هذا النظام العالمي وفهم كنهه والسيطرة عليـه وتسخيره لفائدة البشر دون الالتجـاء الى اللاهوت والمعجزات • وقد اراد المتنورون بذلك كسب اعتراف العـالم بمبادىء العلوم الطبيعيـة والافكار المنبثقـة عنها في حقـل الفيزياء والاخلاق

والفلسفة والدين والتاريخ والسياسة والقانون[1] .

لقد ادعى المتنورون بان في الطبيعة تناسق وانسجام سبب تعكيرها الشره والتعصب والجهل الذي ادى الى الحروب والاضطهاد والتعذيب وانتشار الخرافات والاوهام وانزال المجتمع الى الحضيض . والانظمة السياسية والاجتماعية المستبدة مسؤولة عن تلك المفاسد والشرور ، وعليه يجب اصلاح هذه الانظمة بمقاييس العقل والمنطق لخير البشر وسعادته .

ويمكن ملاحظة الثورة الفكرية في القرن الثامن عشر في اربعة عناصر اساسية :

١ ـ احلال الطبيعة محل ما وراء الطبيعة ، والعلم محل اللاهوت والافتراض بان العالم المادي يقوده ويسيطر عليه القانون الطبيعي .

٢ ـ السمو بالعقل البشري الذي يجب ان يستخدم لاكتشاف القوانين الطبيعية وتكييف حياة الفرد بحسبها .

٣ ـ ان استخدام العقل والتفكير وطاعة القانون الطبيعي يؤدي الى التقدم السريع وبلوغ الكمال في النهاية .

٤ ـ الاهتمام بحقوق الانسان والسعي من اجل تكوين مجتمع انساني افضل .

---

(1) White, op. cit; pp. 267-293. Gottschalk, op. cit. pp. 502-506; 513-532.

لقد كانت هـذه المبادىء المثاليـة في الوقت الذي احتوت اسسا بناءة ، تضمنت ايضـا عناصر مخـربة جـدا للمؤسسات السياسـية والاجتماعيـة والدينيـة ، لان المتنـورين كانوا يحللون كل منظمـة ومؤسسة بمعيار العقل والمنطق ليروا فيما اذا كانت تنسجم مع المقاييس التي وضعوها ، وتوافق العقل والمنطق والقانون الطبيعي ويروج التقدم البشـري ويضمن حقوق الافـراد ويقدم فوائد آنية للعـالم لتحقيق اسعاد البشرية •

ظهور الدين الطبيعي او الايمان بالله وحده خالق الكون والطبيعة Deism :

كان للتقـدم العلمي تأثير مدمر على الدين والكنيسـة في القرن الثامن عشـر • وكانت الكنيسـة اول من تعرض للنقـد العلمي الذي زعزع اركانها وجعل الناس في شك من دينهم سواء اكانوا كاثوليك ام بروتستانت • ومن اشهر الناقدين للكنيسة هو بيربيل وڤولتير وهلباخ ودالمبرت وديدرو وغيرهم من النقاد •

لقد ظهر في النصف الثـاني من القرن السابع عشر مذهب ديني جديد سـمي بالدين الطبيعي Deism متـأثرا بالتقـدم العلمي والفلسفي ، وخاصة العلوم والفلسفة الطبيعية • وقد ساعد ظهور هذا المذهب المتشكك عوامل ثلاث :

١ ــ وجود خلافات ومنازعات كثيرة بين المذاهب المسيحية المختلفة •

٢ ــ تأثر الطبقـة المثقفة في القـرن السابع عشر بما وجـده الرحالة والمستكشفين في الاقطار النائية عن البرابرة العراة الذين يعيشون في جو من البساطة والزهـد والسعادة دون وجود رجـال الدين

والعقائد والطقوس • وان صفاتهم اسمى وانبـل من الاوروبيين لانهم يعيشون في مجتمع الفضائل •

٣ ـ ان تقدم العلوم الطبيعية والفلسفة المبني عليها أثرت على تفكير النـاس وتفسيرهم للاشياء على ضـوء مقاييس العقـل والمنطق والشك في كل شيء • فتساءلوا اذا كان الكون عبارة عن ماكينة ضخمة تعمل وفق القوانين الطبيعية ، فان الدين كالكون يجب ان يكون طبيعيـا • أليس بامكان العقـل البشري اكتشاف الدين الحقيقي كما اكتشف قانون الجاذبية دون الالتجاء الى المعجزات والكشف والاستخارة ؟

لم تكن فكرة الدين الطبيعي جـديدة في ذلك الوقت ، فقد بحث توما الاكويني في القرن الثالث عشر ، ان ما وراء الاديان كلها الموحاة الى البشر دين عالمي كوني الذي بموجبه يشترك الانسـان العاقل مع المتقدات الاساسية في الايمـان بالله ، وبالخلود ، والقانون الاخلاقي والمكافئة والعقاب • والمسيحية ملحق للدين الطبيعي ولا تناقضه • وفي القرن السابع عشر ، ومع التأكيـد المتزايد على الطبيعـة والقانون الطبيعي ، انحـرف بعض المؤيدين للدين الطبيعي عن المسيحية ووقف ضدها • فاما ان تكون العقائد المسيحية مطابقة للدين الطبيعي وعندئذ تكون غير ضرورية ، او انها اضافة لا عقلانيـة للدين الطبيعي فتكون خرافة •

كـان هـربرت اوف شـيربري Herbert of Cherbury ١٥٨٣ـ١٦٤٨ ، احـد المتمسكين البـارزين بالدين الطبيعي واحـد

اتباعه • كان لورد شيربري انكليزيا درس في اكسفورد وعن طريق اتصاله بالعلماء وفلاسفة العصر ، وخاصة بيير كازيندي الفرنسي ، اصبح متشككا ، لكن كونه من الطبقة الارستقراطية وصاحب جاه وثروة ، وادبه وموهبته الشعرية ، واخلاصه للعائلة المالكة صانه في التعبير عن آرائه الدينية بحرية • وقد اكد في مقالتين احداهما بعنوان الحقيقة كما تتميز عن الكشف والامكانية والكذب نشرت سنة ١٦٢٤ ، والثانية عن دين الوثنيين طبعت سنة ١٦٦٣ ، ان الحقيقة الدينية تستقر في الاحساس العقلي العام للبشر • وان الدين الطبيعي مبني على الايمان العقلاني بالله ، والفضيلة والخلود • وهذا كل ما يأمر به الاحساس العام والبقية من مختلقات القسس •

وقد ظهرت الدراسات النقدية للكتاب المقدس (التورات والانجيل) وقد انكر هوبز Hobbes الانكليزي ان التوراة موحى الى موسى وشك في صحتها التاريخية • كما شك في ذلك ايضا الفيلسوف اليهودي سبينوزا • وفي سنة ١٦٨٠ كتب باحث فرنسي باسم ريجارد سيمن تاريخ الكتاب المقدس النقدي ، كما كتب تاريخ الانجيل النقدي سنة ١٦٨٩ • واصبح المفكرون يشكون في قدسية الكتاب المقدس والمعجزات المدونة فيه • وفي ١٧٩٠ بيّن كريزباخ الالماني ، وكذلك ايفانسن الانكليزي في ١٧٩٢ ، بان الانجيل ليس من عمل الحواريين •

لقد انتشر الدين الطبيعي في انكلترا بين السياسيين والطبقة الارستقراطية وحتى بين رجال الدين الانكليز • ولم يبغ المذهب الجديد القضاء على المسيحية انما اراد اصلاحا جذريا ، كرفض الاعتقاد

بالوهية المسيح والقيامة ونزول الكتاب المقدس من الله . بل يجب تقوية الايمان بالله خالق الكون والطبيعة ، وبقوانينه الطبيعية ، والعقل البشري . وعليه فان اله الطبيعة اسم اطلقه الانكليز على المذهب الجديد . وقد قبله عدد من العلماء والفلاسفة في ذلك الزمان ، وعدد كبير من الناس الذين ارادوا التوفيق بين المسيحية والاحساس العام والمعرفة الجديدة .

ان الدين الطبيعي دين المتنورين في عصر الاستنارة ، واله الطبيعة هو الذي خلق الكون والقانون الطبيعي والحقوق الطبيعية والاحساس بوجوب التقدم لكن الله الذي خلق الكون والكائنات وحركها ترك شؤون الكون ، في نظرهم ، لتعمل وفق القوانين التي وضعها هو ، ولا يتدخل فيها . وقد انتقل الدين الطبيعي من انكلترا الى فرنسا وبقية القارة الاوربية . ومن بين المعتقدين لهذا الدين في فرنسا پيير بيل Peirr Bayle ١٦٤٧–١٧٠٦ . كان بيل ابن قس بروتستانتي اصبح كاثوليكيا ثم رجع الى البروتستانتية واخيرا شك في جميع الاديان . ولما وجد ان وضع الهرطقي خطر في اغلب البلدان الاوربية سكن في هولندة حيث اصبح استاذا للفلسفة والتاريخ في جامعة روتردام سنة ١٦٨١ . كان بيل تلميذا للفلسفة الكارتيزية والعقلية ومؤيدا للفكر الحر والتسامح ولم يرض الكالڤنيون بهذا التفسير بنفس الطريقة التي لم يرض به الكاثوليك ، لان التسامح معناه التغاضي عن الشك والخطأ وهذا ما لا يريده الكالڤنيون ، فهاجم البروتستانتيون كتبه ، كما ان الكاثوليك احرقوها . وفي ١٦٩٣ طرد بيل من وظيفته لكنه استمر يكتب ، وكان اشهر كتبه القاموس التاريخي النقدي الذي طبع سنة

١٦٩٧ ، بيّن فيه اسلوب البحث العلمي المجرد من العاطفة والانحياز ، وسخر من العقائد التقليدية التي في نظره تطورت من الخرافات والاوهام .

الماســـونية :

ساعد انتشار الدين الطبيعي Deism الى ظهور الماسونية وانتشارها . لقد ظهرت الماسونية في انكلترا في مطلع القرن الثامن عشر وهي استمرار للمحافل الماسونية التي احتفظت ببعض شعائرها الظاهرية لنقابات البنائين Masons في العصور الوسطى والتي انقرضت في القرن السادس عشر . وكان محافل الماسونيين يدخل في عضويتها الارستقراطيون والمتنورون الذين انتشر بينهم الدين الطبيعي ، عندئذ تغير المحفل الماسوني . فقد اتحد عدد من هذه المحافل لتكوين محفل عظيم سنة ١٧١٧ واصبحت لندن مقرا عاما لها ووحدوا ونقحوا دستورها وطقوسها على ضوء روحية عصر الاستنارة ، وبدأوا بنشر الماسونية الجديدة .

وقد انتشرت الماسونية تحت اشراف المحفل الانكليزي العظيم في بريطانيا ومستعمراتها ، وتأسست محافل ماسونية في ارلندة وسكتلندة سنة ١٧٢٥ و١٧٣٦ على التوالي وبلغ عدد المحافل الماسونية في نهاية القرن الثامن عشر ١٦٠٠ محفل في انكلترا فقط .

وقد تأسست محافل ماسونية في بوستن سنة ١٧٣٣ ، وفي فيلادلفيا والمدن الامريكية الاخرى بعد ذلك . كما انتشرت في كندا

وجزر الهند الغربيـة بين ١٧٤٠ و١٧٤٢ . وفي الثلاثينـات من القرن الثامن عشر انتشـرت الماسونيه في الهند ، وتأسس محفـل في كلكتا ومدراس في ١٧٣٠ .

لقـد انضـم الملوك والارستقراطيون الى الماسونيـة وكذلك العسكريون وكان بنيامين فرانكلن اول من نشـر كتب الماسونية سنه ١٧٣٤ . وانتمى جـورج واشنطن الى محفل فرجينيـا الماسوني سنة ١٧٥٣ .

اما في القارة الاوربية فان اول محفـل ظهر في فرنسا وحصل على امتياز رسمي من المحفـل الانكليزي كان سنة ١٧٣٢ ، واصبح اسمه المحفل الشرقي العظيم . وتأسس المحفل الالماني والايطالي سنة ١٧٦٣ وفي السويد سنة ١٧٧٣ ، وفي روسيا سنة ١٧٧١ .

لقد كانت هذه المحـافل تؤيد الدين الطبيعي وانضم الى صفوفها بعض رجـال الدين المسيحي على اختـلاف مذاهبهم . ومنـع هؤلاء مناقشة مذاهبهم في المحفـل الماسوني . وكان المطلـوب منهم ظاهريا الايمـان بالله خالق الكـون والكائنات والطبيعـة والقوانين الطبيعية والاخلاقية وان لا شريك لـه . وقد وقفت الكنيسة الكاثوليكية ضد الماسونية . وقد اصبحت الماسونية في القارة الاوربية متطرفة واتجهت نحو الالحاد . وحـدث انشقاق في المحفل الشرقي الفرنسي سنة ١٧٧٢ على اثر نشـر كتاب هلباخ عن نظام الطبيعـة فاصبح الفرع الثاني من المحفل الشرقي ملحدا .

ويظهر ان سبب اجذاب الناس للماسونية هو سريته وغموضه والقَسَم الذي يربط الاعضاء بعضهم ببعض ، وانتمى گوتيه وهيردر في المانيا الى الماسونية . وقد اصبحت الماسونية تبشيرية فيما بعد وانخرط فيها رجال السياسة الاستعماريين .

نهاية اليسوعيين فى القرن الثامن عشر :

لقد تكلمنا في موضوع سياسة لويس الرابع عشر الدينية اضطهاده لمذاهب الجانسنيين والهادئين البروتستانت فلا داعي الى تكرارها . وكان اليسوعيون سببا في كل ذلك . وفي القرن الثامن عشر هاجم اليسوعيون الفيزوقراطيين (الطبيعيين) والفلاسفة المتنورين ، لكن محاولاتهم باءت بالفشل والانهزام لان الفلاسفة كانوا اقوياء ومؤثرين . وكان انهزامهم نهاية عملية بدأت بطرد اليسوعيين من البرتغال سنة ١٧٥٩ . ونمى الشعور ضدهم في فرنسا بعد اضطهاد الجانسنيين من قبل البابا ولويس الرابع عشر . ولما كانت الجانسنية منتشرة بين الطبقات الغنية انتشرت الكراهية ضد اليسوعيين في فرنسا لانهم كانوا ضد الجانسنيين . وكانت البرلمانات في فرنسا تؤيد الجانسنيين . ولما اصدرت الكنيسة تعليمات ضد الجانسنية سنة ١٧٥٠ ، رفض البرلمان تسجيلها ، فنشب النزاع بين الملك لويس الخامس عشر والبرلمان . وكان الفلاسفة والمتنورون يؤيدون البرلمان . واستقال اعضاء البرلمان بالجملة وتهاهم الملك الى الخارج . ووقف اليسوعيون مع الملك ضد البرلمان . غير ان البرلمان حصل على

لان الشعب كان ميالا الى التسامح ووقف ضد الملك وايد
تأييد شعبي الفلاسفة البرلمان ، فهاجم الفلاسفة والشعب واعضاء البرلمانات ، الملك
واليسوعيين .

لكن حدث سنة ١٧٦١ ان احيل احد الآباء اليسوعيين الى المحكمة بتهمة المضاربة في قضية ادت الى الافلاس ، عندئذ انتهز البرلمان الفرصة للقيام بتفتيش عام للمجمع اليسوعي ، واتهم اليسوعيين بانهم جماعة من العملاء مخلصين لملك اجنبي وطلب البرلمان حل المجمع اليسوعي في فرنسا . ولم يوافق الملك على ذلك في اول الامر ، لكن اضطر تحت الضغط المتواصل ان يوافق على طردهم سنة ١٧٦٤ . واتبعت اسبانيا فرنسا في طرد اليسوعيين . وكذلك طردوا من نابولي وبارما . وفي سنة ١٧٧٣ امر البابا بالغاء المجمع اليسوعي . ووجد اليسوعيون ملجأ لهم في المانيا البروتستانتية وروسيا الارثوذكسية . وبسبب اخلاصهم للبابا اعاد الاخير المجمع سنة ١٨١٤ .

وجاء دور البرلمان بعد طرد اليسوعيين . فقد حاول برلمان مقاطعة بريتاني محاكمة احد اعضائه ، وفي النزاع الناشيء بين الاثنين قرر لويس الخامس عشر الغاء جميع البرلمانات ، واخذ يحكم بواسطة محكمة عينها هو .

لقد كان البرلمان المؤسسة الوحيدة التي قاومت الملكية واستطاعت ضبط الملك في سلطته التشريعية والقضائية . والغاء البرلمان كان انتصارا للاستبداد . لقد كان الفلاسفة بجانب البرلمان وكذلك قسم من الشعب . ولما مات لويس الخامس عشر عام ١٧٧٤

اعاد لويس السادس عشر البرلمانات الى فرنســا ، لكن دارت الدائرة عليه ايضا لان البرلمان اراد اصلاح الجهاز الاداري ونظام الضرائب .

تأثير الحركة العقلانية والاستنارة على العلوم الاجتماعية والسياسية

ان السنوات التي اعقبت حــرب الورانة النمســاوية (١٧٤٨) شهدت حركة ثقافيــة عرفت بالاستنارة . وكان الذين تزعمــوا هــذه الحركة يسمون انفسهم بالفلاســفة . وقد اختلف هؤلاء عن الفلاسفة الحقيقيين الذين اختصوا في موضوع الفلســفة بان الفلاسفة المتنورين حاولوا فهم الانسان والعالم ووضع تفسير شامل لهمــا ، والتأكيد على دراسة القضــايا السياسية والاجتماعية واصلاحها والاتصــال بأوسع الجمــاهير لفهم مشــاكلهم وكتابة ابحاث فلســفية ورسائل سياســية والمقالات العلميــة لهذا الغــرض . ولم يكن اغلب هــؤلاء الفلاسفة يتازون بالاصالة ، لكنهم كانوا يقتبسون بحكمــة ورويّة . ويمكن اعتبارهم اعلاميين اكثر من فلاسفة وباحثين اكاديميين . وأشهر هؤلاء الفلاســفة توماس هوبز وجــون لوك وروسو وڤولتــير ومنتسكيو وغيرهم .

توماس هوبز ١٥٨٨–١٦٧٩ :

كانت المؤسسات السياسية في القــرنين السابع عشر والثامن عشر موضع انتقادات عنيفة من قبل المفكرين والفلاسفة . وقد ادى النزاع بين الملك والبرلمــان في انكلترا الى الثــورة الانكليزيــة في منتصف القــرن السابع عشر وكان الملوك يستندون على نظريــة الحق الالهي

القائلة بان الملوك يستمدون سلطتهم من الله ، والبرلمان الذي اكد على الحقوق الطبيعيـة والقانون الطبيعي والممارسات التقليـدية للشعب الانكليزي وكان لكل من الطرفين مؤيدين من الكتـاب والمفكرين . ومن الذين ايدوا السلطة المطلقة وليست بالضرورة الملكيـة والحكم الالهي هو توماس هوبز .

ولد توماس هوبز اثناء حـرب الارمادا بين انكلترا واسبانيا في زمن الملكـة اليزابيث ودرس في اكسـفورد واصبح سكرتيرا للسير فرانسيس بيكن وتأثر بـه . وكان من مؤيدي الملك شـارل الاول في نزاعه مع البرلمان . ولهذا لما شعر بنشوب الثـورة كان اول من هاجر الى القارة الاوروبية سنة ١٦٤٢ ، وسكن في فرنسا والتقى بديكارت .

ورجع سنة ١٦٥١ الى انكلترا بعـد ان برز الحكم المطلق الذي ينطبق على اوليفر كرومويل مثلما ينطبق على الملك شارل الاول . وقد الف كتابه ليڤاياثانت او العملاق الوحش ويقصد بذلك الدولة . لقد كان هوبز من الفلاسفة الماديين ولم يؤمن بالدين . وقـد طوّر نظرية المعرفة وقال ان المعـرفة البشرية هي نتيجـة الافكار التي تتولد عند الانسان عن طريق تأثر الحـواس بالظواهر الخارجيـة فتترك اثرا في الدماغ . والمادة والحـركة هما الظواهر الخارجية والافكـار العقلية مشتقة منها . كما ان العـواطف الانسانية وليدة الحب والكراهيـة ، وهي عبـارة عن الحزن والسرور ، واللـذة والالم واليـأس والامل والشجاعة والخوف . وتتحقق سعادة الانسان بتحقيق هـذه الرغبات بصورة مستمرة تتخللها اوقات عصيبة . والقدرة التي بواسطتها يحقق الانسان رغبـاته هي اما مميزات عقليـة او صفات جسـمية او منزلة اجتماعية او الثروة العظيمة او كل هذه الصفات او بعضها .

ولما كان الناس يتنافسون وراء تحقيق رغباتهم كل بحسب مزاياه وقابلياته فان الذين يتفوقون على غيرهم في المـزايا والقابليات يسبقون الذين دونهم في تحقيق الرغبات . وعنـدئذ ينقلب التوازن الاجتماعي بظهور التفـاوت بين الناس وفقـدان المساواة نظرا لوجـود الفروق الفردية . وهكذا نجد النـاس في كفاح مستمر للحصول على ما يشبع رغباتهم ، واعتراف النـاس بمزاياهم ونيل اعجابهم كأفراد متفوقين . وبعبارة اخرى ان حالة البشر كانت ولا تزال عبـارة عن منافسة الفرد للفرد لنيل المجد والشهرة او لكسب العيش .

وهكذا كان وضـع الانسان في مجتمعه البـدائي قبل تأسيس الدولة ، اذ كانت حياته موحشـة وقاسية وقصـيرة . وكان كل فرد يعيش لنفسه وفي حرب مع غيره . ولم يكن في المجتمع البدائي ما يميز الحق عن الباطل والعدل عن الظلم لانه لم تكن هنـاك مقاييس للحكم على الناس للتمييز بين الخير والشر ، لان المقاييس ظهرت بعد ان دخل الانسان في الحضـارة وتكوين الدولـة . وعندئذ وضـعت القوانين للتمييز بين الحق والباطل والعدل والظلم وأسس سلطة سياسية تضع هذه القوانين وتنفذهـا . ولم تكن هنـاك ملكية فرديـة في المجتمع الطبيعي لان لكل شـخص حق مسـاو لغيره في امتـلاك الاشياء دون تحديد او تقييد وتبقى في حوزته طالما يتمكن الاحتفاظ بها .

وكان الانسان في مجتمعـه الطبيعي محكوما بالقـانون الطبيعي Natural law ومدفوعا بدافـع الحق الطبيعي Natural Right فبموجب الحـق الطبيعي يملك الفرد حرية تامة في العمـل على احسن

وجه للمحافظة على كيانه وحياته كانسان يريد ان يعيش ويشبع رغباته . بينما القانون الطبيعي عبارة عن مجموعة من الاحكام التي بموجبها يتصرف الانسان بصورة معقولة لتحقيق مطامحه وضمان مصالحه . وهذه الاحكام يكتشفها العقل البشري دون ان يتمكن من وضعها لانها موجودة في الطبيعة وهي جزء من القوانين الازلية الابدية في الكون . ومن شأن هذه الاحكام منع الانسان في متابعة ما يضر مصلحته ويقضي على كيانه . فاذا علمنا ان الانسان مدفوع بعاطفته الى الاستحواذ على كل شيء ، الامر الذي يعرضه الى النزاع مع غيره بصورة مستمرة ، فانه مدفوع بعقله الى ان يعيش بسلام مع غيره ويحدد انانيته ويحافظ على حياته . ولتحقيق العيش بسلام مع الغير في المجتمع ، تنازل عن بعض حقوقه لتحقيق البقية الباقية . لان مساواة الافراد في الحقوق الطبيعية دفعتهم الى الحرب بصورة مستمرة في المجتمع البدائي . ولما كانت حياة الانسان بهذا الشكل غير مضمونة فان القانون الطبيعي يضمن حياته بالبحث عن السلم والحط من الانانية ، وهذا معناه الخروج عن المجتمع الطبيعي بتنازل الافراد عن حقوقهم الطبيعية لاقوى شخص في المجتمع بموجب ميثاق يسمى بالعقد الاجتماعي يتعهد فيه هذا الشخص القوي المحافظة على ارواح الناس وممتلكاتهم وتأمين العيش لهم وضمان الامن والنظام مقابل حصوله على جميع الصلاحيات التي كانوا يتمتعون بها كأفراد في المجتمع البدائي . وعندئذ يتكون المجتمع السياسي او الدولة . والشخص الذي يحكم الدولة هو الرئيس او الملك ، ويكون صاحب السلطة النهائية بموجب الميثاق . ولا يجوز بعد ذلك الثورة والتمرد

وامتثال الاوامر مهما كان الملك جائرا لانه لم يكن طرفا في العقد ، بمعنى لم يكن هو بحاجة اليه ، ولهذا فهو غير مرتبط به . واهماله لشروط العقد لا يبرر الثورة ضده .

وهكذا برر توماس هوبز الحكم المطلق في انكلترا ، سواء أكان الحاكم الملك شارل الاول او اوليفر كرومويل . ولم يؤيد هوبز الثورة ضد الحكم المطلق لان الناس في نظره يجب ان يختاروا بين امرين اما الحكم المطلق الذي يضمن لهم الحياة والعيش بأمان ، او مجتمع الفوضى والبربرية الذي لا حاكم له . والحالة الوحيدة التي يجيز فيها هوبز الثورة هي اذا لم يستطع الحاكم المطلق المحافظة على حياة الناس واستتباب الامن والنظام ، وعندئذ يجوز طرده وتبديله بآخر .

لقد كانت فلسفة هوبز السياسية ضد البيوريتان المتزمتين الذين قاموا بالثورة الانكليزية ضد الملك شارل الاول . لكن الكتاب لم يعجب البرلمانيين لانه كان ملكيا ، ولم يعجب الملكيين لانه برر حكم اي حاكم مطلق وليس الملك . وكان ضد الدين والكنيسة فلم يؤيده انصار الكنيسة . ومع ذلك فان ما فيه من الحوار والافكار الفلسفية والمناقشات السياسية أثرت على المفكرين تأثيرا عميقا وهزّت فيهم روح الجدل السياسي .

لقد استند هوبز في محاوراته على العقد الاجتماعي لتأييد السلطة المطلقة . وكان هناك من يؤيد الحرية والنظام البرلماني

جون ملتن والليفلير دعاة المساواة :

فكان جون ليلبورن ، احد زعماء البيوريتان المعروفين بدعاة المساواة الليفلير ، اعلن ان الانسان حر بطبيعته مساو لغيره ، وأسس الحكومة نتيجة للعقد الاجتماعي لحماية حقوقهم الطبيعية في الحرية والمساواة ، وعندما تسلب هذه الحقوق يجب فسخ العقد وتكوين عقد آخر لتأسيس حكومة جديدة • كما ان الشاعر الشهير جون ملتن Milton ١٦٠٨ـ١٦٧٤ دافع عن حرية المواطنين في عدد من الكراسات ، اشهرها آريوپاكس ، التي نشرها عام ١٦٤٤ ، قال فيها ان الحرية رمز الانسان الطبيعي وهدف المجتمع الحقيقي • وعلى الدولة المتمدنة ضمان تلك الحريات لشعبها • وهذه الحريات عبارة عن حرية التعبير والنشر والعبادة والزواج وممارسة العادات والتقاليد والغاء الرقابة على المطبوعات • وقد دافع عن جمهورية اوليفر كرومويل ، وقال ان الناس ولدوا احرارا ومن حقهم الطبيعي انتخاب الحكومة التي تناسبهم •

جون لوك John Lock ١٦٣٢ـ١٧٠٤ :

اما جون لوك فكان طبيبا درس الطب في اوكسفورد واصبح سكرتيرا وطبيبا خاصا لزعيم حزب الهويگز لورد شافتسبري • وانهزم الى هولندة مع شافتسبري في اوائل الثمانينات لما حل شارل الثاني البرلمان سنة ١٦٨٠ • وهناك كتب كتابه الشهير مقالتين عن الحكم المدني برر فيها الثورة الجليلة ونشر كتابه سنة ١٦٩٠ • اما فلسفته عن

المعرفة فقد نشره بعد ذلك بقليل تحت عنوان اسئلة عن فهم الانسان ومعرفته . وفي هذا الكتاب الاخير يفسر لوك نظرية المعرفة ، وقال بان المعرفة عبارة عن ادراك الافكار المتعددة التي يزخر بها دماغ الانسان ، ومعرفة تَوافُق هذه الافكار مع بعضها بعضا ومع الظواهر الطبيعية او عدم توافقها . ويمكن الاستنتاج من حالات خاصة لمعرفة العلاقة بين الافكار والظواهر الخارجية . ومعرفة الطبيعة مسألة دقيقة تتغير من وقت لآخر باكتشاف حقائق جديدة تبطل المعارف السابقة . والانسان واثق من وجوده ، ولهذا الوجود بداية ونهاية . وعليه يجب ان يكون هناك سببا وضع البداية والنهاية لكل شيء وهذا السبب هو الله خالق الكون .

اما في كتابه مقالتين عن الحكومة المدنية يقول جون لوك : « ان الانسان سليم بطبعه يحب الخير لغيره ، وكان في مجتمعه الطبيعي البدائي يتصرف بمقتضى القانون الطبيعي وما يمليه عليه عقله . وهذا القانون الطبيعي عبارة عن مجموعة من الاحكام للسلوك والتصرفات اكتشفها العقل البشري وفسرها وهي تؤكد على المساواة بين الناس . اما الحقوق الطبيعية للانسان فهي حق الحياة والحرية والتملك ومتابعة الحياة الافضل .

ان المحافظة على الحياة عبارة عن الدفاع عن النفس ضد الاعتداءات ، والحرية معناها التحرر من كل قيد سوى ما نص عليه القانون الطبيعي . فالقانون الطبيعي ينص على ان لا يتعدى احد على آخر أو على امواله واملاكه ، وعند المخالفة يجب معاقبة المذنب لانه

خرج عن القانون الطبيعي • ويستطيع المعتدى عليه ان يعاقب المعتدي بنفسه او بالاتفاق مع غيره •

اما التملك فمعناه حق الفرد في الحصول على كل ما من شأنه ادامة حياته وبقائه • والملك مشاع للجميع ، والملكية الخاصة هي نتيجة الجهد الذي بذله الانسان للحصول على ما يريده • ولهذا يجب احترام هذا الحق لانه جزء من الحقوق الطبيعية • وحق الملكية يسبق تكوين المجتمع السياسي •

غير ان الفروق الفردية ادت الى تغلب القوي على الضعيف نشوب الحرب وانتشار الفوضى والبربرية ، الامر الذي دعا الناس الى ايجاد وسيلة للتخلص من حالة الحرب والمحافظة على ارواح الناس ومتلكاتهم • وكان ذلك بداية تكوين المجتمع السياسي • ويتكون المجتمع السياسي بتنازل جميع ابناء المجتمع عن ذلك القسم من حقوقهم الذي يأمر بالعقاب عند مخالفة القانون الطبيعي • ولا يكون التنازل لشخص واحد بل للمجتمع بأسره حتى يعاقب مخالفي القانون الطبيعي • وعليه يكون المجتمع مصدر السلطة السياسية • على ان الافراد يحتفظون لانفسهم بحق الحياة والحرية والتملك ومتابعة السعادة • فيكون المجتمع عندئذ مقيدا بهذه الحقوق الثلاثة • كما ان القانون الطبيعي يقيد الفرد والمجتمع على السواء •

وبناء على ما ذكرناه آنفا تخضع الاقلية لارادة الاكثرية ويستخدم المجتمع القوة القسرية لتنفيذ احكامه ، لان ذلك جزء من

العقد • وهذه القوة عبارة عن تطوع كل فرد في المجتمع للخدمة العامة وتنفيذ القوانين التي يفرضها المجتمع •

وتودع السيادة الى هيئة عامة ،هي الحكومة التي تتكون بموجب العقد • وعند حلّ هذه الهيئة ترجع السيادة مرة اخرى الى المجتمع • وتقوم الحكومة برعاية حقوق الافراد والمحافظة عليها نيابة عن الشعب • واذا خالفت الحكومة هذه التعهدات فمن حق الشعب الثورة ضدها وتبديلها بحكومة اخرى تتعهد بحماية حقوقه التي هي حق الحياة والحرية والتملك • ويعتبر جون لوك السلطة التشريعية اعلى سلطة في الدولة • ويجوز للسلطة التنفيذية ان تشترك في سن القوانين وعندئذ تكون كل من السلطة التشريعية والتنفيذية مقيدة واحدة بالاخرى • ولا تكون السلطة التشريعية مطلقة في رأي لوك لان الافراد الذين اقاموها لا يملكون السلطة النهائية المطلقة • كما انه لا يمكن نزع الملكية الا بموافقة الغالبية العظمى • ويمكن تغيير السلطة التشريعية بسحب الثقة منها • اما السلطة التنفيذية فمسؤولة امام السلطة التشريعية ، ولا يمكن وضع السلطتين في يد شخص واحد لان ذلك معناه فقدان الحرية •

والخلاصة : ان لوك افترض ان لكل شخص حقوق طبيعية في الحياة والحرية والتملك ، والغاية من الحكومة حماية هذه الحقوق ؛ فاذا فشلت في واجبها يحق للشعب الثورة ضدها والاطاحة بها • ومعنى هذا ان الشعب هو صاحب السيادة ، والسلطة الحقيقية وراء الحاكم • ومن هذا استنتج لوك مبدأين أولا : طالما كان الشعب عبارة عن افراد لهم حقوقهم المتساوية تكون المقررات السياسية من حق الاكثرية •

وثانيا : لما كانت الغاية من الحكومة حماية حقوق الفرد وحرياته ، يجب ان لا تتدخل الحكومة في معتقداته • ودعا لوك الى التسامح الديني الا للكاثوليك والملحدين •

وهكذا نجد ان جون لوك أيد البرلمان الانكليزي وأثرت نظرياته على كثير من المفكرين في اوربا وامريكا في القرن الثامن عشر • واشهر من تأثر به هو ڤولتير وروسو وتوماس جيفرسن • واعتبر هؤلاء لوك مفسرا للفلسفة العقلية السائدة • واقتبس جيفرسن آراءه في اعلان استقلال امريكا عام ١٧٧٦ •

باروخ سبينوزا ١٦٣٢-١٦٧٧ :

فيلسوف هولندي يهودي من امستردام : آمن بالعقل وتشكك مثل توماس هوبز من ثنائية ديكارت ، وقال ان كل شيء عبارة عن جسم وروح ، بعكس هوبز الذي قال ان كل شيء مادة • ويقابل الجسم والروح عند سبينوزا الفراغ والفكر ، والطبيعة والله • لقد كان سبينوزا مؤمن بوحدة الوجود ، فجلب بذلك على نفسه نقمة اليهود ، لكنه احتمى بجون دي ويت رئيس الدولة •

اما من الناحية السياسية ، فكانت وجهة نظره قريبة من جون لوك الذي قابله في هولندة وآمن بالعقد الاجتماعي ، وقال ان الوظيفة الاساسية للدولة الحصول على ولاء مواطنيها ، ولا يمكن تحقيق ذلك الا بتحقيق الحريات للافراد •

لقد أثرت فلسفة جون لوك السياسية على الكتاب الفرنسيين الذين وجدوا بالتجربة ان حكومتهم لا تشبه انكلترا قليلا او كثيرا • ففي الوقت الذي كانت الملكية مقيدة في انكلترا ، والبرلمان صاحب السلطة والسيادة ، والحكومة مسؤولة امامه ، والدستور يضمن كافة الحريات الاساسية للفرد ، كانت الملكية مطلقة في فرنسا ولا اثر للبرلمان والدستور او ضمان للحريات • ولقد اتنبه عدد من الكتاب الفرنسيين الى الفرق بين النظام الانكليزي والفرنسي ، واشهرهم في هذه الناحية هو منتسكيو •

مونتسكيو ١٦٨٩–١٧٥٥ :

كان منتسكيو نبيلا فرنسيا ومحاميا ، درس العلوم الطبيعية ، وكان معجبا بجون لوك ونيوتن • وقد برهن في كتاباته انه كاتب من الطراز الاول • ففي رسائله الفارسية التي نشرها عام ١٧٢١ ، كتب منتسكيو عن نبيلين فارسيين زارا باريس ، وشاهدا العجائب والغرائب في بلاد الافرنج ، حيث المؤسسات والمدن والمسارح الليلية والعقائد الدينية والعادات والتقاليد كلها تختلف عما هو موجود في بلاد فارس • وبهذه الرسائل برهن منتسكيو انه من الكتاب البارزين • وكتب سنة ١٧٣٤ كتابا تاريخيا متزنا بعنوان « تأملات في اسباب نهوض وانحلال الامبراطورية الرومانية » • وفي كتابه الشهير روح القوانين نشره سنة ١٧٤٨ ، شرح الاسباب والمؤثرات التاريخية •

لما كتب منتسكيو روح القوانين كان تحت تأثير ثلاثة تيارات فكرية : (١) الحسية او التجريبية Emqericism التي اثارها جون

لوك والتي تؤكد على نظـرية المعرفـة وتأثير الظواهر الخارجيـة على الدماغ عن طريق الحواس وانعكاسها مرة اخرى • (٢) التيار الطبيعي Naturalism الذي يؤمن بان الطبيعـة البشرية ومشاكلها يمكن تفسيرها تفسيرا طبيعيـا وعلميا دون الالتجـاء الى ما وراء الطبيعـة والمعجزات • وفي هذا تأثر منتسكيو بنيوتن واصحاب الدين الطبيعي Deists • (٣) التيار الحر او الاعتقاد بان يجب ان يكون الانسان حـرا ضمن حـدود القانون ، وهنـا ايضا تأثر منتسكيو بجون لوك والدستور الانكليزي •

لقد انتقلت الافكار السياسية والحرة من انكلترا الى فرنسا عن طريق الكتب والكراسات والمحادثات في الصالونات والمقاهي والنوادي والسواح • والافكـار كما قيل (والقول للاسـتاذ كوتشاك) يمكن منعها موقتا ولكن لا يمكن ان تموت • وكان منتسكيو يفكر في وضع علم للسياسة ، وافترض انه اذا امكن فهم المبادىء الحقيقيـة الصحيحة للسياسة يكون من السهل المحافظـة على الحرية في بلد مثـل فرنسا • وقد استقى منتسكيو افكاره عن الحـرية ليس فقط من دراسة تاريخ الدستور الانكليزي ومؤسساتها ، بل من دراسـة الكتابات اليونانية والكلاسيكية القديمة ، والقانون الفرنسي وتأريخ فرنسـا • وكمشرع ومحام ومؤرخ خاف منتسكيو من ازدياد سلطة الملوك المطلقة في فرنسا وزوال الحرية حتى للناس الذين من طبقته الارستقراطية • وكان اصدار كتاب روح القوانين نتيجة لهذا الخوف •

قال منتسكيو ان لدى كل شـعب قوانين اساسـية مبنيـة على مميزاته وصفاته المشتقة من البيئة الطبيعية والمؤسسات الخاصة به ـ اي

من الجغرافية والتاريخ . وينبغي تقييم القوانين التي يضعها الانسان كي تنفذ المميزات الطبيعية للشعب . وقد ميز منتسكيو ثلاثة انواع من الحكومات ، الجمهورية والملكية والاستبدادية . وكان منتسكيو معجبا بالنظام الملكي الدستوري على غرار النظام الانكليزي الذي يضمن الحريات الاساسية .

وقد مدح منتسكيو الدستور الانكليزي وفصل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية والضبط والموازنة بينها ، وكلها تتعاون لضمان الحريات التي تنسجم مع المحيط الانكليزي وعبقرية شعبه . ومع ان فكرة التوازن بين السلطات والضبط والموازنة ليس بجديد ، فقد قال عنه الكتاب الكلاسيكيون القدماء ، وماكيافيلي ، وجون لوك ، وبولينبروك ، لكن منتسكيو اكد على تقسيم السلطات وبذلك اصبح النظام الانكليزي وسلطاته الثلاثة المنفصلة والضبط والموازنة بينها نموذجا يقتدى به في البلدان الاوربية والاقطار المتكلمة باللغة الانكليزية .

لقد كان تأثير كتاب روح القوانين عظيما على اوربا ، وقال جون مورس بصدد ذلك : « ان منتسكيو هو اول من استخدم طريقة المقارنة في المؤسسات الاجتماعية ولاحظ تأثير العوامل الطبيعية في علاقتها مع قوانين البلاد وأول من نظر الى الحقائق الاجتماعية في جميع انحاء العالم متمثلة في الطبقات والجماعات ، وبحث بشكل واضح وقطعي كيفية الكشف عن اسباب وجود مجموعة من الحوادث التاريخية المعقدة والمؤسسات الاجتماعية والسياسية وتوضيحها » .

ومع ذلك فان منتسكيو افرط في مدح الدستور الانكليزي الذي لم يكن كما رأينا يعمل بالشكل الدمقراطي الصحيح في القرن الثامن عشر .

ڤولتير ١٦٩٤ـ١٧٧٨ :

لقد كان لاندحار فرنسا في حرب السبع سنوات اثر كبير في تدهور الملكية وفقدان هيبتها عند الشعب الفرنسي . وقد تبين ذلك في كتابات الفلاسفة الفرنسيين في ذلك العهد . واشهر من تناول العهد بالسخرية والاستهزاء والنقد هو فرنسوا ماري آروا الملقب بڤولتير . كان ابوه رجل اعمال لا يحبذ ميل ابنه للشعر والادب ، بل كان يريده ان يدرس القانون ، غير ان ڤولتير اتبع هواه ، واخذ يسخر من وزراء الدولة وغباوة ولي العهد . فسجن على اثر ذلك في الباستيل ثم نفي الى انكلترا ، وقضى فيها ثلاث سنوات (١٧٢٦ـ١٧٢٩) ، في وسط العلماء والمفكرين الانكليز فتأثر بهم . وكان معجباً بنوتن وجون لوك والحرية السياسية والدينية في انكلترا . ونشر عدة كتب وشرح فيها آراء لوك التجريبية ونظريات نيوتن العلمية والافكار الانكليزية الحرة . ونشر رسائله عن الانكليزية سنة ١٧٣٤ يسخر فيها من الكنيسة والمجتمع ويبين ايمانه باله واحد إله الطبيعة والكون ، وبرهن انه كاتب قدير متعدد الجوانب والبراعات يتقد ذكاء وسخرية .

كانت الحكومة الفرنسية قد امرت بمنع كتب ڤولتير وحرقها ، وفرّ الى الخارج . لكن كتابه انتشر بين الناس ، وسكن معظم حياته

في سيري Cirey في مقاطعة اللورين حيث كانت كتبه ووثائقه ومختبره . وسكن ردحا من الزمن في برلين ضيفا على فردريك الكبير ، لكن عدم اكتراثه للعاهل البروسي ، وخروجه عن اللياقة ازعج فردريك ؛ فانهزم ڤولتير خوفا من بطشه . ومع ذلك ظل الاثنان صديقان حميمان ودامت الرسائل بينهما حتى النهاية . كما ان ڤولتير قضى وقتا من الزمن في جنيف بسويسرا . وكانت كاترينا الثانية قيصرة روسيا تقدره .

لقد برز اسم ڤولتير كمؤرخ وكاتب مقالات ، لكن كتبه سطحية ومملة في نظر البعض ولا تجد قراء في الوقت الحاضر . بينما في القرن الثامن عشر كثر قرّاءه وتأثر الاوربيون بكتاباته الممتعة .

يعبّر ڤولتير عن افكار ومشاعر عصر الاستنارة وتبين ذلك في ايمانه بالعقل والتكامل البشري . واستخدم فلسفة الاستنارة كسلاح ماض ضد اللاعقلانية والمؤسسات الفاسدة في ذلك الوقت . وكانت انتقاداته مدمرة اكثر مما هي بنّاءة . فقد هاجم العادات والتقاليد والحكومة والمجتمع والدين ، وبيّن اعجابه بالمؤسسات الانكليزية لكنه لم يضع افكارا بناءة ، ولا كيف يمكن بناء مجتمع جديد محل المجتمع القديم . ولم يبين كيف يمكن نقل الحرية الانكليزية ومؤسساتها الى فرنسا .

لقد نال ڤولتير الشهرة لانه كتب أجود نثر باللغة الفرنسية ، وتجنب استخدام لغة الطبقة العليا المثقفة كي يفهمه الجمهور .

لقد كان ڤولتير متفائلا بخصوص عصره لما كتب تاريخ لويس

الرابع عشر الذي اعتبره عصـرا رائعا بالنسبة لفرنسا . ولما كتب عن تاريخ لويس الخامس عشر وتاريخ العـالم ، وجد ان مجـرى التاريخ عباره عن صراع مستمر بين القوى المتنوره ضد قوى الظلام والجهل . وبين ان التنور يتغلب اخيرا . وتهكم من قوى الظـلام المتمثلة في الكنيسه الكاثوليكيه . ودعا الى تحطيم الكنيسـة التي كان الابرياء الكثيرين ضحية تعصبها . ودعا ڤولتير الى كتـابة التاريخ بالاسلوب العلمي تكون غايتـه توخي الحقيقـة وليس كيـل المديح للحكـام والعسكريين . واكد على النواحي الاجتماعية والحضارية . واستقبح الحروب التي في نظره تدل على حماقات البشر .

كان صوت ڤولتير أقوى صـوت في اوربا واذا وقف ضد شخص فكان الادباء كلهم يعادونه ، ولا يصبح الكاتب شـهيرا الا اذا اراد له ڤولتير بذلك ، واثنى عليه . وقد نشـر قاموسه الفلسفي سـنة ١٧٦٤ تناول فيه كثيرا من المواضيع الشيقة . واعتقد ڤولتير ان الانسان يمكن تضليله بواسـطة حكام اشـرار ومؤسسات شـريرة ، لكن نور العلم والمعرفة سوف يقضي على قوى الشـر . وبالنسبة لفرنسا فلا يصلح لها الا ملك متنور قـوي على غرار فردريك الكبير لان فرنسـا لا تصلح للدمقراطية .

جان جاك روسو ١٧١٢ـ١٧٧٨ :

ولد جان جاك روسو في مدينة جنيف بسويسرا وعاش تعسا طول حياته . فكان خادمـا وموسيقيا ومعلمـا وسكرتيرا . وطـاف اوربا الغربية من جنيف الى تورينو (في ايطاليـا) وباريس وفيانا ولندن ،

وكان فاشلا في سفراته ووظائفه ، وقد اختل عقلـه في اواخر حياته . لكن هـذا الشخص الذي لم يستطع ان يدبر امر نفسه وضـع فلسفة لغيره . فكان يحب الطبيعـة والسـماء الصافيـه والمروج الخضـراء والاشجار الباسقات والوديان النضرة وقمم الجبال المكسوة بالثلج كما كانت سويسرا ولا تزال حتى هـذا الوقت . وبينمـا كان العقلانيون يستهجنون العاطفـة ، كان روسـو يهتم بها كجزء من حيـاة الانسان وكيانه . وكان هـذا الفيلسوف الرومانتيكي يملك طبيعـة شاعرية ، ومؤسس الرومانتيكية الحديثـة . ولم يكن اهتمام روسـو بالطبيعة فقط بل اهتم بالانسـان الطبيعي . فقـد اعتبر الانسان الطبيعي يمتاز بالصدق والوفاء والفضيلة . وقارن في اول مقـال له بعنوان « البحث في العلوم والفنـون » (١٧٤٩) بيّن نبل الانسان البـدائي وشرور الانسان المدني . وصوّر السرور والفرح بزوال المدنية والرجوع الى الطبيعة ، حيث تسود الحرية والمساواة . فتكون الملكية مشاعة لان الله منح الارض للجميع ، ولا تكون هنـاك حروب وقاتل ومقتول ، ولا ضرائب مجحفة بحق الشعب ، ولا قوانين تقييـد الحريات ولا فلاسفة يخدعون الناس . وكان النـاس يميلون الى هذه الآراء فنـال بذلك اعجـاب الكثيرين . وفي مقال آخر عن عـدم المساواة (١٧٥٣) بيّن روسـو كيف ان الشـره والطمع والانانيـة افسدت قلوب النـاس ونفسياتهم ، وكيف ان الاقوياء تملكوا الاراضي واجبروا الضعفاء على الاعتراف بحق الملكية الخاصة ، وهذا في نظره اصل عدم المساواة بين الناس ، واستبداد القوي بالضعيف ، وحق الملكية الخاصة هذا ، لاجل فائدة بعض الطمـاعين القـلائل ، استعبد الجنس البشري للعبودية

والبؤس والعمل المرهق • ومع انه لم يكن هناك شيئا جديدا في مقاله لكنه كتب باسلوب يخلب اللب بجماله وجاذبيته •

اما كتابه « العقد الاجتماعي » الذي نشره سنة ١٧٦١ ، فانه مقتبس في غالبيته من جون لوك • واعتبر المجتمع البدائي مجتمع الاحساسات البريئة والمساواة • ويستهل كتابه بالعبارة الشهيرة : ولد الناس احرارا متساوون في الحقوق ، وبدأ البؤس والشقاء ، لما انفصل الناس عن مجتمعهم البدائي واخذ يملك الاشياء ويكون العائلة ويختلط بالآخرين بغية التعاون • فظهرت المنافسة والمزاحمة والتفاضل بين الناس • كما ظهرت الفروق الفردية اثناء العمل ، واخذ القوي يعمل اكثر الاوقات والغني يجمع اكثر الانتاج فتوسعت الشقة بين الغني والفقير وظهر التفاوت بين الناس •

وكان تملك الاراضي بداية المجتمع المدني لانه ادى الى الحرب والمنافسة وانتشار العداوة • ولاجل التخلص من هذا الوضع أخذ الفرد يضع نفسه تحت سيطرة الارادة العامة (وهي مجموع الارادة التي تنازل عنها كل فرد للمجموع) • وهذا معناه ان كل فرد تنازل عن حقوقه الطبيعية للمجتمع باسره باعتباره مجموعة واحدة • وهذا التنازل اوجد شخصية سياسية تتمتع بحياة خاصة وارادة مستقلة • وهذه الشخصية هي الدولة • والسيادة التي تتكون من هذا التعاقد يكون لكل فرد نصيب فيها مساو لنصيب الآخر ، وهذا الجزء الذي يخصه من السيادة لا يمكن انتزاعه منه • وبموجب هذا العقد يكتسب الفرد جميع الحقوق التي كان قد تنازل عنها للمجموع ، وتتولى

الدولة حماية هذه الحقوق • والسيادة لا تتجزأ ولا توكل ، لان الحكومة ليست جزءا من العقد بل هي وكيلة تابعة للارادة العامة للدولة • ويفرق روسو بين الدولة والحكومة ، اذ ان الدولة هي الكيان السياسي الذي تكوّن بموجب العقد • بينما الحكومة تتكون من الافراد الذين يختارهم الشعب لتطبيق رغبات الارادة العامة وحماية ارواح الناس وممتلكاتهم وحرياتهم الطبيعية ، وان الدين ضروري للمواطنة الصحيحة في المجتمع المدني •

لقد كان صدى العقد الاجتماعي مدويا في كل مكان لان الناس كانوا مستعدين لقبول السيادة الشعبية التي عبر عنها روسو باسلوب ادبي جذاب رومانتيكي واضح وقطعي ، وعبارات يضرب بها الامثال • واصبح روسو بدلا من جون لوك رائد الدمقراطية الحديثة والنظام الجمهوري • وكان لنداء روسو بالرجوع الى الطبيعة في كتابه آميل (١٧٦٢) تأثير عظيم على التربية والتعليم • وقال ان الاطفال يجب ان نفسح لهم المجال في تحقيق ميولهم الطبيعية ، ويتعلموا امورا عملية مفيدة وليست اللغات الاغريقية واللاتينية ودراسات اصطناعية لا فائدة فيها • فليتعلموا ما يطبقونه في حياتهم العملية لا الاشياء التي ينسونها •

وفي روايته هيلويز أكد على الناحية الاخلاقية واهمية الشعور الكامن بالقيم الاخلاقية • وان الفضيلة في النهاية تتغلب على العواطف الدنيئة • ولكون روسو اعتقد بالعواطف الكامنة كموجه ومرشد مؤثر ، وتصويره المحيط الطبيعي بمهارة عظيمة ورفضه النظرية الحسية للفلاسفة ، أكد على الايمان بالله والدين والضمير الديني كموجه للسلوك الاخلاقي في روايته هذه وفي أميل الذي اصبح حجر الزاوية

في الحركة الرومانتيكية التي ظهرت كرد فعل للحركة العقلية والاستنارة التي كانت تزدري العواطف .

الصراع بين ڤولتير وروسو :

لقد كان الفلاسفة جماعة متماسكة ، وكان ڤولتير معجبا بروسو . لكن الاخير اصطدم بڤولتير في النهاية . لقد كان روسو يؤمن بان الانسان خيّر بطبيعته وتجنب ڤولتير مناقشة موضوع القيم الاخلاقية التي لا وجود لها في فلسفة نيوتن ولوك الطبيعية . وان في الكون الطبيعي يوجد الخير والشر ، ويستطيع الانسان أن يميز بين الحق والباطل والاخلاقي واللا اخلاقي ولا حاجة لتدخل السماء في الموضوع . وحدث الانقطاع بين الاثنين نتيجة لحادث بسيط . ففي سنة ١٧٥٥ دمرت الزلازل والفيضانات قسم كبير من مدينة لشبونة ، وكتب ڤولتير مقالا يثير الشكوك في رحمة الله الذي سمح بكارثة لشبونة وكوارث اخرى مماثلة . فاحتج روسو ضد هذا الكفر الصريح والتشكك في الله ورحمته . ولامَ ڤولتير من طرف خفي في مقال آخر عن اخلاقية الملاهي والمسارح وكان رد ڤولتير عليه كتاب كانديد ، وهو رواية مضحكة واستعراض كاريكاتيري لمدرسة ليبنيتز التفاؤلية والتي يكون روسو نموذجا لها . فعلى الرغم من مشاكل كانديد والصعوبات التي كان يواجهها ، كان ايمانه لا يتزعزع وظل كانديد يؤمن بان كل شيء يسير نحو الاحسن في احسن ما يمكن ان يكون في العالم . الى ان قرر نهائيا الاستقرار في مزرعته والاهتمام بها[1] .

---

(1) Ibid; pp. 513-532.

لاحظ ڤولتير مشاكل روسو الذي مع ذلك لم يتزعزع ايمانه بالله في الوقت الذي زعزعت هزة ارضية في ليشبونة اعتقاد ڤولتير .

تأثير روســو :

لقد أثر روسو على عـدد كبير من النـاس من الطبقـات العليا والوسطى ، واصبح الرجوع الى الطبيعة شعار الجميع ، وحتى رجال البلاط هتفوا بذلك ومن بينهم الملكة ماري انتوانيت ، واصبح روسو صديقا للفيلسوف الانكليزي داڤيد هيوم ، وموضع اعجاب كثيرين من المفكـرين كتوماس پين Thomas Paine الذي اخذ منه كثيرا من آرائه في كتابه « الاحساس السليم Common Sense » وكان هيردر معجبا به ، كما ان كانط تأثر به ووضع آراءه في قالب فلسفي ونشرها في المانيـا . وان آلاف الفرنسيين اتخذوا الحرية والمساواة والاخوة والدمقراطية والسيادة الشعبية شعارا لهم متأثرين في ذلك بروســو . لقد كان روسو كأي فيلسوف سياسي في ذلك العهد يريد تأسيس نظام حكومي مبني على معرفة المجتمع ويخدم مصلحة المجتمع .

الاينسايكلوبيديين او الموسوعيين :

كانت الموســوعة الفرنسية او الانسايكلوبيديا مشروعا عظيـمـا لتدوين ما توصلت اليـه العلوم والمعرفة ونشـر المعتقدات السياسية للفلاسفة . وكان ديدرو صاحب المشروع ورئيس تحريره وكتب اغلب المقـالات ، وخاصـة تلك التي تخص التيكنولوجي . وكتب الرياضي دالمبـــرت D'Alembert مقدمة الموسوعة . وقد التجأ ديدرو الى

الحيل والمراوغة لتجنب المشاكل مع الرقابة . ومع ذلك فقد منع نشرها مرتين . وظهر (٢١) مجلدا سنة ١٧٦٥ بعد ان اجيز طبعهـا ، وانتهت نهائيا في ٣٥ مجلدا سنة ١٧٨٠ ، مع عدد من الملحقات الخاصة بالجداول واللوحات والفهـارس . كمـا ظهرت الموسوعة البريطانيـة في ثلاث مجلدات سنة ١٧٧١ .

وقد قـدم آلاف المشتركين اشتراكاتهم واغلبهم من الاغنيـاء . واكدت الموسوعة على الحقوق الطبيعية وحق الحيـاة والحرية والملكية ومتابعة السعادة دون التأكيـد على المساواة . كما اكـدت على العقد الاجتماعي الملزم على الحاكم والمحكوم . ولكن في نفس الوقت اكدت على الحاجـة الى القانون والنظام . لقـد عبّرت الموسوعـة عن آراء فلاسفة الاستنارة الذين كتبوا اغلب مقالاتهـا . وكان هؤلاء يدعون الى الاصلاح وتأسيس دولة ملكية مستنيرة مقيدة فيها كل الفئات التي تملك السيطرة على السلطة السياسية .

لقد كان منهج الفلاسفة الخاص بالحقوق الطبيعية ذو حدين يدعو الى القضـاء على المفاسد والاقطاعية وامتيازات الطبقـة الارستقراطية وانهاء القنـانة والضرائب الفادحـة والرسوم الاقطاعيـة والسخرة وغيرها ، وتأسيس نظام اقتصادي اجتماعي عادل والقضاء على احتكار النبـلاء للمناصب في الجيش والسلك المـدني ، وبذلك يصلحون هذه المؤسسات ويزداد نفوذ وامتيازات الطبقة الوسطى وتأثيرها

هلبــــاخ :

ومن بين الذين كتبـوا في الموسوعـه ، هلبـاخ Holbach ١٧٢٣ــ١٧٨٩ وكان هذا الماني من مقاطعـه بلاتينات على الراين ، جاء به ابوه الى باريس وتمكن بحكـم ثروته ان يفتـح داره للفلاسـفه والمتنورين من امثـال ديدرو ، دالمبرت ، ترگو ، بافون وداڤيد هيوم الانگليزي • وقد بين معتقده في المقالات التي كتبها للموسوعة وفيها نكران لكـل الاديان ، وانكر وجـود الروح • وقـد ادت كتاباتـه الالحادية الى ازعـاج كثير من النـاس حتى الذين يؤمنـون بالدين الطبيعي من امثال ڤولتير وجماعته •

بلاكســـتون :

وفي انگلترا ظهر عـدد من المحـامين ورجـال القانون متأثرين بمنتسكيو ، من بينهم سير وليم بلاكستون ١٧٢٣ــ١٧٨٠ ، الذي كان استاذا للقانون في جامعـة اكسفورد • وقـد بحث بلاكستون النظام القانوني في انگلترا وكان كتـابه ((التعليقات Commentaries)) المنشور سـنة ١٧٦٥ ، نمـوذج كلاسيكي وادبي لدراسـة القانون الانگليزي • وأكد ان القانون الانگليزي يعادل قانون الجاذبية او اي قانون طبيعي •

بيكـــاريا :

اما سيزار بونسيانا المعـروف بماركيز بيكاريا ١٧٣٨ــ١٧٩٤ ، كان نبيلا ايطاليا واستاذا للقانون والاقتصاد في ميلانو ، نشر كتابه عن

الجريمة والعقاب الذي نال شـــهرة عظيمة في اوربا وترجم الى لغـات متعـــددة .

وقد بين بيكاريا اسباب الاجـرام ومبادىء العقاب ونادى الى اصلاح السجون والغاء الاعدام ومصادرة الامـلاك والتعذيب ومعاملة السجناء معاملة انسانية .

نقد نظرية العقد الاجتماعي :

لقد انتقدت نظرية العقد الاجتماعي في القرن الثامن عشر بانها غير تاريخية . لان التاريخ لا يذكر لنا عقدا كهذا بين الحكام والمحكومين لتكوين الدولة . وانه حتى لو افترضنا وجود عقـد كهذا فان الاجيال التالية ليست مرتبطة به . الا ان مؤيدي العقـد اجابوا بان الغرض من هذه النظرية ليس حدوثها التاريخي بل التبرير المنطقي لتكوين المجتمع السياسي . وكان داڤيد هيوم David Hume ، هاجم هذه النظرية وقال انها خرافـة في التاريخ وهـذيان في المنطق . ان ذكـاء الانسان البدائي اقل من ان يدرك العقد الاجتماعي . والعامل الرئيس في قبول الانسان للدولة هو العـادات والتقاليد . فقد اعتاد النـاس ان يجدوا انفسهم خاضعين لدولة ما منـذ الولادة ولا يهتمون كيف نشأت هذه الدولة وتطورت . كما ان الانسان بعد تكوين الدولة لا يملك الحرية الكافية للانسحاب عنهـا لانه لا يملك القوة . وقال هيوم بان الدولة تأسست في الواقع على اساس المنفعـة التي تسبب اجتماع النـاس في مكان ما لتكوين المجتمـع والقيام بتبادل المنافع . ولمـا كان الانسان

اناني بطبعه فهو يحتاج الى سلطة تقوم باستتباب الامن والنظام ومنع الاعتداءات •

ومهما يكن من امر فان لنظرية العقد الاجتماعي والحق الطبيعي اهمية كبرى في نشر مفاهيم الحرية والدمقراطية وحقوق الانسان وايجاد سطة عادلة تستمد القوة من الشعب • كما ان نظرية العقد الاجتماعي بررت ادعاءات الناس من ان لهم الحق في تعيين حكوماتهم والذين يمارسون الحكم والفصل بين السلطات • والتعاقد بين التابع والمتبوع الوارد في اوربا في العصور الوسطى لخير دليل على وجود العقد الاجتماعي •

جيرمي بينثام والمذهب النفعي :

ولد جيرمي بينثام Bentham من عائلة محافظة غنية اشتهرت بالمحاماة • ودرس بينثام القانون في جامعة اكسفورد واصبح ناقدا لاستاذه بلاكستون وللقوانين الانكليزية • وخرج من تقاليد عائلته ولم يمارس مهنة المحاماة • وقد ترك له ابوه ثروة تمكن بواسطتها ان يستغني عن الوظيفة ، وبدلا من ذلك اخذ يبحث في السياسة والقانون والاقتصاد والفلسفة والاخلاق واخرج من كل ذلك فلسفة جديدة هي فلسفة المنفعة التي شرحها باسهاب في كتابه « جزئيات عن الحكومة » طبع سنة ١٧٧٦ ، ومبدأ التشريع الاخلاقي •

قال بينثام : ان البحث عن اصل المجتمع السياسي في الماضي البعيد لا يلقي ضوءا على حقوق وواجبات الدولة والفرد في الوقت

الحاضر ، وان الانسان لما يطيع القوانين وينفذ اوامر الحكومة فليس ذلك بسبب عقد قديم بل لان مصلحته تقتضي ذلك • وبعبارة اخرى ان الانسان يطيع القوانين لان ما يصيبه من الضرر عند الطاعة أقل مما يصيبه فيما اذا لم يطع •

ان وجود الحكومة ضروري لان الناس يعتقدون انها تروج سعادة الافراد الذين يعيشون في ظلها • وعليه فالغرض من التشريع يجب ان يكون اسعاد اكبر عدد ممكن من الناس • وقد فسر بينثام نظريته باسهاب ، فقال : ان الهدف من وراء عمل الانسان مهما كان نوعه هو سعادته • والتركيب الايجابي للسعادة هو السرور او اللذة التي يحصل عليها الانسان من وراء عمله • والسعادة هي زيادة اللذة على الالم • وعندما يقوم الانسان بعمل ما فانه يقدر ما يحصل عليه من اللذة والالم من وراء عمله ، وان مجموع اللذات التي يحصل عليها يزيد على الالم الذي يعاني منه اثناء العمل • وما على الانسان الا ان يقدر تخميناته بصورة صحيحة قبل الشروع بالعمل ويدرك فيما اذا كان هذا العمل يجلب اليه السعادة ام لا ، لان مقياس الحق والباطل والخطأ والصواب هو تحقيق اكبر كمية من السعادة والخير لاكبر عدد ممكن من الناس • اما بخصوص المجتمع فان عملا ما يكون مطابقا لمبدأ المنفعة اذا كان العمل هذا من شأنه ان يحقق سعادة المجتمع • فالاعمال التي تحقق سعادة المجتمع هي اعمال صالحة وصحيحة ، اما الاعمال التي تكثر من آلام المجتمع فهي اعمال فاسدة وباطلة •

وعلى ضوء ما ذكر فان السرور عند بينثام هو الخير والالم هو الشر ، وان السعادة هي المقياس المطلق للخير والشر والهدف الرئيس

للفرد • ولما كان المجتمع عبارة عن مجموعة من الافـراد وسعادته وغاياته عبارة عن سعادة الافراد وتحقيق غاياتهم ، فيمكن عندئذ تنظيم المجتمع تنظيما سياسيا حقيقيا تطبق فيه المساواة وتحقق حقوق ومصالح الاكثرية من الشعب ويفسح المجال لتطوير قابلياته لان الهدف من الحكومة والغاية من التشريع تحقيق اكبر كمية من السعادة لاكبر عدد من الناس • والحكم الدمقراطي يعني الحكم من قبل اولئك الذين يهتمون بحقوق الشعب ويدركون تمام الادراك مصالح الشعب ويحققونها •

وقد اكد بينثام على مجلس واحد في البرلمان بدلا من مجلسين كما اكد على الانتخابات السنوية على اساس التصويت العام لجميع المواطنين والاقتراع السري • وقد أثر بينثام تأثيرا عظيما على الاصلاحات البرلمانية التي جرت عام ١٨٣٢ في انكلترا • كما أثر على اصلاحات اخرى قامت بها الحكومة الانكليزية في اجهزة الدولة كالسجون والصحة والشرطة • وادخلت بعض مبادئه في برنامج الحركة المعروفة بالجارتية لسنة ١٨٤٨ • لقد كان بينثام رائد الحرية والدمقراطية الحديثة •

الاقتصاديون العقلانيون :

لقد أثر التقدم الاقتصادي التجاري والزراعي على الاقتصاد واخذ بعض المتنورين يفسرون الظواهر الاقتصادية تفسيرا عقلانيا • لقد كانت النظرية السائدة منذ القرن السادس عشر هي نظرية اصحاب المذهب التجاري • وكذلك السياسة التي اتبعتها اسبانيا والبرتغال

وهولندة وفرنسا في عهد رشيليو وكولبير تطبيق شامل للنظرية التجارية وحماية التجارة ، وقد اكدت عليها انكلترا في عهد كرومويل وشارل الثاني بسن قانون الملاحة الذي ينص على ان تشحن البضائع على السفن الانكليزية . وكان الاقتصاديون الذين فسروا حماية التجارة واكدوا بحلها في القرن السابع عشر هم سيرا (الايطالي) ومونشيرتين (الفرنسي) وتوماس مون (الانكليزي) . وكان الاخير قد فسر الميزان التجاري والتوازن بين الصادرات والواردات وان من خير الامة ان تزيد صادراتها على وارداتها .

الاحصـــاء :

وقد ظهر علم الاحصاء في منتصف القرن السابع عشر . وكان اول من قام باحصاء دقيق تاجر انكليزي جون كرانت ١٦٢٠–١٦٧٤ ، الذي كان يقضي اوقات فراغه في جمع المعلومات عن الوفيات لاسباب متعددة وطبع كتابه الملاحظات سنة ١٦٦٢ ، فانتخب عضوا للاكاديمية الملكية . كما ان وليم بيتي Petty ١٦٢٣–١٦٨٧ ، قام بمسح عام لارلندة وقسم من انكلترا ، في عهد شارل الثاني ، وبيّن في كتابه مقالات عن الضرائب ، ان سعر البضائع لا يقرره التنظيم الحكومي بل مقدار الجهد والعمل المصروف لانتاجها .

الفيزيوقراطيون او الطبيعيون وكيناي :

لقد ظهر ان المذهب التجاري لا ينسجم مع التقدم الاقتصادي في القرن الثامن عشر . وكان وليم بيتي قد ذكر ذلك سابقا . غير ان

بيكاريا الايطالي واستاذ الاقتصاد والقانون هاجم حماية التجارة وفسر فوانين العلاقة بين نمو السكان والمستوى المعاشي في كتابه الجريمة والعقاب . واكد على ان اساس الرأسمال العمل . ومن بين المتنورين في القرن الثامن عشر ظهرت جماعة في فرنسا سمت نفسها بالفيزيوقراطيين او الطبيعيين اتباع الدكتور فرنسوا كيناي Quesnay الذي كان طبيبا في بلاط لويس الخامس عشر . صرح كيناي بانه اكتشف قانون دوران الثروة على غرار الدورة الدموية . وبموجب هذا القانون ان حماية التجارة غير صحيحة ومضرة . لقد كان كيناي واثقا من نفسه اكثر من اللازم واعتبر عالما عظيما والتف حوله عددا من المثقفين والاعلاميين الذين اعتبروا انفسهم اقتصاديين وعرفوا بالفيزيوقراط . وكان كيناي يؤكد ان الارض بما فيها من المعادن والانتاج الزراعي هي المصدر الاساس للثروة . ولهذا فان الزراعة المصدر الرئيس للواردات . ان الصناع والتجار في نظره لا ينتجون الثروة بل يحولونها او يغيرونها ولهذا فان تقييد التجارة والصناعة غير طبيعي وضد مصلحة البلد الاقتصادية ، وعليه يجب تغيير نظام الضرائب في فرنسا وتحرير التجارة والصناعة او الحرية الاقتصادية Laissez Faire . وفرض ضريبة على الارض فقط ، وتبسيط نظام الضرائب في فرنسا وقد نشر كيناي كتابه الاقتصاد عام ١٧٥٨ . وكان من بين الفيزيوقراطيين السياسي الفرنسي الشهير تركو ١٧٢٧ـ١٧٨١ .

آدم سميث ١٧٢٣ ـ ١٧٩٠ :

اقتصادي اسكتلندي ، واستاذ الفلسفة الاخلاقية في جامعة كلاسكو ، كان شغوفا بفلسفة الاستنارة والقانون الطبيعي والحقوق

الطبيعية . وقضى كثيرا من الوقت في البحث عن القوانين الطبيعية التي بموجبها يمكن لشعب ما ان يزيد ثروته . وقد مكث في فرنسا مدة وصاحب كيناي شخصيا والفيزيوقراطيين عامة . واخذ كثيرا من افكارهم وآرائهم . وفي كتابه ثروة الامم المطبوع سنة ١٧٧٦ ، يعبر سميث عن مبادىء الطبقة الوسطى التجارية في انكلترا التي تؤكد على المشاريع الفردية والمنافسة الحرة والنشاط التجاري ، وان الشؤون الاقتصادية كبقية شؤون البشر يحكمها نفس النظام الطبيعي السائد في الكون . ورفض مبدأ اصحاب المذهب التجاري القائل بان مصلحة الشعب تقتضي السيطرة الحكومية على الشؤون الاقتصادية ، وقال بان افضل طريقة لترويج مصلحة الشعب هي المشاريع الحرة ، وحرية الفرد في البيع والشراء والتأجير والاستئجار دون تدخل الدولة . واذا فسح المجال للفرد ان يتبع مصلحته وفق مبادىء العقل والاستنارة دون ان تضع الدولة عراقيل في سبيله يحصل التوازن بين العرض والطلب بصورة اوتوماتيكية نتيجة للمنافسة الحرة . وبهذه الطريقة يمكن مواجهة العرض العالمي لانتاج وتوزيع البضائع على احسن واكفأ وجه . وقد اكد سميث بان العمل labor هو المصدر الوحيد للثروة وليست التجارة والزراعة ، ولهذا يجب تقسيم العمل . ودعا الدولة الى الغاء الاحتكارات والتقييدات على التجارة والصناعة ، وافساح المجال للتجار والصناع ان يتابعوا ممارسة اعمالهم ومصالحهم الاقتصادية دون ان تضع الدولة العراقيل امامهم لان الايدي الغير منظورة تروج مصالح الامة والتجارة الحرة ودع الامور تأخذ مجراها دون التدخل فيها اصبح شعار سميث . كما ان كتابه ثروة الامم اصبح

عماد السياسة الاقتصادية الانكليزية في القرن التاسع عشر • لقد كان سميث ، عكس الفيزيوقراطيين الذين اكدوا على الارض ، اكد في كتاباته على العلاقات المتبادلة بين الارض والعمل والرأسمال وعوامل المجازفة والمخاطرة في انتاج الثروة وظلت آراؤه جزءا مهما في علم الاقتصاد الحديث •

تقدم الدراسات الجغرافية واللغوية والعنصرية :

كان القرن الثامن عشر استمرارا لعصر الاستكشافات الجغرافية ومعرفة الشعوب غير المعروفة والاقطار غير المكتشفة من العالم • وقد قام كپتن كوك باكتشاف استراليا ونيوزيلندة عام ١٧٦٩ ، كما اكتشف بعض جزر المحيط الهادي وقام الرحالة الآخرون باكتشاف اماكن مجهولة وشعوب لم تعرف قبل وكتب الشيء الكثير عن هذه الاقطار والشعوب • فظهرت دراسات جديدة في لغات الاقوام والعناصر البشرية • كما ظهرت القواميس المتعددة كقاموس دكتور جونسن للغة الانكليزية عام ١٧٥٥ ، وقاموس اللغة الفرنسية عام ١٦٩٤ • وقاموس اديلنك للغة الالمانية بين ١٧٧٤ و١٧٨٦ • وبدأت اهتمامات سير وليم جونز باللغة العربية والفارسية واخذ يدرس السنسكريت ووجد العلاقات اللغوية بين اللغات الهندية والاوروبية او الآرية • وكان الطبيب الالماني بلومينباك ١٧٥٢ ـ ١٨٤٠ الذي تعمق في الدراسات الفسلجية وتقسيم العناصر البشرية على اساس لون البشرة والتقاطيع البشرية وميّز بين خمسة اجناس اساسية : الجنس القفقاس الابيض ، والجنس المغولي الاصفر ، والجنس المالاي الاسمر ،

والجنس الزنجي الاسود ، والهنود الحمر الامريكان . وقد ظل هذا التقسيم معمولا به مدة طويلة .

الحركـة الانسانية Humanitarianism :

اسفرت الافكار والآراء التي انتشرت في عصر العقل والاستنارة عن حركـة سميت بالانسانية نظرا لما كانت تتضمن هـذه الافكار من القيم الانسانيـة والرغبة في تحسين احـوال البشر . وكان فلاسـفة الاستنارة يدعون الى اصـلاح المجتمـع وانظمـة الحكم والاجهـزة السياسية على ضـوء كتابات لوك ومنتسكيو وروسو وبينثام وآدم سميث وكيناي وغيرهم الذين دعوا الى التخلي عن المستعمرات ، والغاء تجارة العبيد ، ودراسة الانسان وتحسين احواله . والاصلاح في نظر هؤلاء المفكرين يحـرر الانسان من الذل والعبودية ويجعله يشعر بانه كائن محترم مما يؤدي الى تكوين مجتمع افضل يستطيع بواسطته ان يحسن احواله الاقتصادية وتتكامل فيه الفضائل الانسانية . وقيل ان الانسان لذا تحرر من القيود واعتمد على نفسـه واستخدم عقله فانه يخلق مجتمعا متكاملا اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا . وكانوا يرون ان الاصلاح يجب ان يشمل القوانين وخاصة الجزائية والسجون ومعاملة المجرمين معاملة انسانيـة والغاء التعذيب وعقوبة الاعـدام . وحثوا الحكومات بتثقيف الشـعب وخاصة الطبقـة الفقيرة بفتـح المدارس الكثيرة تقوم الحكومة بالصرف عليهـا . وطالبوا بايقـاف الحروب السياسـة والاستعمارية والدينية والعنصرية واحلال السلام في العالم .

عالمية المتنورين Cosmopolitanism :

كانت الكوزموبوليتانيه او العالمية التي نادى بها المتنورون جزء من حركتهم الانسانيه الداعيه الى السلام والاخوة البشريه . لما كان الانسان حيوانا اجتماعيا ليس فقط في مجتمعه الصغير بل بالنسبة لبني نوعه ايضا ، اذاً فاسعاد كل فرد من افراد البشر لهو مسؤولية عظمى تقع على عاتق الجميع لان البشر اخوة . ودعا المتنورون الى ترك القومية الضيقة والاقليمية والتمسك بالمواطنة العالمية (الكوزموبوليتية) وكان اغلب المفكرين يدعون انفسهم اوروبيين او عالميين على الرغم من تعدد قومياتهم فكان توماس پين يقول ان العالم وطني والبشر اخوتي. ومع ان روسو كان مواطنا سويسريا لكنه اعتبر نفسه اوروبيا . وكذلك بالنسبة لفولتير وبينثام وآدم سميث . واستطاع هؤلاء التأثير على الحكام المستبدين لتخفيف وطأة حكمهم المطلق .

على ان النزعة الكوزموبوليتية او الوطنية العالمية لم تمنع الايمان بالقومية التي وجد المفكرون انها الوحدة القياسية للمجتمع البشري المقسم الى قوميات كبيرة وصغيرة تختلف بعضها مع البعض الآخر في كثير من الوجوه في الوقت الذي تشترك جميعها في مميزات عامة . لقد كانت النزعة القومية ثقافية حينا وسياسية حينا آخر ، لكنها على العموم كانت تدعو الى حق تقرير المصير للشعوب وحق الفرد في تعيين نوعية الدولة او الحكومة التي يرغب الانتماء اليها . وساد الاعتقاد بان الناس اذا تحرروا من القيود التأريخية التي فرضتها التقاليد عبر القرون وتحققت المبادىء والحقوق التي ينادي بها المتنورون فانهم

بمينون في امن وسلام ويسود الاخاء بين الاقوام على اساس المساواة والمنافع المتبادلة .

ومما هو جدير بالملاحظة ان دعاة العالميــة دعوا الى ذلك على اسس انسانية بناءة لانهم كانوا مفكرين ومصلحين يريدون خير البشرية واصلاح المجتمع البشري . وتجردوا من الاعمال اللاانسانية كالسحل والقتل والارهاب والاعتقـال والتعذيب واستقبحوها واعتبروهـا من بقايا الادوار البربرية التي يجب الغائها . كما وقفوا ضد الدكتاتورية والحكم الفردي ونادوا بالدمقراطية كأفضل وسيلة للجمع بين الحرية الفردية والحكم السياسي وتجنب اعمال العنف والقسوة واحترام آراء الآخرين والمحافظة على كرامة الانسان . ولم يرفض المتنورون وجود خالق الكون والكائنات (الا نفر منهم قليل الاهميــة) ، مع اعتقادهم بقوانين نيوتن في الفيزياء والرياضيات ، بل ظلوا حائرين امام عظمــة الخالق معجبين بفـائق قدرته . وحتى ان نيوتن نفسه بيّن ان قوانينه الرياضية لا تحل مشكلة الكون وتوازنه ، ولابد للخالق ان يحول دون الاصطدامات الهائلة في الكون بين الاجرام السماوية .

فلسفة التنور وكتابة التاريخ :

لقـد أثرت العلـوم الطبيعيــة والرياضية على تقـدم العلوم الاجتماعية والسياسية وعلى الاخص التـاريخ الذي يعتبر أمّ العلوم الاجتماعية والسياسية والمصـدر الاساس الذي يستقى منــه الافكار والحقائق . وقد شاهد القرن السابع عشر والثامن عشر تطـور البحث التاريخي الذي يستند على النقـد والتحليل . واكـد الباحثون على

الوثائق التي يجب التأكـد من صـحتها ، وتفسـير الماضي موضوعيا وطبيعيا •

لقد كان جـان بودان من بين المحامين الذين اشتغلوا في حقـل التاريخ في القرن السادس عشر في فرنسا • فقد دعا بودان اثناء الحرب الاهلية الى تطبيق الروح العلميـة في تدوين التاريخ وبيـّن أثر الوضع الجغرافي والمناخ والتربة في مستقبل الامم وصفاتهم • كما بيـّن بودان من ناحية اخرى تأثير المركز الشخصي والتحيز القـومي والديني على الباحث التاريخي ، ومهد بذلك الطريق لمنتسكيو • وهكذا نجد بودان من بين الاوائل الذين وضعوا الاسس وطـرق البحث التاريخي • ولم يكـن سكاليكر Scaliga الهولنـدي اقل من بودان في هـذا الباب ، اذ كان سكاليگر واسع المعلومات عميق التفكير أسـّس الطريقة العلمية للنقد التاريخي •

جان مابيلون ١٦٣٢–١٧٠٧ :

يعتبر جان مابيلون الفرنسي اعظـم مؤرخ باحث في القرن السابع عشر • فقـد قضى معظم سنوات حياته في دراسـة الوثائق التاريخية ووضـع اسس علميـة وقواعد لدرس الوثائق التاريخيـة من قبـل الآخرين • وبذلك حث جماعته رهبان سـنت ماور ان يجمعوا الوثائق التاريخية وينقدوها قبل نشرها • وفي ١٧٣٣ ، بدأت جماعة سنت ماور تطبع مصادر تاريخ فرنسا • وعلى الرغم من بعض نقائصه كان مابيلون من الرواد الاوائل كنـاقد ومؤرخ • وقام المؤرخ الايطالي موراتوري

١٦٧٢–١٧٥١ ، بنفس ما قام بـه مايلون بشـأن تأريخ ايطاليـا في العصور القديمة والوسطى •

وقد ظهرت مكتبات عظيمة في القرن السابع عشر والثامن عشر ، وتوسعت المكتبات القديمة ، كمكتبـة فاتيكان وآمبروز في ميلانو ، والمكتبة البروسية تأسست وتوسعت وكذلك المكتبة العامـة الفرنسية والمتحف البريطاني المؤسس سنة ١٧٥٣ ، ومكتبـة بودليان في جامعة اكسـفورد •

وقد ظهرت طريقة نقدية جديدة في ايطاليا لدراسة التاريخ على يد استاذ ايطالي فيكو •

كيام بانيستا فيكو ١٦٦٨–١٧٤٤ :

كان فيكو ابن بائع كتب من نابولي كرس نفسه للفلسفة المدرسية في الجامعة ودرس الآداب والتاريخ والتشريع • وقرأ افلاطون وتاكيتس (المؤرخ الروماني) • وقال ان الاول وصف الرجل المثالي وبيّن الثاني الانسان على حقيقته • وفي سـنة ١٦٩٧ عين فيكو اسـتاذا لتدريس البلاغة في جامعة ميلان براتب ضئيل • وقد تأثر فيكو بفرنسيس بيكن وهوگو كروشيس وفي ١٧٢٥ نشر كتابه مبـادىء العلوم الجديدة • ونقح الطبعة الثانية التي ظهرت بعـد خمس سنوات بعنوان مبـادىء العلوم الجديدة الثاني • وعلى هذين الكتابين تعتمد شهرة فيكو •

اكد فيكو على الفكر الجماعي الذي يخلق الحضارة ويدفعها الى الامام ووراء كل فكرة تقدم وتطور نمو الرقي • وكل مرحلـة لاحقة

لها علاقة بمرحلة سابقة • وعليه فهناك تناسق واستمرارية في التاريخ • وقد نقد فيكو التاريـخ اليوناني والروماني القـديم وبيّن ان اغلب اخبارهما غير موثوقة •

وهو اول من وصف المؤسسات السياسية والاعمال الفنيـة وقال ان ذلك من نتاج البيئة والظروف المتغيرة • وقد اتبع منتسكيو طريقـة مماثلة لفيكو في كتابه روح القوانين • وفي نفس الوقت ظهر وينكلمان الالماني ١٧١٧ـ١٧٦٨ الذي عاش كثيرا في رومـا وكانت دراساته في تاريخ الفن اليوناني اكسبته شهرة عظيمة • وهـو مؤسس علم الآثار وكتب عن الخزائن الاثرية لمدينة بومبي •

هيردر ١٧٤٤ـ١٨٠٣ :

كان هيردر قسـا المانيا لوثريا وكان من الزهـاد ، ولم يكن من المؤرخين مهنيا لكنـه دعا الى دراسة ماضي الانسان دراسة علميـة في كتابه : آراء في فلسفة التراريخ • واشار الى الطريقة العلميـة والهدف المتوخاة من التاريخ الجديد • ان التاريخ يجب ان يكون طبيعيا صافيا نقيا لقوى الانسان وميوله واعماله كما يغيره الزمان والمكان • ويجب ان يكون نشوئيا يشرح تطور الانسان من اقدم العصور حتى الآن • كما يجب ان يكـون التاريخ قوميـا يبين كيف ان القبـائل والاقوام تباينت ، وماذا قـدم كل قوم للحضارة البشـرية • ويجب ان يكون التاريخ ثقافيا يشـرح المجتمع والفن والفكر اكثر مـا يشرح السياسة والحرب ، كما يجب ان يكون التاريخ انسانيا يدعو الى التفـاهم بين

البشر وتقدير الطبيعة البشرية ويروج العلوم الاجتماعية • وهكذا مهد هيردر السبل لتطوير العلوم الاجتماعية •

ادوارد گيبن ١٧٣٧–١٧٩٤ :

لقد بلغ التاريخ العقلاني قمته في القرن الثامن عشر على يد المؤرخ الانگليزي ادوارد گيبن ١٧٣٧–١٧٩٤ • فقد استخدم گيبن كل المصادر المتوفرة عن التاريخ الروماني لكتابة تاريخ تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية ، الذي كتبه باسلوب ادبي ممتاز ووفق القواعد والقوانين التي وضعها العقلانيون لدراسة التاريخ المطابق للعقل والمنطق وخال من الخرافات • وكتب احد معاصريه روبرتسن تاريخ اسكتلندة باسلوب علمي وان لم يبلغ گيبن • كما ان داڤيد هيوم ١٧١١–١٧٧٦ اتخذ اسس فلسفته مقياسا لكتابة تاريخ انگلترا الذي ظهر فيه ميوله المحافظة والمؤيدة للملكية بصورة واضحة وباسلوب في منتهى الرقي •

وكان تأريخ گيبن وهيوم من اشهر الكتب رواجا في اوربا في القرن الثامن عشر • كما ان ڤولتير كتب عددا من الكتب التاريخية وذكرنا تأثيره على كتابة التاريخ في صفحات سابقة لهذا الفصل •

كان المتنورون في القرن الثامن عشر يزدرون التاريخ باعتباره يروي ماضي الانسان المليء بالخرافات والجهل ولا فائدة تجنى من دراسته ، بينما عصر التنور يهتم بالتقدم البشري وان عصرهم اكثر ازدهارا من اي عصر مضى ويجب ان يكون الاهتمام بالحاضر والمستقبل •

عمانوئيل كانت ١٧٢٤-١٨٠٤ :

كان عمانوئيل كانت الالماني تجسيد للفلسفة العقلية والاستنارة في القرن الثامن عشر • وظهرت كتاباته الاساسية في العشرين سنة الاخيرة من عمره • وضع كانت ثلاثة اسئلة فلسفية حاول طول حياته الاجابة عليها : (١) من يلاحظ الظواهر الطبيعية ؟ (٢) ما هو جوهر الظواهر ؟ (٣) لماذا نرى ما نرى ؟ وقد اجاب كانت عن السؤال الاول في كتابه نقد العقل الصرف ، وبحث هنا خاصية الادراك ، والميزة الذاتية للمعرفة البشرية • وبيّن ان المادة يمكن معرفتها عن طريق التجربة • وعليه فان الدماغ مكون من آثار الاحساسات التي بدونها يكون الدماغ خاليا • اما السؤال الثاني فاجابه كانت في كتابه نقد العقل العملي • ووضع في هذا الكتاب فكرة الحرية والنظام الاخلاقي للكون • وقد حصر كانت العقل في حدود الحواس ، وارادة البشر تسمو وتخرق عالم التقييدات لتربط نفسها بالازلية • صحيح ان العقل لا يستطيع ان يصف الله والخلود والحرية ، لكن الارادة البشرية يجب ان تجعل هذه الامور حيوية لبقائها • ان الضمير يكشف ما لا يستطيع العقل اثباته •

ليست افكار كانت الفلسفية مهمة لفهم التاريخ فحسب بل ان اسلوب معالجته للموضوع تاريخي بحد ذاته • ويمكن ملاحظة الخيوط الاساسية للتطور التاريخي عبر كتبه النقدية • ويبين كانت بان نشوء الاشياء وتطورها يطابق تاريخها الطبيعي الذي هو الغطاء الخارجي للقوى الداخلية التي تعمل في البشر بموجب قوانين موضوعة مسبقا ،

تلك القوانين ثابتة كالقوانين التي انتظمت بموجبها المجموعة الشمسية وتماسكت • وهذا الغطاء الخارجي عبارة عن عملية التطور في الطبيعة التي يلاحظها الانسان دون ان يستطيع اقرارها •

ان الفلسفة الصحيحة في نظر كانت اذاً هي تعقيب الصور المختلفة للاشياء عبر تاريخها الطويل • فالتاريخ كالفلسفة جزء من عملية مستمرة عبر الزمن يؤدي اخيرا الى الحضارة والحرية • ويجب ان يتوقف فهم التاريخ على ادراك العلاقة البارزة بين الادلة التاريخية وتأثير مبدأ التطور للاحداث •

والنظرية السببية Coucept of Causation مهمة في التاريخ بالنسبة الى كانت لان السبب تضمن الاسبقية في الزمن ، ولما كان كل شيء نسبي فيجب ان يكون هناك خبر يدل عليه (خبر يدل على السبب ويفسره) • ان فكرة السببية في الظواهر لا تحتوي قوى ديناميكية غامضة ، بل انها عبارة عن التتابع التطوري بموجب قوانين معينة او بعبارة اخرى ان العلاقات البارزة للظواهر مبنية على اساس نظرية التطور ، وكل شيء يتطور في الزمن والزمن قوة خلاقة •

اثرت افكار كانت على الفلاسفة والمؤرخين واحدثت ثورة في موقف الانسان تجاه التاريخ وقال ان الاشياء تنظم بحسب مفاهيمنا لها والحاضر يقرر موقفنا تجاه الماضي • ان مفاهيمنا تجاه الماضي يتغير باستمرار متوقفا على المستوى الثقافي في الوقت الحاضر • وقد اخضع هيگل فكرة كانت هذه لنظريته الثلاثية الشهيرة ان كل فكرة تنتج

نقيضها وبتفاعل الاثنين تظهر فكرة جديدة هي نقض النقيض • وهكذا تستمر عملية التطور •

لقد اعتقد كانت بان الثقافة هي مقياس القيم الاجتماعية للانسان وهي تتكامل عن طريق الحرية • والحافز للحرية عالمي يسمو نحو الكمال عن طريق النضال • وفي المرحلة البربرية يكون الكفاح عنيفا ، لكن عندما يرتقي الانسان الى مستوى اعلى يليق به احراز الحرية المدنية يكون النضال اقل ضراوة ولا يؤدي الى خطر جسيم لحرية الانسان • ان الانسانية تستطيع استخدام كل طاقاتها في ظل الامن والاستقرار كأعضاء صالحين في المجتمع • وتكون الحاجة فقط الى قوانين عامة لحماية الفرد • وينهي كانت افكاره عن الحرية وقيمة الانسان الاصيلة الملازمة له بالخاتمة التالية :

« ان ارقى شكل للدولة عبارة عن الحكومات الدستورية ، ولا يمكن حتى هذه الحكومات ان تضمن الامن والاستقرار ما دامت الامم تستمر تهدد الحرية والانسانية بحروبها البشعة • ولتجنب الحروب حث كانت باسم الانسانية على تأسيس نوع من عصبة الامم او الاتحاد بين الشعوب المتحضرة الحرة ذات الحكومات الدستورية • وقد دعا كانت الى الحرية والمساواة والتملك • وتحمس للنظام الجمهوري • ولما اجتمعت الدول الاوروبية لسحق الثورة الفرنسية ، هب كانت للدفاع عن الحرية ، ودعا الى تكوين عصبة جمهوريات الجامعة الاوربية واتحادها فدراليا لمنع الحرب • وكان يقول ان الفرنسيين يعدون انفسهم للحرية الصادقة • ويجب ان يكون الانسان

حراً حتى يعلم كيف يستعمل قواه بحكمـة وتكون المحاوله الاولى بطبيعة الحال غير كاملة لكن التجربة تعلمه الطريق • وكمحب للحرية كانت عدم المساواة بشعا • وقد اكد على الفرد وحريته وقيمه الاخلاقية وقال ان الفرد المعتمد على غيره ليس حرا انما هو تابع • لقد اعتبر الانسان في قمـة تفكير عمانوئيل كانت ، الذي لم ينحدر الى بقي الرجعية كبقية فلاسفة الالمان ، ومع ان الجنس البشري لم يبلغ الكمال بعد ولا يزال هناك العمل الشاق الطويل للوصول الى الهدف لكن يجب عدم الاركان الى اليأس •

لقـد نصح كانت الطلاب بقراءة كتب التاريخ العام ، وكتب الرحلات والسياحة والمذكرات والقصص الدرامية لدراسة الانسان والتعرف عليه وتقديره كعنصر في هذه الدنيا يملك الحق •

كوندورس Condorcet :

وقد عبر ماركيز دي كوندورس ، آخر الفلاسفة المتنورين ، عن خلاصة فلسفة الاستنارة والهدف الذي ترمي اليه •فقد اخذ كوندورس الكثير من آراء ڤولتير والقليل من روسو ، وفي عـدد من المقالات السياسية وضـع نظرية بان تراكم المعرفـة عن طريق الحـواس (او الاحساسات) ، والعقل ، والشعور الاخـلاقي الداخلي سوف تؤدي الى تحسين مؤسسات الانسان الاجتماعيـة ولربمـا تحسين الجنس البشري ككائن حي • وفي مقال عن تأثير الثورة الامريكيـة في اوربا (١٧٨٦) ، نبّه بني قومـه الى فوائد القـانون الطبيعي كما تطبق في

امريكا ، واكد على اصلاحات شاملة في فرنسا • وقد طور نظرية التقدم الذي لا مفر منه في كتـابه الشهير : عرض تاريخي اجمالي لتقدم الفكر البشري (١٧٩٣) ، بيّن ان الثورة تقود العالم من المرحلة السابقة في التطور التاريخي التي بدأت بالثورة الكارتيزيـة (او فلسفة ديكارت العقلية) ، الى المرحلة اللاحقة التي يكون فيها الكمـال الانساني فوق طاقة اية قوة تحاول تهديده •

لقد اعتقد كوندورس ان الانسان قدر له التقدم بتحسين ميزاته الاخلاقية والفكرية وحتى البايولوجية • وهكذا نجد ان الحركة العقلية والتجريبية والاخلاقية التي طورها الفلاسفة من ڤولتير ولوك وروسو وعمانوئيل كانت قد انتهت في نظـرية كوندورس عن التقـدم البشري وتكامل الانسان •

بقاء الكلاسيكية في الادب والفن في عصر العقل والاستنارة :

ظل الاوربيون في القـرنين السابع عشر والثامن عشر متمسكين بالنزعة الكلاسيكية التي ظهرت في اوربا وشاعت في القرنين السابقين • وفرضت الحضارة اليونانية والرومانية القديمة سيطرتها واحترامها على الناس والطبقـة المتنورة • واتهام الكلاسيكيين القدماء بعـدم الدقة والضبط او الشك في صدق اقوالهم اعتبر من قلة الذوق والادب •

وسلطت الكلاسيكية نفسـها على الآداب والفنـون والتربيـة والتعليم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بحيث ان الطبقة المثقفة لم تجد فائدة تجنى من معالم العصور الوسطى وثقافتها • فكان عصر

داتي عصر البربرة ، وسبب شهرة داتني غموض كتاباته ، كما قال الشاعر الانكليزي اوليفر گولد سميث • كما ان ڤولتير سخر من الفن القوطي بانه « آثار عمرانية غير سارة من بقايا ذلك العهد » • وحتى روسو اعتبر الكاتدرائيات والكنائس المبنية في العصور الوسطى بانها وصمة عار لاولئك الذين تجشموا عناء بنائها •

والسبب في احتقار العصور الوسطى والتمسك بالحضارة الكلاسيكية يرجع الى ان الفلاسفة المتنورين من اولاد واحفاد الانسانيين الذين سبقوهم في عصر النهضة ، فورثوا ميول آبائهم الذين ازدروا العصور الوسطى واعتزوا بالحضارة الكلاسيكية • وكان الفلاسفة والمتنورون قد تثقفوا ثقافة كلاسيكية ودرسوا اللغة اليونانية واللاتينية والآداب والفلسفة الكلاسيكية •وكانت عبارات ديموستينس وشيشرون تستخدم في الخطابة والكتابة وكذلك اشعار هوميروس وفرجيل •

لقد كان الفن في القرنين السابع عشر والثامن عشر استمرارية للفن في عصر النهضة • ففي فن العمارة يمكن تتبع آثار فناني عصر النهضة من امثال ميخائيل انجيلو وبالاديو ، في فن بيرنين Bernini الايطالي ١٥٩٨ ـ ١٦٨٠ ، وكان هذا فنان من نابولي سكن في روما واشتهر في البناء والنحت • وآثاره الفنية في الفاتيكان وساحاتها وتمثال سنت تريزا على الطراز الكلاسيكي لا تزال تجلب الانظار • وقد استخدم الطراز الكلاسيكي في بناء القصور والمدارس والجامعات وسمي هذا الطراز الكلاسيكي الشائع في القرن السابع عشر بـ باروك •

وفي فرنسا كان قصر لكسمبرك الذي بني للملكة ماري مديتش على هذا الطراز الكلاسيكي ، وكذلك مكتبة الكاردينال مازارين (الاكاديمية الفرنسية حاليا) ، وانفاليد في عصر لويس الرابع عشر كلها تمثل الطراز الكلاسيكي • واشتهر منزرت ١٦٤٦ــ١٧٠٨ كبناء ومعماري اصيل في عهد لويس الرابع عشر • وقد بنى فردريك الكبير قصره في بوتسدام على غرار قصر فيرساي •

واشتهر في انكلترا كريستوفر رين ١٦٣٢ــ١٧٢٣ كمعماري مشهور ، بنى كنيسة سنت بول ١٦٦٨ــ١٧١٥ • وفان برو ، بنى قصر بلينهايم لدوق مارلبورو (جون جرجل) • وقد بنيت عدة قصور في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في ساحة الكونكورد ، وپيتي تريانون في فيرساي وپانثيون •

وفي التصوير الزيتي نجد اشهر الفنانين من امثال روبين ١٥٧٧ــ ١٦٤٠ ، فقد صوّر هنري الرابع وزوجته ماري مديتش ، وجيمس الاول ملك انگلترا • لقد كان روبين هولندي وكذلك فان دايك ١٥٩٩ــ١٦٤١ ، الذي صوّر جيمس الاول وشارل الاول • وفلاسكويز الذي صوّر تسليم مدينة بريدا الهولندية الى الاسبان اثناء حروب الثلاثين سنة ، كما صوّر فيلب الرابع ملك اسبانيا ، اما موريللو ١٦١٧ــ١٦٨٢ فقد اشتهر بالتصاوير الدينية ، والطبقة الفقيرة ، كصورة المتسول مثلا •

وفي القرن الثامن عشر كان الكلاسيك في الفن يتمثل في كل من انكلترا وفرنسا • ففي انگلترا اشتهر جوشوا رينولد ١٧٢٣ــ١٧٩٢ ،

صوّر الممثلات وسيدات القصور الملكية والنبلاء ، كما اشتهر توماس
كينسبورو ١٧٢٧ـ١٧٨٨ في تصوير الارستقراطيين ونساء هذه
الطبقة . وكانت صورة السيد هاملتن والممثلة بيرديتا من أجود
التصاوير التي صوّرها جورج رومني ١٧٣٤ـ١٨٠٢ . واشتهر كذلك
ويبرن وكوبلي وبست . وفي فرنسا اشتهر واتو Watteau
١٦٨٣ـ١٧٢١ ، صوّر كل شيء جميل في المجتمع الارستقراطي
السائد في ذلك الوقت . وسار بوشر ١٧٠٣ـ١٧٧٠ على منوال واتو
واشهر تصاويره صورة مدام بمبادور ، وسار على طريقة واتو وبوشر
كل من فراكونارد ١٧٣٢ـ١٨٠٦ ، كرويز ١٧٢٥ـ١٨٠٥ .

اما الواقعيين غير الكلاسيكيين من الفنانين الذين يقدرون الآن
اكثر من ذلك الوقت فهم جوردان ١٥٩٣ـ١٦٧٨ ، وتايني ١٦١٠ـ
١٦٩٠ الذي صوّر حياة الطبقة الوسطى والفلاحين . وهالس ١٥٨٠ـ
١٦٦٦ ، وجان ديلفت ١٦٣٢ـ١٦٧٥ ورويزدال ١٦٣٥ـ١٦٨١ . لكن
اشهر الفنانين الهولنديين هو ريمبراند ١٦٠٧ـ١٦٦٩ الذي عاش حياة
تعسة في ليدن وامستردام وصوّر حياة العامة التي عاش بينهم احسن
تصوير ، وكذلك مناظر الطبيعة .

وفي انكلترا في القرن الثامن عشر اشتهر هوكارث الذي لم يكن
كلاسيكيا بل هزليا تهكميا . وقد صوّر هوكارث ١٦٩٧ـ١٧٦٤
الانتخابات البرلمانية التي بيّن فيها النزعة الانتقادية السائدة . وكان
الفنان الهولندي جادويكي ١٧٢٦ـ١٨٠١ انتهج نهج هوكارث وصوّر
فردريك الكبير . اما اشهر فناني القرن الثامن عشر فهو گويا
١٧٤٦ـ١٨٢٨ الاسباني . وكان گويا فلاحا قويا ولطيفا بكره

الارستقراطية ، والحياة التي يعيشونها • وكان متأثرا بالفلسفة الثورية السائدة في عصر الاستنارة ، واصبح فنان القصر الملكي في اسبانيا واظهر فنه روح التملق السائد في نظام حكم العهد القديم ، وتهكّم في صورة من الطبقة الارستقراطية •

الادب فى القرن السابع والثامن عشر :

سادت النزعة الكلاسيكية في الادب في القرنين السابع والثامن عشر • وقلّ الميل الى الكتابة باللغة اللاتينية • وقد سادت نزعة باروك الكلاسيكية في الادب ايضا باستخدام العبارات المزخرفة الطنانة • فكانت الزخرفة تغطي العبارات الخالية من المعنى ، وكانت هذه النزعة سائدة في اسبانيا وايطاليا والمانيا • واشهر اديب الماني في ذلك الوقت هو مارتن اوبتز ١٥٩٧ــ١٦٣٩ ، الذي قلّد الكلاسيكيين من امثال فرجيل وهوراس وسنيكا باسلوب غير مبدع وممل •

اما في اسبانيا فاشتهر كالديرون ١٦٠٠ــ١٦٨١ ، الذي كتب « لوب ديفيكا » ، وكان الكتاب سطحيا تغلب عليه الصناعة اللفظية • ويظهر في اشعار الادباء والشعراء الاسبان في هذا الوقت نزعة التصوف والغموض وخاصة في الادب الشعبي والروايات كما نجد ذلك في اشعار كالديرون • ولم يبلغ الادب الاسباني في ذلك الرقي الذي كان عليه في سيرفاتنيس • وكذلك تدهور الادب الايطالي في القرن السابع عشر • وقد ظهر جماعة من الكتاب الايطاليين سنة ١٦٩٠ ارادوا تطهير اللغة والادب الايطالي من الزخرفة والصناعة اللفظية واسسوا اكاديمية اركاديا ، وحاولوا تقليد الكلاسيكيين القدماء في البساطة لكن اصبح اسلوبهم عاطفيا اكثر •

اما فرنسا فقد بلغ فيها الادب القمة . فظهر عدد من الادباء النابغين الذين انعم عليهم لويس الرابع عشر فانتجوا في الادب ما لم ينتجه الا العباقرة في التاريخ واشهرهم قاطبة موليير ١٦٢٢–١٦٧٣ ، واضع الادب المسرحي والمسرح الفرنسي وأنبغ شاعر في تاريخ فرنسا ، وكورنيلي ١٦٠٦–١٦٨٤ ، وراسين ١٦٣٩–١٦٩٩ ، ومادام سافيني ١٦٢٦–١٦٩٦ ، والكاتب القصصي الهزلي لافونتين ١٦٢١–١٦٩٥ . فقد سلط هؤلاء اضوائهم على الشعب الفرنسي واستولوا على عواطفهم كما كان يستولي جيش لويس الرابع عشر على ممتلكات الناس . واصبحت انتاجاتهم الادبية ملكا لاوربا والعالم . كما اصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الادبية في اوربا .

ولم تكن انكلترا في هذه الناحية بأقل من فرنسا من حيث النبوغ الادبي . فقد ظهر جون ملتن ١٦٠٨–١٦٧٤ كشاعر وكاتب لا يبارى ، والشخص الثاني بعد وليم شكسبير . فكتب ملحمته الشهيرة « الفردوس المفقود » واشعار كثيرة جذابة وكراسات في الادب والفكر السياسي قلما استطاع احد ان يقلده . كما ظهر الكاتب والشاعر جون درايدن ١٦٣١–١٧٠٠ الذي ترجم بلوتاخ احسن ترجمة ، واليكسندر بوب ١٦٨٨–١٧٤٤ ، قمة الشعر الانكليزي في القرن الثامن عشر من حيث سلاسة الاسلوب والفطنة وقوة التهكم ، وولعه بالفلسفة العقلية والاستنارة .

ويعتبر القرن الثامن عشر عصر النثر وليس الشعر . لان الادباء تأثروا بالعلوم الطبيعية والفلسفة العقلية والاستنارة ، فوجدوا ان

النثر اقرب الى التعبير عن آراءهم ومعتقداتهم ونقد المؤسسات السائدة . لكن التأثير الكلاسيكي على كتاباتهم كان واضحا . او كما يقول بعض الكتاب كان اسلوبهم مزخرفا نوعا لكنه سلسا ومصقولا يجري جريانا لطيفا راقيا ومتزنا ، مزيئنا ببعض التعابير الكلاسيكية .

ومن بين الكتاب البارزين من هذا الطراز في انكلترا ، جون لوك الكاتب والفيلسوف السياسي ، وادوار گيبن المؤرخ ، ودافيد هيوم الفيلسوف والمؤرخ ، وسموئيل جونسن مؤلف قاموس اللغة الانگليزية ، والفقيه بلاكستون ، واللورد چيسترفيلد ، وبولينبروك ، وادموند برك .

وقد ظهرت الروايات والكتّاب الروائيين في انكلترا في القرن الثامن عشر . اشهرهم دانيال ديفو ١٦٦٠-١٧٣١ ، صاحب كتاب روبنسن كروزو ، وجوزيف أديسن ١٦٧٢-١٧١٩ ، وجوناثان سوفت ١٦٦٧-١٧٤٥ ، وسموئيل ريچاردسن ١٦٨٩-١٧٦١ ، وجورج سموليت ١٧٢١-١٧٧١ ، ولورنس ستيرن ١٧١٣-١٧٦٨ ، وكان هؤلاء الكتّاب معروفين في القارة الاوروبية ، وقسم منهم ألهم بعض الكتاب الاوروبيين كجانجاك روسو .

اما في فرنسا فكان هناك عدد كبير من الكتب لفلاسفة وادباء من امثال ڤولتير وروسو وديدرو وهلباخ ورينال وأغلبهم كتبوا كتبا سياسية واجتماعية وفلسفية وبعض القصص . فقد كتب ڤولتير قاموسه الفلسفي ، رسائل عن الانگليز ، وتأريخ لويس الرابع عشر ، وتأريخ الحضارة ، وشارل الثاني عشر ملك السويد ، بالاضافة الى قصة كنديد

الفكاهية ، وزاديك • كما كتب روسو بالاضافة الى العقد الاجتماعي واميل في السياسة والتربية والتعليم ، كتب الاعترافات ، كما كتب قصة هليوز • اما الاب بريفو فكتب قصة مانون ليسكو التي شبيهة بقصة غادة كاميليا لاسكندر دوماس الصغير •

وقد برزت الكلاسيكية في المانيا مرة اخرى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وكان اشهر ادباء الالمان في ذلك الوقت هو ليسنك Lessing ١٧٢٩—١٧٨٢ ، الذي أكد على ان الالمان يجب ان يكتبوا بلغتهم ويقتبسوا اسلوبهم مباشرة من الكلاسيكيين الاغريق القدماء ، واعتبر اسلوبه كلاسيكي صرف • لقد كان ليسنك ناقدا عظيما ليس فقط في الآداب بل للحياة الفكرية والاخلاقية ايضا • وكان ليسنك اقرب النقاد الى ارسطو ، وطبّق اسلوب ونقد ارسطو في كتاباته باعتباره احسن الاساليب •

أما في ايطاليا فقد اعاد الفيري ١٧٤٩—١٨٠٣ ، الكلاسيكية الى ايطاليا ، بعباراته المقتضبة والملتهبة واسلوبه الكلاسيكي الذي كتب به الكتابات المآسية التراجيدية المقتبسة من المصادر القديمة ناقدا بذلك الاستبداد المعاصر واعتبر الفيري نفسه كلاسيكيا صرفا • وقد زخر الفيري الادب الايطالي باشعاره الغنائية الدرامية التي اثار بها الشعور القومي في ايطاليا • فكان رائد الريسير جيمينتو او حركة الانبعاث في ايطاليا •

استمرار التأثير الكلاسيكي في عهد الثورة الفرنسية ونابليون :

ظلت الكلاسيكية في فرنسا لم تتأثر بالثورة الفرنسية ونابليون • لقد تثقف الثوار الفرنسيون ثقافة كلاسيكية وظلوا تحت تأثيرها ،

واعتقدوا انهم يمثلون فضائل الحضارة اليونانية والرومانية القديمة ، وان الفن الذي ازدهر في زمانهم هو الفن الكلاسيكي القديم في بساطته ، لا الفن الكلاسيكي المعقد السائد في عهد لويس الخامس عشر • ولما كان نابليون معجبا بالفن الكلاسيكي القديم واضاف اليه ما شاهده في مصر عن مصر القديمة من اهرامات ، كانت النتيجة ان فن البناء والنحت والتصوير الزيتي والزخرفة اصبح على الطراز الكلاسيكي القديم البسيط مضافا اليه بعض التأثيرات المصرية القديمة • وأشهر مثال للانتاج الفني المعماري في هذا الوقت الپانثيون في باريس ، وساحة الكونكورد والمسلة المصرية القديمة الموجودة في وسط الساحة •

البنـــاء :

ويعتبر فونتين ١٧٦٢-١٨٥٣ من اشهر فناني عصر الثورة ونابليون • وقد درس في روما ، وسكن في انكلترا أيام الثورة الفرنسية • ولما رجع الى فرنسا في زمن نابليون بنى قصر المالميزون الذي أكسبه الشهرة • كما بنى قوس كروسيل Carrossel واصبح المعماري الاول سنة ١٨١٣ ، واستمر كذلك في زمن الملوك البوربونيين فيما بعد •

النحت الكلاسيكي :

وكان هڈن Houdon ١٧٤٠-١٨٢٨ ، اشهر نحاتي العصر ينحت على الطراز الكلاسيكي القديم قبل الثورة الفرنسية • وقد نحت من المرمر تماثيل كاترين الثانية قيصرة روسيا ، وتماثيل لكل من

ديدرو ، ودالمبرت ، وبافون ، وڤولتير ، وروسو ، وفي زيارته لامريكا سنة ١٧٨٠ ، نحت تمثالا لجورج واشنكتن وتوماس جيفرسن . وخدم الثورة بنحت تماثيل تمثل العقل والفلسفة ، كما نحت التمثال النصفي لنابليون وجوزفين ومارشال ناي Ney .

التصوير الكلاسيكي :

أما اشهر الذين برزوا في التصوير الزيتي فهو ديڤيد David ١٧٤٨–١٨٢٥ ، الذي كان متأثرا بروح الكلاسيكية القديمة . فقد صوّر بروتس قاتل يوليوس قيصر تصويرا بارعا سنة ١٧٨٩ ، فأصبح بذلك مصور جماعة اليعاقبة . فقد صوّر ميثاق ملعب تينس ، واغتيال مارا في الحمام من قبل شارلوت كوردي . وقد صوّت ديڤيد لاعدام لويس السادس عشر . وفي زمن نابليون ، صوّر تتويج الاخير امبراطورا وكذلك صوّر كثيرا من حروبه .

وانتهج انگريس Ingres ١٧٨٠–١٨٦٧ نهج استاذه ديڤيد في تصويره نابليون ، كما صوّر الملك أوديس وأبو الهول وغيرها على النمط الكلاسيكي .

وفي خارج فرنسا اشتهر كانوڤا الايطالي في النحت وخاصة تماثيل نابليون واخوته وأخواته . كما اشتهر ثور والدسن الدانيمركي في نحت تماثيل كلاسيكية ونحت قبر البابا بيوس السابع في الڤاتيكان . ولما رجع الى الدانيمرك نحت تماثيل للقديسين . واشهر انجازاته اسد لوسيرن Lian of Lucerne الذي اهداه الى الحكومة

السويسرية كذكرى لابادة الحرس السويسري الذي دافع عن لويس السادس عشر وماري انطوانيت .

اما في انكلترا ، استمر توماس لورينس ١٧٦٩–١٨٣٠ على نهج استاذه رينولد في التصوير على النمط الكلاسيكي ، وصور زعماء الطبقة الارستقراطية الانكليزية ، وأنعم عليه الملك جورج الثالث لقب الفارس . وكان في القارة الاوروبية وقام بتصوير ممثلي الدول المجتمعين في مؤتمر فيانا ، وكذلك زعماء أوروبا في عهد مترنيخ .

وكما في فرنسا وبقية القارة الاوروبية استمر النهج الكلاسيكي في الفن في عهد الثورة الفرنسية ونابليون وحتى بعد ذلك . وفي انكلترا نجد ذلك واضحا في الابنيـة الكلاسيكية التي بنيت في هـذا الوقت والتماثيل المنحوتة لابطال الحروب النابليونية كقوس ولنكتن في سنة ١٨٢٨ ، والاعمدة التي ركزت عليها تماثيـل دوق اليورك في ساحة واترلو سنة ١٨٣٣ ، ونيلسن في ساحة ترافلكار سنة ١٨٢٩–١٨٤٣ .

اما في الولايات المتحـدة الامريكية فقد وضع المهندس الفرنسي لينفنـت L'Enfent مخططا لبناء العاصمة الامريكية واشنطن سنة ١٧٨٩–١٧٩١ . وقد وضع تخطيط بناء القصـر الابيض مقر الرئيس الامريكي ، والكابيتول او بنـاء الكونكريس الامريكي على النمـط الكلاسيكي . ونجـد ايضا الطراز الكلاسيكي في تمثـال الامبراطور جوزيف الثـاني امبراطور النمسا بملابسه العسكرية الرومانية نحتـه النحـات زانر . وكذلك تمثال جورج واشنكتن للفنـان كرينو على الطراز الكلاسيكي الذي يشبه احد الهات الاغريق القدماء .

الحركة الرومانتيكية

ظهرت في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر حركة اخرى معاكسة للحركة الكلاسيكية سميت بالحركة الروماتيكية (او الرومانسية) • وقد نشأت الافكار الرومانتيكية عن الادب والفن واسلوب الحياة في عصر الاستنارة • وكان التيار الرومانتيكي يجري خفية تحت ستار الفلسفة العقلية لكنه انفجر في وجهها وخرج من تحت سيطرتها • فبينما كان اصحاب الفلسفة العقلية يطالبون بتحرير العقل من القيود والاغلال البالية التي فرضها القدماء ، كان الرومانتيكيون يريدون تحرير الاوهام والعواطف والحماس • فأكدوا على العاطفة وتقدير العصور الوسطى التي اعتبروها عصر الرومانتيكية والحب والبطولات • ووجدت هذه الحركة الجمال في الطبيعة والمناظر الطبيعية الخلابة والحياة البدائية البسيطة التي يعيشها القرويون والبدائيون • وازدرى الرومانتيكيون عصر النهضة والمهتمين بها لانهم احتقروا العصور الوسطى وأكدوا على الكلاسيك • فكان الرومانتيكيون يحاولون اصلاح المجتمع التقليدي مبتدئا بالاشعار التي كرسوا حياتهم العاطفية من أجلها • وكان كفاحهم الاخير ضد النظام السياسي ومحاولة اصلاحه • وكان روسو في كل ذلك رائد الرومانتيكية السياسية كما كان رائد الرومانتيكية الادبية والعاطفية •

فمن الناحية العاطفية كانت الرومانتيكية عبارة عن ثورة الشباب ضد الشيخوخة ، ورد فعل المفكرين ضد التقاليد والعادات الاصطناعية السائدة في المجتمع والمترسخة في الحضارة السائدة في ذلك الوقت •

فكان هناك نوع من الحمـاس والشوق الى الفردوس المفقود للانسان الطبيعي ولو أنهم لم يعتقدوا بأن هذا الفردوس وجـد حقيقة ، لكنهم كانوا مغرمين بحبهم للاوهـام والخيـالات • ويرجـع سبب ذلك الى الثورة الفرنسية والمآسي التي جلبتها هذه الثورة للناس ، فأخذ هؤلاء الناس يشكّون من ان البشـر يميل الى الخير بطبيعتـه • وقد حققت فتوحات نابليون هـذا الشعور على الرغم من انتشار مبـادىء الثورة الفرنسية عن طريق هذه الفتوحات •

لقد كانت الرومانتيكية عبارة عن ظاهرة نفسية تمزج بين العاطفة الفياضة التي تحـاول ان تتحرر من القيود المفروضة عليهـا ، والخيبة التي أساسها فقدان الثقة بالعقل البشـري ، ومحاولة التغلب على هذا التشاؤم الذي هو نتيجة فشل الانسان لتحقيق اغراضه السامية • ومن كل ذلك يتبـين ان الرومانتيكيين كانوا ذا ميـول متضاربة وافكـار متناقضة وفي تغيـير دائم من مبـدأ الى مبدأ وابدا في فوضى فكـرية وعاطفية ، ولم يستطيعوا تحقيق ما كانوا يصبون اليه •

لم يكن اغلب الرومانتيكيون مفكـرين سياسيين واقعيين ، فكان اغلبهم شعراء وادباء ونقاد أو فلاسـفة رومانتيكيون • واغلبهم كانوا كتّابا لم يمارسوا السياسة • اما في الادب فكانت الحركة الرومانتيكية قد بدأت كاحتجاج على القواعد الصارمة التي وضعها الكلاسيكيون ـ اي الثـورة على الحـركة العقليـة التي طغت على العاطفـة • كان الرومانتيكيون يكرهـون المجتمـع المـدني ويحنّون الى كـل شيء لا عقـلاني ، ويأملون ايجـاد ما يصبون اليه في الاقطار النائيـة بين الشعوب البدائيـة التي لم تفسدهم الحضـارة ، ووجدوا في الفـلاح

البسيط الخاص عزاء لهم . وكانت العصور الوسطى مصدر الهامهم لكثرة القصص الخيالية والاشعار والفولكلور الشعبي فيها . فالعصور الوسطى كانت تمثل عصرا ذهبيا بالنسبة اليهم ، وكانوا يجسدون في ازاء تحقيقا لرغباتهم وعواطفهم .

لقد اختلف الرومانتيكيون عن العقلانيين الذين نسبوا الفضائل فقط الى الافكار الازلية الابدية ، بان الرومانتيكيين اكدوا على الفردية سواء ذاتية شخصية أم قومية ، واكدوا على كل ما هو تاريخي . ان العقلانيين وجدوا في الطبيعة والمجتمع جهازا يعمل باطراد وفق سنن موضوعة في الكون . بينما الرومانتيكيون وصفوا ذلك بانه كيان عضوي ، فعقلية الانسان العادي وفضائله لم تعجب الرومانتيكيين واعتبر ذلك هراء وان الشخص العادي غبي لا يتمتع بالفضيلة . وانغمس الرومانتيكيون في العواطف ومدح بطولات العبقري الذي يستطيع انجاز المعجزات ويخلق القوانين والعادات والتقاليد . ولهذا نجد ان اغلب الرومانتيكيين تحرروا في شبابهم من كل القيود تحررا مطلقا وانغمسوا في الملذات دون المبالاة بالمجتمع وكانوا متحررين من كل القواعد الاخلاقية . وكانت نتيجة هذا التحرر المطلق انهم وقعوا في يأس شديد واخذوا يهاجمون الفردية ، ويمدحون الاجماعية ووجدوا في الاحتماء بالكنيسة او تمجيد الدولة القومية عزاء لهم .

لقد كانت الرومانتيكية ثورية ورجعية في آن واحد . فقد آمنت بالسيادة الشعبية وسيادة الملوك وتمجيدالاقطاعية والاشادة بالاشتراكية والنظام الاشتراكي والدفاع عن القومية بحماس ، والدعوة الى الاخوة البشرية .ومع كل هذه التناقضات آمنوا بالحرية السياسية والدمقراطية

الحرة وهي مبادىء عقلانية يمكن تحقيقها بالمساومة والاعتدال .

أثرت الحركة الروماتيكية على الفنون والآداب بالدرجة الاولى ، لكن تأثيرها على الادب كان اكبر وخاصة الادب الانكليزي وتأثر به الادباء في القارة الاوروبية . ونذكر في الصفحات التالية تأثير الادب بالحركة الروماتيكية في انكلترا والمانيا وفرنسا وغيرها .

انكلتـــرا :

ظهرت الحركة الروماتيكية في انكلترا بوضوح في أشعار وكتابات عدد من الادباء الذين أحبوا الطبيعة وعبروا عن جمالها من امثال توماس گري Gray ، وجيمس تومسن ، وتوماس پيرس ، ومجموعة الاشعار المعروفة بـ أوسيان Ossian الذي وضعها ونشرها معلم اسمه جيمس ماكفيرسن سنة ١٧٦٥ . وقد أثر أوسيان على ادباء اوربا وألهم كثيرا من شعرائها . وظهرت حركة ادبية تستوحي افكارها وعواطفها من الانسان البسيط والفلاح الاعتيادي والطبيعة الجميلة والنبل الذي تتمتع به الانسان البدائي ، كما يتبين ذلك من اشعار جيمس تومسن المعروفة بـ الفصول Seasom (١٧٢٦) والمدائح لتوماس گري (١٧٥٠) ، ومجموعة الاشعار الروماتيكية المستوحاة من الاساطير الانگليزية القديمة التي جمعها پيرس ونشرها سنة ١٧٦٥.

ومن الشعراء الروماتيكيين الانگليز روبرت برنز ١٧٥٩ــ١٧٩٦ وتوماس چاترتن ١٧٥٢ــ١٧٧٠ ، واشعار وليم كوپر الانسانية ١٧٣١ ــ ١٨٠٠ . وكل هذه الاشعار كانت بعيدة كل البعد عن اشعار اليكسندر پوپ الكلاسيكية .

وفي نهاية القرن الثامن عشر واوائل القـرن التاسع عشر انتشرت الرومانتيكية في انكلترا وبقية القارة الاوروبية • وقد عبّر كوليريدج في أشعاره عن العواطف الفياضـة كما نجد ذلك في المـلاح العجوز ، وقبلاي خان ، وكريستابل • كما ان وليم ووردسورث وصف الطبيعة وصفا عاطفيا خلابا في اشعاره : المقدمـة ، والنزهة • اما سير والتر سكوت فنظم اغانيـه الشعرية عن الحـب والفروسـية في مجموعاته مارميون Marmion ، وسيدة البحيرة Lady of the Jake .

أما اشهر شعراء الرومانتيكيين الانكليز فهم بايرن وشيلي وجون كيتس • وكانت اشـعار جون كيتس رومانتيكية على الرغه من نهجه الكلاسيكي خاصة مجموعة شعره Eve of st. Agnes • كمـا ان اشعار شيلي ، اعظم شـعراء الرومانتيكيين الانكليـز ، تتميز بأغانيه العاطفية لاجل الحرية وضد الطغيـان • فكانت اشعاره الثورية قد جعلته رسول الحركات الراديكالية ، وكان للكاتب الراديالي الانگليزي وليم گودون تأثيرا كبـيرا عليه • أمـا لورد بايرن فهو على الرغم من ارستقراطيته ثار على التقاليد ، وكتب اشعارا ثورية رومانتيكية في غاية الجودة والجمال ودافع عن الثورة اليونانية وضحى بحياته من اجلها •

وقد برز عـدد من الكتاب الرومانتيكيين من امثال والتر سكوت الذي ترك الشعر سنة ١٨١٤ وبدأ يكتب الروايات التأريخية معبرا عن حياة الحب والفروسية في العصور الوسطى في رواياته كوينتن دوروارد Quintin Dorward ، وآيفنهـــو Ivenho • وكتب جيمس كوبر عن المغامرات البحرية في كتاباته پايونيرس وپايلوت • كما كتب عن حياة الهنود الحمر والمغامرين الامريكان • هذه الكتب ترجمت الى

اللغات الاوروبية ، وكانت تقرأ بشغف خلال القرن التاسع عشر .

الرومانتيكية الالمانية :

لقد برزت النزعة الرومانتيكية الالمانية كثورة ضد اللغة الفرنسية التي كانت سائدة في المانيا في القرن الثامن عشر ، والتأثير الكلاسيكي السائد الذي تمثله المدرسة الفرنسية . وقد توجّه هؤلاء الى انكلترا كمصدر للايحاء ، فدرسوا شكسبير ، وملتن ، والمجموعة الشعرية أوسيان التي ترجموها الى الالمانية . وكان كلويستوك ١٧٢٤-١٨٠٣ ، اذا كانت انكلترا تفتخر بأدبها القومي والاشعار الشعبية ، فلماذا لا تقوم المانيا بذلك . ونظم هذا ملحمة شعرية قلّد فيها جون ملتن في ملحمته الفردوس المفقود ، وماكفيرسن في اوسيان . كما ان الكاتب الالماني ليسنگ الذي اشتهر بنزعته الكلاسيكية وقع تحت تأثير الحركة الرومانتيكية الانگليزية . وفي كتاباته ميناڤون برنهيلم (١٧٦٧) وأميليا گالوتي (١٧٧٢) فتح الباب على مصراعيه للحركة الرومانتيكية الالمانية القومية .

هيردر ١٧٤٤-١٨٠٣

گوته ١٧٤٩-١٨٣٢ ، وشيلر

غير ان زعيم الحركة الرومانتيكية الالمانية الحقيقي هو هيردر الذي حفظ المجموعة الشعرية اوسيان كلها . كان هيردر معجبا بروسو . وقد جمع في نفسه الزهد والانسانية التي انسجمت مع طبيعته المحبة للفولكلورية الشعبية والادب الشعبي ، والعادات

والتقاليد الشعبية . نشر هيردر الاغاني والاشعار الشعبية الفولكلورية القديمة سنة ١٧٧٨ ، وأثر على الادباء الناشئين من امثال گوته ١٧٤٩–١٨٣٢ ، وشيلر ١٧٥٩–١٨٠٥ . وكان « آلام فيرتر » وبعض الكتب الاخرى لگوته رومانتيكية صرفة . وقد بلغ گوته قمة الشهرة بكتابه «فاوست» الذي يعتبر من اعظم الكتب في ادب الغرب الحديث . اما شيلر فكان شاعرا واديبا رومانتيكيا وخاصة في كتابه « السارق » الذي نشره سنة ١٧٨١ .

لكن هؤلاء الالمان كتبوا الكلاسيكية ايضا . فمثلا رجع گوته الى الاغريقية القديمة عند مكوثه في ايطاليا سنتين ونشر كتابه الكلاسيكي « ايفيجين اوف طورس » سنة ١٧٨٧ الذي يعتبر واحد من اعظم كتاباته الاولى . كما كتب شيلر كتابه « دون كارلوس » على الطراز الكلاسيكي الذي تبعه كتابه الآخر وليم تيل
سنة ١٨٠٤ على النمط الرومانتيكي . وفي النمسا اشتهر فرانز گريلپازر كشاعر رومانتيكي كتب الروايات التأريخية . كما كتب جان پول رتر Richter في باڤاريا روايات رومانتيكية كثيرة نالت شعبية واسعة في وقتها .

وتعتبر اشعار وكتابات آرنت Arndt وكورنر Körner الوطنية رومانتيكية . فقد أثرت هذه الكتابات والاشعار على القوميين الالمان أثناء حرب التحرير ضد نابليون . ومن بين الشعراء الرومانتيكيين العظام في المانيا هاين Heine وأولاند Uhland من اشهر الشعراء الذين نظموا اشعارا غنائية وقصص شعبية واسفار

في غاية الروعة والجاذبية • وكان أولاند ينشر قصائد وطنيـة وأساطير العصور الوسطى والقصص الشعبية للقرون الغابرة •

ايطاليـا :

لم تغز الحركة الروماتيكية فرنسا وايطاليا واسبانيا الا في القرن التاسع عشر ، على الرغم من ان فوسكولو في ايطاليـا نظم اشعارا روماتيكيةوترجم كتاب سينتيمينتال جورني Sentimental Gourney للكاتب الانكليزي سيرن الى الايطالية • وأشـاد بأبطال ايطاليا ورجالهـا العظام امثـال دانتي وغيره لبث الحماس الوطني في الشعب الايطالي •

فرنسـا :

كتب شاتو بريان في فرنسا كتبا روماتيكية في وصف الطبيعـة والهنود الحمر في امريكـا • وكتبت مادام دي ستايل Staél بنت نيكر وزير ماليـة لويس السادس عشـر ، كتبت روايات عاطفية روماتيكية وكتبت ديلفين سنة ١٨٠٢ ، وكورين سـنة ١٨٠٧ ، ونال الكتابان شهرة واسعة في زمانهما • وعاشت مادام دي ستايل في المنفى مدة طويلة ، وألفت كتبا كثيرة في مدح المانيا • ولم تنتشر الروماتيكية في فرنسا الا بعـد عهد مترنيخ ، وظلت كلاسيكيـة في الادب بصورة عامة • وكان فولتير كلاسيكيا ومؤثرا في اللغة الفرنسية • ولم يكن من السهل تغيير التقاليد الكلاسيكية المتأصلة في الادب الفرنسي والمقـدر

اوربا . ومع ان روسو هو الذي احدث الحركة الرومانتيكية في اوربا، ظلت الحركة الفكرية كلاسيكية مدة طويلة .

التصوير الرومانتيكي :

لقد تأثر التصوير الزيتي بالحركة الرومانتيكية . وقد تأثر گويا بهذه الحركة في آخر حياته وصوّر مآسي الحرب الفرنسية الاسبانية باسلوب رومانتيكي أثار عاطفة المشاهدين .

وظهر في انگلترا مصوران كونستبل ١٧٧٦–١٨٣٧ ، وترنر ١٧٧٥–١٨٥١ صوّرا الطبيعة على النمط الرومانتيكي . كما ان ديلاكروا ١٧٩٨–١٨٦٣ اصبح رائد الرومانتيكية الفرنسية في التصوير واشتهر بتصاويره التأريخية والقومية بدلا من الطبيعة . ومن بين تصاويره دانتي ، وڤرجيل ، وحرب التحرير في اليونان ، وكفاح احرار فرنسا وجنودها ومآثرهم . وقد صوّر ترنر قرطاجة القديمة ، وڤينسيا ، وسكتلندة . كما صوّر البحار والانهار وغروب الشمس .

الموسيقى الكلاسيكية والرومانتيكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر

ايطاليا :

ظلت ايطاليا مركز الموسيقى الاوروبية في القرن السابع عشر واشتهرت بالاوبرا واستخدام الموسيقى بشكل دراماتيكي لاثارة

العواطف وخاصة المأساة على النمط الكلاسيكي .

وأشهر مؤلف موسيقي للاوبرا الكلاسيكية التراجيدية هو كلوديو مونتيفيردي ١٥٦٨–١٦٤٣ ، الذي انتج اوبرا اورفيس وآريانا من فينسيا في مطلع القرن السابع عشر . واصبح الاوبرا منتشرة بعد ذلك في ايطاليا ، وأسست ابنية للاوبرا في فينسيا وانتج عددا من الاوبرات بين ١٦٣٠ – ١٧٠٠ بلغ ٣٥٠ . وكذلك ظهرت اوبرات في نابولي وبولونا وروما . وفي نهاية القرن السابع عشر ظهرت اوبرات في نابولي . واشتهر اليساندرو سكارلاتي ١٦٥٩–١٧٢٥ ، اشهر مؤلف موسيقي في زمانه . وقد ألف ١٢٥ اوبرا ، و٥٠٠ انواع مختلفة من الموسيقى ، بالاضافة الى كثير من الموسيقى الغنائية Oratoro وطقوس دينية .

فرنسا وانكلترا :

وقد انتقلت الموسيقى من ايطاليا الى فرنسا وانكلترا . وكان لولي ١٦٣٢–١٦٨٧ ، موسيقارا فلورنسيا انتقل الى باريس في سن مبكر واتفق مع موليير ونال عطف لويس الرابع عشر . وكان الاوبرا الكلاسيكية والبالي وغير ذلك من الموسيقى الذي ألفه لولي اصبح نموذجا يقتدى به في بلاط لويس الرابع عشر . واشتهر هنري پارسيل Parsell ١٦٥٩–١٦٩٥ في انكلترا . وكان هذا يعزف الارغن في ويستمنستر أبي Westminister Abbey في عهد شارل الثاني وجيمس الثاني ، وألف اوبرا ديدو واينياس Dido and Eneas

في ١٦٨٠ . واسس دار الاوبرا الانكليزية سنة ١٦٨٦ . وفي سنة ١٦٩٠ كتب اوبرا الملك آرثر بالاشتراك مع درايدن .

المانيا :

وقد انتشرت الاوبرات من ايطاليا الى المانيا . وكان اول من كتب الاوبرات هو جورج فردريك هاندل ١٦٨٥-١٧٥٩ الذي كتب الاوبرات لمسارح همبرك . وانتقل الى ايطاليا ومكث فيها ثلاث سنوات واصبح موسيقارا لعائلة مديتشي في فلورنسا . ثم رجع الى هانوفر في المانيا وبقى عند منتخب هانوفر حتى بعد ان اصبح الناخب ملكا على انكلترا واستقر في لندن . وكتب هاندل للعالم وللمسرح وللبلاط الملكي موسيقا كلاسيكيا في غاية الجودة والرقي من اوبرات وكونسيرتو وسوناتا واوراتوريو أشهرها المسايا (المسيح) وقد دفن في ويستمنستر أبي مع العظماء لما توفي سنة ١٧٥٩ .

بـاخ :

ولقد تحسن الكمان في ايطاليا وظهر تطور البيانو في فرنسا واشتهرت العائلتان الايطاليتان اماتي ، وستراديفاري بصنع الكمان في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر .

وفي مستهل القرن الثامن عشر ظهر واحد من اعظم عازفي الارغن وموسيقار من الطراز الاول وهو يوهان سيباستيان باخ ١٦٨٥ - ١٧٥٠ . كان باخ من عائلة المانية اشتهرت بالموسيقى ، وقد نشأ زاهدا ومتواضعا ورجل عائلة ، وأب لعشرين طفلا . وكعازف على الارغن في

نايمار ولايبزك لم يعرف ما يجري في العالم قليلا او كثيرا ، ولكن انتج فيضا من السوناتا والكونسيرتو وغيرهما في منتهى السمو والجلال والهيبة اغلبها ديني ولهذا لم يشتهر باخ في زمانه . لكن الاجيال التاليه قدرت قيمة موسيقاه . وكان من البديهي ان لا يتذوق احد في عصر الاستنارة موسيقاً دينيا ولهذا اتجه الناس الى موسيقى هاندل الكلاسيكي .

رامــــو :

وقد اشتهر جان فيلب رامو ١٦٨٣–١٧٦٤ كموسيقار رسمي في بلاط لويس الخامس عشر ، واستمر في تقاليد لولي Lully الكلاسيكية ، وقد طور رامو ذوقا ريفيا تقليدا للطبيعة وطور عددا من الرقصات التي تتماشى مع موسيقاه . لقد كان رامو صاحب ذوق لكن لم يكن نابغة .

كلــك :

وفي المانيا كان كريستوفر كلك ١٧١٤–١٧٨٧ ، الالماني من مقاطعة پلاتينات اكثر نبوغا من رامو وبقى كثيرا في ڤيانا وميلان ولندن وسكن اخيرا في باريس تحت رعاية لويس الخامس عشر ومدام دي باري . وبعد ذلك في رعاية لويس السادس عشر وماري اتوانيت . وألف اوبرات كلاسيكية .

هايدن ١٧٣٢–١٨٠٩ :

كان هايدن كرواتيا (يوغسلافيا) ، في خدمة عائلة ارستقراطية مجرية يعزف لهم الموسيقى . وباستثناء بعض السفرات القصيرة الى

انكلترا ، قضى اواخر حياته في ڤيانا . وقد ألّف موسيقاه من السوناتا وكونشيرتو واوبرا ، وسيمفونيات كثيرة على النمط الكلاسيكي السائد في القرن الثامن عشر . لكن في سنواته الاخيرة اتخذ نهجا رومانتيكيا في موسيقاه كما يتبين في النشيد الوطني النمساوي المؤلف سنة ١٧٩٧ . ومن مقطوعاته الغنائية الخليقة ١٧٩٩ ، والفصول ١٨٠١ .

موتسارت (موزارت) ١٧٥٦-١٧٩١ :

يعتبر موتسارت اعظم موسيقي ومؤلف للموسيقى في القرن الثامن عشر . وكانت عائلته قد اشتهرت بالموسيقى ، وقضى هذا حياته القصيرة موسيقاً كلها . لقد ألّف موتسارت (٢٠٠) قطعة قبل ان يبلغ الثامنة عشرة من عمره . ولما توفي في سن (٣٥) ، ترك (٦٠٠) مؤلف موسيقى من سيمفونيات وكونسيرتو ، وسوناتا ، وكورتيت وغير ذلك من اوبرات عالمية وموسيقى صالونات . ومن بين اشهر اوبرا ألّفه موتسارت دون جيوڤاني ، زواج فيگارو ، والناي السحري . ولقد كان موسيقاه في غاية الروعة والجمال والذوق وعمق الخيال والتصور والجاذبية يدل على ان موتسارت كان عبقريا لا يبارى .

لقد تجسدت موسيقى القرنين السابع عشر والثامن عشر في موتسارت وبلغ فنه القمة . ولم يكن موتسارت يشتق موسيقاه من الماضي فحسب بل كان مجددا في نفس الوقت وداعيا للمستقبل . وهو الذي جمع بين الموسيقى الايطالي والفرنسي والالماني واوجد الاوبرا الالماني . وقد توفي فقيرا في وطنه النمسا دون ان يكتسب من موسيقاه .

بيتهوفن ١٧٧٠–١٨٢٧ :

يعتبر لودفيك فان بيتهوفن واحدا من اعظم الموسيقارين ومؤلفي الموسيقى في التاريخ إن لم يكن اعظمهم . وقد انحدر من عائلة اشتهرت بالموسيقى في جنوبي الاراضي المنخفضة ، وهاجرت الى المانيا فقضى بيتهوفن معظم حياته في فيانا مكرسا جهوده لتأليف الموسيقى . وقد درس على موتسارت وهايدن وكان تأثير الاول عليه عظيما . ولشدة اعجابه بموتسارت استمر في تأليف الموسيقى الكلاسيكية . لكن ابتكر اسلوبا رومانتيكيا خاصا به فيما بعد وتفنن فيه وجعل الموسيقى رومانتيكيا . وكانت سيمفونيته الثالثة (هيرويكا) التي ألفها سنة ١٨٠٤ تمجيدا لبطولة نابليون ، كما ان سيمفونيته الخامسة المؤلفة سنة ١٨٠٦ ، تعبيرا عن القومية الالمانية التي بدأت تشتعل نارها في هذا الوقت في المانيا . اما السيمفونية السابعة فقد ألفها على شرف مؤتمر فيانا الذي انعقد في سنة ١٨١٤ ، احتفالا بانتهاء دكتاتورية نابليون . وفي ١٨٢٤ ، عزف بيتهوفن سيمفونيته التاسعة التي تعتبر قمة الموسيقى . اما سيمفونيته السادسة الپاسترالي ، فتعبير رومانتيكي عن حياة الريف والرعي في غاية الدقة . وقد ألف بيتهوفن عددا من الكونسيرتو والسوناتا ، واوبرا واحد (فيديليو) وغير ذلك من الموسيقى الذي لا يضاهيه موسيقا في العذوبة والعمق والجمال .

شوبرت ، ويبر ومندلسن :

ومع ان الموسيقى الرومانتيكي بلغ ذروته عند بيتهوفن لكن عددا من الموسيقارن الالمان المعاصرين له كانوا سببا في انتشار الموسيقى

الرومانتيكي وشيوعه . ومن بين هؤلاء نذكر كارل ماريا فون ويبر Weber ١٧٨٦–١٨٢٦ الذي الف موسيقا وطنيا عن الحرب والانتصار (١٨١٥) ، واوبرا بمناسبة الاحتفال السنوي لمعركة واترو . اما فرانز شوبرت Schubert من مدينة فيانا فكان معجبا بشكسبير ولورد بايرن ، والف موسيقا في منتهى العذوبة والجمال وتعبيرا صادقا عن الرومانتيكية الشائعة في الموسيقى ومن بين مؤلفاته الموسيقية السيمفونية التي لم يكملها . وختاما نذكر فيلكس مندلسن الذي الف قطعة موسيقية كفاتحة لرواية شكسبير حلم في منتصف ليالي الصيف .

اما في ايطاليا فقد انتهج روسيني وبيليني نهجا رومانتيكيا ، واكد كل منهما على القصص الرومانتيكية في الموسيقى . وقد ألف روسيني حلاق اشبيلية (١٨١٦) ووليم تيل سنة ١٨٢٩ . بينما الف بيليني نورما ، وسومنامبولا (١٨٣١) وقد قضى الاثنان اواخر حياتهما في باريس .

وفي الختام ظهرت الحركة الرومانتيكية كرد فعل ضد الكلاسيكية التي سادت في اوربا منذ عصر النهضة . فخاب ظن كثير من المفكرين بالفلسفة العقلية والاستنارة بسبب ما وجدوه من المآسي في الثورة الفرنسية وعهد الارهاب وحروب نابليون . واعتقدوا ان ثقتهم بالعقل والتقدم سابقا لم تكن في محلها ، وان الانسان لا يسيّره العقل وحده بل للعاطفة دور مهم في تصرف الانسان . وكان هناك نقص في عصر العقل والاستنارة باهمال الناس للعاطفة . فلم يكن عصر الاستنارة

بأفضل من عصر الايمان في العصور الوسطى . وأخذ بعض المفكرين يقللون من شأن الفلسفة العقلية وقالوا بان التقدم العلمي والفكري لم يقض على الجهل والخرافات ولم يؤد الى اليوم السعيد الذي ينتظره البشر ، بل ادى الى العنف والارهاب والحروب الدموية . ولهذا اكد الرومانتيكيون على العاطفة اكثر من العقل ، ووجدوا من جمال الطبيعة ، والجبال والوديان والغابات والانهار والبحيرات مصدرا لالهاماتهم . وتغنوا بنبل الانسان الطبيعي كالهنود الحمر . وكان لبعض الفلاسفة الالمان ، وخاصة كانت وفيخته وهيكل ، تأثير عظيم في تقوية الحركة الرومانتيكية بتاكيدهم على تأدية الانسان للواجبات الاخلاقية ، واثارة النخوة القومية الالمانية وتحرير الوطن من سيطرة نابليون بوناپارت ، علما بان هؤلاء الفلاسفة الثلاثة كانوا مثاليين ، لكنهم طبقوا مثاليتهم في قضايا رومانتيكية كالقومية . وكان هيكل يؤكد على الروح ، والروح القومي ، وهز مشاعر القومية الالمانية لدى الاحرار والمحافظين .

وقد أثر ظهور القومية وانتشارها على تقوية الحركة الرومانتيكية . فقد سببت الثورة الفرنسية وحروب نابليون انتشار الحركات القومية في المانيا واسبانيا وفرنسا وايطاليا وصربيا واليونان وبولندة وفنلندة والنرويج ،واثارت عواطف القوميين وحماسهم الوطني فأخذوا يمجدون شعوبهم وينبشون السجلات التاريخية لمعرفة بطولات امجادهم والبحث عن الادوار التي لعبتها اقوامهم على مسرح التاريخ فظهر التأريخ القومي وأثر على الحركة الرومانتيكية وانتشارها .

References المراجـــع

المصادر العامـــه في التاريخ الاوربي الحديث

(1) Gottscalck, Louis. and Lach, F. D. Europe and Modern World (Chicago, 1951), V.I

(2) Hayes, Carlton. Political and Cultural History of Modern Europe (New york, 1936), V. I.

المصادر بحسب الاختصاص

(3) Monroe , D. the Middle Ages (Ne wyork, 1928).

(4) Waley, D. Later Medieval Europe (London,1968).

(5) Gilmore, M. The World of Humanism (Hafper. 1962).

(6) Green, H. The Renaissance and Reformation (Arnold, 1977).

(7) Breisach, E. Renaissance Europe : 1300 - 1517 (New york, 1973).

(8) Strayer, J. and Harbison, E. Main Stream of Civilization (New york, 1974).

(9) Koenigisberger and Mosse, Europe in the 16th Century (New york, 1968).

(10) O'Connell, M. R. The Counter Reformation (Ne wyork, 1974).

(11) Ogg, D. Europe In the Century (London, 1965).

(12) Pennington, D. H. 17th Century Europe (London. 1974).

(13) White, J. The Origin of Modern Europe (New-york, 1966).

(14) Davies, G. The Early Stuart (Oxford, 1959).
(15) Jones, D. The English Revolution : 1603 - 1714 (London, 1931).

(16) Anderson, M. Europe In the 18th Century (London, 1972).

(17) Ogg, David. Europe of the Ancient Regime : 1715-1783) (London, 1965).

(18) Bainton, R. Here g stand : the Life of Martin Luther (New york, 1956).

(19) Hobson, J. A. Euolution of Modern Capitalism (London, 1954).

(20) Weber, M. Protestan Ethics and the spitit of Capitalism (New york, 1950).

(21) Lunt, W. E. History of England (Marper, 1957).
(22) Trevelyan, G. M. History of England (Longman, 1958).
(23) Guérad, A. France : A Modern History (Ann - Arbor, 1959).

(24) Robes, J. E. Germany : A History (New york, 1961).
(25) Dill, M. Germany, A Modern History (Ann - Arbor, 1961).

(26) Pares, B. History of Russia (London, 1953).
(27) Vernadsky, G. A History of Russia (New Haven, 1967).

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٤٩٨ لسنة ١٩٨٢

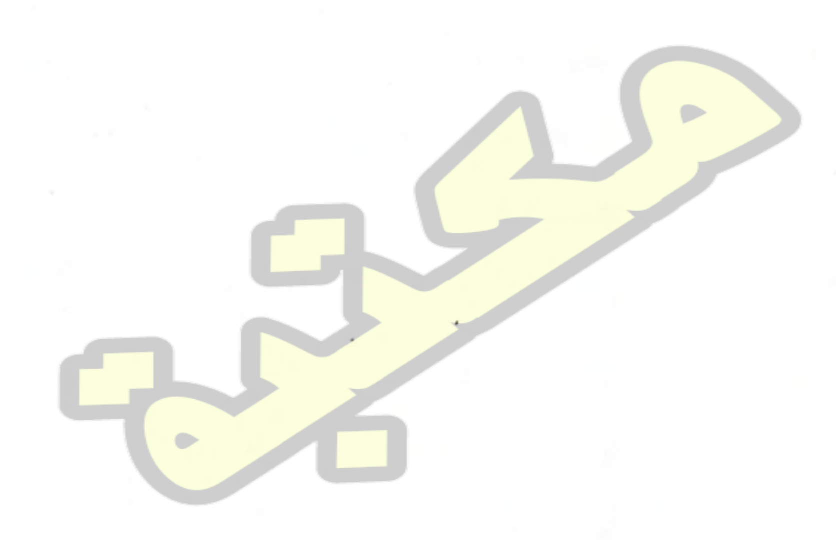
كمية الطبع ١٥٠٠ نسخة

اعتـــذار

نظرا لاختلال تنظيم حروف الطبع اثناء انتقالها من مطبعـة الى اخرى ، مما ادى الى حدوث اخطاء كثيرة في تركيب الحـروف والكلمـات والاسطر والفقرات . وقد حاولنا تصحيح ما يمكن تصحيحه في جـدول الخطا والصـواب لتعـذر اعادة التصحيح بعد طبع الكتـاب طبعتـه النهائية .. فنرجـو المعـذرة من القـارىء الكريـم .

الصفحة	السطر	الخطـا	الصواب
١٢	٦	، لون	وكون
٤٤	١٩	اسمع	اجتمع
٤٧	٥	شار	شارل
٤٧	٨	التشريعا	التشريعات
٦١	١	اقت	كانت
٧٩	١٩	لكنه فشل	لكنهما فشلا
٨٢	١٩	سمـ	سميت
١١٨	٢٠	العلمى	التقدم العلمي
١٢٢	٣		وضع السطر الثالث الذي اوله (باسعار ارخص) بعد السطر الاول الذي اولـه (المدينة في تسعير البضائع) .
١٢٩	١٣ـ١٤	ثرواتهم	بحكم ثرواتهم
١٤٤	٢١	٤٩٢	١٤٩٢
١٧٥	٦		

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٣	١	ينقل السطر الاول من صفحة (١٩٣) الذي اوله (لقد كان لكتاب) الى صفحة ١٩٦ ليصبح السطر الاول في الصفحة المذكورة	
٢٣١	٢	تلون	يمثلون
٢٣١	٦	خوريا	لخزينة
٢٥٦	٢٠	ينقل السطر الاخير الذي اوله كانت الى ما قبل السطر ٨ الذي اوله الحاميات الاسبانية	
٣٠٢	٦	ينقل السطر السادس الذي اوله (وقد سجن) الى ما بعد السطر السابع التي اوله (كان كروشيس)	
٣٨٦	٣	امر التسريح	امر البرلمان بتسريح
٣٨٦	٤	رفض	رفض ذلك
٤٠٥	٦	صبغه	سنه
٤٣٢	٥	ابنه	ابنه ثم حفيده
٤٤٣	٢	السطر الثاني من صفحة ٤٤٣ ناقص وهو بالشكل التالى (روسيا اليزابيت وجاء الى العرش بطرس الثالث الذي)	
٤٥٣	٨	ممتلكاتها	ممتلكاتهما
٤٥٦	١١	ثقة على	على ثقة



دار ابن الاثير للطباعة والنشر
جامعة الموصل


مكتبة زيد للكتب الإلكترونية والمصورة
دار ابن الأثير
للطباعة والنشر في جامعة الموصل
مكتبة زيد للكتب الإلكترونية والمصورة